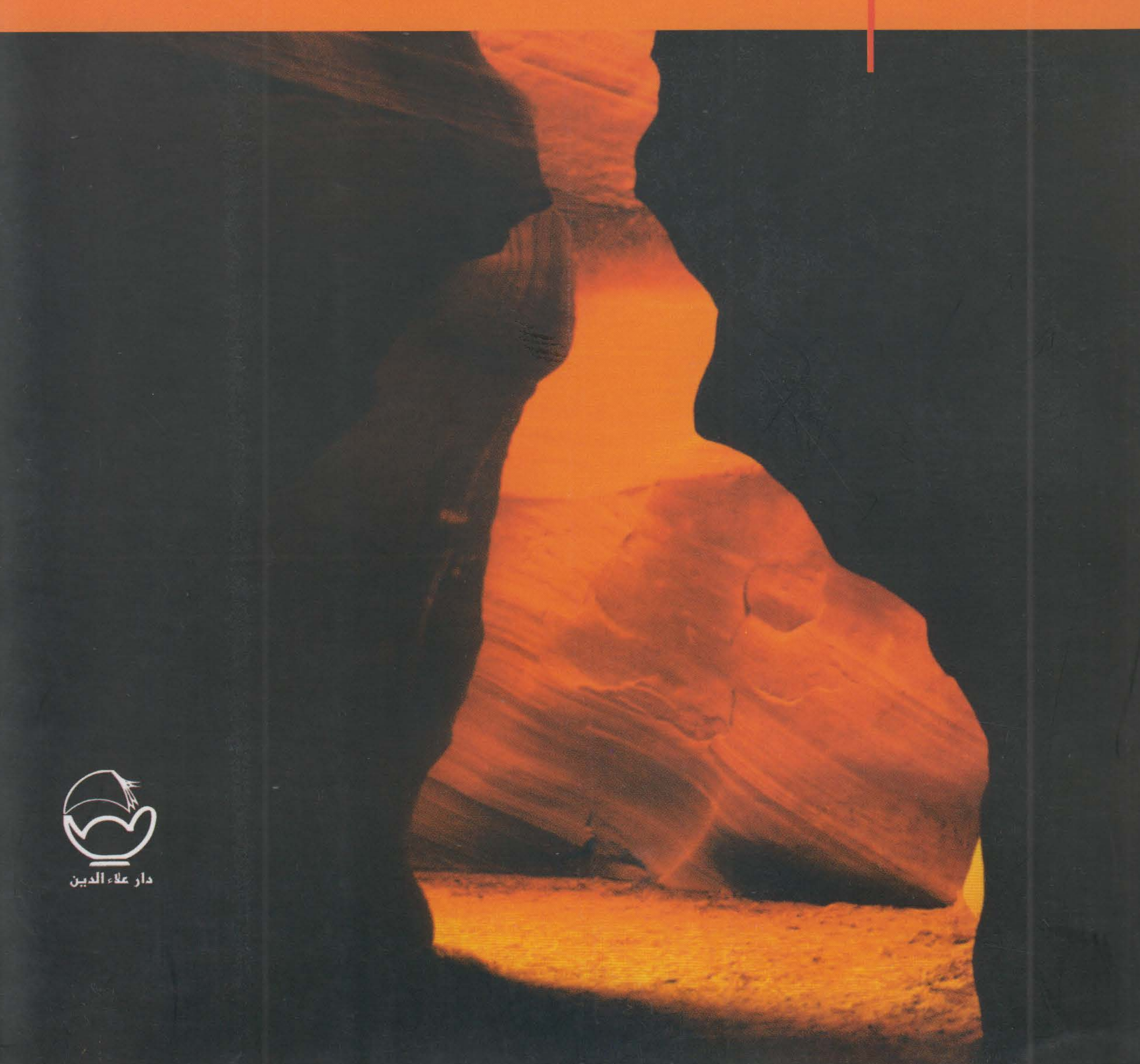
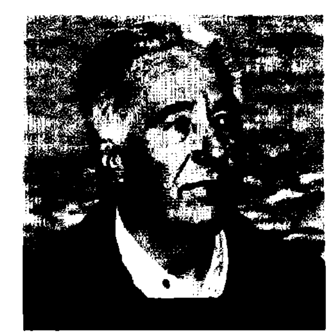
جون
باينس

أُسس التعامل والأخلاق

للقرن الحادي والعشرين

ترجمة أحمد رمُو





المؤلف: جون باينس

اديب وفيلسوف معاصر. دواصل نسلي ويعيش في سانتيمو ترجمت اعماله الى اللغات الانجليزية، الايطالية، البرتغالية، الالمانية، الروسية، البلغارية، واللاتفية.

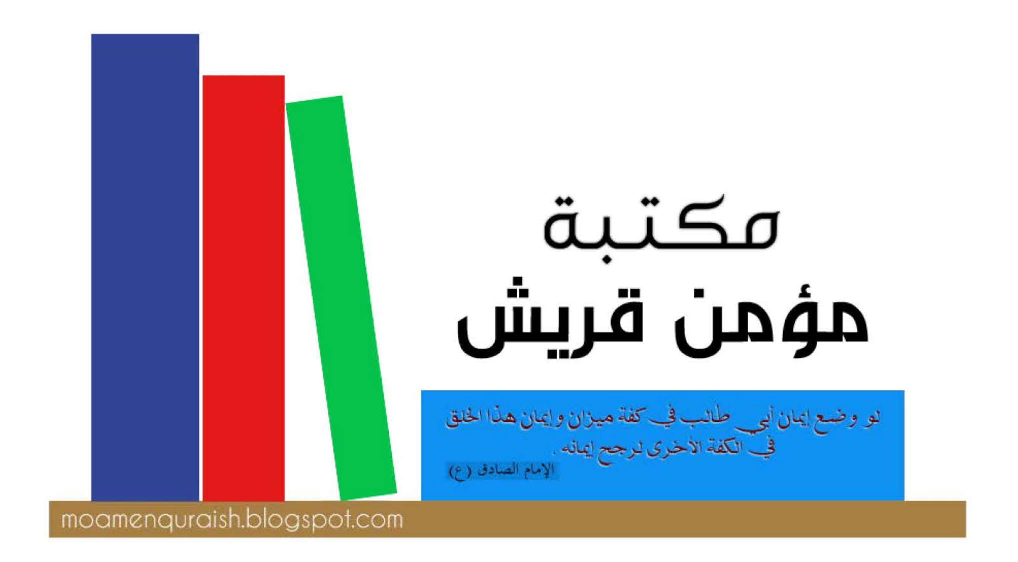
تمخضت نظريته الفريدة من نوعها عن فلسفة فعالة ومتاصلة، تدعو كلا من الرجل والمرأة للسمو بغرائزهم البدائية، والارتقاء بالذكاء.

يصف باينس فرضيته الاخيرة: فيزيائية الاخلاق قائلا انه من اجل الوصول الى كينونة بشرية مستقرة وفعالة فانه لا بد من توفر شرط اساسي وهو السمو باخلاق الانسان واعتماده منهجا اخلاقيا عاليا.

ويتابع المؤلف ان هكذا درجة من الاخلاق العالية هي اساس بناء الإنسانية وبدونها ينزع الفرد إلى فقدان اتصاله مع الحقيقة ويجرفه طوفان الحياة.

ان الاخلاق الحقيقة ضرورة للثبات امام كل المتغيرات التي تواجه الفرد عوضا عن ان يكون تابعا لها، مما يجعله سيد ظروفه واكثر فهما لذاته.

اسس التعامل والاخلاق للقرن الحادي والعشرين كما في جميع عناوينه السابقة يعنى باثراء وتناغم فهم الانسان لذاته ولعلاقاته مع كل ما حوله.



أسس التعامل والأخلاق للقرن الحادي والعشرين

Morals for The 21st Century

جون باينس

أسس التعامل والأخلاق للقرن الحادي والعشرين

ترجمة

أحمد رمُّو

مراجعة

الأستاذ محيي الدين	دراسات عليا في التربية وعلم النفس
الأستاذ حيدر الجردي	مجاز في الفلسفة
السيد عبيدة رمُّو	مجاز في الاقتصاد السياسي



منشورات دار علاء الدين

- **أسس التعامل والأخلاق للقرن الحادي والعشرين.**
- تأليف: **جون باينس.**
- ترجمة: أحمد رمُّو.
- الطبعة الثانية ٢٠٠٦.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين:**

  - الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيلينكو.**
  - التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير.**
  - الغلاف: **م. محمد طه.**
  - المتابعة الفنية والإخراج:

    أُسامة راشد رحمـــة

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية ، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

المحتويات

المقدمة.......... 9

الفصل الأول

العقائد الأساسية لفيزيا الاخلاق.......... 17

الفصل الثاني

الصعوبات التي تواجه التصرفات الأخلاقية.......... 25
1-حقيقة أننا نعيش في عصر الحشود.......... 28
2-الاستلاب في عصرنا.......... 35
3-خطأ نظام التعليم.......... 42
4-الطبيعة الذاتية للقيم الأخلاقية.......... 48
5-انحطاط مستوى الارتقاء عند الإنسان.......... 55
6-ضعف الشخصية عند الناس.......... 61
أسباب ضعف الشخصية والإرادة عند الناس.......... 63
أ-البحث المُلزِم عن اللذة.......... 63
ب-المبالغة في الحماية.......... 66
ج-الكسل والانحطاط.......... 67
د-الالتباس الجنسي.......... 68
هـ-القعود.......... 70
و-فقدان القيمة الذاتية.......... 70
7-التنويم البيئي.......... 74

8-فقدان الإجماع حول المبادئ الأخلاقية 81

الفصل الثالث

معايير خاصة بالكائن الإنساني.. 87

الفصل الرابع

القيم عند الإنسان العادي 95

الفصل الخامس

الخطايا والعيوب الأخلاقية 103
الزواج من غير حب 103
التهرب من ضبط النفس وتحمل المسؤولية 108
الصداقة الزائفة 110
التلاعب بالعقول والعواطف.. 114
التلاعب بالصورة 119
عدم الاستقامة 123
سوء استخدام السلطة 129
النظام المالي.. 135
الحسد 149
الأنانية 161
الفساد 174
الوسطية 183
الابتزاز الطفيلي.. 188
الانغماس الذاتي والرثاء للذات... 194
العيش من أجل الصورة... 197

الافتقار إلى الجدارة الفردية 205
جهل الخير والشر... 214
الاحتيال.. 221
الإجهاض 229
العادة السرية 252
علاقات ضد الطبيعة... 265
الزنى 271
الطلاق 279
السادية الماسوشية 286
إضعاف الأسرة.. 296
الراحة 308
الحقد 318
سوء استخدام العقاقير 326
النكث بالوعد 337
خداع السمع والبصر.. 343
الكحولية 350
المادية 359
التوقع دون استحقاق... 368
قواعد أخلاقية عشر... 376
رتب أهدافك الشخصية حسب أولوياتها 376
التزم بالخير وعاهد نفسك على الإخلاص.......................... 383

واجه عدم الاستقامة في سلوكك 390
ضع نفسك عاطفياً في موضع الآخرين 396
سيطر على نفسك 401
اخرج من جحرك العقلي 406
تقوية الأرادة وتصليب الشخصية 410
عش حياتك منسجماً مع الطبيعة 416
اعمل وفقاً لقانون المكافئ المساواتي 423
ابحث عن حقائق أكثر عمقاً 427
دراسة متأنية لشرعية الطبيعة 435

ملحق

دليل تجريبي على التأثير الفيزيائي السلبي لبعض الانتهاكات الأخلاقية 447
قياس الطاقة الكهرطيسية للجسم في مختلف العمليات النفسية 448
مقدمة 448
1-قواعد التجربة 449
2-المتغيرات التجريبية 458
3-الإجراءات التجريبية 459
(أ) قياس دم الطمث 461
(ب) قياس الطاقة الضائعة في العادة السرية 462
(ج) قياس الطاقة الكهرطيسية في الشرج 462
(د)قياس البذور الممغنطة في ظل مشاعر الغضب 463
4-نتائج التجربة 463
5-دراسة النتائج 469

مقدمــة

لماذا يجب أن يكون المرء صالحاً؟ وما معنى ذلك؟

وماذا يكسب المرء من كونه صالحاً؟

هل الصالحون أفضل من الفاسدين؟

وهل يكون المرء أسعد حالاً إذا كان صالحاً؟

إذا التزم القارئ بالمعايير الأخلاقية المقترحة في هذا الكتاب، فإنني أستطيع أن أضمن له ليس فقط مزيداً من السعادة، بل أيضاً نجاحاً حقيقياً في حياته. وأتحدث هنا عن نوع من النجاح يتجاوز، إلى حد بعيد، التوقعات الشائعة عند الناس؛ أعني أن الانتصار المهم فعلاً هو أن ينسجم أحدنا مع الأهداف التي خُلِق من أجلها؛ أن ينتصر في مسيرة الارتقاء التي تشمل أيضاً نجاحه في تصريف شؤونه اليومية.

لا يمكن للمرء أن يتخيل أن تكون الأخلاقية وسيلة فعالة لتحقيق النجاح في الحياة، ولكنها كذلك، لأن المرء الذي يتصرف وفقاً لدستور أخلاقي رفيع، يتوصل إلى الانسجام مع الطبيعة[1] . ونحن، في هذه المرحلة الحرجة من التاريخ العالمي، نحتاج، أكثر من أي وقت مضى، إلى التوصل إلى إجماع، إجماع لم يسبق له أن تحقق من قبل. ويمكن التوصل إلى اتفاق كهذا فقط من خلال وجود معايير أخلاقية تنبع من نموذج للخير الأسمى، جلي بذاته ولا يمكن إنكاره؛ فضيلة حقيقية، أكثر منها خيراً ظاهرياً فقط؛ خيراً يستفيد منه الناس بالتساوي في كل حال، وزمان، ومكان، ويمكن ممارسته كل يوم من قبل كل واحد؛ خيراً واضحاً جداً إلى درجة فيها يهتم كل فرد بتبنيه بعمق. والمكافأة الكبرى، أي مصدر السعادة الحقيقية، تتكشف للإنسان فقط عندما يطبق قواعد مناسبة، وعن طريق تحقيقه نتائج إيجابية، يصبح قادراً على تكوين الحافز الضروري لتبني هذه المعايير عموماً. وهذه المعايير السلوكية لم يبتكرها أحد. ولكنها منقوشة في ذاكرة الطبيعة، ويصل إليها المرء عندما يكون على درجة عالية من الوعي.

1-الطبيعة، في تعريف المؤلف، هي الكل الكوني الذي نعيش فيه، وهي في بعض معانيها المعجمية العالم الخارجي بكامله-المترجم.

إن نموذج الأخلاقية الذي أقترحه هو تصوير دقيق للقيم المتسامية[1] التي هي لَبِنات بناء الكون، أي الأشكال النموذجية الأصلية للطبيعة التي تشكل أساس إدامة الحياة. ومن الضروري أن يكيف المرء نفسه داخلياً مع هذه القيم لكي يَخْبُر الحياة على نحو مختلف- بطريقة مثمرة، وحافلة، وجميلة، وسعيدة إلى أبعد حد. وأظن أن معظم المشكلات السلوكية عند الناس تنشأ من النزعات العقلية الخاطئة والقاصرة إزاء طبيعة الخير المناقضة لطبيعة الشر-وأبعد من الإيمان البسيط، أو الفائدة، أو الراحة الشخصية.

أتطلع في هذا الكتاب إلى العمل بطريقة تقنية لتعريف الطيبة والخبث، وما معنى أن يكون أحدهم حليفاً لأي منهما. وبما أنني وُلدت وأنا أتمتع بهذه الملكة الحدسية التي عبرت عن نفسها منذ بداياتي، لذلك

لم أشعر بالحاجة إلى استخلاص هذه المعرفة من الكتب. وقد أرشدني هذا الحدس منذ طفولتي إلى محاولة إثبات حكمة الطبيعة في مدرسة الحياة. إن تعاريفي هي "صور الطبيعة"؛ أوصاف فوتوغرافية للشكل الذي فيه تترابط بعض القوى الحياتية غير المعروفة مع الإنسان والأشكال الأخرى الحياتية، بما يؤثر في أقدارها. وتصور عملية التغذية الراجعة[2] هذه أنظمةً واضحة المعالم وُجدَت قبل ظهور الكائنات الإنسانية على الكوكب بزمن طويل. وليس هناك من وسيلة أخرى أكثر نجاحاً من الالتزام بهذه المبادئ التي هي واقعياً "سبيل السماء والأرض".

لا يمتلك الإنسان أخلاقية ثابتة، وتخضع معاييره للسلوك إلى حد نموذجي، للمصالح ، والعواطف، والرغبات الأنانية، وظهوره الآني بمظهر الطيب. وهو، في بحثه عن السعادة والخير، يخلط بين الظاهري والحقيقي، وكثيراً ما يتحول كل شيء إلى رذيلة وفساد. فلا التعاليم الدينية ولا المبادئ الأخلاقية يمكن أن تمنع هذه التبدلات لأن الأفراد لا يتمتعون بمعرفة الخير الحقيقي في الحياة، ولا يعرفون الجائز شرعاً عند مقارنته بما هو موضع شك. فالفرد يخضع في حياته لعدد غير محدود من حالات الصراع الأخلاقي، حالات لا يدرك فيها تماماً القرار الذي يتخذه، لأنه لا يعرف بدقة السبيل الصحيح. ويشيع اللبس حول هذه المسألة. فقد أصبح الناس لايميزون بين "سبل الخير" و"سبل الشر،" وهكذا، تختفي الحدود الأخلاقية وتغيم قواعد السلوك، وتطغى عليها النزوات، ويسهل التلاعب بها.

1-أي الواقعة وراء نطاق الخبرة، ولكنها ليست وراء نطاق المعرفة-المترجم-

2-إشعار المتعلم أن استجابته صحيحة أو خاطئة بقصد مساعدته على التعلم-المترجم.

أرمي، في هذا الكتاب، إلى المساعدة على تبديد التحامل والجهل اللذين يحيطان بهذا الموضوع، وتعريف القارىء بالأخلاقية الحقيقية، بما يتجاوز النصائح والتفسيرات الشخصية، وتزويده بدليل شخصي إلى سبيل الفضيلة العليا. ولكنني أتوقع من المنافقين أن يهاجموا هذا الكتاب. والتعريف المعجمي لـ "النفاق" هو: تظاهر المرء بسجايا ومشاعر تناقض تلك التي يشعر بها أو يَخْبُرُها فعلاً."

والمنافقون هم أولئك الذين يميلون، من حيث المبدأ والجوهر، إلى المخاتلة والخداع. فهم أناس غير مخلصين يحاولون الظهور بمظهر كاذب لإخفاء عيوبهم، وعواطفهم، وأغراضهم الباطنية. إنهم أشخاص يعرضون أنفسهم كمثال للاستقامة والمصداقية ولكنهم يخفون شخصيات هي، في الواقع، زائفة وغير أهل للثقة. وهم أنفسهم من يبالغون في التمثيل عندما يواجهون أحياناً حقيقة واضحة، ليس لأنهم مذنبون أو متأثرون، بل لكي يخفوا إثمهم أو حالتهم الحقيقية.

لماذا يتظاهرون بالفضيلة والإخلاص؟

يحتاج الفرد إلى أن يشعر بأنه مقدَّر، ومحترم، ومقبول، ومحبوب من قبل الآخرين. ويظن ويشعر بأن الآخرين سيقبلونه فقط إذا بدا "صالحاً." ويعتقد أنه لن يكون مقبولاً أو محترماً إذا أظهر مواطن ضعفه. ويتعامل مع نفسه على هذا الأساس، فهو نفسه غير قادر على تقبل مواطن ضعفه. والأهم من ذلك، هو أن حاجة الفرد إلى الشعور بأنه محترم ومقبول ترتبط بحاجته إلى التأكد من أنه فرد. وتستحوذ الفردية على شخص ما، على نحو مرضي، فقط إذا قام أحدهم بتعزيزها عنده، لأن ذلك الشخص غير قادر على أن يكون فرداً مستقلاً ويختبر نفسه كفرد. فعالمه الداخلي ليس على درجة كافية من الاستقرار، والقوة، والاستقلال بحيث تجعله يشعر بالطمأنينة، التي تعتمد على عواطفه وقدراته الخاصة. فيستعيد هذا الشخص، في عالمه الراشد، ذكريات طفولته حول مشاعر الضعف والعجز حيث كان الآخرون (أبواه) لا يقبلون مواطن ضعفه؛ عندما كان يشعر بخوف شديد من أن أبويه إذا كفّا عن حبه فإنه سوف يموت، لأن الطفل، في السنوات الأولى من الحياة، يعتمد بصورة تامة وفعالة على رعاته من الكبار. يتكون هذا النموذج في الإطار الاجتماعي ويمكن تقييمه بالطريقة التي يتم فيها تقييم الشخصيات الحكومية البارزة. فلكي تحظى هذه الشخصيات بالاحترام، يتظاهر أصحابها بالطيبة على سبيل المراءاة، وهم عاجزون لوحدهم عن فهم معنى القيمة الذاتية لكي يثبتوا أنهم من ذوي الشأن. فهم موجودون نفسياً فقط من خلال الآخرين. ويحدث هذا مع الجميع، إنما بدرجات متفاوتة.

-بالتعاون مع العالم النفساني جوان بابلو فيلانويفا

من المؤسف أن يكون مجتمعنا مبتلى بالنفاق والتعالي وهذان النموذجان مغروسان عميقاً في عقول أبناء شعبنا، مما يمنعهم من تقبل الحقائق الواضحة، حتى وإن اصطدمت بتنكر اجتماعي كبير. فالنفاق هو أصل كافة الأهواء التي تحجب إدراك أية حكمة غير تقليدية. ويتيح للناس اللاأخلاقيين أن يظهروا بمظهر المتطهرين؛ ولمن لا يذكرون الله أبداً بطريقة صادقة أن يظهروا بمظهر المتدينين؛ ولمن لا يتحلون باللباقة أن يحطوا من قدر من يعرفونهم على حقيقتهم؛ ولغير الأخلاقيين أن يلتزموا بسلوك تقي وخيري ظاهرياً؛ وللمهملين من ذوي الرواتب أن يحتفظوا بخداعهم فيما يتعلق بالمؤسسات؛ وللمرضى جنسياً أن يتنكروا بقناع الطهارة والعفة.

فإذا أدركنا الأخلاقية الأصيلة، فإننا سوف نتغلب على عيوبنا ونقائصنا بدلاً من أن نبدد طاقاتنا في سبيل إخفائها، وتعزيزها، وحمايتها، وبالتالي، نتعلم معنى قيمة الذات. فالاقتناع العقلي بطريقة التصرف السليم تساعدنا على التخلص من خشية ألا نكون محبوبين أو مقبولين من قبل الآخرين، لأننا نكون قد حققنا نمونا بما يتفق مع المعايير الأخلاقية السامية. وعليّ أن أنصح القارئ بأن هذا الكتاب لا يشكل "وصفة أخلاقية" أو مجموعة من المفاهيم المهضومة مسبقاً بالشكل الذي لا يتطلب جهداً في التفكير بها لقبولها. فليس هناك ما هو أسوأ من الفضيلة المُلَبَّسَة بالسكر، أو الأخلاقية التي تلبس لبوس المصلحة وتُنظّر لحالات مثالية لا ترتبط بواقع الحياة.

يلتزم هذا الكتاب بنماذج مختلفة-إنه يمضي إلى أبعد من المستوى المعلوماتي الصرف، وبالتالي، يسمح للمرء أن يمارس أو يستعيد الفن الرائع لعمق التفكير لكي يصل إلى المستوى الحقيقي للمغزى، وهي مهارة في طريقها إلى الفناء على الأرجح.

وأخيراً، لابد لي من الإشارة إلى أنني لا أتحمل مسؤولية التعابير التي تُجتَزأ من نص هذا الكتاب، لأن مسؤوليتها تقع فقط على عاتق من يرغبون في أن ينسبوا إلي معنى محرفاً أو نزوياً لا ينسجم مع قصدي، ولا مع ما أردت شرحه فعلاً في كامل هذا الكتاب والذي أطلقت عليه تسمية فيزيا الأخلاق[1] Moral Physics.

المؤلف

1-أو الفلسفة الطبيعية للأخلاق، وهو مصطلح من ابتكار المؤلف كما يبدو، وقد آثرت تسميتها فيزياء الأخلاق تسهيلاً —المترجم.

الفصل الأول

العقائد الأساسية لفيزيا الأخلاق

العلم الذي يساعد المرء ضمن نطاق الكون على التفاعل الطوعي والواعي مع الطبيعة، بهدف الحصول على مكافأة متسامية، هو ما أدعوه فيزيا الأخلاق Moral Physics، التي يجب أن تتضمن أيضاً التفوق الأخلاقي والإنساني. وهي، على خلاف الأخلاقية التقليدية، لا تعتمد على الإيمان، وهذه عقبة كبيرة في سبيل غير المؤمنين. وعلى الأصح، إنها تعتمد على إدراك الإنسان والمعالجة الإرادية لمستوى وضعه العقلي ضمن نطاق الكون ككل. ويصل إلى هذه الحالة عن طريق إظهار ومعالجة الحالات الرفيعة وغير المألوفة للوعي، إضافة إلى تبني قيم وانضباط داخلي أكثر سمواً، حيث يؤدي كل منها إلى أعلى درجات النجاح والسعادة.

والمقاربة التي تعتمدها فيزياء الأخلاق تقنية بالضرورة، وتتركز، في الواقع، على الفهم والاختبار الشخصيين لميكانيكا العمليات المتعلقة بالطاقة التي تميز العلاقة بين الطبيعة والكائن الإنساني. أما الأخلاقية التقليدية فتعتمد على أسس دينية أو آيديولوجية وتُغرَس بطريقة آلية وسلبية. وهذا يؤدي حتماً إلى كبت الدوافع مما يؤدي أيضاً إلى عواطف هدامة، كالشعور بالذنب في الحالات التي فيها تكون التصرفات مضادة للمعايير الأخلاقية. والكبت ليس عملية صحية تستأهل النصح، وبمرور الزمن، تشكل حتماً نوعاً من "مرجل شيطاني" في العقل اللاواعي[1]. ولهذا السبب، يبدو أن تصعيد الغرائز هو الخيار الأفضل. وبما أن الأخلاقية التقليدية قمعية بشكل واضح ومتأصل، لذلك يمكن اعتبارها آلية يحاول بواسطتها الفرد أن يتخلص من الأفكار، أو الصور، أو الذكريات، أو يحتفظ بها في لاوعيه. وكلها ترتبط بدوافعه الفريزية التي تنشأ من "الْهُوَ". (تستخدم عبارة "الْهو" أو "الْهي" أو "الْهذا" في علم النفس والتحليل النفسي لذلك الجانب من الشخصية الذي يقع خارج "الأنا". وهو الجزء اللاواعي والأكثر عمقاً من النفس، أي عالم الغرائز، على عكس الجزء الواعي منها الذي يدعى "الأنا".) ولكن هذا الكبت لا يُدرَك، لأن هذه الدوافع تقع خارج نطاق السيطرة الواعية

1-خبرات كانت شعورية تم تخزينها في الذاكرة، ولكنها تؤثر في السلوك بطريقة لاشعورية. وقد تعود إلى الوعي في أي وقت-المترجم.

للفرد، مع أنها تكمن في داخله. وعلى الرغم من أن العقل الواعي لا يعرف الدوافع المكبوتة، فإن هذا لا يعني أنها غير موجودة. ولهذا، فهي تترسخ وتتراكم تدريجياً في العقل الواعي إلى أن تصبح وظيفية. ويترافق هذا بحدوث سلسلة من النتائج غير المرغوبة:

1-إذا كان الكبت غير ناجح، فإن الفرد سيستسلم لدوافعه، وسوف يسبب هذا لوم الذات، ومعاقبتها، والاستخفاف بها، وأخيراً، يحدث الانتحار بصورة حتمية.

2-وإذا نجحت آلية الكبت، فإنها سوف تعمل فقط على إذكاء النار تحت مرجل الغليان العاطفي للعقل اللاواعي، مما يؤدى إلى الإفراط في تغذية الدوافع المكبوتة. وهذا بدوره يؤدي إلى تدهور السلوك الواعي للفرد. وينبغي أن أشير هنا إلى أن نجاح الكبت يكون موقتاً عادة، لأن قوى الدفع تزداد بسبب تقييدها بالذات. وهذا يسبب، في مرحلة ما، عنفاً، وانفجاراً غريزياً، وبالتالي شعوراً بالذنب.

إن معظم الاضطرابات العقلية والعاطفية، كما يقول بعض المحللين النفسيين، يسببها الكبت، ومن المعقول تماماً أن يكون ذلك صحيحاً، لأن هذه الآلية تستتبع عادة نوعاً من الفساد الخلقي الذي يُكبَت. فعلى سبيل المثال، تشيع حالات الناس الورعين الذين، بسبب رغبتهم في أن يحافظوا على دستور أخلاقي سام، ينذرون أنفسهم للعفة مع أنهم لا يستطيعون أن يحولوا دون وصول مضمون القدرة الجنسية إلى خيالهم. وعندما يستسلمون لسلطانها الذي لا يمكن كبحه، فإنهم يطلقون العنان لكافة ضروب الصور الشبقة التي تسبب المراضة، والانحراف الجنسي، وأخيراً، الاتصال الجنسي غير الشرعي حتماً. وفي الوقت نفسه، تسبب شعوراً بالذنب لا يقل تأثيراً عن تأثير الخطيئة المرتكبة.

وفيزيا الأخلاق، على عكس الأخلاقية التقليدية، تتطلب تدرباً تقنياً، وواعياً، وتأملياً، لكي يصبح الفرد واعياً لدوافعه بدلاً من كبتها. ويحتفظ بها في "أناه"[1] الواعية، أي يواجهها، ويتولى أمر العناية التامة بها ويتقبلها على اعتبارها خاصة به، مع أنها غير ملائمة للسلوك الأخلاقي الأسمى. وينبغي أن يعمل، في الوقت نفسه، للتخلص من هذه الدوافع عن طريق التأمل الداخلي، لأنه كلما أخرجها إلى دائرة الضوء، كان سلطانها عليه أضعف. وعلى العكس، تمارس هذه الدوافع تأثيراً غير متناسب على سلوكه إذا كُبِتَت في عقله اللاواعي.

1-أي الـ "أنا" الخاصة به-المترجم.

فعلى سبيل المثال، لنفترض أنه نجح في مواجهة رغبة يحملها لناحية سفاح القربى الأمومي، وبنجاحه، أدرك أن سلوكه السابق كان يسيطر عليه عن طريق دافع لاشعوري لامتلاك أمه جنسياً، وهو عامل دَفْع يولّده الجانب الأكثر بدائية وبهيمية عنده. وعن طريق إدراكه بأن هذه الرغبة ترتبط بهويته الحيوانية، فإن اهتمامه بها لن يستمر كما كان سابقاً، عن طريق تسليمه بأنه لم يعد بحاجة لإشباع دوافعه الدنيئة، التي هي مجرد إلحافات بدائية تنتظر تصعيداً لاحقاً من الجانب الأسمى لديه. وسوف يدرك أيضاً أنه، على الرغم من احتفاظه بجزء حيواني، فإنه يمتلك أيضاً دماغاً متطوراً، ويشك بالحقيقة المتسامية حول أنه حامل الشرارة المقدسة[1]، ولذلك يختلف، إلى حد مثير، عن البهائم، مهما كان ميله إلى تجاهل هذا بين حين وآخر عندما يتصرف على نحو سيء.

فمن ناحية، يعمل إنكار الدوافع اللاواعية وكبتها على تشويش عقل الكائن الإنساني وعواطفه، ومن ناحية أخرى، تعمل العاطفة غير المكبوحة على إفسادهما وانحطاطهما. والحل الوحيد لهذا المأزق هو فيزيا الأخلاق، إنها سبيل التدريب النفسي الذي يرشد المرء إلى مواجهة طبيعته الدنيئة، فهو ملزم بتطهيرها، وتهذيبها، والتسامي بها من الموضع النيِّر لـ "أناه". وعليه أن يتحول إلى كائن إنساني طاهر وشفاف فعلاً دون شعور بالذنب أو الخطيئة، ويستجيب، دون قسر، لتصميم الخالق له لكي يصبح مهندس مصيره الخاص، متحرراً من خشية العقاب الإلهي.

هذا العمل الكبير هو الواجب الأكثر روعة وجمالاً الذي يمكن للفرد أن يباشره، لأن هدفه ليس فقط الارتقاء الفردي الخاص ، بل أيضاً تقديم نفسه كإسهام للمجتمع، كمثال لقيمة روحية تستحق التقليد. فإذا واصل المرء الهروب من عيوبه الخاصة عن طريق الإنكار الآلي لدوافعه الحيوانية وكبتها، فإن اعتلاله الروحي سيتفاقم بمرض عضال لايعرف العلم دواء له. ويختلف تطبيق فيزيا الأخلاق، إلى حد كبير، عما يُعرَف عادة بـ "التدريب، سواء كان عقلياً أو نفسياً، والذي يتكون عادة من طرق تكرارية آلية. ويتكون العمل التمهيدي بفيزياء الأخلاق من فهم المرء لنفسه بصورة عملية ولنمط علاقته مع الطبيعة. ولتحقيق ذلك، يجب عليه أن يضع سلسلة من المقدمات المعرفية، يعتمد بعضها على فيزياء الكم. وعليه أيضاً أن يضع اقتراحات لإجراءات يمكن إثباتها وتنسجم مع الصدى الشامل لتصرفاته وفقاً لمَلَكته الأخلاقية.

---

1 -فيض الخالق، أي صورته المطبوعة في داخلنا، إنها روح الإنسان الخالدة-المترجم.

يمكن لكل مهتم بصدق أن يتحقق مما أقوله من خلال ملاحظة ذاته بوسيلة بسيطة، على مدى سنة، لتعيين علاقة العلة والمعلول بين أخلاقية تصرفاته الخاصة والحوادث اليومية. وبالتالي، سيكتشف في حينه أن ما يحصده يتطابق دائماً في نوعيته الأخلاقية مع ما كان زرعه، مع أنه قد يبدو على خلاف ذلك في المدى المتوسط.

فما العقائد التي أشير إليها؟

1. نعيش في عالم ذكي واعٍ مجسم التركيب، يقتصر فقط على نمط واحد للطاقة الأساسية التي تدخل مع الكون، عن طريق التداخل المتعدد الأبعاد، في وحدة مطلقة في المستوى الأكثر عمقاً للحياة. ومهما يحدث لأصغر الجسيمات، فإنه يؤثر، في الوقت نفسه، على كامل التركيب، لأن هناك علاقة لا تنفصم بين كافة أجزاء العالم.

2. يمكن إثبات مبدأ التصوير التجسيمي[1] holographic principle (كل جزء يحتوي الكل)، عن طريق مكتشفات البيولوجيا الخلوية باعتبار أن كل خلية تحتوي على نسخة مطابقة للدَّنا[2] DNA الأصلي، تكفي لتكوين نسيلة[3] Clone وإعادة بناء كامل البدن.

3. وبناء على ذلك، فإن الكل هو "الخالق،" أي الطاقة الأولية الكلية القدرة والعالمة بكل شيء التي منها تفيض كافة أشكال الطاقة والمادة.

4. الطبيعة حساسة تماماً للأفعال والطاقات الحيوية التي تنبع من الكائن الإنساني، والتي تحملها، بشكل حتمي، في رحمها.

5. نحن كائنات هجينة تطورت من حيوانات، ولكننا أحرزنا بعض الصفات التي تميزنا عنها، صفات نسميها قدرات إنسانية، يجب أن نعمل على تطويرها، بواسطة أمر أخلاقي، إلى أقصى تعبير لها.

6. كل شخص مقدس أساساً لأنه يحمل في داخله الشرارة المقدسة، أي فيض الخالق.

7. خلقنا غير كاملين، وهكذا يجب على كل واحد أن ينجز مهمته، ويقوم بإكمال

1-التصوير التجسيمي Holography، طريقة لتكوين صورة ضوئية ثلاثية الأبعاد لجسم ما، وذلك بالتسجيل على لوح فوتوغرافي لأشكال التداخل بين الضوء المترابط المنعكس عن الجسم، والضوء الذي يأتي مباشرة من المصدر أو بعد انعكاسه عن مرآة-المترجم.

2-الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين Deoxyribonucleic Acid-المترجم.

3-نسخة-المترجم.

نفسه من خلال تجسد مادته. وعلى كل منا أن يفك شيفرة ظروفه الحياتية الخاصة لإحراز الحكمة والقيم المرافقة لها.

8. الهدف من حياتنا هو الارتقاء بالوعي الفردي، الذي يتكون، في الواقع، من خلال تطوير وتوسيع الصفات الإنسانية، التي تتعارض مع الصفات الحيوانية، مع أن هذا الهدف قد أُغفِل تحت تأثير المطاردة غير المقيدة للحصول على المتعة الحسية كهدف رئيسي.

9. نحن كائنات مبدعة، لأن الطاقة الفيزيائية التي تتولد في أفكارنا، ومشاعرنا، وأفعالنا هي نبضات فوتونية حيوية Biophotonic pulses تُقذَف إلى الفضاء لكي تتفاعل مع قوى الطبيعة الكونية بقدر ما تؤثر وتتأثر بها.

10. كل جسيم إنساني يُعدِّل الطبيعة بقذف فوتوناته الحيوية، في حين تقوم الطبيعة، في الوقت نفسه، باستقبال الطاقة التي تحتاجها لتجديد التوازن الكوني من خلال تصرفنا.

11. "النظير يجذب النظير" حالما يتم الحمل به في رحم الطبيعة، حتى إذا كانت إصدارات الفرد بنَّاءة، وإيجابية، ومنسجمة، فإنه سوف يُجازى بتدبير مكافىء.

12. يعود التوازن الطبيعي على الجاني بتفاعل سلبي مكافئ إذا كان قذفه للطاقة هداما، أو قذرا، أو إجرامياً، ويزداد هذا التفاعل قوة بدرجة مهمة، ويمكن تفسيره على أنه عقاب عادل جزاء الانتهاك الأخلاقي.

13. الحيِّز الكوني مترابط من الناحية التجسيمية، والفرد يتفاعل مع الطبيعة بصورة مستمرة وغير مقصودة، وبهذا يحافظ على استمرار التغذية الراجعة بالطاقة، مع النتائج المذكورة آنفاً.

14. تحمل "البيضة الكونية"، على نحو لاعكوس، مقذوفاتنا الفوتونية التي ترتحل في الكون بسرعة التفكير الإنساني، كما تفعل النطفة النشيطة.

15. سوف ندفع حتماً ثمن خطايانا ونُكافأ على فضائلنا، بغض النظر عن رأينا حول المسألة. ولا يُفترَض بأحدهم أن يصدق هذا لكي يحصل على الثواب أو العقاب الذي يناسب نوعية إصداراته الشخصية.

16. "من يخطىء، يدفع" بغض النظر عن نواياه، سواء كانت حسنة أو سيئة.

مفهوم وحدة الكون ليس جديداً، لأن العالم، كما يقول أرسطو، منظم بطريقة فيها تتفاعل كافة أجزائه وكأنها كائن حي. وقد أثبت هذا مؤخراً عالم الفيزياء الشهير، ديفيد بوم، في مؤلفاته حول "الوحدة الكلِّيَّة التركيبية للكون." وبطريقة مماثلة، يمكن اختبار

المقدمات المنطقية التي وردت أعلاه، بصورة عملية، في معركة الوجود اليومي، وذلك عن طريق معاينة قانون العلة والمعلول وكيف يحدد، بعناد، أقدار الناس.

يكمن جزء كبير من تطبيق هذه المعرفة في تحكّم المرء باهتزازات طاقاته الخاصة، وهو تحكّم لا علاقة له بالكبت بل بتصعيد الليبيدو[1] ورفع مستوى وعي الفرد. ومن الواضح أنه عندما يدرك شخص ما، من تجربته الحياتية الخاصة، أن "الفضيلة مربحة" وأن "الإساءة الخلقية غير مربحة،" فإنه سيتعلم حب السلوك الفاضل لمجرد حقيقة أنه مفيد له ولبقية العالم. وعندما يدرك أن النجاح والسعادة يعتمدان، إلى حد كبير، على السلوك الأخلاقي الذي لا تشوبه شائبة، فإن هذا سوف يدفعه إلى الاستجابة إلى دستور أخلاقي أسمى. إن كل رجل أو امرأة تتصرف وفقاً لمعايير "فيزيا الأخلاق"، سوف تخبُر فوائد الانسجام الداخلي الذي يسببه ميل دون غضب، أو حسد، أو امتعاض، وتَجدُّد بهجة الحياة بانسجام تام مع الطبيعة.

إن النموذج لما يُعتبَر نجاحاً لم يعد يمثله حصراً التأثير الاقتصادي فحسب، بل أيضاً الوصول إلى بُعدٍ متسامٍ من خلال تحقيق الهدف الحقيقي لحياتنا، أي ارتقاء الوعي الفردي. ما من شيء في الحياة أكثر فائدة من الفضيلة الواعية التي نقترحها هنا، لأن الحيز الداخلي لدى الفرد هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يتحكم فيه باستمرار. والدليل على أهميته الحاسمة هو أنه موجود في العالم الباطني إلى الحد الذي يمكن فيه أن نقوم، في النهاية، بتفسير ودراسة أي نمط نخبُره من المادة. فالشخص غير المتدرب يعيش حياة لاواعية، وخرقاء، وغير منضبطة، ويكون أكثر ميلاً إلى المعاناة من الألم، والفشل، والسقام. أما من يمارس فيزيا الأخلاق، فيمكنه أن يعيش تجربته اليومية بوعي وفعالية-يبني على هذا الأساس أسلوباً حياتياً قوامه دوام الوفرة والسعادة، خالياً من الشعور بالذنب والامتعاض. فكل واحد منا يحصد ما يزرع، والطبيعة تغل له ضعف ما يزرعه فيها ألف مرة؛ ولكن من يزرع الريح يحصد العاصفة؛ فلنزرع القمح لكي نحصل على الغذاء.

يبقى الشخص الذي لا يتحكم بطاقته الجنسية أسيراً لرغباته، تلك الدوافع البهيمية المنحطة والساحقة، التي تستعبد الـ "أنا" إلى مثيرات زائفة، كالغيرة، والحسد، والامتعاض، وغيرها. إنها رغبات تسمم الدم وتثقل الفؤاد. وتسبب سقام الجسم والروح. إن مشاعر الإحساس بالذنب عند الفرد تسببها الحاجة الواعية إلى العقوبة، التي كثيراً ما تعبر عن

1-الطاقة الجنسية-المترجم

نفسها على شكل فشل يواجهه في مهنته أو في حبه. ولهذا، إذا تمكن من تفادي هذا العبء، فإنه يمكن أن يخبُر السعادة التي لا تعرفها إلا قلة من الناس. فالإحساس بالذنب يجعلنا ضحايا سهلة لمن يبحثون عن ذبحنا من خلال هذا الشعور، بينما لو كنا على قناعة بأننا نتصرف على نحو سليم، وأخلاقي، وغير معيب، لأصبحنا أكثر ثباتاً وقوة.

عندما يقترف أحدهم عملاً مخزياً، فإنه يولّد نبضة فوتونية تدميرية تشوش تناغم الكون وتوازنه. وبذلك يعرِّض نفسه إلى رد فعل دفاعي من قبل الطبيعة التي تلِد ذرية من الطاقة. وهذه الذرية هي نواة مغنطيسية فاسدة سترافقه بقية حياته، فتتغذى من طاقاته وتفسد صحته. إنه وجود سلبي ذلك الذي يمكن أن ندركه عن طريق الحدس عند الناس من ذوي السلوك السيء.

إن أي تصرف، أو شعور، أو تفكير، أو دافع، بنَّاء أو هدام، يحدث في المستوى الفريزي سوف يتجسد، إلى الحد الذي معه نتلقى، بشكل حتمي، ارتداد اللهيب الطبيعي لتأثيره سواء كان هذا التأثير إيجابياً أو سلبياً، حسب طبيعة البذرة التي بذرناها. وهكذا، فإن الإنسان هو وليد أعماله بالمعنى الأوسع للكلمة. فذاك الذي يمكن أن يفهم ويؤيد ما يفهمه لنفسه، ويتقبل هذا، فإنه لن يحتاج إلى محظورات أخلاقية إلزامية لأنه سيتصرف دائماً بقناعة أنه لكي يتلقى ما هو أفضل، عليه أولاً أن يقدم ما هو أمثل.

الانحراف عن التوجه الأخلاقي السوي يحمل كثيراً من الناس على تبني مواقف لاأخلاقية، أياً كانت منزلتهم الثقافية أو الاجتماعية. ويحدث هذا، على الأغلب، بسبب ضعف مبادئهم، أو بسبب جهلهم فقط-وأحياناً بسبب حقيقة أنهم ينزلقون إلى سلوك خاطئ، يسلِّمون في النهاية، بحكم العادة، على أنه سلوك "طبيعي".

فعلى سبيل المثال، هناك عادات جنسية كانوا يصنفونها في الماضي باعتبارها انحرافات، ولكنهم راحوا يسمونها في هذه الأيام "تغيير في السلوك الجنسي"، وذلك على سبيل التلطيف. ولكن هذه الأنماط السلوكية، على الرغم مما يمكن أن يقوله البعض، لا تعمل فقط على إفساد وانحطاط الصحة العقلية والجسدية، بل أيضاً تقوضها وتخربها إلى حد خطير.

وهكذا اخترنا بعض العيوب الأخلاقية التي تفضي إلى استخدام التجربة، لكي نختبر تأثيراتها السلبية. وأشير هنا إلى الاستمناء، والعلاقات الجنسية خلال فترة الحيض عند المرأة،

والاتصال الجنسي عن طريق الشرج، والإشعاع التدميري الذي يكتسبه الناس تحت تأثير الغضب والكره. وتُبيِّن نتائج هذه التجارب بوضوح كيف يحدث هبوط مفاجئ في الطاقات الحيوية عند الفرد-كيف تبدو الأمواج الكهرطيسية المرئية شبيهة بتلك التي تنتج مواد سامة عند الكائن الإنساني الحي، كالكلور، مثلاً. ويثبت هذا الصفة المعاكسة للطبيعة لهذه الممارسات ، التي تولِّد حالة عضوية هدامة عن طريق التضاد مع التناغم الكوني. إن الحسد، والكره، والغيرة، والتشاؤم، والامتعاض، هي قوى هدامة تنتقل بالعدوى، وما أن تتمخض عن نتائجها، حتى ترتد على من سببها وتمارس عليه تأثيراً سلبياً.

يمكن أن ندرك كيف يؤثر السلوك الأخلاقي للفرد على كامل بيئته، القريبة والبعيدة على حد سواء، فيعدِّل التوازن التصويري التجسيمي للكون. فنحن نعيش في بيئة كونية تحكمها علاقات متبادلة فيها تؤثر أفكارنا ومشاعرنا حتى على الزوايا الأبعد في الكون. ونحن من يرسل الطاقات الاهتزازية التي تُتخم بيئتنا الطاقيَّة، فإذا كنا متشائمين، فإننا ننشر تشاؤماً، وهذا، بدوره، يُصدر اهتزازات تثير حساسيتنا لقوى أخرى من النمط نفسه. وإذا أصدرنا موجات من التشاؤم، فإننا سنجتذب حوادث مشؤومة، ولكن إذا نشرنا سعادة وتفاؤلاً، فإننا نتعاطف مع اهتزازات مماثلة تؤثر على حياتنا عندما تصل إلينا. وعن طريق نشر الحب، أو الانسجام، أو التسامح، فإننا سنجتذب اهتزازات من نمط مماثل.

إذا لم نضع في اعتبارنا البند السابع من العقائد الرئيسية لفيزيا الأخلاق، حول أننا كائنات خلاقة بالمعنى الكامل للعبارة، فإننا نسبب الفشل للكثيرين من الناس، لأن هؤلاء يشبهون الحجارة غير المصقولة ما داموا لم يروضوا طبيعتهم الحيوانية على ضبط النفس الضروري من أجل الإرسال الواعي لنبضات فوتونية أعلى-الإصدارات التي تكوِّن القيم المتسامية-لمعارضة تلك التي تكوِّن نزوات عاطفية. وبالتالي، فإنهم عادة يحصدون الكرب نتيجة للعدد الكبير من الظروف المؤلمة أو الهدامة.

إن النجاح الفائق في الشخصية هو نجاح روحي أكثر منه اجتماعي وهو الذي يمثل النجاح الفردي لكينونتنا على امتداد مسارها الارتقائي، الذي هو الفضيلة السامية التي يمكن أن يطمح إليها الكائن البشري. ولكن، يجب ألا نظن بأنه يمكن انتقاء هذا الاختيار بحرية، لأنه منذ اللحظة التي فيها نولد كائنات بشرية، لا يكون لدينا بديل سوى واحد من أمرين، فإما أن "نكرر السنة الدراسية إلى ما لا نهاية" أو نرتقي روحياً، لأن هذا هو هدف

"مدرسة الحياة." والمشكلة هي أن الناس يفترضون أن هذه القاعة العظمى[1] aula magna وُجدَت لمتعتهم الخاصة، دون أن يدركوا فعلاً أنها الطريق إلى الكمال. وهناك أيضاً من الناس من يعتقدون خطأ، عندما يسمعون شيئاً حول هذا الموضوع، أن النوع، وليس الفرد، هو الذي يجب أن يتطور، وبالتالي، فإنهم لا يباشرون مسؤولية شخصية فيما يتعلق بارتقائهم الخاص. والشيء المؤكد هو أن البطء الظاهر الذي فيه نمضي نحو الهرم والاقتراب من الموت يجعلنا راضين في خضم أحلامنا وخيالاتنا الخاصة، والأفراد الاستثنائيون فقط هم الذين يقررون تحقيق نجاحهم التطوري.

في هذا الكون ذي العمليات المتداخلة إلى حد بعيد، يسبب نجاح كائن فرد أو فشله أصداءً كونية تؤثر في النهاية على كل شكل من أشكال الحياة (حتى تلك الموجودة على الكواكب الأخرى، والكوكبات، والمجرات؛ وحتى على الخالق نفسه[2]). ولكن المهم ليس مدى بعدنا عن طريق الكمال، بل المهم هو أن هذا البعد، مع ذلك، يعتمد على إرادتنا الخاصة وحريتنا في اختيار هذا الطريق حتى على الرغم من أن طرق الله قد تبدو غامضة. فتضيع الأكثرية على جانب الطريق عندما يسلكون طرقاً تبدو جذابة ولكنها لاتعمل إلا على تضليلهم (لأن طبيعتهم الخادعة أو الخيالية تقودهم عادة إلى ذاتانية[3] نرجسية هي في حالة طلاق تام مع الطبيعة بدلاً من أن تقودهم إلى ارتقاء حقيقي).

وما لم نجد الطريق الصحيح إلى الارتقاء، فإننا سوف نبقى كالهائمين الضائعين في قفر الأوهام، يتملكنا إحساس بعدم الإشباع والفراغ الداخلي؛ وسَنُصاب بظمأ أبدي لا يمكن إرواؤه لأن الربيع الذي ننشده في الخارج موجود، في الواقع، داخل أرواحنا. وتساعدنا فيزيا الأخلاق على اكتشاف المدخل الذي يؤدي إلى مصدر الحياة الأبدية التي تكمن في داخلنا. ولكن كما يحذّر الكتاب المقدس: "كُثُرٌ هم المدعوون، ولكن المختارين قلة،" لأن هناك عدداً لا يحصى من الأبواب الخادعة المصممة لتضليل الحاج بطريقة أو بأخرى.

ومع ذلك، من هو الذي يختار؟ إنه الفرد بالذات الذي يؤهّل نفسه أو يجردها من الأهلية، اعتماداً على وضوح وعيه، الذي هو نتاج ارتقائه السابق. وكلما كان راضياً داخلياً

1-قاعة اجتماعات في مدرسة أو جامعة ألمانية-المترجم.

2-أظن أن هذه العبارة تتنافى مع التوجه الإيماني أو الروح الإيمانية لأن الله في الأصل هو موجد كل شيء بما فيها هذه التبدلات-المترجم.

3-نظرية تقول إن المعرفة كلها تعتمد على الخبرة الذاتية وعلى الذات المُدرِكَة-المترجم.

أكثر، كانت قدرته أكبر على تأمل الواقع بموضوعية. وما أدعوه "الرضا الداخلي" يقابل المجموع الزمني للحظات التبصر الصافية التي تسهم، بشكل أساسي، في كينونة الكائن، على خلاف التعلم الميكانيكي الذي يتم في حالة "نعاس" (بين النوم واليقظة) التي تؤدي فقط إلى تدريب عقلي.

من المهم أن ندرك أن مفهوم الارتقاء الذي ألتزم به لا يمت بصلة إلى المفهوم الدارويني فيما يتصل بالنوع. وما أقصده هو الارتقاء الفردي، الذي يمكن أن يحدث فقط في مستوى "الكينونة،" لا في مستوى العواطف أو المعلومات الدماغية. وبالتالي يكون النشاط الطبيعي للكائن البشري مجرد نشاط قبل تطوري، لأن خبرته المعرفية المألوفة تفتقر إلى العمق اللازم للوصول إلى المستويات التي توجد فيها "الكينونة." والشخص الذي يهيء نفسه لذلك بجد هو الوحيد الذي يمكنه أن يخرج من تلك الحالة التي تشبه حالة اليرقة لتطوير وعي أعلى يساعده على توسيع "كينونت"ه، التي هي ليست أقل من روحه أو شرارته المقدسة. ولذلك، فإن التطور الحقيقي يمكن أن يحدث فقط في مستوى "الكينونة،" من حيث تفيض التأثيرات المفيدة إلى الجسد المادي. وفيزيا الأخلاق تقود إلى هذا النمط من النجاح، وكل من يحققه سوف يكتشف أن الإبحار هادئ في باقي الرحلة.

لقد انحرف الجنس البشري عن مساره التطوري، ومن الملح جداً أن يعود إلى الطريق، وإلا سوف يضنيه مستنقع الإقفار الأخلاقي، والعاطفي، والمعرفي. مع ذلك، ليس هناك ما هو أكثر تخويفاً للساعي الذي تعود على التعامل مع الأوهام الخادعة من أن تواجهه فجأة فرصة عقلانية موثوقة يمكن إثباتها على المستوى الشخصي. فالآلية الشيطانية لخداع الذات يمكن أن تقوده بسهولة إلى التجرد مباشرة من الأهلية أو إلى تفادي المنظور المرعب، لأنه ينذر بانتهاء مطاردته لأحلامه المتبخرة ويتطلب منه التزاماً جديداً بالواقع الحقيقي عن طريق تركيز تفكيره على العمل.

إن الطبيعة النيِّرة للحقيقة يمكن أن تبهر بصر أولئك الذين أدمنوا خداع الذات أو الطوباويات الفارغة، وبذلك يُحدِثون عائقاً عقلياً وانفعالياً. وقد يؤدي هذا إلى رفض الفرصة العظيمة التي يمكن أن تتوفر لشخص في هذه الحياة: التوحد مع الخالق من خلال الانصهار بروحه الخاصة. والشرط التقني الضروري للارتقاء التطوري دون "تكرار الجرعات الدوائية" هو أن يضع المرء حداً لأوهامه الشخصية حول الصفات والقدرات الخيالية التي يظن أنه يتمتع

بها، في حين يكون مفتقراً لها في الواقع، لأنه لا يمكن أن يستخدم علاجات فعالة دون أن يدرك مدى حدوده الخاصة.

في كل لحظة، يكشف لنا الواقع الذي لا يمكن الإفلات منه أن القشرة السطحية للحضارة تميز الإنسان الذي نراه اليوم من الإنسان البدائي. فكثيراً جداً ما تنجرف هذه القشرة تحت تأثير العواطف، التي تقود الناس إلى اقتراف أعمال تتناقض مع قيمهم الأخلاقية السامية. ويسود الاعتقاد اليوم بأن الإنسان يتمتع بحرية الإرادة، وهي طاقة في سبيل حرية الاختيار وحرية الضمير، ومهارة لإدراك الواقع كما هو فعلاً، وقدرة على التصرف بطريقة متحضرة. ولكن، حتى القراءة السريعة للصحف اليومية تميل إلى دحض هذه الافتراضات، لأنها تُبرز، بدلاً من ذلك، صورة "حضارة بربرية" أو "بربرية متحضرة."

إن خوف الفرد من معرفته لنفسه ومن تقبله لأخطائه وإخفاقاته يدفعه عادة إلى تكوين رأي مُنَمْذج حول نفسه إضافة إلى المغالاة في تقييم قدراته. وبالمثل، فإن الفرد يبرر المشكلات التي يواجهها عندما يعزوها إلى أسباب خارجة عن إرادته أو مستقلة عنها. ولكن لا يمكنه أن يصل إلى الامتياز الإنساني دون أن يجتاز محنة ويعترف بنفسه كما هو فعلاً، بكل عيوبه، وإخفاقاته، وشوائبه-مجرداً من الصورة الزائفة التي كثيراً ما يستخدمها لخداع نفسه وإغراء زملائه.

ووعي الفرد لمواطن ضعفه وحدوده، بالمقارنة مع إمكاناته، يجعله أكثر ميلاً إلى إدراك الحاجة إلى العمل في سبيل التحقيق الذاتي للروح، لأن الروح لاتعترف بأي حد بين ما هو بشري وما هو إلهي. والإلهي هو الذي يمكنه يلغي، مرة واحدة وإلى الأبد، الامتيازات الاجتماعية، وبذلك يساوي بين كافة الناس بمعنى جوهر شرارتهم المقدسة. فإذا أراد أحدهم أن يتطور، فإنه يجب أن يسلّم أولاً بضآلته الخاصة، وهي مأثرة بعيدة الاحتمال لأنه يتشبث بقناع الصورة. والشرط الأساسي بالنسبة لمن يريد أن يسلك سبيل الحكمة، أن يكتشف أولاً مدى جهله ونقصه. إن من يُغفلون هذا الشرط، غير مستعدين لمحاولة تطبيق مهمة إكمال العمل العظيم للخالق على أنفسهم. ولا بد أنهم راضون عن "تكرار السنة الدراسية" إلى ما لا نهاية، " لأنهم لم يتعلموا دروس الحياة، بل احتفظوا، بدلاً من ذلك، بالحالة اليرقية[1].

يبالغ البشر في تقييم قدراتهم، ظناً منهم بأن أحدهم، لمجرد حقيقة كونه يمتلك دماغاً

1-أي بقاء اليرقة على وضعها دون أن تتطور إلى فراشة-المترجم.

بخصائصه المعروفة على النطاق الشعبي، يمكنه أن يحصل على المعرفة والحكمة. ولكن هذا الموقف يتجاهل تماماً حقيقة أن أكثر المَلَكات أهمية، تلك التي يمكن للفرد أن يتمتع بها، تبقى في حالة كمون، بانتظار تطويرها لكي يمكنه أن يصبح إنساناً مثالياً وكاملاً - عندما يتخلص من الآثار النفسية لإرثه الحيواني. وفيزيا الأخلاق تهدف إلى إعادة اكتشاف سبيل الارتقاء، لكي يحرز الفرد الخير الأسمى، والسعادة الدائمة في عالم هادئ، ومسالم، وموحد، ومستقيم أخلاقياً، ليس فيه أناس مهمشون أياً كانوا. وبذلك تعيد للإنسان شرفه، وشهامته، وكرامته، وأخلاقه السامية.

الصعوبات التي تواجه التصرفات الأخلاقية

ينتظر المجتمع من كل واحد ويطالبه بأن يلتزم، على نحو كاف، بالمعايير التي يعتبرها ملائمة، ولكن هذا الدستور الأخلاقي يُنتَهَك في كل لحظة، سواء بالارتكاب أو الإغفال. وعندما تقع هذه الأخطاء التي تتراوح من الجنح الصغيرة إلى الجرائم الخطيرة التي يعاقب عليها القانون، فإنها تُبرَّر بمختلف الذرائع. وكذلك عندما يقوم شخص من الطبقة الدنيا بارتكاب جريمة ما، فإنها تُعلَّل عادة بوصفها نشأت من "عدم توفر الفرصة،" أما إذا كان الجاني من الطبقة العليا، فإن جريمته توصف نموذجياً بأنها "فساد."

قد يتساءل المرء عما يقود الناس إلى أنماط سلوكية لاأخلاقية أو فاجرة. ولا ريب في أن هذه الأنماط السلوكية تنشأ من خلال البحث عن السعادة، والفشل في تحقيقها. فكما قال أرسطو، "كل البشر يبحثون عن السعادة من خلال فعل الخير." ولكنهم، لسوء الحظ، يخلطون بين الخير الأسمى والفضيلة الظرفية والظاهرة، ويُعرِّفون ذلك بوصفه متعة، مع أنهم يخصون الألم بنظرة سلبية. ومن هنا، فإن الناس الذين يحملون نوايا طيبة، ينتهون عادة إلى ارتكاب الخطأ، لأنهم يسمحون لأنفسهم بالاستسلام لإغراء ما يحقق اللذة، وكما نعرف، فإن الأحاسيس تخضع، بصورة طبيعية، إلى اللذة، ويتطلب السلوك القويم أكثر من مجرد النوايا الطيبة. فقد يكون أحدهم طيب النية في طويته، ولكنه، مع ذلك، يقوم بأعمال لاأخلاقية، وبالمقابل، لا يمكن لأحدهم أن يكون أخلاقياً إذا كان يحمل نوايا سيئة.

لكي يكون الإنسان صالحاً عند مستوى الرغبة فقط، فهو لا يحتاج إلى أن يشعر بالألم، لأن هذا يُعتبَر سلوكاً تلقائياً عند معظم الناس. ولكنه يحتاج، لكي يكون فاضلاً، إلى عمل مضنٍ يتطلب جهداً متواصلاً خلال فترة طويلة من الزمن. فتوقعات الفضيلة الواضحة أو المباشرة، تصعق عادة أحاسيس المرء وتشوش وجهة نظره، وبالتالي تقوده إلى سلوك بدائي حقاً.

صحيح أن معظم الناس يضمرون الخير كهدف نهائي لهم، مع ذلك، فإن الرذيلة

والفساد أكثر شيوعاً مما يمكن أن نتوقع، لأن الإنسان في حالته الطبيعية ليس كائناً أخلاقياً ويبحث عادة عن طريق أقل مقاومة. ومن سوء الحظ أن يستسهل الناس العاديون إغفال القاعدة الذهبية، "عامل الناس كما تحب أن يعاملوك،" في اندفاعهم وراء ربح سهل وفائدة مباشرة، وكثيراً ما يحل هذا محل الحذر والاستقامة.

والمجتمع يدرك تماماً هذه المعضلة، ولهذا يعاقب على السلوك اللاأخلاقي والمعادي للمجتمع بطرق عديدة. ففي الحالات الشديدة، يمكن لعقوبات النفي أو السجن أن تردع الجناة، ولكن هذا لا يحدث في الممارسة الشائعة، لأن الناس غير أخلاقيين فقط بطبيعتهم، وبالتالي تصبح المعايير الأخلاقية مجرد غرسة اجتماعية لا صلة لها بأي شيء داخلي. وعلينا أن نستذكر أيضاً أن قواعد السلوك هذه ليست أكثر من معايير يعتبرها مجتمع ما صحيحة وأنها تختلف، إلى حد كبير، من مكان إلى آخر، وتتبدل باستمرار بمرور الزمن. ففي عهد محكمة التفتيش الأسبانية، مثلا، كان من الطبيعي تماماً أن يُعذَّب المتهم بقسوة بموجب القانون، وفي وسط آخر، وبصورة طبيعية جداً، أشار الأخلاقيون الأغريق في كتاباتهم إلى ضرورة "عدم امتلاك عدد كبير جداً من العبيد،" ولكن دون إدانة الرق كممارسة شائعة.

وفي الواقع، إن الأخلاقية ليست قابلية وراثية ولا هي اكتساب فردي طوعي. ولكنها، لسوء الحظ، أصبحت "قشرة خارجية" تنتجها الحضارة بقوانينها التي تنسجم فقط مع الثقافة المعاصرة. فإذا اعتبر مجتمع ما أنه من المناسب إفناء الناس المسنين، فإن الجميع سيقومون بذلك دون تردد. وإذا اعتُبرَت ممارسات كالسرقة، والجريمة، والاحتيال، والسلب في مكان آخر جديرة بالثناء، عندئذ، يتوجب معاقبة الناس المستقيمين لكونهم مواطنين سيئين. وفي مثل هذه الحالة، سوف نواجه تناقضاً في رؤيتنا لرذيلة تحظى بالمثوبة وفضيلة تلقى العقوبة من قبل المجتمع ووكالاته، وكل ذلك باسم الأخلاقية.

ويصبح هذا شذوذاً أخلاقياً، ولكنه، في الحقيقة، يزداد انتشاراً يوماً بعد يوم، وإن يكن بصورة غير مقصودة. ولذلك، يجب على المرء أن يعتبر أن الأخلاقية الحقيقية لا تتطابق مع التكييف البيئي الميكانيكي، بل يجب أن تعتمد على التنمية الأخلاقية الفردية للطبيعة التأملية التي فيها يقوم الفرد، عن طريق الاختيار الحر، بتبني أكثر القيم الأخلاقية المتسامية رفعة. صحيح أن المجتمع يشن حملات أخلاقية متواصلة بوسائله المألوفة، وعلى الرغم من ذلك، فإنه يندر أن نجد فرداً يمكن أن يتمثل هذه المفاهيم، بشكل شامل، دون ضغط أو إكراه من الخارج.

إن معظم الناس يجدون في الأخلاقية عبئاً ثقيلاً أو واجباً مزعجاً، ونحن ملزمون بالتعايش معه، وهو لا يتطلب كبير اهتمام إذا لم يرتب علينا إفساد تسليتنا المفضلة. والشيء المؤكد هو أنه، إضافة إلى ضغوط البيئة، يمكن لكل شخص أن يختار بين أن يطلق العنان لعواطفه أو أن يعمل على تصعيدها. وهكذا، يكون قد استسلم للرذيلة أو الفضيلة. وهذا اختيار طوعي. ولسوء الحظ أنه لا يوجد، على المستوى الثقافي، معرفة تعمل بحق على مساعدة الفرد على اتخاذ قرارات الضمير، لأن نهج مواجهة الواقع بموضوعية لم يُكتَشَف. ولا يمكن للناس أن يميزوا، بفضل تغذيتهم الراجعة من الطبيعة، كيف يتأثر الفرد بأفعاله الصالحة أو الطالحة. ولا يمكن أيضاً أن يميزوا دوافع محددة تدفعهم إلى التصرف باستقامة، وهم يضعون في اعتبارهم ما يتطلبه هذا التصرف من جهد متواصل. إنهم يغفلون الفوائد العملية الهائلة التي تنتج عن التزامهم بالفضيلة وهكذا يستسلمون لخط المقاومة الأدنى. يتصل المفهوم الثقافي للأخلاقية فقط بما يعتبره مجتمع ما مناسباً في لحظة معلومة في تاريخه، ولكن هذا لا يعني أن لهذا الدستور أي أساس واقعي في الطبيعة.

الأخلاقية الأصيلة، وهي غير معروفة اليوم، تقوم على أساس بنية الطبيعة، ويتألف دستورها من ملاحظة القوانين الكونية التي تسبق تاريخ الإنسان والتي هي الآلية العليا التي تمد الخليقة بأسباب البقاء. وبسبب الصفة الثقافية والدينية للمفهوم الذي نحمله عادة حول الأخلاقية، يمكن أن نفهم تماماً أن الإنسان لن يعير اهتماماً لهذا المفهوم ويعتبره مزعجاً، أو مملاً، أو صارماً ، أو استبدادياً، أو مجرد تعبير عن أفضلية شخصية.

وأنا على ثقة من أنه لو استطاع الناس أن يفهموا مدى ما يكسبونه إذا تصرفوا دائماً على نحو مستقيم ومثالي، فإننا لن نجد سوى قلة من الأشخاص اللاأخلاقيين؛ ولن نكون بحاجة إلى قضاة وشرطة إلا في حالات استثنائية. والأخلاقية التي نعرفها فضفاضة ومجاملة لأنها تستبعد المعايير الأخلاقية للطبيعة الكونية، ولهذا، فهي تفتقر لأي مغزى أعلى. وأهدف في هذا الكتاب إلى تقديم لمحات حول العدالة الطبيعية والسماوية والطريقة التي فيها يمكن للشخص أن يحقق هذا لنفسه في حياته اليومية. ولكن، لكي يستطيع المرء أن يقدّر قيمة النور، لابد له أولاً من معرفة الظلمة وما تسببه من جهل وأذى. ولهذا سوف ندرس أولاً الأسباب التي تقيد أو تعوق السلوك الأخلاقي الرفيع عند الكائن الإنساني.

1 – حقيقة أننا نعيش في عصر الحشود[1]

أشار المفكر الأسباني، خوزيه أورتيغا غاسيت إلى أن أهم حقيقة في عصره كانت "ثورة الجماهير" وأصبحت هذه الحقيقة اليوم أكثر واقعية من أي وقت مضى. وقد لمح إلى ظاهرة الزيادة المفاجئة لـ "التكتلات،" التي كتب عنها، "نرى الحشد بحد ذاته، تسيطر عليه الأمكنة والأدوات التي أوجدتها الحضارة." وأضاف إن "الأفراد الذين يشكلون هذه الحشود كانوا موجودين من قبل، وإن لم يكن على شكل حشد. ومارسوا، كما يبدو، أسلوباً حياتياً مختلفاً، ومستقلاً، ومتباعداً من خلال انتشارهم عبر العالم على شكل مجموعات صغيرة أو أفراد. فقد احتل كل واحد، أو كل فرد، أو مجموعة صغيرة مكاناً ما، ربما كان لملكية] خاصة به، في الريف، أو القرية، أو البلدة، أو في نطاق مدينة كبيرة. وفجأة، ظهروا تحت اسم كتلة، ونحن نرى بأعيننا هذه الحشود في كل مكان."

وأضاف فيما بعد، " الكتلة إنسان عادي. وفي الحقيقة، يمكن تعريفها بوصفها ظاهرة نفسية، لا تحتاج في ظهورها إلى انتظار تكتل الأفراد. وهي تمثل كل شيء لايحترم ذاته-سواء إلى الأحسن أو الأسوأ-لأسباب استثنائية، ولكنها تحس كما يحس كل واحد ومع ذلك لا تشعر بالقلق بل بالراحة عن طريق شعورها بأنها مماثلة لكل واحد آخر." (خوزيه أورتيغا غاسيت، ثورة الجماهير)

وصلنا في نهاية القرن العشرين إلى التجنيس homogenization العقلي والنفسي للإنسان، وفي الواقع، لقد تجاوزنا ثورة الحشود، وهانحن نعيش اليوم في ظل "استبداد الحشود،" التي تشارك في احتفال الوسطية الأكثر مدعاة للرثاء. فالغوغاء أشبه بمسخ متبلد الذهن يلتهم كل ما يجده أمامه، لأنه يفتقر إلى أي قدر من الذكاء أو الإرادة الخاصة به. ونحن مجبرون على الخضوع لذلك الحشد المجهول امتثالاً لمفهوم "حكم الأكثرية." إن المبدأ الاستبدادي السخيف الذي يقول إن إرادة الأكثرية صحيحة[2] بشكل ثابت ينبع من فلسفة جان جاك روسو. ونحن، وفقاً لهذا المبدأ، ملزمون بالامتثال للإرادة العامة، التي هي صحيحة

1-استخدم المؤلف تسمية حشد mass وحشود masses بدلاً من جمهور وجماهير لأنه يعتبر أن هذه الكائنات عادية وما تزال في مرحلة مبكرة من عملية الارتقاء-المترجم.

2-ياله من نقد لاذع للديموقراطية الغربية! المترجم.

دائماً. ولكن الكاردينال رَتْسينجر يقول أيضاً، "الحقيقة لا توجد دائماً عند الأكثرية."

ومع ظاهرة التحشيد ، أصبح الفرد في حد ذاته يشكل إزعاجاً لبيروقراطية الدولة، التي استساغت التعامل مع الأرقام والإحصائيات. وتمارس وسائل الإعلام تأثيراً تجنيسياً قوياً على عقول الناس وأصبح الوجود الفردي واقعاً مادياً أكثر منه ظاهرة عقلية أو نفسية. فنحن نتصرف، ونفكر، ونشعر وكأننا حشد. ونعتمد على آراء الآخرين بقدر ما نُحوِّل الحشد إلى قاض وحَكَم لسلوكنا ونبذل أية تضحية لكي نُعتبَر "متماثلين." ونسعى إلى أن نكون مقبولين عنده مكافأة لنا ونخشى عدم تماثلنا معه بسبب ما يستتبع ذلك من وصمات اجتماعية بعدم الثقة، والارتياب، والنبذ. وباختصار، لقد انتهينا إلى تشكيل جزء يتعذر تغييره من حشد متجانس، يمنحنا مشاعر القبول، والأمان، والحب، ولكن أيضاً مشاعر فقدان الهوية، والوحدة، والكرب الداخلي.

وفي هذه الحالة، يصبح الازدحام المادي في المدن الكبيرة "تكتلاً نفسياً" يسبب القلق من خلال شعور الفرد بفقدان الـ "أنا." ويفشل الناس عندما يبحثون عن هويتهم الفردية لأنهم يتصرفون على عكس ما يجب أن يفعلوا - إنهم يقلدون بعضهم بعضاً. وهناك سبب أساسي للوسطية الشائعة هو أن الناس يتخلون، في وقت مبكر، عن تنمية فرديتهم الخاصة لأنهم يجدون الاندماج بالحشود أسهل وأكثر قبولاً، وبذلك يوسعون الـ "أنا" كأنما لتنحل في الروح الجماعية.

ويشجع المجتمع هذه الظاهرة بدلاً من التسليم بخطورتها، وذلك في سبيل زيادة عدد المواطنين المذعنين الذين يغذون النظام، المواطنين الغافلين عن حقيقة أن الثمن النهائي هو قصور نمو الفردية أو حتى موتها. وهذا نوع من المعوِّق النفسي الذي يعوِّق نضج الـ "أنا" عن طريق تشجيع اللامسؤولية وفقدان الأخلاق. عندما ينتمي دماغ الفرد وقلبه إلى الحشد، فإنه لن يكون قادراً أبداً على التصرف بطريقة أخلاقية حقاً، لأنه يتجاهل هذه الفضيلة. ولن يدرك الحاجة لأي نوع من السلوك الرفيع. ليس للحشد أخلاقية لأنه لا يتمتع باستقلالية التفكير، والتمييز، والمحاكمة؛ بل إن وسطيته الحقيقية هي التي تتحكم بسلوك أعضائه.

وصف غوستاف لوبون، في كتابه الجماهير، ببراعة سلوك الغوغاء كما نوجزه هنا:

الظاهرة الأكثر غرابة التي يُظهِرها الحشد النفسي هي التالية: أياً تكن طبيعة الأفراد الذين يشكلون الحشد، ومهما تنوعت وتباينت انماط حياتهم، أو مهنهم، أو شخصيتهم، أو

ذكاؤهم، فإن مجرد حقيقة أنهم يتحولون إلى حشد يضفي عليهم نوعاً من روح جماعية. وهذه الروح تجعلهم يشعرون، ويفكرون، ويتصرفون بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي فيها يشعر، ويفكر، ويتصرف كل واحد فيما لو كان منعزلاً[1].

والفرد الذي يصبح جزءاً من الغوغاء يضع نفسه في موقف يساعده على كتمان ما يكبته من ميول لاواعية. ومن الواضح أنه سيُظهِر عندئذ صفات جديدة هي تجسيدات دقيقة لعدم وعيه الفردي، وهو جهاز يحتوي بذرة كل ما هو شرير في الروح البشرية.

وإذا كنا نرغب بتكوين فكرة دقيقة عن أخلاقية الحشد، فعلينا أن نتذكر أن كافة أنواع الكبت الفردي تتلاشى عند مجموعة الأفراد التي تندمج في حشد، في حين تستيقظ عندهم كافة الغرائز الوحشية، والبهيمية، والتدميرية، إضافة إلى النكوص الكامن، وتسعى إلى التعبير عن نفسها بحرية . . .

. . . بمجرد حقيقة انتمائه إلى الغوغاء، ينحدر الإنسان عدة درجات على سلم الحضارة. وربما كان في انعزاله فرداً مثقفاً؛ في حين يصبح داخل الحشد بربرياً، تستحوذ عليه العفوية، والعنف، والوحشية، بالإضافة إلى شَمَق[2] الكائنات البدائية وعنجهياتها.

ويشير المؤلف أيضاً إلى نقص ملحوظ في العقلانية التي يَخبُرها الفرد، وذلك عن طريق تذويبها في الحشد. ويشدد على حقيقة أن الإحساس بالمسؤولية الفردية يتلاشى، لأن الجمهور لا يتمتع بشخصية مميزة ولأنه هو الذي يضع الكوابح للدوافع الفردية.

وبالمثل، أشار سيغموند فرويد إلى وجود لاأخلاقية داخلية عند الكائن الإنساني في مستوى اللاوعي. وفي هذا المستوى، لا يتردد عن القتل، أو السرقة، أو التورط في سفاح القربى، وهي حقيقة ينشأ منها، إلى حد كبير، انحراف السلوك عند من يكون وعيهم الأخلاقي قاصراً.

إن اندماج الفرد في حشد هي الطريقة الأكثر مباشرة لإلغاء المسؤولية الفردية، مما يؤدي، بصورة طبيعية، إلى فقدان المرء لقيمه الأخلاقية. وهو، عملياً، محرِّض يدفع إلى الجنوح، أو العنف، أو الفساد. ومن المهم أن نتأمل كيف يتجمع كثير من الناس لكي يكوّنوا حشداً نفسياً. والحشد، كما يظن لوبون وفرويد، هو " أيّ عدد من الناس توجد

1-يقول شارل بلوندل عالم النفس الاجتماعي المعروف "عندما يجتمع الناس تستطيل آذانهم"-المترجم.

2-الشعور بالنشاط والخفة-المترجم.

عندهم ظاهرة الاندماج النفسي المميزة." وفي الواقع، يمكن أن يتكون "الحشد النفسي" من شخصين، كما هي حال ما ندعوه تبادلاً مشتركاً للحب.

ومما يثير الاهتمام، هو أن واحدة من الظواهر الرئيسة التي تغري فرداً لا واعياً بالاندماج إلى حشد هي الفرصة في أن "يصبح لا مسؤولاً،" لأن المسؤولية ملغاة في الحشد الغفل. فالعنف في ملعب كرة القدم مثال جيد للتفجرات الحشودية الغريزية في غياب العقلانية الفردية. وواحدة من خصائص الحياة الحديثة هي اندماج الفرد في حركات حشودية متعددة كالأحزاب السياسية، والنوادي الرياضية، والحركات الدينية، والاتحادات العمالية، والنقابات[1]، التي هي فقط بعض من الحشود النموذجية التي نصادفها يومياً. ولكن هذا لا يعني طبعاً أن سلوك الحشد النفسي موجود بالضرورة عند هذه المجموعات، لأن هذا السلوك يتطلب حالات عاطفية لكي يطفو على السطح. ولكن، حتى الجماعة الإنسانية النزعة ليست منيعة ضد هذه الآلية الشائنة-والحكومة هي الأقل مناعة.

وهناك دوائر أخرى أصغر هي تلك التي تتشكل من الأصدقاء ونوادي مختلفة. ولهذا، يندر أن يكون فرد ما متحرراً من الاندماج في حشد يصبح، في ظل بعض الظروف، "حشداً نفسياً،" مع كل ما يتضمنه ذلك الاندماج من مخاطر محتملة. وقد ظهر المثال السيء الصيت لهذه الظاهرة مراراً في الغرب الأمريكي القديم، عندما نفذت جماعة صغيرة من الغوغاء حكم الإعدام التلقائي بمتهم بسرقة المواشي. وفي الواقع، إذا كانت الأخلاقية الحقيقية هي الحرية، والوعي، وترويض المرء لشخصيته، عندئذ، لا يمكن أن نتصور كيف يمكن للناس الذين يشكلون "الحشد" أن يُظهروا أي سلوك أخلاقي فعال.

وحتى لو قمنا بغسل دماغ الحشد بصورة فعالة، كما لو كنا نريد له أن يتصرف بطريقة أخلاقية، فإن السلوك الناتج سيكون نتاجاً ميكانكياً ومبرمجاً للتكييف العقلي. وهكذا، سيكون بعيداً جداً عن الأخلاقية الأصيلة ويتخذ فقط شكل الالتزام اللاواعي، الذي تغرسه حملات الدعاية التي تقوم بها السلطات. والدعاية تصنع، في الواقع، "إنساناً آلياً"، لن يكون كائناً إنسانياً أخلاقياً، وإن كان لايتصرف على نحو سيء. يقول ريكاردو ييبس في كتابه المصطلحات الرئيسية للنظرية الاستهلاكية:

1-هل يمكن اعتبار هذه الحشود كلها دائماً غير واعية؟-المترجم.

الشيء المميز أكثر فيما يتعلق بالحشد هو تلاشي الطبيعة الفردية عند من ينتمون إليه. ويُظهِر قطيع الغنم بوضوح هذه الصفات بالذات لأن الأغنام أيضاً تحمل غريزة تجمعية تجعلها تمضي إلى حيث تمضي النعاج الأخرى ... إنها لمسألة حساسة أن نسوق أمثلة قد تبدو اتهاماً، ولكن من الواضح أن مجتمعنا هو واحد من تلك الحشود. فملعب كرة القدم الذي يغص بمئة ألف متضرج، والمحطة النفقية المكتظة بالمسافرين، وحافلة السائحين التي يقودها رئيس المجموعة، والملايين العشرين الذين يجلسون قبالة التفزيون لمشاهدة عرض الاختبارات الموجزة نفسه، والآلاف العشرون من الشباب في حفل موسيقى الروك، ومثلهم من العدّائين الذين ينطلقون في ماراتون نيويورك على جسر فرزانو، ورتل السيارات الذي يمتد إلى مسافة ستة أميال ويحاول دخول المدينة أو مغادرتها، والشاطىء المزدحم بالمستحمين ... والقائمة طويلة ...

... ولكن الخطر الحقيقي للحشد يتمثل باستلابه للفرد وإزالة ذاتيته.

الإنسان العادي أو المتوسط ليس أكثر من نسخة أمينة لنموذج فردي، يكرر إلى ما لا نهاية سلوكه وفقاً لمعايير اجتماعية.

لاشيء ذا قيمة في العادي-إنه مجرد تقليد ، وغياب للإبداع، وافتقار إلى قوة الإرادة وإلى أي حس نقدي.

ومن المهم أن تكون لدينا فكرة واضحة حول السبب الذي يدفع الفرد إ! ، إظهار رغبته في أن يكون "عادياً،" ينصهر بسهولة إلى حشد. ويكمن الإغراء في حقيقة أن الحشد يقدم للفرد مجموعة من الإمكانات التي تشبع دوافعه الحيوانية:

1. يزيل الكوابح والكوابت الأخلاقية بدون إحساس بالإثم.

2. يصهر "أناه" الضعيفة القاصرة النمو إلى "أنا" أكبر، أي الروح الجماعية، التي تشكلت عن طريق تَجَمُّع عدد لا حصر له من أفراد آخرين، وتساعده على الشعور بالأهمية وتجاهل وسطيته الخاصة.

3. يتنصل تماماً من المسؤولية، عن طريق قتل "أناه" وتذويبها في حشد غُفْل. ومع هذا النوع من الانتحار النفسي، تتلاشى المعايير الأخلاقية، ولن يشعر الفرد بالخضوع للانتقام الاجتماعي.

4. هناك نكوص نحو الرحم. فالحشد بديل لرحم الأم، الذي يدعو الفرد إلى المراحل البدائية من وجوده، عندما كان يعيش في نعيم الحياة الرحمية، دون معضلات أو مسؤوليات أياً كانت.

5. يستسلم للراحة والكسل، دون أن يبذل أي جهد فردي للوصول إلى أهداف سامية.

وعلى ضوء هذا التحليل، يمكن بسهولة تعليل تكاثر عصابات الشباب في المجتمعات المتقدمة. حيث يكتسب هؤلاء إحساساً بالقدرة الكلية عندما ينضمون إلى عصابة. فأي شيء يقومون به، مهما كان سيئاً أو خطراً، فإنه يفقد معناه بالنسبة لهم. يظنون أنهم مخولون بفعل ما يريدون، وبهذا يلغون أي معيار أو مبدأ أخلاقي. يظنون أنه يمكن أن يقتلوا، أو يرتكبوا الجرائم بدون إحساس بالذنب، ذلك لأن المجموعة تنهض بدور الأسرة، والسلطة التي تمنحهم الغفران بشكل مسبق.

وأياً كان الشكل الذي تتخذه ظاهرة الحشد النفسي، فإنه من المؤكد سوف يثير انسلاباً إلى المدى الذي معه تمّحي الـ "أنا" الفردية بسهولة لكي تُصنَّف في الروح الجماعية للجماعة. ونضرب مثلاً لهذه الحالة اتحاداً من الناس الذين يعرفون تماماً هذه الآلية، فيقررون منذ البدء أن يخلصوا أنفسهم من التأثيرات الضارة للصيغة المبتذلة لهذا التصنيف.

والتلفزيون عنصر آخر فعال أسهم في تجنيس الحشد. فجميع مشاهديه يتشاطرون معاً نوعاً من ثقافة فرعية يكوّنها عن طريق ما يرسله أو يعرضه من جديد الأوبرات الصابونية[1]، والبرامج والعروض والأفلام. فعلى سبيل المثال، استحوذت محطة تلفزيون CNN، في مرحلة ما، على عقول ملايين البشر في أنحاء العالم التي يصل إليها إرسالها-كان مشاهدو التلفزيون الشرهون يريدون الحصول على معلومات حول ما يجري في حرب الخليج. صحيح أنه قد لا يكون هناك تقارب أو تماس فيزيائي بين مشاهدي التلفزيون، ولكن هناك تكافؤ في استقبال الرسائل، التي لابد أن تسبب أيضاً صيغة ما من الاتحاد العقلي وتعمل على إضعاف العقلانية الواعية. وينبغي ألا ننسى أن شاشة التلفزيون أو الكومبيوتر هي أفضل منوم مغنطيسي معروف حتى اليوم، ويصعب علينا أن نصدق أن الطفل الذي يخوض هذه التجربة سيكون قادراً على النجاة بدون أن يتأثر بجاذبية هذا المنوِّم أو سيطرته.

ومما يثير السخرية أن كل شيء في العالم اليوم يهدف إلى تكتيل الناس، أو إفساد أخلاقهم، أو حذف مبادئهم الأخلاقية من خلال صهرهم في حشود. وإفساد الأخلاق يؤدي مباشرة إلى فقدان مغزى الوجود، وبالتالي، تراخي الأخلاق. ليس مهماً مدى ما يمكن أن يكون عليه مستوى شخص ما من الذكاء، ولكن المهم هو أن عقلانيته العليا سوف تتلاشى

1-مسرحيات إذاعية أو تلفزيونية مسلسلة تعالج مشكلات الحياة المنزلية-المترجم.

بانضمامه إلى حشد نفسي، ولن تعود إلى الظهور إلا إذا تخلى عن المجموعة. هذا يعلل إلى حد ما البلاهة اللامتناهية عند الكائن البشري ويساعدنا على فهم أسباب الأخطاء الفادحة التي تُرتَكَب في الشركات الكبيرة عند اتخاذ قرار ما في لحظة ما، عندما يشكل المدراء التنفيذيون أنفسهم جزءاً من حشد نفسي في لحظة حرجة.

وسوف ندرك أيضاً منشأ الأخطاء الشهيرة، السياسية أو الاستراتيجية، في تاريخ الأمم. وبسبب السلطة المطلقة التي يمنحها المجتمع لرجل الدولة، لابد له من أن يكون دائماً مستقلاً، وليس مبعداً، عن أي حزب سياسي أو حشد نفسي يمكن أن يفسد عقلانيته العليا - على الأقل، مادام ليس هناك "لقاح" مضاد أو معادل لـ"الفيروس" الاجتماعي التي ندرسها هنا.

إن أية جمعية تشريعية يمكن فيها للأعضاء أن يحرروا أنفسهم من ظاهرة الحشد النفسي، سوف يرتفع، إلى درجة مهمة، مستوى فعاليتهم، ونزاهتهم، وعدالتهم، وهكذا تصبح هذه الجمعية دليلاً حقيقياً للوعي الجماعي عند الناس، ونموذجاً للفضيلة أيضاً.

ويقول لوبون إنه عندما ننتهي إلى دراسة مسألة مهمة وغير تقنية ولكنها عاطفية، فإن جمعية من الحكماء لن تتوصل إلى استنتاجات تختلف عن الاستنتاجات التي تتوصل إليها جمعية من الحمقى. وكل من يشك في هذا، عليه أن يتحقق من هذه التوكيدات بالتجربة. فعلى سبيل المثال، إن مجلساً للأطباء، أو القضاة، أو الحرفيين، من أي نوع، يميل إلى ارتكاب أخطاء خطيرة في قراره إذا برزت بين أعضائه، لأي سبب، ظاهرة "الحشد النفسي." وما من أحد، مهما كانت مكانته، منيع على السقوط تحت هذا التأثير المقلق لهذه الآلية الغامضة. ولهذا عرَّفتُها بوصفها عقبة مهمة في سبيل السلوك الأخلاقي واتباع طرق جديدة وأفضل من السلوك-إنها تربك العقل، وتشوش الفهم، وتُظهِر أيضاً أسوأ الصفات عند النوع. وعندئذٍ، تأتي النتيجة معاكسة تماماً لما نهدف إلى إنجازه من خلال الأخلاقية. وكلما غصنا أكثر في سلوك الحشد النفسي، ازدادت قناعتنا بأننا سوف نصبح جزءاً من قوته التدميرية المخيفة غير الملائمة للمحاكمة الجيدة، والخصم المعلن للوعي الفردي.

باستثناء المظاهر الخارجية، ليس هناك اختلاف كبير بين القطعان المتوحشة والحشود المعاصرة. ومما يدعو حقاً إلى الدهشة والارتياب أن حضارتنا لم تدرس هذا النمط من السلوك الإنساني بالذات لكي تطور نظاماً يسمح باسترداد الحرية الفردية التامة. فقد تم إخماد روح المبادرة والموهبة-وخيار ممارستهما وتطويرهما باستقلالية-من قِبَل أكثر الحكومات

الاستبدادية طغياناً: دكتاتورية الحشود. وهذا الضغط يعتبر هجوماً مباشراً على الأخلاق والقيم الروحية السامية، لأن الأخلاقية الأصيلة أخلاقية واعية وليست ميكانيكية. ومع أن الفرد يمكن أن يصبح واعياً، فإن الحشود لن تصبح كذلك. إن طبيعة الإنسان في هذه المرحلة من الزمن هي طبيعة كائن في حالة سبات، يستسلم للنوم من خلال اندماجه في الحشود، ويُجرَّد من "أناه" الفردية، لتتولى توجيهه الـ "أنا" الجماعية أو الروح الجماعية. ولا يمكن للأخلاقية الفردية، إلا في حالات قليلة، أن تتغلب على المعايير الأخلاقية لسلوك الحشود.

2- الاستلاب[1] في عصرنا

التعريف المعجمي للاستلاب هو أنه "عملية يقوم بها فرد أو جماعة لتحويل وعيها لكي تجعل من نفسها نقيضاً لما يمكن أن يُتَوَقَّع من حالتها الموروثة."

وأنا على قناعة تامة بأن النوع إجمالاً "لا يسلك كما يجب" على ضوء مستواه المفترض في الحضارة. ومن الواضح أن الصورة الثقافية المُمَثِّلَنَة للكائن البشري بعيدة جداً عن الواقع. فنحن أقل تحضراً وأقل وعياً مما نتظاهر به، وكذلك، أقل عدلاً وأقل استقامة. فنحن نطالب بالعدالة في حين نتصرف على نحو جائر ونلتمس المساواة بدون أن نطبقها في تعاملنا الاجتماعي. ونحن، في الواقع، بالكاد بدأنا نتطور، وإحساسنا بالعظمة والقوة ينبثق من الفتوحات العلمية التي حققها الجنس البشري والتي لم تساهم البتة في تحسين الطبيعة الداخلية للإنسان.

ومن هذا المنظور، نحن "بدائيون متحضرون،" أطفال يركضون عبر الحياة، يعبثون بالمحطات الفضائية والرؤوس النووية. والشعور الخادع بالقوة الذي يولّده العلم والتكنولوجيا يشل قدرة الفرد على النقد الذاتي ويطمسها. وبالتالي، يمنعه من إدراك التناقض الهائل بين النسخة المقبولة عموماً للجنس المتحضر والواقع المؤلم لعالَم في حالة دائمة من الحرب والصراع —مكان نرى فيه الموت جوعاً أو بممارسة العنف والجريمة هو نظام العصر في كثير من أجزاء

1- كان يمكن تسميته الاغتراب لولا أن تعريف الاغتراب الذي هو "شعور المرء بالابتعاد عن حضارته وثقافته الأولى بسبب التصاقه بحضارة وثقافة جديدة" لا يتطابق مع التعريف الذي أورده المؤلف أعلاه، ولذلك آثرت هذه التسمية "الاستلاب".-المترجم.

كوكبنا. وانسلاب الإنسان جرده من الإرادة وبعد النظر الضروريين للتصرف بوعي. فقد أصبح السلوك الميكانيكي والمقولب هو المعيار، معيار يفسد ملكات الفرد العليا ويمنعه من إدراك القيمة الحقيقية للأشياء. وتمنعه أيضاً حالته الوَسِنَة من إدراك مدى انسلابه.

والاستلاب عملية غازية، فيها تخترق دماغ الفرد معلوماتٌ غريبة ودخيلة، تستحوذ، في الطريقة الواقعية ذاتها، على عصبوناته بصيغة معلومات مستقلة لا تخضع إلى الـ "أنا." ومن تلك المرحلة وما بعد، تستخدم هذه العملية الغازية القوة على سلوك الفرد، فتجرده من إمكانية تخليص نفسه من تأثيراتها. وفي حالات كهذه، يمكن أن نتحدث عن اختراق دووَعيّ[1] للعقل، وهو ما يحدث فعلاً. ويصبح هذا ممكناً عن طريق عملية التعلم الخاطئة التي فيها تنسلخ الـ "أنا" عن الوعي في حين يقوم الدماغ بمعالجة المعلومات بصورة سلبية. وهذا يعني أن العقل بدلاً من أن يتلقى المعلومات بصورة طوعية، فإنها تخترقه وتستحوذ عليه، ولذلك يقوم بامتصاصها بدون تمييز. وعندئذٍ، نصبح متخمين بـ "نفاية معلوماتية، " معلومات دووَعييَّة تبقى في عقلنا اللاواعي كمادة لا معنى لها، تعمل على تشويش وإضعاف الـ "أنا" الواعية، مما يؤدي إلى العجز عن التعرف على الهوية الذاتية وإلى الصراعات العاطفية والنفسية.

وإمكانية أن "يُتخِم" العقل اللاواعي نفسه لكي يلحق الأذى بالوعي احتمال وارد، وهذا ما يحدث بالضبط. فكلما كان التشبع بالمعلومات أكبر، كان التمييز أدنى وما ينجم عنه من ترقي ضعف الـ "أنا" الواعية. والإنسان العادي، في هذا الجانب، مجرد خادم، أداة سلبية لأوامر معلوماتية جبارة تُختَزَن في دماغه. هذه هي قوة الاستلاب التي تجرده تدريجياً من حالته الذاتية، وتحوله إلى غريب عن نفسه، حتى إلى المدى الذي تبدو له رغباته ومثالياته ليست له بل تخص النواة المعلوماتية التي تصبح الضيف المتطفل لعصوبوناته وتستولي على عقله. وتعمل قوة الاستلاب هذه على تثبيط السلوك الواعي لأنها تتحكم بقسوة بسلوك الفرد. وكلما كان امتصاص الشخص للمعلومات أكبر، ازداد اعتماده على هذه المعالم، وضعفت إمكانياته في ممارسة سلوك أخلاقي أعلى.

إن أيّ نشاط، أو أيّ تدريب، سواء كانت "أرض التدريب" مشغلاً، أو حادثة اجتماعية، أو حدثاً رياضياً، أو نشاطاً ترفيهياً، يحمل في طياته إمكانية تعزيز عملية الاستلاب. فقد نشرت الصحافة التشيلية مؤخراً كيف كان البوليس السري السوفييتي (KGB) السابق قد

1-أي دون الوعي subliminal-المترجم.

صنع "أشخاصاً آليين إنسانيين" حقيقيين، جنوداً طُمِسَت شخصياتهم بأمواج راديوية عالية التردد، ومجالات كهرطيسية تحيط بالدماغ، ورسائل مُنوِّمَة تستحثها حاسبة إلكترونية. وقد تحقق هذا الكشف بفضل البحث الذي أنجزه الصحفي السوفييتي يوري فوروبيوفسكي على مدى ثلاث سنوات. ويضيف أنه تم مؤخراً في موسكو تنظيم جمعية لـ "ضحايا تجريب المؤثر العقلي" لمطالبة الحكومة بمنح تعويضات للإصابات النفسية التي عانى منها هؤلاء خلال تلك السنوات.

هذا ليس جديداً بالنسبة للإنسان المعاصر، لأنه يعيش مغموراً في محيط الأمواج الراديوية العالية التردد، ومختلف المجالات المغنطيسية، والمحرضات البيئية المنوِّمة. ومن المؤكد أن الإنسان العادي هو إنسان لا يقل آلية عن أشخاص البوليس السري السوفييتي الآنفي الذكر، باستثناء أنه لا يمكن ملاحظة ذلك لأول وهلة في حالة الإنسان العادي، لأن تكيفه يدفعه إلى المشاركة، بصورة إلزامية، في النشاطات التي يعتبرها المجتمع سوية، كالاستهلاكية، والدفاع عن الوسطية، والخضوع السلبي لأشكال الحكومة الاستبدادية. ومن المرجح أن تأثير التلفزيون في الوقت الحاضر يتجاوز التجارب السوفييتية. فالتجارب السوفييتية كانت تهدف إلى تدريب جنود لا يُقهَرون ولا يحملون إطلاقاً أي أثر للخوف. وعلى العكس، تقوم وسائل الاتصال الحالية بتثقيف حشد ضخم من المستهلكين الطيعين، وتوجيه الناس في كافة أنحاء العالم إلى الأنماط الاستهلاكية نفسها. وعلى الرغم من عدم وجود إجماع حول الأخلاقية، فإن هناك اتفاقاً ضمنياً حول استهلاك سلع متشابهة.

إن أكبر تهديد يواجه العقل الحديث هو "الاحتقان المعلوماتي" من خلال إتخام المسالك العصبية. ويعزى هذا الاحتقان إلى عدم التناسب في نمو المعلومات العلمية والثقافية؛ واستمرار القصف الحسي للحواس، وخصوصاً حاستي السمع والبصر؛ وإلى المبالغات الطنانة للقائلين بالمذهب الحسي[1]، والأسلوب الساحق لرسائل الإعلان. إن كل هذه العوامل تزحم المداخل إلى دماغ الفرد، فتعمل بنجاح على سد مراكزه العليا، إلى حد أن معظم الرسائل والمثيرات تكتسب صفة دووَعيية، فتعبر مباشرة إلى العقل اللاواعي بدون مراقبة أو تعويق. وهذا، في الواقع، ما يسعى الإعلان إلى إنجازه بدقة لكي يحقق أهدافه. إن ملايين البشر يتصرفون كالآلات، فيبيعون ويقتنون بعض المنتجات لأن الرسائل المستقلة التي تطغى على أدمغتهم

1-القول إن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة-المترجم.

بأسلوبها الإعلاني أقنعتهم بذلك بطريقة علمية. ويصبح الكثيرون لاأخلاقيين أو جانحين عن طريق تقليد النماذج التي تعرضها السينما أو التلفزيون، أو تحت تأثير الجرائم المتكررة التي تكشف عنها وسائل الإعلام. فهناك أفلام تشرح بالصورة كيف يكون المرء كفوءاً في السرقة، والاختلاس، والهجوم. وهناك ذوو الطبيعة الجنسية أو الشبقة، ممن يشجعون مختلف أشكال الماسوشية السادية او الانحراف الجنسي. وتحجم الصحف عادة عن نشر الأنباء الحسنة؛ وتغلب عليها، بشكل ثابت، الأحداث المثيرة، والمآسي، والقصص المريعة. وتعمل المثيرات البصرية والسمعية للمؤسسات الإعلامية، والسينما والتلفزيون على تسلية الناس، ولكنها، في الوقت نفسه، تعمل على سرقة أغلى ما يملكون وما هو أكثر عرضة للتأثر: "أناهم" الخاصة.

ولا بد لي من أن أبيّن أن هذا ممكن فقط لأن هناك قصوراً عقلياً، ونفسياً، وثقافياً يؤثر على النوع ككل، وهو موضوع سوف نأتي على دراسته لاحقاً. أما هنا، فيجب أن أقول أن كل واحد يمتلك اثنتين من الـ "أنا": "أنا عليا،" أي هويته الداخلية، و"أنا دنيا،" أي هويته الزائفة، التي تأتي من الروح الجماعية للجنس البشري. إنها نوع من "الطعم المعلوماتي" الذي ينسجم مع إجمالي المعلومات المستقلة الدووَعيية المختزنة في أدمغة الناس. وهذه الـ "أنا" جزء من الروح الفردية التي هي أكثر عرضة للاستلاب الثقافي.

عالمنا عالم استلاب، وإذا كنا نريد أن نحقق مستوى أعلى من السيطرة على عقولنا، علينا أن نتحرر من كارثة الاستلاب الثقافي هذه. ومن سوء الحظ أن هذه الطريقة للتحكم بالعقل ليست جزءاً من برنامجنا الثقافي. ولهذا السبب، يتردى يومياً ملايين لاتحصى من الناس في جميع أنحاء العالم، بمعنى استعدادهم الفردي للوعي، الذي يتضاءل باستمرار بسبب الصعوبة الشديدة التي يستلزمها تطوير المادة الأكثر نبلاً في النفس البشرية، أي الوعي الأعلى.

لا يتمتع هذا العالم بأخلاقيات أصيلة، وما من أحد يمكنه ان يجد سلوكاً أخلاقياً مناسباً لأن الناس يتصرفون عادة بصورة آلية وإلزامية، وهي برمجة لا تتضمن أية معايير أخلاقية صلبة، أو متينة، أو أصيلة. فالطبيعة الاجتماعية للإنسان تدفعه ليس فقط إلى الاندماج بالحشود، بل تشجعه أيضاً على أن يجيز لفرديته العقلية أن تُصنَّف في عقل عام أو "روح جماعية." ولهذا السبب، تصبح حرية الفكرة والفكر أكثر ندرة، وبوجه عام، يمكن

للفرد فقط أن يُذَوّتَ بعض الأيديولوجيات عن طريق الاندماج بهذا التيار الفكري، كما يحدث لقطرة الماء التي تسقط في بحر.

إن الانحطاط العقلي عند الجنس البشري في حالة ترقٍّ، على الرغم من أنه انحطاط ماكر وتحجبه تماماً المقاييس الخاطئة والاعتباطية التي تستخدم لقياس الذكاء الفردي. فكثيراً ما تُصنّف سرعة الخاطر الآلية خطأً إلى ذكاء عال، والتقليد الأعمى إلى إبداع. والإنسانية لا تولي أهمية كافية للصحة العقلية نظراً لعدم وجود سلطة تهدف إلى منع معلومات الاستلاب من تشويش سلامة العقل وتعطيلها. وهذا قد يكون ناجماً عن نقص المعرفة بتأثير المعلومات الاستلابية، أو أن تكون هذه المعرفة محجوبة بعناية وبراعة. ويتدفق هذا التيار الهائل من الصور، والأخبار، والأصوات باستمرار من التلفزيون، بدون تحكم إطلاقاً بما يمارسه من تأثير سلبي على الصحة العقلية عند الناس.

وربما لا نجد دراسة جدية في هذا الحقل لأنه ما من أحد كان يدرك فائدة مثل هذه الدراسة. أو ربما تم عن قصد تفادي الخوض في بحث كهذا بسبب مدى التدهور الذي يمكن أن يحدث في سوق الاستهلاك إذا تبيَّن المستوى الحقيقي للضرر الذي يلحق بالسلامة الصحية والعقلية عند الناس نتيجة للتشبيع الذي تمارسه وسائل الإعلام وإفراطها في أشكال الاتصال. ولو تهيأت هذه المعرفة، لأصبح من الضروري وضع حد للإعلان وتشريع أنظمة صارمة لوسائل الاتصال السمعية البصرية.

إن قابلية دماغ الفرد للتأثر بالتطفل الوقح على الخصوصية العقلية والأذى الوظيفي الذي تكابده القدرات القصوى من خلال حشوها وتشبيعها بالمعلومات ينذران بخطر كبير. ويظهر الأذى من خلال انحطاط العقلانية العليا عند الفرد وتضاؤل قدرته على الانتباه. ونجد تفسيراً لضعف شخصيته وتجريده من قوة إرادته الواعية في تضخم عقله اللاواعي، بالاقتران مع ما ينتج عن ذلك التضخم من تضاؤل لقدرته على التصرف الواعي. ويؤدي هذا إلى انحطاط السلوك الأخلاقي.

يفقد الناس رؤيتهم للمكانة الحقيقية التي يستحقها الكائن الإنساني عندما يستجيبون، بدون إدراك، لوسائل الاتصال المبتذلة أكثر مما يحاولون السيطرة عليها. ويركزون، بدلاً من ذلك، على صورة المظهر البدني والممتلكات. وهذا الاتجاه لتقييم الناس من خلال ما يمتلكونه بدلاً من تقييمهم كما هم عليه على أرض الواقع يؤدي إلى اختلاط

فاضح جداً للقيم. فالأكثرية الساحقة من الناس توازن السعادة بالمصلحة، مما يجعلها تعتقد أن المصلحة تعادل اللذة.

ليس هناك شك، فيما يتعلق بالاستلاب الاستهلاكي، في أن العالم يتعلم بالتجربة. فاللذة التي يستمدها الناس من عملية شراء الأشياء واقتنائها هي اللذة التي تقنعهم في تلك اللحظة بأنهم سعداء. أما المسوِّقون، فإن أهم إنجاز يحققونه يتمثل بتكوين مجموعة عالمية من المستهلكين المتجانسين الذين يفتقرون إلى أية إرادة حقيقية أو معايير عليا، تستحوذ عليهم الهواجس كمدمني المخدرات، الذين يدفعهم الإدمان باستمرار إلى تغذية الوهم العابر بالسعادة، والذين هم دائماً على استعداد لتكييف المعايير الأخلاقية أو تحريفها لتحقيق أهدافهم. فما أهمية الأخلاقية بالنسبة لهؤلاء الناس بالموازنة مع حاجتهم الخبيثة؟ وأين يمكن أن يجدوا الوقت والطاقة لدراسات أخلاقية عندما يستنزف شره مستهلكيهم المدمنين كافة مواردهم؟

ثم إن عدم وجود الوسائل الاقتصادية الضرورية التي تلبي هدف النظرية الاستهلاكية يضيف بعداً آخر إلى هذه المشكلة. فتعدد العروض الإنتاجية والفجوة الموجودة في كل مكان بين الرغبة والقيود التي يفرضها الواقع الاقتصادي، تؤديان إلى اكتئاب مزمن. يحدث هذا في تشيلي، حيث ينشأ 90٪ من حالات الانتحار من هذا النوع من الاكتئاب. واليوم يعاني 33.8 ٪ من السكان من مشكلات طبية عقلية تحتاج إلى رعاية متخصصة. وتعزو بعض المراجع هذه المشكلات إلى الفقر، ولا شك في أن هذا يصح في عدد كبير من الحالات. مع ذلك، يجب أن يميز المرء بدقة بين قلة الموارد الأساسية للعيش وبين الفقر باعتباره إحساساً بالحرمان تثيره الإغراءات الساحقة لعروض المستهلكين. فعندما يقارن أحدهم هذه العروض بموارده الهزيلة (التي تبدو دائماً هزيلة بالنسبة لموارده)، فإنه يقع تحت وطأة شعور مدمر بالحرمان والتفاهة، يؤدي إلى الاكتئاب. وكلما كانت الواجهة العالمية للعرض أكبر، كان الناس أكثر كرباً واكتئاباً.

ويظهر الاستلاب أيضاً كوباء عقلي يهاجم، في لحظة مفترضة، كل واحد تقريباً. وهناك أمثلة واضحة لهذا هي الحروب العالمية، التي ينشأ خلالها نوع من الجنون الجماعي ويتفاقم خلالها، إلى حد لا يطاق، المستوى الطبيعي للاستلاب، بحيث تنهار الصحة العقلية واستقرار السكان، فردياً وجماعياً.

و "الموضة" شكل آخر مختلف من الاستلاب الذي يُظهر تماماً إلى أي مدى معدية هذه الظاهرة. وفي الواقع، يشعر أولئك من "غير المصابين بالعدوى" بالتعاسة ويكافحون باستماتة لكي يصابوا بأعراضها.

إن عبادة المال، والتسلق الاجتماعي، والتجارة السياسية، وحب الترف، والمقامرة، واستهلاك المخدرات، والعدوان، والعنف، والإرهاب، والبحث عن السلطة، والحسد، والامتعاض، والنرجسية، والجنس كنتاج استهلاكي، والصور الخلاعية، والانحرافات الجنسية بجميع أنواعها، كلها أشكال مختلفة للاستلاب الذي فيه نجد الحشود البشرية تستحوذ عليها وتوجهها عوامل خارجية تسحق وتشل إرادتها وعقلانيتها.

تتفادى الحشود أية أخلاقية عالية، ليس لأنها "شريرة" بل لأنها تفتقر إلى القدرة على أن تكون "طيبة." ولكن الاستلاب الأكثر قوة هو الذي يرضي أولئك الناس الذين يدمنون عمق الإحساس باللذة. إنهم ينسون أي حد أو قيد أخلاقي طالما كانوا يشبعون دوافعهم، من غير أن يتوقفوا لتقييم فضيلتهم أو رذيلتهم، وبدون دراسة مسبقة لعقابيل التصرفات التي يقومون بها. لا يمكن لهؤلاء الناس أن يحققوا رغباتهم بغياب المال، وعندما يحتاجون إلى كمية تكفيهم للحصول على ما يريدون، فإنهم يميلون إلى السرقة أو الجنوح. وهكذا تنتصر اللاأخلاقية (أي الغياب الكلي لكل اعتبار أخلاقي). وتتصف اللذة الحسية، بصورة رئيسية، بكونها عابرة، ولهذا تتطلب إشباعاً متواصلاً. ووفرة المال أيضاً لا تعتبر حارساً أخلاقياً، ولكنها كثيراً ما تكون مصدراً للفساد الذي يفسد شخصية المرء وإرادته بمقدار ما يكون الإفراط رذيلة، في أي شكل من أشكالها.

والطغيان الذي تمارسه الأكثرية على الفرد تجعله عديم القيمة كذاته، لأنه لايُقبَل إلا وفقاً للمستوى الاجتماعي الذي يمكنه أن يصل إليه. ومن الشائع أن يقوم احترام الفرد لذاته على أساس البحث عن تعبير أو إيماءات في وجوه جيرانه لكي يقدر مستوى قبوله أو رفضه، ويعمل بعدئذ على تكييف سلوكه مع مطالب الجماعة. مع ذلك، يعتبر الفرد نفسه ملوماً بسبب تدميره لنفسه عن طريق تقليده للمجتمع تماماً بالقدر الذي فيه تستوطن الوسطية والافتقار إلى المبادىء الأخلاقية عند الحشود.

3-خطأ النظام التعليمي

المقاربة الحديثة للتعليم لا تصنع كائنات إنسانية أفضل بل شخصيات زائفة ذات محتوى إنساني ضحل، "كائنات إلكترونية" توجه سلوكها شظايا ذكرياتها. عندما ألاحظ الناس ممن يشكلون نماذج لقواعد التشريفات، فإنه لا يمكن أن أتمالك نفسي من اعتبارهم عروضاً تجسيمية لابتسامة مقولبة أو نظرة فارغة، ضحايا للحضارة التي تسلب عقولهم وتهزم أرواحهم. يمر الفرد بلحظات يتمنى لو يعرف ما بداخله، فيحاول أن يسبر أعماق روحه. ولكن محاولاته تذهب سدى، لأنه لن يجد أكثر من نوع من بصلة عملاقة لن ينجح أبداً في اكتشاف ماهيتها الداخلية حتى ولو ثابر على نزع طبقاتها التي لا تحصى الواحدة تلو الأخرى.

وهذه الأجهزة الآلية[1] ليست استثناء، بل هي أجنة شرعية ومنطقية للمجتمع الحاضر، تجهل القيم السامية وتعجز عن الارتقاء بالسلوك الأخلاقي. وبعيداً عن كون هذه الأجهزة شراً، فإنها تبحث فقط عن الخير. ولكن برمجتها العقلية تمنعها من التمييز بين القيمة الحقيقية والظاهرة. وتهيم عبر الحياة كالأشباح، بدون أي هدف سام، وفي مطاردة مستمرة لسعادة وهمية لن تنجح أبداً في تحقيقها لأنها تخلط ما هو خير بتركة النزوات التي تقتات من نواياها الطيبة.

تتمثل المشكلة الأساسية المرافقة للتعليم في كونه ليس موجهاً لتعزيز تفوق الإنسان الدارس، لأنه يهدف أساساً إلى تقوية الانسجام الاجتماعي والثقافي. ويهتم فقط بتكييف الناس اجتماعياً بحيث يذعنون للمحظورات والأوامر المحلية، وتكوين مهنيين يفيدون المجتمع باختصاصاتهم-أطباء، ومهندسون معماريون، ومهندسون، ومحامون، يحافظون على انتظام دوران النظام ويضمنونه. ولكنهم، من منظور تقني، يعتبرون كائنات إنسانية ناقصة لأنهم، ككل واحد، تلقوا تعليماً استظهارياً محدداً لم يطور وعيهم-تعليماً يركز على مفهوم "التملك" ويهمل تماماً مفهوم "الكينونة." وما المهنة، في الواقع، سوى شيء ما "يمتلكه" الفرد.

فالفرد، مثلاً، ليس مهندساً، بل، على الأصح، يقوم بمهنة مهندس، وهي ليست جزءاً من كينونته ولكنها طاقة عقلية مستقلة، أي أنها لا تخضع هرمياً لـ "أناه". ومع ذلك، يحدث العكس تماماً: الفرد يُدفَع أساساً بالقوة إلى حالة من العبودية الميكانيكية عن طريق

1-يقصد الأشخاص الذين يشبهون الإنسان الآلي-المترجم.

المعلومات التي يتلقاها من الخارج بفضل مهنته وتكيفه الإنساني. وفي الوقت نفسه، يكون مستوى يقظته ضعيفاً عادة، لأن المعلومات العقلية تَتَذَوَّتُ فقط عندما تكون خاضعة لـ "أنا"، وليس العكس. ومن البديهي أن الشيء نفسه لا يحدث للإنسان "السوي" بلغة كل المهن، والمهارات، والمعرفة، أعني، تلك المهارات التي لا تخضع لـ "أنا"، ولكنها، بدلاً من ذلك، تصبح هويات متراكبة تطوق، في النهاية، كامل الروح عند الفرد.

يبدأ التعليم بالآباء الذين لا يمكنهم، كما يبدو، أن يعلموا أنفسهم ما هم بحاجة إليه أو يعلمونه لغيرهم. فالوالد المُستلَب لن يورث ذريته سوى قلقه الخاص، وبذلك يخلق حلقة مفرغة يصعب كسرها، بعد أن يكون ذلك الميراث قد انتقل إلى الذرية جيلاً بعد جيل. وكثيراً ما يتحول الآباء إلى "آباء سيئين،" ليس لأنهم لا يحبون أطفالهم، ولكن لأنهم لا يعرفون الطريقة المناسبة لتعليمهم. فهم يميلون عادة إما إلى أن يكونوا تسلطيين تماماً أو متساهلين جداً، ويشعرون، في أغلب الأحيان، بأن أطفالهم يطيعونهم. ومن المعروف أن البيت والأسرة هما النموذج الذي يكوِّنه الطفل للعالم. فهو يدرك الحقيقة في العالم بالطريقة نفسها التي أدركها في البيت والأسرة. والأسرة النووية[1] هي التي تشكل العادات الأخلاقية عند الطفل، سواء كانت حسنة أو سيئة، وفقاً لسلوك الآباء. ومن الواضح أن طفل اللص لا ينظر إلى اللصوصية على اعتبارها خطأ وخارجة عن المألوف.

وعلى أية حال، كان آباؤنا أنفسهم ضحايا نظام تعليمي شاذ يفضل التقليد الأعمى والتعلم الاستظهاري، إلى حد أن غلطتهم تعتبر نسبية فقط بالنسبة لتعلمينا الخاطىء. فنحن نبدأ في المدرسة أطفالاً صغاراً مُفزَعين يروعنا العمالقة الذين يمارسون سلطة مطلقة على عقولنا في غرفة الصف، مع ضعف قدرتنا، هذا إذا كنا نتمتع بمثل تلك القدرة، على السؤال أو تقييم ما يعلمونه لنا. ونتلقى ما يقولونه كإنجيل، وبعملنا هذا، نكون ملزمين بقبول ما يقولونه، ودراسته، واستظهاره، وتنفيذه. ويتمتع هؤلاء المعلمون أيضاً بسلطة إثارتنا ضد آبائنا، لأن انخفاض الدرجات سيقطع حالاً الدفق العاطفي المتبادل بيننا وبين آبائنا.

والواقع هو أننا نذهب إلى المدرسة فقط لإمتاع آبائنا، لأننا، خلال تلك المرحلة من حياتنا، لا نتمتع بالتمييز الضروري لكي ندرك أنه يتوجب علينا أن ندرس. ويكمن العيب الأكثر خطورة في التعليم في طرائقه التي تشدد على الفهم عن طريق الاستظهار العفوي. فعلم

1-الأسرة المؤلفة فقط من الوالدين والأبناء-المترجم.

أصول التدريس الحديث يشجع، عن غير قصد، السلبية العقلية عند التلميذ بمعنى أنه يفتح عقله تماماً على المدخل غير المميز للمعلومات الملزمة من مصدر تسلطي، فيخترق معظمها دماغه بصورة غير واعية. إن التقنيات التقليدية لغسل الدماغ تُمطر العقل بمثيرات دووَعيَّة، فلا تواجهها معارضة عقلانية لأنها تدخل مباشرة إلى اللاوعي. وهذه هي بالضبط الطريقة الحديثة للتعليم في الوقت الحاضر: إنتاج مواطن بطريقة يصبح فيها امتداداً للثقافة السائدة أو نسخة أمينة لأولئك الذين يؤثرون على دماغه.

هناك تناقض كبير بين متطلبات التدريب المهني والتدريب الذي يهدف إلى تفوق الإنسان بمعنى "الوعي الأعلى." والجامعة عادة نوع من نظام لتجميع المهنيين من مختلف الاختصاصات، فيها يُطرى الدماغ الأكثر بداهة، ومرونة، ونفوذية. ويتم التغاضي كلياً عن الحاجة لتطوير الوعي الأعلى عند الكائن الإنساني، الوعي الذي يعتبر أهم حيازة عقلية فذة لدى الفرد. وبدونه تخسر المعرفة موضوعيتها الأخلاقية والروحية التي هي الهدف المتسامي الذي يجب أن يسعى الإنسان إليه لكي ينجز تحقيق ذاته.

إن النظام التعليمي بكامله نظام مقلّد، استقرائي، تحكمي، مُنوِّم. فكلما كان اعتبار الأستاذ أو الجامعة التي يعلم فيها أكبر، تكون سلبية الطلاب وسهولة تأثرهم بآراء الآخرين أكبر، وهكذا، فإنهم لن يسألوا عما يقال لهم وعما يتعلمونه. ومع ذلك، فإن السؤال ليس شرطاً أساسياً للتعلم، ولكن تمييز المرء لما يسمعه في الصف هو كذلك، في الواقع. فالتأمل الباطني يؤدي إلى إدراك حقيقي. ومن سوء الحظ أن هذا لا يحدث بصورة طبيعية لأن زيادة المعلومات التي تحتويها المناهج المدرسية العادية تربك العقل وتتخمه. ومن الشائع جداً أن يتساءل أحد الطلاب مندهشاً بعد الحصة الدرسية، عما كان يقوم به فعلاً. ويجب أن نضيف إلى هذه المعضلة المشكلات النفسية التي يعاني منها الطلاب، كالتعقيدات المختلفة، والخوف، وعدم الشعور بالأمان، والخجل، وضعف احترام الذات، وكل منها يشل التفكير ويعوق القدرة على الإدراك. وعلى الرغم من هذه العوائق، هناك مهنيون ممتازون في معظم ميادين المعرفة، وهذه حقيقة معروفة جيداً، ليس لأنهم يتمتعون بعمق الفهم لما يقومون به، ولكن، ببساطة، لأن أدمغتهم مبرمجة ببراعة.

ما المشكلة إذن؟ إنها تكمن، على وجه الدقة، في حقيقة أن التعليم يحوّل الناس إلى مجرد حاويات معلوماتية، تُحشى رؤوسهم بمعلومات مستقلة تؤدي، بدون شك، إلى تعميق

مستوى الاستلاب، مع ما يرافق ذلك من مخاطر تحدثنا عنها سابقاً. ويتزايد باضطراد حب الشخص المُستلَب للآلة ويتضاءل حبه للإنسان، منساقاً إلى عزلة مؤلمة ليتحول إلى شخص ضيَّع اتجاهه الحقيقي في الحياة. لقد أبعد نفسه عن طبيعته الباطنية وبات ملزماً بتنفيذ ما تمليه عليه شظايا ذاكرته بدلاً مما يرغبه في أعماق روحه.

عندما نريد أن نعرف العمل الذي يقوم به شخص ما، فإننا نسأله عادة عن "شهادات"ه أو مؤهلاته، ويزداد احترامنا له كلما كانت الكلية التي تخرج منها أكثر أهمية. ولكن الشيء الطبيعي ليس هذا في الواقع. بل إن ما يعكس ضعفنا العقلي هو تقديرنا العالي لأي شيء يأتي من مصدر محترم بدون أن نضع في اعتبارنا أن هذا الرأي لا قيمة له إذا كانت القدرات التي يُتَوَقَّع له أن يضمنها لا تؤدي وظائفها بفعالية وكفاءة في الحياة الواقعية. ويمكن اختباره فقط بمرور الوقت. وتفوق المهني أيضاً لا يعادل بالضرورة تفوق الإنسان، وهذان الحقلان اللذان يُدرسان عادة-وكثيراً ما يُدرسان-لا يرتبطان تماماً ببعضهما بعضاً.

لو قُيِّض لأرسطو أن يتجسد بصورة يمكن لكل شخص أن يتعرف إليه من خلالها، وسئم من تفاهة البشر، فقرر أن يخدع الناس بإطلاق تفاهات في "خطاب صعب فهمه،" لاقتنع كل واحد بالتأثير الذي لا يمكن إنكاره لكلماته، بدون أن يرتاب بأنها كانت خدعة من قبل الحكيم. وبالمقابل، لو قُيِّض لبوذا أن يعود إلى الوعظ بدون أن يعرِّف نفسه، لما انتبه أحد إليه.

يعلمنا نظامنا التعليمي السخيف أن نقيِّم الناس بما يملكون وليس كما هم. فالجمال البدني، والثروة، والممتلكات المادية، والمؤهلات المهنية، ونسب الأسرة كلها ترتبط بـ "الحيازة" أكثر مما ترتبط بـ "الكينونة." ويجب أن يكون واضحاً أن الطبيب هو طبيب فقط أثناء مزاولته لمهنته، وليس عندما يكون نائماً أو في إجازة، الأمر الذي يدل على أن مهنته مهارة مكتسبة وليست شيئاً يتصل بكينونته. وهناك واحد من الأمثلة الساطعة للاحترام غير المبرر يظهر عند الناس الذين يحمِّلهم المجتمع مسؤوليات كبيرة، كمنصب رئيس، أو وزير، أو قاض، أو شرطي، أو عضو في هيئة تشريعية. فينحرف هؤلاء عادة حتى أنهم يوسعون، بشكل زائف، حدود "أناهم"، حيث يخلطون هويتهم الخاصة بالوظيفة التي يؤدونها.

يصدِّق رئيس أنه رئيس جمهورية، ويشعر أنه المواطن الأكثر أهمية في بلده، الأمر الذي يسهم في فرط الشكلانية والاحترام اللذين يحظى بهما منصبه، وكأنه ملك بدلاً من

كونه رجل إدارة. فالتعبير "سيادتكم" قريب جداً من التعبير "جلالتكم." وهو، في الواقع، "فلان" الذي ينهض بالمهمة التي أسندها إليه المجتمع. فهو، بهذا المعنى، لم يوجد بذاته، بل " في وظيفة ... " ليس غير.

وقد يشعر قاض أنه يجسد العدالة، بدلاً من كونه موظفاً حكومياً يطبق القانون. وهو، بهذا المعنى أيضاً، ليس له وجود خاص به؛ بل "في وظيفة ..." ليس غير.

ويمكن لعضو في هيئة تشريعية أن ينسى بسهولة أنه مؤتمن فقط على رعاية مصالح شعبه وهكذا يسقط في شرك الغرور النرجسي لـ "أناه"، عن طريق التباهي بقوة لا يتمتع بها شخصياً، ولكنها سلطة خوَّله إياها المجتمع. ونورد فيما يلي ما نرتكبه من أخطاء وما نغفله في تعليمنا:

1. إنه ليس تعليماً فردياً. وعلى كل واحد أن يتكيف مع قالب التسوية نفسه.
2. وهو تسلطي وعدواني بسبب جسامة محتواه الدووَعيي.
3. لا يعلِّم الطالب كيف يتغلب على المستوى الدووَعيي للانتباه وبالتالي يدرس كما ينبغي، أي بطريقة غير محددة، لأن الأساتذة أنفسهم يجهلون هذا.
4. ومن الواضح أنه معلوماتي واستظهاي، ويهتم فقط بـ "برمجة" الطالب لا بجعله يفكر بعمق.
5. لا يعلِّم الفرد كيف يطور شخصيته وإرادته.
6. وهو إيحائي ومنوِّم، ولذلك يعمل على إضعاف باحة الوعي في الدماغ.
7. يكوِّن علاقة غير صحيحة بين المعلم والتلميذ. فالمعلم يجب ألا يعلِّم بالطريقة التقليدية، بل عليه، بدلاً من ذلك، أن يحفز الطالب على تعليم نفسه عن طريق المعلومات التي ينقلها إليه.
8. والمعلم لا يعلِّم الطالب كيف يتوصل إلى معرفة نفسه، ولا كيف يكتشف ذاتيته ويطورها.
9. ولا يتم تعليم الأخلاقية بأية طريقة ثابتة وعميقة.
10. والمعلومات التي تُمتَص من خلال عملية التعلم تترسب في الدماغ كمعلومات مستقلة-معلومات لا تخضع لل "أنا،" وتنجح في السيطرة على بعض مجالات السلوك بدون أن يكون الفرد قادراً على تخليص نفسه من تأثيراتها.

11. والتعليم بالطريقة العادية يعني أن نرسم حداً عقلياً ونقيد إمكانيات الطالب ضمن ما يحتويه هذا الحد.

12. لا تحظى المشكلات النفسية التي يمكن أن تعوق عملية التعلم بالاهتمام الكافي. فهناك العديد من الطلاب الذين يواجهون مشكلات خطيرة ويحرصون على التكتم عليها لتفادي السخرية واللوم. والناس من ذوي الأمزجة الأكثر حساسية مجبرون غالباً على التضحية بمواهبهم في سبيل تكييف أنفسهم من خلال الالتزام بفظاظة الجماعة.

إن التعليم السمعي البصري، كما أرى، هو النمط التعليمي الأكثر فظاعة، مادام يمكن أن يؤدي إلى عالم الإنسان الآلي الأمي. وهو، من بين كل أشكال التدريب، الشكل الذي فيه يكون الطالب أقل وعياً عند مشاركته به، ذلك لأن الـ "أنا" لاتسيطر على الرسائل التي تُطبَع في الذهن، بل على العكس، فالرسائل هي التي تسيطر على الـ "أنا".

يجب أن يكون مفهوماً أن أية معلومات تخترق دماغ الفرد بدون أن تكون "أناه" قادرة على تمييزها، تحمل، في هذا السياق، خصوصية التأثير المنوِّم. والتدهور الناتج في سلوكه الواعي يجعل من الصعب عليه أن يحافظ على سلوك أخلاقي ملائم. ويمكن تعليل هذا بحقيقة أن الأخلاقية الأصيلة لا يمكن أن تكون إلزامية، لأنها تتطلب تصميماً واختياراً فرديين. إن أي شكل من أشكال التأثير المنوم يسبب انكماشاً في العقل الواعي عند الفرد، مع ما ينتج عن هذا الانكماش من ضعف في شخصيته وإرادته. وهي مسألة خطيرة لأن الشخصيات الضعيفة تستسلم بسهولة للرذيلة والفساد. مع ذلك، دعونا نتفاءل ونأمل في ألا يبقى في القرن القادم[1] معلمون وقادة مُنَوِّمون يمارسون عملية التنويم.

ينبغي أن أشير إلى اختلاف عقلي مهم عند شخص متعلم ذاتياً، شخص يعلم ويثقف نفسه بقرار حر من عنده دون مساعدة معلم، حيث يجبره ما يبذله من جهد على أن يرفع مستوى وعيه. هذه هي الطريقة التي بها يطور، بدون قصد، مضموناً إنسانياً أكبر، يمكن للمرء أن يدركه عندما يلاحظ هذا الشخص.

ربما لا يدرك بعض القراء، على نحو واضح تماماً، لماذا تعمل هذه الأخطاء التعليمية على كبح السلوك الأخلاقي عند الناس، مع أن التعليل سهل جداً. إن الأخلاقية الأصيلة، أياً كانت، ينبغي أن تكون حرة، وطوعية، وواعية، في حين أن تعليمنا وتثقيفنا لايعلماننا ولا

1-يقصد القرن الحالي-المترجم

يشجعاننا على تنمية وعينا. والدارج، بدلاً من ذلك، هو تجاهل الوعي، وفي بيئة عقيمة كهذه، لا يمكن إدراك أهميته.

يمكن إدراك اليوطوبيا[2] Utobia الأخلاقية لعالم متمدن حقاً بموجبها تحكم الفرد مبادىء أخلاقية سامية فقط من خلال تجمع هؤلاء الأفراد الذين يجتازون، بحسب قرار شخصي طوعي، سنوات من التدريب بهدف اكتساب سلوك واع بحق. فلو كان الناس يدركون فقط الفائدة الكبيرة للتصرف الثابت المقترن بالتزام مطلق بالمعايير الأخلاقية الأعلى، لانتهت كافة أنواع الجنوح، والحروب، والصراعات، ولكان قانون التكافؤ الذي ينادي به القائلون بالمساواة بين الناس هو معيار العلاقات بين الأشخاص. ولكن، علينا، لكي نحقق هذا، أن نغير، بصورة جذرية، النظام التعليمي، بحيث تصبح الأخلاقية فتحاً أخلاقياً فردياً، أي مجموعة من القواعد التي يقبلها كل شخص بحرية وإدراك. ويجب أن يكون الإنجاز الأساسي الأهم للتعليم هو تدريب الكائنات البشرية وتطويرها بحيث تتنامى إنسانيتها ومحتواها الباطني، لا أن تتحول إلى مجرد أشخاص فعالين آلياً.

يفضل المجتمع أن يبحث عن الناس الملائمين للنظام وهذا يعني إضافة المزيد من الأغنام إلى القطيع عن طريق مراعاة زيادة الكمية أكثر من النوعية. وما لم يكن هناك إدراك لأهمية التحقيق الذاتي للروح عند الفرد، فإن تحسن المجتمع سيكون صعباً، لأنه سيواصل إخضاع الفرد إلى عبودية الوسطية الجماعية. فالمدارس والجامعات ليست معابد فيها تُصاغ إنسانية النوع. ومدرسة الحياة وحدها هي التي تهيء الفرصة للفرد لكي يكتشف بنفسه الطريق المستقيم الذي رسمه الخالق. ومن سوء الحظ أن ضل كثيرون طريقهم في المحاولة.

4-الطبيعة الذاتية للقيم الأخلاقية

من الضروري أن نواجه حقيقة أن معظم الناس يمارسون نوعاً من الذاتانية الأخلاقية moral subjectivism ، وهو مذهب يعتبر أن هدف التصرف الأخلاقي هو تحقيق حالة ذاتية من اللذة أو السعادة. وهذا يعني أن الفرد يصنف في خانة "الصالح" أي تصرف يوفر له هذه اللذة، وفي خانة "السيء" الألم الذي تسببه المعاناة. ومن الواضح أن معنى الأخلاقية الذي نعرّفه كسلوك أخلاقي رفيع، يُطمَس بهذه الطريقة. وتصبح الذاتانية ذريعة للفرد لكي يطلق

2-المدينة الفاضلة أو المجتمع المثالي، أو إنها هنا، خطة غير عملية للإصلاح الأخلاقي-المترجم.

العنان لرغباته ودوافعه الأكثر بدائية وبهيمية، بدون أن يشعر بالحرج أو الارتباك-لأن هذه الدوافع مقبولة مادامت توفر إحساساً باللذة. فلا ضير إذن في أن يدمن السكر لمجرد أنه يجد متعة في الشراب، حتى وإن دفعته تعتعته إلى إثارة حوادث عنف عائلي أو إلى أساءة معاملة أطفاله. فهناك كثير من الآباء اغتصبوا بناتهن في مثل هذه الحالات، ولم يخلف هذا لديهم أدنى شعور بالندم. فإذا كان جاك الخليع يجد لذة في تقطيع أوصال الموسسات، فإنه لا يمكن، وفقاً لمذهب الذاتانية الأخلاقية، أن نصف تصرفاته بأنها لاأخلاقية. ولا يمكن أيضاً أن نفعل ذلك بالنسبة لإرهابي يلقي قنبلة مروعة، مادام هذا التصرف يجعله يشعر بأهميته، أي أن ذاتانيته تغذي إدراكه لتصرفه على أنه فضيلة. ومن سوء الحظ، وعلى الرغم من الجهود التي تبذلها حملات التفسير الأخلاقي، فإن مذهب الذاتانية الأخلاقية هو الموقف الذي ينتشر على نطاق واسع بين الناس، بفضل إسهام كافة أساتذة علم الأخلاق الذين يعتبرون الأخلاقية مسألة أفضلية أو رغبة شخصية.

فعلى سبيل المثال، يؤكد برتراند راسل، في نظريته ذاتية القيم، على أنه "إذا اختلف رجلان حول القيم، فلن يكون هذا اختلافاً على أي نوع من الحقيقة، ولكنه فقط اختلاف في الذوق. والقاعدة الأساسية التي تدفع إلى تبني هذا الرأي هي أنه يستحيل تماماً إيجاد براهين تثبت أن هذا أو ذاك يتمتع بأية فضيلة داخلية." ومن الواضح أن "الخطيئة" تختفي مع هذا النمط من التفكير.

ويكتب راسل، "التصرف الذي يعتبره شخص ما تصرفاً شريراً، يمكن أن يعتبره شخص آخر تصرفاً فاضلاً،" ثم يضيف "جهنم كمكان لمعاقبة المخطئين، تصبح غير معقولة." من هنا تتضح النتائج الأخلاقية لهذه المفاهيم، إنها السرطان الأخلاقي الذي يبتلينا في العصر الحاضر: غياب أية قيمة سامية.

فاحترام المسنين يتضاءل باضطراد؛ واستُبدل الحب الرومانسي الذي ينتهي بالزواج باتصالات جنسية على شكل "استهلاك متعة"؛ وأصبح الشرف تقريباً أثراً من الماضي؛ ولم تعد الروح الوطنية تحتل المكانة التي كانت لها في الماضي؛ وغزا الغَرْتَسْك[1] Grotesque عالم الفن؛ واستُبدلَت المبارزة لتصفية الحسابات بالإبادة الجماعية باستخدام الأسلحة النووية.

1-فن زخرفي يتميز بأشكال بشرية وحيوانية غريبة أو خيالية متداخلة مما يحيل ماهو طبيعي إلى بشاعة أو كاريكاتير-المترجم.

وأصبحت الأخلاقية التي يجب أن تتميز بها رسالة الطب نادرة أكثر فأكثر. فالطبيب الذي كان في الماضي مستشاراً روحياً للأسرة، إضافة إلى عمله كطبيب، يواجه الانقراض في هذا العصر. وعلاقات الود بين الجيران في المنطقة نفسها أصبحت أكثر ندرة، على الرغم من الزيادة الانفجارية في عدد الكتل المدينية. والأدوية التي يمكن أن تشفي العديد من الأمراض في البلدان الأقل تطوراً لا يجري تصنيعها، لأن تلك البلدان لا تملك المال اللازم لشرائها. والمواد الغذائية وفيرة في أنحاء العالم، ولكن شراءها يحتاج إلى المال، ولهذا يموت الناس جوعاً .

إن الوصول إلى العدالة في كثير من البلدان سخرية مرة، بالنسبة لمن يفتقرون إلى الوسائل الاقتصادية الضرورية. وهناك مناسبات يكون فيها الحديث عن "الحضارة"، في عالم هو دائماً في حالة حرب، مجرد دعابة سمجة. ويبدو أن ما نسميه "تقدماً" ليس أخلاقياً بل هو مجرد من المبادىء الأخلاقية. ولهذا السبب، يمكن بصعوبة أن نتوقع من الناس أن يتصرفوا باستقامة. وعندما يفعلون ذلك، فإنما يفعلونه فقط خوفاً من العقاب وليس تحت تأثير أي دافع داخلي أخلاقي.

فعلى سبيل المثال، إذا أقر قانون البلد منح عفو عام مسبق عن كافة الجرائم التي يمكن أن تُرتَكَب في الأول من كانون الثاني، فإن النتيجة ستكون كارثية تماماً. لأن معظم الناس سيطلقون العنان لأكثر غرائزهم انحطاطاً، مطمئنين إلى أنهم لن يتعرضوا إلى العقاب. ولدينا العديد من الأمثلة على هذا. فقد ورد ذكر عدد لا يحصى من "القبور المُبَيَّضَة[1] من النوع الذي أتي على ذكره يسوع المسيح. وكثيراً ما نسمع أن رئيس بلد ما سرق مبالغ طائلة من المال؛ وعن سياسيين أصبحوا أغنياء عن طريق التعامل مع مطّلعين[2]؛ وموظفين حكوميين مرتشين؛ ورجال شرطة مرتزقة يقومون بخدمة من يمكن أن يدفع لهم؛ وبعض القضاة الذين يبيعون أنفسهم لمن يدفع ثمناً أعلى. أطالع حالياً كتاباً وضعه صحفي فنزويللي تحت عنوان: كم يكلف شراء قاض؟ يكشف هذا الكتاب عن شذوذية السلطة القضائية في ذلك البلد، ويسلط الضوء على ذلك المرجع الأعلى. وسواء اتفقنا أم لا مع وجهة نظر المؤلف، فإنه من المحتمل جداً أن يسهم الكتاب، في النهاية، في تقديم خدمة عامة أكثر وضوحاً للجمهور، وهو هدف يستحق الثناء. ليت هناك حرية في الديموقراطيات الأخرى تسمح بإجراء

1-من قول للسيد المسيح، "ويل لكم أيها الكَتَبَة والفَرِّيسيُّون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبَيَّضَة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة." إنجيل متى 27:23-المترجم.

2- المطّلع: شخص يحتل موقعاً مهماً في السلطة أو تتيسر له أسباب الاطلاع على بواطن الأمور-المترجم.

بحوث مماثلة بدون أن يخضع الباحثون إلى استجوابات سرية سياسية. إن هؤلاء الذي يحتلون مناصب مختلفة في السلطة، يترتب عليهم، من خلال مواقعهم كشخصيات حكومية، أن يوضحوا الأمور تماماً، وإذا رفضوا القيام بهذا الواجب، فإن رفضهم يعتبر نموذجاً أخلاقياً يدعو إلى الرثاء.

لا ريب في أنه ما من أحد ينتهك المبادىء الأخلاقية ويشعر بأنه "شرير،" لأن الشيء الوحيد الذي يقصده، بكل تأكيد، هو السعي وراء السعادة والفضيلة، وإن يكن بطريقة مضللة إلى حد مثير. إن واحدة من أهم المشكلات التي تعاني منها الأخلاقية هي أنه ليس للُعبة، في المستوى الثقافي، قواعد محددة على نحو واضح، وثابتة، وتوافقية. فكل شخص يفسر المسألة وفقاً لمصالحه الشخصية. ولهذا السبب، فإن النهج الوحيد الصحيح هو أن يعمل كل بمفرده على تنمية وعي يساعده على اكتشاف مأتىً إلى الحقائق الأكثر عمقاً، والأكثر تسامياً، وبالتالي، الوصول إلى حالة روحية، فيها تكمن الحقيقة العليا. وطالما بقي الناس في حالة من ضعف الوعي، فإنهم يواصلون بحثهم العقيم عن أخلاقية توافقية، ويضيعون في متاهات النقاشات العويصة والمعقدة، مما يسبب غموض المسألة بدلاً من توضيحها.

والحقيقة هي أنه إذا كنا ننتظر الخلاص والتقدم الحقيقي، فإن علم الأخلاق يجب أن يُصاغ من أنقى أنواع الفولاذ لا من المطاط، لأن المرء عندما يتعرض لإغراء الشروع بالتملص من بعض الأوامر الأخلاقية أو تكييف المبادىء الأخرى، فإنه لن يعرف متى يتوقف وأين. ويعني هذا أن نعود إلى القيم الإنسانية التقليدية كـ الجد في العمل، و المثابرة، و الاستقامة، و الفضيلة، و التضحية، و وحدة الأسرة، و التسامح، و الجدارة الفردية، و الصلاح، و الحب، و العدالة، و الصداقة، و الإيثار، و التضامن.

يسلك الجنس البشري في عصرنا "الطريق السهلة،" لأن السبيل إلى كل رذيلة، أو فساد، أو عمل لاأخلاقي تتجه نزولاً، وعبورها لا يحتاج إلى جهد كبير. والانحطاط الأخلاقي ليس أكثر من أن يهبط المرء بنفسه، دون وعي، على امتداد سلم الإنسانية، بدون أن يدرك ذلك. وباتباع هذا المسلك، يمكن أن يجد الإنسان العاقل نفسه وقد نكص إلى مرحلة السير على أربع، مزوداً بذيل وحوافر قبل أن يدرك ما يحدث له. ولا يسعني هنا إلا أن أذكر مسرحية وحيد القرن، وهي أهم عمل يفسر مسرح اللامعقول عند يوجين يونسكو[1]. تقع

1-كاتب مسرحي فرنسي من ابرز اركان مسرح اللامعقول، عاش في مطلع القرن الماضي-المترجم.

سلسلة الأحداث في بلدة فرنسية صغيرة، حيث يظهر في أحد الأيام وحيد القرن، ثم في اليوم التالي، والتالي أيضاً. ويتحول سكان المدينة أنفسهم إلى حيوانات!

نفهم عن طريق "النسبية الأخلاقية ، أن المعايير الأخلاقية يمكن أن تكون قابلة للتبدل بالنسبة للإنسان. ولهذا بيَّن أرسطو ان "المبادىء الأخلاقية هي دائماً أخلاقية الإنسان، وليست أخلاقية الإله ولا الحيوانات." إن الدعوة لتخفيف المطالبة بمستوى مثالي للأخلاقية، في هذه الأيام، لا تعدو كونها ذريعة سلفية، طرحها أحدهم، في رايي، كمبرر للناس لكي يقبلوا بأخلاقية اختيارية متساهلة (لا تشير حالياً إلى "ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان، ولكنها محدودة بما يكون عليه في لحظة معلومة"). وعن طريق العمل بالطريقة المُجامِلَة هذه، فإن كل ما يمكن تحقيقه هو التشديد على حقيقة أن الإنسان يجب أن يبقى كما هو الآن، وليس اكثر من هذا.

يقول فريدريك نيتشه إن "الإنسان جسر بين الحيوان والإنسان الأمثل." واليوم، تحكم النسبية الأخلاقية على الإنسان أن يبقى في حالة "جسرية" سرمدية-ثابت تماماً كجسر، ومنقسم دائماً بين الطرفين. أخذت هذه الاستعارة من نيتشه لأنني وجدتها وصفية جداً، مع أنها تتضمن معنى مختلفاً تماماً عن استعارته. فـ "الإنسان الأمثل، بالنسبة لي، هو مجرد "إنسان متطور،" لا كائناً بدون إله أو ناموس. و "الإنسان الأمثل،" حتى بدرجة أدنى، يكون رمزاً عرقياً، لأن الارتقاء فرصة تقع في متناول كل واحد بدون تمييز.

أُعجب كثير من الفلاسفة والمفكرين إلى حد كبير بفكرة أرسطو حول تفسير موضوع "الخير" على المستوى الإنساني. وربما لم يكن هذا الإعجاب أكثر من تعبير عن شعور سلفي في مواجهة موقفهم-تنهد ارتياح وتبرير لكي لا ينهضوا بالمهمة الشاقة لبلوغ مثل هذه الفضيلة الرفيعة التي تتطلب بذل الجهد على مدى سنوات عديدة لبلوغ الكمال. إن الإنسان، كسلفي، مجرد إنسان وليس إلهاً، ولكن، لنترك إمكانية الارتقاء صعوداً مفتوحة أمام من يطمحون إلى التطور، لا إلى البقاء "بشراً جُسوراً."

وعلى أية حال، لابد أن تكون هذه مسألة أفضلية شخصية. فهناك من يحبون النظر إلى الأرض، وآخرون إلى الأفق، وقلة إلى السماء. فالدجاج ينظر دائماً إلى الأرض، والعقاب إلى السماء وعندما لا يجد الناس مأتىً إلى أي شيء أفضل مما هو معروف حاليا، فإنهم يقتنعون عادة بما لديهم الآن، مهما كان هذا متناقضاً. وكلما شرحنا بوضوح أكبر كيف يجب ان

يكون الإنسان المثالي، كانت الفرصة أكبر لفتح أعين من يظنون أن ما هو موجود حالياً مساوٍ للحد الأمثل لمجرد أنه طبيعي.

يجب أن يفهم أحدنا أن الأخلاقية شكل للروحية. ولكن الكلمة "روحية" خُرِّبَت وجُرِّدَت من محتواها المعنوي في مرحلة ما من التاريخ. وهي اليوم لا تحمل مغزى ثقافياً يتطابق مع جوهرها الحقيقي، أي، "عمل فردي يبلغ من خلاله الشخص حالات أعلى من الوعي تساعده على تجسيد كينونته من خلال دماغه الخاص-حالة من الوعي لا تنبع من ذكائه بل من محتواه الداخلي.

تترافق "الروحية" عادة بالمحبة والحساسية للموسيقا الراقية والفنون الجميلة، أو، بطريقة أخرى، تُعطى تفسيراً ميتافيزيقيا. وممارسة هذا الشكل من "الروحية" لا يحمل شبهاً للانضباط الداخلي الرفيع الذي يجب أن يمتثل له الشخص عندما يقرر أن يتوقف عن كونه "إنساناً جسراً" لكي يداني حالة الإنسان الأمثل. وإنها لمسألة أساسية أن يُجَرَّد مفهوم "الإنسان الرفيع" من أية مضامين عنصرية أو نخبوية بالمعنى التقليدي، لأن طريق الارتقاء متاح بحرية للجميع. فعلى سبيل المثال، هناك من هو على استعداد لتمزيق ثيابه إذا أكد له أحدهم أن يسوع المسيح كان أسود اللون. وما أهمية ذلك؟ أما أنا، فالأمر عندي سيان، سواء كان أسود، أو أبيض، أو أصفر، وما كان ليغيِّر شيئاً على الإطلاق، لأن حياة الروح تتسامى فوق أي تمييز إنساني. فما نماذج الأدوار التي يقلدها معظم الشباب في هذه الأيام؟ هل هم معجبون بفيثاغورس، أو سقراط، أو كونفوشيوس، أو مايكل آنجلو، أو ليوناردو دا فنشي، أو القديس أوغسطين، أو شكسبير، أو سرفانتس، أو آخرين من أمثالهم؟ طبعاً، لا. فنماذج الأدوار التي يقلدونها هي عادة لأشخاص ضعاف، مخنثين Asexual[1]، ومكروبين، وغير آمنين ولا يتمتعون بأية قيم عليا-طفيليات اجتماعية لا تسهم بشيء ذي أهمية للمجتمع.

فهل هناك أمثلة حديثة يجدر التمسك بها كنماذج أدوار للروحية والأخلاقية؟ إنها قليلة جداً، لأن الشيء الوحيد الذي يحظى بالتقدير في نظامنا هو كيف نجني المال أو الربح لقاء فوائد محددة، إلى الحد الذي عنده تبقى مجهولة تلك القلة من الأفراد الذين يحققون التفوق الروحي عادة. ويبدو وكأن قيم الشرف، والفروسية، والشهامة الداخلية اندثرت أو أصبحت في ذمة الماضي. كان "الفارس" في القرون الوسطى هو المثل الأعلى للشهامة، فهو من (يعتلي

1-هم المخنثون أو الباردون جنسياً-المترجم.

صهوة الجواد؛ ويتحكم بشقه البهيمي). وفي القرن الرابع عشر، عندما كان هذا المثل الأعلى في سبيله إلى الانهيار، كتب أحد المؤلفين يصور ذلك :

أنت، يا من ترغب في الوصول إلى نظام الفرسان، عليك أن تحيا حياة جديدة؛ عليك أن تثابر بخشوع على صلواتك، وتبتعد عن الخطيئة، والغرور، والوضاعة؛ يجب أن تدافع عن الكنيسة وتساعد الأرملة واليتيم؛ عليك أن تتحلى بالشجاعة وتحمي الناس؛ وأن تكون مخلصاً ومستجيباً ولا تأخذ شيئاً من أحد؛ هكذا يجب أن يتصرف الفارس. فالفارس يجب أن يكون متواضعاً في داخله ويحاول دائماً أن يحقق أعمالاً بطولية؛ ولتكن مخلصاً في الحرب ومستعداً للانطلاق في رحلات طويلة؛ وأن تشهد المبارزات والمثاقفات إكراماً لسيدتك الجميلة؛ وأن تفكر دائماً بالشرف، لكي لا تُلام أبداً من أجل أعمال خسيسة ولا تُتَّهَم بالجبن؛ ويجب أن تعتبر نفسك أنك آخر كل الرجال؛ هكذا يجب أن يتصرف الفارس.

ويجب أن أضيف أيضاً أنه في الأنظمة القديمة للفروسية، كان ركوب الخيل تدريباً روحياً يُشجِّع على الانتقال بين الجانب البهيمي والحيواني للراكب، لكي يحقق، بصورة غير مباشرة، تحكماً أكبر بطبيعته الأكثر خسة. وأراني متأكداً تماماً من أن الرجال المهمين حقاً في العالم مجهولون كلياً، وأظن أيضاً أن هناك العديد من الناس ممتازون روحياً، ولكن أفكارهم، بسبب السمو المفاهيمي لعقولهم، لا تروق لمن يهمهم أن يبقى الإنسان في حالة المستهلك المذعن. وفي الحقيقة، لا يحتمل أن يصبحوا معروفين أبداً.

أُدين سقراط لأنه كان يكثر من الكلام؛ ونيرون قتل سنيكا[2] لأنه اكتشف الحقيقة التي لا يمكن تحمُّلها؛ ويسوع المسيح كشف عن نفسه للعالم وصُلب. وهكذا، يبدو أن الضمائر الشريرة في كل العصور لا يمكن أن تتحمل الحقيقة، حتى أن الأنبياء الحقيقيين كانوا أحياناً ينتهون كقرابين أو يوصمون بأنهم كائنات فاسدة تنكرت بلبوس رجال صالحين. وبالفعل، يجب أن نعرف أن ليس من السهل أن نتبع أحسن فضائل النماذج الأخلاقية أو نقلدها، لأن هذا يستلزم عملاً فردياً شاقاً يتاح فقط لمن يتوق حقاً إلى السمو الإنساني والروحي. فعلى سبيل المثال، إن معظم أتباع يسوع المسيح اكتفوا فقط بتقليده ظاهرياً، ولكنهم لم يستطيعوا محاكاته داخلياً. فالقليلون جداً "يديرون الخد الآخر" عندما يتعرضون للاعتداء. وأقل من ذلك أيضاً من يعملون بالقاعدة الذهبية "عامل الآخرين، كما تحب أن

2-خطيب وزعيم سياسي روماني له مؤلفات فلسفية ومسرحيات تراجيدية-المترجم.

يعاملوك." ومن المهم أن نعرف أن طريق الفضيلة هو السبيل الوحيد الممكن. وعندما يفشل الناس بالانطلاق في هذه الطريق، أو عندما ينحرفون عنها، فإن الحياة تعاقبهم بحملهم على الدوران في حلقات. فيدورون ويدورون آلاف المرات على امتداد طرق متعرجة، وفي كل مرة يبتعدون أكثر عما يرغبونه حقاً، بدون أي مأتىً يفضي بهم إلى فضيلة عليا أو سعادة مرومة. وأملهم الوحيد هو أن يحققوا يوماً ما فشلوا في تحقيقه سابقاً-السير بسرعة مباشرة إلى سبيل الفضيلة الإنسانية الأسمى.

قبل هذه المرحلة، لابد أن يكون هناك كثير ممن يضربون رؤوسهم على جدار هذه المناحات، متخمين بالشكوكية والامتعاض. ومن المضحك أن هناك استثناءات من الذين يُصرِّفون فعلاً نمطاً من السلوك الروحي العلماني، لأنهم موضع شك من قبل المجتمع الذي لا يمكن أن يفهم نشاطاتهم التي لا تهدف، بصورة رئيسية، إلى الربح الاقتصادي أو الطموح الأناني، ولكنها تبيِّن لنا أن الأخلاقية لا يمكن أن تكون اعتباطية أو موضوعاً للتلاعب بل يجب ضبطها وفقاً لمعيار أو مقياس مثالي ينبعث من النظام الطبيعي أو المقدس للكون. وفي سياق آخر، نجد أيضاً في الممارسات الروحية للقديس أغناطيوس لويولا[1] مثالاً للعمل الباطني الذي يهدف إلى السيطرة على العواطف وممارسة الفضيلة.

5-انحطاط مستوى الارتقاء عند الإنسان

إذا وضعنا في اعتبارنا أن العمر التقديري لكوكب الأرض يقارب 4.5 بليون سنة، وأن السلوك "الواعي" للإنسان لا يرجع، على الأغلب، إلى أكثر من 30000 سنة، فإننا سوف ندرك أنه بالكاد كنا قد بدأنا نسير منتصبين. ولهذا، فإن مستوى الارتقاء عند الإنسان غير موجود تقريباً.

وإذا عدنا إلى مفهوم أرسطو "الأخلاقية يجب أن تكون أخلاقية الإنسان،" فإنه يجب أن ندرك أن هذا ما يحدث تماماً وتكون النتائج ظاهرة للعيان. فالقواعد الأخلاقية هي "لإنسان اليوم" وهو بالكاد أكثر من طفل، يخلط بين تلك القواعد والدمى التي يمكن أن يستخدمها لإشباع نزواته المتواصلة، أو لتبرير نوباته الانفعالية. والطريقة التي يتصرف بها الإنسان اليوم تتوافق مع عمره الارتقائي، وما يفعله هو كل ما يعرف كيف يفعله أو أنه قادر

1-(1491-1566)، كاهن أسباني أسس الرهبانية اليسوعية-المترجم.

على فعله وفقاً لهذا المستوى. فلا يمكن أن نطلب من النوع وهو بالكاد بعمر 30000 سنة أن يتصرف كما لو كان بعمر 200000 سنة.

لماذا إذاً عرف الإنسان عصوراً أفضل؟ يُعزى هذا إلى حقيقة أن الارتقاء لم يكن متواصلاً، بل كانت هناك توقفات، وتراجعات، وإخفاقات. ولا أشك في أنه كان للإنسان مكانة أخلاقية أكبر خلال بعض الحقب الماضية، وأننا ننحدر اليوم بسرعة. وسبب هذا الانقطاع بسيط جداً: تركز مدارس اليوم عملها على برمجة أدمغة الناس لكي تقوم بوظائفها اجتماعياً ومهنياً وتشدد على نشر أكبر قدر ممكن من المعلومات، في حين تهمل أي نوع من التدريب الأخلاقي. وقد ارتُكِب أكبر خطأ علمي بتأييد الرأي القائل إن "الذكاء عند الكائنات الإنسانية هو المَلَكَة التي تستحق أكبر قدر من التقدير." وبالتالي فصله عن الوعي، الذي بدونه يكون الفكر ليس أكثر من سفينة طافية من غير مرساة. ويتم أيضاً حجب حقيقة أن الوعي يتحكم ليس فقط بالذكاء المبدع، ولكنه أيضاً يتمتع بعدد كبير من الإمكانيات حسب المستويات العليا والدنيا لليقظة.

ولنستذكر هنا كلمات السير آرثر إدنغتون عندما أعلن أن "العقل هو الهدف الأول والأكثر مباشرة لتجربتنا، وكل ما يمكننا دراسته هو محتوى وعينا الخاص." وأنا على قناعة بأنه كما أن هناك خيراً أسمى، يجب أن يكون هناك أيضاً شر مطلق، أظنه قوة كونية لطبيعة تراجعية. الذكاء هو الذي يتلاعب باللغة مع الزمن لكي يبدل محتواها المعنوي ويحوّل المعنى الحقيقي للكلمات والمفاهيم المتسامية، التي، لو فُهِمَت، لقادت كثيراً جداً من الناس على طريق الفضيلة. فأنا، مثلاً، لا أظن أن برج بابل الأسطوري يشير إلى لغات مختلفة بل، على الأصح، إلى معنى متحيز قصداً، ومُتَلاعَب فيه، ومشوش، وسطحي. إلى حد أن المَلَكَة الأكثر أهمية عند الكائن الإنساني لم تعد موجودة كمفهوم ثقافي سهل المنال. وهذه الملكة السامية هي "الوعي الأعلى" بمعنى الكينونة الأكثر وعياً أو المفرطة في الوعي. تظهر الأهمية الثقافية الضئيلة التي تعطى لكلمة وعي بحقيقة أن معناها الأكثر عمقاً وقيمة معنوية بالنسبة للإنسان غير موجود في المعاجم. وهكذا يُجرَّد الناس من أي مفهوم لإمكانية الارتقاء بواسطة بعض من فروع المعرفة التي تساعدهم على الوصول إلى ما تأتٍّ لحالات أعلى من الوعي. حقاً، يمكن للإنسان أن يتطور فقط عن طريق استخدام الوسائل المعرفية التي هي أرقى من الوسائل العادية، لأن الثقافة تستخدم فقط الوسائل العادية والشائعة. ويمكن التأكد من هذا بحقيقة أنه إذا كان يجب أن تتضمن الثقافة معرفة استثنائية، عندئذٍ يمكن لأي شخص أن

يكتشف سبيل الارتقاء. وهناك أيضاً كلمات مهمة يبقى معناها الحقيقي غامضاً مثل: روح، أنا، كينونة، وعي، شرف، حب، حرية خير، شر، إلخ. وكأن هناك مؤامرة صامته تتولى إخفاء المعنى الأكثر أهمية خلف بعض التعابير. ومن المحتمل جداً أن أشياء مماثلة تحدث في كل اللغات. فقد عرضت بعض المعاجم التعاريف التالية للوعي:

1. خاصية الروح الإنسانية لتمييز نفسها في صفاتها الجوهرية وفي التعديلات التي تخبُرُها في ذاتها.

2. معرفة باطنية للخير والشر.

ويوصف الوعي في علم النفس على أنه "الملمح الذي يميز الحياة النفسية، أي يصورها على نحو مختلف كـ: (آ) وعي عام؛ (ب) تأثير مركزي لاستقبال عصبي؛ (ج) قابلية استيعاب للخبرات؛ (د) مظهر ذاتي للنشاط الدماغي؛ (هـ) علاقة الـ 'أنا' بالبيئة."

ومع أن كافة هذه التعاريف دقيقة في الواقع، غير أنها لا تقول شيئاً حول المعنى الأكثر أهمية لكلمة الوعي، الذي يشير إلى " قابلية أن تكون واعياً بطريقة أعلى" مقارنة بالحالة الشائعة للوعي. والحالة الشائعة هذه فطرية، ولكن الوعي الأعلى يمكن تحقيقه فقط من خلال تدريب روحي صارم غير معروف في العالم الثقافي. ويقتضي الوعي الأعلى ضمناً حالة سابقة من "يقظة مشددة،" لأن الحالة السوية للوعي الإنساني كانت قد عُرِّفَت بوصفها حالة من "نعاس" (بين النوم واليقظة). وهذا يعني أنه على الرغم من أننا نكون مستيقظين، فإن هناك، في كل الأوقات، بقية مهمة من النوم في أدمغتنا. وهذا يختلف عن النوم الليلي، في أنه يتطابق مع نوع من الخدر المنوِّم. فإذا أراد أحدهم أن يصل إلى حالات أعلى من الوعي، فعليه أن يقاوم هذه البقية من النوم. صحيح أن هذه الظاهرة المنوِّمة تبقى، من بين حقول البحث، حقلاً غامضاً تقريباً، لأنها لم تسبق دراستها من وجهة نظر "الطاقة الكونية التي تؤثر، بطريقة ما، على كافة الأشياء الحية وغير الحية." وحقل الدراسة هذا لا يقل أهمية عن دراسة الجاذبية الكونية، مثلاً.

أنا على قناعة تامة من أن الصفة الأكثر قيمة عند الكائن البشري هي الوعي الأعلى الذي يصبح، في تجليه الرفيع، تجسيداً للّوجوس[1] Logos. وهراقليط[2] هو أول من استخدم

1-أو العقل: المبدأ العقلاني في الكون (في الفلسفة اليونانية القديمة)-المترجم.

2-(540؟-480 ق.م): فيلسوف يوناني قال إن النار هي الجوهر الأول-المترجم.

كلمة لوجوس بمعنى ميتافيزيقي، وواصل الرواقيون[1] استخدام مفهوم مماثل هو اليوم صحيح مثله لأن الطبيعة تتمتع بالديمومة التي كان ينكرها الكائن الإنساني. لا ريب في أن اللوجوس هو الطاقة العليا أو القدرة التي تنظم الكون وتوجهه. وعندما يفهم الجنس البشري فقط ما الوعي الأعلى، وينجح في مطابقته مع القيم العليا التي يمكن أن يطمح إليها الفرد، فإنه سيكون قادراً على حيازة مرجع ثقافي يشير إلى تحديد طبيعة الهدف الأكثر رفعة في الحياة بالنسبة للإنسان، أي، الارتقاء العمودي الصاعد لوعيه، الذي هو غرض الوجود ومغزاه. ودون هذا لن يكون للذكاء أي معنى. لماذا نريد حكماء "لا واعين" لا يمكنهم تحمل مسؤولية الاستخدام المناسب لمبتكراتهم ومكتشفاتهم؟ إن واحداً من أخطر الأضرار التي يعاني منها الجنس البشري تنشأ من لا مسؤولية العلم ولا أخلاقيته، لأنه ليس موضوعاً لمَعْلَمات أخلاقية صارمة تحول دون التطبيق التدميري لمعرفته. ويمكن تبرير التقدم العلمي فقط إذا كان هناك ارتقاء مواز للوعي الإنساني، وهذا لم يحدث في صيغة محسوسة حتى اليوم. ولهذا السبب، نحن نعاني من تناقض خطير للترسانات النووية التي تمكث في أيدي كائنات أقل ما يقال عن وعيها، من وجهة نظر ارتقائية، إنه وعي طفولي. يمكن تغيير هذه الحالة الكلية مع الزمن إذا قدِّر للعلم في القرن الحادي والعشرين أن ينجح في خلق وسيلة لإجراء قياس آمن ودقيق لمستوى الوعي الفردي، أي، إجمالي المستويات الفردية مضافاً إليه إجمالي مستويات التجربة الواعية (إن وُجدَت).

ويجب أن يهدف البحث إلى تحقيق ما يلي:

1. العمل، بطريقة لا يمكن دحضها علمياً، على توطيد وسيلة لتقييم الجدارة الحقيقية عند الفرد، مقارنة بأفراد آخرين. وبما أن الوعي الأعلى يمثل القيمة العليا، فإن الكائن الإنساني يجب أن يُقيَّم بمقدار مستواه الأعلى من الوعي، وتُخفَّض قيمته بافتقاره لذلك المستوى، ولن تُحسَب بعد الآن على أساس مكانته الاجتماعية، أو مظهره الخارجي، أو قدرته الاقتصادية، أو شهاداته العلمية.

2. تثبيت مستويات المرجع، عند درجة أعلى من المتوسط، فيما يتعلق بإمكانيات الكمال الإنساني.

3. وضع معايير أدنى للنقص الإنساني، من متوسط فما دون.

1-اتباع المذهب الفلسفي الذي أسسه زينون (فيلسوف يوناني) حوالي 300 ق.م، والذي يقول إن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع دون تذمر لحكم الضرورة القاهرة-المترجم.

واعتماداً هذه المعايير، سيعمل الناس الذين يتمتعون بأكثر القيم الأخلاقية أهمية، وعلى نحو محدد، بأداء المهمات التوجيهية العليا للجنس البشري، في حين يشغل من هم أدنى منهم قيماً أخلاقية وظائف متواضعة بسبب محدوديتهم العقلية. وهم، في الحالات الحرجة، ربما لا يجدون مأتىً إلى الحقوق المدنية، ومن الضروري أن يتولى المجتمع مساعدة من يرغبون بالمساعدة لكي يحسّنوا أنفسهم. وفي هذه الطريقة، علينا أن ندرك أن أي شخص، مهما كان بسيطاً، ويكشف، في الوقت نفسه، عن مستويات أعلى من الوعي، يمكن أن يحتل مناصب أعلى. وعلى العكس، لا ينبغي لأحد أن يشعر بالخجل لافتقاره إلى هذه الكفاءات، لأن بإمكانه أن يبدأ بتنميتها في أية لحظة من خلال العمل الجاد، والتدريب، والصبر، والمثابرة. وبشكل أكثر وضوحاً، وبما أنه ليس عاراً أن يكون المرء مقعداً، لذلك لا ينبغي لأحد أن يشعر بالخزي إذا صُنِّف في خانة غير كامل عقلياً، لأن هذا، على وجه الدقة، ما ينتظر الإنسان العاقل: إكمال تركيبه النفسي بتنمية ملكاته الأكثر أهمية، والتي يتمتع بها ولكنها في حالة كمون.

ولسبب ما، يتخيل الإنسان نفسه كاملاً مما يجعل من الصعب عليه أن يعترف بمشكلاته الخاصة. ويأتيه شعوره بالكمال من تأمله لجسمه المادي السوي الذي لا ينقصه شيء، ومن هنا، فإنه لا يشعر بضرورة أن يكون له رأس آخر أو يد ثالثة. ولكن المسألة تختلف تماماً على المستوى العقلي والروحي، لأن الإنسان يولد دون أن يبدأ العمل، ولو بصعوبة، بمادته الخام، وهو الهدف الرئيسي لحياته في إكمال نفسه، ومن يقصِّر في القيام بذلك، يجب أن يعتبر نفسه فاشلاً على طريق الارتقاء.

نتفادى الكثير من المشكلات في الحياة إذا سلّمنا بأن حالتنا الإنسانية فطرية فقط بقدر ما يتعلق الأمر بالإمكانيات الكامنة، لولا أن طبيعتنا البشرية العليا محكومة بالتحريف بأيدينا العُزُل، بتضحية كبيرة وكثير من الجهد. وهذا ما يميز الطبيعة الباطنية بين الناس. فنحن نولد متساوين ولكن نصبح مختلفين بعضنا عن بعض من خلال التهذيب الفردي، عندما نسعى وراء الكمال. فلو وُلدنا جميعاً ناقصين، وبقينا عند هذا المستوى، لما وجب أن يكون هذا مدعاة للخجل أو الامتعاض. وعلى العكس، فإن نقيضه صحيح تماماً. يجب أن يعتبر الإنجاز الذاتي للشخص كتحدٍّ كما يجب أن يحظى بدعم قوي من المجتمع، لأن المجتمع هو الذي يجني المكافآت من نشاطات الناس الذين يصبحون كائنات أعلى من

خلال جهودهم الخاصة. إن إنشاء مدارس خاصة لتنمية وعي أعلى يجب أن يكون الموضوع الأكثر أهمية للدراسة والتدريب من أجل من يريدون التمتع بحقوقهم الروحية والدينية كاملة. ولكن هذا التدريب يجب ألا يكون إلزامياً بل طوعياً بكل ما في الكلمة من معنى، لأن الجميع سيكافحون في الوقت المناسب، ودون أدنى ظل من الشك، للحصول على هذه المعرفة، وخصوصاً عندما يرون الثمار التي يجنيها من سبقهم.

يُعجَب العالم، إلى حد كبير، بالعبقريات الفكرية ويحترمها، ومع ذلك، يتجاهل عبقريات الوعي. إن هؤلاء الناس ليسوا كثراً ويفضلون العيش في غُفليَّة مطلقة أو نسبية، لأن صفاتهم من نمط روحي أكثر منه مادي. وفي هذه النقطة، قد يتساءل الكثيرون عما إذا كان هذا النموذج لشخص "أكثر وعياً" يمكن أن يكون "أخلاقياً أكثر." وللإجابة عن هذا التساؤل، علينا أن نفهم أن حالة "أنا" الوعي التي ندرسها هنا، تستثني بالضرورة إمكانية إلحاق الأذى بالآخرين أو التصرف بلا أخلاقية. ويمكن تقدير هذا عندما ندرك أن الوعي الأعلى هو الشكل الأكثر سمواً للروحية الممكنة، لأنها لا تستثني العقلانية الأعلى. ويتوافق المستوى الروحي العالي، بصورة ثابتة، مع المنزلة الرفيعة، الأخلاقية والارتقائية.

كلما كان نمو المنزلة الروحية للشخص أكبر، ازداد الطلب على حالته السوية التي يستتبعها هذا النمو، مع زيادة مرافقة في مستوى ضبط النفس الطوعي لديه. وتتمثل المعضلة الأخلاقية للجنس البشري بمسألة غياب الروحية الفردية والافتقار إلى دافع للتطور بسبب الحذف المفاهيمي الذي يقوم على أساس ثقافي. وتراني ألح على حقيقة عدم وجود مفهوم ضمن معرفتنا الشائعة لإمكانية الانطلاق في طريق علمانية تؤدي بنا إلى الروحية. ومع ذلك، إن القيام بهذا، هو، في الواقع، في متناول كل واحد إذا كان تواقاً فعلاً لتحقيقه. ولكننا لا ندرك بحق مدى الفوائد التي يمكن أن يجنيها الجنس البشري من هذا. ومن المضحك أن تكون العلامة التجارية لمرطب، أو لباس، أو تبغ معروفة تماماً في كافة أنحاء العالم، وفي الوقت نفسه، يجهل الإنسان كلياً وجود نمط من الحياة ذي مغزى أهم مما يَخبُرُه حالياً-نمط أكثر أهمية وعمقاً؛ نمط هو في متناوله إذا كان يريده حقاً؛ نمط يمكن أن يهيء له إمكانيات جديدة واستثنائية لتحقيق السعادة وبلوغ القيم السامية.

السلوك الأخلاقي للإنسان العادي غير مقبول، لأن المستوى الارتقائي للنوع هزيل، والمعيار الأخلاقي هزيل مثله. ولهذا السبب، فإن الحملات التي تهدف إلى رفع المستوى الأخلاقي وتستخدم النصح البسيط الذي يعتمد النهي والحض ليست فعالة جداً. ومن سوء

الحظ أن معظم الناس أكثر ميلاً إلى التشكي والتصريح، ولكن عندما تحين اللحظة للنهوض بعبء الواجبات الارتقائية، فإن قلة تتصدى لذلك.

6- ضعف الشخصية عند الناس

الدلالة الوحيدة لكلمة شخصية هي القيمة الأخلاقية، وتُعزى هذه القيمة إلى أولئك الأفراد الذين يكون موقفهم الإرادي وطريقتهم في التفكير منظمين بحيث يكشفان عن صفتين أساسيتين: تحمل كامل المسؤولية وتحملها ينجم عن ذلك من تبعات في طريقهم لإنجاز الأعمال- وبامتداد سلوكهم وثباته. إن الصدق مع الذات، والصلابة، والدليل الأحادي المعنى في الحياة هي الميزات الرئيسية، أي القيم الأخلاقية، التي نلمّح إليها عندما نتحدث عن تدريب الشخصية وتعليمها.

فيليب ليرش

تتمتع الشخصية الحسنة التطور بصفات، من بينها: قوة الإرادة، والمسؤولية، واستقامة السلوك. وعلى ضوء هذه المَعْلَمات، وكونها واقعية، فإننا لن نجد كثرة ممن ينطبق عليهم هذا الوصف لأن ضعف الشخصية داء مكتسب بالممارسة في هذه الأيام. والشباب الذين يبحثون عن هويتهم هم أولئك الأكثر تأثراً بهذه المشكلة. فاعتمادهم على الكبار، وعدم شعورهم بالأمان، نموذجيان لمجموعتهم العمرية، وافتقارهم لضبط النفس، والشك فيما يتعلق بطبيعة الخير والشر، والميل إلى أحلام اليقظة، والتساهل في التعليم أو استبداديته المفرطة، والعقد النفسية، وفرط الحماية، والخصوصية غير المحددة لدور الذكر أو الأنثى، وسوء التكيف الاجتماعي، وثورة الأمزجة هي بعض الأسباب التي تعوق النمو المناسب لشخصيتهم. إن سوء استخدام العقاقير يتطلب اهتماماً خاصاً، ليس فقط لأنه يُفسد الشخصية ويُضعف الإرادة، بل أيضاً لأنه يدفع من يسيء استعمالها إلى ارتكاب الأفعال اللاأخلاقية وإلى الجنوح. أما الكبار، فتنشأ عيوب الشخصية عندهم من ممارسة أساليب حياتية خاطئة، تلك التي تفضل التبطل على العمل، والكسب السهل على الجهد المتعب، وضآلة النشاط البدني، والخوف من مواجهة التحديات الحديثة، والخوف من الدفاع عن الحقوق الخاصة، وفرط الحماية في الطفولة، والخجل، وغموض الدور المذكر، وسوء استخدام العقاقير. والتلفزيون، كمدخل إلى عقول الناس، يسمح للقيم الزائفة كالمادية، وفلسفة اللذة[1]، والتساهل باستعمار عقول الناس.

1-أو مذهب اللذة: مذهب يرى أن اللذة هي الخير الرئيسي في الحياة وهي مقياس صلاح العمل والسلوك-المترجم.

وينبغي أن نضيف إلى هذا حقيقة أن آلية الدعاية والتسويق بالكامل تعتمد على ابتكار عروض سهلة إلى حد مضلل لتشويق الفرد إلى التصور، دون وعي، أن العالم شجرة خيالية يمكن أن نقطف منها السلع والخدمات دون جهد. إن ذوبان الفرد في الحشود يكوّن عنده وهم الإبحار عبر الحياة في مركب ضخم يقوده ربان مجهول، يرافقه إحساسه بأنه "محمول" إلى مصير لا يد له فيه.

تهيء الحياة في المدينة فرصاً لنمط من المواجهة البطولية، تجبر المرء على تنمية شخصيته مع أنه لا يريد أن يفعل ذلك. ولكن من ينجحون في تنمية شخصية قوية هم فقط من يطالبون أنفسهم، بشكل خاص، بتحقيق أهداف أعلى، ويأتي هذا النجاح كثمرة لممارستهم المتواصلة لضبط أنفسهم. ولكن أكثر ما يضعف الشخصية وقوة الإرادة ويدمرهما هو الانغماس الذاتي، كما في حالة الكحوليين ومدمني المخدرات الذين يطلبون عادة من رفاقهم ما لا يطلبونه من أنفسهم. وهذا الانغماس الذاتي هو مزيج هدام من الكسل، ورثاء الذات، ومقاومة العمل المنهجي؛ إنه شكل من التساهل الخليع الذي يتملص من الواجب، والعادات الحسنة، والقواعد الأخلاقية. إن النفور من بذل الجهد يحث الفرد على البحث عن طريق سهلة، ناسياً أن قيمة الأشياء تقاس غالباً بصعوبة الحصول عليها. ومن يرتكب الرذائل لا يحتاج إلى الرغبة في أن يعيش على طريقته. إنه، في الواقع، يعيش دون تعب. في حين يتطلب السلوك الأخلاقي السليم دائماً موقفاً يقظاً وشخصية هادئة، مما يقتضي مداومة الجهد وقوة الإرادة طوال الوقت. ولكن السلوك الأخلاقي لا يظهر بصورة آلية؛ وعلينا أن نتوصل إليه من خلال العمل والانضباط. وبالمقابل، إن الرذائل تشبه الحشائش الضارة نظراً لأنها تطفو تلقائياً على السطح ولا تحتاج إلى رعاية لكي تعيش.

أسباب ضعف الشخصية والإرادة عند الناس

(أ) البحث المُلزِم عن اللذة: ربما تكون فلسفة اللذة هي السمة الأكثر شيوعاً لدى الكائنات البشرية المعاصرة. إنها تبجيل اللذة كما هي الحال في تبجيل أعظم الملوك. وهي السعي الملزم خلف الإشباع الحسي، قبل أي اعتبار آخر، مهما كان الثمن. والجماهير مُستَلَبَة جداً حتى أنها ترى العالم كسوق للتسلية والمتعة، وكأنهم جاؤوا إلى هذا العالم فقط لكي يمتعوا أنفسهم إلى ما لا نهاية، لا لتهذيبها أخلاقياً وروحياً. ويعتبرون الحياة سيركاً ولا تستحق أن يحياها المرء إذا لم تعمل مستويات التسلية الممتعة على تلبية توقعاتهم.

نحن الموسوميون بعلامة غريزة الموت[1]، نحاول بالكرب أن نعود إلى الرحم لكي نستعيد نيرفانا[2] الوجود الرحمي. هناك يخبُر الجنين اللذة التي لا يعوقها أي التزام. وهناك أيضاً لا يحتاج إلى بذل جهد لكي يتغذى؛ ولا تزعجه الضجة أو أي شيء آخر؛ ويحظى بحب لا حدود له وتكريس لكامل العالم مقصور عليه (العالم هنا هو أمه). والجنين، في الواقع، "هو" العالم، لأنه يشكل وحدة مع أمه. ولهذا، لا يمكن أن يشعر بالوحدة، لأن الوحدة تفترض أن الفرد كائن منفصل عن العالم المادي، وهذه الانفصال لن يحدث قبل مضي عدة أشهر، أي بعد الولادة. وبعد الولادة، لن يعود أبداً إلى حياة يَخبُر فيها سعادة من هذا النوع.

وفلسفة اللذة محاولة غير منطقية للعمل، بطريقة ما، على استعادة النيرفانا الوالدية. فكل اللذة التي جاءته من "عالمه" (أي وحدته مع أمه) أصبح المرء يبحث عنها الآن في العالم الخارجي. وإمكانية الحصول على هذه اللذة تطرحها عروض التسوق بقدرتها غير المحدودة. ولكن، من الواضح تماماً، أن طلب هذه السلعة محكوم بالفشل الحتمي، لأن الفرد يبحث عن شيء موجود فقط في عقله اللاواعي، لا في العالم المادي. وبالتالي، فإن اللذة التي يمكن أن يجدها لن ترضيه أبداً لأنها ستكون بهجة عابرة وحسب. وعلى العكس، إن ما يحتمل أن يحدث هو شيء مماثل لما يحدث عندما نأكل. فعند أية درجة يتم فعلاً إشباع الجوع؟ نعرف بالتجربة أن هذا لا يحدث أبداً، لأنه عندما يحدث الهضم، فإن الفراغ المتطاول للمعدة يثير فينا الكرب لمواصلة تغذيتها.

1- Thanatos (عند فرويد)-المترجم.

2-عالم الصفاء، عالم السعادة القصوى التي تتخطى الألم بقتل الشهوات، أو أنها موطن فيه يُنسى الألم والهم والواقع الخارجي-المترجم.

ولكن، هناك اختلاف مهم جداً بين تغذية المعدة وتغذية الحواس. فالطعام يغذي الكائن الحي ويحافظ عليه، لذلك لا يمكن الاستغناء عنه. وتأثيراته "تراكمية" لأن الغُذَيَّات تتحول إلى أجزاء مكملة للخلايا. ولهذا نقول إن فعل الأكل "يسد " الحاجات الجسدية. وعلى العكس، فإن اللذة لا تُشبع أبداً جوع الحواس، ويجب تجديد إشباعها بصورة متواصلة لكي تقاوم الفراغ والكرب. يضاف إلى ذلك أن اللذة ليست تراكمية. فالفرد لا يمكن أن يختزنها لمناسبة قادمة. وما يحدث هو أن اللذة تستنزف الشخص أكثر مما تزوده بعناصر قيِّمة. هذه هي الحالة المحزنة للنرجسية التي تعمل، في النهاية، على استنزاف قلب النرجسي وروحه، وبالتالي، تؤدي به إلى برودة عقلية وعاطفية. فاللذة النرجسية يمكن مقارنتها، وهي مقارنة صحيحة تماماً، بـ "بئر لا قرار لها،" لا تمتلىء أبداً، مهما كانت كمية الماء التي تتدفق إليها. وفي سياق أكثر شمولاً، إن الرغبة المادية الملحة هي نموذج للذة حيوانية كثيراً ما يجد الناس في طلبها. إنها ترتبط مباشرة، وبقوة، بالجنس، والمعدة، وتناول العقاقير المنشطة.

ويستغل التسويق هذه الشهوات عن طريق عرض طائش لفردوس اصطناعي للإشباع: راحة، ورفاه، ورحلة، ومغامرة. وتواصل الدعاية قصفها بغرض حمل الناس على اعتبار الوجود نوعاً من فرصة يحصلون من خلالها على لذة غير محدودة. وعندما لا يحققون نجاحاً في هذا، فإنهم يستسلمون لاكتئاب عميق، ويحتجون بأن "الحياة لا معنى لها" عندهم. ومن المنطقي جداً أن يختفي الحافز للحياة عند من يضعون اللذة هدفاً لحياتهم، عندما يحدث الإحباط المتناقض ظاهرياً. إن الفراغ الوجودي الذي يشعر به الفرد ليس أكثر من إحساس "بأنه خُدِعَ، بطريقة ما. فيتراءى له وكأن الأرض الموعودة، على الرغم من كل شيء، ليست هي. فالسعادة اللامنقطعة هي ما كان ينتظره وهي تنسجم مع التجارب الممتعة، ولكن عندما لا تتحقق توقعاته المرغوبة، يصاب بخيبة الأمل والسأم. إن اللذة المادية تعمل على إشعار الناس بالفراغ، والجفاف والجدب داخل أرواحهم. ذلك هو المصير الحتمي للكونفيدرالية العالمية الاستهلاكية.

لا ريب في أن هناك عدداً كبيراً من الناس الذين يفتقرون، على أساس فردي، إلى أي قدرة شرائية استهلاكية مهمة. وقدرهم الذي لا يمكن تفاديه تقريباً هو الوقوع في حالة اكتئاب، ومعاناة الحسد والامتعاض، والظن بأنهم "محرومون من شيء ما." ووفقاً لمحاكمتهم العقلية، فإن من يحرمونهم من هذا الشيء هم الناس الأكثر ثراء من بين السكان. والشخص

الذي يتسلط عليه الحسد يتوقف عن الحياة بمعنى المراجعة للذات ويدور وجوده حول الأشخاص الذين سببوا له الألم، ويبقى دائماً "مكبلاً" عاطفياً. هذا الشخص لا يستطيع أن يستعيد طاقته الجنسية، فينتهي إلى موقف معاكس كلياً لقطب الوقوع في الحب أو في حدوده. وفي حين يولّد القطب الموجب الحب، فإن القطب السالب يولّد الغيظ.

تنشأ الاستهلاكية من غزارة الإعلان، الذي يضاعف باستمرار عدد الأشياء أو الأوضاع التي تحرض حاجتنا لامتلاكها. ويصبح هذا الهاجس ملزماً إلى حد يقود الناس إلى فقدان الشرف والكرامة الشخصية. فالشخص الذي يتردد في البداية بخصوص تدخين الماريجوانا، مثلاً، عندما يعبر هذه العتبة ويدخنها، سوف يتطلع إلى عبور عتبات أخرى، وينتهي إلى أن يجرب الكوكايين ومواداً أخرى أشد فعالية. والمرأة التي تصبح متعددة الشركاء يمكن أن تعمل، دون أن تدرك، على الهزء بالمعايير الأخلاقية التي كانت حتى الآن تحكم سلوكها وقد تفقد في النهاية قابليتها لممارسة التمييز فيما يتعلق بنوعية حبيبها أو شريكها. ويحدث شيء من هذا القبيل لبعض الرجال الذين يتحولون بسهولة من تدخين الماريجوانا أو الكوكايين إلى الممارسات اللوطية، التي تدعى عادة "تغيير في السلوك الجنسي." هذا الموقف غير المقيد يدل ضمناً على "أن أي شيء جائز،" وبالتالي، يؤدي إلى تشييء الناس، وإعادة تعريفهم بوصفهم "أشياء" مفيدة أو ممتعة بدلاً من تعريفهم كأشخاص.

إن الشخص المتساهل يضعف تدريجياً، لأنه لا يجد ضرورة لإجهاد إرادته أو ضبط شخصيته لكي يتغلب على الإغراءات. ومن يستسلم للإغراء هو أحمق من النوع الذي تحدث عنه الباحث الأخلاقي الإنكليزي ديفيد هيوم عندما قال إن "الوغد هو الأحمق الأكبر بين الجميع، لأنه يضحي باللذة العليا في أن يصبح شخصاً متطوراً تماماً مقابل بعض الملذات المادية التافهة."

يضحي المدمن المستهلك والشخص المتساهل، عن طريق سلوكهما، بإمكانية الكمال الروحي الذي يمكن أن يقودهما إلى الفضيلة السامية والسعادة الحقيقية. فـ "الاستسلام" يضعف ويسبب ضمور عضل الإرادة التي قُدِّر لها أيضاً أن تولد عند أناس عاديين. إن إنساناً ذا أخلاقية غير ملوثة هو رياضي الإرادة. إنه يحب الاسبارطي المنضبط الذي يعرف كيف يضحي أو يؤجل لذة اللحظة في سبيل الحصول على بعض الخير في المستقبل من نمط أكثر رفعة. وهذه هي الحالة مع الفضيلة: تؤدي إلى السعادة عندما نحسن تدبيرها.

(ب) المبالغة في الحماية: يصبح الأطفال المُبالَغ في حمايتهم ضعفاء وجبناء، وعندما يبلغون سن الرشد ، فإنهم يفتقرون إلى أدنى قدر من إثبات الوجود لكي يشقوا طريقهم في الحياة ويستحقوا الاحترام . ومع تقدمهم في السن، يلتمسون الحماية غالباً عند دولة أبوية كوالد بديل. لقد تطورت شخصيات هؤلاء الناس على نحو غير ملائم، وهم، في الحالات الحادة، معوَّقون عاطفياً ويصعب عليهم أن يتكيفوا مع الظروف الطبيعية. لقد فشلت الحماية المفرطة التي مارسها الوالدان أو الأسرة في إعطائهم حيزاً كافياً لكي تنمو فيه شخصيتهم على نحو سوي. ومن المحتمل جداً أن يكون أحد الأقرباء قد دأب على تولي مسؤولية حل المشكلات المهمة في طفولتهم دون أن يترك للطفل حيزاً أو وقتاً كافياً لكي يقوم بذلك بنفسه. وعندما يذهب الطفل المبالغ في حمايته إلى المدرسة، فإنه يواجه عادة مشكلات مهمة مع زملائه ومعلميه ويمكن أيضاً أن يفشل في دراسته. ولكن، من الصعب وضع مَعْلَمات لمعرفة متى تصبح العناية مفرطة في مقاصدها. ومن المحتمل جداً أن تكون حماية اليافعين في بعض بلدان أمريكا اللاتينية، مثلاً، أشد منها في الولايات المتحدة، وخصوصاً بالنسبة للنساء.

ومن المهم هنا أن ندرك أن هذه الآلية تحول دون النمو المتناسق للشخصية والإرادة، وذلك بتكوين ميل إلى محاولة إنجاز الأعمال في الحياة عن طريق التلاعب العاطفي بالآخرين بدلاً من تنظيم الحياة بالاعتماد على الجدارة والجهد الشخصيين.

كثيراً ما يعتبر هؤلاء الأفراد أنفسهم ضحايا وينزلقون بسهولة إلى الانغماس في الملذات ورثاء الذات. فيدفعهم هذا كله إلى تفادي الجهد الذي يعتبر شاقاً ويمنعهم من تنمية عادة الكفاح في سبيل ما يريدونه. إن هذه المشكلات التي تثقل كواهلهم لا تترك لديهم طاقة للصراع الأخلاقي ولا القوة الضرورية لنبذ الإغراء وتأجيل اللذة العاجلة مقابل خير لاحق لقيمة أكبر. يجعلهم هذا الفتور الأخلاقي غامضين بلا هدف في اختيارهم للقيم الأخلاقية، لأنهم لا يحملون قناعات عميقة ولا يعرفون كيف يدافعون بثبات عن تلك القناعات. إنهم يتفادون التحديات المهمة بسبب ما تثيره هذه التحديات في نفوسهم. يجب أن يكون مفهوماً أن ضعف الشخصية عند الأفراد المبالغ في حمايتهم يقودهم مباشرة إلى التساهل، ولكي يلتزم المرء بالقواعد والمبادىء السليمة، يجب أن يكون منضبطاً وقوي الإرادة.

أن "يعطي المرء ترخيصاً لنفسه،" بالمعنى الأكثر سلبية، يعني أن يزيد تدريجياً

"الجرعات العادية" من المتعة، والتسلية والاستهلاكية، مما يزيد باضطراد من صعوبة تكوين عادات أخلاقية صالحة. إن المتع الذوقية، والتعلق بالمواد الحلوة الطعم، واستهلاك الكحول، وهي أشكال لإشباع الرغبة الذاتية، يمكن أن تؤدي إلى إدمان واضطرابات كالسمنة وضعف احترام الذات. والتساهل مجرد تعبير آخر يدل على "الانغماس في الملذات،" وهي عادة تسبب انخفاض مستوى مطالبة الذات، وما ينجم عن ذلك من تردٍّ أخلاقي لاحق.

(ج)-الكسل والانحطاط: الافتقار إلى النشاط والميل إلى السلوك السيباريسي[1] عقبتان مهمتان في سبيل النمو السوي للشخصية. فالكسل يدفع الفرد إلى التفكير في التوافه لافتقاره إلى أي شيء أفضل يقوم به، أو إلى الانسحاب من الضجر والسأم كتسلية عقلية. فإذا لم يكن لدى الشخص عمل أو نشاط خاص، فإنه ينام فترة طويلة ويستيقظ متأخراً. إنه يفتقر إلى المسؤوليات العائلية ولن يواجه تحديات مهمة. ويفقد أيضاً الفرص لتكوين شخصيته.

تؤدي الحياة الرخية السهلة إلى نقص النشاط، ومثل ذلك العمل الذي يتطلب تضحية، يمكن أيضاً أن يؤدي إلى غياب النشاط إذا لم يحظ بالتقدير الضروري. ويسبب فقدانُ الحوافز والفرص الخمولَ واللامبالاةَ، حتى في الحالات التي تكون المشكلة ذاتية إلى أبعد الحدود.

ويمكن أيضاً أن تعمل وسطية البيئة كعائق في سبيل الإبداع والدافع الشخصي. ولكي نكون أكثر دقة، نقول إن الشخصية تكتسب صلابة بالتغلب على العقبات المهمة، وعند عدم وجود هذه العقبات، أو عندما يرفض الفرد مواجهتها، فإن هذا يسبب ضعف الإرادة عنده.

علينا أن نتذكر أن السلوك الأخلاقي ممكن فقط عندما تتوفر إرادة قوية مصمِّمة تعرف كيف تصمد في وجه الرذيلة والإغراء. ولا يظهر هذا النوع من النشاط إلا أحيانا لأنه ليس معياراً عاماً. وبالمثل، يميل الفرد الذي يشعر بالفشل في الحياة إلى فتور الهمة والاكتئاب-استنزاف العواطف الذي يؤدي به إلى الثورة ضد العالم بطريقة هدامة.

تتركز الحياة في المدن الكبيرة على اليسر والراحة. وقليل من الناس يسيرون عدة أميال للوصول إلى أمكنة عملهم. وفي حالات قليلة جداً، نجد مناسبات تتطلب جهداً بدنياً

1-سلوك مترف أو منغمس في الملذات على غرار سكان سيباريس، المدينة الأغريقية التي اشتهرت بالثراء والترف-المترجم.

كاملاً. فكل شيء يتركز على الوسائل الآلية التي توفر الراحة-حافلات، وقطارات نفقية، وسيارات، ومصاعد، ووسائل استهلاكية إلكترونية، وأجهزة تلكس، وحاسبات، وأجهزة للاتصال الهاتفي والبرقي، هذا فضلاً عن وسائل الترف والتعقيد. إنه، في الواقع، عالم الأشياء الخارجية التي تجعل الحياة أكثر يسراً. وكل شيء يشير إلى حقيقة أننا نقترب بسرعة كبيرة من أسلوب حياة أكثر سهولة من الناحية المادية، وجود يتطلب القليل من الجهد، مع مزيد من الفراغ والترف. ومع تعويل الإنسان على الآله الذي يتعاظم باستمرار-إذا فشل أن ينمو داخلياً-فإن القرن الحادي والعشرين قد يكون العصر الذي يمكن فيه أن ينجح طغيان الحشود عن طريق طغيان الآلة. فالعلم والتكنولوجيا في تطور دائم، ولكن الحالة الارتقائية الداخلية عند الإنسان ثابتة؛ فهو لا يعدو كونه الإنسان الذي كانه قبل عشرين أو ثلاثين قرناً. فالنوع البشري وكل ما يمثله يتضاءل، في حين أن "التقدم" يتعاظم. ومع أن الجميع يصفقون لاستمرار ضروب التقدم التقني، فإن القيم الأخلاقية مهملة. إن ثقافة الترف، واللذة، والرفاه تعمل بسرعة على استلاب العالم الروحي عند الكائن الإنساني، في حين يتزايد طغيان المادية والعنف. وفي النهاية، "تسرق" الانتهازية والمادية روح الناس، مغتصبة بذلك الوظائف التي تنسب إلى الشيطان.

إنه لأمر مضحك، مع أنه ليس غريباً، أن يتكون لدى الناس الانطباع بأن مستوى حضارتنا يتحسن بسرعة، حتى أنهم يصدقون بأننا نزداد تحضراً باضطراد، مما يولّد شعوراً بأن "كل شيء على ما يرام" وليس هناك سبب حقيقي يدعو إلى القلق. هذا الإحساس بالانتصار والاستلاب الاستهلاكي يدفعان الناس إلى نسيان بعض الحقائق وتجاهل الأسئلة التي يتفادون طرحها على أنفسهم. وواحد من هذه الأسئلة، مثلاً، هو: لماذا يفشل التقدم الروحي في التحسن بالتوازي مع ضروب التقدم المادي، في حين أن ما يحدث، في الواقع، هو تراجع فيه تُعطى للخارجي قيمة أكبر من الداخلي؟ يبدو أحياناً وكأن هذين العالمين مترابطان عكسياً مع بعضهما-تقوية أحدهما تقتضي ضمناً إضعاف الآخر.

(د)-الالتباس الجنسي: قبل بضع سنوات، كانت تستقطب الرجل والمرأة حدود جنسية ذات صفات واضحة المعالم. ولكن، في الوقت الحاضر "يريد الرجال أن ينجبوا أطفالاً." وهناك العديد من الأفلام السينمائية فيها يلبس الرجال كالنساء، وإعلانات فيها يظهر رجل حاملاً Pregnant. ولم يعد السروال امتيازاً للرجال، ولا الشعر الطويل، أو الأقراط، أو العقود، أو الأساور حكراً على النساء. فالذكور اليوم يذهبون إلى دور التجميل

ويتبرجون ، وهناك نساء يلاكمن ويدخنَّ السيجار. والإعلان التلفزيوني يغص بالالتباس الجنسي. وأشرطة الفيديو مليئة بالكائنات الجنسية الغريبة التي تترك مسألة تمييز جنسها المذكر أو المؤنث لخيال المشاهد. ويرتدي كثير من نجوم الموسيقا الحديثة لباساً مؤنثاً ويصبحون نماذج يقلدها الشباب الذين لم يصلوا بعد إلى اتفاق مع هويتهم الجنسية. وفي غضون ذلك، تشعر النساء أن الشوفينية الذكرية تجردهن من أهليتهن، فيكافحن لينافسن الرجال كأنداد، مما يقودهن غالباً إلى اختيار أزياء مذكرة واضحة في محاولة للتفوق على الرجال، وبالتالي، حمل الآخرين على احترامهن. ويحقق اللباس الواحد للجنسين آمال كثير من الناس. فالنساء والرجال متساوون من حيث المظهر، وبالتالي، لا تشعر المرأة بأنها تواجه تمييزاً كبيراً في المعاملة ضدها، ويتغلب الرجل، بهذه الطريقة، على خوفه اللاواعي من الخصاء.

ولكن هذا الالتباس الجنسي، سواء كان الجنس بمعناه التناسلي أو بمعناه لجهة الذكورة أو الأنوثة، يمضي إلى أبعد من مجرد صورة، ولا ينحصر بمظهر بدني. إنه يستوطن في المعلومات الدماغية التي تأتي من البيئة الثقافية، فيخترق العقل بسبب طبيعته الدُّوَعيية، ويسرِّب أوامر السلوك. والمتأثرون هم عادة أفراد لم ينجحوا في تحديد هويتهم الخاصة، والذين لا يعرفون بالتأكيد من هم وماذا يريدون. وهم بملبسهم وتصرفهم بهذه الطريقة غير التقليدية، يستمدون إحساساً بهوية أكثر تحديداً ووضوحاً. فالرجل، بشعره الطويل، يجعل نفسه موضع اهتمام، وهو بتصرفه هذا يتفادى حدة إحساسه بالهوية في مستوى "الكيان" ("الكيان" بالمعنى الاجتماعي أو بمعنى العلاقة بشخص أو شيء آخر).

يمكن أن يستنفذ البحث عن الهوية الكثير من الوقت؛ إنه يشغل حياة الكثيرين من الناس على شكل مشكلة غير محلولة. واستمرار حالة الالتباس الداخلي يشوش النمو السوي للشخصية ويسبب فقدان الاهتمام بأي شيء يتجاوز حدود الصراع النفسي. فالشخص الخنثوي يصعب عليه أن يعمل على تقوية شخصيته وإرادته، لأن حل الصراع الذي يعاني منه لا يترك له وقتاً كافياً لكي يقوم بأي عمل أبعد من الحصول على هوية خارجية تضفي عليه قيمة في نظر أنداده. فإذا نجح في بحثه عن هذه الهوية الخارجية، فإنه سوف يلجأ أكثر فأكثر إلى العالم الخارجي. ومن غير المحتمل أن يطرح على نفسه أسئلة بطريقة تشجعه على تحليل شخصيته وسلوكه. فعبث الشخص يعميه عن إدراك القيمة المهمة والأكثر عمقاً لمسائل الوضع الإنساني. ومن المؤسف أن يكون عالم المظاهر الخارجية، بحد ذاته، اعتباراً تافهاً،

وكل من يحاول أن يوطد أهميته وفقاً لهذه المعايير سيدفع الثمن عن طريق معاناته من فراغ داخلي لا يمكن تحمله.

(هـ)-القعود: يتعرض الناس الذين يعيشون حياة تتطلب قدراً كبيراً من القعود، إلى حد غير طبيعي، للضعف، والتشاؤم، والحزن، والسَّوْداوية، وبالتالي، إلى إقبال سلبي، إلى حد ما، على الحياة. وعلى العكس، نجد الرياضيين عادة أشخاصاً أكثر تفاؤلاً وتوازناً، ويتمتعون بصحة أفضل، بدنياً وعقلياً. فقلما نجد شخصاً تخالجه الرغبة بارتكاب جريمة، أو يؤذي أحداً، أو يتصرف على نحو لاأخلاقي، أو يكتئب بعد أن يجري مسافة أربعة أو خمسة أميال. فشعوب الأسكيمو، الذين يعتمدون في حياتهم على الصيد البري وصيد الأسماك، ملزمون بالمشي مسافات طويلة، ولهذا، فإن النمط اليومي للحياة يتطلب بذل كثير من الجهد. ونتيجة لذلك، تكون مستويات الكولستيرول عندهم من أدنى المستويات في العالم، على الرغم من حقيقة أن نظامهم الغذائي يقتصر تقريباً على الدسم الحيواني. ولا نجد أيضاً في هذه الثقافات الكثير من نماذج الجنوح؛ وكأن زيادة النشاط البدني تنفيس لعواطف الناس وغرائزهم الأكثر انحطاطاً. وهذا هو السبب الذي كان يدفع الاسبارطيين القدماء إلى إخضاع شبابهم إلى مجهودات بدنية شاقة بقصد تصليب شخصيتهم وإرادتهم. ولم يتهيأ لأولئك الشباب أن يتمتعوا بحقوقهم المدنية في الثلاثين من عمرهم إذا لم ينجحوا في القيام بتلك المجهودات. فالشاب الذي يحافظ على جسمه في حالة جيدة ينعم بالبهجة والتفاؤل. وكأن عرق التمرين البدني يزيل، كما يبدو، الغضب والتوتر.

والقعود أيضاً شكل من أشكال التساهل فيه يتفادى الفرد بذل أي جهد مداوم أو شديد، وبهذا يفقد فرصة ثمينة لتقوية إرادته.

وفي الواقع، إن الجلوس يبعث على الضعف، كما نرى في فرط النوم والتكاسل في الفراش.

تنجح العواطف السيئة بسبب ضعف الإرادة عند من يكرهون بذل جهد كبير، عند الذين يجهلون أنه لا يمكن أن يكون هناك نمو أو إنجاز ذاتي دون تحديات. والحياة القاسية النشيطة تساعد كثيراً على التفاؤل والتدريب الأخلاقي.

(و)-فقدان القيمة الذاتية: لا يستطيع المرء، كما يقول ماكس شيلر، أن يعيش حياة أخلاقية حقاً دون أن يشعر بقيمته الخاصة، وكلما ازداد هذا الشعور وهناً، ازداد اعتماد المرء على ما يقوله الناس عنه.

وفي الواقع، إن معظم الناس يقيسون قيمتهم الخاصة من خلال إعجاب الآخرين بهم، ولذلك، يكافحون باستمرار لتضخيم صورهم لانتزاع استحسان الآخرين واحترامهم اللذين يعتمد عليهما أحساسهم بالقيمة الذاتية. وهذا هو سبب البحث القلق عن رموز للقوة والمكانة. فالسيارات الفارهة، والحلي، والفرو، كل ذلك مجرد وسيلة لإثارة الإعجاب والاحترام عملاً بالفلسفة التي تقول: "قيمة المرء ما يملكه."

ومن الضروري أن نبيِّن أن الـ "أنا" الحقيقية عند الفرد تضعف وتنحط بقدر ما تمتلىء ذاته بصورته، وهكذا، يصبح تدريجياً أقل قدرة على تقبل القيم العليا أو بذل جهود مضنية. فمركز ثقله لم يعد في باطنه؛ بل عند زميله. ولكن هذا لا يحدث بفعل المِنَّة أو الاستقلال، وإنما بفضل الأنانية الفائقة. فهو يعيش من خلال الآخرين لأنه يستخدمهم كمرآة لصورته- مجرد أدوات لتغذية ذاته.

ومن الواضح أن القيمة الحقيقية للفرد يمكن أن تكمن فقط في ذاتية كينونته نفسها ولا يحددها استحسان الآخرين. وإذا كان هذا الرأي، في الواقع، لا يضيف أية قيمة للشخص، فإن كل ما يحتاجه لكي ينمو خلقياً هو التعاطف مع الآخرين.

ولكن المؤكد هو أنه لا يمكن للمرء أن ينمو من خلال استحسان الآخرين، بل فقط من خلال عمله الخاص. والصورة تعمل فقط على زيادة الإبراز الاجتماعي للفرد. وبدلاً من أن تعمل الصورة على تكبير قيمة الكائن، فإنها تعمل على تصغيرها لأنها كالطفيلي الذي يتغذى منه. فهناك أعضاء بارزون من علية المجتمع ليسوا أكثر من أشباح حزينة فارغة، كالبالونات التي تنتفخ بالهواء فقط برغبة المعجبين بها؛ في حين أنهم يفتقرون إلى أي مضمون أساسي ذي معنى.

عندما لا يشعر الناس بقيمتهم، فإن أخلاقهم تكون وضيعة المنزلة. فالناس الفاشلون والمستاؤون تتملكهم عواطف تمزقهم حتى أنهم لا يجدون متسعاً في حياتهم للتوجه إلى مسائل أكثر رفعة، ولا في رؤوسهم أو قلوبهم حيِّز يؤهِّلهم لكي يكونوا أكثر قبولاً لأشكال أسمى من السلوك. وينشأ كربهم الوجودي من إدراك لظلم يعذبهم، لأنهم لا يفهمون أن الأخلاقية هي عدالة عليا.

إن الميكانيكا الخفية لـ الطبيعة يحددها ببساطة كبيرة التعبير "إذا أعطينا فسوف نتلقى،" لأن الطبيعة على اعتبارها طاقة كلية الوجود تعيد للفرد ما تتلقاه منه. ومن المضحك

أن يلتمس الناس تنمية احترامهم لذواتهم من خلال استحسان الآخرين، وبذلك يُبرِزون "أناهم" خارج أنفسهم ويدفنونها عند الحشود. ولكن ما يقومون به فعلاً يضعف كياناتهم الخاصة، التي لا يمكن أن تُكتَب لها البقيا لأنهم ينتحلون هويات نزوية زائفة لكي يحصلوا على قبول عام.

وكأن هذا لا يكفي، فالحشود تعتمد على "الموضة"، وبما أن "الموضة" تتبدل باستمرار، فإن الغوغاء المتقلبين سوف يرفضون النماذج التي أعجبتهم سابقاً. وهكذا، يشعر الفرد بأنه ملزم في أن يبحث باستمرار عن منافذ لمقبوليته الاجتماعية.

أن يبحث الفرد عن هويته، ويؤكدها من خلال استحسان الآخرين، هي الطريقة الأكثر فعالية لتصنيفه ضمن الحشود، وبهذا يفقد جوهره وتميزه. هذه هي، في الواقع، الطريقة الأسهل للوصول إلى حالة اللاكينونة، وهو الهدف السري لمن لا يجرؤون على مواجهة تحدي هذه الكينونة عند مستويات أعلى. والاحتمال الأرجح أن يعمل الفرد على تنمية احترامه لذاته إذا شعر بأنه مقبول، ولكن القيمة الحقيقية لذاتيته التي تنبع من كينونته، تتضاءل أكثر فأكثر كل يوم.

من الضروري أن يفهم المرء جنون السعي إلى استحسان الآخرين، لأنه، بصرف النظر عما يفعله، سيحظى بموافقة بعضهم في حين يرفضه آخرون، أي، لن يكون هناك إجماع. وأفضل وسيلة لتنمية احترام الذات، هي اتباع أسلوب صحي متعقل يقوم على أساس تقوية القيم الأخلاقية التي تنبع من معلماته الروحية المتسامية. وهذه المعلمات كانت، وما زالت، وستبقى منقوشة في ذاكرة الطبيعة، ولذلك، فهي تكمن في أعماقنا كشرارة مقدسة وهي الفيض البسيط للكائن الأسمى.

وعن طريق إرضاء الله وليس الحشود، وعن طريق إدراكنا بأننا نسلك طريقاً رسمه الخالق، نحقق نجاحاً متكاملاً فيما يخص هدفنا الإنساني الحقيقي. ويمكن حتى لغير المؤمنين بالله ان يحققوا هذه الغاية، لأن الشكوكية[1] بالذات لم تتجاهله أو تلغي شرائعه.

كثيراً ما يعمل اللاأدْريون[2] أو الملحدون على الحط من قيمة الناس الذين لا يؤمنون بأنفسهم. وهم، من خلال ثورتهم، يسعون إلى إحراز هوية أو كسب اهتمام لتنمية احترامهم

1-القول إن المعرفة الحقيقية غير مؤكدة-المترجم.

2-من ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة عموماً أو معرفة المطلق بشكل خاص-المترجم.

الذاتي. والمادية[1] ليست أكثر من تعبير لتفكير أولئك الذين تتوفر لهم يوماً تجربة باطنية تنبع من حالة الوعي، وهي حالة يمكن أن نسميها "تقييم الناس في شبعهم." (هذه هي الحالة التي يعرّفها بعضهم على أنها تجربة صوفية)، حالة فيها يقتنع المرء بوجود ألوهية عن طريق لمح انعكاسها في روحه.

والمادية هي تعبير الوعي في مستواه الضعيف، وهو وعي تنحصر معرفته بالمادة الجسدية والفيزيائية، والتي لم تفلح أبداً في الارتقاء بنفسها إلى عالم الروح. مادة تحمل من الثقة ما يجعلها تستبعد أي شيء يتسامى بها. وعلى العكس، إن هدف ارتقاء الوعي هو ثقة مطلقة.

إن الأخلاقية الحقيقية هي أكثر من قواعد للسلوك في مجتمع ما، لأن هذه القواعد يمكن أن تختلف كلياً باختلاف الجماعات. فالأخلاقية تقضي باحترام نظام الكون الذي فرضه الـ لوجوس، الفيض المقدس الذي يحافظ على بنيان الكون ونظامه. وبما أنه ما من شيء يمكن أن يوجد خارج الـ لوجوس، فنحن أيضاً جزء منه، حتى أنه يجب أن نحترم دستوره، الذي هو واحد لكافة أشكال الحياة وحتى للأشياء غير الحية. أشير هنا إلى القانون الكوني، القانون الذي عبر الفلاسفة الأغريق، بشكل جميل، عن شرائعه الأكثر أهمية ضمن مفهوم المكافىء المساواتي[2]، الذي هو الغاية المستمرة التي يبحث عنها الكون الذي يوجهه العقل.

تعوّد الناس أن يتخيلوا أنفسهم كائنات منفصلة عن الكون-سكاناً في جزيرة كونية. ولكن، وفقاً لمفهوم التصوير التجسيمي عند الدكتور كارل بربرام فإن "الجزء كائن في الكل والكل كائن في كل جزء." ويقود بحث بربرام حول الذاكرة وأداء الدماغ لوظائفه إلى استنتاج أن وظائف الدماغ كالصورة المجسمة في كثير من الجوانب. فالصورة المجسمة هي نمط خاص من مخزن بصري ذي خصائص يمكن توضيحها بواسطة المثال التالي: إذا أخذنا صورة فوتوغرافية لأحد الأشخاص، وفصلنا قطعة منها، وليكن الرأس مثلاً، ثم قمنا بتكبيره إلى حجمه الأصلي، فإننا سنحصل على رأس كبير ولكنه صورة لكامل الشخص. يحتوي كل جزء مستقل كامل الصورة في شكل مكثف. وهكذا، يؤدي الجزء إلى الكل.

1-القول إن المادة هي الحقيقة الوحيدة-المترجم.

2-كما ورد في القرآن الكريم "من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) . وأن يعطي احدنا بقدر ما يأخذ-المترجم.

يتفق هذا مع الأقوال الفلسفية القديمة المأثورة مثل: "العالم الصغير يشبه العالم الكبير" (الإنسان يشبه الكون، ويكمن الكل داخل نفسه). وعندما ننجز أي عمل، فإن أصداءه تصل إلى أبعد زاوية من الكون، الذي يعيد إلينا مكافىء ما تلقاه منا. وهكذا، تتخذ العبارة "من يعمل عملاً، يلق جزاءه،" بعدا كونياً غير مشكوك فيه.

ويحتج عالم الفيزياء، طبعاً، بأنه لو صح هذا، فإن تصرفات الشخص لا تنتقل عبر الكون بسرعة أكبر من سرعة الضوء، ولكن الفكرة، وفقاً لتعاليم الثقافات القديمة، كالثقافة المصرية القديمة، "يمكن أن تصل إلى كافة زوايا الكون." والخالق لا يزعج نفسه بمعاقبتنا على آثامنا، بل نحن الذين نعاقب أنفسنا على انتهاك شرائعه. وهكذا، فإن الأخلاقية الحقيقية والعدالة الحقيقية تقعان خارج نطاق معرفة الجنس البشري، ولا أظنهما تعتمدان على مجموعات القوانين التي يشرِّعها. ومن الثابت، في مستوى الطبيعة، أن الشخص المذنب سيلقى عقابه في النهاية، وأن الشخص المستقيم والبريء سيكافأ في النهاية.

وبما أن عدالة الإنسان لا يمكن أن ترقى إلى مستوى العدالة الإلهية، فإن المرء، غير قادر، كما يبدو، على إدراك تأثيرات العدالة الإلهية، ويسهل عليه إنكار وجودها. وما يحدث، في الواقع، هو أن العقاب الكوني يتخطى عادة إدراكنا البشري- إلى حد أنه إذا استطعنا أن ندركه، فإنه يمكن أن نخلط بينه وبين المكافأة. وهو، علاوة على ذلك، خاص تماماً، ويؤثر حصراً في العالم الخاص للمذنب وعليه.

7- التنويم البيئي

عرَّفوا التنويم الإيحائي[1] ، في أبسط أشكاله، بوصفه "حالة تشبه النوم في كونه يتميز بقابلية كبيرة للإيحاء وفقدان الإرادة أيضاً."

وعرَّفوا "التأثير الإيحائي" على أنه:

1. التأثير بالأقوال والأفعال الطوعية لشخص مُنَوَّم لمصلحة شخص آخر.

2. السيطرة على إرادة شخص ما، وتوجيهه لكي يعمل بطريقة معينة.

3. الاختبار بالإيحاء.

---

1 -او المغنطيسي-المترجم.

ومهم أيضاً معنى العبارة "الإيحاء المغاير،" الذي عرَّفوه على أنه "إيحاء فيه ظاهرة استقرائية تكون خارجية بالنسبة للشخص."

إن ما نعرفه، في المقام الأول، عن التنويم الإيحائي، هو عبارة عن عروض مسرحية فيها يُحمَل الشخص المُنَوَّم على أن يصدّق أنه موجود في القطب الشمالي فيأخذ بالارتجاف برداً؛ أو يُحمَل على الإحساس بالحرارة أو تقليد حيوان ما. فالتنويم ليس في ذخيرتنا[1]، ولكنه موجود. وأشير هنا إلى عملية فيها يُستبدَل المُنَوِّم التقليدي بوسيط خارجي من نمط آلي، يُصدر مثيرات تشبه المثيرات التي يرسلها المُنَوِّم. ويمكن تقسيم الطرق التي تسبب التنويم إلى ثلاث مجموعات:

1. الإثارة البصرية باستخدام شيء متحرك، يجذب انتباه الفرد ويحتفظ به، كمصباح متلألىء، مثلاً.

2. الإثارة اللمسية بالتربيت الخفيف على الجبين والوجه، ولمس الأجفان لإطباقها، أو التربيت على الأطراف (المجازات التنويمية).

3. الإثارة السمعية بالتكرار الرتيب لعبارات مثل "تشعر بالنعاس،" "سوف تُنَوَّم،" إلخ.

يُغمِض الشخص عينيه، بصورة طبيعية، أثناء النوم الإيحائي، ولكن قد يبقيهما مفتوحتين أيضاً، ويقف، ويتنقل هنا وهناك ويجيب على الأسئلة. ولا ينبغي أن نخلط بين هذا النوع من النوم وبين النوم الليلي الذي فيه تتجدد قوة الشخص. فالتنويم الإيحائي حالة فيها يتغير الوعي ولا علاقة لها بالعملية الطبيعية للنوم. وقد عُرِّف على أنه "نوم مغنطيسي" يحدث عن طريق جذب الاهتمام بواسطة التأثير الشخصي أو جهاز مناسب. وله نمطان رئيسيان:

1. نمط يسببه المُنَوِّم. هنا يستسلم الشخص إلى حالة من النوم فيها يُغمِض عينيه، ويفقد ظاهرياً السيطرة على عقلانيته.

2. نمط تسببه المثيرات التي يصدرها وسيط خارجي دون وجود مُنَوِّم.

يدخل الشخص، في النمط الثاني، إلى حالة تبدل الوعي التي فيها يتضاءل مستوى يقظته، بشكل ملحوظ. ومع أنه لا يستسلم للنوم فعلاً، بالمعنى الذي استخدمناه لتعريف النوم، فإن مستوى إدراكه يصبح، بصورة رئيسية، دون الوعي وتزداد، ظاهرياً، قابليته

1-الذخيرة هنا على علاقة بالمسرح، وهي مجموعة المسرحيات والأدوار والألحان التي تدربت عليها فرقة أو ممثل أو مغن أو موسيقي والتي فيها يكون (الموسيقي أو الممثل أو الفرقة) على استعداد لتقديمها أو ادائها- المترجم.

للإيحائية. هنا تحدث ازدواجية، فيما يحتفظ بعقلانيته من جهة، ومن جهة أخرى، يصبح ساذجاً كالطفل-يقبل بسرعة أن معظم المواقف السخيفة هي واقعية، في الحقيقة.

يمكن لأحدنا أن يرى فرداً يبدو له سوياً تماماً في الظاهر، إذ أن التبدل يبقى مستوراً في داخله. ولكن الصحيح هو أن هذا الفرد يكون فيما يشبه غيبة تنويمية، حتى على الرغم من أن عينيه تكونان مفتوحتين. ويتضاءل التمييز الأعلى عنده إلى حد مثير، حتى أنه يصبح مستعداً داخلياً إلى أن يصدق فوراً أكثر الأشياء وهماً وسخفاً، لأن قدرته على المحاكمة أُبطِلَت جزئياً. ولو اختلف الوضع، لما كان هناك مكان لصناعة الإعلان، لأنه ما من أحد سيكون ساذجاً إلى درجة معها يصبح مدمناً لشراب مرطب لمجرد أن فتاة مليحة تعرضه على شاشة التلفزيون. والحقيقة هي أن الفرد "يشتري" الفتاة وليس الشراب، مع أنه لا يدرك ذلك. وهكذا، يتم إخضاع المنتجات-التي لا يفكر أحد سليم العقل باقتنائها-إلى عملية تسويق لتعيين المثير التنويمي الصحيح لإقحامه عبر ثغرات عقل المستهلك، أي تحت مستوى وعيه.

وعلى أية حال، من الواضح تماماً أن ما ندعوه وعياً هو، في الواقع، "وعي جزئي،" وما نسميه وعياً جزئياً هو، في الواقع، شكل من أشكال دووَعييَّة. فعندما نظن أننا مستيقظين تماماً، فإننا نكون، في الواقع، في حالة "نعاس،" وهي حالة تشبه المشي أثناء النوم التي فيها نجمّع محتوى أحلامياً-مُنَوِّماً.

كلما ازداد التأثير التكراري الذي ينتفذ عقل الشخص عن طريق الرسائل الدُّوَوعيية، كان أكثر ميلاً إلى الإيحائية. أقصد أنه يصبح أكثر عرضة للتاثر والتلاعب، وهذا بالضبط ما تهدف إليه صناعة الإعلان وحملات الدعاية.

إن عقلنا اللاواعي يشبه قطعة ضخمة من الاسفنج تمتص كل شيء دون حذر، ثم تهيء مخرجاً لهذا المحتوى بواسطة اندفاعات غريزية تغري الفرد باستهلاك ناتج ما، أو الامتثال دون اعتراض، أو التعبير عن تفضيله لمرشح سياسي ما. فالعقل اللاواعي يشبه طفلاً عديم الإدراك، يتقبل كل ما يقال له دون جدال، حتى أن المثيرات التي تنتفذ عقله تُختزَن كمعلومات مستقلة، لا تخضع لـ "أنا،" وتكيِّفه وتجبره على التصرف بطريقة معينة. والحديث عن غسل الدماغ، كما في نهاية عرضية لرواية، يعني أن نبيِّن الجهل المطبق لحقيقة لا يمكن إنكارها هي أن الجزء الأكبر من عقلنا لم يعد يخصنا، لأنه أصبح مستعمرة لمعلومات استلابية دووَعيية غريبة بالنسبة لحالتنا الفردية الداخلية.

والتلفزيون هو العامل المنوِّم الأكثر قدرة واكتمالاً. ويقول كارل بوبر في هذا الصدد، "أصبح التلفزيون قوة مقتدرة جداً بالنسبة للديموقراطية. وما من ديموقراطية يمكن أن يُكتَب لها البقاء ما لم تضع حداً لسوء استخدام القدرة التي يمارسها التلفزيون. وسوء الاستخدام هذا واضح في هذه الأيام. ولا يمكن للديموقراطية أن تحتفظ ببقائها إذا لم تضع التلفزيون تحت السيطرة، أو بتعبير أكثر دقة، لا يمكن أن تبقى طويلاً ما لم نعمل على تجريد قدرة التلفزيون من قناعها."

يشير هذا الفيلسوف البارز إلى الضرر الذي يسببه التلفزيون من خلال رسائله، ولكنه لا يحلل ما يسببه هذا المستوى من التأثير على الناس. لاشك في أنه يستفيد من اثنتين من ثلاث وسائل، أتينا على ذكرها سابقاً، فيستخدمهما لتحريض النوم:

1. التنبيه البصري بأشياء متحركة ومصابيح ومضية.
2. تنبيه سمعي بالتكرار الرتيب لبعض العبارات.

تتلألأ شاشة التلفزيون باستمرار وترسل، دون توقف، عدداً كبيراً من رسائل تكرارية ذات طبيعة إيحائية تستحوذ على المشاهد، وتنومه بطريقة فعالة جداً. وما من أحد يمكنه أن يقول بجدية إن الناس في حالة الذهول المغنطيسي يمكنهم أن يتصرفوا بطريقة أخلاقية سامية. بل على العكس، إن اللاوعي بحد ذاته لاأخلاقي، حتى أنه، عندما يسيطر، يمارس تأثيراً قوياً على الشخص إلى درجة خطيرة من الانحطاط الخلقي.

وبالمثل، إذا استُخدم التحريض التلفزيوني المنوِّم لغرس مبادىء أخلاقية، فإن هذه المبادىء لن تكون ذات قيمة أخلاقية أياً كانت، لأنه إذا أردنا للأخلاقية أن تكون صحيحة، فإنه يجب أن تمتثل لاختيار طوعي واع. وإنها لمجرد سخافة أن نتحدث عن "حرية فردية" في عالم يُنوَّم فيه الأطفال من الطفولة بواسطة التلفزيون بهدف تكوين مستهلكين مطيعين يسهل قيادهم-أعضاء في قطيع، يبلغون رشدهم وهم مبرمجون تماماً. إن الحياة في المدن الكبيرة سلسلة متصلة من المثيرات التنويمية، لأن كل شيء تم تنظيمه لهذا الغرض. فتعالوا ندرس ما يقوله الأستاذ ل. فون برتَلَنْفي في كتابه الأشخاص الآليون، وبنو البشر، والقدرات العقلية:

التعليم والتعلُّم الابتدائيان، والحياة الإنسانية عموماً هي، في الأصل، ردود فعل على الظروف الخارجية. تبدأ في الطفولة المبكرة بفرض معايير أولية للعادات الصحية والتدخلات

الأخرى التي تؤدي إلى سلوك مقبول اجتماعياً وتكبح السلوك المرفوض اجتماعياً. وتستمر بالتعليم، الذي يجعلها أكثر فعالية بمبادىء ب. ف. سْكِنَر الخاصة بالتعزيز الإيجابي[1]، وأيضاً بمساعدة الوسائل التعليمية. وتنتهي بشخص راشد يندمج في مجتمع ثري يبشر برفاه كل واحد؛ شخص يتكيف، على نحو صارم، بطريقة علمية عن طريق وسائل الإعلام العامة للاتصال بالجماهير لتحويله إلى مستهلك مثالي. وبمعنى آخر، يصبح جهازاً آلياً يستجيب، بشكل مناسب، عندما يتفاعل وفقاً لما تصفه القوى المسيطرة، الصناعية والعسكرية، والسياسية.

إنه إنسان كالآلة ، إلى حد أنه يمكن برمجته؛ وهذه الآلات المتماثلة كلها، تشبه السيارات خارج نظام التجميع، فيما يتعلق بالرغبة في التوازن والراحة؛ وسلوك يشبه صفقة تجارية بكلفة دنيا وربح أقصى.

يمكن إدراك تأثيرات هذه المناورات في كل مكان من حولنا : في الابتذال الذي لا يوصف في الثقافة الشائعة؛ وعند الأطفال والمراهقين الثقلاء الذين لا يعرفون حتى كيف يتحدثون لغتهم عندما يصلون إلى الجامعة، ولكنهم يجلسون مبهورين أمام التلفزيون على مدى خمس ساعات في اليوم ثم لا يجدون تفريجاً أفضل من استخدام العقاقير، أو الحَمل المبتسر[2]، أو الجنوح.

... مجتمع فيه التنافس القاسي الذي لا معنى له يملأ آلاف المصحات العقلية؛ مجتمع حوَّلت سياساته ديموقراطية جفرسون[3] إلى قطيع سلس القياد.

يقدم برتلنفي وصفاً جيداً لعملية تحويل الإنسان إلى إنسان آلي، وهي عملية تجرد الإنسان تدريجياً من صفاته الإنسانية لتحوله إلى دمية يفيد منها بعض الأطراف ذات المصلحة؛ إلى "إنسان إلكتروني" يحمل دماغاً مبرمجاً تماماً؛ وتمنعه من ممارسة أي تبصر داخلي لاكتساب قيم أخلاقية وروحية متينة، ويهتم فقط بمتعة الاستهلاك والتسلية، وتبعده دائماً عن إمكانية الارتقاء.

وما لم يتمكن الإنسان من اكتشاف طريقة لتمنيع نفسه ضد التنويم البيئي، فإنه سيُقَدَّر له أن يهيم عبر الحياة يطارد أوهاماً جديدة ومتنوعة دون أن يحصل على الاستقلال

1-بيرهوف ف. سْكِنَر: عالم نفس ولد عام 1904. والتعزيز أو التدعيم يعني إعطاء مكافأة تتبع الاستجابة الصحيحة للتشجيع-المترجم.

2-أي قبل الأوان، والمقصود الحمل في مرحلة المراهقة-المترجم.

3-توماس جفرسون: الرئيس الثالث للولايات المتحدة (1801-1809)، يعتبر الواضع الرئيسي لوثيقة إعلان الاستقلال-المترجم.

العقلي الذي يساعده على تحقيق حرية التفكير والسلوك، اللذين يحكمهما وعي أخلاقي أعلى. وهو السبيل الوحيد الذي يقود الفرد إلى اكتشاف ذاته وتقييمها بمعنى فضيلة كينونة المرء لا بمعنى فضيلة صورته.

يمكن للمرء، فقط من خلال السيطرة على العواطف وتكرار ممارسة الاستبطان[1]، أن يكتشف المسالك الأخلاقية التي تؤدي إلى نعيم الفضيلة والسعادة. تتولد هذه الصفات وتتطور فقط ضمن هدوء داخلي، لا في ظل النشاط الصاخب للأحداث الاجتماعية. إن أية عملية يُحوِل فيها المرء نفسه إلى كائن أخلاقي صميمي يجب أن يسلك فيها سبيل مواجهة نفسه بما يكفي لإخضاعها بصورة حرة وطوعية لأشكال التطهير والانضباط الخلقيين. وبخلاف ذلك، يكون مجرد "حاوية" لأوامر ومحظورات لا يفهمها ولا يشاطرها قلبه وروحه.

ولكن، على المرء أن يضع في اعتباره أنه دون يقظة الوعي، لا يمكن أن يكون شيء من هذا ممكناً، ويمكن الوصول إلى هذه المكانة الرفيعة التي تحتلها اليقظة فقط من خلال تربية ملَكَة الانتباه. وهذه هي الوسيلة الوحيدة للتخلص من التنويم البيئي.

ولكي نفهم مشكلة الذهول المنوِّم على نحو أفضل، دعنا نتذكر أن النوم واليقظة هما طرفان متقابلان للظاهرة الواحدة ونفسها، التي هي الوعي النفسي عند الكائن الإنساني. وكما يحدث لمقياس الحرارة، فإن اليقظة مكافئة للمستويات الأعلى فوق الصفر، بينما يكون النوم تحته، على اعتبار أن الصفر يمثل النقطة التي عندها "يفقد المرء وعيه." فعلى سبيل المثال، عندما نقول إن حرارة البيئة هي 30°، فإنما نعني درجة تمدد الزئبق لا غير. وما أقصده هو أن الحرارة والبرودة، كما هو طبيعي تماماً، حالتان مختلفتان للشيء الواحد ونفسه، وفي الحالة العادية، لا يمكن أن تنفصل تماماً الواحدة عن الأخرى. فهناك دائماً جرعة من البرودة في الحرارة وكمية ما من الحرارة في البرودة.

والوعي النفسي لدى انسان يؤدي وظيفته بالطريقة نفسها تماماً. فالنوم واليقظة متلازمان. فهناك قدر من اليقظة في النوم العميق، كما أن هناك قدراً من النوم في يقظة الكائن.

إن الإنسان لا يكون مستيقظاً تماماً أثناء النشاط اليومي. ففي وعيه وجود دائم لقدر

1-أو التأمل الباطني: أن يفحص المرء أفكاره، ودوافعه، ومشاعره-المترجم.

مفرط من النوم يشوش إدراكه للواقع. فلا عجب أن يشعر الفرد بشيء من الكسل بعد ليلة أرِقَة. ولكن ما أريد قوله، هو إنه لن يستطيع خلال حياته، بصرف النظر عن مدى عمق نومه، أن ينجح في أن يستبعد من عقله زيادة النوم التي تستحوذ عليه. إنه ليس نوماً بيولوجياً سوياً، ولكنه ذهول منوِّم تحرضه البيئة التي يعيش فيها.

هذه البقية الأحلامية المنوِّمة التي تؤثر على دماغ الفرد هي العامل الرئيسي الذي يعمل ضد التمثيل الحقيقي للواقع، مما يفرض عليه ضرورة اللجوء إلى التدريبات العقلية التي تساعده، إلى حد بعيد، على رفع مستوى يقظته، وذلك عن طريق تهميش عامل التشويش أو التخلص منه.

يمكن للفرد أن يقاوم هذه الظاهرة فقط عن طريق التوجيه الاختياري لانتباهه وتفكيره. مع ذلك، ينبغي أن أبيِّن أنه طالما أننا لا نملك نقاط إسناد موثوقة تساعدنا على معرفة ما اليقظة فعلاً، فإننا نؤمن بقوة بأننا مستيقظون تماماً خلال النشاط اليومي بينما نكون، في الواقع، في حالة نعاس.

إن من ينتظرون مزيداً من التعاليم الأخلاقية بالمعنى التقليدي يمكن أن يشعروا بالإحباط، لأنني أشير إلى أخلاقية متسامية أكثر منها مجموعة بسيطة من قواعد السلوك. وأتحدث عن توافق السلوك الإنساني مع معايير الإيقاع الكوني، والسلوك الإنساني الذي ينسجم مع الشريعة السماوية التي تحكم الكون. وهذه المهمة تتطلب أكثر من مجرد نوايا طيبة؛ فعلى المرء أن يعمل على تصليب شخصيته وإرادته لكي يضع التهذيب الروحي الشخصي موضع التنفيذ.

وفي الحديث عن "نظام سماوي" يتطابق مع القضاء والقدر، فإنني أعرف أنني أجازف فوراً بتعريض نفسي إلى أن يجردني من أهليتي أتباع المذهب المادي الذين لا يؤمنون بوجود كائن أسمى. ولهذا السبب، أطلب من هؤلاء الماديين ألا يتصوروا الكائن الأسمى كما يوصف تقليدياً. فالحياة الكونية تُصان وتُنظَّم من قبل قوة تنظيم عاقلة عليا. والاسم الذي نعطيه لهذه القوة غير مهم؛ بل المهم هو وجودها. قد يتخيلها البعض على شكل إنسان، ويفضِّل آخرون أن يتصوروها على شكل طاقة صرف، في حين قد يتخيلها الماديون كناتج ثانوي للمادة.

صحيح أن هناك قوة تنظيم تحافظ على بنيان الكون، وهذا التناسق ينظم خطة

لدوران الطاقات في مستوى الطبيعة. وقد تحدث فيثاغورث عن"موسيقا الأفلاك[1]"؛ واعتقد الرواقيون بـ"لوجوس" كقوة تؤثر من خلال الزمان والمكان. وأشار هرميز[2] إلى "عقل كوني... المبدأ الوحيد للكون."

لنفترض أنه من خلال الهندسة الوراثية تم تكوين حشرة مفيدة تقضي على الآفات الزراعية، وأدى هذا إلى زيادة إنتاج المواد الغذائية. وهكذا، تكون الحشرة قد استجابت للأغراض التي خُلِقَت من أجلها. فإذا تحدث أحدهم عن الأخلاقية هنا، فإن سلوك الحشرة يكون ملائم أخلاقياً. وبالمقابل، ما الذي يحدث في النهاية إذا ضل هذا المخلوق سبيله المرسوم، وانضم إلى الحشود التي تتغذى على الحبوب والمحاصيل، وبالتالي، تَسَبَّبَ في زيادة تدمير المحاصيل؟ حشرتنا هذه تصبح الآن "لاأخلاقية." فقد انحرفت عن السبيل الذي رسمه لها مكوِّنها، مع ما يعقب ذلك من مجاعة وموت. ونحن، ككائنات إنسانية، لسنا حشرات، ولكننا انحرفنا منذ زمن طويل عن مسلكنا الارتقائي المرسوم لنا. لقد كففنا عن التصرف ضمن الشروط التي خُلقنا من أجلها. وبدلاً من ذلك، وجَّهنا جهودنا نحو البحث عن الرفاه، واللذة، والترف-نمط سلوكي أبعدنا عن الطبيعة، ويضللنا، بشكل متدرج، إلى وجود زائف، وعابث، واصطناعي.

8- فقدان الإجماع حول المبادئ الأخلاقية

يؤمن المانويون، وهم طائفة غَنوسْطية مسيحية تعود إلى القرن الثالث الميلادي، بوجود عنصرين سرمديين مطلقين-الخير والشر-في صراع أبدي مع بعضهما بعضاً. وقد أسس هذه الحركة ماني، الذي وُلِد في بابل عام 216 ق.م. وللطائفة المانوية تأثير كبير في الشرق والغرب، ومن أبرز خبرائها القديس أوغسطين.

وفقاً لماني كانت هناك في البداية مادتان، أو أصلان، أو مصدران، أو عنصران. فكان النور مساوياً للفضيلة وأحياناً للإله؛ وكانت الظلمة مساوية للشر وأحياناً للمادة.

وقد تصور التقدم كحركة تطرح الشر بشكل دائم. والشر مادة باقية لا يمكن

1-إيقاع أثيري ظن فيثاغورث أنه يحدث بسبب اهتزاز الأفلاك السماوية التي كان يُظَن أن النجوم والكواكب تتحرك فوقها-المترجم.

2-رسول الآلهة عند الأغريق، وإله الطرق والتجارة والاختراع والفصاحة والمكر واللصوصية-المترجم.

للفضيلة أن تمتصها ولا يمكن فهمها عن طريق مشابهتها بغير الموجود. والتغلب عليه لا يقتضي محقه، بل إبعاده إلى المكان الذي ينتمي إليه. وعندما يُحتجَز بقوة في مكانه المناسب، يمكن ألا يكون هناك خوف من غزوه لمملكة النور.[1]

أذكر المانوية لسببين: السبب الأول، هو أنه كثيراً ما يحدث أن يدعى أحدهم مانوياً عندما يذكر الصراع بين الخير والشر، مانوياً بالمعنى الازدرائي دون تحليل للمفاهيم المانوية؛ والسبب الثاني، بسبب الاهتمام الذي يحظى به مفهوم الخير، الذي لم يعد ذاتياً، بل يكتسب جوهرية سابقة للإنسان. ويحدث الشيء نفسه مع الشر؛ فهو يحاول بإصرار اختراق الناس الذين يكافحون باستمرار لكي يتخلصوا منه.

فما حقيقة الخير والشر؟

وفقاً للمَعْلمات المتسامية للطبيعة، فإن الخير المطلق بالنسبة للكائن الإنساني، هو: كل شيء يحمل الإنسان على الاستيقاظ من التنويم البيئي، وبالتالي، يساعده على إيجاد مأتىً يرتقي شيئاً فشيئاً إلى حالات رفيعة من الوعي، الذي يقوده إلى ارتقاء عمودي صاعد.

والشر، على العكس، هو كل شيء يحول دون استيقاظ الوعي الأعلى للإنسان؛ كل شيء يسهم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في إبقائه في حالة تنويم، وبالتالي، يمنعه من تطوره أو يسبب تقهقره من نواح أخرى.

إن الارتقاء هو الهدف الأعلى لحياتنا، الهدف الذي يجلب، عندما يتحقق، سعادة لا تنضب وخيراً سامياً. وليس هناك طريقة أخرى لاكتشاف السعادة الحقيقية. أما البحث عن الخير الظاهري، فلا يقودنا إلا إلى الوهم والإحباط.

إن الواجب الأخلاقي الأول للإنسان هو الارتقاء بوعيه، وعندما يحقق هذا الهدف فقط يتوقف عن كونه جسراً ويصبح إنساناً حقيقياً. والجسر، في هذه الحالة، إنسان ناقص، شخص عادي مُصْمَت[2]. والشخص الأمثل هو الذي ينمّي، عن طريق التطور، حالته الهجينة لكي يَتَأَنْسَن بصورة كاملة وشاملة. ومن يسلك السبيل التي رسمها الخالق هو، في الحقيقة، إنسان كامل، يحوّل قدرته الفظة إلى عمل كامل تماماً. يُخرِجنا الله إلى العالم غير كاملين؛

1-قاموس الفلسفة لخوزيه فيراتر مورا.

2-ممتلىء ظاهرياً فارغ داخلياً-المترجم.

ولذلك يجب أن نعمل لبلوغ الذروة. ومع أننا، نحن أبناءه، ضللنا السبيل، فإننا لا نكتفي فقط بعدم القيام بإكمال أنفسنا، بل، على الأصح، نتشبث بعناد بتعميق "نقصـ"ها إلى أبعد حد.

ولذلك، يجب ألا تفاجئنا معاناة الناس من كرب وجودي، عندما يقولون إنهم فقدوا كل معنى في الحياة-ولا شك في أنهم كذلك. ولكنهم يستطيعون استعادة ذلك المعنى في أية لحظة. إن أي شكوى حول إمكانية فقدان المعنى أو الهدف في الحياة لا يقوم على أساس، والنواح عليه نفاق كبير. كلنا يمسك بيديه وسيلة اكتشاف معنى الوجود، وإذا كنا لا ندرك ذلك، فالعائق فقط هو فلسفة اللذة، أو التبطل، أو الكسل. وأمامنا طريقتان لتفنيد هذا: يتفجع قسم منا، على نحو يدعو للرثاء، من أجل حياة ذات معنى وهدف أكبر، بينما يبحث القسم الآخر عن أية ذريعة ممكنة، لكي يبرر ما هي عليه الأشياء، ومواصلة التصرف المعتاد بحيث لا يفقد الإشباع البهيمي الذي يجد في لذة كبيرة.

من المفزع أن يكتشف أحدنا يوماً دليلاً على أن هناك طريقاً أسمى للوجود، بأسلوب يختلف كلياً عن الأسلوب الذي نعرفه-اسلوب أكثر إنسانية، وجمالاً، وسعادة، وخصباً، وانسجاماً. ويعترينا الرعب إذا فتحنا أعيننا لنكتشف فجأة هذا الواقع الجديد، واقع ساحق لا يدحض إلى حد يدفعنا إلى العمل فوراً، وعندما نقوم بذلك، فإننا نبدأ نفقد نمط الحياة شبه الحيواني الذي كنا اعتدنا عليه.

يعني هذا أنه يجب علينا أن نهجر العالم العادي الصغير الذي نألفه. وأن نطرح الرضا الذاتي والتساهل؛ وأن نخلّف وراءنا تبريرات تصرفاتنا الخاطئة؛ وأن نقذف المسؤولية من النافذة؛ وأن نتوقف عن الرياء والكذب؛ وأن ننتهي من تكييف الواقع ومواجهته كما هو؛ وأن نتصل بإخلاص بالآخرين؛ وأن نحب الحقيقة لا التظاهر بحبها؛ وأن نكون مبتهجين، ومبدعين، ومنسجمين؛ وأن نتخلص من أي شعور بالحسد لكي نتمكن من مشاركة الآخرين بهجتهم عندما يحالفهم الحظ؛ وأن نمارس التكافؤ المساواتي مع كل الكائنات الإنسانية؛ وأن نخلّص أنفسنا من كافة الرذائل؛ وألا يكون مكان للشر في قلوبنا؛ وأن نكف عن التشكي والرثاء للنفس؛ وأن نكون سعداء ومستقيمين. فلو كان بمقدورنا أن نختار هذا النمط من الحياة ببذل الجهد والترويض، لتوفرت لدينا الاستقامة الضرورية لصنع ذلك القرار.

في الواقع، إن القرار في أيدينا، لأن الفرصة في متناولنا؛ وتعتمد فقط على رغبتنا وإرادتنا. فدعونا، مرة وإلى الأبد، نعلن على الملأ، وبشكل واضح، أن كافة الأشخاص في

هذا العالم، بغض النظر عن جنسهم، أو لونهم، أو طبقتهم، أو مكانتهم الاجتماعية، أو مستواهم الثقافي، يمكن أن يكتشفوا السعادة والخير الأسمى. فالناس، حتى الآن، كان يخدعهم بقسوة إيمانهم بأن نجاحهم وسعادتهم يعتمدان على الدولة أو على عطية السماء. ولكن الدولة تقوم فقط بإدارة شؤون الناس، والله أنعم علينا بما يكفي عندما وهبنا الحياة. ويترتب علينا نحن، انطلاقاً من نقطة ضآلتنا الطفولية، أن نقابل عطاءه بإكمال كياننا، لكي ننجز المهمة التي انتُدبنا لها. فكل شخص يتمتع، في داخله، بالقدرة على كسر قيوده من خلال التحسن الأخلاقي والروحي.

إن تنمية وعي أعلى ليس خياراً تافهاً للكائن الإنساني، لأن الحياة تقدم لنا بديلين فقط هما: الارتقاء أو التقهقر، ومن يفشل في أن يصعد، فإنه سوف يسقط ويتحجر. والصعود إلى مرتبة أعلى هو من أنبل الأهداف التي يسعى المرء لتحقيقها وأكثرها استحقاقاً للثناء، لأنه، عن طريق إكمال نفسه فقط، يمكن أن يقدم للجنس البشري القيم نفسها التي عمل على تنميتها داخل نفسه. وما من أحد، مهما حَسُن قصده، يمكن أن يعطي شيئاً لا يملكه في داخله. وهناك فقط طريقة واحدة، جدية، وعميقة، ومتماسكة يمكن للمرء من خلالها أن يسلك وفقاً لأخلاقية أعلى: أن يكتشف أولاً قيمته الخاصة. وعليه أن يدرك أنه يمتلك، في حالة كامنة، المادة نفسها التي صيغ منها الناس العظماء-ويدرك أنه لا يقل قيمة عن أكثر الناس أهمية في الوجود. ويجب عليه أن يفهم أيضاً أن المنزلة الرفيعة تكمن داخله، وأنه يحتاج فقط إلى شخصية مستقيمة حاسمة، وإرادة واعية قوية لمصلحة التدريب المطلوب للعمل على تحقيق الذات.

عندما يكتشف الإنسان قيمته الخاصة، فإنه لن يبقى ضئيلاً، ويتعلم أن يرفع بصره عن الأرض لينظر إلى السماء. فهناك بديهية تقول: " شُدَّ عربتك إلى نجم[1]." لنفعل هذا فقط. فالنجم في داخلنا. ولنهجر السير بسرعة ثور. فما من أحد يمكن أن ينكر أن الخير يمكن أن يعم العالم فقط عندما يتحقق في المستوى الفردي، وهذا ممكن فقط عن طريق العمل الروحي الشخصي. فليس الجمهور من يجب أن يتغير، لأنه لا يتمتع بالفردية، أو الوعي، أو الإرادة.

من حيث الشكل، أرى أنه ينبغي تعريف الخير الأسمى بوصفه الارتقاء الصاعد

1-قول للفيلسوف الأمريكي امرسون (عام 1870) المترجم.

عمودياً للوعي الشخصي. وما من أحد يمكن أن يدحض هذه الحقيقة. وما من أحد أيضاً يمكن أن يدعي بأن هذا يمكن أن يكون ملائما لبعض الناس ولا يلائم آخرين. ولا يمكن أن نتذرع بأنه سيء فيما يتعلق بتنمية الوعي الفردي عند الجميع، سواء كانوا بيضاً أو سوداً؛ غربيين أو شرقيين؛ متحضرين أو غير متحضرين. فإذا تحقق إجماع في أية لحظة حول أن الخير الأسمى ملازم لارتقاء الوعي الفردي، فإن هذا يمكن أن يصبح مفهوما ثقافياً عالمياً يمكن أن يحث الناس على سلوك سبيله. والخير الذي أقترحه لا يمثل رأيي الشخصي، ولا هو مجرد تعبير عن أولوياتي. ولكنني أتحدث عن الأمر الجازم للطبيعة التي لا تحتمل جمود الارتقاء والتي تدمر تدريجياً كل من لا يترقى انسجاماً مع إيقاع الكون. وربما حدث مثل هذا للعديد من أنواع الحيوانات التي انقرضت لأنها فشلت في التكيف مع التغيير.

حدث التقدم الإنساني، بصورة رئيسية، في الميادين العلمية والتكنولوجية. وكما نما دماغ الإنسان إلى ثلاثة أضعاف حجمه منذ بدايات النوع، فإن العلم والتكنولوجيا عرفا نمواً كبيراً مماثلاً. والذكاء، وفقاً للمفهوم الشائع اليوم، ازداد أيضاً، إلى حد كبير، نتيجة لضغط التغييرات الخارجية. ولكن يمكن أن نقول إنه في حين تطور الذكاء والعقل، فإن الوعي بقي جامداً. والمعنى الذي تتضمنه كلمة وعي يتجاوز التعاريف المعجمية، ويمكن أن نعرّفه على أنه مجموع التعلم الشعوري الذي يتحقق في حالات الوعي الأعلى. ولكن الوعي العادي لم يتطور نحو وعي يقظ لأن الإنسان لم يستيقظ من التنويم البيئي. فقد كان هناك دائماً مثيرات خارجية قوية تعمل على تنويم حواسه وتحثه على النوم.

يتمتع بنو البشر بوعي سكوني وذكاء ديناميكي، وهذا ما يقودنا إلى إبداع كثير من الأشياء من غير أن نتوقع ما يصاحب هذه العملية من تأثيرات. والذكاء والوعي مَلَكَتان مختلفتان بصورة مطلقة. وتنبع إحداهما من الدماغ والأخرى من الكائن. فالذكاء يتكون عن طريق التعلم الاستظهاري ويتحرك في عالم المعلومات. إنه قابلية فطرية. وينمو الوعي اليقظ عن طريق التعلم في حالات استيقاظ مُثلى، ويرتبط بعالم المعنى. إنه ليس قابلية فطرية وهو موجود فقط في حالة كامنة.

فالشخص الذكي شبيه بشخص جهول أو ساذج لكونه يفتقر إلى وعي متطور، ولكن من ينجح في امتلاك الوعي، فإنه لن يكون أبداً ساذجاً أو مغفلاً. وتساعده القابلية المهمة للوعي الأعلى على أن يتصور، بجلاء مطلق، التأثيرات الإيجابية للتصرف دائماً بتعديل

أفعاله وفقاً للمعايير الأخلاقية العليا. ونحن لن نجد أبداً شخصاً واعياً يؤذي شخصاً آخر عمداً، لأن الدستور الأخلاقي الأعلى ملازم للشخص الذي يتمتع بوعي أعلى.

فإذا استطاعت أكثرية الجنس البشري أن تحقق ارتقاء الوعي، عندئذ يتوقف العنف، وتنتهي الحروب، والجنوح، والإرهاب. ويقتنع الجانحون بأنه لا يمكن انتهاك "الشريعة الكونية" وأنه لا يمكن لـ "الجريمة أن تمر دون عقاب." ويقلع الناس عن الاستخدام السيء للعقاقير، ويصبحون مسالمين، ومستقرين، ومنسجمين، ويتعمق تفكيرهم. فلن نجد أحداً يسرق أو يؤذي الآخرين. ويسود تفاهم مثالي حالة العلاقات الذكرية الأنثوية وتصبح الأسرة نموذجاً مثالياً للتصرفات الأخلاقية. ولن نجد أحداثاً جانحين ولا شباباً متمردين. ولن تجد المحاكم دعاوى أمامها لأن الناس يتفقون فيما بينهم بصورة ودية حول أي اختلاف في الرأي. وتنهض الجيوش، بعيداً عن الحروب، بمهمات سلمية. ولن يكون هناك المزيد من الإدمان على المخدرات لأن الناس سيستعيدون المعنى الأعلى لوجودهم. ومع انتهاء الاستخدام السيء للعقاقير، يكون قد تم التخلص من واحد من أهم مصادر الفساد.

ويصبح القادة الأكثر أهمية هم أولئك الذين يتمتعون بوعي أعلى أرفع مستوى، ويمكن تحديد مواصفاته علمياً بأدوات حساسة يمكن أن تسجل هذا النمط من الطاقة.

تقوم الجيوش في العالم، عند غياب الحروب، فقط بمهمات سلمية وتحت قيادة "حكماء واعين،" وتنفذ مهمات نشر المعايير الأخلاقية العليا.

صورت في بضعة أسطر مدينة فاضلة Utopia، وذلك عن طريق إظهار ما يمكن أن يكون عليه العالم عندما نقوم بحملة أخلاقية ذات شخصية تقنية تهدف إلى إقناع الناس بتنكب طريق التغيير الصاعد في وعيهم بإرادتهم الحرة.

هذا ليس مجرد وهم. وكل ما نطلبه من الفرد هو أن يعود إلى استقلالية الـ "أنا" الخاصة عنده التي انتُزِعَت منه عن طريق حملات غسل الدماغ التي يقوم بها الإعلان والدعاية، ونعلمه كيف يمكن أن يحوِّل المستوى المنخفض والخالي من المعنى لوعيه إلى وعي هادف لقيمة لا تقدر. وهذا يساعده على التغلب على العقبات التي تعوق ترقيه ويهيء له مأتىً للسعادة والخير الأسمى. ولا بد لي من القول إنه على الرغم من أن هذا الموضوع قد لا يحظى بالإجماع، فإن أي شخص يمكنه، وفي هذه اللحظة بالذات، أن يبدأ الطريق بنفسه، دون أن ينتظر اتفاق الآخرين. ولا يحتاج إلا إلى التخلص من الوسطية والامتثال لكي يقترب قليلاً مما يبدو الآن مجرد وهم، ولكنه قد لا يكون وهماً في القرن الحادي والعشرين.

معايير خاصة بالكائن الإنساني

كلمة معيار تعني: "القاعدة التي يجب مراعاتها أو التي وفقاً لها يجب أن يتكيف السلوك، والواجبات، والنشاطات، إلخ."

وتعني كلمة سويّ:

1. "كل شيء يكون في حالته الطبيعية."
2. "ما يعمل كمعيار أو قاعدة."
3. "كل ما يتم تعديله، من حيث طبيعته، أو شكله، أو مقداره، وفقاً لمعايير ثابتة سابقة."

نشعر بالاطمئنان عندما تُستخدَم الكلمة "سوي" لوصف أحدهم، ونميل إلى الإحساس بأن هذه الكلمة تدل ضمناً على أفضل حالة ممكنة. وفي الحقيقة، إنها تعبر فقط عن أن مفهوم السلوك البيولوجي أو النفسي عند ذلك الفرد ينسجم مع المَعلَمات العامة للنوع. وبما أننا نسمح لأنفسنا أن نتأثر جداً بالأكثرية، فإنها تبدو لنا وكأنها تمثل الكمال الإنساني.

عندما يكون شخص ما مريضاً، فإننا نتحدث عن حالة مرضية تمثل شذوذاً في صحته. تُكتشَف هذه الحالة بواسطة أعراض واضطرابات مصنفة تصنيفاً جيداً. ولكن تحديد الاضطرابات النفسية والعقلية أقل سهولة وهي ذات طبيعة أكثر انتشاراً، تختلط فيها أحياناً عدة مرضيات، إلى الحد الذي معه يصعب على غير الخبير أن يميزها. فالتهاب المعدة والأمعاء يتم تشخيصه بسهوله. ولكن الحالة على خلاف ذلك مع العصاب النرجسي مثلاً. وكثيراً ما كانت تعتريني الدهشة فيما يتعلق بحالة المرضيات العقلية، لأنها قد تكون ظهرت قبل مئات أو آلاف السنين ويمكن أن تكون أثرت على كامل الجنس البشري على مدى قرون. فكيف تهيأ لنا أن نكتشفها إذا أصبحت معياراً لااستثناء، بعد أن أثرت على كامل النوع على مدى آلاف السنين؟

تعودنا أن نعيش في حالة "ضعف" نفسي وعقلي دون أية قدرة على إدراك تلك الحالة.

ودون اتصال مع الكائنات الأخرى خارج نطاق الأرض لكي نقارن أنفسنا بها، أي أننا عشنا دون أن تتوفر لنا نقطة إسناد أخرى.

أنا متأكد تماماً من أن حالة الضعف تنتشر وأننا "متخلفون" أو "معوقون" فيما يتعلق بمفهوم أخلاقية الطبيعة. فما نعتبره "سوياً" هو في الواقع "ناقص،" وما نفتقر إليه هو وعي أعلى يقظ، أي الارتفاع بالذات إلى أعلى مستويات العقل؛ والتظاهر الواعي للذات بواسطة الدماغ؛ والوعي الشامل الذي يتضمن الذات والموضوع. إن كيان الفرد هو جزء متمم لكيان الكون؛ وهو الجزء الذي يحتوي الكل. وصورة الإله، من منظور التصوير التجسيمي، تُطبَع في داخلنا، ولكننا عاجزون عن إدراكها. إنها روح الإنسان الخالدة، الشرارة المقدسة التي تفيض من الخالق، وتحتوي على كل صفاته إنما على نطاق ضيق.

كان هناك، عبر تاريخ الجنس البشري، أناس يمكن اعتبارهم، في الحقيقة، "أناس أماثل" من أمثال، كونفوشيوس، والمسيح في جانبه الإنساني، وسقراط، وكريشنا، وبوذا، وأورفيوس، وزرادشت، وهرميز، ومحمد. و"الإنسان الأمثل" الذي أقصده هو أكثر من "إنسان"؛ أكثر من إنسان ناقص ولكنه يشبه من حيث الجوهر الإنسان الكوني، النموذج الأصلي للإنسان الكامل المتطور. ويكفي أن يلقي المرء نظرة خاطفة على حالة العالم الحاضر وعالم الماضي لكي يسلّم بأن هذه الحالة هي نتيجة لسلوك الناس المتحضرين، مع أنهم غير كاملين. إنهم "أنصاف ناس" يبقون، على الرغم من انهم يمتلكون جزءاً مُكمِّلاً من أدمغتهم، محرومين من نصفهم الأعلى، مثلهم مثل أبنية غير مكتملة.

إن الكرب الوجودي هو مجرد شعور حدسي لكائن ناقص. إنه إدراك المرء أنه منفصل عن الجزء الأكثر أهمية من كيانه الراهن. وفي الحقيقة، إن معنى الحياة موجود في حقيقة إكمال المرء لذاته.

فما المعايير التي تخص الكائن الإنساني الحقيقي؟

الإنسان الكامل:

1. يتحكم بوعيه، ويحافظ عليه في مستوى صاعد للإدراك.

2. منيع لبلادة التنويم.

3. يمكنه أن يتفوق علىآليات دفاع التحليل النفسي للـ "أنا"-الكبت، والإسقاط[1]، والتثبيت[2]، والنكوص[3]، والتكوين الضدي[4].

4. يتمتع برؤية موضوعية لنفسه.

5. ينجح في التغلب على خداع الذات والتبرير.

6. صادق أخلاقياً ومنطقياً، لأنه مقتنع بأن الطبيعة تعيد، بحجم مساوٍ، ما تتلقاه من تصرفات الإنسان.

7. غير قادر على أن يتعمد إلحاق الأذي بأي شخص.

8. يحتفظ بأسمى القيم التقليدية.

9. يعتمد احترامه لنفسه على مستوى "الإنسانية" التي نجح في تنميتها، لا على استحسان الآخرين.

10. متسامح، ولطيف المعشر، ورحيم.

11. لايكره احداً.

12. يجسد القاعدة الذهبية المعروفة: "لاتعامل الناس بما لاتحب أن يعاملوك." كمعيار أساسي للسلوك.

13. يمارس الفضائل العليا ويمكن أن يسيطر على أهوائه بصورة تامة.

14. ينظر إلى الواقع كما هو لابما يتفق مع تصوره.

15. إنسان بعمق ويحمل قلباً نبيلاً.

16. يُجِلُّ الإله، والأسرة، والوطن.

17. يكافح، دون ملل، في سبيل الحقيقة والعدالة.

18. يُثبت كيانه بواسطة عقله.

19. يعرف الحب الحقيقي ويمارسه.

1-أن ينسب الشخص مافيه من عيوب إلى الآخرين-المترجم.

2-توقف النمو النفسي كحيلة لاشعورية لكسب العطف أو لأسباب مرضية-المترجم.

3-تراجع الشخص إلى سلوك طفلي أو مرحلة سابقة من مراحل النمو كوسيلة للدفاع عن النفس-المترجم.

4-إظهار سلوك مضاد لرغبة مكبوتة بقصد إخفائها كحيلة لاشعورية لتحقيق التوازن، كإظهار العطف على شخص لإخفاء الشعور بالكراهية نحوه-المترجم.

20. يتمتع بقابلية "ذات مغزى" وليست معلوماتية فقط.
21. المعلومات التي يمتلكها في دماغه خاضعة لـ "أنا".
22. الـ "أنا" عنده راشدة كاملة النمو.
23. منيع لتأثيرات ظاهرة "الحشد النفسي".

هذه فقط بعض المثاليات عند الكائن الإنساني الحقيقي الذي عمل على إكمال نفسه من خلال عملية إكمال روحه. وتمثل هذه الصفات قيمة متسامية للنسب الكونية، التي تبيِّن ما يجب أن يكون عليه الإنسان. وما دام سلوكنا لا يتكيف مه هذه المَعلَمات، فإننا سنبقى دائماً مقلدين قاصرين للكائنات الإنسانية الحقيقية؛ "أناساً جُسوراً" لم ينجحوا في إيجاد مأتىً إلى مستوى ذي مغزى للارتقاء. نحن، في الحقيقة، نتحدث تقريباً عن كامل النوع، الذي اكتفى بالبقاء على مدى آلاف السنين في حالة "تمهُّن إنساني،" على الرغم من حقيقة أن الإنسان وُضِع على هذا الكوكب لكي يتعلم ويتطور، عن طريقة الدراسة في أصعب أكاديمية وأكثرها واقعية: مدرسة الحياة.

ليس للنجاح أو الفشل في هذه المحاولة صفة محلية، ولا علاقة له بالوجود الفيزيائي المحدود للفرد، ولكنه، على الأصح، يكتسب بعداً كونياً. فهو ينطوي على مضامين تجسيمية، لأنه يشير إلى نجاح أو فشل الجسيم في عمله العظيم لكي يُجسِّد في ذاته النموذج الأصلي للإنسان الكوني الذي يفيض من الكل.

يعتبر نصراً للجسيم-الإنسان في واجبه أن يجسد في عالمه الصغير المكافىء النوعي لصفات الأب الذي كوَّنه. فهو بهذا يسمح للشرارة المقدسة البالغة الصغر التي تستقر في داخله أن تصبح المنارة التي تنير وعيه. فيتمكن، عن طريق تعلمه كيف يتصرف لكي يتسامى على الوجود الشاذ الخالي من المعنى، كأولئك الذين يتلاعبون بعواطفهم وتعمي بصائرهم الأنانية، والعنف، والطمع.

يتلاشى سخف التصرفات الإنسانية وتناقضاتها عندما نسلِّم بأنه من الطبيعي، بالنسبة لنا، أن نسلك بهذه الطريقة، لأننا أدنى من إنسان، وسلوكنا أقرب إلى سلوك الحيوانات. ونحن، على الرغم من هذا، نحاول أن نتصرف وفقاً لما نظن أنه تصرف الكائنات الإنسانية الحقيقية. ومن المستحيل أن نطلب من الإنسان-الحيوان أخلاقيات أعلى. ويمكن للمرء أن ينتظر هذا فقط من الإنسان-الإنسان. هذا هو الواقع المؤلم لحالتنا وعلينا أن نسلِّم به. نحن

صغار جداً، غير أننا نملك الكثير. وما الافتقار إلى الأخلاقيات سوى واحدة من الصفات التي تلازم حالتنا كأناس غير كاملين-أطفال يحققون مستوى ضئيلاً من الارتقاء ويتمتعون بذكاء الكبار ولكنهم أطفال في محاكمتهم العقلية. ولذلك، يجب ألا تدهشنا الحرب، أو المجاعة، أو الفساد، أو الجنوح، أو اللاأخلاقية، أو التدمير، بل إن ما يجب أن يدهشنا هو عدم وجود هذه الكوارث.

كان العالم دائماً هكذا وسيبقى، إلا إذا حدثت تغيرات فردية. قد يحتج بعضهم بأنه إذا تغير الإنسان إيجابياً، فإن تأثير هذا التغيير سيكون ضئيلاً على الإنسانية، ولكن الإنسانية، في الواقع، هي مجموع الأفراد في نهاية الأمر. ونحن، إضافة إلى ذلك، لا نعرف الحجم الحقيقي لغلال الأناس الكاملين، حتى أنه لا يمكن أن نتنبأ بخطورة تصرفاتهم في العالم.

ولكن، نعرف أن التضحية على صليب إنسان وحيد كامل غسلت خطايا الأرض. فما المنزلة التي يحتلها هذا الكائن فتجعله يحقق هذا؟ ألم يكن هناك أيضاً مستويات أكثر تواضعاً للجوهر نفسه؟ هذا بالضبط ما أدافع عنه: معقولية "الإنسان-الجسر" التي ترفع مستوى الوعي عن طريق الحياة الروحية حتى يبلغ مستوى "الإنسان الأمثل،" الذي هو ليس أكثر من إنسان حقيقي. يمكن أن أشعر الآن بالخوف والارتياب من بعض "القبور المُبَيَّضَة،" التي سترفض هذا الاحتمال أو تحاول تسفيهه، لأنه يمثل تهديداً لنمط حياتها اللاأخلاقي، أو العاطفي، أو المادي.

هناك الكثير من المصالح المكتسبة التي تهتز أمام كلمة حرية عندما تعرف بالحدس أن هذه الكلمة يمكن أن تشير إلى إمكانية حقيقية تتجاوز مجرد الشعار. إنهم يخافون من إمكانية أن يستيقظ الإنسان الآلي ويحرر نفسه، ويكف عن كونه مستهلكاً مطيعاً. ويخشون أيضاً من إمكانية أن يفكر الفرد لوحده ويختار بحرية مصيره الخاص دون أي ضغط خارجي مهما كان نوعه، ومن إمكانية تحقيق فرديته العقلية وحريته الكاملة في التفكير، إلى الحد الذي لا ينصاع بعده لأوامر الإعلان والدعاية. وترعبهم إمكانية أن يجلس أي مواطن أمام شاشة التلفزيون، وبمعجزة، لا تنومه الصور، أو إمكانية أن يطالع الصحف ولا يتأثر بأي استلاب إعلامي. ويضطربون من إمكانية نشوء نظام جديد يحقق للجميع تكافؤاً تاماً للفرص. نظام لا يقيم وزناً للعرق، أو اللون، أو الدين، أو الثروة، أو الجنس، أو

أي اعتبار آخر سوى الوعي العالي الذي يبلغه الناس. هنا، ينهض بالأدوار الأكثر أهمية من يتمتعون بمضمون إنساني أكبر، في حين ينهض بالأدوار الأكثر تواضعاً من هم أدنى مستوى من حيث الإمكانية الإنسانية. ولكن، لكي تتأنسَن الفرصة إلى مستويات أعلى، فإنها يجب أن تتاح للجميع، بحيث تصبح الجدارة الفردية هي المحدِّد لمصائر الناس.

عندما يصبح بإمكاننا قياس مستوى الوعي عند الفرد، بطريقة علمية، نكون قد حققنا أهم اكتشاف في تاريخ البشرية. فكما يحدث اليوم في قياس اختبارات الذكاء، يقوم الشخص المكلف بقياس مستوى الوعي بوضع قواعد لنوع المسؤوليات التي يمكن للفرد أن ينهض بها، وأهمية المواقع التي يمكنه أن يشغلها. هذا يمكن أن يحرك ثورة شاملة في العالم، لأن هذه اللحظة هي لحظة "إعطاء كل فرد ما يستحقه" وفقاً لمبدأ المكافىء المساواتي، الذي هو واحد من أكثر قواعد العدالة الكونية أهمية.

وبعد هذا، لن تحظى الثروة، أو المنزلة الاجتماعية، أو الشهادات الأكاديمية، أو السلطة السياسية بالأهمية التي كانت لها. ولا شك في أنه سيكون هناك مفكرون، أو مغفلون متعلمون أو متبحرون (يتمتعون بوعي مهم أو ضعيف جداً) ولكن بالمقابل، سيكون هناك أيضاً طبقة من الناس متواضعة جداً، يبلغ أعضاؤها، بسبب جدارة مضمونهم الداخلي، أعلى القمم الروحية. ولن يكون بإمكان العديد من القادة ورجال الدولة البارزين، الذين يحظون بالإعجاب حتى الآن، أن يستمروا في مناصبهم بسبب وجود دليل تقني على عجز حالتهم الإنسانية. وسوف نكتشف أيضاً أن الناس المثقفين أو الذين يتمتعون بدرجات عالية من الذكاء، بالمعنى التقليدي، يمكن أيضاً أن يكون وعيهم متخلفاً أو ضامراً، في آن واحد.

ويطفو على السطح أيضاً الحكماء الحقيقيون-أولئك المثقفون من أهل المعرفة، الذين يتمتعون بحكمة حية تتسامى فوق المكان واللحظة. وسوف يزول التمييز ضد النساء لأنهن سيعاملن على اعتبار أنهن "يتمتعن بوعي عالي المستوى، " وفقاً لتحليل فرديتهن. ولهذا، لن يكون ممكناً التمييز، على نحو جائر، بين رجل وامرأة في المستوى نفسه؛ وسيكون هذا هو المقياس الأساسي الذي يفوق أي اعتبار آخر. والحقيقة هي أن القيمة الحقيقية للكائن الإنساني تكمن في كيانه، وليس في ذكائه أو مشاعره. ومن سوء الحظ أن يكون الذكاء في خدمة الشخصية، وأنْ تمتثل الشخصية للعواطف. وفي مستوى الكينونة، نحن جميعاً متساوون داخلياً بمقدار ما يتعلق الأمر بجوهرنا، ولكننا نختلف وفقاً للارتقاء الفردي، عند

وجوده. ومعنى هذا أننا نمتلك في كياننا تراكماً أكبر للقيمة، عندما نتعلم دروس الحياة ونكون قادرين على سلوك سبيل الحياة المستقيمة والواعية. وفي الواقع، لن تكون هناك مساواة ولا تفاوت بين الناس، بل مجرد اختلاف في درجات امتداد الذات. فما الذي يقود البعض إلى التقدم وبعضهم إلى البقاء في حالة شلل؟ يكمن الجواب في طريقة معالجة الفرد لكل تجربة يومية والواقع الذي يحيط به. وما نقوم به في حياتنا اليومية يمكن أن يساعدنا إما على تطوير أنفسنا وتوسيع وعينا، أو فقط على أن "نعيش مغمضي الأعين."

ينجح الفرد في "تحقيق الذات" من خلال دراسة دقيقة لما يَخبُرُه-وهي عملية تفكُّر أو تأمل استبطاني يمكن فقط أن يقوم بها الكائن الذي تكون حالات وعيه في مستويات عالية من اليقظة. ويستلزم هذا أن نقوم يومياً باستقطار مدرسة الحياة دروسا أخلاقية وروحية، وهي عملية تؤدي إلى نمو الكينونة مع زيادة مماثلة في القيمة الجوهرية. والشخص الذي يتمكن من تحقيق هذا يصبح جديراً بالمزيد لأنه يحرز هذه القيمة بجهوده الخاصة، أما من يبقى جامداً وهزيل القيمة، فإنه يمكن فقط أن يجني ثمار كسله، وتراخيه، وتساهله. وفي الواقع، إن من يقيِّم الفرد، ليس المجتمع بل الطبيعة بالذات هي التي تستحسن أعماله، لأنها تكتشف أن تلك الأعمال تتفق مع القواعد المتسامية للكمال الروحي.

إن من يحاول أن يؤسس، بصورة اعتباطية، مَعْلَماته الخاصة، دون احترام للعدالة الكونية، فإنها سوف تجرده في النهاية من مؤهلاته، وسيقضي حياته في مواجهة متواصلة مع الشرعية.

القيم عند الإنسان العادي

عالم المفاهيم عند الإنسان العادي عادة صغير جداً حتى أن ما يُظَن أنه مهم لا يمتد عموماً إلى أبعد من مجال حاجاته الجسدية، وهو محدود بما يسميه بعض الفلاسفة "الحياة دون الروحية،" أي، الوجود البيولوجي الصرف.

ويتزايد يومياً عدد الناس الذين تكمن قيمتهم الوجودية الرئيسة في الجسد والأحاسيس، والذين يتطلعون فقط إلى متعة أنفسهم وإلى أن يكونوا مستهلكين، ويكرسون ما يتبقى لديهم من وقت لكسب المال الضروري لتمويل مغامراتهم. كما يبتغون الصحة، وأن تكون لديهم أسرة، وعمل جيد، وبيت، ويجب ألا ننسى التلفزيون، والسيارة، ومجسم جيد للصوت، والسفر حسب الرغبة لقضاء أيام العطلة.

إنهم يهدفون إلى "العيش بسلام،" "لا تعترضهم أية مشكلات،" وأن يكونوا محبوبين ومقبولين. هؤلاء الناس المتوسطون، الذين يشكلون الأكثرية، وصفهم بدقة خوزيه إنجنييروس: "الإنسان المتوسط ظِلٌ يعرضه المجتمع؛ وهو، أصلاً، ميال إلى التقليد، ومكيف تماماً للعيش في مجموعة كبيرة، تعكس الصيغ المكرورة، والتحيزات، والدوغمائية[1] التي يُقدَّر أنها مفيدة للاستدجان. ويتميز، بصورة رئيسية بتقليد كل من هم حوله: يفكر بعقول الآخرين ولا يمكنه أن يصوغ مثالياته."

الوسطية هي المعيار؛ وغيرها استثناء. يركز معظم الناس تفكيرهم عادة على مشاغل اللحظة، ولا يخصصون وقتاً يفكرون فيه لكي يفهموا جارهم على نحو أفضل، ولكنهم، في الوقت نفسه، ينتظرون منه أن يقبلهم. وواحدة من العقبات الرئيسة التي تعترض سبيل الإنسان العادي لتحسين نفسه أخلاقياً وروحياً هي قصوره العقلي الذي يمنعه من إدراك ضآلته، لأنه يشعر بالاطمئنان معها حتى أنه يفتقر إلى أي نقد ذاتي. وكثيراً ما يقوم بتقليد ملايين النسخ لشخصيته الخاصة إلى حد يظن معه أنه من غير الممكن أن يكون عدد كبير

1-أو الجزمية: التمسك بالرأي دون الاستناد إلى حجة كافية-المترجم.

جداً من الناس على خطأ في أسلوب حياتهم أو طريقة وجودهم. فهو لا يقارن نفسه بمن هم فوقه ولكن بأمثاله. والإنسان المتوسط لا يريد أن يستمع إلى الحقيقة حول نفسه أو يتقبل تفاهته، وهو موقف يؤدي بإمكانيات الارتقاء إلى نهاية مبتسرة.

إن المقارنة بين صفات الفرد العادي وقابليات الشخص الذي يكمل نفسه يكشف عن هاوية لا قرار لها من الاختلافات التي تتكون، ببساطة، من اختلاف السجايا بين "إنسان خام" و "إنسان مصقول."

ومن البدهي أن يكون للناس العاديين كل الحق في الحياة في أن يكونوا كما هم، ويجب ألا يخضعوا لظروف تجردهم من الأهلية بسبب وسيطيتهم. والطفل صغير أيضاً، وينبغي ألا يحلم أحد بلومه على ذلك، لأننا نعرف أنه سوف ينمو. ولكنها حقيقة أيضاً أن أكثرية كبيرة من الجنس البشري تتفق مع نموذج "الإنسان الناقص،" الذي لا يهتم بـ "تحقيق الذات،" بل يفضل، بدلاً من ذلك، القيام إلى ما لا نهاية ودون نتيجة بمطاردة أوهامه، ونزواته، وخيالاته، وهي ملاحقات لا تتوقف إلا عند مواجهته للموت.

وهذا يضع على كاهل الإنسانية عبئاً ضخماً، أدبياً وأخلاقياً، لأن قلة من الناس ممن يتصرفون بهذه الطريقة ووصفناهم أعلاه يتحلون بمبادىء أخلاقية محددة بصرامة؛ ويمكن للقيم الأخلاقية العليا أن تكون مقبولة فقط من قبل من يعترفون بعيوبهم ونواقصهم، ويقاتلون في سبيل تحسين أنفسهم، ولكنهم لا يمكن أن يحققوا هذا الهدف إلا إذا عملوا أولاً، وبالشكل الملائم، على تصليب شخصيتهم وإرادتهم.

إن أية عملية لتحقيق الذات تبدأ بالضرورة بتمييز الهوية الفردية، ولكن هذا غير ممكن إذا بقي المرء مندمجاً بالحشد. والإنسان الاستثنائي فقط يمكنه أن يقوم بهذا، ولكن يجب أن نبيّن أن أي شخص يشرع في الإقدام على ذلك بتصميم ومثابرة يمكن أن يصبح شخصاً استثنائياً. فالذخيرة الأخلاقية للإنسانية لا نجدها عند الحشد بل عند الأشخاص المميزين الذين يصممون، بعد أن يكونوا قد انتصروا في عملية الاصطفاء الطبيعي، على أن يتطوروا روحياً ويصبحوا نماذج جديرة بأن يُقتدى بها. ولكن، من الضروري أن نذكر أن أي شخص يتجرأ على النمو ككائن إنساني، ليتخطى المستوى العادي، يجازف بالتعرض للازدراء الذي به تعاقب الجماعة من يصبحون مختلفين عنها بالمعنى الأعلى للكلمة. وبسبب هذا الاختلاف بالذات سيثير شكوك الناس العاديين و "يعاد إلى موقعه" فقط عندما

يُثبت مرور الزمن قيمته الحقيقية، ويحدث هذا عادة بعد موته. ونضيف إلى هذا اللاأهلية الصماء، إنما المكروهة من جميع الذين يشعرون، بطريقة أو بأخرى، أن هذا الإنسان الأمثل يضعهم في الظل. فكثيراً ما يحدث أن يحظى من كانوا غير مقبولين في الحياة ككائنات إنسانية رفيعة بالتمجيد كآلهة بعد مماتهم.

وإنه لما يدعو إلى الرثاء أن تتجاهل ثقافتنا تماماً ما يمكن أن يكون عليه أسلوب الحياة أو الإمكانيات عند فرد عندما يكون أكثر روحية، ووعياً، ونشاطاً، ويقظة. وإن جهل هذا الاختيار الوجودي يعني تقييداً لرغبات أولئك الذين يبددونها، من خلال بحثهم عن تعبير أعلى لنشاطهم، على أمور تافهة، دون أن تتاح لهم الفرصة لإدراك أن تحقيق الذات الإنسانية ممكن. ويبدو أنه كلما ازدادت المعلومات الثقافية والعلمية التي يتمتع بها الفرد، ازدادت ثخانة الحُجُب التي تشوش إدراكه للواقع الطبيعي، وهذا ينسجم تماماً مع حقيقة أن زيادة المعلومات الدماغية التي تُحقَن للشخص وهو في حالة يقظة منقوصة أو حالة "ضبابية،" تعمل على إخضاع الـ "أنا" كلياً للمعلومات الدماغية المستقلة. وهذا يقيد الفرد إلى ذلك النموذج عن طريق تضييق وتثبيت حدود أمثلته الإدراكية. ويمكن أن نفهم على نحو أفضل عن طريق إدراك أن النموذج الشائع للتعليم هو نموذج استظهاري دووَعيّ، لا نموذجاً معرفياً واقعياً، وبناء على ذلك، لا يوجد شخص مثقف حر من هذا القيد. وعلى العكس، يبدي الأشخاص، ممن هم أدنى برمجة عقلية، مستوى أدنى من الانسلاب.

إن العامل الأكثر أهمية ومغزى بالنسبة لحياة إنسان ما، وهو السبيل الروحي الذي يقوده إلى تنفيذ الأمر الكوني لـ الطبيعة بالارتقاء، لا يجد له مكاناً في ثقافتنا الراهنة. ولهذا السبب، لا يحتمل أن يجد أي شخص يلتمس إكمال نفسه الباب الذي يؤدي إلى هذه الفرصة الثمينة، التي يحجبها أو يعزلها التمييز العلمي والثقافي. وبما أن كل ما هو قيِّم يكون قليلاً، ويبقى عادة محجوباً، فإنه لن يكون هناك الكثير من الناس، ممن يريدون تغيير أسلوب حياتهم الراهن نحو الأفضل، سوى المعروفين بدرجة أقل. وحتى هذه الفرصة محددة بوضوح وتنتشر بالمعنى الضيق للكلمة. وتتكشف الإنسانية، إلى ما لا نهاية، فقط عن العيوب الأخلاقية التي تحملها حالياً. وبالمثل، إن إمكانية الارتقاء الأخلاقي والروحي تشكل تهديداً لمن يرفضون أن يتخلصوا من رذائلهم وسلوكهم غير الملائم. إنه يهدد وسطية الناس المهمين ومن يستفيدون من القيود القاصرة للعقل الإنساني. ويضل الناس، إلى حد خطير، بخصوص ما يقيِّمونه، مما يدفع إلى الخلط بين الأهداف والوسائل، أو مجرد الأدوات اللازمة لتحقيق

الأهداف. وعندئذٍ، يحوّلون الوسائل إلى أهداف، ويعيشون حياة تفتقر تماماً إلى أهداف أعلى. ويصبح همهم الأساسي أن يتمتعوا إلى أقصى درجة، وأن يكونوا محبوبين ومحترمين، ويرتعوا في الاستهلاكية، ويعمّروا بسلام، ويموتوا بهدوء، ويخلفوا وراءهم أسرة كبيرة. فما الذي يحدث بعد كل هذا التمتع، والاستهلاك، وإنجاب الأطفال، والتقدم في العمر؟ ما الذي يكون؟ وما الذي يأتي بعدئذٍ؟ وما الأهداف التي حققها الفرد في حياته؟

إنه لا يدرك أبداً حقيقة أنه بقي ضمن حدود "الوسيلة،" التي يحولها، بصورة اعتباطية، إلى "هدف" لحياته أو غرض لها. فهو، في تصميمه على أن يحيا بحق، وصل فقط إلى بدايات الوجود الأكثر تخلفاً، لأن طول العمر عند الناس العاديين يتركز على التسلية، والملذات الحسية، وعلى الحصول على بعض البضائع المادية التي تجلب لهم شيئاً من الرفاهية. وهم، إضافة إلى ذلك، يتوقون إلى تكوين أسرة، لكي يسعدوا بالحب، وينجبوا العديد من الأطفال.

هذه كلها أهداف لحياتهم وقلما يُنظَر إليها كأدوات أو وسائل لتحقيق الكمال الروحي. وبمعنى آخر، إنهم يسعون وراء "التملك،" وبصورة استثنائية فقط لكي "يعيشوا."

نتبيّن من هذا لماذا لا ينمو الناس ولا يقيمون أي وزن لمستوى الكينونة، ولماذا يكون لتجاربهم في الحياة، كما لغايتهم، ذاكرة عقلية وليس كينونة. هناك أناس يكسبون قدراً كبيراً من المال ويسخرون أنفسهم لخدمة هذا المال؛ فيصبحون عبيداً للملذات المادية التي تتحكم بسلوكهم؛ إنهم خدم للتلفزيون أو السيارة؛ أسرى لصورتهم ورأي الآخرين، مما يقيد البقية الضئيلة من الذات التي تبقى في داخلهم إلى أي نمط من الابتذال أو العبث الذي يواجهونه.

وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة إذا قلنا أن العديد من الناس يَخبُرون كرب الأزمة الدائمة للهوية والهدف، ولذلك يبحرون عبر الحياة بصورة عشوائية يديرون الدفة، دون بوصلة أو سُدسية[1]، ودون نجم قطبي يرشدهم.

الاضطرار للسفر يعزى، في الواقع، إلى هذه الأسباب. فملايين الناس الذين يسافرون ويراودهم أمل مبهم في أن يجدوا أنفسهم في الأراضي البعيدة، إنما يهربون باستمرار من واقعهم الخاص، لكي لا يواجهوه، تحت ذريعة الرفاه والتسلية.

1-آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة-المترجم.

ومع ذلك، إلى أين يذهبون حقاً؟ ليس إلى أي مكان طبعاً، وفي الواقع، لن يصلوا أبداً ما لم ينطلقوا في سبيل ارتقائهم الفردي. إنهم أشبه بالنمال التي تجيء وتمضي ولكنها تبقى في المكان نفسه. وكل رحلة هي نزوة جديدة، رغبة غير واعية للعثور على شيء ما خاص دون معرفة هذا الشيء الخاص. وما يحدث حقاً هو أن كل واحد يتوق، في أعماقه، إلى العودة إلى جذوره لكنه لا يستطيع أن يتصور، على نحو واع، هذا الدافع الحدسي. لا يمكنه أن يدرك أن ما يريده حقاً هو التوحد من جديد مع كينونته، مع "أنا موجود" الجوهرية التي يصبح بعيداً عنها أكثر فأكثر منذ الولادة.

يعمل الانغماس في اللذة والتسلية على استنزاف روح الفرد وذبولها، حتى أنه يحتاج، مع تنامي يأسه، إلى تجديد قصفه الوجودي لكي يُشبع فراغه الداخلي. وعندما يدرك أن الخير الظاهري الذي كان قد اتخذه هدفاً له لم يسد حاجته ولم يشبعه، فإنه سيترتب عليه أن يبحث عن شيء آخر مختلف، وسيتبيّن، عندما تحين اللحظة، أن هذا غير كاف أيضاً؛ هذه هي الدائرة التي يكررها مراراً في ظل أوهام مختلفة. ويبعده هذا أكثر فأكثر عن إمكانيات "الكينونة،" لأنه بعيد عن التماس الأشياء في داخله، وبدلاً من ذلك، يلتمسها في الخارج. إن الناس الأسوياء يصلون عادة نهاية حياتهم وذاكرتهم مليئة بآلاف "التجارب الحياتية" في مستوى الجسد، والحواس، والدماغ. ومع ذلك، يكون كيانهم فارغاً ومحبطاً لأنه كان قد رفض الفرصة لمواجهة لعبة الحياة بطريقة مباشرة وصادقة.

الإنسان العادي غير كامل، ولكنه يتمتع، على الأقل، بوحدته الكلية، ومن هذا الأساس يمكن أن يبني جزاه الأعلى. ولكنه يبقى لا مبالياً، وخاملاً، وجاهلاً-يتهرب من واجبه الذي يجب أن يكون أولوية عنده-وتغريه تعددية المثيرات البيئية وشدتها، وتصعقه، وتنوّمه.

يحدث عادة أن يخلط الناس "الكينونة" بـ "امتلاك الأشياء،" لأنه كلما ازدادت الأشياء التي يمتلكونها، ازداد إحساسهم الذاتي بـ "الكينونة،" حيث تصبح الأشياء الخارجية امتداداً لـ "أناهم". ويحدث هذا مع أي شيء خارجي به تتعين هوية الـ "أنا،" مما يحرض امتداداً زائفاً لحدودها. ويتضخم هذا الامتداد حتى يصل الحدود بمعنى الشهادات أو درجات الشرف. وبما أن هذه الشهادات ودرجات الشرف تُعطى من قبل المجتمع، فإن هذه الألقاب تصبح بديلاً للمجتمع.

ويخلط الشخص المحترف شهادته بالنفوذ الاجتماعي الذي تتضمنه تلك الشهادة، ويوسع "أناه" الاجتماعية إلى حدود المجتمع ذاتها، دون أن يدرك أنه "يؤدي عملاً" ليس إلا-أي أنه يؤدي وظيفة للمجموعة الاجتماعية التي ترعاه. والسيارة تشبه امتداد الـ "أنا،" وكذلك الحال مع أي نمط من الملكية المادية التي تعمق الإحساس بالكينونة. هذا لأن الـ "أنا" تصبح جزءاً من تلك الممتلكات التي تعزى إلى غريزتنا في التملك.

تحظى الحفلات والتجمعات الأخرى في سبيل اللذة بأهمية كبيرة عند الإنسان العادي، لأنها تمثل مناسبة فيها تتضاعف، بشكل ملموس، تفاهته الخاصة من خلال اكتساب موقت لـ "أنا" عادية، وسيعة ومهمة، وبذلك يتكون لديه إحساس يمتد لبضع ساعات بأنه يعيش بشكل مركز. وغالباً ما يَخبُر في هذه التجمعات مشاعر كونه سوياً، وأن كل شيء "يسير كما ينبغي"-مندمجاً مع أناس من أمثاله في لحظات اللذة والسعادة. إن تأثير المجموعة يثير الإحساس بالسعادة والأهمية، حتى إنه كثيراً ما يصبح تجربة من الضروري تكرارها مراراً لترويع أشباح الوحدة والكرب.

إن لعالم "اللاوجود" تفاهته الخاصة، وكل من يقع في اللعبة يجد صعوبة كبيرة في الخروج منها. ويسود العبث والفرح الملزمان في هذا المكان، وهذا أيضاً ما تفعله المعاناة الميكانيكية والألم الأخلاقي المحرِّض ذاتياً. وهذا الأخير معاناة نفسية يَخبُرها من يصابون بالإحباط عندما تكون مطالبهم من العالم غير متناسبة، مطالب لا يمكن للعالم أن يلبيها. وتنشأ هذه المطالب في خصائص زائفة توسعها النرجسية وعبادة الذات. إن نفور الفرد من كونه وحيداً تعلله حقيقة أن الفرد، في هذا الموقف، ينظر إلى نفسه فلا يفرحه ما يراه. وبسبب هذا، يحتاج إلى تشغيل التلفزيون حالاً، أو نظام تضخيم الصوت أو أن يباشر التحدث مع أحدهم على الهاتف. فهو لا يستطيع أن يتحمل السكون الخارجي لأنه يسبب سكوناً مماثلاً لعالمه الداخلي، والذي يسبب، بدوره، إدراكه لتفاهته. فالحشد، وشدة النشاط، وتعدد المثيرات البصرية، كلها تعمل في خدمة الآليات الدفاعية، لأنها تبلِّد الحدس الداخلي الذي يمكن أن يؤدي إلى نقد حقيقي للذات، وبالتالي، يشكل تهديداً مشؤوماً لصورته النرجسية.

إن البقاء في مملكة معروفة يطمر فيها المرء رأسه في الرمال كما تفعل النعامة، هو استراتيجية تنتشر على الأغلب لكي يواصل القيام بما كان دائماً يقوم به. ومعنى هذا أن يولي

أذناً صماء إلى متطلبات القيم العليا التي تدعوه إلى العمل. والخوف من المجهول خصيصة أخرى للإنسان العاقل، تشجعه على البقاء داخل حدود وجاره العقلي، لكي يصبح أصم وأعمى بالنسبة لأي شيء لا يشكل جزءاً من برنامجه العقلي. يميل الفرد المتوسط إلى البقاء جامداً، يرفض بذل الجهد من أجل التغيير الذي هو شيء أساسي لتحقيق التفوق. وفتوره الخلقي يحمله خانعاً على اتباع القطيع، الذي يفتقر إلى أية مبادىء خلقية واضحة المعالم، مقيداً نفسه بالاستسلام لدوافعه. وعلى الرغم من هذا، فإنه يصدع باحترام إجباري للقانون والنظام، لا لأن معاييره تشكل جزءاً متمماً لسلوكه، بل لمجرد تفادي العقاب. إنه يتقبل أي شيء يستحسنه الآخرون ويرفض أي شيء ترفضه الأكثرية؛ ويفضل ما هو دارج ويقلد الشخصيات الشعبية. وهو عادة متغطرس على من هم دونه، وقاس على من يسقط، وخاضع لمن هم فوقه. يحتاج إلى الكثير من الأصدقاء، ولكنه قلما يبدي صداقة حقيقية. يطلب الحب، ولكنه لا يعرف كيف يعطيه. ويتحدث عن الإنسانية مع انه كثيراً ما يتصرف بلا إنسانية. ويطلب من زملائه ولكنه لا يطلب من نفسه. يتحدث كثيراً ويفعل قليلاً. "يملك الكثير" ولكنه، على الرغم من ذلك "صغير."

ومع ذلك، يحمل، في مستوى الكينونة، الجوهر نفسه كإنسان كامل، ولو بمقادير ضئيلة. فهو يمتلك لؤلؤة الروح الثمينة ولكنه يفضل أن يبدد طاقاته على استهلاك الأوهام والخيالات بدلاً من أن يبددها على إكمال نفسه. يكسب خبزه بعرق جبينه ولكنه لا يكافح في سبيل العودة إلى جذوره وتحقيق وعي الكينونة.

إنه مثل Nibelongs، أي أطفال الضباب، يملك كنزاً ولكنه لا يستطيع استخدامه وسيغفريد[1] فقط هو الذي نجح في الاستيلاء على الكنز بسيف إرادته. هذا البطل هو رمز الإنسان الذي سئم من كونه "جسراً" فاتخذ قراراً لا يُنقَض بالتطور لكي يتوحد مع جوهره الخاص.

إن من يتشبثون بوضعهم كـ "جسور" لا يشعرون بأدنى فضول لمعرفة ما هو زائف إزاء ما هو حقيقي. وأصبحت مفاهيم الخير والشر عندهم تعابير غامضة تبعث على الرثاء حتى أن أحداً منهم لا يعرف بصورة صحيحة ما هو صالح وما هو طالح. وببساطة، يسمحون لأنفسهم بالانجراف بسهولة بتيار عادات الأكثرية من خلال "الموضة" والرأي العام.

1-أظن انه يقصد البطل في الأسطورة الاسكندينافية-المترجم.

إن كثيراً ممن يتصفون بالاستقامة والطهارة، ينتهون، عن طريق الجهل، إلى الانحدار إلى مواقف فيها يتصرفون على نحو خاطىء. وعلى العكس، كثيراً ما يبدو الأفراد الفاسدون هم محسنو الإنسانية، دون أن يتمكن الناس العاديون من إدراك هذا.

ومن هذا المنظور، يبدو أنه ليس هناك عدالة في العالم. فالأبطال والأبرياء، على قدم المساواة، يعاقبون أحياناً دون مبرر، في حين يكافأ بعض الجانحين المتكرين. ويحدث هذا لأن أقلية ضئيلة فقط هي التي تمتلك المعايير الفردية الضرورية لإدراك الحقيقة.

إن الحشد الأعمى يصفق، أو يعاقب، أو يعبر عن الرأي بصورة آلية، وهو الذي يفتقر إلى أية أهلية معرفية للقيام بذلك على نحو ملائم. إملاءاته معظمة وتنتهي إلى التبجيل حتى لكأنها تظاهرات لحقيقة عليا. والخير والشر، بالنسبة له، ليسا أكثر من "حادثتين عميقتين،" أي أنهما قوتي دفع غريزيتين تفرغان بطريقة أو بأخرى فقط لتحرير الضغط الداخلي للجماعة. فعلى سبيل المثال، إن لعبة بكرة القدم قد يكون لها تأثير علاجي كبير على حشد المعجبين الذين يشهدون المباراة، لأنها تساعد ذلك الحشد على تحرير دوافعه الجماعية، العدوانية، أو العنيفة، أو المكبوتة بطريقة صحية، وبهذا يُسقط مشكلاته على ما يحدث في الملعب. هناك يصرخ المعجبون، ويُستثارون، ويعانون، ويهتاجون أو يتحمسون، وهكذا تجد توتراتهم، وإحباطاتهم، وعدوانيتهم، ورغباتهم الجائعة حلاً لها. وحَكَم يخطىء يمكن أن يُنال منه فوراً، ويتعرض لغضب كل من هم في المدرج، وبذلك يبلغ حجماً يفوق شخصه. وتتوسع الحقائق المحددة نفسها، إلى حد كبير، من خلال مجموع قوى الدفع الغريزية للمتفرجين. إنهم يغادرون المدرج مشبعين لأنهم شاركوا في "أنا جماعية جليلة،" تقدم لهم فرص دمج أنفسهم في روح واحدة، وبذلك يعمقون إحساسهم بالوجود إلى أقصى درجاته.

إذا وضعنا أنفسنا ضمن معلمات الحالة الاجتماعية السوية وتطلعنا إلى أن نكون "مجرد أناس" بالمعنى الأرسطوي، فإن الرياضة الشعبية يمكن أن تكون من أكثر الطرق سلامة لتوجيه الشباب توجيها صحيحاً نحو قواعد أخلاقية ذات مغزى. ولكن إذا نظرنا صعوداً بحثاً عن "حالة سوية مثالية" من طبيعة أعلى، فإن كل ما يستتبع الاندماج في الحشد سوف يستتبع أيضاً فقدان الفردية، وبالتالي ضعف الإرادة، وصعوبة أخلاقية حتمية.

المهارة في هذه المسألة تقتضي من الفرد أن يشارك دون أن يسمح للحشد أن يمتصه، ويحتفظ بفرديته وحريته الداخلية. ويمكن أن يحقق ذلك فقط من كوّنوا، من خلال عملهم الروحي السابق، هوية داخلية مقتدرة ومستقرة لطبيعتهم الفردية.

الخطايا والعيوب الأخلاقية

الزواج من غير حب

"الخطئية،" بالمعنى الذي أقصده، هي انتهاك للقواعد الأخلاقية الكونية لـ لطبيعة، بالمعنى الذي استخدمه الأغريق القدامى، الذين اعتبروا الخطيئة موقفاً يعزى عادة إلى الجهل، مما يجعل الشخص غير صالح للتعبير الكامل عن الذات وغير قادر على تكوين علاقات ملائمة مع بقية الكون. وعلينا أن ندرك أن التصرفات البشرية التي تشكّل "خطيئة" بالنسبة لـ الطبيعة (خرق الشرائع الأساسية) ربما لاتحظى بأهمية خاصة لدى الناس، وقد يجهلون تماماً أيضاً أنهم يتصرفون على نحو سيء. ولكن هذا لايعني، طبعاً، أنهم لن يعاقبوا على تصرفاتهم. ويظهر الموقف المقابل أيضاً بخصوص "خطايا" مفترضة هي ليست كذلك من وجهة نظر الطبيعة. فعلينا أن نتحدث إذاً عن "الخطايا المكشوفة،" التي هي أنماط خاطئة من السلوك في نظر الأكثرية الكبيرة. والمثال على ذلك هو خرق أيٍ من الوصايا العشر. وهناك أيضاً "خطايا محجوبة" لامجال فيها لأدنى شك بأن الشخص يتصرف على نحو غير سليم. وكلنا يعرف عن النمط المكشوف للخروقات، ولهذا من الأفضل أن أشير إلى كل ما يشكل انتهاكاً للإيقاع الكوني لـ الطبيعة، الذي يمكن أن يمثل أيضاً عيباً أخلاقياً في بعض الحالات.

ولتوضيح هذه المسألة، سأبدأ بدراسة الزواج، الذي يمثل اتحاداً بين رجل وامرأة وفقاً للشريعة، والذي، هو من وجهة نظر دينية، طقس مقدس يوحد بينهما. فالزواج يجعل وحدتهما سوية بالنسبة للأخلاقية الاجتماعية، لابالنسبة لـ" الأخلاق المثالية لـ الطبيعة." إن العنصر الأكثر أهمية في هذا الوصف المعجمي للزواج، الذي هو الحب، غير موجود، علماً أنه هو الرابطة الوحيدة التي يمكن أن تجعل رابطة الزواج شرعية في نظر الطبيعة.

يمكن أن يقترن زوجان وفقاً لقانون مدني أو ديني، ولكن إذا لم يكن هناك حب حقيقي بينهما، فإن زواجهما لن يكون حقيقياً بحسب القانون الكوني لـ الطبيعة. وهناك حقيقة اجتماعية، وحقيقة شرعية، وواقع نجده واضحاً في الطبيعة. و الطبيعة فقط هي التي

تستجيب لشرائع الخالق وليس لها بداية ولا نهاية لأنها الفكرة الموضوعية للأم الكونية الأبدية، التي كانت موجودة دائماً وسوف يستمر وجودها إلى الأبد، وهي التي تضم الإنسان وكافة الكائنات الحية إلى صدرها. والكائن الإنساني، في ضآلته اللامتناهية، يفسر الشرائع والقوانين، والمعايير بالطريقة التي يجدها ملائمة لما يتفق مع تعايشه وتطوره. ولكن هذه المعايير ليست خارقة وهي مرسومة المنشأ والتأثير-محصورة ضمن لحظة تاريخية محددة وضمن قصور فهم وارتقاء الإنسان العاقل المغلوطة تسميته، الذي لايحمل أبداً شيئاً راشداً عن نفسه، لأنه مجرد طفل. ويقبل الإنسان ما ترفضه الطبيعة، والعكس بالعكس إلى ما لا نهاية. فرؤية الإنسان قاصرة جداً حتى أنه لاينفذ عميقاً إلى عملية الارتقاء، ولهذا السبب، لايمكن أن يميز الأم الكونية، ولكنه يدرك فقط حدود واقعه الضيق والضئيل.

يعني الزواج، بالنسبة للشريعة الكونية، أن يرتبط زوجان في حب حقيقي، وهذا الحب يجيز ويُقِر هذا الارتباط حتى وإن لم تؤيده قوانين الإنسان. وعلى العكس، إن الزوجين اللذين يحملان وثيقة زواج وهما "لايحبان بعضهما" يعتبران غير شرعيين في نظر الطبيعة. وبما أن الكائن الإنساني ميكانيكي جداً، فإن ما يظنه حباً هو عادة مجرد بديل أو تقليد للحب الحقيقي، وهذا هو السبب الجوهري للأزمات الزوجية، ويأتي الانفصال عندما يفشل هذا الحب المفترض أمام محك الواقع ويستخدم الشريكان كافة أنواع الحجج لتبريره ، دون التجرؤ على الاعتراف بأنهما، في الواقع، لم يحبا بعضهما أبداً.

الحب، كالأخلاقية، هو، في الواقع، تعبير عن مستوى الارتقاء عند الفرد، لامجرد تقليد للنماذج المألوفة التي تسوقها السينما والتلفزيون. فالحب علم كأي علم آخر، ولا يمكن تعلُّمه ميكانيكياً، بل يجب على المرء أن يكتشفه من خلال زيادة الوعي ومن خلال النضج التام لـ "أنا." والحب الحقيقي يأتي نتيجة لمستوى نمو الفرد لالمستوى الإحساس بشعور "العاشق،" الذي كثيراً ما يكون أبعد شيء عن الحب الحقيقي؛ إنه ليس أكثر من تحليق مُشبع، عاطفي وشهواني، للخيال الذي لايمت إطلاقاً بأية صلة للحب الحقيقي.

إن المسألة التي لايمكن تفاديها هي أنه كثيراً ما يظن شخصان أنهما عاشقان دون أن يكونا كذلك في الواقع، ولكن من غير المشروع أن يتزوج أحدهما لمجرد أن يتخذ من الزواج وسيلة لراحته، بينما يستخدم الطرف الآخر كوسيلة لإشباع نفسه على حسابه. والعناصر المشوقة للزواج لاتقوم عادة على أساس زواج الحب الحقيقي، ولهذا، كثيراً ما تكون مصدراً

لانتهاك الشريعة الكونية. لأنه من غير الأخلاقي أن نتزوج دون حب. وكون الزوجين لايدركان هذا عن وعي لايعتبر ظرفاً مخففاً، لأن هناك دائماً عامل "نية لاواعية" تخطط لهذه المسائل بطريقة تحقق فيها شيئاً ما مرغوباً ولكنه ليس أخلاقياً تماماً، حتى أن المرء ليشعر بأنه غير ملزم بقبول لوم مواز.

كان فيثاغورث يظن أن الأجرام السماوية انفصلت إلى نغمات اهتزازية مكافئة لسلم لحني، وأنها بانتقالها تنتج موسيقى، وهي ما دعاها "موسيقى الأفلاك." والصوت الموسيقي يتطابق مع اهتزاز يصبح مسموعاً أو مُدرَكاً بطريقة ما، والأصوات المختلفة التي تحدث معاً أو تتحد مع بعضها بعضاً يمكن أن تشكل لحناً. والجسد الإنساني يمكن أن يكون، بطريقة ما، مماثلاً لبعض الأجرام السماوية لأن لكل شيء في الكون مستوى معيناً من التكافؤ أو التماثل. كما أن له شكلاً فيزيائياً، ووزناً، واهتزازاً. إنه كائن حي يتغذى ويتنفس، ويتحرك في المكان، يتغذى بالشمس وتقصفه الأشعة الكونية، وله انجذابه بمعنى الغريزة الاجتماعية وميله إلى أن يكون جزءاً من الحشد. وسوف نكتشف يوماً ما كيف نجعل الموسيقا التي ينتجها جسدان بشريان، مذكر ومؤنث، موسيقا مسموعة عندما يدخلان مع بعضهما في علاقة مثيرة للشهوة الجنسية، أو اتصال جنسي، أو للتعبير عن مشاعرهما المتبادلة.

كان أورفيوس[1]، في الأسطورة الأغريقية، شاعراً وموسيقياً، وهو ابن كاليوب الشاعرة وأبولو، إله الموسيقا. وبما أن أباه أعطاه قيثارة، لذلك أصبح موسيقياً ممتازاً ليس له منافس بين بني البشر. فعندما كان يعزف ويغني، فإنه كان يثير مشاعر العالميْن: الإنساني والحيواني. لقد كانت موسيقاه تسحر الأشجار والصخور، وتدجن الحيوانات البرية، وحتى الأنهار كانت تغير مجاريها لكي تتبعه.

أنا على قناعة بأن الأسطورة والطقوس الأغريقية تخفي حقائق أكثر عمقاً من تلك التي يعرفها الإنسان العادي، مع أن الظاهر منها يجب أن يجد له تفسيراً مناسباً. فمن الواضح أن قيثارة أورفيوس تمثل الجسد الإنساني، الذي يُصدر، عندما يَخبُر مشاعر، أو حالات عقلية، أو مستويات وعييَّة معينة، اهتزازات متناسقة أو متنافرة، تنطلق في رحلة إلى أعماق الكون-تمتزج أو تتفاعل إيجابياً أو سلبياً مع موسيقا الأفلاك. ووفقاً لمثال التصوير

1-موسيقي تبع زوجته يوريديس إلى "مثوى الأموات"، فاجاز له بلوتو، وقد سُحر بألحانه، أن يخرجها من هناك شرط ألا ينظر إلى الوراء، ولكنه فعل في آخر لحظة، ففقدها-المترجم.

التجسيمي، فإن الجزء يؤثر على الكل ويتلقى تأثيراً مكافئاً من الكل. وهذا الإسقاط الاهتزازي النشيط الذي يصدر من جسدي الزوجين يجتذب إليهما تفاعلاً من الطبيعة، يمكن اعتباره مساوياً إما لمكافأة أو عقوبة.

وقصة آدم وحواء، وطردهما من الجنة بسبب خطيئتهما الأصلية، تشبه هذا الموضوع إلى حد لافت للنظر. فقد فسرا نوعاً ما من الموسيقا الجسدية، الذي حرمه الخالق (النوع الذي دخل في صراع مع قوانين الطبيعة)، لأنهما كانا يميلان إلى الاهتداء بالشهوة الجنسية أكثر من اهتدائما بالحب. ولذلك، أرجع عقل الكون إليهما اهتزازاً موسيقياً متنافراً مكافئاً جردهما من الهدوء الذي كانا يعيشان فيه سابقاً، فقدم بذلك درساً مثالياً في الأخلاقية. فالزوجان اللذان يرتبطان بحب حقيقي يولّد تناغماً موسيقياً أكثر كمالاً وانسجاماً، وهو إيقاع يُسقَط إلى رحم الطبيعة، التي تعيد لهما ما يكافىء الجمال الذي تلقته.

مامن وثيقة زواج يمكن أن تكوِّن مثل هذا النمط من الاتحاد، الذي يُظهِر أن الشرعية البشرية محدودة، ومقيدة، وعرضة للخطأ، كما يُتوقَّع من شيء يبتدعه "قرد طفل." فالافتقار إلى الحب يولّد موسيقا متنافرة منفّرة تعود، في لحظة ما، إلى مبدعها بعقاب مكافىء. ولا ريب في أن الزواج دون حب يُعتبَر، في مستوى القيم العليا، زلة أخلاقية خطيرة، والأكثر خطورة هو إنجاب أطفال في ظل ظروف من هذا النوع، لأنهم سيجسدون فيزيائياً تنافر آبائهم، فيحققون بذلك النبوءة التوراتية "الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون." ومعنى هذا أن توحيد قيثارتين في تنافر ناشز من الاهتزازات سوف يجسد هذا النشاز في روح الأطفال.

ويُعتبَر هذا اعتداء على "حياة سوية إلى حد مثالي،" بقدر ما يُفرض على الطفل استواءٌ اجتماعي وسطي تافه يجعل منه شخصاً منغصاً، أو مكبوتاً، أو سيء التكيف، ربما لايجد معنى لحياته لأنه يحمل في جنباته إرث والديه من اهتزاز الموسيقا المتنافرة. وسيدفعه هذا إلى الامتعاض، والأنانية، والتفاهة. ويعني الحكم على كائن إنساني بالسجن المؤبد عن طريق انتزاعه من الرحم المتناسق لـ الطبيعة وتصفيده إلى نمط فاسد، ومشوه، ومستلب من الحياة. ويعني أيضاً انتهاك هذه القيمة المثالية والحد من قدرها عن طريق إنجاب كائن لايمكن أن يتعلم بالشكل الملائم لأنه تجسيد لتظاهرة عواطف الوالدين لالتظاهرة حبهما الحقيقي. وأن ينجب المرء طفلاً عن طريق المصادفة أو دون حب هو، في الحقيقة، اعتداء على الطبيعة لأن الوالدين لايمكنهما النهوض بمسؤولية نمط الحياة الذي سيقدمانه لطفلهما الذي يُقضى عليه بأن يتحمل وزر خطاياهما.

وشيئاً فشيئاً، سوف نرى أن درساً في الأخلاقية الحقيقية هو أكثر شبها بدرس في الفيزياء منه بمجموعة من النصائح الودية المتعلقة بالسلوك. ويقال إنه إذا ما أُلقي حجر إلى جو الأرض، فإنه سيعود إلى السقوط بسبب القانون الطبيعي لالأنه أغضب الإله أو لأن الإله يريد أن يعاقبنا بهذه الطريقة.

الأخلاقية الحقيقية تشبه سبيل البقاء الذي فيه يتعلم المرء الا يضع أصابعه في النار لكي يتفادى الإصابة بحرق، وألا يحب للناس إلا ما يحبه لنفسه، في أية طريقة مميزة أو متكررة. وهذا يدل ضمناً على الاحترام والتوافق الذين يجب أن نضعهما في اعتبارنا لأن أغراض تنظيم الكون سوف تؤثر، بشكل حاسم، على أنماط حياتنا.

لاشك في إنه إذا خفضنا بصرنا إلى المستوى العادي لـ "القاعدة الاجتماعية"، فإنه لاأهمية أياً كانت في أن يتزوج اثنان من الناس دون حب، لأن هذا ما يحدث يومياً. ولكن إذا احتفظنا بثبات بإخلاصنا للأخلاقية التي "تخص الإنسان فقط" (أي الفرد صاحب السلوك العادي)، فإننا سوف نبقى إلى ما لا نهاية عند المستوى نفسه الغامض من الناحية الأخلاقية الذي نحن عليه في هذه اللحظة. وإذا لم يكن هناك طلب على القيم العليا، فإن الجنس البشري لن يكون قادراً على التقدم أخلاقياً وروحياً، وسيكون الانحدار الأخلاقي التدريجي هو الأكثر احتمالاً. إن المستقبل بين أيدي الشباب، ولكن عليهم أن يكتشفوا قيمهم الداخلية الخاصة بهم لكي لايسقطوا في أحضان الإغراءات العديدة للخير الظاهري، الذي يتكشف في حينه عن "الشر،" أو غياب الخير. ثم إن النسبة العالية لفشل الزيجات تدعو إلى الأسف، وهي دليل على غياب الثقافة العقلانية الروحية. ونحن عادة ندرك فقط الروحية الدينية، التي هي رائعة بالنسبة للمؤمنين، ولكن لابد من أن تكون للناس خيارات أخرى لكي يكونوا قادرين على أن ينتقوا بحرية السبيل الذي سيقودهم بفعالية أكبر إلى الصلاح والاستقامة. فيجب ألا تكون هناك مجموعة دينية تشعر بأنها مهددة بحرب أخلاقية صليبية لاتنبع من مبادئها الخاصة وأن يكون فيها الهدف الوحيد للناس هو تحسين أنفسهم أخلاقياً وروحياً وتطوير مستوياتهم الفردية. ولهذا الغرض، يجب على المرء أن يُظهِر قيمة متسامية لشخصية مثالية، لكي يقتدي بها الناس في صعودها لا في هبوطها أو حالتها الأفقية.

التهرب من ضبط النفس وتحمل المسؤولية

إن عدم اهتمام المرء بتحسين نفسه، ورضاه عن نقصه القائم، ربما كانا من أكثر الخطايا التي يرتكبها فظاعة، بقدر ما يشكلان إهانة غير مباشرة للخالق وللآخر. فهي إهانة للإله لأن المرء وُجِد على الأرض لكي يُتِم سبيل الارتقاء، الذي يجب أن يحدث بالضرورة على المستوى الفردي. ويتهرب من هذا الواجب عندما يبقى خاملاً وجاهلاً إزاء هذه الفرصة للكمال.

وهي إهانة للآخر لأننا نرميه دائماً بنقصنا وإهمالنا، ونهاجمه بما لايطاق من لامسؤوليتنا، ولاوعينا، ونفاقنا، وحسدنا، وعنفنا، وعدم مراعاتنا، ورفضنا لمساعدته عند حاجته إليها؛ وأيضاً، مضايقته في مناسبات لاحصر لها، عن طريق قطع الاتصال معه؛ وعدم تسامحنا؛ وإجباره على تحمل افتقارنا للصفة الإنسانية.

يفتقر الشخص إلى الاحترام عندما لايهتم بالانضباط الذاتي الذي يقوده إلى حالة من الكمال الأدبي والأخلاقي. فالواجب الأساسي للفرد هو تحقيق الهدف الذي وُجِد من أجله والذي هو الخير الأسمى: الارتقاء العمودي صعوداً. فإذا فشل في هذا، فإنه يخرق الوصية الأكثر أهمية للحياة، وهذا يماثل الانتحار التطوري.

وينبغي أن أذكر هنا أن العالم في حالة انحطاط بسبب ضآلة أو غياب اهتمام الفرد بالتدرب، وتحسين إمكانيته وتحقيقها. وعلى الرغم من ذلك، فإنه لمن المضحك أن الغطرسة الفكرية عند من يظنون أنهم كاملون أو مثاليون حالياً تشجع عندهم نزعة الازدراء واللاأهلية، لأنهم يستسلمون كلياً إلى تمجيد القيم الزائفة للمجتمع المادي التي تتوجه فقط إلى التسلية والاستهلاكية.

ومن لايؤمن بالقيم العليا ولا يتقبلها فإنه يُسقط شكوكيته على نفسه ليس غير، وهو في إدراكه لتفاهته وبؤسه الشديد، إنما يضع حالته الخاصة كأساس لاجتهاد الآخرين. ومالم يفهم الفرد الحاجة الملحة لمباشرة العمل على تخليص نفسه من عزلة "اللاوجود" وكربه، فإنه سوف يعيش دائماً يستحوذ عليه ألم وجودي لمعرفته بأنه فارغ وبلا هدف، دون أن تكون لديه القدرة على أن يتولى بنفسه زمام حياته الخاصة. وكونه تلقى هبة الحياة التي لاتقدر بثمن، فإنه يبدد وجوده في مطاردة السرابات والأوهام، ويبحث باستمرار في الخارج عما

يكمن فعلاً في أعماق كينونته، ويضيّع فرصته الثمينة للنماء داخلياً نحو مستويات أعلى من الكمال الأخلاقي والروحي. أما وأن الأنانية المتغرطسة تتملكه، فإنه ينكر "أناه العليا،" وهي من أكثر الهبات التي قدمتها له الحياة رفعة، وبالتالي، يحرم العالم أيضاً من كل خير كان يمكن أن يقدمه للآخرين لو أنه عمل على إكمال نفسه. إنه لنفاق عظيم حقاً يمارسه كل من تلقوا هبة الشرارة المقدسة، ومع ذلك، نجدهم يهيمون عبر الحياة متشككين من أنهم بلا هدف أو معنى، ويحتجون بأنه ما من أحد يفهمهم وأن التسلية واللذة فقط هما هدف الحياة. يكشف هذا عن احتقار هائل لأرواحهم، التي تذبل بانتظار استيقاظ الوعي الأعلى الذي يساعدهم على التظاهر من خلال الجسد المادي وبذلك يبلغون مأتىً شاملاً للواقع المادي للحظتهم الحاضرة.

ومع أن هؤلاء الناس لايدركون ذلك الوعي على نحو واضح، فإنهم يعانون من كرب روحي لايُصدَّق لكونهم منفصلين عن أنفسهم. وهكذا يضعفون حساسيتها بالملذات والمثيرات المادية، على أمل أن تعمل هذه الإجراءات على إخماد ما يخالجهم من إزعاج الوحدة واليأس الذي يغزو قلوبهم ويمنعهم من بلوغ السعادة والفائدة اللتين يطاردونهما بجشع. وهناك آخرون، ممن يفكرون بالهدف نفسه، يستسلمون لنشاط مهني لايتوقف، ويكافحون باستمرار لمضاعفة واستبدال السلع المادية التي يمتلكونها، على أمل تحقيق السعادة عن طريق هذه الموجودات. ولكن السعادة تفلت من قبضتهم لأنه، ما أن يظنوا أنهم حصلوا عليها، حتى يلفهم الإحباط والفراغ من جديد. وكما ذكرت سابقاً، فإن النجاح المادي الذي يحققه الناس يغطي فقط جانباً واحداً من حياتهم، في حين تبقى الجوانب الأخرى خاملة أو متخلفة بصورة كلية. ولا يمكنهم أيضاً أن يكتشفوا أي انسجام في الطبيعة، لأنهم موجودون فقط في العالم المادي للجنس البشري.

يكمن النجاح الكلي للفرد في عملية الارتفاع بالذات عبر السبيل الصاعد العمودي للارتقاء، ومن ثم التوافق مع تصميم الخالق ومتطلبات الطبيعة. وهذه هي أعظم مكافأة يمكن أن يتطلع إليها الكائن الإنساني، ومن يفشل في الحصول عليها، بدرجة مهما كانت بسيطة، فإنه يجب أن يعتبر نفسه فاشلاً في مدرسة الحياة. ويجب أن يضع نفسه في مراتب الفيالق المتشائمة التي فقدت إيمانها في كل شيء بما في ذلك إيمانها بنفسها.

لايمكن للمرء أن يرتقي روحياً ما لم يعرف نفسه؛ ولا يمكنه أن يحقق ذلك بتجاهله

لأخطائه، وعيوبه، ومواطن ضعفه؛ أو رفضه القبول برذائله المعروفة والمستورة؛ أو دون تصليب شخصيته وتقوية إرادته. هذا هو عمل العمر، لامجرد تسلية أو هواية تعمل على تبديد الملل الوجودي.

الصداقة الزائفة

قال أرسطو، "الصداقة الأساسية الحقيقية هي صداقة الناس الطيبين المستقيمين، الذين يحبون بعضهم بعضاً لكونهم طيبين ومستقيمين." ويصنف الصداقة إلى ثلاثة أنواع. النوع الأول هو الذي أتينا على ذكره، والثاني هو الذي يتطور لمصلحة اللذة، والثالث هو الذي يبدأ لأهداف نفعية أو مصالح ثابتة. وفيما يتعلق بهذه المسألة، أريد أن أدرس فقط أولئك الناس الذين، من خلال صداقتهم لشخص ما، يلحقون الضرر به دون قصد. هؤلاء هم الأفراد الحسنو النية الذين، من خلال رغبتهم في مساندة صديقهم في كل شيء، يتجنبون انتقاده بطريقة تجعله يرى الأخطاء التي يرتكبها في حياته. ويمكن تحقيق هذا عن طريق جعل الفرد يرى خطأ تصرفاته، التي يمكن، كما هو معروف تماماً، ملاحظتها بوضوح تام من الخارج، بينما تكون غامضة جداً من الداخل. ومع أنهم يشعرون بحب لصديقهم، فإنهم يحاولون إرضاءه ويتفادون جعله يرى الوقائع التي لايمكنه أن يلاحظها. وينجحون في جعله يشعر أنه بخير، حتى على الرغم من أنه قد لايكون كذلك تماماً. ويمكن أيضاً أن يكون سيئاً كما يُرى من الخارج، ولكن صديقاً يحبه، على الرغم من كل هذا، قلما يحمله على معرفة ذلك الواقع. ويبدو كما لو أن المقاربة الشائعة للصداقة تعني "تأييد الصديق في السراء والضراء،" حتى وإن كان هذا يعني الحكم عليه بأن يبقى عبداً لرذائله وعيوبه.

فالصداقة الزائفة لاتعني أن يكون لأحدهم صديق لايحبه، إنما الصديق الذي يريد مؤازرته، وينتهي به الأمر إلى إيذائه. هذه هي، مثلاً، حال من يطلب خدمة مهمة من صديق، فيسارع هذا إلى القبول استجابة لنية حسنة في تقديم تلك الخدمة. ومع ذلك، فإنه، عندما تحين لحظة الإنجاز، يفشل في الوفاء بوعده، ربما لأن شكوكاً ساورته ولم يعد يرغب في المساعدة، أو ربما لأن المسألة معقدة وتتطلب جهداً كبيراً.

دعونا نوضح الموقف باستخدامِ مثال على التعامل بالصفقات المالية. يحتاج جون إلى دفع دين وشيك ويفكر في طلب قرض مصرفي، ولكن صديقه تشارلز يطلب منه ألا يقلق لأنه، أي تشارلز، سيقوم شخصياً بإقراضه المبلغ المطلوب. وعندما تحين اللحظة، يفشل تشارلز في

الوفاء بوعده ويُترَك جون غارقاً في دينه بسبب النكث بالوعد. وهناك آلاف الأمثلة من هذا النوع وكل منا عانى منها في وقت ما في حياته. فكثير من الناس يذهبون إلى السجن بسبب "صديق." وينتهي آخرون إلى الخراب. وكثيراً ما يحدث هذا بنية حسنة، ودون خبث من الطرف الآخر.

وكثيراً ما يحدث أن يكون الصديق المخلص صديقاً مؤذياً في الواقع، لأنه لايدرك أن الصداقة الحقيقية لاتستلزم غطاء للرذائل، أو العيوب، أو التصرفات السيئة، ولكنها، على الأصح، تقوم على أساس إرادة الخير للصديق ومساعدته على تحقيق ذلك الخير، حتى وإن اقتضى ذلك جعله يدرك عيوبه وعدم شعوره بالمسؤولية عن طريق مساعدته على رؤية نفسه كما تظهر من الخارج. وبهذه الطريقة، سوف يكون قادراً، إذا تهيأ له أن يعرف نفسه على نحو أفضل، على الاستفادة من هذه المعرفة لتحقيق ذاته. والصداقة الحقيقية تعني أن يساعد الصديق صديقه على ألا يهرب إلى مشاريع خيالية لايمكن تحقيقها، وألا يبرر أخطاءه لنفسه، وأن يواجه واقعه الذاتي كما يدركه الناس من حوله.

ولكن هذا الصديق الذي نصفه بـ "المخلص" يفشل عادة في عمله. وبدلاً من أن يقوم بما وصفناه آنفاً، فإنه يكرس جهوده لتعزيز السلوك الضال لصديقه، فيربت على ظهره و "يدغدغه" عاطفياً لجعله يشعر كيف يكون الصديق المخلص على أمل أن يقابله صديقه بالمثل.

إن أسهل طريقة يضل فيها المرء سبيله في الحياة، هي أن يكون محاطاً بأصدقاء وزملاء عاجزين عن قول الحقيقة حول تصرفاته، أصدقاء لايريدون أن يكونوا مرايا أمينة تساعده على أن يتعرف، بشكل أفضل، على إخفاقاته ومواطن ضعفه. حيث يبدو لهم أن أدنى نقد يهدد بتخريب تلك الصداقة، وهذا ما يحدث عادة في كثير من المناسبات. ومن الواضح أن هناك الكثير من الأفراد الذين لايتقبلون النقد لأن مستوى نرجسيتهم يبقيهم منفصلين عن واقعهم الذاتي[1].

تؤثر الصداقات كثيراً على الحياة الأخلاقية للشخص حتى أن الأصدقاء الذين يمكن أن نحبهم كإخوة يمكن أن يكونوا جلادينا الحقيقيين عندما يحجمون، في محاولاتهم لإرضائنا، عن إعطائنا آراءهم الحقيقية حول تصرفاتنا، وبذلك يحملوننا على تعزيز أخطائنا،

1-قال عمر بن الخطاب، "رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي"-المترجم

أو عيوبنا، أو رذائلنا، أو عاداتنا السيئة. فلكي تكون الصداقة حقيقية، يجب ألا ترتدي حجاباً، لأن النفاق الذي يصدر عن حسن نية يعمل، في النهاية، على إضعاف أو تدمير الشخص الذي نحجم عن توجيه النقد إليه. ولهذا السبب، علينا أن نتعلم كيف نفرّق بين "صداقة" مزعومة وصداقة حقيقية إذا أردنا لها أن تغل لنا أكثر ثمارها قيمة وألا ننتهي إلى الإحباط واليأس. فهناك أناس يشعرون بخيبة الأمل من عاطفة الصداقة لأن أصدقاءهم خذلوهم. ويحتجون بأن " الإخلاص غير موجود وكل شيء يجري من أجل المصلحة الذاتية." ومع أن هذا واضح في بعض الحالات، إلا أنه غير صحيح في حالة فيها يقوم الصديق بلوم صديقه بحزم لأن هذا أساء التصرف.

وينبغي لنا أن نميز بين أنواع ثلاثة من الصداقة كما عرَّفها ارسطو:

1-الصداقة المثالية بين شخصين مستقيمين، ولأنهما مستقيمان، فإنهما يشبهان بعضهما بعضاً في الفضيلة والحب المتبادل للخير، حب كل منهما للآخر.

2-الصداقة التي تقوم على أساس مصلحة ذاتية للصديقين، ومن أجل الفائدة التي يمكن أن يجنيها أحدهما من الآخر. فالصديق هنا لايحب صديقه لشخصه، بل من أجل الفائدة التي يمكن أن يجنيها من صداقتهما المتبادلة. وفي النهاية، فإن كلاً منهما يبحث فقط عن فائدته الشخصية.

3-الصداقة التي تقوم على أساس اللذة، كما هي حال الأفراد الذين يتشاطرون نشاطات ممتعة.

وقد أورد أرسطو في أخلاقيات: إلى نيقوماقوس ما يلي:

... يبدو أن اللذة هي الشيء الوحيد الذي يخلق الصداقة بين الشباب؛ فالعاطفة تسيطر عليهم ويبحثون فقط عن اللذة، وأكثر من ذلك، اللذة الآنية. وبمرور الوقت، تتبدل الملذات وتصبح مختلفة. وهكذا، فإنهم يقيمون الصداقات بسرعة ويقطعونها بالسرعة نفسها. وتنتهي الصداقة مع انتهاء اللذة التي توفرها، والتغيير في هذه اللذة سريع جداً. فالشباب يجذبهم الحب، والحب يولَد، على الأغلب، في ظل سيطرة العواطف واللذة.

إن نوعية الصداقة الأكثر إيذاء هي التي تؤدي إلى تشكيل عصابات المراهقين ومجموعات الجانحين، لأن هدفهم الحقيقي هو الكسب الشخصي غير المشروع، الذي من أجله يجب أن يتوحد الجميع حول قناعة مطلقة هي أنهم يتصرفون على نحو سليم، ومن هنا،

فإنهم يسحقون أية محاولة لنقد ما يقومون به، وهم يقلدون ويحمون بعضهم بعضاً بروح جماعية تحجب أية مسؤولية فردية. وكل منهم يتستر على فساد الآخرين ويقوم هؤلاء، بدورهم، بالتستر على فساده. وبهذه الطريقة، يعززون سلوك الجنوح عند المجموعة. وفي هذه الحالة، يصح القول المأثور: "قل لي من تصاحب، أقل لك من أنت."

إن مجموعة الأصدقاء من اليافعين تُكوِّن طبع المرء وشخصيته-تمارس عليه أحياناً تأثيراً أكبر حتى من جماعته العائلية. وعندئذ، تصبح هذه المجموعة "الأسرة الحقيقية بالنسبة له،" وفقاً لما قاله الفتيان الذين مروا بهذه التجربة.

فالصداقة التي تستبعد النقد الصحي تحت ستار "فهم الصديق ومساعدته،" تصبح، في النهاية، أكثر ضرراً لهذاا الصديق، وبالتالي، هي غلطة أخلاقية خطيرة. ليس من الأخلاقية في شيء أن نساعد شخصاً على الاحتفاظ برؤية خاطئة للواقع، ونمنعه بذلك من الاندماج على نحو ملائم في المجتمع أو من أن يكون قادراً على الاستجابة للمعايير الأخلاقية ذات الصلة. فإذا عززنا افتقاره إلى التماس مع الواقع، فإننا سوف ننتهي إلى إلحاق أذى خطير به، على الرغم من حسن نوايانا أو حبنا الذي نحمله له. وبفعلنا هذا نكون قد تصرفنا على نحو لاأخلاقي ودفعناه إلى نمط سلوكي غير ملائم. فعلى المرء أن ينقح مفهوم الصداقة ويغوص فيه عميقاً، لجعله واحدة من أكثر التجارب الأخلاقية السامية أهمية التي يمكن للمرء بها أن يغني الآخرين ويضيف قيمة إلى ذاته من خلال تبادل التجارب المهمة التي تقوده إلى توسيع عالمه الداخلي ورفع سويته.

لو يستطيع كل واحد من ثلاثة أصدقاء مستقيمين أن يكسب صديقين جديدين وينقل إليهما قيماً أعلى، وهلمجرا، فإنه لن يمضي وقت طويل قبل أن تنتشر في كل أنحاء العالم حرب حقيقية لمصلحة الكمال الأخلاقي خدمة للإنسانية. ولهذه الغاية، يصبح ضرورياً فقط أن نفهم الإجماع ونسعى إلى خلقه، الإجماع حول أن الخير الأعلى يستقر في ارتقاء عمودي صاعد لوعي الفرد، وفي ممارسة أسمى فضيلة أخلاقية وروحية. إن حرباً حقيقية من هذا النوع يجب أن تتسامى فوق المصالح الضيقة لكي تتغلب على الاختلافات، بما فيها الاهتمامات العرقية، والسياسية، والفلسفية والدينية.

إن الحق في الخصوصية العقلية واحد من أكثر الحاجات الضاغطة في مطلع القرن الحادي والعشرين، لأن الغزو الذي تتعرض له عقولنا من قبل الجهات صاحبة المصلحة يتزايد ويشتد يوماً بعد يوم. والإعلان الساحق والدعاية التكرارية هما الافتئات الأكثر فظاعة وإهانة للخصوصية العقلية عند الناس، التي كانت مرة الملاذ الأقدس لـ "أنا." فصالات العرض تغص، في هذه الأيام، بالخيارات السياسية، والمشروبات الفوارة والكحولية، والسجائر، والسيارات، وملابس المصممين، ومنتجات التجميل، والشواطيء الفردوسية، والنساء المُشَيَّئات، والبدائل الاستثمارية ، والفن الداعر، والتسلية، ومختلف أشكال الاستهلاك. فالتلفزيون لايعطل عقولنا فقط، ولكنه يغزو الطمأنينة في بيوتنا، ويقصفنا، على نحو عدواني، بالجنس، والعنف، والسادية، والمراضة، والأفلام الرخيصة، والعاطفية المبتذلة، مع استثناء نادر لبضعة برامج ثقافية أو أفلام خاصة.

وفي بيئات أخرى، تتأثر مَلَكاتنا العقلية بارتفاع مستويات التلوث السمعي والبيئي، وكل منها يشتت قدراتنا العقلية ويضعفها، وبالتالي، يجعلها أكثر عرضة للتأثير الخارجي. وتخضع عقولنا باستمرار إلى التلاعب لإجبارنا على شراء بعض المنتجات أو تفضيل بعض القادة، أو مغني البوب، أو البرامج التلفزيونية، أو مجلات الإشاعات، أو خيارات الاستثمار. إنه اعتداء على الإرادة الحرة لإيجاد حاجات اصطناعية ذات خصائص استلابية أو ملزمة فقط لغرض الربح المالي. ويتم إغراء الناس، بصورة غير واعية، بالقيام بما لايريدون القيام به، وذلك من خلال الاختراق الخفي الدُووَعيي لعقولهم. إنها غلطة أخلاقية خطيرة أن نتلاعب بعقول الناس عن طريق وسائط الإعلام، وندجنهم للقبول بما كانوا سيرفضونه لو كانوا يتمتعون بقدراتهم العقلية الصحيحة.

إن المواطن، في البلدان الديموقراطية، ليس ملزماً بقبول الأوضاع غير الصحيحة أو الاستبدادية التعسفية دون أن يحتج، أو يتحمل بسلبية فقدان الوضوح حول بعض العقوبات القضائية، أو يوافق بسلبية على دفع ضرائب تعسفية مصيرها غير واضح. مع ذلك، يمكن ملاحظة مختلف المناورات على العقل في مختلف أنحاء العالم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، تلك المناورات التي تهدف إلى إخضاع المواطن لأمر المصالح الخفية. ويتم إقناع الناس على نحو دووَعيي بطلب قروض بنسب رباوية والشعور بالسعادة لحصولهم على "امتياز" إغناء خزينة

المُقرضين شهراً بعد شهر. وبالطريقة نفسها أيضاً يتم إقناعهم بـ:

- مقت الفني أو لاأهلية الفقير.
- التمييز ضد النساء.
- تقليد النماذج السلوكية التي يفرضها التلفزيون والسينما.
- دفعهم من خلال الحبكة في فيلم إلى ارتكاب الجرائم أو اتخاذ سلوك سادي ماسوشي.
- الاستهلاك من دون تمييز.
- التقليد الأعمى لمشاهير الفنانين، والموسيقيين، وشخصيات الأوبرات الصابونية في التلفزيون.
- تمجيد القيم الزائفة.
- الرضى عن تكاثر الفَرْتَسْك والمبتذل.
- تشجيع سلوك القطيع لتسهيل قياد المستهلكين المطيعين.
- القبول، دون تمييز، بأي معيار تفرضه السلطة صاحبة الاختصاص، مهما كان متناقضاً أو ظالماً.
- الإيمان على نحو خرافي بالآلهة الزائفة.
- القبول بشكل سلبي بماتؤكده وسائل الإعلام.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة حول كيف تتم السيطرة على عقول الناس، وفي كل يوم تتهيأ لنا الفرصة للتحقق من ذلك بأنفسنا بدرجات مختلفة. لقد تشوه المبدأ الديموقراطي "الحكم بالشعب،" وأصبح غائماً لأن عقول الناس لم تعد ملكاً لهم، بل لوسائل الإعلام التي توجههم. وتم القضاء على الإرادة العقلية الحرة من جذورها بالذات.

ألمحت سابقاً إلى كلمات كارل بوبر حول الأخطار التي تنجم عن استخدام التلفزيون، ويضيف بوبر، حول الموضوع نفسه، ما يلي:

النتيجة المنطقية للمبدأ الشعبي هي أنه يُقدِّم دائماً للجمهور برامج أسوأ، ويقبلها فقط لأنها متبلة ومنكّهة بالتوابل ومنشطات الذوق، أي، بالعنف، والجنس، والمثيرات ... وتُكمِّل المادة الغذائية أيضاً بتوابل أشد قوة لأن نوعيتها تزداد سوءاً كل يوم. ويحاولون إضفاء مذاق لذيذ على ما لا يصلح للأكل، عن طريق إضافة المزيد والمزيد من الملح والمزيد والمزيد من الفلفل.. وهناك عدد كبير من المجرمين الذين يعترفون صراحة بأنهم استلهموا جرائمهم من التلفزيون.. فقد أصبح

التلفزيون قوة مقتدرة جداً بالنسبة للديموقراطية. وما من ديموقراطية يمكن أن يُكتَب لها البقاء ما لم تضع حداً لسوء استخدام السلطة التي يمارسها التلفزيون. ويظهر ذلك الاستخدام السيء جلياً في الوقت الحاضر.

وعندما يذكر ذلك الفيلسوف البارز "سوء استخدام السلطة التي يمارسها التلفزيون،" فما النوع الذي يعنيه من سوء الاستخدام؟ لاريب في أنه يقصد، على وجه الدقة، الانتهاك القانوني (مع كونه لاأخلاقياً) للخصوصية العقلية عند الناس، الذين يتكيفون مع العنف، والابتذال، والاستهلاكية، والقيم السلبية وعبادة الفَرْتَسْك. إن مساوىء الاتصال عن طريق التلفزيون والصحافة هي نوع من الإرهاب الآيديولوجي ضد الناس، ولذلك يجب أن تخضع هاتان الوسيلتان لهيئة رقابة أدبية، كما اقترح بوبر نفسه. وكما يفاجىء اللص ضحيته بالضبط، هكذا أيضاً يهاجم التلفزيون عقول الأطفال والكبار، على حد سواء، بقوة غير مألوفة، ليحوّل الإرادة الحرة إلى خيال رومانسي في عمر منقضٍ.

والشيء المؤكد هو أن توجيه عقول الناس أصبح تجارة مزدهرة في هذه الأيام. فأي شخص يملك أرصدة مالية كافية يمكنه أن يقوم بحملة إعلانية للتأثير على سلوك المستهلكين، وهو إجراء تستحسنه، إلى حد كبير، الأنظمة الاقتصادية المسيطرة، بقدر ما يساعدها على زيادة المبيعات وتكوين الثروات. ومع ذلك، تبقى المعضلة الأخلاقية لهذه الإجراءات قائمة، لأننا نستهلك ليس فقط السلع المادية، بل أيضاً الأفكار والقيم. وفي هذا الحقل بالذات تخضع أدمغة الناس لغسل متواصل لتوجيه سلوكهم بما يتفق مع المصالح التي تتكون.

ومنذ عهد بعيد، اكتشف الطامحون أن السيطرة على إرادة الآخرين تؤمّن مورداً لاينضب للسلطة. ومن سوء الحظ أنه لاتوجد وسيلة لحماية الناس من هذا النمط من التأثير العدواني على سلوكهم. ولا تبقى أمامهم سوى إمكانية وحيدة للدفاع عن أنفسهم هي أن يتحكموا بصرامة بعقولهم. وإنه لتناقض أن "جلالته، أي الجمهور ، " يجب أن يُطاع بسبب رأي أكثريته، على الرغم من معرفة أن ذلك الرأي زائف، ومتحول، وعابر، ولا يصدر عن دماغ مفكر وهو ما يفتقر إليه الجمهور[1]. وعلى الأصح، إن الجمهور يتصرف كأداة لاواعية بيد

1-أرى أن سوية الجماهير تتحسن عن طريق تعميق الممارسة الديموقراطية للجماهير وليس بحرمانها منها تحت هذا الشعار الزائف -المترجم.

بعض الناس الطموحين الذين يمارسون عليه تأثيراً غير متكافئ بسبب مقامهم، أو جاذبيتهم، أو مهاراتهم الخطابية. والدوافع الحقيقية لهؤلا القادة غير واضحة.

وعلى الرغم من أن الديماغوجية السياسية مثل أخلاقي سيء، إلا أنها مثل توضيحي جيد لما أقصده هنا. ونجد في المعجم التعاريف التالية للديماغوجية السياسية:

1. سيطرة استبدادية للحشد برضاه.
2. تملق الحشود لجعلها وسيلة للطموحات السياسية الخاصة للفرد.

ولا أشك في أن حالات الديماغوجية تمثل بوضوح شكلاً من الأشكال اللاأخلاقية للسلوك، لمجرد أنها فعلاً تؤثر على الناس بهدف استخدام هذه القوة لغرض شخصي، لابهدف خدمة مصالحهم الحقيقية.

فمتى تكون الديماغوجية موجودة ومتى لاتكون؟ يمكن فقط للمحكمة العليا للأخلاق التي تتكون من أناس مستقيمين غير سياسيين، والمراجع حول الموضوع تعريف الديماغوجية بدقة. ولا بد أن يكون هذا التعريف مفيداً جداً، ليس فقط للصحة العقلية عند الأمم، بل أيضاً لضمان حرية التفكير للمواطنين، لأنه ليس هناك اعتداء على الكرامة الإنسانية أكبر من إساءة معاملة الناس المتواضعين الذين تسحرهم الوعود الغامضة المخادعة بسبب حاجتهم للمساعدة. وأنا على قناعة تامة بأن الديماغوجية السياسية خطيئة كبيرة في نظر النظام الأعلى لـ الطبيعة التي تفيض من الخالق، خطيئة من النوع الذي لاتعاقب عليه العدالة البشرية، ولكن الشريعة الطبيعية لايمكن أن تغفرها. ومع ذلك، من الظلم الافتراض بأن استجداء عواطف الحشود يقتصر على الميدان السياسي. فهناك آلاف الطرق المختلفة لتملق الجمهور وجذبه، وذلك بواسطة مصادر خارجية تهتم بالاستفادة بطريقة ما من قوته.

هناك بالتأكيد العديد من الميالين إلى الارتياب الذين يشكون بإمكانية التحكم بسلوك الناس، على الرغم من التقدم الكبير الذي أحرزه العلم قبل الآن، والذي يعود إلى عصر عالم النفس الروسي إيفان بافلوف الذي بدأ، في مستهل هذا القرن[1]، تجاربه بنجاح بالسلوك الحيواني. وفيما بعد، توسع البحث في التعديل العلمي للسلوك ليصل إلى الكائنات البشرية، وذلك على يد العالمين الأمريكيين واطسون وسكينر. وتدهورت هذه التقنية، في شكلها الكبتي، إلى عملية "غسل الدماغ" السيئة الصيت، التي استخدمت على نطاق واسع في روسيا وخلال الحربين الكورية والفيتنامية.

1-يعني القرن العشرين، طبعاً-المترجم.

غسل الدماغ شكل من التعذيب النفسي يُستخدم لتعديل سلوك الناس بشكل مثير، وينطوي على تحريض التُّوَهان[1] العقلي عن طريق إبقاء الضحية في حالة يقظة لامتناهية، أو إخضاعها لفترة طويلة من التعب، والإزعاج، وسوء التغذية، والقلق. وما زالت عملية غسل الدماغ تستخدم حتى اليوم بتقنيات جديدة، كوسيلة "مسالمة،" لكنها ليست غير عدوانية، لتعديل السلوك الفردي. يحدث هذا أحياناً من خلال فرصة عرضية، وفي أحيان أخرى عمداً. ومن بين الأمثلة العرضية أو "الطبيعية" وأكثرها فعالية هو نمط الحياة الذي يميز الوجود المتحضر. فحياتنا اليومية الحاضرة تنطوي على ما لا يقل عن عنصري قسر يحملان خصائص مماثلة لخصائص غسل الدماغ، أي: التوهان والقلق. وليس هناك ما هو أكثر تتويهاً وإجهاداً من التعقيد المتزايد للحياة في المدن الكبيرة، والنمو المُدَوِّخ للمعلومات الثقافية، وتشوش القيم، والإشباع المعلوماتي الذي تمارسه وسائل الإعلام، والعنف، والضجيج، والجنوح، والفساد العام. وفقدان السيطرة على العقل يحرضه الغسل المتواصل للدماغ الذي يسببه التوهان والقلق اللذان أصبحا جزءاً من أنماط حياتنا الطبيعية، على الرغم من تضادّها مع الطبيعة. وهناك عدد كبير من الأمراض والاختلالات الوظيفية التي تصيب العقل وتنجم عن عدم القدرة العقلية للفرد على أن يركّب في عقله، بطريقة شاملة، واقع الحضارة التي لاتشجع نمو وعي أعلى، بل تتقيد فقط بالتفسيرات الفكرية الاستظهارية.

وهكذا، فإن أجزاء الواقع الكلي، التي ينبغي لها أن تتوحد على نحو متناسق ذي مغزى في عقول الناس، تبقى مفككة، ومعزولة، ومتناقضة، وغير خاضعة لـ "أنا،" التي أُبعدَت لتصبح مشاهداً سلبياً للمثيرات التي تسبب التوهان والكرب. والمصادر الخارجية المؤثرة على اللاوعي لها جذورها في الإعلان والدعاية. ففي حالات الإعلان، تَبيَّن أن سلوك المستهلك يمكن أن يتأثر بالوعد بإشباع حاجاته الدفينة. ولهذه الغاية، تم تحديد حاجات لاواعية ثمان تستخدم لتحريض البيع، وهي:

1. السلام العاطفي.
2. توكيد قيمة المرء.
3. إيجاد الرضا في الـ "أنا" الخاصة للمرء.
4. منافذ الإبداع.
5. أهداف الحب.

1-فقدان حس الزمان والمكان-المترجم.

6. الإحساس بالقوة.

7. معنى الجذور.

8. اللاأخلاقية.

إن الوسائل الثمان أعلاه هي وسائل مثبتة للتأثير باللاوعي. ويقف الناس الأسوياء عاجزين عن حماية أنفسهم من هذا الغزو.

التلاعب بالصورة

يلجأ المرء أحياناً إلى مساعدة البحث التسويقي لكي يغير، على نحو إيجابي، صورة شخص ما أو عادته بحيث يتقبله الناس، هو أو عادته، بإيجابية. فما حدود هذا التغيير؟ في أي مرحلة من التغيير تصبح الصورة على النقيض تماماً من الواقع إلى درجة تصبح عندها صورة زائفة؟

هذه، بشكل خاص، نقطة حساسة في الديموقراطية حيث يُنتَخَب القادة الوطنيون على أساس جاذبيتهم الشعبية. فعلى سبيل المثال، نحن نعرف أن انتخابات الضرورة الرئاسية تستجر تنافساً شديداً لايرحم، فيه يحاول كل حزب سياسي أن يرفع صورة مرشحه الخاص إلى أقصى درجة ويعتّم على صورة الخصم.

إن أول شيء يجب القيام به عند انطلاق الحملة هو تفويض وكالة متخصصة بتسويق الصورة، لاكتشاف العرض المرغوب أكثر للمرشح المختار والتغييرات التي يجب إدخالها على مظهره البدني، وأسلوب خطابه، وإيماءاته، وابتسامته، وطريقة وقوفه، وأساليب تنقله بها هن وهناك، إلخ. يصمم هذا الإنسان شعره غالباً بأسلوب مختلف، ويحلق شاربيه أو يستخدم نظارة خاصة، ويرتدي ثياباً من لون معين، ويختار ربطات العنق والقمصان بعناية كبيرة، حسب الطبقات الاجتماعية التي يريد أن يصل إليها. ويتم تنقيح موضوع خطاباته بدقة لكي تلائم الخطة؛ وعرض صورة عائلية مناسبة؛ ويظهر في الأعمال الخيرية، كأن يزور ملاجىء الأطفال، أو المدارس الحكومية، أو يُظهِر اهتمامه بالمسنين؛ ويجب أن يتحدث بحذر شديد عن المواضيع المحظورة، أو أن يتفاداها كلياً. أما الصوره الفوتوغرافية، فيجب أن تعرض الزوايا الوجهية الأحسن بحيث تنجو صورته من التعليقات المناوئة. وإذا كان بدينا، فإنه يتوجب عليه أن يعمل بسرعة على تخفيف وزنه؛ وإذا كانت ابتسامته غير مرضية، فعليه أن يتعلم كيف يبتسم؛ وينسحب الشيء نفسه على طريقة المصافحة.

يهدف هذا النوع من إعادة هندسة الشخص إلى إنتاج صورة جذابة إلى أبعد حد ممكن، صورة تتفادى، بقدر المستطاع، الملاحظات السلبية.

وهذه العملية، كما نرى، ليست عملية بسيطة، نظراً لاحتمال الوقوع في خطر "اختراع شخص لاوجود له،" أو كائن خيالي، أو "مرشح الصورة المجسمة،" أو فرد مُمَثَّلن تم ابتكاره لجذب عقول المقترعين. ويحدث الشيء نفسه في حالة ممثلي السينما، الذين تكون الحدود بين الخيال والواقع غير واضحة تماماً بالنسبة لهم، لأن أكثر الحوادث والتجارب التي تنسب إليهم ليست أكثر من حيل إعلانية. فالحاجة إلى كسب التأييد الشعبي تفرض اختراع مرشح ممثل، يتمتع بكفاءات مخططة بعناية يشرف على تحضيرها مستشاروه.

إن الحملات الرئاسية غير عادية بلغة ما يرافقها من نفقات ووسائل إعلانية، مع نشاطات جماهيرية ضخمة، ووفرة في الشعارات، والرايات، والملصقات، والأناشيد الحزبية، وملصقات السيارات، والمقابلات الصحفية، والمناظرات التلفزيونية، إلخ. ومع هذا العرض كله، يجب على المرء أن يسلِّم، بوجه عام، بأن ما يجري هو محاولة لإخفاء الشخصية الحقيقية للمرشح أو استبدالها-تحريف متعمد مدروس لطبيعته الحقيقية. وبالتالي، قد يحدث أن يصوت أعضاء حزبه فعلاً لمرشح مثالي تم تصنيعه بعناية في وقت سابق لالإنسان من لحم ودم. أشير هنا طبعاً إلى حالات فيها تحدث هذه المغالاة فعلاً، وأترك الحكم على هذا لحصافة القارئ.

ولكن، ما الفرصة التي تتهيأ للمقترعين لكي يتعرفوا من خلالها على الطبيعة الحقيقية للمرشح الذي سيقترعون له؟ وما سلوكه الحقيقي؟ وهل يتمتع بما يكفي من قوة الشخصية التي تؤهله للصمود في وجه الضغوط الشديدة؟ وهل لديه معايير صحيحة لاختيار ما هو أفضل؟ وما عيوبه ونقاط ضعفه الرئيسة؟ وهل سنكتشفها يوماً ما؟ أم أن الناس سيدفعون ثمن ما ينتج عن نقائصه في المستوى الأعلى لإدارته؟ هل هو نرجسي أم تافه؟ وهل يمتعض من تأليه الذات؟ وهل هو عادل، ومعتدل، وشهم؟ أم أنه مخلوق ضعيف، وجبان، وظالم وطائش؟ وهل سيكون محسناً كما يتظاهر عند قيامه بأعمال البر؟ أم أن هذه الأعمال مجرد حيل تسويقية؟ ما رائز ذكائه؟ وماذا يبيِّن فحصه النفسي؟ هل هو سليم عقلياً أم أنه يعاني من اضطراب ما في شخصيته؟ وما التزاماته الحقيقية تجاه الوسائل التي مولت حملته؟ وهل يسعى إلى خدمة الشعب أم وراء نفوذه الشخصي؟

في الواقع، إن ما نتوصل إلى معرفته عن المرشح الرئاسي من أي بلد قليل جداً حتى يبدو وكأنه يطمح فقط إلى أن يكون تمثالاً للزينة لاموجِهاً لأقدار أمته. ومن المؤكد أن شركة مهمة تملك معلومات حقيقية عن أعضاء أية سلطة تنفيذية أكبر بكثير مما يرغبون بالاضطلاع به. لأن الأهمية العليا للمنصب الذي يجب أن يشغله المرشح الرئاسي يجب أن يجسد الشفافية بالذات. ويجب أن تكون عيوبه وصفاته المميزة معروفة للجميع، أكثر من القشرة الزائفة التي تكوّنها الدعاية والتسويق.

إنه لمن الصعب تمييز الاضطرابات النفسية أو التشوشات العقلية عند الناس، حتى على المختصين في هذا الموضوع. فهناك الكثير ممن يسيرون عبر الشوارع في مدننا ويبدون لنا أسوياء تماماً ولكنهم، في الواقع، ليسوا كذلك: أشخاص اضطراباتهم متقطعة ولا تظهر إلى في لحظات التوتر العاطفي الشديد. فهل هو سوي من يطمح إلى أن يكون رئيساً؟ وبمقدار ما يتعلق الأمر بالمرجع الأعلى للأمة، يجب مراعاة الحذر الشديد بخصوص هذه المسألة، ويُفترَض في المرشح أن يتحلى بدرجة عالية من الشفافية في نظر الجمهور. فمن يتصدى لتحمل مسؤولية مهمة، مثلاً، لايمكن أن يجازف بالتصدي لتلك المسؤولية بشخصية حدّيّة[1] أو مهووسة بالعظمة. أن هذه الاضطرابات لاتشبه البثور أو النفطات التي يمكن أن نراها على وجه أحدهم، ولا تُضعِف ذكاءه. ولكنها تؤثر فقط على إدراكه للواقع ومحاكمته العقلية، التي هي من أهم المَلَكات التي يجب أن يتمتع بها رجل الدولة. ومن سوء الحظ أن الرئيس لايُنتَخَب تقنياً، بل عاطفياً. ويتحرك المقترعون تحت تأثير دوافع لاواعية، وعاطفية، مترافقة بمصالح خاصة. فهم لايختارون الإنسان الأفضل استعداداً لشغل المنصب، ولكنهم يختارون، بدلاً منه، من يحمل راية حزب سياسي يلائم ذوقهم، أو "المرشح صاحب الصورة المجسمة" التي يخلقها التسويق.

يجب أن يخضع المرشح الرئاسي لكافة أنواع الفحوص الطبية والنفسية، لمعرفة ما إذا كان بعيداً عن التحيز، وأين تظهر شفافيته، وهل هو سليم عقلياً في تماسه مع الواقع، وما إذا كان في وضع مناسب من حيث الزمان والمكان. فقيادة سيارة أقل أهمية بكثير من قيادة أمّه، ومع ذلك، فإن المواطن الذي سيقود سيارة ملزم بالخضوع إلى فحص نفسي فني للتأكد من قابليته للقيادة. فما نوع الفحص النفسي الذي يجب أن يخضع له مرشح رئاسي في بلد ما؟

1-حالة تقع عند الخط الفاصل بين السواء واللاسواء-المترجم.

إنه فحص يجب أن يتركز على المسؤولية الكبيرة التي يتطلبها منصب كهذا والحاجة الملحة لترسيخ ضوابط مناسبة. فالشخص الذي يوزع مشروبات غير مسكرة بشاحنته يجب أن يخضع لاختبار نفسي؛ ويصبح المبرر أكبر لإخضاع الرئيس في بلد ما، بصورة دورية، لفحوص نفسية ملائمة أكثر، وذلك لضمان الشفافية العامة والأمن الوطني.

إن كل عمل مشرِّف يقوم به المرء يُكسبه احتراماً وشرفاً، وهذا النوع من العمل المخلص يشبه تماماً غيره من الأعمال التي تعود بالتقدير على صاحبها، ولكن إذا ارتكب رأس الإدارة في أمة خطأ ما، فإن هذا يمكن أن يؤثر، على نحو كارثي، ليس فقط على بلده بل أيضاً على بلدان أخرى. ثم إن المبالغة في الاحترام، أي الاحترام الملكي الذي توليه بعض البلدان لرؤسائها، يقودنا أحياناً إلى نسيان أنهم مجرد ممثلين منتخبين شعبياً، حتى إذا وُجد ممثل ممن يتميزون بتأليه الذات، فإنه سيتعرض لخطر إغفال الطبيعة الحقيقية لمنصبه وقد ينتهي به هذا إلى الظن بأن السلطة التي يمارسها هي سلطة خاصة به. في حين يجب أن يكون منصب الرئاسة في بلد ما نموذجاً للخدمة العامة أكثر منه فرصة لفرض السلطة في سبيل إحداث التغييرات التي يريدها حزب الأكثرية. ويجب أن يكون معلوماً أن الطريقة التي بها يُساق المواطنون إلى الخطأ فيما يتعلق بالطبيعة الحقيقية لمرشح الرئاسة أو البرلمان بسبب المبالغة في حملة الصورة هي عيب أخلاقي مهم لأنه يمثل اعتداء على الإرادة الخيرة للجماهير.

يقترع جمهور الناخبين، في الحقيقة، لصالح مرشح مُمَثَّلَن ليس له وجود حقيقي على أرض الواقع. بل هو ابتكار التسويق وليس إنساناً من لحم ودم. ويؤدي هذا في حينه إلى خيبة أمل الجمهور. وعندما يفقد الجمهور إيمانه بهذا المرشح، فإنه سيعلق آماله على الانتخابات القادمة، وبالتالي، يعرِّض نفسه لتكرار لانهاية له للعملية نفسها. وأعضاء البرلمان وكافة الموظفين المدنيين الذين يشاركون في المجالات العليا للنشاط في حكومة بلد ما يكونون في وضع مماثل لوضع الرئيس إذا كانت مناصبهم تتطلب اقتراعاً من قبل الشعب. فكل منهم، دون استثناء، ملزم بإظهار أكبر قدر من الشفافية في سلوكه لكي يطمئن الجمهور إلى أنه كان مصيباً في اختياره. ويجب أن تكون أساليب حياتهم وسلوكهم، العامة والخاصة على حد سواء، منسجمة مع الصورة التي عُرِضَت على المقترعين الذين انتخبوهم، وبخلاف ذلك، تكون لدينا حالة لهوية ملتبسة أو مشبوهة. إنها لمسألة خطيرة جداً أن يظهر الناس الذين انتخبوا لشغل مناصبهم العليا على أساس قوة جاذبيتهم على خلاف الصورة التي عرضتها وسائل الإعلام.

وينبغي أن أشدد على أن العمل على تحريك الجماهير عن طريق استخدام الصورة المُكَوَّنة فقط لتلك المناسبة ودون أي توافق مع الواقع، يشكل، بحد ذاته، خرقاً أخلاقياً خطيراً جداً هو، في الحقيقة، جريمة خداع جماعي. ويصبح هذا أيضاً أكثر فظاعة عندما يكون الضحايا المحتملون أناساً ضئيلي الموارد أو حساسين جداً للتأثير العقلي.

عدم الاستقامة

إن أي تأهيل أخلاقي، بمعنى الدخول إلى السبيل نحو الخير الأسمى والبقاء فيه، يتطلب، قبل كل شيء، أمانة مطلقة وملحة، أي، الأمانة في ألا يكذب المرء على نفسه. فكل من يخدع زملاءه، فإنما هو يخدع نفسه أولاً عن طريق تغيير الحقيقة أو تكييفها لتبرير تصرفاته الخاطئة. وينطوي الخداع على كذب مضاعف: الكذب الذي يرتكبه المرء بتزييف واقعه الداخلي والكذب الذي يتضمنه خداعه لزملائه.

ويعترف كبار علماء النفس والمحللين النفسيين أن خداع الذات شأن يومي، لأن الناس يحاولون أن يعدلوا الواقع الذي لايرضيهم عن طريق تكييفه أو إنكاره. ويهتم المرء، من بين ما يهتم به يومياً، بطريقة مواجهة التهديدات والأخطار التي تسبب الكرب. ولهذه الغاية، تكون الـ "أنا" قادرة على تبني نمط واقعي من السلوك أو أنها تحاول تفريج هذا الكرب باستخدام حيلٍ تنكر الواقع، أو تزيفه، أو تحرفه. ويتم إنجاز ذلك من خلال آليات الـ "أنا" للدفاع عن النفس، وهي حيلة تكيف الواقع مع توقعات الفرد، وبالتالي، تسبب هدوءاً اصطناعياً عابراً. تترافق عملية الخداع هذه بتكاليف طبيعية لايمكن حسابها، لأنها، بمرور الزمن، تقتضي ابتعاداً مضطرداً عن الواقع إضافة إلى النتائج المنطقية لهذا الابتعاد. وآليات الدفاع المعروفة جيداً هي: الكبت، والإسقاط، والتكوين الضدي، والتثبيت، والنكوص[1].

ويقول كالفن س. هول حول هذه المسألة ما يلي:

آليات الـ "أنا" للدفاع عن النفس وسائل غير معقولة لمواجهة الكرب، لأنها تشوه الواقع، أو تحجبه، أو تنكره وتثبط النمو النفسي. إنها تعطل الطاقة النفسية التي يمكن أن تستخدم في النشاطات الأخرى الأكثر فعالية لـ "أنا"، التي تخفف مرونتها وقابليتها للتكيف. وإذا لم تستطع الدفاعات أن تصمد، فإن الـ "أنا" لاتجد مكاناً تلجأ إليه فيسحقها الكرب. وينتج عن ذلك انهيار عصبي.

1-انظر الحواشي في الصفحة 89 حول تعريف هذه المصطلحات-المترجم.

فما سبب وجود هذه الآليات الدفاعية إذا كانت على مثل هذه الدرجة من الضرر؟ إن سبب وجودها من نوع تطوري. فالـ "أنا" الطفولية ضعيفة جداً بالنسبة لدمج وتركيب كل ما يُفرَض عليها من مطالب. فتُتَّخذ دفاعاتها كإجراءات وقائية. وإذا لم تستطع تخفيف الكرب بوسائل معقولة، فإنها تلجأ إلى هذه الإجراءات على سبيل إنكار الخطر (كبت)، أو تبرره بعوامل خارجية (إسقاط)، أو تكتمه (تكوين ضدي)، أو تبقى في الحالة نفسها (تثبيت)، أو تتراجع في نموها العاطفي (نكوص). و"الأنا" الطفولية تحتاج إلى كل هذه الآليات الإضافية وتستخدمها.

فما سبب بقاء هذه الآليات حتى بعد أن تكون قد انجزت وظيفتها لمصلحة الـ "أنا" الطفولية؟ إنها تستمر عندما تعجز الـ "أنا" عن تطوير نفسها. ولكن أحد أسباب عجز الـ "أنا" عن تطوير نفسها هو أن معظم طاقتها يُستنفَد في فعل الدفاع عن نفسها. وهكذا تبدأ حلقة مفرغة. فلايمكن التخلي عن الدفاعات عندما تكون الـ "أنا" غير كفوءة، وتتشبث الـ "أنا" بعدم كفاءتها ما دامت تعتمد على دفاعاتها.

إن ما سبق ذكره يوضح آلية واحدة من أكثر أسباب خداع الذات أهمية. ومن الواضح أن هذه الاستراتيجية تتطور، بقدر ما تكون الـ "أنا" الطفولية ضعيفة حيال دمج وتركيب كل ما يُفرَض عليها من مطالب. وعلى المرء أن يتصور أن آليات الدفاع تختفي عندما يتحقق نضج الفرد، ولكن، لسوء الحظ، إن هذا لايحدث، لأن العمر الزمني لـ "أنا" وارتقاءها لايترافقان مع بعضهما بعضاً. فنضج الـ "أنا" يتطلب عملية سابقة للاكتمال وتحقيق الذات الفردية، وهذا يتجاوز مدى الوسائل الثقافية العادية التي يقدمها لنا المجتمع. ويمكن تحقيق هذا فقط عن طريق العمل الدؤوب المنظم وتربية الوعي، وهي معرفة تجهل أساسها الأكثرية الساحقة من الناس، أو تزيفه، أو ترفضه. إن الحادثة الروحية، لاالظاهرة الاجتماعية، هي التي يجب أن تتخذ مكاناً لها في العالم الداخلي للفرد.

عندما نقول إن آليات الدفاع هي وسائل لامعقولة في مواجهة الكرب، فإن قولنا هذا يبدو وكأنه يعني فقط الناس غير الأسوياء، وأن من هم ضمن المدى السوي لايشعرون بالكرب. ولكن ما يحدث هو أن الـ "أنا" تُبتَلَى كلما توجب على المرء أن يواجه مواقف مقيتة هي نموذجية بالنسبة للكبار، كـ "تحمل المرء لمسؤولياته"؛ واعترافه بعيوبه؛ وإقراره بنقائصه وسلوكه الطائش؛ ونزعه لقناع "الراشد المزيف" ليكشف تماماً عن طفوليته؛ وفي قول الحقيقة أو الاعتراف بها حتى عندما يكون ذلك مؤلماً؛ ومواجهة الخطر، والمجازفة، والألم، والمعاناة. إنه يعني إقرار المرء بنقائصه وتحمل تبعاتها، والاعتراف بقصوره، ومواجهة الخوف

ونقد الآخرين، وفهم عواطفه الخاصة، والنهوض بمسؤوليته حيال نفسه.

يكتشف كثير من الناس، من خلال خداع الذات، طريقة ماكرة للتأثير على الآخرين الذين لايدركون ما الذي يجري لهم. وعن طريق استخدام هذه الاستراتيجية لرفض النمو، يبقون في حالة طفولية لانهاية لها، وذلك بهدف استدرار الشفقة، والحنو، والحماية من الناس من خلال العديد من المناورات.

قمت، في مكان آخر من هذا الكتاب، بدراسة حالة الارتقاء الطفولي للإنسان على الرغم من نموه العقلي الظاهر. إن الدافع الأقوى عند الطفل هو الدافع لمواصلة اللعب لادافع التفاعل مع الكبار. وربما يبقى الكبار أيضاً مثبتون في طفولتهم مع أنهم يستخدمون أجسام الراشدين، وإيماءاتهم، وعاداتهم. إن هذه الـ "أنا" الطفولية في جسد راشد تعاني من كرب عميق عندما تواجهها المتطلبات الوجودية. وهذه الأمور، كضرورة حصول المرء على تدريب مهني، وتكوين أسرة، واحتلال مكان في المجتمع، وتحقيق نجاح في الحياة، كلها تمثل ضغطاً ثقيلاً على الشخص الذي لم ينضج والذي يختار أحياناً، مدفوعاً بغريزة غامضة، أن "يستغل" زملاءه عن طريق التلاعب بعواطفهم للحصول على هبة أو "معالجة خاصة" تتطلب، في الحالة العادية، جهداً كبيراً مداوماً.

إن استدرار شفقة الناس وحملهم على الشعور بالذنب وسيلتان أساسيتان بهما يحاول الناس الحصول على ما يرويدون من خلال التأثير بمشاعر الآخرين، بدلاً من المواجهة الحقيقية لتحديات الحياة. وهذا التصرف نموذجي بالنسبة للناس الطفوليين الضعفاء جداً الذين يختارون، بدلاً من بذل الجهد للتغيير، وتقوية أنفسهم ولكي يصبحوا كباراً، السبيل المنحرف الذي يسلكه المُضلّلون للحصول على فوائد لاتتفق مع جدارتهم وتفانيهم الحقيقيين.

ولا بد من الاعتراف بأن هذا نمط خبيث من أنماط السلوك، التي لايمكن تبريرها فقط بحقيقة ضعف الـ "أنا" عند المرء، لأن الـ "أنا" والشخصية، على عكس الجسد الذي أنهكه المرض أو تشوه نتيجة لحادث، يمكن أن تتطورا في أية لحظة معلومة إذا قرر المرء هذا، وذلك من خلال القرار وسيادة الإرادة. وعدم الاستقامة، كآلية لخداع الذات هدفها الخفي خداع الآخرين، يعتبر عيباً أخلاقياً خطيراً للأسباب التالية:

1. إنه وسيلة يتفادى بها الفرد بذل جهد شخصي.
2. وهو افتئات على الإرادة الخيرة للآخرين.

3. وشكل خبيث من الخداع يقوم على الكذب.

ولكي نعرف أهمية الأصداء الأخلاقية الحقيقية لعدم الاستقامة، علينا أن ندرك أنه من المألوف أن يكذب الشخص غير المستقيم على نفسه، منكراً الواقع أو مزيفاً له بقصد استغلاله. تعتمد هذه الآلية على الكسل، والخمول، والراحة، والتفسير المشوه للحياة وأحداثها. ومن يسلك هذه السبيل، فإنه يخفي بعناية طبيعته الحقيقية عن طريق قيامه دائماً بعرض صورة جذابه، وهو شرط أساسي للاحتيال على شخص غافل. إن السمات الشخصية للناس غير المستقيمين ليست جذابة تماماً. فهم عادة كسالى وحسودون، ويفتقرون إلى الانضباط والإرادة، وتستحوذ عليهم حاجة ملحة داخلية تعتبر أن كل شيء في الحياة يجب أن يكون مجانياً، كما يتملكهم رفض داخلي عميق للجدارة الفردية وتوجب دفع ثمن ما يريدون امتلاكه من الأشياء الجيدة. وتجبرهم عقليتهم الطفيلية على ابتكار مختلف الوسائل لاغتصاب السلع، وإشباع حاجاتهم الشخصية عن طريق سرقتها ممن ينجحون بجدهم، وإبداعهم وذكائهم.

هناك العديد من مستويات الافتقار إلى الاستقامة، وأقلها شيوعاً المستوى "النشردي البسيط" -استخدمت هذ التسمية لأنها تشير إلى حالات فيها يعتقد الشخص المتأثر أنه يتصرف "بوحي الضمير،" أي على نحو سليم، ولكن دوافعه وأهدافه تخدعه، لأنها، في الواقع، مختلفة تماماً عما يظنها. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يتصرف هذا الشخص تصرف المحسن، وهو على قناعة من أن دوافعه تستحق الثناء، ولكن غرضه الحقيقي قد يكون أنانياً بحتاً، كأن يهدف إلى تكبير صورته الشعبية، أو تعزيز احترام ذاته، أو تخفيف شعوره بالذنب، أو لغايات أكثر ضبابية. ويتم القيام بتصرفات الدافع الخفي هذه من خلال آلية "القصدية اللاواعية" التي فيها يشطر الفرد عقله إلى شطرين: شطر يدرك تماماً الخلفية الضبابية التي تحرك تصرفاته، في حين يبقى الشطر الآخر بريئاً، مقتنعاً بنبل أغراضه وصوابية أغراضه. إن هذه الآليات تؤثر، في الواقع، على كل واحد بدرجة كبيرة أو صغيرة، وإن ما يبقى محجوباً حقاً في بعض الحالات بريء تماماً. ولكن، هناك العديد من حالات الفساد أو الانحراف الخطير، التي تختبىء تحت مظهر طبيعة كريمة دمثة. وتظهر هذه "القصدية اللاواعية" في كافة مجالات النشاط الإنساني.

هناك سياسيون يظنون أنهم يقومون على خدمة الناس، ولكن جشعهم لممارسة النفوذ

الشخصي، في الواقع، هو الذي يدفعهم. وهناك محبو خير أنانيون؛ وكهنة دون دافع ديني باطني حقيقي؛ وصحفيون مضلِّلون؛ ومحامون يودون، دون رغبة واعية، لو يكونوا جلادين لموكليهم؛ وأصدقاء زائفون؛ ومعجبون مزعومون هم، في الواقع، أناس عدائيون وحسودون؛ وعلماء بيئة لايهمهم سوى ممارسة نوع من النفوذ الشخصي؛ ومدافعون عن الفقراء لايوجههم أي حب للمعوزين بل الحسد والحقد على الأغنياء؛ ومدافعون نظريون عن الشعب، تدفعهم مصالحهم الانتخابية لاغير؛ ومخلِّصون منتَظَرون مزعومون تقودهم أنانيتهم، وغرورهم، ونرجسيتهم. وربما كان كافة هؤلاء الناس لايدركون أبداً أن أهدافهم هي، في الأساس، فاسدة وأن دوافعهم الحقيقية غير واضحة. وهناك، في كل أنحاء العالم، وفي أي ظرف أو على أي مستوى، أناس يظهرون كنماذج للاستقامة والفضيلة من الخارج، ولكنهم ملوثون من الداخل بأكثر العواطف انحطاطاً، تلك التي تتنكر على شكل مشاعر نبيلة حتى أن الشخص المتأثر قد يشعر، من خلال لعبته المزدوجة، بأنه فاضل وجدير بالحب والاحترام مع أنه يقوم، في الوقت نفسه، بملاحقة أهدافه الخسيسة.

وكما هي الحال مع القانون تماماً، فكما أن الجهل به لايعتبر ظرفاً مخففاً في حال انتهاكه، كذلك الأمر أيضاً مع من يدعي البراءة لجهله بما يحدث ضمن عالمه الداخلي اللاواعي. ذلك لأن هذا المفهوم نسبي حيث يكون هناك، في أية حالة، مستوى ما من قصد إرادي. فكل منا يعرف بالضبط "أين تكمن الحقيقة،" ولكنه يحجبها تماماً عن نفسه. وفي كل يوم يقوم الناس بتصرفات "شريرة" تستحق الثناء في ظاهرها، بينما هي، في الواقع، تصرفات لاأخلاقية وتستحق اللوم.

وتتراوح هذه التصرفات من تصرف بسيط وتافه جداً إلى تصرفات الحكومات والمنظمات المعروفة المحترمة. والنزعة الإنسانية عادة مشروع نبيل جداً، ولكن، من سوء الحظ أنها تُستخدَم أحياناً بطريقة مختلفة جداً، وهي استراتيجية يمكن أن تكون أحياناً واعية أو لاواعية. وتتراوح هذه التصرفات من الفرد الذي يذهب إلى مركز التسوق لشراء قلم حبر جاف يحتاجه، وينتهي إلى شراء شيء آخر مختلف تماماً، ناسياً قلم الحبر الجاف؛ أو من الناس الذين يصبحون مرضى عن قصد ليستدروا، دون قصد، "شفقة" الآخرين؛ إلى الحالات التي فيها تعلن حكومة ما أنها تبحث عن الشفافية في مسألة معينة وتعيِّن لجنة مهمة من مواطنين بارزين لهذه الغاية، وينتهي كل شيء إلى انشقاق اللجنة أو التسبب باختفاء نتائج التحقيق، دون أن يُقال أي شيء حول المسألة. وعلى المرء ان يسلِّم بأن الدافع الحقيقي لهذه الآليات هو

دائماً الكتمان أو التزييف، ولكن لايمكن حتى للمخادع، إذا لم يدرك تلك الآليات، أن يتقن عادة لعبة النفاق أو التزييف بمثل هذا الطريقة المعقدة التي لاتبدو له كذلك.

يؤدي خداع الذات دائماً إلى شكل ما من الاحتيال على الآخرين، الذين يظنون، بحسن نية، أن ما يُظهِره الفرد لهم هو حقيقي. وهو، في كل الأحوال، تصرف لاأخلاقي من أجله يتلقى الآثم، بطريقة ما، نوعاً ما من رد فعل تصحيحي من الطبيعة، على شكل عقاب على أخطائه. ويجب أن نتذكر أن ما يسمى عادة "خطيئة" يمثل خرقاً للشريعة الكونية وأن الطبيعة، في سعيها لإعادة توطيد التوازن، تأخذ من الفرد شيئاً مهماً بالنسبة له، تساوي قيمته أو تفوق الفائدة اللامشروعة التي حصل عليها. ويمكن لأحدنا أن يختبر هذه الآلية عن طريق تحليل التقلبات بين الحوادث الإيجابية والسلبية في حياته. هذا لأن علاقة السبب والنتيجة تتوطد بين تصرفاته المخادعة والحوادث غير المرغوبة أو العاثرة. وهكذا يمكن تقريباً أن نكتشف أصل المشكلات التي يعاني منها في الحياة، والتي تعزى، في الواقع، إلى انتهاكات المبادىء الأخلاقية للطبيعة.

ومن المؤلم أيضاً أن نرى هناك من ينتهكون القانون من كافة الطبقات الاجتماعية وهم معروفون ليس فقط بعدم استقامتهم، بل أيضاً بقسوتهم، وفسادهم، وخبثهم، وإن كانوا يستخدمون طريقة مضللة وماكرة لتغطية أنفسهم، بحيث لاتستطيع يد العدالة أن تكشفهم أو تأخذ أي شيء عليهم. والمضحك هنا هو أن هذه الشخصيات، أي "القبور المُبَيَّضَة" الحقيقية، كثيراً ما يُعتبرون مواطنين شرفاء رائعين دون أن يدرك أحد وضعهم الحقيقي. ومن هنا، يبقى من لايُكتَشَف أمرُه شريفاً في نظر المجتمع وبعيداً عن متناول القانون البشري، ولكن ليس عن متناول العدالة الكونية. إن " من يخطىء، يدفع" ليست فقط شريعة الذَّحْل[1]، ولكنها أيضاً تعبير عن تلك الشريعة العليا. ومن خلال تطبيق الشريعة العليا، تسعى الطبيعة إلى استعادة توازنها المعطوب عن طريق الاستتباب[2]. فإذا كنا لاندرك هذه القوانين، فذلك لأن تصاميم اللوجوس غامضة بالنسبة لنا. وفي مثل هذه الحالة، من المحتمل جداً أن يفشل من ينتهك الشريعة الكونية في توطيد أية علاقة بين الحوادث الحاضرة في حياته والتصرفات اللاشرعية في الماضي، ولكن، مما لاشك فيه مطلقاً أنه من المستحيل تماماً أن تمر هذه التصرفات دون عقاب وفقاً للميكانيكيات العليا للطبيعة. وسيتلقى الآثم، عاجلاً أو آجلاً،

1-عقوبة المِثْل أو الثأر-المترجم.

2-الاستقرار الداخلي أو الاتزان بين عناصر التكوين المختلفة-المترجم.

عقابه العادل بما يكافىء، شكلاً وكماً، صرامة القانون البشري. وإذا أُدين شخص بريء من قبل العدالة البشرية، فإن الشريعة السماوية سوف تكافئه بطريقة ما، وسيُعاقَب قضاتُه في حينه، وخصوصاً إذا كان هناك خداع أو إهمال في العملية.

سوء استخدام السلطة

هناك أناس يمارسون، بحكم مهنتهم أو رتبتهم، نفوذاً قوياً على أساليب حياة الناس، ولذلك يجب أن تكون مستويات مسؤوليتهم الخلقية عالية جداً وأن يُضبَط سلوكهم الأخلاقي بصرامه، لأنه إذا انحرفوا عن السبيل المستقيم الضيق، سواء بصورة متعمدة أو غير متعمدة، فإنه يمكن أن يسببوا ضرراً كبيراً لشرف الناس وكرامتهم عن طريق سوء استخدام السلطة التي وضعها المجتمع بين أيديهم. وسوف أشير هنا خصوصاً إلى القضاة، والمحامين، ورجال السياسة، وأعضاء البرلمان، ورجال الدولة، والصحفيين.

فالقاضي يدير العدالة بيديه، ولكنه ليس العدالة نفسها، بل هو مجرد إنسان يتمتع بملكات كتلك التي يتمتع بها الآخرون ويحمل عيوباً كعيوب الآخرين، ولذلك فهو مثلهم في إمكانية ارتكاب الأخطاء. ويخضع أيضاً للنظام القضائي كأي مواطن آخر، ولكنه عملياً، كإله أولومبي، بعيد المنال. وفي ظل التعقيد الغامض للقوانين، يستحيل توجيه النقد لقاض ما، لأن هذا القوانين توفر له العصمة، إلى حد يستحيل معه على المواطن العادي أن يشتبه بتصرفاته. صحيح أن للقانون آليات تتيح تفنيد تصرفات القاضي أو توجيه التهمة إليه عند الزعم بأنه تصرف على نحو غير شرعي، ولكن الصحيح أيضاً هو أن هذه الإجراءات قلما تنجح عندما يحركها شخص عادي. قد يُعزى الأمر إلى أن القاضي المذكور يتمسك، في الواقع، بحرفية القانون أو لأن عملية التقاضي جاءت بقصد الإزعاج أو لأنها متعذرة التطبيق، وذلك بهدف حماية النظام. وأياً كان السبب، فمن المؤكد أنه في نظر الجاهل، لاتوجد أدنى شفافية حيال هذه المسألة، وفي حالات كثيرة جداً، يبدو أن المدعي الذي هو صاحب حق، أو المُدَّعى عليه البريء، سيخسر القضية أو يُحكَم عليه بعقوبة ظالمة.

فلماذا لانوفر للمواطن العادي معرفة واضحة ومفصلة تماماً، وذلك باستخدام لغة بسيطة وواضحة للمقدمات القانونية عند وضع القوانين؟ فالقاضي مطلوب منه أن يجاوب ليس فقط من هم أعلى منه في السلم الهرمي، بل عليه أيضاً أن يجاوب الناس، وإنه لواجب أخلاقي في النظام القانوني توضيح الأمور بشكل ملائم وبلغة يمكن لأي مواطن أن يفهمها، لغة

تكشف السر فيما يتعلق بعقوبات معينة، وذلك لتبديد هالة "المحظور" التي تطوق النظام. وبهذه الطريقة، يمكن أن يتجرأ الناس الذين يظنون أنهم عوملوا بقسوة على الجهر بنقدهم للنظام.

يمكن في أي بلد إجراء بحث لايرحم كالبحث الذي أجراه في فنزويلا الصحفي وليم أوجيدا، وعرضه في كتابه، كم يكلفنا شراء قاض؟

ماعدد الأردية التي سيمزقها هذا الباحث؟ وكم من يد سوف تمتد في الخفاء لمنع القيام ببحث كهذا؟ وكم من الأصوات المرائية سترتفع ضده؟ وما مدى تحمل النظام التفتيشي الخفي لدى حكومات معينة قبل أن يتحرك لمنع هذه المبادرة أو لتضليل الجمهور فيما يتعلق بنتائجها؟ من حق الشعب أن يقوم باستمرار باختبار صدق وإخلاص السلطة القضائية، ليس لأن هذه السلطة موضع شك، بل لأن الطبيعة الدقيقة والمعقدة لقيامها بوظائفها في المستويات العالية تتطلب درجة مطلقة من الشفافية العامة. تُنتَخَب هذه السلطة، في الأنظمة الديموقراطية، من قبل الشعب، ولذلك تبقى مسؤولة أمامه. ومن سوء الحظ أن الخلفيات الحقيقية لتفاصيل محاكمة ما تبقى عادة، بسبب عدم وجود معلومات مبسطة اللغة، لغزاً عويصاً بالنسبة لمن هم ليسوا على اطلاع بالمسألة، والذين كثيراً ما يشعرون، صواباً أو خطأ، بأنهم ضحايا ظلم قانوني جائر.

هذا الالتزام حيال الشفافية العامة يعني أن المواطن في النظام الديموقراطي يتمتع بحق مراقبة الأعمال الحقيقية لموظفي الدولة كافة، بدءاً من الرئيس فما دون.

تعالوا نتخيل للحظة هول الضرر الذي يمكن أن يسببه قاض جائر، ومدى انتهاك العدالة البشرية والسماوية الذي يمثله التحيز المقصود للجاني أو إلقاء اللوم على كاهل شخص بريء. إن إمكانية وجود قاض واحد فقط من هذا النوع تعتبر سبباً كافياً يبرر البحث في أعماق النظام، لامن قبل رجال الشرطة أو السياسة، ولكن من قبل المواطنين العاديين الذين لم يتورطوا في أية آيديولوجية سياسية والذين يهتمون فقط بنشر مكتشفاتهم أكثر من إخفائها. إن التلاعب بالعدالة خطيئة أخلاقية خطيرة عندما يصادف أن يكون المذنب قاضياً أو موظفاً في السلطة القضائية. والنظام القانوني يضم أيضاً محامين، لأنه يترتب عليهم أن يشاركوا في الإجراءات القائمة. وهذا الشخص الممتهن يعتبر وسيطاً بين النظام القانوني والمواطن الذي يحتاج إلى حماية حقوقه، ولهذا فهو يمارس سلطة كبيرة على أساليب حياة

الناس. ولهذا السبب، يجب أن يحصل المحامي على تدريب أخلاقي لاعيب فيه، لأنه الحارس الأمين للمواطنين، وذلك بسهره على التطبيق السليم للقانون، ولأنه مخول من قبل المجتمع للقيام بهذه المهمة.

ومن الواضح أن هناك، كما هي الحال في أية جماعة بشرية، أشخاصاً لامعين، أو عاديين، أو من هم مؤهلون على نحو سيء بالنسبة لاختيار مهنتهم. وأذكر أن محامياً من أصدقائي استشهد بعبارة تنسب إلى أحد أساتذة القانون المشهورين، تقول إن "محك القانون هو الإيمان الجيد، لأن النظام يتعطل إذا كان الإيمان فاسداً." فإذا كان المحامي فاسد الإيمان، فإن تصرفه يلحق الأذى ليس فقط بالفرد، الذي هو في هذه الحالة موكله أو موكل زميل آخر، بل إنه يهاجم النظام أيضاً، وهكذا، يصبح نوعاً من "خصم علني" للقانون. ومن حسن الحظ أن يكون هناك كثير من المحامين الذين تعتبر نزاهتهم برهاناً ضد الفساد، مع ذلك، يمكن أن تكون هناك حالات فيها يقع مواطنون في أحابيل قانونيين سيئين، فلا يجرؤون على الجهر بآرائهم خوفاً من الانتقام. ولكن هذا ليس بأية حال نقداً للمهنة، التي يمكن أن تكون نبيلة للغاية عند ممارستها بالشكل المناسب. ولكنه، على الأصح، شجب أخلاقي ذو طبيعة وقائية ضد بعض المحامين الذين يمكن أن يحصلوا على كسب مالي كبير، مثلاً، عن طريق التأجيل غير الضروري لجلسات المحاكمة بعد أن يكونوا قد عقدوا صفقة مع محام آخر.

يلجأ الإنسان العادي الذي يعرف أنه بريء من تهمة مزعومة إلى محام وكأنه هو المنقذ، وإذا قام المحامي بخيانة ثقة هذا الإنسان الذي ينتظر منه النصح، فإن هذا يعتبر انتهاكاً فظيعاً للعدالة. وأكرر فأقول: إن الشفافية هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يضمن أو يستعيد ثقة المواطن في مستشاره القانوني، الذي يكتسب عملياً، بحكم تمثيله له أمام القضاء، سلطة غير متكافئة على موكله. فمن يضبط السلوك الأخلاقي للمحامين، ياترى؟ هل يقومون بذلك بأنفسهم، أم أنها منظمة أخرى خارجية؟ وأقول، ببساطة شديدة، إنه يمكن شجب أي عمل شاذ، أو كل الأعمال الشاذة، أمام القضاء، لأنني أظن أنه يصعب على محام أن يقاضي زميلاً له، وذلك بسبب الطبيعة المشتركة للمهنة. وبالمثل، هناك، في جميع البلدان، بعض المحامين الناجحين جدا، وهؤلاء، في الواقع، لايربحون قضايا عن طريق العمل بالنظام المألوف، بل عن طريق نفوذهم الذي يساعدهم على التدخل وممارسة الضغط للوصول إلى تسويات، أو حفظ القضايا، أو إهمالها على اعتبارها خارج اختصاص المحكمة. وهناك

أيضاً أمثلة لمحامين يلجؤون إلى أساليب ملتوية ويؤثرون باستمرار على المحيط اللاقانوني، حيث يستغلون الثغرات القانونية لـ "تحقيق ما لا يمكن تحقيقه،" أو لإلغاء قرار سابق. وهم، مثلنا، سوف يحتلون في الوقت المناسب أماكنهم الصحيحة في "الكوميديا الإلهية[1]،" وفقاً للنوعية الأخلاقية لأعمالهم.

إن العبث بالقانون البشري يعطي نتائجه فقط إذا اكتُشف العابث، ولكن الشريعة السماوية الكلية المعرفة لاتعرف الصفح عمَّن يحاولون تغيير دستورها المقدس في "التكافؤ المساواتي" وسوف تستخدم دائماً العقاب المناسب لمن يحاولون تشجيع الظلم في أي مستوى. فإذا قُدِّر لأحد المحامين أن يكون نعمة بالنسبة لمواطن مكروب، فإن المئات من أمثاله لن يستطيعوا إزالة الضرر الذي يمكن أن يلحقه به زميل لهم منحرف أخلاقياً. وفيما يتعلق بأعضاء البرلمان، فإنهم يتحملون واجباً مقدساً يتمثل بإطلاع الناس بعمق وترابط منطقيين عن معنى انتخابهم إلى مناصبهم. وتصبح محافظتهم على السرية، كموظفين حكوميين، تافهة جداً ويتحملون واجب الإعلان على منتخبيهم مدى ما حققوه من الوعود التي قطعوها على أنفسهم خلال حملاتهم الانتخابية. ولا ينبغي لأعضاء البرلمان أن يقيدوا أنفسهم أو يفرضوا قوانينهم الخاصة، ويبدو معقولاً أن تكون هناك لجنة خاصة بالأخلاقيات البرلمانية تتألف من مواطنين مناسبين من غير السياسيين وممن لاعيب في سلوكهم. ويجب ألا يتم تعيين هذه اللجنة بناء على الإيحاء بأن هناك شذوذاً أخلاقياً، بل لأنها ستلقي الضوء على النظام وتعزز ثقة الناس، لأنهم لايدركون غالباً ما الذي يجري. وأن يُنتخَب هؤلاء الناس من قبل المواطنين كافة، وأن يتقاضوا رواتبهم من الضرائب التي يدفعها الجميع، وأن يكونوا ملزمين بإظهار الاستقامة والفعالية في وظائفهم. وعليهم أن يكونوا مستعدين لتقديم كشف كامل حول أي شيء يُطلَب منهم. وبخلاف ذلك، يصبحون مجموعة تتألف من نخبة منعزلة عن أي أساس شعبي ولن يكونوا، عملياً، ممثلين للمصالح الحقيقية للناس.

عزيزي القارىء، أرجو أن تتذكر بأنني أتحدث في هذا الكتاب عن أخلاقية جديدة، فلا يذهب بك الظن إلى أنني أعني أحداً بذاته أو ألّمح إليه من خلال عرضي للمعايير الأخلاقية التي يجب أن تشكل أساساً للحياة المتاسقة في بلد ما.

عندما يقوم عضو في البرلمان في أي بلد بتصرف ديماغوجي، فإنه يقترف بذلك غلطة

1-ملحمة ألفها دانتي آليغييري (1265-1321):كبير شعراء إيطاليا-المترجم.

أخلاقية خطيرة لأن هذا يدل على أنه يحاول التأثير على الناس بطريقة خادعة، وسوف يلقى جزاءه في الوقت المناسب. وتعتبر تصريحات الممثلين الحكوميين والسياسيين أيضاً غلطة خطيرة أو أنها تعتبر نوعاً من اللاأخلاقية عندما تسبب خوفاً أو ضغطاً، علنياً أو خفياً، من النظام القانوني. فهذا التصرف يمكن أن يتدخل إلى حد خطير بتوازن العدالة. ويعتبر عملاً لاأخلاقياً أيضاً أن ترفض لجنة برلمانية، عُهِد إليها القيام بتحقيق حول قضايا فاضحة، إطلاع الرأي العام، على نحو واضح ومناسب، على نتائج تحقيقها تحت ذريعة أن هذه المعلومات يجب أن تبقى محصورة ضمن دوائر محدودة. إن تحقيقاً تقوم به لجنة من "أناس نزيهين" أو من أعضاء برلمانيين، يجب أن يكون علنياً تماماً بحيث يكون درساً أخلاقياً يتعلمه الجميع، إلا إذا كان التحقيق يتعلق بمسائل يمكن أن تؤثر على الأمن الوطني. وليس من الأخلاق في شيء أيضاً أن يقوم أعضاء البرلمان ممن ينتمون إلى الحزب السياسي نفسه بالتصويت ككل فيما يخص المسائل الوطنية العليا، لمجرد امتثالهم لأوامر حزبهم بدلاً من التصرف وفقاً لقناعاتهم الخاصة، أو تقديم المصالح الحزبية على المصلحة العامة.

ويُعتبّر لاأخلاقياً أيضاً إجراء مفاوضات سياسية فيها يستجيب حزب إلى عدم نشر معلومات فاضحة حول حزب آخر لمجرد أن هذا الأخير كان قد قام بالتصرف نفسه حيال الأول. إن إنكار الحق في نشر معلومات مربكة حول أحزاب المعارضة بهدف الحصول على هامش سياسي، يعرِّض للخطر الحقيقة والعدالة معاً، علاوة على خداع الناس. فإذا صح ذلك، وإذا كان كل السياسيين تحت رحمة الأحداث، فإنهم سوف يصبحون شركاء في جريمة إخفاء الحقائق التي يجب أن يعرفها الناس.

للمواطنين كامل الحق في معرفة كيف يتصرف السياسيون في حياتهم الخاصة. وإذا شاع بين الناس أن بعضاً من رجال الدولة يتصرف على نحو غير ملائم، فإن رجل الدولة هذا يكون ملزماً بإعلان الحقيقة. ولن يكون أخلاقياً إذا لجأ إلى إسكات من يتهمونه عن طريق استخدامه للسلطة التي يتمتع بها. ففي الأنظمة الديموقراطية لايمكن أن تكون الحكومة ودوائرها معصومة عن المساءلة، وبحكم الضرورة، يجب أن تخضع لنقد المواطنين، على ألا يتحول النقد إلى إهانة أو افتراء. وبخلاف هذا تكون الديموقراطية مجرد صورة كاريكاتورية. علاوة على ذلك، يجب على الرئيس في بلد ديموقراطي ألا يعتبر نفسه ملكاً، بل يجب أن يتمكن الجميع من الوصول إليه، وأن يتقبل النقد، والحوار وفقاً لما تتطلبه الديموقراطية الحقيقية.

أما الصحفيون فيشغلون مكاناً مميزاً بقدر ما يتعلق الأمر بتكوين رأي عام، ولهذا، فإن تصرفاتهم يجب أن تتماشى مع المعايير الأخلاقية الصارمة. وبسبب السلطة التي يتمتعون بها، فإنهم يمكن أن يكونوا من أكثر الشاجبين فعالية للتصرفات غير الأخلاقية والفساد. ولكنهم قد يذهبون إلى أبعد من ذلك في تعليقاتهم وتشويه سمعة الناس أو سمعة عائلاتهم دون قصد. ويعجبني الصحفي الذي ينشر معلوماته بموضوعية، ويبتعد عن محاولة التلويث السياسي أو الطائفي. هذا هو نموذج الصحفي الذي يعرف كيف يميز المعلومات الحقيقية من مجرد الإشاعة، ولا يهتم بالتعليق الخبيث، والذي يعرف كيف يقدر بدقة كل موقف. ويعرف أيضاً كيف يصمد للضغوط المفرطة ويفكر ملياً بالتأثير الثقافي والمعلوماتي لتقاريره. إنه الشخص الذي يلتزم بالحقيقة والعدالة ويرفض بإصرار أن ينشر معلومات لم تثبت صحتها تماماً. وهو من يستطيع أن يواصل البحث مهما تعددت دوائر النفوذ التي تعترض طريقه.

وعلى العكس، إن الشخص الذي يجب نبذه هو الصحفي غير المنصف الذي يسخر قلمه لخدمة أناس لاأخلاقيين، ويسعى إلى تلويث سمعة الآخرين عن طريق الحط من قدرهم "قانونياً" (من خلال الثغرات القانونية) كي لايطاله القضاء. والشخص الذي يسعى للكشف عن فضيحة أو حيلة فيها يكون أناس متواضعون وعاجزون أهدافاً لنوع من الخداع أو الغش هو الذي يجب أن يحظى بالاستحسان. ومن يكشف حالات من الفساد الحكومي في أي مستوى هو الذي يجب أن يكافأ. ومن يكذب أو يُضبَط متلبساً بتزوير الحقائق بهدف الكسب الشخصي لإشباع شهوات أحزاب الأقلية يجب أن يعاقب. ويجب أن يعاقب أيضاً من يسيء قصداً باستخفاف، أو بصورة غير مناسبة، أو ساخرة، أو مؤذية لشرف الناس أو كرامتهم. فالصحافة العالية المستوى يمكن أن تكون قوة مقتدرة لنشر المبادىء الأخلاقية في بلد ما، أما الصُّحَيْفات المبتذلة فتلوث أرواح الناس وتحط من قدرهم. والصحفي الذي يستخدم الكلمة المكتوبة بطريقة لاأخلاقية، ويستخدم لغة فظة أو مبتذلة لنشر الأكاذيب، أو الهجوم على سمعة الآخرين، يقترف خطأ فادحاً، خطأ إن لم تعاقبه عليه العدالة الاجتماعية، فإن عدالة الطبيعة هي التي ستعاقبه عليه، والتي لاشك في أنها ستكافىء الصحفي الشجاع المخلص الذي يقاتل بإخلاص في سبيل الحقيقية. يجب أن ندرك أن عدالة الطبيعة هي من النوع الهرمي المُمَيِّز، أي، أن الغلطة نفسها يمكن أن تستحق درجات مختلفة الحجم من العقاب، اعتماداً على صفات المخطىء والسلطة الاجتماعية التي استخدمها عند ارتكابه للإثم، وهي وحدها المنطقية والمعقولة. فعلى سبيل المثال، من المؤكد تقريباً أن عقوبة الشخص الجاهل ستكون بسيطة، في حين يتلقى المهني عقوبة أشد بكثير.

ولهذا السبب، ركزت على أعضاء البرلمان، والقضاة، والصحفيين، وموظفي الحكومة، بهدف التشديد على حقيقة أن هؤلاء الناس أذا أصبحوا فاسدين، فإن إساءتهم تكون أكثر فظاعة بما لايقاس من إساءة يرتكبها مواطن عادي بسبب أصدائه الاجتماعية. ولهذا السبب، هناك ضرورة ملحة للقيام، كما ينبعي، بمراقبة السلوك الأخلاقي لهؤلاء المواطنين البارزين. فعلى سبيل المثال، إذا سَكِر خياط مرة، فإن أسوأ ما يمكن أن يحدث هي أن الملابس التي يخيطها ستكون رديئة، أما إذا سّكِر رجل الدولة، فإن النتائج ستكون، في الحقيقة، خطيرة جداً.

النظام المالي

العملة شكل جديد للعبودية ويمكن تمييزها عن الشكل القديم فقط بحقيقة كونها موضوعية، بالقدر الذي فيه لاتوجد علاقات إنسانية بين السيد والعبد.

ليو تولستوي

لأن محبة المال أصل لكل الشرور ...

ثيموساوُس 6 : 10

لاتأخذ منه رباً ولا مرابحة بل اخش إلهك فيعيش أخوك معك❖ فضتَك لاتعطه بالربا وطعامَك لاتعطِ بالمرابحة❖

لاويين 25 : 36، 37

الأخلاقية التي ندافع عنها في هذا الكتاب هي الأخلاقية التي تنسجم مع الطبيعة. وربما لانجد في دنيا الاقتصاد شيئاً منافياً للطبيعة كالنظام المالي. فحقيقة أن النقد، الذي تتمثل وظيفته الأساسية بكونه كوسيط للتبادل، ويجب أن ينتج مزيداً من النقد ليست زائفة فقط، بل هي في الواقع، منافية للعقل. والوظيفة الإنتاجية للثروة بالمعنى الشائع موجودة في الطبيعة نفسها، التي من رحمها تنشأ كافة السلع عندما يلقحها الجهد الإنساني في الوقت المناسب. فذلك الحقل ينبغي أن ينتج الحبوب، وذلك المصنع يجب أن ينتج حاجات مختلفة ضمن

طبيعة الأشياء، ولكن أن يقوم مصرف بفبركة المال من لاشيء ويفرض فائدة عليه، فإن هذا مجاف تماماً للمنطق. ومنافية للطبيعة أيضاً تلك المصارف التي يتم إنشاؤها دون أية مساعدة حقيقية أو برأسمال ضئيل، لتصبح في النهاية ما لكة لكل شيء.

قبل قرنين، تنبأ البارون فون روتشيلد، الذي كان يمول حملات نابوليون، بأنه لو أُعطي المال، لما اهتم كثيراً بمن يحكم العالم. هذا لأن المال لم يعد مجرد تقليد، بل أصبح مصدراً للثروة والسلطة دون منازع، بفضل خاصية الإنتاج الذاتي التي اكتشفها أصحاب المصارف. "الثروة موجودة في المصارف،" فكرة تعودنا على قبولها باعتبارها حقيقة طبيعية وأن هذه المصارف هي المؤسسات المناسبة لحراسة أموالنا وتفرض علينا فائدة لقاء قيامها بذلك. ويبدو كما لو أن النظام الاقتصادي لايؤدي وظيفته دون مصارف، وأنه كان مجبراً على إيجاد توازنه من خلالها، وذلك بدلاً من أن يحملها إلى محور نموها الطبيعي في الخلق الحقيقي للثروة من خلال العمل البشري. والمؤسسة، كمصرف، والتي كانت وظيفتها الأصلية هي الوصاية على أموال الآخرين، راحت تمد مجساتها عن طريق كل شيء مناسب تبلغه تلك المجسات. فتقع بين يديها السلع، والصناعات، والحقول، والبلد بكامله دون أن يتمكن أحد من ملاحظة حقيقة مرعبة كهذه الحقيقة.

والطريقة التي يعمل فيها المصرف بسيطة جداً من حيث الظاهر، ولكنها، في الواقع، في غاية التعقيد، لأنها، فيما يبدو، تنطوي على نوع من سحر شيطاني. هذا لأن تكوين الثروة، والسلطة، والسيطرة ببساطة كبيرة مسألة مروعة، على الأقل، بالنسبة لشخص لايمكنه أن يعتمد على غير طاقته للعمل في سبيل كسب رزقه الذي يساعده على البقاء. إن سوء الظن بالنقد-الهدف الذي يعمل المصرف من أجله والذي يتكاثر بسهولة كبيرة، قديم قِدَم النقد نفسه. فقد صرح سوفوكليس[1] بأن المال هو أسوأ الشرور على سطح الأرض، وهو المفسد والمغوي للذكاء الفطري، والمغذي أيضاً لعادة الخداع.

وأشار أرسطو إلى الربا بوصفه تشويشاً للاقتصاد السياسي وبشاعة فائقة لأنه يحاول أن يجعل شيئاً تقليدياً كالنقد يولّد مزيداً من النقد، وبالتالي يحاكي العمل الإنتاجي للطبيعة، ويحل، في الوقت نفسه، محل العمل البشري. تلك هي البشاعة الفائقة التي يمكن

1-(496؟-406 ق.م)، مؤلف مسرحي أغريقي، يعتبر من أعظم المسرحيين التراجيديين في الأدب اليوناني القديم-المترجم.

فهمها لأنها تحوّل الوسيلة إلى غاية، مما يؤدي إلى ملكية لاحدود لها. لقد أدرك ذلك الفيلسوف الإغريقي الكبير منذ القدم ما كان سيصبح واحدة من أكبر الكوارث المستقبلية: عبودية الإنسان لرأس المال الرِّباوي مع فقر متنكر بقناع الوفرة.

وكما نعرف اليوم، فإن هذا التكاثر المنافي للطبيعة للمال كان معروفاً في العصور القديمة على شكل فائدة تترتب على المقترضين، وأصبحت اليوم تترتب عن طريق القروض المصرفية، وهي الآلية الأساسية التي سندرسها فيما يلي. فعندما يمنح المصرف قرضاً، فإنه يكوّن مزيداً من المال فقط عن طريق تسجيله في حساباته.

يقدم المصرف قرضاً على أساس مضاعفة رأسماله، ومدخراته، وهكذا فإنه يقرض ما لا يملكه. وعندئذٍ، يصبح التعهد بالدفع قابلاً للتحويل، ومنذئذٍ، يكون نقداً ورقياً مجرداً زائفاً، مع أنه قانوني طبعاً. وعندما يدفع الزبون القرض، أي، عندما يُشطَب القرض مع فائدته المستحقة، فإن المصرف يتلف النقد. وقد بيَّن فريدريك سودي، الذي حصل على جائزة نوبل عام 1921، أن "السمة المضادة للمجتمع الأكثر شؤماً للعملة الورقية هي أن هذه العملة غير موجودة. فالمصارف تدين للشعب بكمية من العملة غير موجودة. وعن طريق البيع والشراء بالحوالات المصرفية، يحدث تغيير فقط باسم الشخص الذي يدين له المصرف بالمال. وفي حين يكون حساب أحد الزبائن مديناً، فإن حساب زبون آخر يكون دائناً، ويمكن للمصارف أن تواصل هذه المديونية إلى ما لا نهاية."

إن الوعد بالدفع لقاء قيمة المعدن الثمين المودع كان ابتكره صائغ عجوز من جمعية الحرفيين لرجل أودع عنده ذهباً لكي يُحفَظ في خزائنه. وسرعان ما أدرك الصاغة أن الناس الذين أودعوا الذهب يسحبون فقط نسبة 10٪ تقريباً، ولذلك بدؤوا يتداولون مزيداً من الكمبيالات مقابل الـ 90٪ من الذهب الذي لم يتم سحبه ويفرضون فوائد على هذه التعهدات. وبمعنى آخر، إنهم يقرضون مالاً ليس لهم ويستفيدون منه، وكثيراً ما يتم ذلك بطريقة ماكرة. ومنذ تلك اللحظة، أصبح الصائغ مصرفياً واستبدل النقد المعدني بعملة ورقية.

إن تعميم نظام كهذا يخلق النقد ويتلفه بريحه الخاص، ليصبح الربح وحده الغاية والهدف، يمكن أن يؤدي فقط إلى تشويه دائم للاقتصاد الحقيقي. ولا يهم ما إذا كان في العالم ما يكفي من مواد أولية، أو قوة بشرية مؤهلة، أو تكنولوجيا، أو وسائل نقل مناسبة؛ فإذا كان الناس لايملكون المال لشرائها، فإن الفقر والنقص سينتشران حتماً. وإذا كان

هناك الكثير من المال قيد التداول، فإن النقد يفقد قيمته وترتفع أسعار السلع إلى حد مفرط حتى أن الأكثرية الساحقة من المواطنين تجد الدفع مستحيلاً. ويقال إن هناك تضخماً إذا كان هناك نقد متداول أكثر من السلع المعروضة وانكماشاً إذا كان هناك سلع أكثر من النقد.

يتكون النقد الموجود في السوق كله، أي المعروض النقدي (الذي يدعى M1)، من إجمالي النقد الموجود في أيدي الجمهور، إضافة إلى الأرصدة التي يضعها الناس في حساباتهم المصرفية من أجل المعاملات التجارية (حسابات جارية، حسابات مالية، إلخ). ولكن النقد الموجود في التداول هو مجرد جزء بسيط من المخزون المالي، الذي فيه تتكون الأموال الخاصة عن طريق زيادة القروض المصرفية أكثر فأكثر من خلال وسائل الاعتماد الأكثر تعقيداً، كبطاقات الاعتماد. إن كافة المعاملات التجارية المرتبطة بالعملة الورقية تتوسع أو تتقلص تبعاً للقروض الممنوحة من قبل المصارف، ولكن يجب الا ننسى أن القرض ليس نقداً حقيقياً. فعندما نأخذ قرضاً مصرفياً، فإننا نميل إلى الظن بأن المصرف يقرضنا مالاً يملكه زبون آخر، ولهذا يتوجب علينا منطقياً أن ندفع فائدته. لاشيء أبعد من هذا عن الواقع؛ فحتى القرض الذي نأخذه من المصرف ليس أوراقاً نقدية، وهو، على الرغم من أنه غير قابل للتحويل إلى ذهب، فإنه، على الأقل، يحمل تظهير المصرف الذي منحه. ولكن الواقع غير ذلك، لأن ما يقرضه المصرف هو مجرد تعهد بالدفع يزيد رصيد حسابنا وينقص هذا الرصيد إذا وقعنا إشعارات مصرفية (تتعهد أيضاً بالدفع) على هذا الحساب لأناس آخرين الذين، بدورهم، يزداد رصيدهم بهذه التعهدات عند إيداعها في أرصدتهم الشخصية. وهكذا نرى أن هذه العملة النظرية تتزايد ببساطة على شكل قيد في الحسابات ويكون وجودها وهمياً عندما تنتقل بين رصيد دائن ورصيد مدين في دفاتر حسابات المصارف.

ولكن، ما دام المقترض ضامناً للقرض بسلعه المادية، التي يمكن أن تُصادَر في حال عجزه عن الوفاء بتعهده بإعادة المبلغ مع فوائده، فإن هذا التعهد بالدفع، في الواقع، لايكفله المصرف، لأن المصرف لايمكنه أبداً أن يستخدم ودائع زبائنه على شكل كفالات. وهذا واقعي تماماً لأنه إذا انهار المصرف، فإن المصرف المركزي أو المصرف الحكومي هو الذي يهب للمساعدة لإنقاذ الودائع. وكأننا نقول، في التحليل النهائي، إن المواطنين أنفسهم هم الذين، في نهاية الأمر، يحمون المصارف من الإفلاس، وذلك عن طريق الضرائب التي يدفعونها.

لاشك في أن أموال الحسابات المصرفية هذه تعمل على إنعاش الاقتصاد، ولكن السلع والخدمات التي تنتج عنها موسومة منذ البدء بكلفة الفائدة المصرفية. ويجب أن نضع في اعتبارنا أن كل المال الذي يكوّنه القرض بفائدة إنما يتكون كديْن وهو، بحد ذاته، غير قابل للدفع، لأن القرض إذا كوَّن مالاً وطرحه في السوق، فإنه سوف يتلف عند تسديده. هذا يعني ببساطة أن القرض المصرفي لايمكن دفعه لأنه لو حاول كل واحد أن يفعل ذلك في اللحظة نفسها، فإن كمية النقد المتوفرة لن تكفي.

ليست المسألة مسألة الإثراء من خلال المراباة، بل مسألة النظام المعقد لتحويل قيد الفائدة القانونية إلى نقد بواسطة كمبيالات تعهدية غير ثابتة، لأن المصرف لايمتلك ضمانات للوفاء بهذه التعهدات. ولا شك في أن المراباة كانت منذ القدم تعتبر ضلالاً وتم تحريمها في العالمين المسيحي والإسلامي. وكان المرابي يُنبَذ أو يتعرض لعقوبات قاسية جدا كالأرقاء أو يعاقب بالموت، حتى منذ عصر قسطنطين[1].

وأصدر العديد من البابوات، كالبابا بيوس الخامس[2]، أوامر ومراسيم ضد المراباة. وأصدر البابا بنيديكت الرابع عشر[3] تحذيراً عاماً ضد خطيئة المراباة بيَّن فيه أن هذه الخطيئة لايمكن غفرانها بحجة أن الربح ليس كبيراً ولا باهظاً ولكنه معتدل وبسيط، ولا بحقيقة أن المقترض غني. فإذا تقاضى أحدهم فائدة، فإنه يجب أن يعيدها عملاً بمبدأ العدالة التي تضمن بوظيفتها في العقود البشرية العدالة للجميع. والمراباة اليوم جريمة جزائية يعاقب بسببها القانون من يتقاضون فائدة غير قانونية على القرض. ولكن إذا كان تقاضي أية فائدة ممنوعاً، فإن هذا يعني منطقياً أن أية فائدة مفروضة هي مراباة.

مع ذلك، تُعرِّف بعض المعاجم المراباة أولاً على أنها "فائدة مفروضة لقاء مال أو سلع في عقد أو قرض تبادلي."

ولكن، مع انهيار الملكيات المطلقة وولادة الدول الليبرالية، أصبح تقاضي الفائدة على أموال القروض مشروعاً؛ ويبرر الليبراليون هذا الإجراء بالإشارة إلى أنه لايمكن الحكم على العمل الاقتصادي بمعايير غير اقتصادية، أي، معايير غريبة بالنسبة لهذا العمل نفسه، الذي

1-لعل المقصود هنا قسطنطين الأول أو الكبير الأمبراطور الروماني (306-337 م)-المترجم.

2-بابا روما (1566-1572)-المترجم.

3-بابا روما (1740-1768)-المترجم

هو، في حالة تحريم المراباة، معيار أخلاقي بالتأكيد. والليبرالي الذي يفكر في هذه النقطة، كما في نقاط أخرى، يحاول أن يصور بالتفصيل النطاق المستقل للاقتصاد، منفصلاً عن أي نظام بشري آخر، بالطريقة نفسها التي صاغ مكيافلّي نظريته "داعي المصلحة العليا" قبل قرون ليرسخ استقلالية الممارسة السياسية، وهي الغاية التي تبرر، في حد ذاتها، استخدام أية وسيلة، لكي لايلهي الأمير أي قرار أخلاقي أو ديني عن واجبه الرئيسي تجاه الدولة، التي يجب تقويتها وتوسيعها.

يتساءل المرء حول ما إذا كانت هذه المنهجية للأنظمة، التي تحاول أن تعزل الموضوع عن بحثه وتمارس "التحريفات" التي يمكن أن تشوه مقاربته (محاكمات القيم، كالمحاكمات العقلية) والتي تعني خطوة مهمة إلى الأمام في سبيل علوم كالفيزياء، هي أيضاً مناسبة لأنظمة كالأنظمة الاقتصادية والسياسية، التي لايمكن أن يكون غرضها الأخلاقي إلا في خدمة الإنسان وليس العكس أبداً. ولكن حقيقة أن تقاضي الفائدة مجاز اليوم في معظم البلدان لاتجعله مباركاً أو مرغوبا لمجرد أن القانون يجيزه. فلا يمكن، من الناحية الأخلاقية ومن وجهة النظر التي سرنا عليها في هذا الكتاب، أن يكون طبيعياً ولا ملائماً أن تعيد الأموال المرتقبة إنتاجَ نفسها، وبالتالي، تُرَتِّب، بصورة منهجية، ديناً على المجتمع بكامله، وكما قلت آنفاً، فإنه يستحيل أن يدفع المرء مقابل مبررات مفترضة.

والمشكلة الأكثر خطورة في هذا النظام المالي لايمكن، بأية حال، أن تكون كامنة في تقاضي الفائدة، ما دامت معتدلة وما دام القرض من الأموال التي تخص المصرف بدلاً من التعهد بالدفع دون أية ضمانة مهما كانت، وعلى الأصح، إن هذه المشكلة تكمن في إمكانية أن يبتدع نقداً زائفاً، وإن يكن قانونياً، ويتقاضى فائدة عليه. علاوة على ذلك، ودون الخوض في الآليات المفرطة التعقيد للهندسة المالية، يمكن للمصرف أن يستخدم هذه الهندسة لمضاعفة أرباحه دون حدود تقريباً. فقد قام بعض الخبراء بحساب الأرباح الحقيقية لمصرف ما، واكتشفوا أنها تصل إلى 16.200٪، وذلك باستخدام المثال التالي لمعاملة تجارية نموذجية:

(أ)بـ 100 وحدة نقدية تعود لطرف ثالث، تم فتح قرض لـ 900 وحدة.

(ب)تدفع هذه الـ 900 وحدة فائدة 9٪، مما يعني مردوداً صافياً مقداره 81 وحدة بعد سنة واحدة.

(ج) يعطي المصرف للشخص المُودع فائدة مقدراها 0.5٪، وتختلف حسب المدة، مما يعني أن الـ 100 وحدة هذه، التي تكلف المصرف 0.5٪ وحدة سنوياً، جعلته يربح 81 خلال الفترة نفسها.

(د) وبإجراء عملية حسابية مماثلة (81 : 0.5) نحصل على مبلغ 16200.

أنا، شخصياً، لاأريد أن أعلق على النسبة أعلاه. ولكن، على سبيل تقديم معلومات مشابهة، سأقدم مثالاً لحالة مصرف في أحد بلدان أمريكا اللاتينية يعتبر اليوم نموذجاً اقتصادياً. فالمصارف، في ذلك البلد، مرخَّص لها من قبل المصرف المركزي بأن تقرض حتى 20٪ من راسمالها الخاص، مما يعني أن المصرف يمكن أن يقرض حتى 20 مقابل الوحدة النقدية التي يساهم بها المساهمون في المصرف. ولا شك في أن هذا عمل تجاري مربح، وخصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار نقص التمويل الحقيقي للقرض بالعملة الورقية. وسأمضي إلى أبعد من ذلك، وافترض أن ميكانيكا القرض يجب أن تكون متشابهة في جميع البلدان.

وفي كل الأحوال، من الضروري تخفيض نسب الفائدة إلى حد كبير لكي لاتبقى معاملة الدين غير متناسبة ومضادة للطبيعة، رغم أن معدل فوائد الصناعة العالمية سخيف بشكل واضح. ولهذا، فإن الشر الحقيقي للنظام يكمن ليس فقط في معدل الفائدة المفروضة بل أيضاً في الآلية المعقدة لخلق النقد الحقيقي اللازم لفرض الفائدة. وهذا ما دفع السير جوسيا ستامب، رئيس مصرف انكلترا، إلى أن يعلن عام 1920 أن المصارف حُبلى بالظلم ومولودة في الخطيئة ومادام يُسمَح لها بخلق النقد من خلال القروض، فإنها سوف تستولي على الأرض ويتحول جميع الناس إلى عبيد. لقد كان السير جوسيا ستامب يعرف تماماً ما يقول. ففي ضوء السلطة التي تتمتع بها المصارف، لايجد المرء صعوبة في تقدير التأثير الذي يمارسه الخَلق الزائف للنقد على اقتصاد كوكبنا. ومما لاشك فيه أن المصارف في بلد ما يجب أن تخضع لأنظمة المصرف المركزي في ذلك البلد. وهناك مجموعة من الالتزامات المترتبة على المصارف التجارية تتراوح من الاحتفاظ بـ كوتا (حصة) احتياطية نقداً إلى الالتزام النهائي بالمساهمة الضرورية للدولة لتمويل احتياجاتها. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه المجموعة الكاملة من الالتزامات لاتضعف العمل الخرافي ولا تمنع التشويهات التضخمية والانكماشية التي تحدث في السوق عن طريق خلق هذا النقد الزائف وسحبه.

وعلى الرغم من حقيقة أن النظرية الاقتصادية التقليدية إلى حد ما تحاول تخفيف هذا التأثير، فإن هناك تياراً آخر للتفكير فيه يلتقي علماء الاقتصاد من مختلف الميول

الآيديوليجية، ويعتبر أساساً أن جميع الدورات زائفة، وأن الأزمات الاقتصادية لاتعدو كونها مجرد أزمات اصطناعية يسببها نظام القروض ذاته، الذي يستغل آلياته لغرض وحيد هو تحقيق الربح دون اعتبار للمبادىء الخلقية. ويشير بيوس الحادي عشر[1] في منشوره الموسوعي Quandragesino anno إلى النظام المالي الذي يركز الثروة والسلطة، أكثر فأكثر، في أيد قليلة، فيقول:

تصبح سلطته طغيانية لاكابة سلطة أخرى، عندما يتحكم أرباب المال المطلقون بإقراضه وتوزيعه حسب أذواقهم الخاصة؛ ويمكن القول إنهم يتحكمون بالدم الذي به يزدهر كامل الاقتصاد، وإذا جاز التعبير، إنهم يمسكون بأيديهم روح الحياة الاقتصادية وما من أحد يمكنه أن يتنفس ضد إرادتهم.

والآن، عندما يقوم هذا النظام المالي فجأة بسحب النقد من السوق تماماً في الوقت الذي يكون المجتمع بحاجة ملحة له، وعندما "يمص الدم" الذي يغذي الهيكل الاقتصادي، على حد قول بيوس الحادي عشر، فإن هذا يسبب أزمات كبيرة كازمة عام 1929. إن تلك الأزمة الاقتصادية الكبيرة، التي سببت الدمار واليأس لملايين الناس، أثبتت أنها مثال للنتائج الحتمية لممارسات المذهب الليبرالي. فقد أُطلِق، على سبيل الخداع، اسم حرية على مبدأ دعه يعمل[2] الذي كان يقتضي نظافة السوق، وهو شيء ما كان ليحدث بسبب وجود الاحتكارات وعوامل أخرى تعمل دائماً على تشويه الأسعار نتيجة للعبة العرض والطلب، ولكنه، في الواقع، لم يكن أكثر من مناورة. والحقيقة هي أن تركيز الأموال خلال تلك السنوات في اتحادات احتكارية (تروستات) وشركات مهيمنة والتركيز المالي في اتحادات للمنتجين (كارتلات)، تفرض أسعارها على السوق، سبب سيطرة مطلقة للمصرف على الشركات والمؤسسات الصناعية المساهمة-سيطرة كانت تسهل المناورة في الحياة الاقتصادية من خلال هذه الأزمات الزائفة.

بعد انهيار عام 1929، سيطرت جميع الدول على السياسة المالية والاقتصادية في مسائل النفقات العامة. هذا ما جرى في البرنامج الجديد[3] في الولايات المتحدة الأمريكية الذي

1-بابا روما (1922-1939)-المترجم.

2-سياسة عدم التدخل، أي أن الدولة يجب الا تتدخل في الأمور الاقتصادية إلا لحفظ الأمن والملكية الفردية-المترجم.

3-برنامج تشريعي وإداري وضعه الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت بغية الإصلاح الاقتصادي والإنعاش الاجتماعي في غضون العقد الرابع من القرن الماضي-المترجم.

يتماشى، في المعنى العام، مع مبادىء عالم الاقتصاد الانكليزي جون م. كينز[1]. ولكن هذه الإجراءات لم تمنع من حدوث أزمات جديدة، وإن لم تكن بمدى أزمة 1929. وإذا استمر حدوث هذه الأزمات، بإيقاع معين، كتلك التي تحدث اليوم في بعض البلدان وبعدئذٍ في بلدان أخرى، فإنه يجب أن نرتاب بصورة جدية بصحة الأسباب المالية لحدوث الكساد والتضخم التي دافع عنها أولئك العلماء الاقتصاديون.

لم يكن هناك في عام 1929 ما ينبىء بحدوث كساد اقتصادي في الولايات المتحدة الأمريكية. كان البلد ينتج، فأهراء القمح ممتلئة، والمصانع تعمل بأقصى طاقتها، وكان مستوى التوظيف مقبولاً، ووسائل الاتصال تتحسن بدرجة ملحوظة منذ بداية القرن، والمستودعات الحكومية تحتوي على سلع كافية لسد احتياجات السكان. وكان يبدو وكأن الناس لايحتاجون شيئاً سوى المال. وفجأة، وبينما كانت عجلة الاقتصاد الأمريكي تدور بصورة طبيعية، تم بفظاظة سحب عدة ملايين من الدولارات من التداول، بسبب إلغاء قروض مصرفية كانت قد مُنِحَت لمضاربين. وفجأة أيضاً، تعطل كل شيء. فدون المال، الذي هو دم الاقتصاد، لايمكن لأحد أن يشتري أو يستثمر. فأفلست آلاف الصناعات، وتعفنت السلع القابلة للفساد في المستودعات-ولكن الأزمة لم تؤثر على المصرف، الذي جمع في النهاية قروضه عن طريق إجراء حظر تجاري مماثل على السلع التي كانت قد ضمنت تسديد القروض، ليبيعها فيما بعد بأسعار أعلى غير محدودة[2] عندما أُعيدَ الاقتصاد إلى الحياة عن طريق منح قروض جديدة.

فما أعجب هذا النظام المالي الذي يحقق الارباح نفسها أو أكثر منها في الأزمات وفي الازدهار، على حد سواء! فإذا مني الاقتصاد بالإخفاق، فمن الطبيعي أن تكون النتائج واحدة بالنسبة للجميع. ولكن، على ضوء ما سبق، لايمكن أن نستغرب شيئاً، لأنه إذا كان المصرف هو الذي يسبب الأزمة، فمن المنطقي أن يخرج منها أكثر قوة. نتحدث هنا عن أموال وهمية وأزمات اقتصادية زائفة، عن نظام مالي يعمل في الواقع، كمصاص دم ، على تنويم الهيكل الاقتصادي وتكييفه عن طريق امتصاصه لكامل الطاقة. ويبيّن ف. سودي، الذي

---

1 -جون ماينارد كينز (1883-1946): نادى بضرورة توسع الدولة في الإنفاق على المشاريع العامة للقضاء على البطالة-المترجم.

2-المصرف هنا يشبه أفعى "الأناكُنْدَة" الجنوبامريكية الضخمة التي تبتلع فريستها بعد أن تهصر عظامها هصراً-المترجم.

تحدثت عنه سابقاً، أن المصرفيين الذين نجحوا في جعلنا جميعاً من مدينيهم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عن طريق الفخ الذي درسناه هنا، والذي لايلاحظه الجمهور، كما يبدو، بصورة واعية، سوف يواصلون، إلى الأبد، ما سماه ج. بوتشاكا "نهب البلدان."

يصعب التصديق أن هناك في العالم مثل هذه اللصوصية وأن الناس لايدركونها أو أن الحكومات لاتفعل شيئا في بلدانها لمعالجة هذه المسائل. ولكن لو ألقينا نظرة على ديون الحكومات والفوائد السنوية التي يجب أن تدفعها، لأدركنا أنها، كضحايا لهذا النظام، بالكاد تدرك تماماً الوضع الذي هي فيه. فقد وصلت مديونية الولايات المتحدة، عام 1995، إلى 4.9 ترليون [1] دولار ووصلت تكاليف الفائدة على الدين القومي عام 1992 إلى 292 بليون[2] دولار. وفي عام 1995، كان كل طفل أمريكي يولد مديوناً بـ 18631 دولاراً. فإذا كان البلد الأكثر قوة على سطح الأرض يدين بمثل هذه الكمية من المال، ألا يحق للمرء أن يتساءل أين تكمن قوته إذاً؟ أو، بمعنى أكثر وضوحاً، ألن نجافي المنطق إذا اعتقدنا أن القوي فعلاً هو الدائن؟ إذا كان دين البلدان الضعيفة أدنى من ناحية الكم، فإنه لايقل خطراً-على العكس تماماً، إن حالتها تابعة للنظام المالي العالمي. ولا يمكن، من الناحية التقنية، تفادي هذه التبعية إلى الحد الذي معه، كما قلنا آنفاً، يستحيل دفع إجمالي الدين بسبب عدم وجود كمية كافية من النقد الحقيقي لتسديد العملة الورقية التي تكونت من لاشيء. وربما يكون هذا ما تريده المصارف، إما للمحافظة إلى ما لا نهاية على حالة التبعية أو لكي تستولي على السلع الحقيقية الموضوعة كضمانة لسداد القروض. وقد تنامت قوة النظام المالي العالمي إلى درجة فقدت معها الحكومات قدرتها على السيطرة على النقد، ربما نتيجة لتنحية السياسيين من مناصب حكومية مهمة بالنسبة للمسائل الاقتصادية.

هناك معركة طويلة الأمد بين السياسيين والنفعية (في هذه الحالة ينبغي أن نتحدث عن الاقتصاد)، يعود تاريخها إلى الثورة الصناعية. فإذا بدأنا بـ سان سيمون[3]، الذي أعلن أن "حكومة البشر" يجب أن تفسح المجال لـ "سلطة الأشياء،" نجد أن السياسيين فقدوا تدريجياً مهمتهم الرومانسية المثالية ليفسحوا المجال لأشكال مختلفة من التكنوقراطية التي استبدلت

---

1 -الترليون: يتألف من 1 وإلى يمينه 12 صفراً في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا او 18 صفراً في بريطانيا وألمانيا-المترجم.

2 -البليون: ألف مليون في فرنسة والولايات المتحدة ومليون مليون في انكلترة وألمانيا-المترجم.

3-فيلسوف اشتراكي فرنسي (1760-1825)، دعا إلى إلغاء السلطة السياسية-المترجم.

تدريجياً أي وعي سياسي بـ "المهارة،" أو، بتعبير آخر، الآيديولوجية إزاء التقنية. ومنذ ذلك الحين، حاولت التكنوقراطية، بأشكالها المختلفة، أن تشوه السياسة، وبصورة ما كانت أحياناً عادلة تماماً. ووفقاً لفرضية ج. برهان، فإن "خبراء وسائل الاتصال" (التقنيين ورجال الإدارة) سوف يستبدلون في النهاية" الخبراء في الأهداف (رجال السياسة والآيديولوجيا)، الذين تصبح فائدتهم موضع شك في المجتمعات الصناعية المعقدة. وفي السياق نفسه، قام دانيال بلّ بتبسيط وإبراز الفرضية المعروفة "نهاية الآيديولوجيات"، فقد اعتبر أن الآيديولوجيات أصبحت شيئاً من الماضي، لأن "التفكير" الحالي متفق في كافة أنحاء العالم الغربي حول معظم الجوانب السياسية. ويشدد كثير من المنظّرين السياسيين، ومنهم ريموند آرون، على اضمحلال الآيديولوجيات المتطرفة، أو، كما يرى كويستلر، على عقم في محتوى التناقض بين اليمين واليسار؛ أو أن الجوانب التقنية، كما يرى عالم الاقتصاد جلبرت، ستتغلب في النهاية أكثر فأكثر على الجوانب السياسية، حتى أن الأحزاب السياسية التي يحارب بعضها بعضاً تبنت الأهداف الآيديولوجية نفسها. لقد تم تصميم هذه الآيديولوجيا "التكنوقراطية" كلها لإزاحة رجل السياسة من مواقع اتخاذ القرار، وخصوصاً في مجال الاقتصاد. ويبدو واضحاً أن هؤلاء الخبراء التقنيين، الذين ليسوا أكثر من وكلاء للشؤون المالية الدولية، أزاحوا السياسيين من المناصب المهمة في الميادين الاقتصادية عند مختلف الحكومات، من الموقع نفسه حيث تُصنَع القرارات المهمة-القرارات التي تتراوح من تخفيض قيمة العملة، إلى تثبيت الفائدة المصرفية المضافة أو خصخصة الشركات الحكومية التي تباع بأقل من قيمتها إلى الأقوياء، وهكذا تبدد الجهد الجماعي الذي وُظّف لتكوينها.

يمكن القول إن أعظم نصر تكنوقراطي عظيم تحقق في 21 كانون الأول عام 1913، عندما أقر الكونغرس الأمريكي بشكل سري، وكان كثير من أعضائه غائبين بسبب عيد الميلاد، قانون الاحتياطي الفيدرالي، الذي سهّل تشكيل مجلس الاحتياطي الفيدرالي، وهي هيئة خاصة ذات مظهر حكومي تتولى احتكار إصدار النقد في البلاد، متجاوزين القاعدة الدستورية التي وضعها مؤسسو البلاد والتي تقول، "يتمتع الكونغرس بالسلطة ... لضرب العملة، [و] تنظيم قيمتها ... " وتم كل هذا بحجة أن المسائل المالية يجب أن تُترَك لـ "خبراء" مصرفيين، لأن السياسيين لايفهمون شيئاً بعلم الاقتصاد.

دفعت الأزمات الاقتصادية المتلاحقة، وآخرها أزمة 1907، إلى إنشاء مصرف مركزي كمُصْدِرٍ وحيد للأوراق النقدية، وهو حل كانت كل البلدان قد تبنته منذ نهاية القرن

التاسع عشر للتخلص من فوضى تعدد إصدارات العملة في بلدانها، وحل المشكلات التي يمكن أن تنشأ في السيولة بشكل نهائي. ففي الولايات المتحدة وحدها كان هناك 25000 مصرف وطني يُصدر العملة. ومن ثم، تقرر، عام 1913، التخلي عن فكرة المصرف المركزي الحكومي لأنه، بصرف النظر عن الحجة التكنوقراطية التي ذكرناها آنفاً، كان يُظَن أنها تتعارض مع النظام الفيدرالي، ومع شخصية الولايات، وأن بلاداً واسعة كالولايات المتحدة تجعلها فكرة غير فعالة. وبدلاً من مصرف مركزي، جرى، من بين أشياء أخرى، تشكيل الاحتياطي الفيدرالي لتفادي أزمات إضافية تحدث بسبب نقص السيولة، كالأزمة التي حدثت عام 1907. ولكن حسن النوايا عجز عن منع حدوث الكساد الكبير عام 1929، الذي تحدثنا عنه آنفاً. ومنذ ذلك الوقت، وكلما كانت الحكومة الفيدرالية تحتاج إلى أموال، إضافة إلى ما تحصل عليه من الضرائب، تلجأ إلى الاحتياطي الفيدرالي بطلب المال اللازم، حتى إذا ما حصلت على موافقة الكونغرس، أسرعت وزارة الخزانة إلى طبع الدولارات المطلوبة بسندات على الولايات المتحدة الأمريكية. توضع هذه السندات بتصرف الاحتياطي الفيدرالي الذي يدفع نفقات إصدار المال المطلوب ويقدمها إلى الحكومة. ونتيجة لهذا الإجراء، فإن الحكومة ترتب على الشعب مديونية لمجلس الاحتياطي الوطني بالمبلغ الذي اقترضته منه مع فوائده المستحقة والمتراكمة حتى يتم سداده.

ونتيجة لهذا النظام، فإن الشعب الأمريكي كان، عام 1976، مديناً لمجلس الاحتياطي الفيدرالي بأكثر من 400 بليون دولار، ويدفع فوائد ذلك المبلغ بما يصل إلى 2 بليون دولار شهرياً.

وكما قال الطيار الشهير تشارلز ليندبرغ[1]، إن إقرار قانون الاحتياطي الفيدرالي هو، في الحقيقة، الحكومة غير المنظورة للعالم. إن رجال الكونغرس الأمريكي الذين أقروا مثل هذا القانون الظالم لم يلقوا بالاً لنصيحة توماس جيفرسون[2] عندما تنبأ بأنه إذا سمح الأمريكيون يوماً ما للمصارف الخاصة بالتحكم بإصدار النقد، فإنهم، في النهاية، سوف يُجرَّدون من كل شيء، وسيستيقظ أطفالهم فلا يجدون بيوتاً لهم في القارة التي فتحها آباؤهم. فالدولار، الذي هو العملة المتداولة دون منازع في السوق العالمية، يُصدره اثنا عشر مصرفاً

1-(1902-1974)، هو أول من طار منفرداً عبر المحيط الأطلسي عام 1927-المترجم.

2-الرئيس الثالث للولايات المتحدة (1801-1809) يعتبر الواضع الرئيسي لوثيقة إعلان الاستقلال-المترجم.

موكلاً بهذه الوظيفة. وهكذا، فإن خيوط النظام المالي الأمريكي يحركها مجلس حكام جهاز الاحتياطي الفيدرالي، لأنهم يتحكمون بإدارة الشؤوون المالية العالمية.

لايمكن فعل الكثير لمواجهة هذا الوضع، والحقيقة هي أن الحكومات في مختلف البلدان لاتفعل شيئاً عملياً، لأن اقتصادياتها وعملتها المتداولة تتذبذب مع الإيقاع الذي تفرضه مصالح المصرف المركزي. ولا شك في أن دولة مستقلة رجال سياستها شرفاء ومستقلون عن كتلة المصالح الاقتصادية، يمكن أن تتغلب على هذا التأثير الفاجع، قبل كل شيء، لأن الدولة-الأمة هي العقبة الرئيسية في وجه القوة المالية العالمية التي تمارس سيطرة مطلقة.

صرح إدموند فون روتشيلد مرة بأن الهيكل الذي يجب أن يزول هو الأمة. فإذا انحل الوطن، والأمة، والدولة في نظام عالمي يبشر به المصرفي ج. ووربرغ، الذي كان متحداً مع آل روتشيلد وآل روكفلر، فإنه لن يبقى للمجتمع سوى أمل ضئيل في الدفاع عن نفسه ضد السلطة العالمية. وعلى امتداد خطوط القتال لدعاة التدخل الحكومي، دافعت الحكومات الأوربية جزئياً عن نفسها ضد هذا التأثير، ولكن، هل يستطيع الاتحاد الأوروبي، مع مزيد من توسيع السلطة السياسية واستقلال المصارف المركزية للحكومات، التي تعمل وفقاً لنموذج المصرف المركزي الألماني، أن يضمن البقية الباقية من الاستقلال؟ ألن يكون اليورو، وهو النقد الأوروبي المستقبلي، أداة أكثر كفاية لمزيد من تسهيل التحكم بالشؤون المالية في القارة القديمة؟

من الصعب، كما يبدو، ضبط العالم المالي من وجهة نظر دقيقة ومختلفة لتحقيق استقلال حقيقي، لأن الميل يبدو على النقيض تماماً. فما نوع الصعوبات التي يمكن أن تواجهها هذه السلطة المالية-التي تقرض ما لاتملكه وتفرض ثمناً له؛ والتي على ضآلة ما في اليد، تأخذ المال من لامكان؛ والتي تكونت عفوياً-في رشوة رجال الأعمال، والسياسيين، والنقابيين، ومعها أيضاً كل أنواع المؤسسات والشركات، عندما يكون اختصاصها، على وجه الدقة، هو سحب المال بسحر ساحر؟ كل هذه الأموال غير الموجودة تغزو السوق. ونحن نعيش بأموال تُستجَر من المستقبل عن طريق قروض طويلة الأمد، وعلينا أن ندفعها بجهد دائم على مدى الحياة. علينا أن ندفع رأس المال والفائدة، وعندما لايكفي هذا، فإن الحكومة تحدد ضريبة إضافية لدفع فوائد ديونها. وتنتهي هذه السياسة إلى فرض عبء شاق على وجود الأجيال المستقبلية التي يترتب عليها أن تكون قادرة على تسديد الاعتماد الذي نشأ عن الدين

الوطني في ذلك الوقت. هنا تكمن عبودية عصرنا، لأننا نولَد مدينين ونعمل لكي نتحرر على مدى أكثر من نصف حياتنا لكي ندفع الضرائب ونسدد القروض مع فائدتها المستحقة.

لقد وصلنا إلى مرحلة يصعب معها أن نتصور عالماً دون ائتمان، ومع ذلك، فإننا لاندرك أن الائتمان الحقيقي (المصداقية أو الثقة) يكمن في الثروة البشرية للمقترضين، وليس في المصرف-ذلك الكيان المفلس لأنه يقرض ما ليس له، ولكي يفعل ذلك، يغرق في دين يزيد عن رأسماله بعشرين ضعفاً. ويُعرَّف الائتمان، في هذه الحالة، بأنه مجرد تعهد بالدفع. فعلى سبيل المثال، صاحب شركة يقوم بتصنيع سلع أو بناء بيوت بأموال مُقتَرَضَة، ونحصل نحن على هذه السلع عن طريق وسيط، وبقرض أيضاً، يولّد، بسبب التكاليف المتتالية للفائدة، فرقاً غير متكافىء بين الكلفة الأصلية والأسعار النهائية لمبيعات التجزئة. فكل شيء يُنتَج، يحمل كلفة إضافية بسبب النظام المالي الذي لايمكن لأحد أن يفلت منه بسبب الاستلاب الفصامي الذي يعاني منه مجتمع استسلم لاستهلاك كل شيء بنهم مرضي.

أشرت من قبل إلى البحث المُلزِم عن اللذة باعتباره واحداً من الأسباب التي تُضعِف الإرادة. وبالطريقة المؤلمة نفسها، يُعتبَر المستهلك غير المشبعة حاجته نمطاً اجتماعياً مقولباً يلتهم كل شيء ينتجه النظام الاقتصادي. فما أن تقوم وسائل الإعلام بتقديم أي ناتج سخيف عديم الفائدة، حتى يصبح فوراً مرغوباً وأساسياً بالنسبة له، وذلك لتهدئة القلق الدائم الذي يعيش فيه. ولا شك في أن الدعاية الدُّووَعيية تحقق للكمال الهدف الذي يلاحقه، وهذا بالمعنى العام يعني، قبل كل شيء، أن الفرد لن يحقق أبداً إشباع رغبته تماماً في الاستهلاك، وهكذا يبقى هناك دائماً شيء مرغوب، وقرض متاح.

قال كونفوشيوس إن السعادة تتكون من رغبة المرء فيما يملكه الآن. ويبدو واضحاً طبعاً أن هدف النظام المالي الحاضر مناقض لهذا تماماً، لأنه يستخدم هذا التلهف عند المستهلك لاستعباده حتى الموت، واحتباله، على مدى حياته، بالأشراك القاسية للقروض المصرفية. أما وقد احتُبِل المجتمع الحالي بهذه الشبكة العنكبوتية للنظام المالي، فإنه يعاني من عاطفة نهمة طائشة حتى أن كل ما يحدث يشبه ما حدث لـ تنتالوس[1]، الذي كان يزداد عطشاً كلما شرب. فالمستهلك غير المشبع الحاجة يشتري المزيد والمزيد من الأشياء، مع أن ما يكمن خلفها ليس أكثر من وهم عقيم بزيادة احترام الذات بـ "التملك" لا بـ "الكيان." ومع أن

1-ملك ورد ذكره في الأسطورة الأغريقية-المترجم.

هواه يريكه، فإنه يواصل هذه العملية كالمقامر الذي يميل إلى تبديد ثروته في لعبة الروليت دون أن يدرك أنه يرهن كلياً مستقبله ومستقبل أسرته-دون أن يفهم أن مدى فراغه الداخلي لاتملؤه اللذة ولا استهلاك السلع المادية. وما دامت القضايا المالية العالمية لاتخدم المجتمع فعلاً، بل على العكس، فإن الأخلاق ستبقى في حالة تدعو إلى الرثاء.

الحسد

قال فرنشيسكو دو كوفيدو ان البلايا الأربع في العالم هي الحسد، والجحود، والغطرسة، والجشع. ويقول غونزالو فرياندیز دو لامورا في كتابه الحسد المساواتي ما يلي:

الحسد هو الضيق الذي يشعر به المرء من سعادة الآخرين ... وهو الرذيلة الوحيدة الخطيرة التي ما من أحد يعترف بها، في سبيل مناورة أفضل ضد الشخص المحسود ولخداع الذات، لأن الإنسان يدرك تلقائياً أن الحسد عاطفة خبيثة ...إنه شعور كل الأزمنة والأمكنة ... ومع انه مضاد للمجتمع، فإنه يمكن استخدامه كمادة ربط عند حاسد ضد المحسود. وهذا الترابط بين الحاسدين لايحدث تلقائياً بل يشجعه الغوغائيون، الذين يشددون على نقائص بعض الجماعات تجاه غيرها، فيصمونها بالظلم ويبشرون بيوطوبيا المساواة ... الحسد قذر بشكل مطلق، وهو سلبي بالنسبة للفرد النشيط وغير النشيط، على حد سواء، وخباثة صرف نظراً لعدم وجود أي مبرر يدفع إلى الحزن بسبب سعادة الآخرين والابتهاج بسوء طالعهم؛ وهو عاطفة منحرفة مجردة من أية إرادة طيبة ... الخباثة المطلقة للحسد هي الدافع الأدبي لمن يعاني منه لإخفائه حتى عن نفسه.

ويشير هذا المفكر إلى حقيقة أن الحسد هو الخطيئة الوحيدة الخطرة التي لايمكن الاعتراف بها، أي أن الفرد يحجبها ويخفيها إلى الأبد، وتعزى إلى حقيقة أن الحاسد يحتاج إلى أن يناور سراً ضد المحسود، لأن الاعتراف بالحسد يجعل أي تصرف يُتَّخذ ضد سببه غير مشروع من الناحية الاجتماعية.

والحسد، في نظر أفلاطون، هو الفرح لسوء طالع الآخرين، واعتبره خُلُقاً معادياً للمجتمع "لأنه يُضعِف المدينة." وهو، عند أرسطو، مرض الروح الذي يتظاهر كـ "حزن لحسن طالع الآخرين" و"ابتهاج لسوء طالع الآخرين،" وأن الحسد الذي يثيره كل شيء تقريباً هو الذي يسبب السعادة. ويبدو أن "من يتطلعون إلى الشهرة" هم أكثر ميلاً للحسد.

وصنَّف ميغيل دو أونامونو[1] هذه العاطفة كـ "مراضة نفسية،" و"مُوات داخلي،" و"بلاء شديد وسرطان رهيب" للروح الإنسانية. ويقول شوبنهاور[2]:

ما أقسى القلة على المرء عندما يفكر برفاه الآخرين وخيرهم ... لايمكن للناس أن يتحملوا التفكير بإنسان سعيد لأنهم يشعرون بالتعاسة ... أولئك الذين يحسدون المواهب الطبيعية أو التفوق الشخصي، كالجمال عند النساء أو النبوغ عند الرجال، لايجدون عزاء أو أملاً ولا يجدون بديلاً آخر سوى أن يكرهوا بشدة وعناد الشخص الذي يتمتع بهذه الملكات ... هذا الحسد المُوجَّه ضد الملكات الشخصية هو الأشد نهماً وخطراً لأن الحاسد مجرد من الأمل؛ والحاسد أيضاً أكثر تفاهة لأنه يمقت بشدة ما ينبغي أن يحبه ويحترمه ... يختبىء بحذر تام كآثم سري داعر، ولا يتعب من ابتكار الحيل، والمكائد لإخفاء نفسه وحجبها. إنه معلم الخداع. وعندما تواجهه ملكات لامعة تقضم روحه، فإنه يدعي بدماثة كبيرة بأنها غير مهمة ولذلك لم يلاحظها، ولا يكف عن التفكير بها ويتناساها أيضاً صدفة. وعلى العكس، فإنه ينشغل بالمكائد الشخصية لكي يتفادى، بعناية، أي تفوق مثبت أو معترف به في أي مجال. وفي الوقت نفسه، يحيطه بالظلمة، والإفراط في النقد، والسخرية، والافتراء، كالعلجوم[3] الذي ينفث سماً من جحره. ومع ذلك، نجده يمدح بحماس الناس التافهين أو المتوسطين. وما هو أكثر سوءاً أيضاً هو أن الحسد يعزز الحاجز بين الـ"أنت" والـ"أنا،" في حين يجعله التفهم والتعاطف رقيقاً وشفافاً، وعندما يبلغ المرء مرحلة النضج التام، يختفي التمييز بين الـ"أنا" والـ"لاأنا" ... وكلما كان المرء لامعاً أكثر، كان وحيداً أكثر.

يعترف الموجهون الأخلاقيون بأن الحسد داء عضال تقريباً. وأن "الرذيلة هي الوحيدة التي يمكن أن تُشهِر نفسها فقط لأنها تعاقب من يُبتَلَوْن بعذابها"؛ و"هو قديم قدم العالم"؛ و"أول خطيئة على الأرض"؛ وهو الذي "يسبب الخلط بين طبقات الناس وأحوالهم لأنه شامل"؛ وهو "معاد للمجتمع ويفكك التضامن والوحدة، ويبعد الحاسد عمن هم أسعد حالاً."

صرح بانتيو سبينوزا، الفيلسوف الهولندي من أصل أسباني، بأن الناس بطبيعتهم ميالون إلى الحسد، الذي هو صفة للطبيعة البشرية. "معظم الناس حاسدون ولا يتحملون بعضهم بعضاً ... يعارضون بعضهم بعضاً بمقدار ما يدفعهم الحسد أو شعور الكره ضد

1-كاتب وشاعر وفيلسوف إسباني يعد من رواد الفلسفة الوجودية (1864-1936)-المترجم.

2-آرثر شوبنهاور (1788-1860)، فيلسوف ألماني من اهم آثاره "العالم كإرادة وفكرة"-المترجم.

3-ضفدع الطين-المترجم.

بعضهم." ويضيف "من هم أكثر ميلاً للحسد هم المتكبرون، الذين يظهرون أكثر تفاهة ووضاعة."

الحسد أسوأ خطيئة وجدت لأنها الأكثر خطراً، واحتجاباً ونفاقاً، ومعاداة للمجتمع. إنها قوة خبيثة تعطل أي خير، وجمال، وانسجام، وفضيلة. وبسبب الطبيعة الماكرة للحسد، فإنه ما من أحد يَخبُر واعياً مكائد حسد الاخرين وتأثيره. والحاسد يستفيد دائماً من الأحابيل والمكائد الاستثنائية جداً لكي "يحسد دون أن يبدو عليه ذلك." ويحتال لكي يقاوم من يحسدهم أو ليحط من شأنهم، حتى أنه ما من أحد يدرك، في أي وقت، السرطان الأخلاقي الذي يستنزفه. فهو يحاول أن يشوه الذكي، والقيِّم، والمستقيم، والمبدع، والناجح، لأنه عن طريق "قطع" هذه الرؤوس، التي تجعله يشعر بضآلته، يشعر بأنه ازداد حجماً. إنه يكره من يظهرون ويبرر هذا الشعور الذي يستخدمه بصورة جيدة جداً لإثبات ذرائعه المعقولة ظاهرياً، أو تدمير من يتجرأ على إضعاف تجانس القطيع بتفوقه عليه-كل هذا شريطة ألا يدرك أحدهم المراضة التي تجتاحه. ويتيح له الإخفاء، والنفاق، والتمويه ارتداء قناع المحسن أو المدافع عن قضية جماعة ما. والحاسد عادة "قبر مُبيَّض" في الواقع، يتفسخ الحاسد داخله، مع أنه يُظهِر من الخارج منظراً رائعاً للطيبة الاجتماعية.

والحسد، في الوقت نفسه، مرض أخلاقي وعقلي، ورذيلة، وزلة أخلاقية. وهو لايُميَّز كمرض لأنه "مراضة لايريد أحد أن يراها،" وواحد من الاضطرابات يؤثر، إلى حد ما، على كامل النوع، ولذلك يمكن تمييزه فقط من قبل كائنات استثنائية، وهي، لسبب ما، بعيدة عن هذه العاطفة المنحرفة.

والنفاق أيضاً، الذي هو الرفيق الأبدي للحسد، يجعل من المستحيل فهم أو إنكار حجم مدى هذا الاضطراب. فما من أحد يريد أن ينزع قناعه ليكشف عن الوجه القبيح للحسد.

وأخيراً، لايهم مدى ما يتحدث المرء عن هذا الاضطراب، أو يُظهِره، أو يختبره؛ والشيء المؤكد هو أنه، كما يستحوذ الغرباء في أفلام الخيال العلمي على عقول الجميع، يمكن فقط لأقلية ضئيلة أن تقدِّر النتائج المرعبة لعاطفة تعمل دائماً على وضع إنسان ضد إنسان، إنما دائماً من ظلمة اللاوعي. ليس الحسد هو الذي يسيطر على الإنسان ويجعله ضحية سلبية له، بل، على العكس، إنه الإنسان هو الذي يختار أن يكون حاسداً، بالطريقة نفسها الذي

يختار أن يكون فاضلاً أو خبيثاً، إلا إذا كان هذا خياراً يستجيب لآلية التأمل اللاواعي.

هناك أناس يذهبون عادة لمشاهدة أفلام الرعب أو الأفلام الغريبة دون أن يكونوا ملزمين بذلك، أو يفضلون أن يكونوا تعساء على أن يكونوا سعداء، أو مثاراً للشفقة على أن يكونوا موضع حسد. وعلى المنوال نفسه، إن السراديب الخفية للروح البشرية تجعل بعض الناس، إلى حد غريب، يفضلون الظلمة المؤلمة على النور، فيعزلون أنفسهم مختارين عن الألق الساطع للفضيلة والسعادة، ويختارون أن يكونوا مفعمين بالكره، والامتعاض على أن يكونوا ودودين وأخويين.

كانت دائماً تؤثر علي تلك الطبيعة المعقدة أو الغامضة جداً في عواطفها، تلك التي تدفع الفرد إلى مساواة الأشخاص اللامعين، أو السعداء، أو المثيرين للإعجاب عن طريق "قطع رؤوسهم." وهو يفعل هذا بهدف الاستيلاء على مواهبهم، سواء كانت مفترضة أو حقيقية، أو رفع نفسه من خلال المغايرة-الحط من شأن من يبزونه أو يحطون من شأنه. والنتيجة النهائية لهذه المكائد مشؤومة ولا يمكن التنبؤ بها، وتؤدي إلى عقوبة آلية للحاسد حيث يحكم على نفسه من خلال عاطفته بالدونية الدائمة، لأنه، في الواقع، يحسد فقط من يثيرون إعجابه أو من يعترف أنهم متفوقون عليه. ويسبب هاجس الحسد هذا تثبيتاً ضاراً فيما يخص صورة المثير للإعجاب، وهذه الآلية تعني حتماً "التطلع إلى أعلى بألم وانزعاج" نحو من يثير الإعجاب. فالشخص المثير للإعجاب، الذي يريد الحاسد أن يلحق به الأذى، يحتل دائماً في ذهنه مكاناً أعلى، أما هو نفسه فيكون دائماً في موضع ثانوي.

ولهذا قيل إن الرذيلة الواضحة فقط، بسبب ظهورها، تحمل عقوبتها في ذاتها. فعن طريق الرغبة في إيذاء الآخرين، يؤذي المرء نفسه؛ وعن طريق التطلع إلى الظهور، يصبح عبداً وهامشياً؛ وعن طريق محاولة الحط من شيء مثير للإعجاب، ينتهي إلى تمجيده؛ وعن طريق الهجوم على سعادة الآخرين، يدمر سعادته الخاصة. فالمرء لايحمل حسداً لمن هم دونه. وما من أحد يحسد بشعاً، أو مشوهاً، أو غبياً، أو كريهاً، أو فاشلاً. وما من أحد أيضاً يحاول أن يهاجم الغَرْتِسك في الفن أو الأعمال التي تفتقر إلى الانسجام والجمال. وهذه الصفات، على وجه الدقة، هي التي تثير الحنق وسوء النية، على اعتبارها الستائر الخلفية لما يعرضه الفرد من تفاهة وقبح.

تقول ميلاني كلاين إن عملية الحسد تبدأ دائماً بإعجاب أولي يشعر به المرء تجاه

شخص ما، وهو شعور يتطور لاحقاً إلى تعلق وحب بمظاهرهما الإيجابية أو إلى حسد بشكله السلبي. ومع أن الحسد قوة تفكيكية معادية للمجتمع، وتخرب تضامنه، فإن المصابين به يتوحدون عادة للوقوف ضد الناس الجديرين أو البارزين. وقد يكون هؤلاء الناس أذكياء جداً، أو من أسرة معروفة، أو من الأثرياء. وقد يكونون ناجحين، أو يتمتعون بالجمال، أو من ذوي المنزلة الأخلاقية الرفيعة. وبوجه عام، إنهم يقفون ضد كل من يبرز ويتمتع بمواهب مميزة، في أي مجال.

يشعر الناس المستاؤون بالتهديد من قبل الناس السعداء، المستقيمين، البسطاء، المنضبطين، المنسجمين. وهم يتصورون أن ما يتمتع به هؤلاء كان قد استُلِب منهم بطريقة خفية. فهناك أحزاب سياسية وُجِدَت بسبب القدرة السلبية لحسدها، وحكمت عن طريق كلمة السر: "وضع نهاية لامتيازات" بعض أعضاء المجتمع-تيارات التفكير التي تستخدم الحسد كفراء رابط يجمع المتعضين الحاسدين بهدف إحداث الثورات. فقد قال ميغيل دو أونامونو، "الحسد مصدر الديموقراطية" و"السلام والديموقراطية يولّدان الحسد بصورة قسرية تقريباً ... الديموقراطيات هي الحسد."

لايتحمل الحاسد أن يرى شخصاً متميزاً، وكرد فعل، يحاول معادلته، لأنه لايمكن أن يتحمل الدونية والاختلاف. والحسد بالذات هو خلفية هاجس المساواة، أي التطلع إلى مساواة الناس من خلال الحصول على نوع ما من السلطة السياسية تساعد الحاسد على إنزال العقوبة بجريمة الظهور. وبمعنى آخر، معاقبة من يكسبون مزيداً من المال؛ الناس المنضبطين الذين يسيطرون على أنفسهم، المبدعين، الأذكياء، البسطاء، السعداء.

وقد أدرك هذا غونزالو فرنانديز "إنه لزيف مطلق أن الناس يولدون بطبيعتهم متساويين؛ والحقيقة هي أنهم يظهرون إلى هذا العالم بقابليات غير متماثلة[1]، حتى أنه يمكن تصنيفهم بوضوح على نحو هرمي. والتماثل الذي تحدث عنه روسو يتعارض مع المعطيات الواضحة لعلم الوراثة، وعلم الوظائف، وعلم النفس. إنه خيال يستخدمه الغوغائيون ويستهلكه المحبطون." ويضيف:

أنصار تقدم الجنس البشري ليسوا حشوداً منتظمة، ولكنهم أرواح متفوقة، أناس أكثر

1-الا يشجع هذا المفهوم تكريس الفوارق الطبيعية في المجتمع بحجة ان الناس غير متساويين في قابلياتهم؟- المترجم.

اختلافاً ... الواجب الاجتماعي العظيم في عصرنا ليس زيادة إمكانية المساواة في المجتمع والدولة، بل زيادة التفريد[1] *individualizing.*

وكلما كان استسلام المجتمع لتحريض الحاسدين كبيراً، كانت العوائق في سبيل التقدم أكثر. والحسد المساواتي شعور اجتماعي رجعي من غير منازع. وإنه لتحريف لفظي مضحك أنه ينبغي للتيارات السياسية، التي تسمي نفسها تقدمية، أن تحرض هذا الضعف عند الجنس البشري.

وفي الحقيقة إن الحسد هو العاطفة السائدة التي تتحكم، وتحكمت دائماً، بالارتقاء التاريخي للجنس البشري. فالحرب، والثورة، والاضطرابات العنيفة، كانت دائماً هي الغرض الذي لايمكن الجهر به للاستيلاء على الأشياء التي تثير الحسد. وعندما تخرج الحشود إلى الشوارع بقصد الشغب، فإنها لاتفعل ذلك احتجاجاً بل كعمل تخريبي مصمم لتهدئة الحسد الذي يلتهم أحشاءها[2]. وعندما تفرض الدولة ضرائب تمييزية مستغلة احتكارها لاستخدام القوة بصورة قانونية وتتجاهل تساوي الناس أمام القانون، فإنها تفعل هذا لغرض تحقيق المساواة بالعنف، وبهذا تشبع حسد الناس. وعندما يتجاهل أحدهم شخصاً متطرفاً في استقامته، أو ناجحاً، أو مبدعاً، أو يسخر منه دون سبب وجيه، فإنما يفعل ذلك لغرض وحيد هو تهدئة حسده. وانتشار الحسد هو العامل الرئيسي الذي يعوق تقدم الأمم. إن سرطان الماركسية التي أسيء فهمها وتطبيقها، يسمم روح البلدان الفقيرة إلى سنوات طويلة قادمة، وذلك عن طريق استخدام الامتعاض العاطفي الحاسد لدفع الناس إلى الانضمام إلى الحشود، ولكن بطريقة تخريبية. واللاوعي الجماعي لهذه الأمم هو الناقل لفيروس الكره الشديد للناس المثقفين اللامعين، إنها تؤمن بضرورة توطيد ديكتاتورية البروليتاريا عن طريق تدمير النظام القائم.

إن تخلف النمو يعني دائماً تنامي الحسد وانتشاره، ويستغله المحرضون السياسيون ويستخدمونه رغبة منهم في احتكار السلطة. والبلدان المتطورة اقتصادياً أقل تأثراً بآفة الحسد، ولهذا يمكنها أن تكرس طاقاتها لعمل مبدع، في حين يستحوذ على البلدان الأقل ثروة هاجس توسيع سلطة الدولة إلى أبعد الحدود، عن طريق مصادرة الضرائب للتحكم

1-نسبة إلى فرد، أي تكييف الشيء بما يناسب كل فرد على حدة-المترجم.

2-ماالوسيلة التي يراها المؤلف مناسبة ولم يستخدمها الأقنان في روسيا القيصرية وفرنسا الأقطاعية للتحرر من الظلم والطغيان واستخدموا الثورة بدلاً منها؟-المترجم.

بحياة المواطنين وكبت المعارضين. إنهم يفعلون هذا رغبة في تحقيق التجانس الذي يسبب عادة صعوبات كبيرة في سبيل التطور الاقتصادي، حتى أن هذه البلدان تعاني دورياً من انكفاء في جهودها وإحباط لتوقعاتها، مما يقود إلىالتعليلات السهلة عقلياً للأسباب التي تكمن خلف المشكلات، دون الاعتراف أبداً بأن هذه الأمم مصابة، في واقع الحال، بالحسد، وأن هذا الاضطراب قد يتحول إلى مرض نهائي.

لم يحاول أحد أبداً أن يقدِّر مدى الضرر أو الخسارة التي تعاني منها بلد ما بسبب عاطفة الحسد، التي تبقى محجوبة وسرية جداً حتى أنها تُجبر المرء على أن يبتكر لها أسماء غريبة لكي يخفي طبيعتها الحقيقية، لأنه ما من أحد يجرؤ على تسميتها باسمها الحقيقي. ففي تشيلي، مثلاً، يُعرَف الحسد تحت اسم ملطف هو "جذب السترة" (جذب سترة شخص ما إلى أسفل لإسقاطه لأنه رجل ناجح). وفي هذا البلد بالذات، تُستخدَم استراتيجيات غريبة لإخماد مشاعر الحاسد، أو كتمانها، أو إخفائها. ويبدو كما لو كان استخدام لغة ودودة أو لطيفة أصبح يمارس باستخدام صيغ التصغير التي تستخدم عادة مع الأطفال، فجون يصبح جوني، وهناك عدد لاحصر له من هذه الأسماء المصغرة التدليلية. وعموماً، إن الجميع يتحدثون إلى بعضهم كالأطفال لمحاكاة حالة مقابلة للحسد.

إن الإفراط في المجاملة والرغبة في الإرضاء يصبح أداة ممتازة لإسكات الحسد أو تحييده. وبما أنه يغلي دائماً تحت السطح، فإنه يتوجب كبته أو تحييده. وعندما يحدث هذا، فإن انفجارات الغضب تكون عادة أكثر عمقاً وعنفاً من الحد الطبيعي، لأنه، في تلك اللحظة، يظهر فجأة انفجار ساحق للحسد المكبوت. وعلى المرء أن يتخيل الحجم الهائل من الطاقة النفسية الذي تستهلكه عملية الحسد، والاستراتيجيات الاستثنائية التي يستخدمها الحاسد لحجب رذيلته عن نفسه، وإخفائها عن زملائه، ولتوفير متنفس لعوامل الدفع العاطفية الهائلة بطريقة مموهة ومقبولة اجتماعياً. وينبع كل هذا من استخدامه الخبيث أو المنحرف لملكاته الخاصة، التي لو استخدمها بطريقة إيجابية لقادته إلى السعادة والنجاح. إن كل من قاموا بدراسة هذه المسألة حاولوا، دون نجاح يُذكَر، أن يكتشفوا المنشأ الحقيقي لهذه القوة الساحقة التي تستعبد الفرد. لأنه لايكفي أن نقول بأنها تنشأ من "مقارنة المرء لنفسه بأناس آخرين أكثر سعادة وأفضل موهبة،" أو من الرغبة في تملك السلع التي يملكها الآخرون ويفتقر إليها هو.

وأظن أن هناك نوعين من الحسد، أحدهما ذاك الذي يتخذ مكانه في الجنس sex والآخر في المعدة. والأول ذو طبيعة سادية ماسوشية، كالغيرة. فالحاسد، بالتناوب، يفرح ويتألم، لمعرفته أن هاجساً يتملكه ولأنه عاجز عن مواجهة تلك العاطفة الساحقة التي تستعبده. وهي حالة مثيرة تحرضه جنسياً، وبالتالي تقوده إل ممارسة لذة منحرفة. والحاسد يكره الشخص المحسود ويرغبه. ويرقبه بالاهتمام نفسه والعاطفة نفسها كما يفعل العاشق. ولا يستطيع أن ينساه. يشعر دائماً بوجوده ويتدخل في مشاعره، وفكره واحلامه. يود لو يمتلك أمتعته، أن يشاطره حياته وسعادته، أن يحظى باحترامه واعتباره ومن ثم يرفضها بازدراء- الخلاصة، أن يتواجد معه بشكل دائم.

وقد قيل في العبودية إنها ظاهرة تكافلية، لأن السيد كان عادة تابعاً كالعبد، مادام السيد لم يكن قادراً على الحياة دون العبد. وتمر بالحاسد لحظات فيها يود لو يسيطر على الشخص الذي يحظى بإعجابه سلبياً، لاليدمره بل لكي يشاطره وجوده، وفي لحظات أخرى، يود لو كان ينتمي إليه للهدف نفسه الذي يحمله في عقله. فهو يستمد حافز حياته من عاطفة الحسد عن طريق اختراع الاستراتيجيات بجميع أنواعها ليلحق الضرر أو الأذى بالشخص الذي يحظى بإعجابه سلبياً.

ويعتمد الحسد الذي ينشأ من المعدة على النهم الجشع لجهاز الهضم الذي يتفاعل على نحو معاكس للوفرة عند الآخرين. والرغبة في امتلاك السلع لاتعني، في هذه الحالة، امتلاك المواد الغذائية، وإنما السلع أو النوعيات التي تمثل البقاء بطريقة ما. وكما أن سمك القرش لايميز عندما يُقبل على الأكل، كذلك أيضاً يكافح الدافع النهم للمعدة لـ "ابتلاع والتهام" كل ما يفترض أنه يكوِّن سعادة الآخرين. وفي الحب، مثلاً، أصبح تعبير "يمكن أن آكلك" شائعاً. وهذا التعبير لاينبغي تفسيره بمعناه الشبقي بل بمعناه الذوقي. فكثيراً ما توصف الفتاة المليحة على أنها "كعكة حلوة، " أو "حلوى، " أو سكَّرَة، " أو "عسل، " وذلك من خلال الحسد الذي تثيره صفاتها الأنثوية التي يحرم منها الرجال. وأن يأكل المرء يعني أن يضمن لنفسه شيئاً يرغبه لكي يتفادى إمكانية حرمانه منه.

والحسد القضيبي، الذي اكتشف فرويد أنه نموذجي بالنسبة للنساء، يمثل الإعجاب بالعضو الذكري التي تفتقر إليه المرأة والذي هو مصدر نقل النطفة التي يمكن أن تجعلها تحبل، وبالتالي تساعدها على تكوين الحياة. وهو مشابه لحسد ثدي الأم، الذي وصفته

ميلاني كلاين، عندما يكتشف الطفل أن حليب أمه يمكن أن يُمنَع عنه وأنه لايمكنه أن يتحكم بمصدره. إن إمكانية استيلاء المعدة على ما ترغبه من طعام بوسيلة بسيطة هي البلع تقودنا إلى القبول بوجود نسخة نفسية للوظيفة الهضمية شهيتها الرئيسية هي الاستيلاء على بعض السلع أو النوعيات المرغوبة. وربما تكون أسطورة دراكولا[1] نشأت من هنا. إن جسدنا مادي وطاقيّ، في آن معاً. ولأعضائنا تنظيم مادي مترافق بوظيفة طاقيّة من طبيعة مماثلة. وعندما تنحرف هذه الآلية، فإنها لاتكفي لإشباع حاجاتها الطبيعية ولكنها، كالبخيل، ترغب بالتجميع لمجرد الاحتفاظ. إن المعاناة بسبب حسن طالع الآخرين تتجسد عادة بحدوث اضطرابات في الكبد والمرارة، واضطرابات جلدية وعصبية، وأدواء أخرى أكثر شدة. وتظهر، في حالات أخرى، في الوجه، على شكل تصبغ في البشرة، وفي الإيماء، والوقفة، والتعبير، والتحديق. وأية انفعالية سلبية تسبب أيضاً هبوطاً في الجهاز المنيع مع ما ينجم عن ذلك من عقابيل متوقعة.

الامتعاض هو الشكل الأكثر مكراً وخداعاً للحسد، ويصفه نيتشة على أنه حالة العقل عند من يرفضون رد الفعل الحقيقي، أي ارتكاس التصرف، ومن يعوضون عنه بانتقام خيالي، فيقول:

الشخص المتعض عاجز وذو غريزة نهمة يلجأ إلى إشباعها بعملية عقلية. والسبب الحقيقي للامتعاض، والثأر وما شابه هو الرغبة التي تتملك شخصاً ما بتحويل ألم موجع، ألم يخفيه ويصبح شيئاً غير محمول، عن طريق عاطفة أشد ... ولكي يثيره (الألم-المترجم)، فإن أول ذريعة وأفضلها هي الظن أنه يجب إلقاء اللوم على أحدهم "لأنني لست على مايرام".

يساعد هذا على أن يحمِّل المرء مسؤولية شقائه للآخرين، وبالتالي يعتبر أن بعض المجموعات-والديه، أو شريكه، أو صديقه الذي يحسده، أو عرقٍ ما، أو العالم بالكامل- هم الأوغاد في المؤامرة.

ويتابع:

يعيش المتعض في عالم انتقام سري لاينضب، لايشبع من الانفجارات ضد من هم سعداء، الذين يلقي عليهم تبعة سوء طالعه. والانتقام الفائق للممتعض ينبغي أن يقنع الشخص المحظوظ بأنه من العار أن يشعر بالسعادة مع وجود الكثير من البؤساء.

1-نسبة إلى الكونت دراكولا، مصاص الدماء الذي صورته رواية دراكولا (1897) للكاتب برام ستوكر-المترجم.

ويقـول فريانديـز دو لامـورا إن الشـخص المـتعض يقـلب الأخـلاق: "الوغـد في أخلاقيـة الامتعاض هو بطل الأخلاقية الأخرى" (أي، عالم مقلوب رأساً على عقب، مع عكس للقيم).

ويمضي دو لامورا إلى أبعد من ذلك:

الامتعاض عملية عقلية فيها يحمِّل أحدهم مسؤولية فشله للآخرين، لتصعيد العجز، وليعمل، في التحليل النهائي، على رسم مقياس للقيم يحوِّل الوغد إلى بطل سعيد، ويجعل من الفاشل، المغتاظ شخصاً طيباً.

إن الأمـم المتعضـة محكومـة بالتشـوش، والفقـر، والألم، والفشـل، لافـتقارها إلى السـماحة الخلقية الـتي تتيح لهـا أن تحصد مكافئاً لما تـبذره، ويحـدث هـذا لكـل مـن يبـنون حيـاتهم عـلى الكـره، وسـوء الـنية، والفسـاد، والانحـراف. وهـناك الكـثير مـن الحكـام المتعضـين ممن كانوا متساهلين أو يتصرفون بضعف مع الغوغاء الحسودين عبر تاريخ الجنس البشـري، استسـلموا لـلغوغاء لكسـب تـأييدهم. لقـد فعلوا هـذا لخوفهـم مـن أن يصبحوا هـم بـالذات هـدفاً لهذه العاطفـة المخيفـة. والممـتعض، في وضعه العاجـز، يبحث دائمـاً عن المتوسط السـعيد، وليس عـن المركـز الفـاضل الذي ذكـره أرسطو. وعلى الأصح، إنه يبحث عن النقطة الصـحيحة غير المُعـرَّفَة والغامضـة الـتي تسـاعده عـلى تفـادي الحسـد الشـائع، ويعـتذر عـن كل شـيء لايخضع لمتطلبات الحاسد.

كـل مـن يعـرف خبث الحسـد في جسـده يجد الـنجاح صـعباً، لأنـه يعـرف أنـه إذا حقـق نجاحـاً، فإنـه سيصـبح هـدفـاً حتمياً لهـذه العـاطفة، ولذلك يفضـل الفشل أحيانـاً، من دون وعي، بـدلاً مـن أن يتعرض للحسـد بسـبب نجاحـه. إنـه لعمـل شاق أن نحمل أمة ممتعضة على التقدم، لأنـه، في هـذه الحالـة، لايمكـن المحافظـة عـلى الـنظام العـام، ذلـك لأن إنسـاناً يواجـه إنسـاناً، فـتنفجر عواطـف الحاسـدين بقـوة لايمكـن الـتحكم بهـا، وتعمـل، بشـكـل دائـم، عـلى تحويل هؤلاء المواطنين الذين يمثلون، لسبب أو لآخر، رمز النظام، والجدارة، والانضباط إلى ضحايا.

وممـا يدعـو للأسـف أن المؤسسـات أو الـناس المكـلفين بـتعزيز القـيم العـليا يُضـلِّلون، وأحيانـاً ينـتهون إلى تشـجيع الامتعاض والحسد، إما سراً أو علناً. ولسوء الحظ أن هذا النوع من الـبذرة يلقى دائمـا اسـتقبالاً حسـناً مـن قـبل هـؤلاء الذيـن يبشـرون بـالثورة لأهداف المساواة. لقد كـان دائمـاً هـدف الأفـراد المتعضـين، والمنغصـين، والفاشـلين تحقيـق المسـاواة نـزولاً، لأن هـذا

يحررهم من بذل الجهد لمضاهاة من أحرزوا مراكز أعلى. وفي الواقع، يبدو أن الحسد أسهل من المنافسة، ولكن الفرد يتجاهل، أو أنه غير قانع، بأن الحسد "مجرد رذيلة" تستجر عقوبتها الخاصة بها.

إن النفاق المألوف هو ملاذ الحسد، لأنه يجنبنا تسمية الأشياء بأسمائها وهو العقبة الرئيسة في سبيل تعرية هذه الخطيئة الخطيرة. وخلاص الجنس البشري يعتمد، في الأساس، على إنشاء مراكز لبحث الحسد، بهدف وحيد هو دراسته في العمق ونشر تأثيراته المرعبة، لأنه ما من إخاء يمكن أن ينشأ في العالم دون دراسة من هذا النوع. وما دام الناس يلجؤون إلى جحيم الرياء والجهل، فإن هذه الخطيئة سوف تستمر في تدمير العالم. وإذا عرفنا صفاتها بالتفصيل، وشاعت معرفة آلياتها، فإنها سوف تصبح موضوعاً إلزامياً في الثقافة الأساسية للناس لكي يتعلموا كيف يميزونها ويتفادونها. وإذا ما تم الكشف عن أعراضها، ومناوراتها، واستراتيجياتها بحيث تصبح شفافة، فإن ارتكاب هذه الخطيئة سيكون أكثر صعوبة، لأن مرتكبها سيتعرض إلى ملامة الناس. وبما أن هذا لن يحدث اليوم، فإن الطريق معبدة أمام التكاثر الانفجاري للحسد.

وإذا ما تم الكشف عن القوة التدميرية الهائلة للحسد وتعريتها، فإنه يتوجب على الأمم والأحزاب السياسية أن توقع ميثاقاً مقدساً تتعهد فيه بعدم تشجيع الحسد بهدف تحقيق أفضلية سياسية. وعلينا أن ندرك، مرة وإلى الأبد، أن الحسد يفتك بالناس في أنحاء العالم أكثر من الجوع، أو الإيدز، أو الحرب، أو التهديد النووي. وأقصد بالموت، طبعاً، موت الإمكانيات والتوقعات بالنسبة للكائن البشري المصاب بالفيروس المرعب للحسد.

ليس هناك من يدرك مدى الضرر الذي تسببه هذه القوة التدميرية الماكرة: قدرة تقتل الشخص من الداخل، وتعمل خفية على استنزاف روحه، وانكماش قلبه، وتدفنه في عتمة واحد من أكثر الآلام التي يمكن أن يعانيها الإنسان حدة. إنها تعزلة بقوة عن نور السعادة والخصب الداخلي، وتشجع الحقد، والتنافس، والعنف، وتضع الإنسان باستمرار ضد الإنسان، دون أن يدرك أحد عمق هذه الظاهرة وحجمها. إنها الآلية التي تثبط عاطفة الإخاء عن طريق إجهاض تطور الأمم والأفراد، على حد سواء.

والضحايا البريئة لهذا البلاء هم أولئك الذين يعيشون في فقر مدقع. وجلادوهم هم أولئك الذين عملوا دون تعب، على مدى عقود كثيرة، على تكريس جهودهم لزرع الكره،

والامتعاض، والحسد لكي يكتلوا سلبياً هؤلاء الناس، ويسمموا قلوبهم، ويخدعوهم بحملهم على الظن بأن ما لا يملكونه كان قد سرقه منهم الآخرون وأنه لايمكن أن ينجحوا ويكسبوا المال إلا بمساعدة الدولة واستخدام القوة. والصحيح هو أن نظاماً مستقراً يفضل عادة أن ينفق موارده الاقتصادية على دفع الفوائد الباهظة للدين الوطني للأمم. ويفضلون هذه العبودية الإنسانية الحقيرة لقوة المال، ويبددون الباقي في المحافظة على دول تضخمية غير فعالة في اتخاذ قرار بتدريب وتعليم المحرومين بغزارة وفعالية لمساعدتهم على اختيار المستوى الأعلى من فرص العمل وتحقيق الذات. وعندما يتجاهل الفقير في هذا العالم محاولات زارعي الحقد ويتوقف عن الحرب ضد أعداء خارجيين ويكرس جهوده لإعداد نفسه للقتال ضد قيوده الخاصة -عندما يطور ملكات أعلى- فإنه سيصبح قادراً على إعطاء دروس لبقية أبناء الجنس البشري، والتغلب على الفقر، والتوقف عن كونه أداة للسلطة السياسية. وسوف يستولي أيضاً على العرش الأكثر أهمية للكرامة الإنسانية، الذي يقوم على أساس كينونة الإنسان لاعلى أساس ما يملك.

يجب التغلب على الحسد لكي يتقدم العالم بصورة حقيقية. وعلى المجتمع أن يشجب السلوك غير الملائم ويعاقب عليه وقبل كل شيء، التصرف الذي ، بسبب تطوره في ظلمة المتاهة النفسية عند الناس، يشكل تهديداً خطيراً للناس الذين لم يصابوا بالمرض الرهيب. وهو، من وجهة نظر أخلاقية، خطيئة خطيرة أسوأ من كافة الخطايا، لأنه يعمل ضد كل فضيلة. ويتفاقم هذا بحقيقة أنه شكل من أشكال التصرف يتم اختياره إراديا، وأيضاً بسبب الطبيعة القذرة، والخبيثة، والفاسدة لآليته.

وعندما يقول الناس إن العالم مقلوب رأساً على عقب، فإنهم يقصدون، على وجه الدقة، الدستور الأخلاقي الزائف للامتعاض، الذي يكتشف في الأنذال أبطالاً وفي الأبطال أنذالاً، والذي يحبس البريء ويؤكد على أن منتهكي القانون وُجدوا غير مذنبين. هذا هو الدستور الزائف الذي يشجع النساء اللائي يرغبن في أن يكنَّ رجالاً والرجال الذين يريدون التخلي عن جنسهم؛ والمقياس الزائف للقيم الذي يمجد الشباب ويرفض الشيخوخة؛ ويحتقر الكينونة ويبجل التملك؛ والنظام الفاسد الذي يشجع الكسب والنجاح بسهولة دون جدارة؛ ذلك الذي يعاقب المجدّ ويكافىء الكسول؛ ويعبد القبح ويحط من شأن الجمال المتناسق؛ ويشجع الحسد والإحباط من خلال تمجيد الاستهلاكية؛ ويشوه الناس باستمرار؛ ويشجع

الحرب لكي يستفيد من تصنيع السلاح؛ ويضايق بعض أنواع الحيوان ويسمم البيئة؛ ويحقّر عميق التفكير ويمجد السطحي؛ ويسخر من الحب ويذم الفضيلة؛ ويصلب الأفضل ويتوج التافه؛ ويتعاطى الربا ويشجع عبودية المال للأمم والناس؛ ويغسل أدمغة أبناء الجنس البشري عن طريق السينما ، والتلفزيون، ووسائل الإعلام؛ ويفسد كامل الكوكب. وتعلمنا الحكمة الصرف كيف نهرب من الحسد كما نهرب من وباء وألا نتباهى بسعادتنا. .وترشدنا إلى ضرورة تفادي الحاسد ، لأنه يلوث الأصحاء. فحاسد واحد بين مئة كتفاحة فاسدة تفسد البقية. أنا مقتنع بصوابية الاعتقاد القديم "العين الشريرة ،" التي هي إشعاع مغنطيسي لشخص حاسد.

اكتشف الدكتور فرانز مسمير، عام 1775 ، وجود قوة أطلق عليها اسم" المغنطيسية الحيوانية ،" تنبعث من أجسام بعض الناس وأيديهم ويمكن استخدامها للشفاء. وفي عام 1785 ، شكلت الحكومة الفرنسية لجنة من الأطباء والعلماء لدراسة نظرية مسمير، ولكن تقرير اللجنة لم يكن إيجابياً. واليوم، أصبحت الغيبة المسميرية مقبولة علمياً وتعرف بالتنويم المغنطيسي.

إنها لحقيقة معروفة أن بعض الناس يمكن أن يحققوا الشفاء بوضع اليد ، وصحيح أيضاً أن الطاقة نفسها التي تسبب الشفاء يمكن أيضاً أن تقتل وتدمر عندما يكون الإشعاع ملوثاً بالعواطف الوضيعة لمن ينشرون حقدا وامتعاضاً من خلال تحديقهم أو بمجرد وجودهم. وهناك وسيلة في غاية البساطة لاختبار ما إذا كانت عينا الشخص مركز إشعاع لمغنطيسيته الحيوانية. ففي حالة الشخص الحاسد ، يكون هذا ملوثاً بعاطفة سرية تقضمه، وهو يشوش، أو يلوث، أو يؤذي من هم على تماس معه. فإذا لم ننجح في أن نتصور الحسد كفيروس نفسي يصيب عقولنا ويدمرها ، فإننا لن نستطيع أبداً أن نقدّر المدى المروع لهذا الاضطراب الشيطاني، ولن نستطيع أيضاً أن نحرر أنفسنا من تأثيراته المرعبة.

الأنانية

يعرّفون الأنانية على أنها "حب المرء لنفسه على نحو غير معتدل ومفرط مما يجعله يهتم برعاية

مصالحه إلى حد غير متناسب دون اكتراث بالآخرين." والغيرية، على العكس: "اهتمام المرء وابتهاجه لخير الآخرين، حتى ولو على حسابه الخاص،" و"الفردية الأخلاقية ضد

الأنانية، التي تعرِّف الآخرين على انهم متلقّي التصرف الأخلاقي الذين ليسوا موضوعاً لهذا التصرف." ومن الواضح أن الناس تحركهم مصالحهم الخاصة، أي الأنانية.

تقود المبالغة في هذه النزعة الأنانية إلى اللامبالاة بمعاناة الآخرين، وإلى القسوة، واللاحساسية تجاه الفقر أو مختلف أشكال البؤس الإنساني.

تؤيد المسيحية فعل الخير بغض النظر عن المستفيد؛ وإدارة الخد الآخر، وممارسة أعمال الإحسان. ولكن التمجيد الآلي لهذا السلوك يقود إلى الخنوع، والضعف، والانتحار، ويشجع أيضاً شتى أشكال السلطة الأبوية التي تحول دون تطور من هم موضع العطف، وعلى المدى الطويل، تسبب لهم الضرر من خلال ابتكارها لـ "فضيلة زائفة" (فضيلة ظاهرية زائلة تنتهي، دون قصد، إلى إحداث الشر).

هناك امثلة كثيرة للبلاء الذي يمكن أن ينزله بمحروم تحجرُ الفؤاد عند شخص قوي، وليست أقل منها الأمثلة لشخص يقوم بتقديم المساعدة لمن لايستحقها، مما يشجع النزعة التطفلية التي تنتهي إلى خنق المحسن الكريم أو تدميره وإفساد المستفيد. وقد قيل إن خير الآخرين هو الهدف الأسمى للتصرف الإنساني، وهناك آيديولوجيات سياسية تؤيد هذا المفهوم. ويبدو أن الانقسام السياسي بين "يسار" و "يمين" يهتم بهذه المسألة التي ندرسها هنا، لأن العديد من الاتجاهات السياسية تؤيد قيام مجتمع أكثر غيرية، مجتمع يقوم على أساس مفهوم عدالة اجتماعية أوسع، وتتهم الحركات السياسية الأخرى بـ "اللاحساسية الأنانية." وفي هذه الحالة، يُنتَظَر من القوي أن يساعد الضعيف، وأن يتم "إقناع" هذا بتجريد نفسه مما يملك لمصلحة ذاك، وكل هذا في سبيل مساواة أكبر. يتحدث الناس عن "تهميش الفقر المدقع،" و "اللامساواة الاجتماعية،" ويشددون على الفجوة الاقتصادية بين الدخول الخاصة للفقير والغني، ويشيرون إلى ضرورة توزيع الثروة، ولكن الأسباب الحقيقية للمشكلة تبقى محجوبة. وهذه الأسباب هي: الافتقار إلى إرادة سياسية حقيقية تهيء للمحرومين فرصاً أكبر في التعليم، وبهذا لن تبقى أصواتهم الانتخابية أسيرة التبعية الاقتصادية؛ والافتقار إلى الموارد، التي تُبدَّد في دفع الفوائد الرباوية للدين الوطني؛ وفي المحافظة على دول تضخمية سيئة الإدارة. (مامن بلد يُدار اقتصاده مباشرة من قبل نظام مالي عالمي ويمكنه أن يصبح غنياً فعلاً).

وكثيراً ما يُستشهَد بكلمات يسوع المسيح "أسهل على الجمل أن يدخل من ثقب إبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات،" لكي يشعر من يملك المال بالذنب ويلقي الفقير

مسؤولية عوزه على الغني. وهناك آلاف المنظمات الخيرية تذكرنا باستمرار بواجبنا الأخلاقي للتعاون مع نماذج مختلفة من الناس المحرومين في جميع أنحاء العالم، ومن بينهم أطفال دون آباء، وأطفال جائعون، ومتقدمون في العمر لاسند لهم، ومواطنون لابيوت لهم، وعجزة ومرضى من كل الأنواع، وأخيراً، تلك الحملات التي انتشرت لحماية البيئة. ولا شك في أن الإحسان هو مجرد مسكّن لايكفي دائماً بالنسبة للفقر، وقد نشأ أصلاً في ظل نظام اقتصادي مصاب بداء النظام المالي السائد، ولن يتم أبداً إشباع الحاجة ما لم ننجح في تحقيق نظام اقتصادي سليم، نظام متحرر من الديون والفوائد. وبسبب الحاجة، ينشأ الشعور بالذنب ويتوسع عند من يمتلكون الكثير مما يفتقر إليه الآخرون. ويبدو أن السلوك الوحيد المقبول أخلاقياً هو التضحية بالذات، وبغير ذلك، يمكن أن يعيش بعض الأفراد يخالجهم شعور بالذنب الأبدي بسبب اتهامهم بأنهم يفتقرون إلى التضامن مع زملائهم. وهذا طبعاً هو السلاح الأكثر فظاعة للمناورة النفسية.

وبالمثل، ليس هناك أبداً من يحدد متى يكون "الضعيف" ضعيفاً فعلاً، أو متى يُستغَل الضعف المزعوم لخداع الآخرين، الذين حققوا فائدة أفضل من الفرص التي قدمتها لهم الحياة، وذلك عن طريق جدهم واجتهادهم. وإنها لمسلمَّة أخلاقية غريبة الافتراض أن الضعيف أفضل من القوي وأنه أفضل في نظر الخالق لمجرد كونه ضعيفاً، في حين يتم إغفال صفاته الداخلية الحقيقية. وأظن أن أعلى نسبة من الضعفاء هم ضعفاء فقط بمعنى أخلاقيتهم وشخصيتهم، ولا يساورهم القلق أبداً بخصوص تطوير أنفسهم لتحقيق النجاح في فن الحياة. لست أدري ما الذي سيحدث في العالم لو قرر كل الناس الأقوياء أن يصبحوا ضعفاء، بسبب قناعتهم أن حالة الضعف هذه مقبولة من الناحية الأخلاقية أكثر من قوة الشخصية، والشجاعة، والنظام، وضبط النفس. ومن سيهتم بالضعيف عندئذ؟ وهل هي صحيحة مسألة "الاهتمام بالآخرين، والفرح لسعادتهم، حتى ولو على حسابنا" عندما يتطلب الأمر مساعدتهم بقرار من عندنا؟ أشير هنا إلى الحاسد، والممتعض، والسيء التكيف، الذين يمنعون أنفسهم باختيارهم عن الفرص التي تتيحها لهم الحياة، لأنهم يجدون الحسد واشتهاء ما عند الآخرين أكثر جاذبية وأقل إزعاجاً من العمل على تطوير أنفسهم وإنجازها.

ليس هناك شيء في العالم يمكن أن يمنع فرداً من تطوير نفسه. إنها فقط مسألة مثابرة وتصميم من قبل الفرد. وكثيراً ما يحدث أنه إذا كان المواطن س ناجحاً في الحياة

بسبب جدارته الخاصة، وجهده الشخصي، وموقفه البناء، فإنه، من وجهة نظر الآخرين، يجب أن يتخلى عن شيء من خيراته المادية لمساعدة المواطن ع، الذي لم يفعل أبداً أي شيء لمساعدة نفسه[1]. وباسم الغيرية، يُطلَب من المواطن س أن "يتحمل مسؤولية حياة شخص آخر، أي أن يتحمل العبء الذي تهرب منه المواطن ع حتى الآن." فيفسد عمله وإبداعه بالطلب منه أن ينهض بعبء الآخرين، أي يُعاقَب بشدة لكونه قوياً. وفي الوقت نفسه، يُكافأ الشخص الضعيف. يحدث كل هذا أحياناً عن طريق الاستخدام الملتبس لمبادىء البر التي تعزى إلى يسوع المسيح. وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة إذا ما تعرضت بعض تلك المبادىء للتشويه بمرور الزمن وأن يتحول المبدأ "أفعلوا الخير بصرف النظر عمن تفعلونه له" إلى "افعلوا الخير ولكن فكروا ملياً بمن تفعلونه له."

باسم المحبة المسيحية، يعتبر من غير المنطقي أن نحاول أن نحب كائنات منحرفة تحاول تدمير حضارتنا. وليس صحيحاً أن نحاول "أن نحب جارنا أكثر من أنفسنا،" كما يفعل بعضهم. إن عالم الرب ليس اعتباطياً ولا مخالفاً للمنطق، ولا يمكن أن نتصور أن الفساد يُكافأ في شرائعه عن طريق تقديم جائزة الحب عندما تنطوي على تدمير متزامن لمن يقدمها.

وللمحافظة على نظام الكون، يجب أن تكون قواعد اللعبة واضحة تماماً بحيث يحظى عمل الخير بالمثوبة وعمل الشر بالعقوبة. كما ينبغي تشجيع المُجد ومعاقبة الكسول أو المتهاون. فالغموض وقصور التمييز بين الخير والشر يؤديان إلى الفوضى، والتساهل، واللاأخلاقية.

هناك حشد بشري كبير يطلب المساعدة، ولكنه لن يعترف أبداً بالجميل لهذه المساعدة لأن الحسد يثبط العرفان بالجميل. فالحاسد لن يشكرك أبداً من أعماقه مقابل أية مساعدة يتلقاها منك، حتى وإن كانت تلك المساعدة تفوق التصور. صحيح أن المرء يجب ألا ينتظر شكراً على ما يقدمه من عمل خيِّر، ولكن غياب الاعتراف بالفضل من قبل المستفيد يدل على نزعة سلبية أو تدميرية ربما تقود المرء إلى استخدام ما يتلقاه بطريقة خاطئة أو غير مسؤولة. فنحن نعرف أن الإحسان كثيراً ما يوقظ مقتاً صامتاً عارماً عند الناس الذين

1-هل كان الفلاحون في بلادنا لايقومون بشيء في سبيل أنفسهم وفي سبيل مالكي الأرض الأقطاعيين؟- المترجم.

سيقومون بأي شيء لتشويه فعل الكرم أو انتقاده. ثم إن بذل الإحسان دون تمييز للجماعات التي تحمل مستوى عالياً من الحسد هو، في حد ذاته، عمل جائر، لأنه يعني، في الواقع، تشجيع لتشوهات فظيعة في روح الإنسان، تشوهات يتم قبولها طوعياً بسبب الامتعاض لسعادة الآخرين. وإنه عمل لاأخلاقي مكافأة الشخص المتعض في حين يُعاقَب الشخص السليم، والنقي، والمستقيم أو يبقى دون مكافأة، لأن هناك حشداً بشرياً كبيراً يحتاج إلى مساعدة محتمة ويستحقها على اعتباره جزءاً إيجابياً من المجتمع. وتلك هي حال الشيوخ، والأطفال، والعجزة.

وكذلك أيضاً، لو أن الأمم تضع معياراً ممتازاً في عملها المنتج، ولو كانت الدول غير سياسية وفعالة موضوعياً في إدارة مواردها، لما بقي عمل الإحسان ضرورياً، لأن الضرائب العادية ستكون كافية لحل مشكلة الفقر. يجب أن نتذكر أن هذه الأفكار تدور حول الأنانية، لأنه يجب التعمق في معنى هذه الكلمة، التي تستخدم، دون تمييز، في الإشارة إلى من لايُظهرون الإحسان الذي يتفق مع النمط الذي يؤيده البعض. وإذا كنا نتحدث عن الإحسان، فإننا نجد أكثر النفوس قسوة هي عند تلك الدول التي تفضل أن تنفق دخلها في سبيل سيطرتها بدلاً من أن تساعد المحرومين. وفي العودة إلى مفهوم "الأنانية،" يجب أن نسلّم بأن أساس كل معرفة يكمن في الـ "أنا" أو الذات، حتى أن كل تصرف، أو إدراك، أو عاطفة ملوثة بالأنوية. يجب أن نجد أساس المعرفة والإدراك في "أنا الفردية،" ومن منظور المصلحة الشخصية، ستكون هناك أنانية مادام هناك أفراد.

إن فقدان المحبة التي ترتبط بقوة بالعناصر الشخصية للخير عند الفرد، وعدم اهتمامه بزملائه، يمثلان شكلاً خارجياً للأنانية، وهي كلمة تناسب، في هذا المعنى، مجتمعاً سمته عدم المداهنة ويصف بها من يتصرفون بالضد من معايير السلوك التي يعتبرها مرغوبة. والأنانية، في شكلها الداخلي الأعمق، هي النزعة الحيوية عند الفرد الذي يضع نفسه، ضمنياً، في نقطة مركزية، ويعجز عن إبعاد نفسه عن تلك النقطة. واستناداً إلى ليرش، يمكن تمييز الأنماط التالية من الأنانية: الأنانية التي ترتبط بحفظ الذات، أي، محافظة المرء على نفسه أو حمايتها؛ والأنانية التي ترتبط بإثبات الذات في سبيل أمن المرء، ولكي يشق طريقه الخاص في العالم، وعن طريق قيامه بذلك، فإنه "يوسع الـ 'أنا'" ومجال تأثيرها.

يشيع الظن بأن مبالغة الفرد في تقييم ذاته، مع رغبة مفرطة في أن يظهر دائماً جدارته الخاصة، رذيلة يمكن مقارنتها بالكحولية وكثيراً ما تترافق بالطموح والوحشية.

إن طبيعة الأنانية المرتبطة بحفظ الذات طبيعة شاملة ومتأصلة في شتى أشكال الوجود. فما من أحد، وهو في عقله السليم، يسمح بأن يلتهم الآخرون جسده لكي يشبعوا جوعهم. ويمكن للشخص الأكثر تحضراً أن يتحول إلى متوحش عندما يواجه موقفاً خطراً مهدداً للحياة.

والشكل الأكثر شيوعاً للأنانية هو الشكل الذي نجده عند الفرد الذي ينشد إثبات ذاته من خلال الطموح، أو الجشع، أو الغرور لكي يبلغ مواقع القوة الشخصية. وفي عالم يزداد فيه التعقيد والتنافس بمرور كل يوم، تتزايد الحاجة إلى توكيد الـ "أنا" وتوسيعها إلى نسب مرضيَّة، تدفع الناس، بصورة لامفر منها، إلى الاستسلام لرغبة خبيثة مستمرة في الحظوة باحترام الآخرين. فالوصولية وأشكال التسلق الاجتماعي المختلفة تفرض على الفرد أن يعيش دائماً وهو يركز على "صورته الذاتية" بهدف تكوين انطباع جيد، واكتساب الشهرة، وتكوين عدد كبير من الأصدقاء، وتحقيق النجاح. هذا هو الشكل المفهوم أكثر للأنانية والأنويَّة[1] لأنه الشكل المقنَّع أكثر والأصعب على الكشف، طالما أنه يترافق بنزعة غيرية مخادعة. مع ذلك، صحيح أن الفرد يمكنه، في الواقع، أن يواصل تقييم كل شيء بما يتفق مع فائدته لـ "أناه"، بمعنى التقوية غير الصحية لهذه الـ "أنا،" التي تحولها إلى نقطة مركزية للوجود.

إن الكثير من الغيريين هم، في الواقع، أَنَوِيُّون، وطبيعتهم الخيرية لاتهدف إلى خير الآخرين، بل إلى تكبير صورتهم. إنهم يحاولون، بصورة غير مقصودة، أن يمتصوا أكبر قدر ممكن من العناصر من المجتمع التي تضفي الاعتبار على تلك الصورة أو تكبِّرها على نحو اصطناعي. وهذا نوع من النهم أو الشره فيه يحاول الفرد، دون دراية، أن يمتص الطاقة الاجتماعية لتكبير "ذاتـ"ـه من خلال نوع من الطُّعم النفسي الذي يصبح، فيما بعد، هوية اصطناعية مكبرة تصبح، بدورها، النقطة المركزية في أحلامه النرجسية. وهذا هو السبب الذي يجعل الطبيب، بطريقة ما، يشعر بأنه "قوة فوق الموت"؛ والقاضي بأنه "العدالة نفسها"؛ والشرطي بأنه "السلطة"؛ وقد يشعر القائد الأعلى للبلد بأنه السيد الحقيقي لذلك الإقليم.

تنشأ أنواع القوة المادية كافة، سواء كانت اقتصادية، أو سياسية، أو عسكرية، أو نقابية من المجتمع. ولكن، هناك الكثير ممن يظنون خطأ أن القوة التي يستخدمونها هي

1-التركيز على الأنا-المترجم.

جزء من "أناهم" والذين يقولون في أعماقهم، "أنا هي تلك القوة،" وهو توكيد يخفي به المرء الأشكال التي تتخذها الأنانية. فقد يعمل شخصية سياسية، بسهولة، على عزو السلطة التي يتمتع بها إلى الـ "أناه"، ناسياً أنها تنبع من الجماعة التي يمثلها. والسلع المادية، وخصوصاً عندما تكون رموزاً للقوة، تسبب أيضاً تكبيراً زائفاً للـ "أنا،" حيث يُقَيِّم الفرد بما يملك وليس كما هو، وهو عامل يؤدي عادة إلى العبادة الأكثر عمقاً للذات، أي، إلى فردانية أنانية فيها يجرد المرء زملاءه من مؤهلاتهم لأنه يشعر بأنه جدير أكثر منهم. إن الأنانية، بمختلف أشكالها، تشترك في أن المرء فيها يعمل على تَشْيِيء objectification زملائه. فيصبح الناس وسائل مفيدة لغاياته الخاصة، لاأفراداً لهم أفكارهم، ومشاعرهم، وحاجاتهم الخاصة.

حتى الفرد الأكثر غيرية يمكن أن يكون أنانياً في الواقع، وهي حالة فيها ينصب اهتمامه الرئيسي على صورته الخاصة لاعلى السلع المادية، التي تساعده على القيام بأعمال الخير. وتتركز رغبته الأكثر حدة على أن يكون شهيراً، ومحترماً، ومهاباً، وغيريته ليست أكثر من "نقّيفة" توصله إلى غاياته، وهي ثمن مقرر مسبقاً في سيرته كمتسلق اجتماعي، ثمن، يصبح في النهاية، استثماراً أكثر فائدة. فهو لايقوم بأعمال البر بسبب الشفقة على المحرومين، بل لتنمية صورته وتهدئة شعوره بالذنب الذي يتولد من قناعته الداخلية بأن كل واحد يهتم بنفسه في الواقع.

يجب أن نضع في اعتبارنا أن القيام بأعمال الخير لاتشير بالضرورة إلى "الإيثارية،" وإلى أنها كثيرا ما يحركها الشعور بالذنب، سواء كان لهذا الشعور ما يبرره أم لا. ونجد ضمن هذا الصنف من الشعور بالذنب الذي ليس له ما يبرره أمثلة يثيرها عمداً وكلاء خارجيون ممن يهتمون بالتلاعب بمشاعر الأفراد كوسيلة لضغط نفسي يسبب ردود فعل يريدها أولئك الوكلاء أو للحصول بواسطة هؤلاء الأفراد على فوائد معينة. ومن المهم أيضاً أن نضع في اعتبارنا، في هذه الحالة، أن الذنب المفترض قد يفتقر إلى أي أساس واقعي، وأنه قد يكون مفبركاً بعناية من قبل من يهتمون بالحصول على فوائد سياسية أو اقتصادية غير مشروعة. إنها لتجربة أخلاقية جيدة أن نفكر بعناية حول من يستفيد من مختلف أنماط الشعور بالذنب ذي المضامين الاجتماعية، للتأكد من أن الذنب كبير كما يبدو أم لا، أو إذا كان مضخماً. فإذا كان مضخماً، فإنه يمكن للمرء أن يكتشف الأهداف الحقيقية التي يسعى إليها من

يضخمون هذا النمط من المواقف، إضافة إلى معرفة الفائدة اللاأخلاقية التي يحققونها منه عادة. ونفاجأ، على نحو أكثر بكثير مما نرغب، بأن من يستحقون اللوم بشدة بسبب بعض الأخطاء هم المجرمون الحقيقيون، وفي حالات أخرى، هم أيضاً أعضاء جوقة المعلومات الخاطئة المصممة لوضع من يريدون ابتزازهم في موقف حرج.

وهناك أنماط من الشعور بالذنب لها فعلاً ما يبررها، وأنماط أخرى تقوم على مجرد الشك، ولهذا يجب أن تكون لدى الفرد معايير صحيحة تساعده على التمييز بين هذين النمطين. ولهذه الغاية، يجب أن نستفيد من القاعدة القديمة التي تقضي بملاحظة من هو الذي يستفيد من الأخطاء التي تعزى لبعض الناس أو المؤسسات. فالحرب النفسية، المعروفة جيداً في المواجهات القتالية والساسية، تستغل معلومات مضللة كوسيلة للمناورة بإخلاص الجماهير لتحقيق فوائد لا يدركها إلا من يستفيدون منها. وفي الصراع على السلطة، يحدث يومياً، وفي كل أنحاء العالم، تدمير الشخصيات، أو الجماعات، أو المؤسسات العامة، من تلك التي تعرقل خطط بعض التيارات السياسية، في حين لا يدرك الحشد الأعمى ما الذي يحدث فعلاً. وفي هذه المناورات، تُغفَل، بصورة منهجية، المبادىء الأخلاقية، من غير أن تعلن المؤسسات المعنية في المجتمع عن أي مطلب بخصوص هذا.

تتخذ الأنانية المقنَّعة للصراع على السلطة مقولة "الغاية تبرر الوسيلة" شعاراً لها وهو واحد من أكثر أنماط اللاأخلاقية فجاجة في عصرنا: مرشحون سياسيون يمولهم تجار المخدرات؛ وحملات دعاية مضللة؛ وأعضاء في هيئات دينية تغريهم السلطة الزمنية، وقضاة مرتشون؛ ومحامون متضلعون في قضايا تُؤَجل إلى ما لا نهاية؛ وشركات متعددة الجنسيات تسيطر على العالم بكامله؛ وأصحاب شركات خبثاء يستغلون عمالهم؛ وعمال يسرقون ويخدعون مستخدميهم؛ وتجار مخدرات وأسلحة؛ ومافيات توجه السلطة في مختلف الأمكنة عن طريق مجموعات بيوقراطية تعمل في خدمتها؛ وسياسيون يعيشون عن طريق التعامل مع مطّلعين؛ وحملات بيئية زائفة مستترة الأهداف-وباختصار، حيوانات اللاأخلاقية في الحياة اليومية لهذا الكوكب.

إن الأنانية والوحشية الأبديتين المرافقتين للجنس البشري الذي يصارع في سبيل السلطة لا تقيمان أي اعتبار أو احترام للناس الشرفاء. إنها مملكة الحيوان-الإنسان، الذي يتنكر بالقشرة الخارجية لحضارته كـ "إنسان صالح." وهذا يعني المزيد من "القبور المُبَيَّضَة" مع بداية

الألفية[1]. فهل هي الأزمة الأخيرة بالنسبة للجنس البشري أم أنها عبودية الإنسان الطيب، إنما الغبي، الذي يستغله الآخرون بمكرهم الحيواني؟ كل هذه الأفكار لاتفيد إذا لم يتمتع المرء بوعي فردي صاف، وعي متحرر من العبودية العقلية لشخص مغسول الدماغ. وما يراه المرء بصورة طبيعية من الأنانية ليس مثيراً كما هي حالة الحسد، لأن الأنانية تظهر في تصرفات الناس على شكل انتهاك رمادي للأخلاق، انتهاك ناصل اللون ويفتقر إلى الإنسانية، والكرم، والشهامة. إنه يرتبط مباشرة بالجشع ويمثل نمطاً للبخل أو الوضاعة العاطفية التي تمنع المرء من التعاطف مع الآخرين من زملائه، إلا إذا كان التعاطف يمثل خطة تهدف إلى مناورة أوسع.

الأناني، في أعمق مشاعره، صديق سيء عادة، لأن اتصاله الكامل بهذه العلاقة يحدث في مستوى سطحي جداً. هذا لأنه يخشى الانفتاح على الآخرين ويمنحهم الحب، أو الحنان، أو الاهتمام، بقدر ما يعتبر هذا خسارة أو إهراقاً مؤلماً لشيء يخصه وحده. فالشخص، سواء كان رجلاً أو امرأة، الذي يوجه رغبته العشقية إلى شخص أناني، فإنه لن يحظى بحب مقابل، كما أن رغبته وعواطفه لن تُقيَّم كما ينبغي، أو أنها أيضاً لن تُستقبَل بما يليق بها. إن من لايستطيع أن يحب أو لايعرف كيف يحب، لايكون عادة في حالة تسمح له بتلقي الحب. وعلى العكس، إن الإحساس الأناني يقود المرء إلى استخدام شريكه كوسيلة لمتعته أو سعادته الخاصة، حتى دون أن يدرك المناور أنه يفعل ذلك. والشخص غير الودود، الذي بالكاد يعبر عن عواطفه، الشحيح في منح الحب، يطلب، رغم ذلك، اهتماماً مستمرا من شريكه.

ثم تأتي الأنانية الفكرية، وهي حالة الفرد الذي يتمسك بأفكاره على نحو متعصب وأعمى وينغلق على أي تحليل لأفكار جديدة. هذا الفرد يعبد أفكاره الخاصة كما يعبد الآلهة ويبني كوناً عقلياً مغلقاً، وغامضاً لايمكن أن تنفذ إليه أفكار الآخرين. وبالمناسبة، من المهم أيضاً تحليل الأنانية عند الأطفال والمسنين، الذين يكشفون عن صفات مماثلة. فالمسنون، في القسم الأخير من حياتهم، يخبُرون أزمة أنانية هي، في الواقع، غريزية لحفظ الذات. ويجعلهم إدراكهم لضعفهم الخاص يتشبثون بعناد بذكرياتهم العائلية، وممتلكاتهم المادية. وبعضهم يثق في أن هناك نوعاً من مؤامرة لتجريده من ممتلكاته فيزداد تمسكاً بها.

---

[1] -ربما يقصد بها بداية الألفية الثالثة لأنه نشر هذه الكتاب عام ٢٠٠٠ (اي، نهاية الألفية الثانية -المترجم.

حتى أن بعضهم يحتاج إلى علاج لتخفيف هذه الحالة. إن إحساسهم بشدة ضعفهم، وهشاشة وجودهم، والزمن اليسير المتبقي لهم يجعلهم يتفاعلون بقوة مع الجشع النفسي الذي يدفعهم إلى تمضية الزمن بهذه المشاغل، أو اجتذاب الإخلاص، أو الاهتمام من الآخرين، وذلك لكي يرفعوا من مستوى الذات التي تعاني حالياً من الوهن. وقد تكون مطالبهم متعددة ويجب علينا أن نفهمها إنسانياً في سياقها الحقيقي.

والأطفال، في عمر معين، هم الكائنات الأكثر أنانية في العالم ويحتاجون إلى انهماك آبائهم بهم بصورة تامة، ويخضعونهم، بصورة استبدادية، لأكثر طلباتهم تنوعاً، تلك الطلبات التي يجب إشباعها فوراً وإلا فإنهم يلجؤون إلى نوبات من الغضب والدموع. إن قربهم من فترة نرجسيتهم الجنينية تجعلهم حتى الآن عاجزين عن التمييز، بشكل مناسب، بين الـ "أنت" والـ "أنا" وإدراك مدى استقلال العالم الخارجي عن ذواتهم الخاصة.

تكمن المشكلة الأخلاقية الأساسية في معرفة كيف نميز، بالشكل المناسب، بين مختلف أنماطها، لأنه ليست كل أنانية سيئة أو غير ملائمة. فهناك الأنانية الهدامة التي تجفف الروح والقلب، تلك التي تقود إلى القسوة، إلى طموح غير متناسب، إلى الوحشية، إلى السخرية والعنف؛ ولكن هناك أيضاً نمط آخر من الأنانية يمكن ان يؤدي إلى إنجاز تام لأعلى المعايير الأدبية والخلقية. ولكي نفهم هذا الموضوع، عندما يتحدث أحدهم عن الأنانية، يجب أن نطرح السؤال التالي: ما نمط الأنانية الذي نتحدث عنه؟ ما الذات أو الـ "أنا" التي تشير إليها هذه العاطفة؟ من الواضح أننا لانمتلك فقط "أنا" واحدة، بل هناك هويات متعددة تستحوذ، بصورة حصرية وبالتناوب، على عقولنا لتحملنا إلى هذا الاتجاه أو ذاك. ودون أن نمضي بعيداً إلى عمق المسألة، فإن كل واحد تقريباً يسلّم بثنائيتنا ونمتلك "أنا" حيوانية تتركز في المادة الجسدية، و"أنا" روحية تقابل "النفس" أو الشرارة المقدسة. يمكن تفسير هذه الثنائية القطبية على أنها تعايش هويتين مختلفتين. إحداهما أدنى درجة وبدائية، وهزيلة الارتقاء ولكنها تتمتع بقابلية كبيرة لاختزان المعلومات. والثانية أعلى، وغير فانية، وأبدية، ولا يحدها زمان أو مكان، ولكنها تبقى في حالة كمون إلى ما لا نهاية. ويمكن أن نعرِّفها بـ "الروح" أو "الكينونة،" أي الـ "أنا" الحقيقية العليا عند الإنسان. ولكن هذه الإمكانية قلما تنجح في إظهار نفسها من خلال الدماغ البشري بسبب ضعف مستوى الوعي عند الناس. وقابليتها ليست ذات طبيعة معلوماتية ولكنها قابلية للمعنى.

والقابلية للمعلومات خلْقية، على خلاف القابلية للمعنى. ويمكن تنشيط القابلية للمعنى

فقط من خلال تنمية وعي أعلى، وهو الذي يشكل القابلية الأعلى والأكثر قيمة التي يمكن أن يطمح إليها كائن بشري، إنها ماسة ثمينة ليس الذكاء الذي نعرفه بالمقارنة معها أكثر من حجر غشيم. إنها حالة متبدلة للوعي، بمعنى الارتقاء العمودي الصاعد، الذي يمكن بلوغه فقط عن طريق تنمية القدرة على إدراك المغزى، الذي تمثل المعلومات قشرته فقط. ولكي نتيح الفرصة لإمكانية ولادة وعي أعلى، نحتاج إلى سنوات عديدة من العمل المنظم في عالمنا الداخلي.

لاأريد أن أتحدث في هذا الكتاب بالتفصيل عن طبيعة التدريب الذي أعنيه بالضبط، لأن العالم مليء بالمخادعين الغامضين الذين هم على استعداد، في سبيل تضخيم ذواتهم الوضيعة، لتزييف أية معرفة جديدة أو مختلفة وتدويرها إلى مستواهم في معاداتهم للأخلاق، أو لاأخلاقيتهم، أو قصر بصرهم، ويقدمونها على أنها معرفتهم الخاصة، أو يحولونها إلى بضاعة يمكن أن يتنافس عليها سوق المستهلكين. ولهذه الغاية، يقومون أولاً بتجريدها من محتواها الجوهري الثمين ويحولونها إلى "قطعة حلوى" عديمة الفائدة، ولكنها صالحة للتسويق.

وكما يقول المثل، إن الناس عادة "يضعون كل بيضهم في سلة واحدة" لقناعتهم بأن "المعرفة" هي المعرفة، أو أن "الحكمة" هي الحكمة. يحدث هذا، بوجه خاص، في الحالات التي فيها لانجد وسيلة لتمييز ناتج أصلي من ناتج مزيف، وذلك بسبب الافتقار إلى معلومات حقيقية. وهذا أشبه بحالة محزنة يوجد فيها أناس مزيِّفون يغشون مزيُّفين آخرين كانوا بدلوا من قبل ما كان أحدهم قد قام بتزييفه قبلهم. وفي هذه المرحلة، لايكون الناتج مشتقاً فقط، بل مجرد مادة نفاية، لأنه يفتقر إلى المقوم النشيط الذي يُحدث التأثيرات المرغوبة.

هناك، في الحكايات القديمة حول الخيمياء[1]، أشكال مختلفة لحكاية متمهِّن طموح يسرق من معلمه جزءاً من "حجر الفلاسفة" لإنجاز تحويلاته للرصاص إلى ذهب، ولكن بعد عدة محاولات لاستعماله، لم يستطع تحقيق غرضه، مما يقودنا إلى الاستنتاج بأن العنصر الفعال كان داخل الكيميائي لا في الحجر. لقد جرى تصميم كافة هذه الأفكار للتحدث عن "ذات عليا" بالمقابلة مع الـ "أنا الأدنى".

تسيطر على الذات الأدنى شهوات بهيمية بدائية وتتعرض للفساد من البيئة، وهذا هو

1-الكيمياء القديمة وكانت غايتها تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب-المترجم.

السبب الذي يبرر لنا التحدث عن "أنانية لاأخلاقية" لاتحمل احتراماً أو اعتباراً للناس وتستغلهم عادة وكأنهم مجرد بيادق يمكن استبدالها. وآنئذ ندرك أن دوافع الـ "أنا" التي توجه الشخص عادة-وهي هوية الشخصية- يمكن أن تكون لاأخلاقية تماماً، كما بيَّن فرويد، وكان على صواب تام، عندما أشار إلى عوامل الدفع اللاواعية، وهي في هذه الحالة "أنانية تستحق اللوم." إن حالة الـ "أنا الروحية" مسألة مختلفة تماماً، لأنها شطرنا الوحيد النظيف كلياً كما نحن. ولاريب في أن الالتزام الأول للفرد في الحياة هو واجبه تجاه "أناه الروحية"، لأنها الوسيلة الوحيدة التي بها يؤثر على قوة شخصيته وإرادته لتصعيد عواطفه ولكي يصبح إنساناً مستقيماً ، وبذلك يستجيب لخطط الخالق التطورية.

إن الهدف الأسمى للتصرف الإنساني ليس فعل الخير في سبيل الآخرين، بل تحقيق مبادىء الأنوية السامية التي تضع، عند تصنيفها للأشياء في الحياة وفقاً لأسبقياتها، الارتقاء الفردي في المقام الأول. وهذه هو الإسهام الأسمى الوحيد الحقيقي الذي يمكن للفرد أن يقدمه للمجتمع، لأن معنى العطاء هو أن "يعطي المرء نفسه،" والإنسان الذي حقق ذاته على نحو تام وصحيح، هو الوحيد الذي يمكنه أن يعطي العالم ما يحتاج إليه فعلاً وليس ما تتطلبه مصالح اللحظة، الاقتصادية أو السياسية. كثيراً ما يدور الحديث حول الحاجة إلى أناس يشاركون في الأعمال الاجتماعية كوسيلة لتعاون المرء مع زملائه، ولكن ما من أحد يفكر أبداً بأن كل فرد، بحد ذاته، يمثل إسهاماً للمجتمع فيما يخص سمو تطوره البشري أو فساده. لاريب في أن كل إنسان يساهم بنفسه إلى العالم، والمجموع الكلي لهذه المساهمات هو الذي يسبب صلاح المجتمع أو ابتذاله. ومن سوء الحظ أن تكون مساهمات الكثيرين سلبية لأنهم لايزعجون أنفسهم أبداً في إكمال انفسهم أخلاقياً وروحياً لكي يصبحوا نماذج للقيم العليا. وبالتالي يعملون عادة، بدلاً من أن يسهموا بشيء ما ذي قيمة، على تلويث الإرث الروحي أو إفساده؛ أو يسرقونه لأنفسهم، وبالطريقة الخائنة إياها، يسرقون السلع التي يجدونها حولهم. إن المجتمع مجرد مجموعة من الأفراد لايمكن فيه أبداً أن تحل الكمية محل النوعية. ويأتي التقدم والارتقاء دائماً من اختيار مجموعة روحية أو فكرية، لامن الحشود. إن شخصاً حقق ذاته، من وجهة نظر عليا، يمكن أن يسهم بالكثير إلى العالم، ولكن شخصاً لم يزعج نفسه أبداً أولاً بتطوير نفسه لن يكون لديه عادة ما يسهم به، سوى عيوبه وإخفاقاته. إن ازدراء، أو رفض، أو تجاهل المرء لتحقيق ذاته روحياً يعتبر تصرفاً لاأخلاقياً من وجهة نظر قوانين الطبيعة، لأنه الهدف الرئيس للحياة. وأن يوجد المرء، لايعني فقط مسألة بقائه على قيد

الحياة، ولكنه، بدلاً من ذلك، ينبغي أن يعمل وفقاً لقوانين الحياة، لأن من يفعل هذا هو الوحيد الحي في الواقع. أما البقية فهم مجرد أشباح يبحثون عن مصيرهم، كائنات تهيم ضالة عبر الحياة، يجدُّون فقط في طلب الخير الظاهري أو اللذة الآنية. ومن يستجيب لتكليف الأنوية السامية هو وحده من يملك ميراثاً يخلفه لأطفاله. وكما يقول المثل السائر إن أفضل حسنة يمكن أن يفعلها المرء هي أن يعلم إنساناً كيف يصطاد السمك لاأن يعطيه سمكة. وعندما يمارس فرد الأنوية السامية، فإنه لن يحتاج، لاهو ولا أطفاله، إلى الحسنة، لأنهم سيكونون في وضع يجسدون فيه ثروتهم الداخلية، أياً كان مركزهم الاجتماعي. وهذا هو السبيل الوحيد للتخلص من كافة الطبقات الاجتماعية بضربة واحدة، الأمر الذي يوطد المساواة في الإمكانيات، لاعن طريق مرسوم أو أمر، بل لأن وجوداً كريماً، وشريفاً، وناجحاً يمكن أن يكون في متناول كل من يتحمل مشقة تحقيقه.

وكشرط أساسي، يحتاج المرء فقط إلى أن يدرك أنه يمكن تحقيق هذا الوجود، وأن آخرين سبقوه إلى تحقيقه، وأنه ليس مطلوباً منه أن يحصل على ترخيص من أحد لمباشرة العمل.

نحن، روحياً، كلنا متساوون من حيث الجوهر، مع أننا قد لانتمتع بالملكات نفسها، لأن مسألة زيادة هذه الملكات مسألة عمل فردي. وإن طبقة المحرومين الأكثر مدعاة للحزن الذين لايعانون من حاجات اقتصادية ملحة، هي التي يفتقر أفرادها كلياً إلى الحساسية الروحية التي تساعدهم على التطلع إلى أن يكونوا أكثر إنسانية وأن يصبحوا كائنات أعلى. وهذه الحساسية الروحية بالذات هي التي تساعدهم على التغلب على عيوبهم وعواطفهم، وقهر كل رذيلة، وتصليب شخصيتهم وإرادتهم، ولكي يكونوا سعداء ومستقيمين من خلال جهدهم الخاص. أما من يبتعدون عن إمكانية أن يصبحوا روحيين، فإنهم يقنعون أنفسهم بالوجود شبه البهيمي للاستهلاكية الأنانية، والانغماس في الملذات، وتكبير صورتهم الخاصة. ومما لاشك فيه أن أعلى شكل ممكن للأخلاقية يؤدي إلى التسامي بالذات لبلوغ الكمال الروحي، الذي يضمن لنا سعادة حقيقية دائمة. فإذا فشلنا في الاهتمام بهذا، فإننا نكون قد اقترفنا خطيئة الحماقة، والغرور بازدرائنا للموهبة الأكثر أهمية التي حبانا إياها الخالق. وإذا واصلنا اهتمامنا بموضوع الإحسان في علاقته بالأنانية، فإنه يجب أن نضع في اعتبارنا أن الشخص الوحيد الذي يتمتع بحرية مستقلة للتفكير وبوعي عال هو الذي يتمتع بالقدرة الضرورية للتمييز بحيث يحدد أي نمط من الإحسان يجب بذله، ومتى، وفي سبيل من.

ومن لايكون في مثل هذه الحالة، يمكن فقط أن يتقدم وفقاً لأمر لايتغير تمليه برمجته العقلية، وبالتالي يغفل أي تعريف أخلاقي مستقل للتصرف الذي يزمع القيام به.

الفساد

الكلمة "فساد" تعني "فعل الإفساد وتأثيره أو أن يصبح أحدهم فاسداً." والمرء يُفسِد، يعني أن "يبدِّل، أو يغير شكل شيء ما؛ أو يبدد، أو يفسق، أو يؤذي، أو يُفسِّخ، أو يتلف، أو يغش، أو يُضِلّ، أو يرشو أو يجبر قاضياً أو أي شخص آخر، بالهدايا أو بوسيلة أخرى." وإذا التزمنا بالمعنى الضيق للكلمة، باستخدامها لتحليل حالات داخلية وايضاً خارجية، فإن الفساد، يمثل، في قليل أو كثير، شيئاً ما تمارسه أكثرية كبيرة من الناس، الذين يغشون أنفسهم بهذه الطريقة نتيجة للتشويش الذي تسببه التأثيرات البيئية.

يجب على المرء أن يسلِّم بأن كل فرد تعرضت طبيعته للاستلاب، أو التبديل، أو التزييف من خلال عملية تدريب دووَعييَّة أو إدخال قسري لمعلومات تافهة، إنما يعاني من هول التدهور، أو الإحباط، أو "الفساد"، أو العجز عن تطوير الملكات الأكثر أهمية المتأصلة في حالة الإنسان الحقيقي: الوعي الأعلى اليقظ الذي يميز شخصاً مسرنماً[1] من شخص مستيقظ. إن الشخص الذي لايتمالك نفسه ينتمي إلى قوى غريبة بالنسبة لذاتيته، ويخضع لعملية "تبديل وتزييف" حاطَّة، تؤدي به إلى أن يتجرد من حالته الإنسانية، أو من حريته الداخلية أو من إمكانية حصوله عليها. هذا هو جوهر المشكلة الأخلاقية عند الجنس البشري؛ إنه فقدان المرء لجوهره الداخلي، افتقاره لما يجعل منه إنساناً حقيقياً، على عكس الحيوانات. ويقوده فساد إنسانيته شيئاً فشيئاً إلى التصرف كأداة إلكترونية صنعية معقدة مبرمجة على نحو متكامل، أو كحيوان ذكي مجرد من أي وعي للذات، خاضع للمعلومات العصبونية[2] التي يحملها ولكنها تخرج عن سيطرته. إنه يعمل كنواة خاضعة لتصرفه الخاص.

إن ما يأمر به البرنامج العصبوني ينفذه الفرد تماماً ودون تردد. وما يبدو أنها طريقة عملية معقدة للتفكير المقدر له أن يميز بطريقة رفيعة، هي عادة ليست أكثر من تبادل للمعلومات من خلال دفعات كيميائية وكهربائية بين مختلف المجموعات العصبونية، وهي تجمع آلي أو مؤتمَت تعمل على تفعيله مثيرات مصنفة تعمل كصواعق تفجير لأنماط محددة

1-من يمشي أثناء نومه-المترجم.

2-التي تنقلها العصبونات (الخلايا العصبية)-المترجم.

من السلوك. كل هذا يُنجَز بصورة مستقلة، دون تدخل الفهم العميق أو أي نمط من قدرة رفيعة للمحاكمة أو التمييز.

ولا يمكن أن يكون غير ذلك عند كائن يتملكه وعي شَفَقِيّ[1] بأنه يعيش في حيِّز وسيط بين النوم واليقظة، ويفتقر إلى وعي الذات ومستوى أعلى من يقظة الإدراك. ليس هناك نمط أصيل ممكن لسلوك أخلاقي عال في مثل هذه الحالة البينية أو "الوَسِنة" التي يعيش فيها الإنسان. فالبرنامج المعلوماتي الدماغي يتحكم بسلوكه، وما نسميه "انفعالات" هي عادة ليست أكثر من محفوظات دماغية من نمط مختلف، برنامج عاطفي مصمم للتفاعل بطريقة تلقائية ظاهرياً، ولكنه، في الواقع، تم تكييفه مسبقاً.

لايمكن القول إن التلقائية غير موجودة، والصحيح هو أنها تظهر فقط على نحو استثنائي عند من يكون برنامجهم ضعيفاً جداً. وهي، عند البقية، مجرد محاكاة واضحة. ولهذا، يجب أن نسلِّم بأن ما نعرفه على أنه "حالة سوية" هو، في الواقع، حالة من فساد الملكات عند إنسان حقيقي، نوع بدأ للتو تطوره. ولكن، في المستوى الفردي، يبدو من المعقول أن يتمكن المرء من تحقيق تحول روحي متسام عن طريق الانضباط الداخلي.

ومن منظور الارتقاء الممكن للجنس البشري، فإن الكائن الإنساني يكون هكذا فقط بالاسم، لأنه فعلاً مخلوق بدأ للتو فقط يبتعد عن الجانب الحيواني، وهو أكثر قرباً إلى هذا الجانب منه إلى أي كمال أول أعلى[2]. إن كثيراً من الأشياء المثالية التي نحاول أن ننسبها إلى النوع الإنساني هي، في الحقيقة، يوطوبيات خيالية تضم كائنات تظن أنها، بسبب عدم وجود نوع مماثل تقارن به نفسها، اسمى بكثير مما هي في الواقع، وتشعر أيضاً بأنها سيدة الخلق بينما هي، في الحقيقة، مجرد أدوات له.

يمكن تقييم الحجم الحقيقي للمشكلة الأدبية والأخلاقية فقط إذا أدركنا أننا "لسنا ما نفترض أننا عليه،" وأننا بعيدون جداً عنه. إن الملكة الأكثر أهمية هي الوعي اليقظ، وليس الذكاء. فالذكاء يفتقر إلى محاكمة وتمييز أعلى. وهو ، على أرض الواقع، أداة تناور بها، بصورة آلية، المعلومات الدماغية التي يحملها الفرد. أما الأخلاق فهي قاعدة سلوكية للطبيعة الفردية يجب أن تولَد بحرية في أعماق الذات عند كل فرد، دون ضغوط أو تهديدات

1-نسبة إلى شَفَق-المترجم.

2-هو حال الوجود المتحقق بالفعل عند أرسطو-المترجم.

أياً كان نوعها. ومادام هذا ليس ممكناً، فإن الجنس البشري يجب أن يرضى بممارسة غسل دماغ الناس بمعايير، وقواعد، ومقاييس تضعها جماعات السلطة الأكثر أهمية.

تخترق الرسائل الدُّووَعيية من كل الأنواع عقول الناس العاديين، فتصوغهم بما يتفق مع رغبة المستفيدين من هذا النمط من التكييف. ولهذا، فإن الشجاعة الفائقة عند من يتوقون إلى أن يكونوا أخلاقيين حقيقيين تتمثل بتحقيقيهم استقلالاً نفسياً وعقلياً، لابمعنى الانفصال عن مجموعتهم الاجتماعية، بل بقدر ما يعني ذلك تحقيق زيادة القدرة في التمييز إلى أعلى حد. وتساعدهم هذه الملَكة على الانتقاء الاختياري والتحكم بنمط المعلومات، وكميتها، وجودتها مما يسمحون بدخوله إلى أدمغتهم؛ وكذلك، تنقيح، وتطهير، وتصعيد المعلومات التي دخلت في المرحلة التي سبقت ولادة هذه القابلية للقدرة الجديدة.

وفي هذا المستوى فقط، يمكن للكائن الإنساني أن يتحمل تماماً مسؤولية تصرفاته، لأنه بهذا يحقق حرية تامة بمعنى أن عقله تحرر من استعباد أو سيطرة أي تأثير خارجي. ولن يخضع لإملاءات داخلية لاواعية أو ملزمة. ومن جهة أخرى، سيكون قادراً على الاختيار بكامل الاستقلالية التي يريدها.

عندما ندرك أن طبيعة النوع برمته، إلا في حالات قليلة، مغشوشة ومشوهة (فاسدة)، فإننا سوف ندرك أيضاً منشأ ما نطلق عليه عادة تسمية فساد: المواربة، والارتشاء، والرذيلة، والجنوح، والإرهاب، والسرقة، والغش، والخداع، والخطيئة. وهذه الأنماط السلوكية كلها ليست أكثر من فساد "عادي" يتجاوز الحدود الطبيعية. وما يدعى "الفساد الماكر،" هو ذاك الذي يمارسه الشخص الذي يكون، على الرغم من انه مستقيم، بعيداً عن كونه إنساناً حقاً ويبقى بعيداً عن الملكات العليا التي تنسب تقليدياً إلى النوع. أما "الفساد الصرف،" فهو كل ما يتضمنه النمطان السابقان، إضافة إلى كافة التصرفات التي تبدل النظام القضائي والجزائي.

يظهر الفساد في أسوأ أشكاله عندما يسيطر على من يتمتعون بنوع من السلطة التي تخولها لهم الدولة أو المجتمع، لأن هؤلاء الناس هم، على وجه الضبط، من ينبغي أن يكونوا القيِّمين على نظافة النظام الاجتماعي، ولكنهم، بدلاً من ذلك، يحرِّفون التكليف السامي الذي فُوِّضوا به، وبصورة شنيعة أحياناً. والإساءات أو الأفعال الخادعة التي يقترفها الموظفون المدنيون، من خلال قيامهم بواجباتهم، تستحق عقاباً قانونياً وأخلاقياً أشد منه في حالات

أخرى، لأنه ما من أحد يشتبه بهم، وتحميهم شخصية الدولة. وكلما كان مركزهم أعلى، كان الاحترام الذي يحظون به أكبر. وجريمة المراوغة أكثر خطورة لأنها كسب اعتسافي لإخلاص الناس.

ماكل الأخطاء الأخلاقية تستحق العقاب نفسه، لأنه كلما كان الموقع العام للفرد أعلى، كان صدى تصرفاته وكلماته أكبر. ويحدث هذا مع الديماغوجية، مثلاً. فإنا لاأشك في أنه كان هناك، في كل الأمكنة وفي كافة مراحل التاريخ الإنساني، أفراد يأثمون في استخدام خطابهم السياسي لإغراء الجماهير باقتراف أعمال العنف والإرهاب. ففي أكثر من حالة، كانت هذه التصرفات تتجسد في جرائم شنيعة، بينما كان يبقى المبتكرون الفكريون لهذه الأفعال دون عقاب.

يبلغ الفساد، في الواقع، حدوداً لايمكن تحملها في أي مكان في العالم يوجد فيه سياسيون غير شرفاء وقضاة فاسدون.

فمتى يمكن أن نعتبر أن سياسياً ما أصبح فاسداً؟-يكون هذا عندما يقوده انحطاطه الخلقي إلى ممارسة نفوذه على نحو آثم، ويستخدم خطاباً ديماغوجياً يهدف إلى خداع الناس لغرض وحيد هو كسب أصواتهم الانتخابية؛ وعندما تتحول الرغبة في الخدمة العامة إلى مجرد ستار يحجب الصفقات المالية والطموح إلى النفوذ الشخصي؛ وعندما تقدم القوى السياسية قوة أحزابها على سعادة الناس، وعندما لايكون هدف رسائلها وتصرفاتها هو الدفاع عن حقوق المواطنين بل إبقاء مواقع السلطة منفصلة عن مصالح الجماعة. ويمكن أيضاً أن نجد اللاأخلاقية السياسية حيث تكون هناك محاولات لتخويف القضاة أو الضغط عليهم أو حرف إجراءات العدالة من خلال تهديدات مبطنة ضد القضاة، أو عندما يلجأ الموظفون المدنيون من المستويات العليا إلى نشر تصريحات شخصية عامة للتعبير عن آرائهم حول وقائع لم تحسم بعد.

والضغوط التي تمارسها الصحافة عندما تقوم بشن حملات مضنية ضد أناس لم تثبت جرائمهم بعد بصورة قانونية، هي أيضاً شكل لاأخلاقي للتدخل في شؤون القضاء، الذي يمكن أن يكوِّن قضاته، في هذه الحال، أحكاماً مسبقة، وبالتالي، يفقدون النزاهة الضرورية لكي تثبت العدالة وجودها. واستقلال السلطة القضائية شرط أساسي لاغنى عنه لإدارة العدالة. ولكن هذه المهن القانونية يجب حمايتها دائماً من أي تدخل سياسي. وهو أمر، لسوء الحظ، لايمكن تحقيقه.

يعتمد النظام القضائي على الإخلاص عند من يشاركون في "العقد الاجتماعي،" وينهار هذا النظام عند خرق هذه القاعدة. وما يدعو إلى الأسف أيضاً هو ضعف الإمكانيات التي يستخدمها، على أرض الواقع، مواطن ما لمواجهة الأحكام الجائرة أو الأخطاء التي يحتمل أن يرتكبها القضاة، أو الموظفون القضائيون أو المدنيون، من خلال السلطة التي يمارسونها على حرية المواطنين وسمعتهم. ولا يمكن لمواطن، عندما يتأثر بتصرف غير قانوني لأحد القضاة، أن يحاول شجب هذا الخطأ دون إيجاد دليل موثق على الخطأ. وعلى أية حال، سيكون هذا مستحيلا تماماً ما لم يصبح الضحية جاسوساً أو ينتحل دور شرطي. فعلى سبيل المثال، يصعب، في حالة عاثرة لقاض مرتش، إيجاد دليل لإثبات الحقائق، وهكذا، يبقى الآثم دون عقاب إلى ما لا نهاية. وإذا أخطأ محام مع موكله، كأن يحقق فائدة غير ضرورية من المعلومات التي يخوله الحصول عليها التفويض القانوني للموكّل؛ فإلى أين يذهب هذا لطلب المساعدة؟ هل يذهب إلى محام آخر؟ لايمكنني، في مجال الافتراضات، أن أتصور أنه ليس من السهل على محام أن يرفع قضية ضد زميل له، ولا على قاض أن يقاضي قاضياً آخر. ولكن، إذا كان افتراضي ناتجاً عن جهلي بالنظام القضائي، فإنني أقدم اعتذاري عما قلته. ومع ذلك، أظن أن هناك العديد من الناس الذين تخامرهم الشكوك نفسها، ويتطلعون إلى رؤية لشفافية أكبر في مجال السلطات: التنفيذية، والقضائية، والسياسية، هذه السلطات التي هي عرضة للفساد.

تقتضي الأخلاقية الأكثر بساطة شفافية مطلقة في إدارة العدالة، وهذه لاتتيسر لشخص لايفهم القانون. وأقصد هنا الشفافية التامة بخصوص ما تقوم به كل سلطة في الدولة، وأسباب قيامها به؛ الشفافية الواضحة للسلطات العليا في الحكومة وأعضاء البرلمان. فالناس يحتاجون دائماً إلى الاطلاع على ما يفعله من يشغلون تلك المواقع، وكيف يعيشون، وما نوع الأعمال والنشاطات التي يشاركون بها.

فالناس، في الديموقراطية، يجب ألا يعيشوا تحت وطأة إحساس مزعج بوجود سلطة تفنيشية، مجهولة وصامتة في وقت واحد، سلطة تسرع إلى إسكات كل نقد وتحول دون الكشف عن الفساد في المناصب العليا، وبدلاً من أن تعمل على تسهيل الكشف، تجعله أكثر صعوبة، وبالتالي، مستحيلاً.

ولا يظن الناس أن قاضياً متهوراً أو نزوياً يسجن الناس الشرفاء، ومن ناحية أخرى، لا يعاقب نمطاً معيناً من انتهاك القانون، دون تقديم تعليل منطقي للحقائق.

يعاني الناس العاديون في بعض البلدان من تجربة مقيتة تتمثل في أن نظامهم القضائي يمنعهم من أن يمثلوا أنفسهم أمام المحاكم، وبذلك يجبرهم على توكيل محام. وهذا، في الواقع، يجرد المحروم من حقه في الكفاح شخصياً في سبيل حقه. فمن هو أفضل في الدفاع عن نفسه ضد اتهام من المتهم نفسه؟ وهل هو إجراء أخلاقي أن نحرم شخصاً من حق الدفاع عن نفسه؟ وهل إجبار شخص بريء على القبول بأن يدافع عنه شخص ممتهن يعتبر عملاً أخلاقياً، إذا وضعنا في اعتبارنا أن هذا المهني ربما لايؤمن ببراءة موكله؟

وأخيراً، من المنطقي أن يكون المرء حراً في اختياره بين أن يمثل نفسه أو أن يمثله محام. وبخلاف ذلك، قد يتعرض الكثيرون من الناس البريئين وغيرهم ممن تضررت حقوقهم أو أُفسدَت لخطر العجز عن حماية أنفسهم لأنهم يفتقرون إلى الموارد الاقتصادية الضرورية؛ أو نضوب هذه الموارد في منتصف الطريق، وعندئذ، سيربح القضية الطرف الذي يمتلك وسائل مادية أكبر. ومن وجهة نظر اخلاقية، أظن أن نظاماً يجلب مواطناً إلى محاكمة ويمنعه من الدفاع عن نفسه أو تولي الدفاع بنفسه في تلك المحاكمة هو نظام مشكوك فيه بدرجة عالية. وليس من الأخلاق أيضاً الاحتفاظ بستار من الغموض والصمت حول ما يحدث داخل الحكومة، وحجب الدوافع الحقيقية التي تقود أعضاءها إلى اتخاذ هذا القرار أو ذاك. وبما أن هذه القرارات تؤثر إلى حد مثير على حياة جميع المواطنين، فإن تطبيق مبدأ "أسرار الدولة،" يجب استبعاده إلا ما يتعلق منها بالأمن الوطني للبلد.

ومن المؤسف أن تلجأ حكومة ما، لأسباب سياسية، إلى هدهدة وعي الناس بهدف تنويمهم، وبهذا يبقونهم سلبيين ومطمئنين، مع أنهم يُخدَعون، في الواقع، بنوعية محسَّنة من الحياة. وهذه أيضاً هي حال الحكومة التي تتستر على بعض الفضائح وتضخم أخرى، بدلاً من أن تجعلها كلها بالدرجة نفسها من الشفافية لمصلحة الناس. أقصد الحكومات التي تعمل وفقاً لأوامر حزب سياسي مقررة سلفاً في اجتماعات سرية، ولا تعلن أبداً أسباب تصرفاتها.

إنه انحراف حقيقي ومخجل أن تتحكم بدولة دائرةُ من دوائر القوى بعيدةعن خدمة الناس، وغريبة بالنسبة لحاجاتهم ومصالحهم الحقيقية، وتميل حصراً إلى زيادة سلطتها وسيطرتها، وبالتالي، زيادة عدد المواطنين الذين يؤيدون نظامها.

يتلقى الإنسان العادي يومياً دروساً في الاستقامة أو الفساد من البيئة التي يعيش فيها، وخصوصاً من تصرفات الهيئات التمثيلية، التي فيها تحتل الدولة موقعاً مهماً. ومن سوء الحظ

أن يحدث أحياناً أن تصبح تصرفات الموظفين من المستويات العالية مشتبهة فقط بسبب الافتقار إلى أي كشف حقيقي وكامل حول تصرفاتهم. والأشد خطراً هي تلك الإشارات المقنَّعة التي تطلقها بعض الحكومات عند وجود نوع من تصرف متناقض، كما في عدم تطبيق المرء لما يعظ به، أو عندما تتجاهل اليد اليمنى ما تفعله اليد اليسرى. إن معظم الناس يميلون إلى الاعتقاد بأنه إذا انتُخبَت الحكومة بصورة شرعية، فإن كافة تصرفاتها ستكون "جيدة،" من غير شك بتلك التصرفات. وبالتالي، يمكن رؤية الأنماط السلوكية غير الملائمة كأنماط سوية. ومن خلال نوع من الانحلال الأخلاقي، هناك بلدان أصبحت فيها الجريمة والفساد حقيقية حتمية في الحياة. وفي أمكنة أخرى، اعتاد الجميع على تلوث الماء والغذاء. وليس فيهم من يرف له جفن بخصوص الأطفال الذي تتسمم دماؤهم وأدمغتهم بالرصاص أو المواد الأخرى كلما تنفسوا، ولا يزعجهم المسنون الذين يموتون قبل أوانهم تحت تأثير المواد السامة التي تلوث الهواء والغذاء.

هناك قوانين تعاقب بشدة شخصاً يتورط في حادث سير، أو شخصاً لم يستطع إيجاد المال اللازم لتغطية سند مصرفي، ومع ذلك، نجدها لاتعنى بمن يرتكبون جريمة تلويث الهواء، أو البحار، والأنهار، والغذاء. وربما يمرض ملايين الناس أو يموتون في أنحاء العالم بسبب تلوث المواد الغذائية أو الأدوية، وقلما نسمع بتطبيق عقوبات على المسببين.

فعلى سبيل المثال، ما نمط المراقبة المتبع في المطاعم؟ في الواقع، ما من أحد يعرف الحالة الصحية لموادها الغذائية، وتُعطى الأفضلية لمظهرها التجميلي قبل محتواها. إن صحة الناس وسعادتهم تتطلبان أن تخضع كل منشأة تقدم الطعام إلى فحوص صحية دورية مفاجئة، ولكن هذا يحدث فقط في البلدان العالية التطور. فإذا طبقنا مبدأ الشفافية على حالة الغذاء، فإنه يبدو منطقياً جداً نشر نتائج الفحوص التي تُنجَز بانتظام في هذه المنشآت في الصحف. وعلى السلطات المعنية أن تحدد بالتفصيل كافة الشروط، وترفع من مستواها، فنشير إلى الأدوات اللازمة في المطبخ والطرق المناسبة لتخزين المواد الغذائية والتي يجب أن تتوفر في المطعم، إضافة إلى وضع معايير صحية لحيازة المواد الغذائية وللناس الذين يعملون في معالجتها.

أن يتعود الناس على التسمم من الجو وعن طريق المواد الغذائية الملوثة نتيجة لايمكن تبريرها. وتساهل السلطات في هذا الجانب ليس فقط تصرفاً لاأخلاقياً صريحاً، ولكنه أيضاً اعتداء إجرامي على كافة السكان ويجب أن يُعاقَب عليه بشدة.

الضبابية أو الشفافية، تلك هي المسألة.

فعلى سبيل المثال، هناك بلدان نجد فيها إرادة وطنية نحو الشفافية. أما إذا كان يتم تحقيق ذلك بواقعية حقيقية أم لا، فتلك مسألة أخرى. فهناك ديموقراطيات تعرض دائماً تصرفات الرئيس-أياً كانت- بمظهر إيجابي جداً، كما في شؤون الأسرة، والرياضات التي يمارسها، وساعات العمل، ونمط الحياة الذي يعيشه، إضافة إلى أسلوب حياة مساعديه، الذين يخضعون أيضاً، بصورة دورية، لاختبار المخدرات ويقدمون كشفاً علنياً حول أي ظرف يمكن أن يُعرِّض سمعتهم أو سلوكهم للشك.

إذا أردنا للتصرف العام أن يكون عند الحد الأخلاقي الأمثل، فإنه يجب أن يكون دائماً واضحاً ومتألقاً. فالمواطنون يجب ان يجدوا مأتىً سريعاً إلى معلومات واضحة وموجزة حول كل ما تقوم به الحكومة أو مالا تقوم به، وهكذا تتقشع سحابة السرية والشك التي تغلف دائماً الاقتصاد، والمالية، والضرائب، والأداء السياسي والقضائي.

المواطن س يجب أن يكون متأكداً تماماً بخصوص سبب معاقبة القاضي له مع أنه يعتقد أنه بريء، أو أنه بريء فعلاً؛ أو لماذا يحجم قاض آخر عن معاقبة شخص أساء إلى شرفه أو سرق ممتلكاته الشخصية؟ ولماذا يعاقب القاتل آ بالسجن مدى الحياة في حين تُفرَض على القاتل ب عقوبة خفيفة ويُطلَق سراحه؟ يجب أن يكون النظام القانوني مفهوماً بالنسبة للمواطنين وألا يتهرب من مسؤولياته عن طريق الاختباء خلف النسيج العنكبوتي السري لمجموعة من القوانين لأن هذا يكشف عن فقدان الاحترام للناس. وينبغي أن يكون الناس قادرين على إدراك المنطق الذي يحرك السلطة القضائية عند دراستها لعقوباتها، لأنه إذا كان النظام مغلقاً، وغامضاً، واستبدادياً، ومطلق القدرة، ولا يحترم سمعة الناس وكرامتهم، فإن الفرد يجد نفسه في موقف قزمٍ لأنه يُسحَق بوحشية في قبضة عملاق متبلد الإحساس يتعذر فهمه تحت ذريعة "إعادة تأهيله" من أجل جزء ضئيل لم يكن يعرف عنه شيئاً، وبصورة رئيسة، لأنه لم تتيسر له الوسيلة لاكتشافه.

كان يقال دائماً إنه يجب على الفرد أن يتقبل عقوبات العدالة، وهذا واضح. ومع ذلك، أتساءل حول ما إذا كان يجب أن يكون هذا القبول خضوعاً أعمى أو عبودية لأمر مؤسسة تحتكر العدالة والقوة الضرورية لفرض أوامرها، أو ، بدلاً من ذلك، أن يأتي هذا القبول من قناعة شخصية بأن العدالة تُطبَّق فعلاً؛ وهي قناعة تنشأ من الفحص العقلاني لعملية منطقية

يمكن فهمها بوضوح. ومن المنطقي أن نتوقع أن يأتي القبول من قناعة شخصية، لأن الأمور إذا لم تجر على هذا النحو، فإن الفرد سوف يشعر أنه ضحية الشرطة وحماة القانون. وسوف يشعر بأن هناك آلية لايفهمها تعتصره. ومع أنه قد يكون مذنباً، فإن إعادة التأهيل ستكون بعيدة الاحتمال بقدر ما يحتال لعدم الاعتراف بأفعاله كمجرم. وباسم الأخلاق، ينبغي للعدالة الا تدخر جهداً في سبيل أن تكون أكثر وضوحاً مع من يتأثرون بعقوباتها، لكي لاتبدو مجرد وجود عقابي، انتقامي، لأنها، بهذا الصيت سوف تعوق قابليتها التأهيلية. ويجازف المرء أيضاً في شجب الحقائق الكريهة دون دليل إثبات، لأنه يعرض نفسه لخطر زجه في السجن بتهمة الافتراء.

والحقيقة هي أنه ما من أحد يمكنه أن ينهض لوحده بوظائف محقق سري، ولهذا يجب أن تناط بالشرطة مهمة البحث عن دليل يمكن به إثبات التهم الإجرامية. ولكن ما من أحد أيضاً، وللأسباب التي أتينا على ذكرها أعلاه، يجرؤ على أن يقوم بهذا، والأشخاص الوحيدون الذين يمكن أن يستفيدوا من هذه الحالة هم من ينتهكون القوانين. ومن المحتمل جداً أن تمر آلاف الجرائم المقترفة أمام شهود عيان دون عقاب، لأن من شهدوا الجريمة يخشون التبليغ عنها. وهكذا، نجد المفارقة التي تتمثل في أن المجتمع لايعاقب أبداً على بعض الجرائم التي لايسمع بها، وبذلك "يُكافأ" منتهك القانون بفعالية عن طريق احتفاظه بصورة المواطن الممتثل للقانون. إن الفساد المقنّع هو من أسوأ أنواع الفساد، لأن أحداً لايلاحظه ويبقى أنصاره مجهولين، يستفيدون من ثمار جرائمهم. ومن وجهة نظر أخلاقية، إن الحصيلة الأكثر خطورة تكمن في أن يتعود النظام الاجتماعي على هذه الأنماط السلوكية الفاسدة الأكثر مكراً، وتصبح، في لحظة ما، طبيعية ومألوفة إلى درجة لايشعر الناس بالصدمة إزاءها. وهذا يقتضي ضمناً عملية "غض الطرف،" أي، العمل تدريجياً على تخفيف المعايير لزيادة التساهل العام. وهذه العملية ترتبط عادة باللاأخلاقية. إن ما أسعى إليه في هذا الكتاب هو رفع المعايير إلى مستواها الملائم، مع أن الكثيرين يمكن أن يظنوا أن ما أطرحه هو معيار يوطوبي أو مبالغ فيه. خصوصاً وأن شريعة الإنسان تسمح لأكثرية كبيرة من حالات الفساد بالإفلات من العقاب، ولكن الشريعة الطبيعية سوف تستدعي، في الوقت المناسب، الفاسد للمثول أمام محكمة الطبيعة، التي تعاقب على أي إخلال كيفي بالتوازن يسببه، مثلاً، من سرقوا شيئاً من زملائهم أو أخذوا، ظلماً، ما ليس لهم. فكيف تكون هذه العقوبة؟ إنها ببساطة الوسيلة لإعادة التوازن الذي غيّره المنتهك عندما قام بفعلته على حساب قانون المكافىء المساواتي

وانتهاكه لأنه وجد مستوى من الراحة في ذلك. إن المبدأ "من يخطىء، يدفع" هو فعلاً مبدأ أخلاقي ينطوي بداهة على أن العدالة يجب أن تأتي من التساوق الطبيعي لامن الانتقام البشري. فالشريعة الأبدية تقول إن المرء يُجرَّد من السلع والممتلكات الشخصية بمقدار يتناسب مع ما امتلكه بطريقة ظالمة أو غير مستقيمة.

ولنأمل ألا يؤدي الفساد التدريجي عند الجنس الإنساني إلى أن يقوم هذا الجنس بتغيير اسم النوع إلى اسم معاكس تماماً: "الجنس اللاإنساني." فالحالة التي نعتبرها الآن حالة سوية يمكن أن توازي، دون قصد، مستوى متقدماً من انحطاط الملكات العليا عند الإنسان، أو فقدانها، أو ضمورها، حتى لكأن الأخلاق، أو الافتقار إليها، هو مجرد نتيجة منطقية إما لوعي لم ينم أومفرط في ضموره. ومن غير المحتمل أن يحدث الفساد عند الفرد الذي تغلب على نفسه، فعمل على تصعيد طاقته الجنسية وصياغة شخصيته بسيف إرادته القوية وغذى نفسه بالقيم السامية للحياة.

الفساد طبيعي عند أصحاب الشخصية الضعيفة الذين لايتمتعون بالقوة الضرورية للصمود في وجه عوامل الإفساد ، أو الحساسية الضرورية لامتصاص قيم عليا وتنميتها. ويُظهِر المنغمسون ذاتياً زيادة في التساهل فيما يتعلق بتصرفاتهم، وهذا العيب الموروث يشكل تربة خصبة لبذور الفساد والرذيلة. فكل فساد يقوم على أساس ضمور مفرط للشخصية وضعف في قوة الإرادة، مما يقود المرء إلى البحث عن الكسب السهل، وهو السمة المميزة المعاصرة في المجتمع الذي أضعفه اللهاث خلف اللذة والتساهل الاستهلاكي.

الوسطية

تعني الوسطية "أن تحيا كإنسان رمادي،" أن تتصرف كإنسان عادي، أن تلبي معلمات المعيار العام، أي، أن تكون طبيعياً بالمعنى الإحصائي للكلمة. وهناك تعريف آخر لـ "المتوسط" هو: أن يكون قليل الجدارة، قريباً للسيء،" أو "حالة الشيء بين الكبير والصغير، بين الجيد والسيء." وربما يتفق التعبير الأخير مع المعنى المقصود الأكثر شيوعاً، المعنى الذي هو على علاقة أقوى بالكائن الإنساني. وما من أحد أكثر تعاسة اليوم من الشخص الذي يُصنَّف في فئة "متوسط." فهذا التصنيف يشير ضمناً إلى فرد ملتبس ليس بالسيء ولا الجيد، ولا يحمل عيوباً أو فضائل أقل أو أكثر من بقية زملائه. وعلى الرغم من حقيقة أنه ما من أحد يحب أن يكون متوسطاً، فإنه صحيح أيضاً أن المجتمع يمنح، بطريقة ما، امتيازات، أو

مكافآت لهذه الحالة عن طريق تمجيد صلاحيتها. وبالمقابل، فإن النظام الاجتماعي ينكر الناس المختلفين أو الذين يتجاوزون المعدل، دون اعتبار لما إذا كان هذا البعد عن النظام الاجتماعي يشير إلى معيار لقيمة أعلى أو أدنى عند المخلوقات البشرية العادية، وينبغي أن يكون عاملاً حاسماً عندما نصنف أنماطاً مختلفة من السلوك.

يبدو أن المجتمع يخشى الفرد بحد ذاته ويود لو يوحد الناس في كتلة متماسكة غير قابلة للانقسام، بهوية عادية يتم التعامل معها بسهولة. وهناك أمثلة يومية لأفراد يُقدِّمون قرابين لمصلحة الجماعة، طبعاً، من غير تحديد لتلك الجماعة أو لمنزلة الفرد الذي يُقدَّم قرباناً، بقدر ما تكون هذه مسألة "أشخاص،" ويُفترَض أن يكونوا كلهم متماثلين. وليس هناك إشارة إلى مدى طهارة أو فساد جماعة معينة أو إلى مدى سلامة أو استقامة الضحايا المحتملين لآثام الجماعة. وفي حالة هؤلاء الضحايا، يجب أن نضع في اعتبارنا فقط مسألة إلقاء "الدرر بين الخنازير،" وهي عادة شيطانية عُرِفَت منذ أمد سحيق.

كانوا يقولون لنا دائماً إن "الأكثرية تحكم"؛ ويحذروننا من مخاطر "الأنانية،" هذا التعبير الذي يستخدم دائماً بقصد الازدراء، دون أن يعترف أحد بأي شكل للأنوية العليا، أو الفردية الأخلاقية المتسامية التي تهدف إلى الارتقاء الروحي للفرد لاإلى الربح أو النهب الشخصي. وينصحوننا بأن نتصرف بغيرية، أي أن "نكرس أنفسنا ونفرح لسعادة الآخرين،" دون أن ندرك أن هذا يتطلب تمييزاً معرفياً بقدر ما تتضمنه كلمة "آخرين" أوغاداً ماكرين ومنحرفين من كل الأصناف، ممن يعتمد خيرهم على النجاح الإجرامي والذين يريدون تحويلنا جميعاً إلى شركاء تتوجب علينا مساعدتهم.

يحاول المجتمع إقناعنا بأنه يجب أن "نفعل الخير بصرف النظر عمن نقدمه له،" وهي مسألة تبدو عظيمة من وجهة نظر مثالية. ويحاول الناس تبرير صلاحية هذا المبدأ بنسبته، بطريقة ما، إلى يسوع المسيح، ولكن أشك من أعماقي في أن يكون المسيح قال هذا على وجه الضبط. وأظن أن تعبير "افعل الخير ولكن فكر جيداً بمن تقدمه له" مناسب أكثر، مع أنه بالتأكيد لن يكون ممتعاً جداً للسمع لكونه قد تم تزييفه بكلمات ديماغوجية من مختلف الأنواع.

إن العبارات "المغلفة بالسكر" تسبب عادة إدماناً عند الناس، الذي يشعرون، بطريقة ما، بأنهم مطهرون، أو مهذبون، أو معفيين من أخطائهم عن طريق العمل البسيط للمشاركة

في أية حملة إحسان، وإن يكن بصورة سلبية. والحقيقة هي أن هؤلاء الناس لايميزون عادة المسافة بين أصحاب النوايا الحسنة وبين من يعملون، في الحقيقة، على تنفيذ ما يقررونه. وفي عملية تجسيد النوايا الحسنة فقط ينجح الفرد في تقدير مدى الجهد الضروري، هنا يصبح الشعار "مغلف بالسكر" حامضاً كما يبدو واضحاً القول إن "أي شيء قيِّم يكلف كثيراً". وعلى العكس، كلما كان الشيء مبتذلاً وزهيد القيمة، كان الحصول عليه سهلاً. وهذه هي حال النفاية، التي يتوجب على المرء أن يدفع أجر التخلص منها لأنها سلبية القيمة.

يؤمن الشخص المتوسط بالمكاسب السهلة ويدمن عادة المقامرة على أمل أن يحالفه الحظ. وهو مستهلك سلبي للأشياء المبتذلة، سواء كانت مادية، كالبضائع، أو غير محسوسة، كالأفكار. إنه يفتقر إلى الفردية، والشخصية، وقوة الإرادة؛ ولهذا السبب، فإنه يساير الأكثرية مقتنعاً بأن الحقيقة هناك. ويأمل أن يؤثر، بطريقة أو بأخرى، على من يمتلكون شيئاً يريده لعله يمتلك ما يخصهم، ولكنه، نفسه، سيكون عاجزاً عن بذل ما يتطلبه ذلك من جهد حقيقي، ومثابرة، وتضحية.

قيل إن الوسطية يمكن أن ترتبط ببساطة الروح وفقرها ، ولهذا السبب، فهي ترضي الخالق ("طوبى للمساكين، لأن لهم ملكوت السماوات"). ووفقاً لذلك، فإن السعادة القصوى تكمن في أن يقنع المرء نفسه بأنه مجرد واحد من الحشود، يعيش مجهولاً، ويخضع لإملاءات الأكثرية. وتعني أيضاً اهتمامه بفائدة الآخرين حتى ولو على حسابه الخاص، وزيادة فعالية دوره كمستهلك مطيع، ويدفع، دون تذمر، الضرائب التي ترتفع بشكل تدريجي، ويمتثل للوقوع في دين مع النظام المالي دون أن يفكر بمقدار الفائدة التي يدفعها، ويُذَوِّت سلبياً الشعارات السياسية والدعائية، وينجب عدداً معقولاً من المواطنين المستقبليين الذين سيصبحون، بدورهم، مستهلكين مذعنين، وبهذا يتيح للنظام أن يواصل إيقاع نموه.

ولا شك في أن هذا يعني أيضاً أن "يثقف المرء نفسه" وفقاً للزي الحديث، لكي لايكون أخرق من "طراز عتيق،" ولا يتحدى أساليب تفكير العصر. وإضافة إلى ذلك، لابد أن يكون هناك التزام بالقناعة بأنه سعيد وأن النظام يعمل فعلاً، بشكل لايعرف التعب، للنهوض بالحالة الإنسانية. ففي الوسطية، ليس هناك خطيئة أكثر سوءاً من الظهور والارتفاع فوق الحشود المشوهة.

الذكاء، والوعي، والاستقامة خطيئة لاتوصف.

التجرؤ على المخالفة في الرأي افتقار إلى الاحترام.

شجب النفاق وقول الصدق تصرفان لايمكن تحملهما.

كسب قدر كبير من المال إهانة للفقراء.

السعادة استفزاز لايمكن القبول به.

التمتع بقيم روحية عليا مسألة تدعو إلى الشك.

عدم إنجاب الأطفال سلوك يدعو إلى الريبة وعدم الثقة.

تصبح الحياة في عزلة سلوكاً يدعو إلى التساؤل.

وفي الحقيقة، إن الإنسان المتوسط يرضى بأن يكون مجرد قطعة ضئيلة جداً في آلة ضخمة، ويؤسس طمأنينته على هذا، ويرفض أية فكرة، أو محاولة، أو اقتراح لكي يستقل، بمعنى حصوله على استقلال فكري وعاطفي في تحقيقه لنوع من إنجاز أعلى كفرد. فهو يخشى من تحمل المسؤوليات ويحاول التملص منها، ويفضل، بدلاً من ذلك، أن يتلقى الأوامر دائماً. ومع ذلك، فإن الأكثر احتمالاً هو أن يسيء استخدام السلطة التي تُخوَّل له إذا ما أجبر على شغل منصب في السلطة. إن الخانع أمام القوي المتغطرس على الضعيف، يستسلم عادة إلى الحسد والامتعاض. ويختار دائماً السبيل الأقل مشقة ولا يرغب أبداً في توريط نفسه في مشاريع طويلة الأجل.

إن الوسطية اعتداء على القانون الأبدي الذي يقتضي من الفرد ارتقاء روحياً تدريجياً ومترقياً. وهذا الارتقاء هو الأمر الذي يتفاداه الفرد المتوسط بعناد، لأنه، بطريقة ما، يدرك أنه سبيل الناس العظماء ولذلك فهو يستلزم الكثير من الجهد والتضحية. ويتطلب أيضاً أن يتحمل مسؤولية نفسه ويتخلص من كونه مخلوقاً خاملاً، ومشوهاً، ومجهولاً.

الفرد المتوسط ينتهك الشرارة المقدسة، وبالتالي، يسيء إلى الخالق، لأنه، بتجاهله لهذا الكنز الثمين وما يستلزمه من مسؤولية، يتحول اهتمامه فقط إلى القطيع. وهذا القطيع مقدر له، كأسلافه، أن يكررالطقس الوجودي نفسه قرناً بعد قرن، أي، أن يأكل، ويجمع السلطة، ويتسافد[1]، ويتوالد، ويحلم، وينحط، ويموت، تاركاً خلفه ميراثاً من الإلزام النفسي لورثته بالتصرف بطريقة مماثلة.

وهو أيضاً نصف إنسان، رجعي غير مُنجَز، هاجسه الدائم هو السباحة مع التيار،

1-الكلمة "يتسافد"، أي، يمارس الجنس، تستخدم لوصف هذا النشاط عند الحيوانات-المترجم.

وسينحرف حتماً عن غرض وجوده عن طريق عدم الالتزام أبداً بتكليف الفرد بالارتقاء الذي وضعه الخالق. وتقوده عطالته وسلبيته دائماً إلى البحث عن نموذج توافقي مع الحشد لكي يتفادى عبء التفكير لوحده وتحمل مسؤولية قراراته الخاصة.

إن الشخص الذي يبحر دائماً عبر أمواه الابتذال، والفظاظة، والتساهل، بدلاً من أن يُجِلَّ جوهره الروحي الداخلي، ينزلق في وجوده إلى مستوى دون بشري بقدر ما تكون القيم السامية معنية. وإنه لأناني حقيقي، بأسوأ معنى لهذه العبارة، من يحرم العالم من أي إسهام رفيع يدل على اندماجه في المجتمع كفرد بشري عالي التطور. ويفضل، بدلاً من ذلك، أن يبقى كحِمْل ساكن على كاهل المجتمع.

كان الوجود الخامل دائماً السمة الرئيسة للأكثرية الكبيرة من نوعنا، وعندما نقول "الأكثرية تحكم،" فإنما نشير، في الواقع، إلى حقيقة دامغة هي أننا سنبقى عبيداً لعطالة الحشود. وهذا الدافع لايحثنا نحو حياة روحية وأخلاقية أعلى، ولكن، على الأصح، نحو بربرية مادية شعارها الرئيسي، كما يبدو، هو التساهل الاستهلاكي للسلع والملذات. وما يسود هي حالة شبه إنسانية أو لاإنسانية فيها تبتلع الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة، مع أنها تحتفظ بصورة الإنسانية والحضارة.

أن يكون المرء راضياً لايعني أكثر من زيادة واحد آخر إلى ملايين السكان في كوكبنا وتصنيف هذا الواحد كداجن في الحشد الكبير الخامل، ويعني أن يقف ضد الشكل الوحيد الحقيقي للترقي، أي، الترقي الذي ينبذ كل تمييز اجتماعي عن طريق النماء الروحي للفرد، وبالتالي، توحيد الناس بواسطة وعيهم الأعلى لاعلى أساس مكانتهم الاجتماعية. فالتسامح، والحب الأخوي، والاحترام الطبيعي، والعدالة، والممارسة الشاملة لأكثر القيم سمواً يمكن أن تكون ممكنة فقط من خلال تحول داخلي للفرد، الذي يرتبط بحرية بالأفراد الآخرين، لامن خلال حركات الحشود التي تلغي الفردية، وتسيء استعمال حقوق الأقليات، وتُنشِّط أسوأ السجايا عند النوع عن طريق تكوين حشود نفسية. ولما كانت عملية التحول الروحي هي العملية الوحيدة الطبيعية، لذلك فهي الوحيدة أيضاً التي يمكن البدء بها بحرية، ودون أي نوع من الإكراه، بل فقط من خلال الرغبة الشخصية، وسيادة الإرادة، والإدراك عند كل شخص. ولكن، لكي يحدث هذا، لابد من جريان كميات كبيرة من المياه تحت جسور مجتمع ريائي، مجتمع تستلبه القيم الزائفة وتنوِّمه الأوامر المتناقضة التي تصدر بدوافع خفية عن مختلف جماعات السلطة التي تعتبر الناس مجرد

مستهلكين مطيعين، "أدوات" مفيدة يمكن الصعود على أكتافهم إلى مواقع أعلى، اقتصادية أو سياسية.

واليوم، تتكاثر الوسطية بسرعة كبيرة وهي سلطة أعلى من الإنسان العادي، وهي التي تمنعه من اكتشاف سبيل المبادىء العليا، الأدبية والأخلاقية.

الهامَوِيّة الطفولية أو الابتزاز الطفيلي Parasitical Vamprism

في تعريف الابتزاز على اعتباره "ممارسة استغلال الآخرين،" يخلص أحد المعاجم إلى أن هناك تشابهاً بين الخفافيش الماصَّة للدماء ونماذج معينة من الأشخاص. والهامة، في الفولكلور الشعبي، جثة تفارق قبرها ليلاً، وتبدو بمظهر خفاش تمضي لتتغذى على دماء الناس. ويعود الاعتقاد بوجود الهامات إلى عصور قديمة، وقد صورها الكاتب الإنكليزي برام ستوكر، عام ١٨٩٧، في روايته دراكولا. تدور أحداث الرواية في ترانسلفانيا وتروي قصة الكونت دراكولا. إنها لحقيقة مرعبة أن يعود أقدم مستحاث لخفاش، هو الدليل الإكارونكتيري Icaronycteris index، إلى ستين مليون سنة خلت، أي بعد أن بدأت الديناصورات بالانقراض. وأكبر خفاش معروف هو خفاش يافا، بتيربوس فَمبيروس. كان طول جناحيه خمسة أقدام تقريباً وطوله ستة عشر إنشاً. وأصغر خفاش هو الخفاش بيبيستريلا نانوس من أفريقيا الوسطى، وطوله حوالي الإنش ونصف الإنش وطول جناحية أربعة إنشات ونصف الإنش.

والخفاش هو الحيوان الثديي الوحيد الذي يمكنه الطيران، وهو مخلوق ينشط ليلاً بصورة رئيسة وينام مختبئاً في النهار في حين يطير ليلاً ليتغذى على الحشرات، والفواكه، والأزهار. وهناك أيضاً بعض الخفافيش اللاحمة وحتى القارِتة[1] التي تهاجم صغار البرمائيات، والطيور، والجرذان، والخفافيش الأخرى. كما أن هناك ثلاثة أنواع من الخفافيش الحقيقية الماصة للدماء، ونجدها في المناطق المدارية، هي: ديسمودوس، وديفيلا، ودايموس، وتعيش كلياً على امتصاص دم الماشية، والخيل، والخنازير، وأحياناً الكائنات البشرية، ولهذا السبب تُعتبَر طفيليات حقيقية (يقال هذا للحيوان أو النبات الذي يتغذى على مواد عضوية يحتويها جسم كائن آخر حي، سواء كان الجسمان على تماس موقت أو مستمر). ويحتمل أن يكون هذا هو الأصل اللفظي الذي أورده التعريف المعجمي لكلمة "هامَوِيَّة Vamprism".

١-القارِت هو الذي يتغذى على المواد الحيوانية والنباتية-المترجم.

وفي اللغة الانكليزية، يصف الفعل[1] to Sponge أيضاً فعل العيش على حساب الآخرين، أي عالة على طاقاتهم الإبداعية. وليس من قبيل المغامرة الافتراض بأن الظاهرة التي نجدها في طيران الثدييات لايمكن أيضاً أن تظهر، بصورة مماثلة، عند الإنسان الثديي. ولكنني لاأشير هنا إلى حالات المجانين الذين يحتاجون إلى شرب دماء الإنسان (وقد اكتشف العديد منهم في عدد من البلدان) بل إلى من ينزعون دائماً إلى العمل بخبث على تفادي بذل الجهد الشريف الدؤوب الضروري لتحقيق أي إنجاز مهم حتى ولو لإشباع حاجاتهم الخاصة. وبمعنى آخر، إن من "يمتصون" الآخرين يلجؤون إلى خداع زملائهم عن طريق تكتيكات غير شريفة بهدف عدم إعالة أنفسهم بجهدهم الخاص وقدرتهم المبدعة، بل عن طريق الإفادة الماكرة من بساطة الآخرين أو طيبتهم.

واشير أيضاً إلى من لايسهمون بشيء للجنس البشري، بل يحتالون لامتصاص الطاقات المبدعة لشخص أو جماعة من الناس، بهدف العيش بواسطتهم. إنهم كالنبتة الطفيلية التي تلتف على جذوع الأشجار وأغصانها يلتحمون بالناس ، والأسر، ومختلف المجموعات الاجتماعية لامتصاص طاقاتهم دون أن يسهموا بشيء مقابل ذلك. ومن الطبيعي ألا يكون هذا السلوك ثمرة لأي قرار أو تخطيط واع، ولكنه سلوك غريزي يعمل وفقاً لنظام يحدد شذوذاً جينياً عند أسلافنا القدماء.

إن ظاهرة العبودية تقابل، بشكل لالبس فيه، تكوين طبقة طفيلية، أي طبقة مالكي العبيد، الذين يُطعَمون ويحققون الازدهار على حساب طاقات عبيدهم. ويمكن أن نرى اليوم مثيلاً لهذا في اعتماد الناس والبلدان على القوة المالية العالمية. إن أي نمط من الاستثمار هو في الواقع ظاهرة طفيلية هامَوِيَّة فيها تتغذى القشرة العليا من القشرة التي تحتها.

وهناك أيضاً حالة أخرى فيها يُستغَل العباقرة، أو الفنانون، أو الشعراء، أو المصلحون إلى حد الدمار عن طريق تلقيهم رواتب خط الفقر من مؤسسات، أو شركات، أو أناس يظنون أنه يمكنهم شراء أي شيء بأوقية من الذهب، دون أن يدركوا القيمة الهائلة للإرث الثقافي الذي تسهم به هذه الكائنات المميزة. وتتحكم الطبقة الطفيلية اليوم بشطر مهم من حياة الناس من خلال المناورة برأس المال الرباوي الذي تماثل فائدته الدم الطاقيّ الذي تتغذى عليه. وهناك، على المستوى الفردي، من يحاولون التمعج في طريقهم كالديدان، نفسياً وعاطفياً،

---

[1] -يمتص او يتطفل كالإسفنج-المترجم.

نحو الأشخاص المبدعين لكي يتغذوا عليهم، بدلاً من تكوين قيم يمكن أن تحقق ثمناً في السوق الحرة. نحن نعرف أن فرانز مسمير اكتشف، عام 1772، نمطاً من الطاقة تمارس تأثيراً استثنائياً على الجسم البشري، سماها المغنطيسية الحيوانية، وحقق عن طريقها معالجات رائعة. فاستثار بذلك خصومة الأطباء الذين بذلوا كل جهد ممكن لتسفيهه. واليوم، لايشك أحد في أن الجسم البشري يتمتع بنوع من الطاقة النشيطة الخاصة به، وأنه يمكن زيادتها، أو تخفيضها، أو المشاركة بها، أو امتصاصها.

ويبيّن الدكتور هارولد ساكستون بار في كتابه الأنماط الكهربائية للحياة أو تصميم من أجل اللاأخلاقية كيف تُنظِّم المادة إلى مجالات كهربائية، تحمل الطاقة الحيوية التي تنظم الكون، وتوجه كافة ظواهر الوجود. وقد أخضعها بنجاح إلى بحث علمي صارم على مدى أكثر من ثلاثين سنة. فلو درسنا تجاربه، لبدت لنا المغنطيسية الحيوانية المَسْمِيرية هي المغنطيسية الأكثر تعبيراً للطاقة الكونية التي هي الرحم الذي منه ينبثق الوجود الفيزيائي. تعتمد الصحة والنشاط عند الناس على فعالية المجال الكهرطيسي لأجسامهم، الذي يمكن أن يزداد أو ينخفض، ويمكن أيضاً أن يُمتَص من قبل مستقبلة هاموية. وهناك، في الحقيقة، جزء مهم من الجنس البشري يعيش، علناً أو سراً، وجوداً طفيلياً، مقتاتاً على الفوائد التي يحققها بمناوراته العاطفية على الناس الأكثر قوة وإبداعاً، الذين يشكلون عادة أهدافاً للحسد والامتعاض. وتتخذ ظاهرة الهاموية البشرية أشكالاً مختلفة، وأحدها هو الامتصاص المباشر للمغنطيسية الحيوانية لشخص ما، وهو ما يحدث كثيراً في العلاقات "غير المتوائمة" بين زوجين، وفيها يستغل طرفٌ الطرفَ الآخر عن طريق الاغتذاء على طاقته دون أن يعطي شيئاً بالمقابل. وتخفي البرودة العاطفية عادة رغبة بامتصاص الطاقة واشمئزازاً أيضاً من التخلي عن أي قدر منها، وهذا هو السلوك النموذجي للهامة. يمكن أحياناً ملاحظة هذا النمط من السلوك عند المسنين في علاقتهم بالأطفال، وعند المرضى في علاقتهم بمن يتمتعون بصحة جيدة. وفي الحالة الطبيعية، يرتبط الناس ببعضهم بعضاً بطريقة متوازنة، فهناك مقايضة مغنطيسية صحية متكافئة فيما يتعلق بالأخذ والعطاء.

لاتقتضي المشاركة في الطاقة المغنطيسية بالضرورة تبادلاً مساواتياً، لأن هذه القوة وسيلة لمعلومات منظمة ترتشح مع قوة الأمر. فإذا تشارك شخص مريض مع فرد سليم، فإن الثاني سيتخلى عن جزء من مغنطيسيته الصحية للأول، الذي يقدم بالمقابل مغنطيسية مريضة؛

أي، وسيلة إشعاع وتماس عن طريقها ينتقل الاضطراب الذي يعاني منه أو يترسب. وهكذا، تكون هناك صفقة لامساواتية، بقدر ما يقدم أحد الطرفين صحة ويتلقى مقابلها مرضاً؛ في حين يقدم الطرف الآخر مرضاً ويتلقى مقابله صحة. فاحدهما يستقبل الأذى والآخر يستقبل الفائدة، وليس أحدهما أكثر حكمة من الآخر.

ويمكن أن نفهم بسهولة أن الصفقات المغنطيسية تتخذ أشكالاً مختلفة جداً، وأن الناس يمكنهم أن يمتلكوا، في الأساس، مغنطيسية جسدية نظيفة وسليمة أو مغنطيسية قذرة ومريضة. وهكذا، يحدث التلويث المغنطيسي عادة بالعدوى.

إن الحشود التي تتجمع في مكان ما من أجل نشاط معين تقذف حقلاً مغنطيسياً قوياً، يعادل مجموع أعضائها ويمثل عادة مصدراً خطراً للتلوث لأن هؤلاء الأعضاء لايتمتعون بفضيلة أخلاقية.

وعندما يسلّم العلم تماماً بدليل على المغنطيسية البشرية وتأثيراتها، فإنه يتم تقييم اللاأخلاقية التي توجد، في الواقع، عند من يستغل الآخرين لكي يسرق مغنطيسيتهم السليمة أو لكي يستخدم زملاءه كمقلب نفايات لأغراض التخلص من مغنطيسيته المعتلة. والعلم لايبتكر قوانين الطبيعة ولكنه محدود فقط باكتشافها. ولهذا السبب، تعتبر المقايضة اللامتوازنة الحاضرة للمغنطيسية لاأخلاقية تماماً كما يحدث عندما يكف العلم عن تجاهل ظاهرة تم إثباتها مراراً، ولكن الغرور، والرياء، والمصالح المقنّعة هي التي تمنع الوسط العلمي من الاعتراف بها.

يبدأ الوسط العلمي دائماً بإنكار أي شيء يتجاوز حدوده التقليدية، ويتقبله فقط عندما يُواجَه بالسخرية، كما هي الحال عندما يصبح الدليل ساحقاً. وحقيقة أنه ما من أحد يلاحظ هذه الآليات، بمن فيهم الشخص المسؤول عنها، لايعفي الناس أمام الطبيعة، لأن حقيقة أخذ شيء ما بطريقة جائرة ولا متوازنة يُعتبَر هجوما ضد الأخلاق الطبيعية.

والطفيليات هي هذه الكائنات التي لاتنتج شيئاً، وتجد من الأسهل أن تعيش على حساب إبداع وجهد مضيفيها. والطفيليات البشرية عادة لاتسهم بشيء للأسرة، أو الدولة، أو الجنس الإنساني، ولكنها تحتال لكي تعيش بصورة حسنة جداً. أشير إلى هؤلاء الناس الذين، يتمتعون بالصحة، والسوائية، وليسوا كباراً في السن، ورغم ذلك، لايزعجون أنفسهم بالقيام بأي شيء في الحياة لتنمية إبداعيتهم أو موهبتهم، لكي يحصلوا على دخل جيد، أو

يسهموا بشيء إيجابي للمجتمع. وأشير أيضاً إلى من يتمتعون بالقدرة التامة، ومع ذلك، يتظاهرون أمام زملائهم كأشخاص متوسطين، أو معوقين، أو عاجزين عن الاستفادة من وضعهم.

وهناك نمط آخر من الهامَوية هي تلك التي نجدها عند الناس الذين يعيشون عن طريق اغتصاب أو مهاجمة القيمة التي ينتجها الآخرون، لابتزازهم عاطفياً بهدف إجبارهم على التخلي أو طرح جزء من خيراتهم لفائدة المعتدي. وتتنكر هذه الطفيليات عادة بلباس الناس من ذوي الشرف الرفيع والكرم لإخفاء مناوراتها، التي هي آلياتها لـ "امتصاص" ضحاياها. ولهذه الغاية، يستغلون حسن نية الجماهير عن طريق المغالطات التي يختلقونها بدهاء كبير. والمغالطة هي تحريف قياسي أو حجة أحبولية فيها يحاول المتحدث أن يحول الزيف إلى حقيقة.

ولتوضيح هذه التقنية سأدرج فيما يلي بإيجاز بعض التقنيات التقليدية للهامَوية المقنعة:

1. إثارة الحسد والامتعاض عند الحشود بهدف توحيدها والتأثير عليها للحصول على أصوات أكثر.

2. وفي مستوى الأزواج، عندما يحاول أحد الزوجين، بهدف التأثير على شريكه، أن يزرع عنده مشاعر الذنب التي تحمل الضحية على الإحساس بالخجل، لكي يفرض عليه السيطرة التامة.

3. وفي المستوى السياسي، الاستخدام الخبيث للقياسات المنطقية المتعلقة بالغنى إزاء الفقر، بهدف حمل الأغنياء على الخجل من أموالهم والشعور بالذنب إلى حد البؤس بسببها، مما يجعلهم عبيداً تحت رحمة المهيِّجين.

4. وفي مستوى مشروع العمل، استخدام الحملات المصممة لإجبار صاحب العمل، أو الحط من قدره، أو تدميره باستخدام حجج منطقية تعتمد على "الاستغلال،" و"فرط الربح،" والافتقار إلى "الحساسية الاجتماعية،" وأشياء أخرى، كل ذلك بقصد صريح أو مقنَّع لتجريد المالك من ممتلكاته.

وهناك أيضاً عدة أشكال مكشوفة من الهامَوية، هي:

1. سرقة الملكية الفكرية، واستغلال الثغرات القانونية أو الإجراءات القاصرة لحمايتها.

2. سرقة المعطيات العلمية، والأساليب الصناعية، ومختلف التقنيات.

3. سرقة معلومات شركات التأمين المربحة.

4. انتحال كلمات الآخرين، وأفكارهم، وأعمالهم وتعديلها بهدف الادعاء بملكيتها.

5. الفائدة، كما في حالة شخص يريد أن يحصل على شقة سكنية بصك رهن مدته 30 سنة من المصرف، ويُلزَم بدفع ثمن يكافىء ثمن أربع شقق، وقد أصبح هذا عادياً في كثير من البلدان.

6. ضرائب مصادرة الأملاك، بما فيها الضرائب التي تكون إقطاعية بنسبها في معظم البلدان، والتي تجبر دافعها على العمل دون أجر لمدة ستة أشهر تقريباً في السنة، فقط لكي يدفع المبلغ المفروض عليه سنوياً؛ وهذا الإلزام يعتبر تحدياً لحقوق الملكية، بقدر ما يُجبَر صاحب البيت على دفع مبلغ يقارب قيمة إيجاره لكي يعيش في بيته؛ ومالك السيارة على دفع 4٪ أو أكثر من قيمة السيارة لكي يستطيع قيادتها.

7. استئجار الجهد اليدوي بأجور بخسة.

وضمن الهاموية (التلاعب العاطفي المستخدم كسلاح للإقناع النفسي الذي لايوجد ضده دفاع معروف) تكمن معرفة قديمة قِدَم النزعة الإنسانية. ولكن غرضها وتقنياتها تبقى محجوبة بحرص شديد، والحشود العمياء تجهل أو تنكر، كما هي الحال دائماً، أن ذلك ممكن. ويدل هذا ضمناً على تطفل خطير على الحيز الداخلي للفرد، وعلى الحرية الفردية للناس، ولكن ما من أحد يزعج نفسه بخصوص هذه اللاأخلاقية.

إن الحقوق الهزيلة للإنسان المفروضة بالقوة اليوم لاتحمي أحداً، حتى في البلدان الديموقراطية، من انتهاك لحيِّزه الداخلي. ويشير هذا الانتهاك إلى نوع من الإرهاب النفسي الذي تستخدمه بعض الحكومات التي تعمل، لأنها تتمتع باحتكار قانوني لقوة المنظمة، يومياً على انتهاك حقوق الأقليات، أو تمارس تأثيراً دووَعيياً على عقول المواطنين عن طريق إرسال رسائل سياسية مصممة للضغط على ضمائر الناس. فما سبب كل هذا؟ من الثابت أن الغاية من ذلك هي تخويف الناس أو إجبارهم على الطاعة بهدف استغلالهم. هذا هو السبب في أن قطاعاً واسعاً من الجنس البشري يعيش على حساب البقية، عن طريق التأثير على عواطفهم وإخضاع سلوكهم باستخدام تكتيكات كتهديدهم، أو وعدهم بملذات لاحدود لها، أو حملهم على الشعور بالذنب. هكذا كانت الحال دائماً، وما تزال، وسوف تستمر على ما هي عليه ما لم يحدث ارتقاء في وعي الناس من خلال تطور الأفراد واكتمالهم. إن القطاع الطفيلي ضمن النوع لايخلق أي نوع من القيمة؛ بل فقط يستفيد، بصورة غير مستقيمة، من القيمة التي

يخلقها الآخرون. وبطريقة أو أخرى، نجد كل يوم دليلاً على أننا نتعرض للامتصاص علناً أوسراً، على الرغم من أننا لانعرف كيف نسمي هذه الظاهرة باسمها ولذلك نطلق عليها تسميات بارعة لتلطيف الحقيقة المؤلمة التي تكمن خلفها. والواقع، هو أننا لانعرف تماماً معظم جوانب الهامَوية، أو انها تتقنع بنشاطات قانونية جداً. إن أي واحد يدفع فائدة مفرطة لقاء قرض مصرفي يمكن اعتبار أنه يتعرض للامتصاص يومياً، سنة بعد سنة-ربما على مدى حياته-ويمكنه فقط أن يلاحظ، دون حول أو قوة، كيف تتزايد ديونه الأولية بدلاً من أن تنقص، بعد فترة دفع طويلة. ومن يكافح، دون طائل، ضد الظلم، أو الإهمال، أو السيطرة المالية يكون خاضعاً بصورة قانونية للتطفل. والضحية لنظام قانوني غير كفوء أو جائر، أو قاض فاسد، أو محام لايرحم، يكون واقعاً تحت وطأة "امتصاص" قانوني. وإذا أُجبر مواطن في أمة ديموقراطية على دفع ضرائب عالية إلى حد غير متناسب، ضرائب لم يسبق له أن وافق عليها، أو لا يعرف الأغراض المخصصة لها، أو كيف تُدار، فإنه أيضاً يكون واقعاً تحت وطأة "امتصاص" قانوني من خلال "استبداد الأكثرية،" ومثل ذلك الشخص الذي لايتلقى مرتباً، أو أجراً عادلاً لقاء عمله. والعامل الذي يغش مستخدمه أو يخدعه، بقدر ما تكون نوعية العمل المتفق عليه وكميته معنيتين، يصبح نفسه طفيلياً.

اعتذر عن عدم قدرتي على التعمق إلى حد أبعد في موضوع جذاب كهذا. ولكنني أثق بأن الأشخاص الأذكياء غير المتحيزين سوف يفكرون بهذه المسألة ويتوصلون إلى استنتاجات خاصة بهم. أما بالنسبة للبقية، فإنني أكرر كل ما قلته حتى الآن في هذا الكتاب، لأنهم لن يفهموا شيئاً، ربما لأنهم يفضلون الا يفهموا. فالعمل بمقتضى الأخلاق العالية ليس مريحاً ولا سهلاً؛ إنه يتطلب من المرء أن يفهم أصل الخطيئة والفساد، لكي يمتلك الدافع الذي يقوده إلى تنمية الشجاعة الداخلية الضرورية للكفاح ضد الظلم واللاأخلاقية دفاعاً عن القيم المتسامية. ولكن، علينا أن ندرك أن التضحيات المطلوبة يجب أن تكون بحجم الأهداف التي نسعى وراءها.

الانغماس الذاتي ورثاء الذات

من المألوف أن تدفع الشخصية الضعيفة صاحبها إلى طلب الشيء الكثير من زملائه. وفي الوقت نفسه، تُظهِر مستوى منخفضاً إلى حد بعيد من مطالبة الذات. والأفراد من هذا النوع يحملون رذيلة الانغماس الذاتي، وهي شكل من التساهل الذي يؤدي إلى انحطاط أخلاقي لأنهم يفتقرون إلى المتانة الأخلاقية الضرورية لقوة الشخصية والإرادة لمراعاة القاعدة

الذهبية: "لاتفعل للآخرين ما لا تحب أن يفعلوه لك." وهم، على عكس ذلك تماماً، يستخدمون معياراً لتقييم زملائهم يختلف عن المعيار الذي به يقيّمون أنفسهم.

إن أي تخريب أو إلغاء للملكات الخاصة بالمرء هو غلطة أخلاقية خطيرة لأنها تعني تبديد إمكانياته وحرمان الجنس البشري من إسهام مهم ممكن يؤدي إلى دمج فرد متفوق في جماعة اجتماعية. وهو أيضاً وسيلة للتملص من المهمة التطورية للحياة. ولا يمكن إنكار أن الواجب الأول للكائن الإنساني هو تنمية نفسه، لأن الخالق، كما قلت سابقاً، يتركنا غير مكتملين. ولهذا السبب، يتوجب على كل فرد أن يتحمل مسؤولية نفسه وينجز العمل العظيم في تحويل نفسه إلى كائن إنساني حقيقي، فنحن، كما نحن، نصف بشر. نأتي إلى هذه الحياة متساويين، ونصبح مختلفين من خلال قيمة الجهد الشخصي. وتنتج اللامساواة التي نراها في العالم من حقيقة أن البعض يكافح في سبيل اكتماله، في حين يكون البعض الآخر كسولاً أو متراخياً وأحياناً مفعماً بالكره، يظهر اهتماماً زائداً بحسد الناس الناجحين أكثر من اهتمامه بتنمية نفسه وتطويرها.

إن بعض الملكات الفطرية تولد مع كل كائن، وتبقى ملكات أخرى في حالة كمون حتي يعمل المرء نفسه على تنميتها، وهو الواجب الرئيس والأكثر قدسية للفرد. ونحن، باعتبارنا كائنات غير مكتملة، نفتقر إلى القدرة على تخيل سلوك أخلاقي أعلى، سلوك يولد من إدراك حقوق كل كينونة حية، وكيف يجب أن تتبادل العلاقات بتناسق فيما بينها ضمن الطبيعة لكي تحافظ على الخطة الكونية للوجود. والقواعد الأخلاقية المألوفة لدينا ليست مقبولة عن وعي واختيار من قبل الفرد، بل هي تُحقَن فيه عن طريق ضغط اجتماعي لايُقاوَم. وقلة قليلة جدا من الأفراد في العالم يعملون بالضبط بتكليف داخلي يولد من وعيهم التأملي. وهناك قلة قليلة أيضاً ممن يختارون، بصورة مستقلة، سبيل الاستقامة بمطلق الحرية والاختيار، دون أن يتعرضوا لأي ضغط ملزم. وهؤلاء وحدهم هم الذين يواصلون التصرف باستقامة إذا تم، في سياق كارثة اجتماعية، التخلي عن معاقبة التصرفات اللاأخلاقية، أو الإجرامية، أو غير المشروعة. أما البقية، ممن يسعون فقط خلف المال أو الإشباع، ويطمئنون إلى عدم تعرضهم للعقاب، فإنهم ينتهكون حرمة الأخلاق والفضيلة. ولكي يتصرف أي فرد بطريقة أخلاقية أصيلة، فإنه يجب أن تكون تصرفاته واعية، وحرة، واختيارية، لانتيجة لبرمجة عقلية تديرها سلطة خارجية. فلا شيء نكسبه من عالم "الأشخاص الآليين،" بل العكس تماماً-نتقهقر بدرجة مهمة بلغة نوعيتنا الإنسانية.

والحقيقة هي أنه يوجد على هذا الكوكب عدد وافر من "الأشخاص الآليين اللاأخلاقيين،" الذين هم نوع آلي نهَّاب شبه إنسان يمكن أن يبيد الحياة على الكوكب.

ولكن العلاج لايتألف من برمجتهم عكسياً. بل، على الأصح، يكمن في التشجيع على خلق مجتمع جيد من خلال تطبيق نظام تعليمي يسمح بتنمية الوعي الفردي الأعلى، بعملية تعلُّم غير استظهارية، يتم تنفيذها في حالة عليا من اليقظة-عملية فيها يسود الفهم والمحاكمة العقلية على المعلومات المجردة. ولكن، من الضروري، لتحقيق هذه الغاية، أن نستأصل، بطريقة ما، التأثير غير المتناسب لتلك الشركات المتعددة الجنسيات التي تعتبر الإنسان مجرد مستهلك مطيع محتمل، أو ناتج صنعي أو أداة لتثبيت قواعد جماعات السلطة. وتفقد تلك الشركات قدرتها على التأثير على عقول الناس مع تنامي يقظة الوعي عند الأفراد. ولهذا، فمن المنطقي أن نتوقع أنها ستعارض بعناد هذا النمط من الحرية.

يجب أن ندافع عن العملية التعليمية ضد أي نوع من الضغط أو التدخل من قبل المصالح الاقتصادية أو السياسية، لكي يترعرع الأطفال بحرية مطلقة وتتوفر لهم الفرصة لاختيار ما يريدونه باستقلالية. كما يجب أن نضع في حسابنا حقيقة أنه يمكن تكبيل العقل، ولكن الروح، التي هي الكينونة، تهيء المأتى فقط للفرد نفسه، وهي المنطقة المقدسة لحرية الإرادة والمحاكمة العقلية عنده. فالإنسان يكون حراً حقاً، وفاضلاً، وملائماً من الناحية الأخلاقية عندما ينجح في تحقيق تطوره وكماله الروحي. وهذا هو أكبر تحدٍّ في القرن الحادي والعشرين.

إن الانغماس الذاتي، الذي هو رذيلة أو مرض في الشخصية، يدل ضمناً أيضاً على الكسب الماكر من هذا الاضطراب. وهو يؤدي عادة إلى الرثاء للذات، وهو موقف نفسي فيه يتصور الفرد نفسه كضحية، ويُمَسْرِح هذا الدور في علاقاته مع الآخرين، وينتهي، بصورة مقصودة أو غير مقصودة، إلى الحصول على كسب لايستحقه منهم عن طريق التلاعب بعواطفهم.

أشرت كثيراً في هذا الكتاب إلى الناس "الضعفاء." وينبغي أن أوضح بأنني لاأقصد الذين يعانون من اضطراب عضوي أو عقلي، بل إلى من يعملون، بسبب حالتهم السلبية، العقلية والعاطفية والمنفعلة، والطفولية، على إضعاف شخصيتهم من خلال عطالتهم، وانفعالاتهم، ورذائلهم، واستعدادهم الداخلي للتخريب. ويمكن غالباً عزو أصل هذه الحالة

إلى التثبيت الطفولي الذي يسببه قدر كبير من الغيظ ضد الآباء، غيظ لم ينجحوا في السيطرة عليه. ويؤدي بهم هذا إلى جنون الرغبة في "أن يكونوا معوقين" كأشخاص، لكي يحملوا آباءهم مسؤولية الخطأ في إنجاز واجباتهم. وقد يُظهِرون أيضاً عصياناً أعمى، نتيجة للغطرسة، مما يدفعهم إلى انتحارٍ تدريجي ويصادف أيضاً أن يتصرفوا على هذا النحو كرد فعل بسيط على الهلع من بذل جهد شاق منظم ودؤوب.

وعلى أية حال، إن الشخص المنغمس ذاتياً عاجز عن ضبط نفسه طوعاً لكي يصبح كائناً أرقى، وينجرف في الحياة كورقة في مهب الريح، تتحرك، في هذه الحالة، بدفع من المثيرات التي تتولد عند الحشود. وبسبب تعصبه، تكون علاقاته عادة سيئة مع الناس، لأنه يطلب من الآخرين كل ما يتفادى أن يطلبه من نفسه. إنه نزاع إلى الانتقاد وعدواني، وميال إلى الحسد والامتعاض. وعلى الرغم من أنه يتمتع بصفات شخصية ممتازة، فإنه يرفض تنميتها ويفضل أن يعيش بوسطية، مستغلاً شفقة الآخرين.

إنه كائن متمرد "غير منجز،" وتقوده العطالة المفرطة في أسلوب حياته إلى مصير لايتطابق مع الكيان الذي يحمل شرارته المقدسة. ويؤدي به تساهله بيسر إلى أنماط سلوكية لاأخلاقية، إما لأنه لايدرك لاأخلاقيتها، أو لأنه لايعتبرها كذلك. يجب على المرء أن يتفادى الانغماس الذاتي لأنه العدو المشؤوم للإنسان القليل الخبرة، الذي يتمثل تحديه في الحياة بضرورة الاستحواذ على وسائل ذكائه، وقراره، وقوة إرادته، لكي ينجز نفسه ككائن إنساني حقيقي. فالتساهل مع الذات هو أصل الإحباط، والمعاناة، والفشل، لأنه يترافق مع الافتقار إلى بعد النظر والقدرة على التنفيذ.

من المهم أن نضع في اعتبارنا أن الشخص المنغمس ذاتياً، شأنه كشأن الكثيرين من الأشخاص، فرد غير مقيد عادة وقد مُنِع من الحصول على فرصة أفضل، ولكنه، كأي واحد آخر، ثمرة طبق الأصل لتصرفاته الخاصة، والإحباط الذي يلاحقه عادة ليس أكثر من نتيجة منطقية لسلوكه السابق.

العيش من أجل الصورة

إن الواجب الأول للفرد، كما قلت آنفاً، هو أن "يحيا من أجل نفسه" بقدر ما يتعلق ذلك بذاته الروحية، أو شرارته المقدسة، أو كينونتة، وبهذه الطريقة فقط يمكنه أن يحقق التفوق الإنساني. وبعيداً عن كونه موقفاً أنانياً، وفقاً للمدلول اللفظي العادي لهذه الكلمة،

فإن "الحياة من أجل الذات" هي السبيل الوحيدة لنكران الـ "أنا" العاطفية. وهي أيضاً السبيل الذي يجب على المرء أن يسلكها أثناء العملية الطويلة لتصعيد عواطفه وشهواته الفردية الوضيعة حتى ينجح في العيش بلغة كينونته لابلغة شخصيته.

والشخص الذي يحقق ذلك هو فقط من يمكن تصنيفه كائناً إنسانياً حقيقياً. فمن خلال العمل الشاق في سبيل الكمال، يستجيب للعمل الكبير لإكمال نفسه ككائن يمتلك وعياً أعلى، وهي الصفة السامية التي يمكن أن يطمح إليها إنسان. ويعيِّن نفسه بقابلياته التي ينبغي للنوع أن يمتلكها عندما يصل إلى مستوى صاعد من ارتقائه الممكن.

ومع أن هذا قد يبدو متناقضاً، فإن قلة قليلة جداً فقط من الأفراد ينجحون في "أن يعيشوا من أجل أنفسهم" بقدر ما يتعلق ذلك بذاتية كيانهم، لأن هذا يجب أن ينشأ بالضرورة في إلهامهم الشخصي الواعي، وهو "إدراك" عميق من قبل المرء لوضعه وحاجته إلى تغييره، ويحدث فقط أثناء الأزمات الكبيرة.

يعيش أكثر الناس من أجل صورتهم، ومن خلال صورتهم، وبلغة صورتهم، أي أن الدافع لوجودهم هو أن يحصلوا على استحسان الآخرين. وكل مايحاولون القيام به هو إرضاء الحشود أو التأثير عليها، حتى أنهم يتخفون دائماً في زخارف التفاهة والفجاجة، أو يقلدون جمهور العصر.

والفرد المبتلى بهذه المشكلة ليس له حياة خاصة به، بل هو موجود فقط بلغة قبول الآخرين أو رفضهم له. وهكذا، يحوِّل نفسه إلى مجرد انعكاس للحشد العام، يكافح دائماً للحظوة باستحسانه وحبه، وهي آلية تفصله في النهاية عن "أناه الفردية" لكي تدمرها وتستبدلها بـ "أنا مطعَّمة،" وتكون مجرد ملحق بالنفس الجماعية. ويعرِّف كارل غوستاف يونغ[1] هذا الشخص على أنه "شريحة اعتباطية تقريباً من النفس الجماعية."

من المهم جداً بالنسبة لدراستنا أن نفهم بعضاً من أفكار يونغ فيما يتعلق بالفرد والجماعة. ولذلك، سوف نبدأ بتعبيره: " التضخم النفسي." ففي كتابه الأنا واللاوعي يقول يونغ:

يبدو لي هذا التعريف (التضخم النفسي) دقيقاً لأن الحالة موضوع البحث تعني امتداد

1-(1875-1961)، عالم نفس سويسري يعتبر احد اعظم علماء النفس في العصر الحديث-المترجم.

الشخصية إلى مابعد حدودها الفردية. وفي حالة التضخم، تشغل حيزاً لايمكن ملؤه في الحالة الطبيعية. وهذا ممكن فقط إذا كان الفرد يتمتع بمحتويات ومواصفات تستقر، من خلال وجودها المستقل، خارج حدودنا. وما يستقر خارج حدودنا يخص شخصاً آخر، أو الكل، أو لا أحد.

التضخم النفسي ظاهرة ليس فقط لاتظهر أبداً بالتحليل ولكنها تُسجَّل كتكرار في الحياة العادية، ويمكن أن نختبرها في حالات أخرى.

وليس دعابة أن الحالة الأكثر شيوعاً هي حالة الهوية بين كثير من الناس وبين مناصبهم أو ألقابهم. صحيح أن منصبي هو نشاط يوافقني، ولكنه، في الوقت نفسه، عامل جماعي تشكل تاريخياً بجهد مشترك من قبل الكثيرين، وأنا مدين بمنزلته فقط للموافقة الجماعية. ولهذا السبب، إذا ماجرى تعريفي بمنصبي أو لقبي، فإنني سأتصرف كما لو كنت أنا نفسي مكافئاً لكامل العامل الاجتماعي المعقد الذي هو منصب، وكأنني لست مجرد واحد يشغل المنصب، ولكن في الوقت نفسه أيضاً ممثل للموافقة الاجتماعية. وهكذا، أصبح مُضَخَّماً إلى حد الشذوذ، باغتصاب صفات لاوجود لها أبداً داخل ذاتي بل تقع خارجها. "أنا الدولة." هذا هو شعار هؤلاء الناس.

يعتبر يونغ أن كثيراً من الناس ليسوا أكثر من المرتبة التي يمنحها لهم المجتمع، وهناك، خلف الصورة المُتَكَلَّفَة، يختبيء إنسان ضئيل جداً، وهذا هو السبب الذي يغري شخصاً من هذا النوع بالمنصب أو بقناع خارجي يستخدم لهذه الغاية.

ويعتبر يونغ أيضاً أن المجتمع يُبرِز عادة الصفات الجماعية ويكافيء المتوسط، وهكذا، يكره الفردية عند الناس، وهي حالة تتفاقم أيضاً بحقيقة أنه إذا لم تكن هناك حرية لايمكن أن توجد أخلاقية و"أن يعيش المرء من أجل صورته" يعني أن يتخلى عن "أناه" ليصبح جزءاً من الصورة المنعكسة التي تظهر لنا بمرآة المجتمع؛ ليكوِّن هويته ضمن هذا الصدى للحشد باعتقاد خاطيء "نحن هكذا،" وبالتالي، نفكر، ونشعر، ونتصرف بهذه الطريقة، معزولين كلياً في الجوهر الداخلي الذي يخص كل واحد منا؛ زهرة مهيبة تنتهي إلى الزوال، لأنها تختنق بأعشاب الوسطية، واللاأخلاقية، والابتذال، والفظاظة، والمادية المتبلدة، تاركة وراءها شاشة ضئيلة حزينة قُدِّر لها أن تهيم عبر الحياة تتغذى على تقدير الآخرين واستحسانهم وعلى تقدير واستحسان أصحاب المقامات الاجتماعية الرفيعة.

الشيطان وحده يمكن أن يتخيل مثل هذا الموقف المتناقض: فرد يعمل بكل قوته لكي

يضخم صورته ويحميها، مع أنها تافهة بحد ذاتها، في حين يغفل كينونته الحقيقية، أو روحه الأخلاقية التي هي كل شيء، وينكرها، ويتخلى عنها. إنه خائن لنفسه وغير جدير بحمل الشرارة المقدسة، وأسوأ مثال أخلاقي ممكن لهذا، هو ذاك الذي يحب جميع من ينتهكون القانون الأسمى، ويتلقى، في الوقت المناسب، العقوبة المكافئة لخطيئته.

ينبغي أن أشير إلى أنني أستخدم كلمة "خطيئة" بمعنى العدوان ضد انسجام الكون، وانتهاك البيئيات النشيطة فيه، والتمرد ضد خطط الخالق، وعدم الامتثال للمكافئ المساواتي، الذي هو الدعامة السامية للعدالة.

ليس إنساناً عجوزاً من يجلس على العرش الأعلى للسماء ويهتم بمعاقبة المعتدين؛ بل هو قانون الانسجام الخالد الذي يوجه نظام الكون عن طريق ضبط كل شيء من الذرة إلى الإنسان إضافة إلى مختلف عوالم الطبيعة.

إن مملكة الحشود حولت العالم إلى مقبرة للأرواح، إلى مزبلة ضخمة للذين يهيمون في الحياة على هذا الكوكب في مطاردة الخير والسعادة فيسقطون ضحايا للغول الاجتماعي الذي يغذونه بأنفسهم، والذي يجردهم، دون شفقة، من جوهرهم الخاص، ويقدم لهم، بدلاً منه، سراباً، ورؤىً، وأوهاماً، وخيالات، ليضمن استمرار ضلالهم وخضوعهم، لكي لايلاحظوا موت ذاتهم الحقيقية. ووفقاً لهذا العرض الدانتي[1]، فإن التعاليم والمعرفة التي يمكن أن تنقذ الإنسان مزيفة، أو مغفلة، أو محجوبة، أو مغشوشة. يحدث هذا، مثلاً، للحكمة المسيحية التي أسيء فهمها عندما استُشهِد بها في مرحلة ما من التاريخ. ولنستذكر بعض الأقوال: "دعوا الأطفال يأتون إلي، لأن لهم ملكوت السماوات."

وتُفسّر هذه العبارة بحيث تعني أن الأطفال يُخضَّبون بهالة مقدسة، ويظن البعض أن العالم ملكهم فعلاً. صحيح أن المسيح، الذي ربما كان من النحلة الجوهرية[2]، كما ترى الموسوعة البريطانية، لم يفعل أكثر من أنه أشار إلى الأسرار الإغريقية القديمة للتلقين التي كانت ترى أنه "لكي يولد المرء من جديد، يجب أن يموت أولاً."يشير هذا التعبير الذي يحمل معنى نفسياً وروحياً إلى عملية تصعيد الطاقة الجنسية، وهي عملية تموت خلالها تدريجياً الـ "أنا" غير المرغوبة، أي الذاتية المبتذلة للطبيعة العاطفية، والشخصية، والأنانية، وتستبدل بالـ

1-نسبة إلى دانتي اليغييري، أعظم شعراء إيطاليا وصاحب الكوميديا الإلهية (1265-1321)-المترجم.

2-من يقولون إن الجوهر يسبق الوجود-بعكس الوجودية-المترجم.

"أنا النيِّرة،" وهي الجوهر الروحي الحقيقي عند الفرد. وبهذه الطريقة، يولد الأطفال مرتين: مرة من لحم ودم ومرة أخرى من عملهم الروحي الخاص. ومن المؤكد أن المسيح قصد هؤلاء الناس عندما قال "لهم ملكوت السماوات."

وتم تفسير وصية المسيح بـ "تحويل الخد الآخر" إذا صُفع الأول، بصورة حرفية على افتراض أن أعظم فضيلة تكمن في أن يقبل المرء وادعاً أن يُلقى به إلى الأسود. ومن المؤكد أن هذا القول يتعلق بضرورة أن يتغلب الإنسان على غريزته، أي على ردود فعله الانفعالية، لكي يكون قادراً على التصرف بطريقة أدبية وأخلاقية حقاً. فإذا كان الدافع الأول عند المرء أن يرد الضربة بمثلها، عندئذٍ، سوف يساعده الضبط المناسب للنفس على أن يتصرف بذكاء أكبر وعلى نحو مناسب أكثر.

وعندما نقرأ نصوصاً في الكتاب المقدس مثل "انطلقوا وتناسلوا،" فإننا لانظن، على الرغم من معقولية هذه العبارة، أنها كانت أمراً مصمماً لزيادة الأسرة من غير تمييز، بل، على الأصح، زيادة عدد "المولودين ثانية،" أي الأفراد الذين يتبعون فعلاً سبيل الارتقاء الذي يريده الخالق.

إن الإفراط في تمجيد فضائل الطفولة والشباب ليس أكثر من تعبير عن المرارة التي يحس بها الكبار الذين يشعرون بالخيبة ويراقبون المحاولات العبثية للحضارة في سبيل خلق مجتمع أكثر اخلاقية ووزناً روحياً، فيعتزلون العالم ويتخلون عنه في خيالهم إلى الأطفال، على أمل أن تفعل أجيال المستقبل ما هو أفضل، دون أن يدركوا أن الطقس السخيف نفسه كان يُنجَز على مدى قرون وأنه ما من جيل جديد حقق، حتى الآن، وجوداً أكثر صموداً واكتمالاً بالمعنى الروحي والأخلاقي.

ومادام الكبار يمعنون في تفادي تحمل مسؤولية حياتهم، فإنهم سيتخلون قلقين ومكرهين عن العصا الرمزية لسلطة الحضارة للأطفال الذين من المنطقي ألا يكونوا كاملين تماماً كالكبار. وأنها لسخرية ومأساة حقاً أن يحاول كائن "غير مكتمل" التخلي عن موقعه لآخر هو نسخة مصغرة عن نفسه. والجنس البشري اليوم ليس أكثر وعياً منه أيام صلب المسيح ولا يتمتع بالذكاء الذي يؤهله أن يميز الناس العظماء بحق ويحذو حذوهم، ولكنه يغريه بهاء الصور اللامعة لأفراد هم مجرد حَمَلَة أو حاويات للمعلومات التي تقود الجنس البشري إلى تخليد النموذج المعوز للوعي الذي رأيناه آنفاً، بجسامة بؤسهم وضآلة

أهميتهم. أما الآخرون، أي القلة التي تسعى إلى أن "تولد من جديد،" فيتم تجاهلها، ووصمها، واضطهادها. ويتعرض عملها للتزييف أو السخرية، مع أن "أناس الشاشات" ينسخون إبداعاتهم ويستفيدون منها، لأنه، بعد أن يفرغوها من مضمونها الأساسي، يحورونها بما يتفق مع وسطيتهم العامة، بعد أن يعمّدوها باسم جديد ويطرحوها وكأنها من ابتكارهم الخاص.

تعاني الشخصيات البارزة في هذا العصر، مع استثناءات قليلة، من "تضخم الذات،" وبهذا يصبحون "قواقع فارغة،" يقلدها من تبهرهم الانعكاسات الخادعة لهذه الشاشات، ويريدون أن يصبحوا نموذجاً للشخص الذي ينتظرون أن تكونه الشخصيات التي تحظى بإعجابهم.

يمكن أن ندرك بسهولة أن عالم الأشباح، مع قلة من النماذج الرفيعة للتقليد، سوف ينجرف، بشكل لاسبيل إلى معالجته، نحو مجتمع مادي، وساخر، ومعدوم الحساسية، وفارغ، وقاس، ولاأخلاقي، مع أن المرء سيعرض نفسه فيه على أنه "خيِّر،" و "مترقٍ،" و "متحضر."

وأظن أن جميع من يتألمون جسدياً من قسوة هذا العصر المزعوم للترقي، والإنسانية، والعقل يتفقون معي حول هذا الوصف. أما الآخرون فيكتفون بالدفاع عن سيناريو حياتهم، التي يبددونها في مطاردة الأوهام والأحلام بكل ما هو "مبهرج ولامع،" أي السبيل النازل السهل الذي يقودهم، دون أن يدركوا، إلى الخواء، والملل، والموت الوجودي. والأمر المضحك حول هذه الصورة هو أنها موجودة فقط في عقول الناس، لأنها تدل على الطريقة التي بها يفهم المرء نفسه والطريقة التي بها يفهمه الآخرون، أو إلى الطريقة التي بها يتصورون الشركات، أو المؤسسات أو الأشخاص. إن هذا العرض، كما نفهم، ذاتي تماماً وربما يختلف، إلى حد مثير، عن الواقع.

تدرس شركات الإعلان والتسويق الطريقة التي بها تؤثر على عقول الناس لكي تشجع السلوك الاستهلاكي بهدف حمل الناس على شراء أو قبول كل شيء بشكل أعمى ، من جهاز التلفزيون إلى الرئيس، وهي ناجحة تماماً في هذا، ولكن التأثيرات الثانوية كارثية فيما يتعلق بالقدرة على الإيحاء، وإضعاف الشخصية والإرادة والصعوبة الكبيرة في تقييم الواقع. إن سوء استخدام هذه الممارسة يضعف العالم الواقعي؛ ويقود الفرد إلى تبني خيارات تعتمد المظهر وليس المحتوى، وعواطف تقوم على أساس ما هو سطحي، والإعجاب بكل شيء براق.

فنحن نشتري ما لا نحتاجه، ونقترع لصالح أناس خياليين لاوجود لهم في العالم الواقعي. ونقع في حب الصورة الجذابة التي يعرضها شخص من الجنس الآخر، وندرك بعد عدة سنوات أن هذا الشخص لايتمتع بأي من الصفات التي كنا خلعناها عليه. وعلى العكس، فنحن عاجزون عن اكتشاف القدرات الاستثنائية عند الآخرين الذين لانوليهم اهتماماً، حتى أننا قد نرفضهم ونقع في حب أنفسنا، أي، بما نظنه موجود في أنفسنا-صورتنا الخاصة. لقد تعلمنا منذ الطفولة على أن نحترم المظاهر ونتجاهل العمق، ونشدد على المسائل التافهة ونزدري الجادة منها. ، لأن الجدية تتطابق مع السأم.

إن المجموعة الضخمة من أجهزة التسلية مصممة بعناية بحيث لاتبعث الملل في نفوس الأطفال والكبار، وهو تدبير يشجع أو يمنع أية محاولة للاستبطان، أو التأمل العميق، أو النمو الروحي. ويجري، بصورة اصطناعية، إضفاء الصفات المثالية على التفاهة والعبث، وتمجيد كل ما يقع خارج الشخص، مما يضعف عالمه الداخلي.

وهناك واحد من أكثر أشكال العيش من أجل الصورة تدميراً هي حالة النرجسية، وتُعرَّف عادة على أنها الوقوع في حب الذات، وهي، في الواقع، حالة تثبيت على الصورة. فالفرد هنا لايقع فعلاً في حب ذاته الأصلية، بل في حب صورته، مما يسبب جدب حياته العاطفية وشللها ويؤثر هذا الاضطراب، في العديد من مستوياته الشديدة، على قطاع واسع من الجنس البشري. وهو تشوش منعي لأنه يعزل الفرد في عالم التأمل المتواصل لصورته والافتتان بها، وهو شيء لاوجود له في العالم الواقعي. والنرجسي لايهتم إلا بنفسه أو بما يعزز صورته الخاصة وهو عاجز عن إدراك المستوى العميق لأي شيء لايتفق معها.

يشعر النرجسي، عندما يتأمل صورته، بلذة عنيفة، ولذلك يبحث عن كل الحالات التي توفر قدراً من المتعة التي ينتظرها. ولكنه مقدر له ألا يشبع أبداً، ولهذا، فإنه يواصل، على نحو يائس، تأمله وبحثه حتى ساعة موته، ويجدّ في كل لحظة، نهاراً أو ليلاً، لإيجاد الحالات التي يمكن أن تحقق له الإثارة. والمتعة النرجسية لايمكن أن تكون تراكمية ولا يمكن إشباعها أبداً، وهذه هي المأساة الكبيرة في هذا الاضطراب.

يعمل النرجسي، بأنانيته السيئة الصيت، على تشيىء الناس، لكي يستخدمهم كمرايا تعكس صورته البراقة، ويتغذى على ذلك البريق الزائف. ولا يهتم بمن يرفضون أن يكونوا مرايا لأنهم لايفيدونه في شيء. ولكنه يهتم فقط بتمجيد نفسه عن طريق إطراء

الآخرين له واستمرار اهتمامهم وإعجابهم به. ويمكن القول أن كينونته الحقيقية ماتت ويشعر بأنه مجبر على تكريس كل جهوده في سبيل بقاء صورته. وبما أنه بارد وحذر، فإنه يفتقر تماماً إلى المشاعر. ولكنه فعلاً يتألم بعمق بسبب عزلته الشديدة وعجزه عن الحب.

ويقال إن المرأة، بسبب دلالها الطبيعي، أكثر ميلاً إلى النرجسية من الرجل، ولكن نرجسيتها تختلف عن نرجسيته فقط بطريقة تعبيرها عن هذه المشكلة، التي تحرض، في حالة الجنس المذكر، على الكفاح في سبيل السلطة، بينما تحرض عند المرأة الكفاح في سبيل التنافس على الرجل. وهذا التنافس هو الذي يحملها إلى ذروة اللذة النرجسية عندما "يفضلها" أحدهم على الكثيرات غيرها، أو عندما تكون ملابسها هي الأجمل وتصبح محط اهتمام الجميع في حفلة ما. وهي، في حياتها اليومية مع الآخرين تفكر باستمرار في ملابسها، وشكلها، وتبرجها، الأمر الذي يوفر لها لذة كبيرة. وتقضي شطراً كبيراً من حياتها في مرآة خيالها وتستشيرها مراراً حول المقبول وغير المقبول في مظهرها والوسائل التي يمكن أن تساعدها على تحسين مظهرها.

صحيح أن هناك عدداً لايحصى من الكائنات الإنسانية العاجزة عن تحقيق تماس حقيقي مع الواقع والعالم الخارجي، لأنهم لايستطيعون فصل "أناهم" عن صورتهم، بل على العكس، إنهم يكافحون بتهور للبقاء حيث هم. إن هؤلاء الناس، بمعنى من المعاني، عميٌ، وصمٌّ، وبُكْم. فهم لايرون، أو يسمعون، أو ينطقون من أرضية بعيدة عن صورتهم. ولنقل بصراحة، إنهم لايملكون أرضية غير صورتهم.

ينبغي أن يكون مفهوماً بأنني أشير هنا إلى النرجسية المرضية، لأنه من الطبيعي أن يكون هناك قدر منها عند كل واحد منا. ولكن هذا القدر يجب الا يتجاوز حدوداً معينة. وعندما يحدث هذا، فإنه يصبح شكلاً لاأخلاقياً من سفاح القربى النفسي: "علاقة شبقية للـ "أنا" مع الـ "أنا،" فيها يصبح أي شريك خارجي مجرد نصب تذكاري، أو حلية موقتة ويمكن التخلص منها، وفي الوقت نفسه، غذاء للذات.

إن الفرد الذي يقع في حب نفسه يكون دائماً غارقاً في هذه الرومانسية الممنوعة، كنوع من أونان[1]، الذي كُبِّل بشهوته الجنسية المنحرفة دون أمل آخر في تحرره غير الموت أو ثورة داخلية.

1-ابن يهوذا ابن يعقوب في إشارة إلى الجماع الناقص او الاستمناء-المترجم.

في هذه النقطة، نحمل فكرة خاطئة حول أنه يجب أن تكون حياتنا ممتعة وناجحة بصورة حقيقية، وأنه إذا لم نصبح كذلك، فإن هذا يعزى إلى سوء الطالع أو نوع من الظلم أو عدم التوازن الاجتماعي. فنحن نتخيل الوجود كصدر أمومي قوي، وجبار، وسائغ ملزم بإرضاعنا، حتى عندما نفتقر إلى أية جدارة لأننا لم نبذل أي جهد فردي مهم للحصول على الحق فيه.

ووفقاً لهذا المنطق اللاعقلاني في القناعة، فإن الوفرة عند الآخرين وسعادتهم تثير فينا الغيظ، والحسد، والامتعاض، من خلال الاعتقاد بأن أحدهم يسرق الغذاء الذي يخصنا وأنه لسبب ما لايصل إلى أفواهنا. وكل هذا بسبب الضرر الذى ينجم عن شعارات النزعة الإنسانية الكاذبة التي تكرر الرسائل نفسها مراراً، مؤكدة أن لكل فرد حقاً في الحياة، والمسكن، والرعاية الصحية، والسعادة، والتعليم، والغذاء، والعدالة، والرخاء. إن هذه الشعارات تشير، فقط في الحالة الطبيعية، إلى أوضاع مثالية يتوجب تحقيقها، ولكنها تسبب ضرراً كبيراً بسبب سطحية صياغاتها، ذلك لأنها قاصرة عن توضيح أن "الحق" يجب أن يقوم على أساس الجدارة الفردية لاعلى سرقة استحقاق الآخرين، ولهذا، فهي شعارات ذات طبيعة ديماغوجية واضحة لاتحمل خيراً للناس بل تهدف فقط إلى إثارتهم.

وعلى هذا النحو يتم، بصورة ماكرة، حجب الدور الذي تلعبه الجدارة والجهد الشخصي في إشباع أكثر الحاجات أهمية. وبهذه الطريقة، يتم التعبير عن العبارات الحقيقية، مع أنها تصاغ بشكل مريك وناقص، بطريقة السفسطائيين القدماء. ويتوصل الناس إلى الظن بأن هدف الحياة هو تحقيق سعادة شبيهة بالنيرفانا الرحمية، أي دون بذل جهد أو عمل، أو دون إزعاج أو تناقض. ولتغذية هذا المفهوم السخيف، فإن الثرثرة بعبارات مثل "المساواة بين الناس" ظهرت دون الكشف عما تعنيه حقاً، مع أن هذه المقدمة المنطقية تُعرَض بأسلوب السفسطة الديماغوجية[1].

وبغض النظر عن سوء نواياهم، أظن أن من كانوا مسؤولين عن الابتكار هم إما سذج أو حمقى، فيما يتعلق بالتأثيرات الجانبية الضارة للثلاثية الشهيرة التي ابتُكرَت أثناء الثورة الفرنسية من قبل آيديولوجيي الجمعية التأسيسية: حرية، ومساواة، وإخاء. فماذا كانت قيمة هذه الشعارات في الممارسة إن لم تكن سوى شعارات طنانة؟

1-راي غير متفق عليه، ويمثل المفهوم النفعي في رأيي-المترجم.

لايمكن أن تكون هناك حرية دون ضبط للنفس ودون التخلص من قيود الديون الرباوية؛ ولن تكون هناك مساواة لأننا جميعاً مختلفون من حيث القدرات والدوافع؛ ولا يبقى سوى الإخاء، إنما على صعيد النوايا الحسنة وعندما يسعد الجميع.

والمشكلة مع هذه الشعارات هي أن كل فرد يفسرها بما يتفق مع الجوع[1] الذي يسيطر عليه، أي، وفقاً لما تمليه عليه شهواته الشخصية، كما حدث منذ بداية عهد الإرهاب في الثورة الفرنسية، التي استغلها الجميع للأخذ بثاراتهم الخاصة، تحميهم مبادىء الحرية، والمساواة، والإخاء.

الشعار عادة هو عبارة ذات محتوى عاطفي رفيع وجَرْس دووَعيي انتشاري، ولكنه خال تماماً من المعنى، ليس لأنه دون معنى، بل لأن هذا المعنى يتم حجبه أو تجاهله. وعندما يُجرَّد الشعار من دلالاته اللفظية، يصبح فارغاً ويمكن استخدامه كقناع، أو معيار، أو راية في معركة كل شيء تقريباً علاوة على ذلك، قد يصادف مثلاً أن يكون هناك فريقان متحاربان ويرفع كلاهما الشعار أو الراية نفسها، ولكن بالتفسير الخاص لكل منهما.

ومن الصواب في مسألة متسامية، كالأخلاقية، ألا نتخلى عن القيم لتفسير عاطفي محدود يقدمه أناس غير مدربين عليه، لأن التشوش سيكون نتيجة حتمية في هذا الحالة.

إن الحقائق الخالدة هي الأعمدة الأساسية للكون؛ فقد كانت دائماً مستقلة عن الإنسان، وما تزال، وستبقى هكذا. ولا يمكن إخضاعها للتأمل العقلي أو التأثير العاطفي دون أن يطال التزييف أو التحريف محتواها الداخلي. ولا يمكن إدراكها عن طريق الإفراط في استخدام العقل والحواس، ويمكن اكتشاف المأتى إليها فقط في حالات الوعي الروحي الأعلى، لأنها جزء من الإله، فإذا أردنا أن نفهمها، فإننا نحتاج إلى عملية استنارة شخصية، هي جزء من الترويض الروحي. فالأنبياء الحقيقيون أو رُسُلُ الحقيقة كانوا وسيبقون دائماً هم أولئك الذين ينهضون، في مرحلة من حياتهم، بالعمل العظيم، أي، "العمل الشاق" للخالق، وهو الجزء الذي منحه للبشر على شكل حياة جسدية، كما نعرفها بمعناها "الحالة الإحصائية السوية statistic normality".

تبلغ هذه العملية أوجها عند البعض على شكل استنارة داخلية. ولبلوغ هذه الحالة، يجب على الجميع، دون استثناء، أن يكابدوا محنة قهر أنفسهم ويتخلون عن مختلف المظاهر

1-وهل يُعتبَر الجوع بمختلف أنواعه مجرد شهوات شخصية؟-المترجم.

الأنانية لـ"أناهم،" ومحنة الموت من خلال شخصياتهم والولادة من جديد في شكل أكثر اكتمالاً، وبهذا "يولدون مرتين،" هؤلاء هم من يدعوهم المسيح إليه.

الأنبياء الحقيقيون لايخترعون هذه الحقائق، ولا يكرسون جهودهم للتنبؤ بالمستقبل؛ ولكنهم يقومون فقط بنقل الحقائق المهمة التي كانت، وما تزال، وستبقى صحيحة، لأنها خطط الطبيعة التي تسمو فوق الزمان والمكان. إنهم أولئك الذين ينجحون، كما في استعارة الكهف لأفلاطون، في الخروج من العتمة، ويكفون عن التفكير بها، لمواجهة عالم النور الرائع والواقع الحقيقي.

والأنبياء، الذين كانوا دائماً طليعة في عصرهم، هم أولئك الذين يحافظون على نور الإنسانية، على النقيض تماماً ممن يتلاعبون بالحقيقة لتحقيق أغراضهم الأنانية الخسيسة.

وكما أن لكل قطعة نقدية وجهين، كذلك الأنبياء، فالزائفون منهم هم لعنة العالم، ويعجز الإنسان العادي بسبب محدوديته الكبيرة عن التمييز بين الحقيقة والزيف، لافتقاره إلى حالة الوعي الأعلى لأن حالته السوية تشبه غيبة السرنمة التي يسببها عدد لايحصى من المثيرات التي تسحق عقله.

وبهذه الطريقة، من المقدَّر للإنسان المتوسط أن يتبع عادة الأنبياء الكذابين، لأن هؤلاء يعدون "أناه" بإشباع عواطفه الأكثر انحطاطاً.

إن العديد من التعابير الأكثر تكراراً عند الكائنات الإنسانية لاتنبع من دماغهم بل هي طعوم عقلية يحرضها الأنبياء الكذابون الأكثر عصرنة. وهذه الطعوم تتغذى على خيالات الناس الذين يحملونها، وعلى أحلامهم، وأوهامهم، وهي قوية إلى الحد الذي تسبب فيه الحرائق والحروب الكارثية.

يهيم الملايين من المسرنمين بإذعان عبر العالم، تحثهم الرسائل الدُّوَعِيية التي تعشش في أدمغتهم، وتدفعهم إلى أهداف مجهولة، فتحملهم على التقدم نحو هدف سرابي موجود فقط في خيالهم ولا يفلحون أبداً في الوصول إليه لأنه مجرد ذريعة لتسخيرهم لخدمة أغراض غامضة مقنَّعة. ولا شك لدي في أن هناك مؤامرة عالمية تهدف إلى إحياء عصر العبودية المظلم، وعلى الرغم من أنها ستكون اليوم في صيغة أكثر تعقيداً، فإنها لن تميز بين العرق واللون ودون أغلال أو قيود لتكبيل أطراف الناس. فقد أصبح استعباد الناس عن طريق استعباد

عقولهم أكثر سهولة ومشروعية، وذلك عن طريق التقنيات السمعية البصرية والرسائل الدُّووَعيية بهدف توجيه سلوكهم، وبالتالي، خلق العبد المثالي: مستهلك مطواع، ومقترع مذعن، وعامل مجبر. وعلى أية حال، لايمكن تحقيق فائدة من كشف هذا الواقع؛ لأن الطعم الدُّووَعيي عند أقنان العقل هؤلاء يؤكد أن أية محاولة لإظهار الحقيقة سوف تمنى بالخيبة.

أعتقد أن الغبي، والساذج، والمسرنم فقط يظنون أن الحياة "مكشوفة" ودون أسرار، وأن القول الفصل للعلم. والصحيح هو أن هذا العالم مُكتنَف داخلياً بالأسرار وأن كل شيء يحدث أساساً لأسباب مجهولة. في حين يبدأ العلم أولى خطواته بدراسة العقل ويتجاهل كلياً ظاهرة الوعي الأعلى، التي يربطها خطأ بالرؤى التي تتكون من تعاطي المخدرات، ويدعوها "الحالات المتغيرة للوعي." كما أن نرجسية العلماء تمنعهم من التسليم بإمكانية أن يكون الوضع السوي للجنس الإنساني هو، في الواقع، وضع الحياة اليومية في الحالة المرضية للوعي المتغير، وأن كبت هذا الاضطراب يمكن أن يمثل حجرة انتظار لحالة أعلى من الوعي.

لم نعد ننظر إلى الحالة المرضية بحد ذاتها، وتصبح طبيعية عندما تُعمَّم. وعلى العكس، يُعتبَر الشفاء العفوي الذي يحدث بطريقة استثنائية جنوناً لمجرد حقيقة أنه يمثل نمطاً إحصائياً مختلفاً.

وكما يقول التعبير المعروف "ليس كل من هو موجود هنا، موجود، وليس كل من هو موجود، موجود هنا،" فلا المجنون مجنون أو السليم العقل سليم عقل كما يجب أن يكون. ولكن الصحيح هو أن الاضطرابات العقلية المقنَّعة عند الناس هي السبب في كل مشكلات المجتمع، لأنها تسبب محدودية خطيرة للمحاكمة الداخلية.

منذ الثورة الفرنسية حتى الوقت الحاضر، اتُّخذَت الحرية والمساواة كذريعة لتبرير التثقيف الفرعي الهائل بخصوص الحاجات الداخلية عند الناس، بمعنى أن تكون الدولة أو من هو في موقع القوة ملزماً بتأمين الرفاه لهم، الرفاه الذي عجزوا عن توفيره لأنفسهم، وبدلاً من أن يعملوا على تنمية أفضل لملكاتهم، عملوا على شل إنجاز أنفسهم، لأنهم يهتمون أكثر بالبقاء جامدين وتكريس وقتهم وطاقتهم لـ "الفن" الهدام، فن الحسد والامتعاض. وبدلاً من محاكاة أولئك الذين يشقون طريقهم الخاص، فإنهم يتخذون الموقف السلبي للمتسولين، الذين ينتظرون مصادفة سياسية أو حكومية، وهذا يعني، بالنسبة لهم، رفاهة أكبر. ولا يدركون أنهم بهذا يطمحون إلى التساوي في الوسطية بدلاً من التطور.

إن العلاج الوحيد لهذا الداء الخبيث هو أن يتمكن المصابون به من قهر الخوف الهائل الذي يبعثه الواقع في نفوسهم، وأن يكفوا عن المناورة عليه، وأن يحاولوا بشجاعة مواجهة هذا الواقع كما هو مجرداً من كل الأحلام والزخارف، بدلاً من العيش في عالم مثالي لوسائل الرفاه السهلة التي تعيش في خيالاتهم. وهذا النوع من الأشخاص مستعد للقيام بأي شيء فيما عدا إكمال نفسه في المرآة الفخمة للحقيقة ليكتشف حقيقة نفسه بعيداً عن تأملاته.

والمواجهة الحقيقية للواقع هي الاختبار الفائق بالنسبة للفرد، وهناك، عبر التاريخ، قلة قليلة جداً ممن تجرؤوا على مواجهة هذه المحنة، لأن الناس يفضلون دائماً الاحتفاظ بصورة مُمَثْلَنَة لأنفسهم، لكي يبرروا متطلباتهم الداخلية، التي هي مصدر كل شقائهم.

يطالب الضعفاء بقية العالم بإشباع حاجاتهم؛ فيسألون الناس، والأقوياء، والدولة، والكنيسة، وحتى الإله، ويبررون مطالبهم بحيث يبدو عدم تلبيتها شراً من الشرور. ولا يحاولون أبداً أن يسألوا أنفسهم عما إذا كانوا يتمتعون بجدارة كافية تؤهلهم للمكافأة بهذه الطريقة، ولا يخطر في بالهم احتمال أن يكون وضعهم المؤلم عقاباً طبيعياً على كسلهم وتهربهم من المسؤولية. وبطريقة ما، ربما يخشون من أن يكتشفوا شيئاً لايروقهم، كأن يواجهوا الحقيقة المادية بأن كسلهم يقودهم إلى شل تطورهم ككائنات إنسانية، وأنهم فقط يعيشون كالنباتات، التي تتجذر جامدة في بيئة نشيطة تستمد منها غذاءها، وتعتمد، بصورة سلبية على شيء من الشمس التي توفر لها الضوء والدفء. فيصابون تدريجياً بالضمور نتيجة لعدم استخدامهم لملكاتهم الإنسانية، ويتعرضون أيضاً لخطر أن يعيشوا وجوداً شبه حيواني، وجوداً تحركه الغريزة بصورة أساسية. وتصدأ عندهم الشخصية وقوة الإرادة وتنحطان، وتستمران فقط كقدرات كامنة. يبدأ العلاج لهذا الداء الخبيث بالتسليم بالحقائق البسيطة حول أن المصالح الغامضة تحاول الاختباء، ويبدو أن القبول بواقع أن الحياة سلسلة متصلة من المشكلات وأن هذه المشكلات لاتنتهي أبداً بل تتخذ أشكالاً أو تفسح المجال لظهور مشكلات أخرى، مرادف لحقيقة كون المرء على قيد الحياة.

مادمنا على قيد الحياة، فإننا سنواجه دائماً مشكلات، واختلالات في التوازن، وتبدلات، وأزمات، وتعديلات، وإخفاقات. وليست المسألة مسألة أن يكون لدينا مشكلات أو لايكون، طالما أنها محسومة ولأنه لامفر من ذلك. وأكرر القول إن الإنسان بمجرد أن يولد يعني أن يرث مباشرة مشكلة ضخمة تترافق بعدد لايحصى من المتغيرات، وإنه يترتب عليه أن

يكرس كامل حياته لإيجاد الحلول لها، بالطريقة نفسها التي تفرض على الطلاب أن يحصلوا على معرفة مترقية حول بعض المواضيع حتى يتمكنوا، بمرور الوقت، من النجاح في تحقيق تدريب مناسب. ويقوم البعض، بطريقة سليمة تماماً، بمقاربة هذه الصعوبة باختيار مواجهة المشكلات الوجودية كحقيقة ثابتة لايمكن تفاديها، حقيقة هي جزء متمم للحياة نفسها. وعلى العكس، يسعى آخرون إلى تبرير الوجود والسعي إلى تكييفه خيالياً مع ضعفهم، وعيوبهم، وإخفاقاتهم، ويروغون، بصورة منهجية، من مسؤولية التسليم بالواقع كما هو. إن هؤلاء الكسالى الحالمين لايدركون أنهم ينتهكون التكليف الإلهي الذي يقول "بعرق جبينك تكسب خبزك." وهذه الحكمة لاتعني فقط ضرورة أن يعمل المرء ويبذل الجهد في سبيل كسب عيشه، بل تكتسي أيضاً أهمية أساسية في أن "يدفع" المرء أو يعطي لـ الطبيعة مكافئاً لما تلقاه منها. ومن بين هداياها تلك الهدية التي تسمى "هدية الحياة،" ولكن المسألة ليست هكذا على أرض الواقع، لأن كل فرد ملزم بأن يعيد أضعاف الحياة التي تلقاها.

من أجل ماذا يعيش الإنسان؟ هل يعيش ليكون طفيلياً على جهود الآخرين، أم ليتشكى، بمرارة وخنوع من أجل أشياء يفتقر إليها دون أن يبذل أي جهد يُذكَر للحصول عليها؟ أن يكسب المرء خبزه بعرق جبينه حكمة ترمز إلى أبعد بكثير مما تبدو لنا لأول وهلة. إنها تعني مواجهة الواقع بطريقة مسؤولة حقاً، أن يبذل أقصى ما يستطيع لإثبات أهليته لـ "هبة" الحياة، أن يطور نفسه إلى أبعد حد ككائن إنساني، الأمر الذي يعني، في المقام الأول، أن يخترق الغيبة التنويمية التي تستعبد عقله، ويطهره فيما بعد من كافة التبريرات الهدامة التي تراكمت فيه في الماضي، ويعمل على تقوية شخصيته وإرادته حتى يحقق حالة مناسبة من ضبط النفس لكي ينمي تدريجياً الملكات السامية التي تميز الجنس البشري، وذلك من خلال تنمية القيم العليا وممارستها في سبيل تحقيق الارتقاء العمودي الصاعد.

ويعني أيضاً أن يسلِّم المرء باللامساواة باعتبارها حدثاً منطقياً في الحياة وليس كارثة. ويجب ألا يبحث عن مساواة لايستحقها، لأن سم الحسد سيكون دليله من غير قصد. إن الانحدار، والتقهقر، والانكماش مفاهيم لاتوحي بها النورانية السماوية بل ظلمة الشيطان الكبير.

يطالبنا الإله ببذل جهد فردي في سبيل الارتقاء. فإذا تهربنا من بذل هذا الجهد، فإننا سنضل السبيل الذي رسمه الخالق، وبما أن عالم الخالق هو "الكل،" فإننا سنكون في العدم.

فعلى المرء ألا يؤمن بكلمة "مجاناً،" لأنها بدعة تُسعد قلبه ولكنها غير موجودة فعلاً في الطبيعة حيث لاشيء يُعطى دون ثمن، بل تسود فيها المِرْكَنْتِلِيَّة[1] mercantilism الكونية في أعلى معانيها. وينص هذا القانون على أن "كما اعطيك، يجب أن آخذ منك،" "كما تعطيني، يجب أن أعطيك."

وهناك تعبير شائع يقول "ليس هناك وجبات مجانية، لأن أحدهم يقوم دائماً بدفع ثمنها،" مما يدل ضمناً على رفض مفهوم "مجاناً."

يكره الناس العاديون دفع ما يستحقه فعلاً شيء ما، سواء كان مادياً أو غير مادي، لأنهم يتوقعون أن يحصلوا على ما يريدونه بنوع من معجزة دون أي ثمن. إن الأخذ دون عطاء مقابل هو أقرب إلى مفهوم السرقة، ولكنه هنا يمثل نزوة أو توق شخصيات أو كسالى بخلاء، على الرغم من اللاأخلاقية الواضحة لهذه الرغبة.

وأقول من جديد، إن الدافع الطفيلي يمكن أن يكون أقوى من الرغبة الشريفة في حيازة الأشياء عن طريق بذل الجهد والتضحية الشخصية، والغريزة "الدراكولية" قد تقود الكثيرين، دون وعي أو بقصد، إلى ابتكار أو اتخاذ مواقف مسرحية في حياتهم بواسطتها يتلاعبون بمشاعر الناس عن طريق إثارة الشفقة أو الشعور بالذنب في نفوسهم، مواقف فيها يكون الفرد المتلاعب مستعداً للتخلي عما كان كسبه بصورة مشروعة، لكي يستفيد منها شخص آخر قد لايكون فقط مفتقراً إلى أية جدارة، بل أيضاً قد يكون مديناً لـ الطبيعة بسبب تصرفاته التي تستحق اللوم.

مامن أحد يفكر في احتمال ما إذا كانت سلطة سماوية من نمط معصوم كلي المعرفة تريد أن تحقق عدالة فورية لجميع الناس، فنأخذ من أكثرهم القليل الذي يخصهم بسبب افتقارهم الشديد إلى الجدارة، وهكذا، يتوطد مبدأ المكافىء المساواتي على أساس ما يستحقونه فعلاً.

إن من يطالبون بالعدالة، يفكرون دائماً بلغة امتياز يجب أن يُستعاد أو يُمنَح لهم. وبما أن أحداً لاينظر إلى نفسه عندما يتعلق الأمر بتحقيق مبدأ المكافىء المساواتي بين ما يستحقه

1-النظرية التجارية: نظام اقتصادي نشأ في أوروبة خلال تفسخ الاقطاعية لتعزيز ثروة الدولة عن طريق التنظيم الحكومي الصارم لكامل الاقتصاد الوطني وانتهاج سياسات تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية-المترجم.

وما يريد الحصول عليه، فإن ما يكون في حيازته في تلك اللحظة قد يكون فائضاً، وقد يؤخذ منه بما يتناسب مع ضآلة جدارته. هذه الحالة تشبه ما يحدث للمجرم عندما يطالب بتخفيف عقوبته ليكتشف أن المحكمة شددتها بدلاً من أن تستجيب لطلبه.

فسر الحشد الكلمة "حرية" بمعنى التحرر من المبادىء الصارمة، كمبرر لإطلاق المرء العنان لعواطفه الخاصة، أو لكي لايخضع لأية سلطة عليا أو يحترم أي نمط من الهرمية، أو بمعنى حرية الناس في أن يحكموا أنفسهم، كما يحدث في الجانب النظري في الديموقراطيات.

أريد، في هذا السياق، أن أستشهد بعبارات لأندريه فروسارد من الأكاديمة الفرنسية من كتابه الإنسان الذي نحن بصدده. يقول هذا المفكر المعروف حول الديموقراطية ما يلي:

هي [الديموقراطية-المترجم] عند الأمريكيين، حكم الشعب بالشعب وللشعب. وعند جان جاك روسو، هي الأب الروحي للعالم الحديث، إنها مملكة الإرادة العامة.

هذان هما التعريفان المتجذران بعمق للديموقراطية، ولكن كلا التعريفين خادعان وعقيمان سياسياً. والحقيقة، هي أننا لم نر أبداً شعباً يحكم نفسه، باستثناء مناطق ضيقة جداً في سويسرا حيث يمكن تجميع كامل السكان على شكل مربع رئيسي واستشارتهم حول أية مسألة. أما الإرادة العامة، التي يجب عدم الخلط بينها وبين تعبير أكثرية المواطنين، فتعني إلغاء كافة الإرادات الفردية، وهو نمط من أنماط نكران الذات لانجده إلا في أديرة العبادة. فالديموقراطية إذاً لاوجود لها أبداً في أي مكان، إلا إذا وضعنا في حسابنا الاستثنائين البسيطين الذين ذكرناهما آنفاً، والثاني منهما غير مقنع أيضاً لأن الأديرة أقرب إلى نظام ملكي. مع ذلك، فإن الديموقراطية هي النظام الحكومي الأكثر قبولاً في الوقت الحاضر وعلى المرء أن يؤمن بوجودها، لأن أمماً كثيرة تتباهى في وصف نفسها بالديموقراطية.

والصيغة الأمريكية طريقة رومانسية للتذكير بأن الكلمة الأولى والأخيرة هي للشعب في الديموقراطية المألوفة؛ فالشعب يقول كلمته الأولى من خلال اختيار من ينتخبهم؛ والأخيرة من خلال عزلهم النهائي، ولكن، في غضون ذلك، ليس للشعب كلمة ... الضمير عند الديموقراطيات البورجوازية سيء إلى حد لايمكنها معه أن تضمن لكل فرد حرية تامة تنبع من السلطة العليا لمبادئها دون أن تدمر نفسها.

ومن المدهش أن يتخيل المرء أن الديموقراطية الحقيقية لاوجود لها على أرض الواقع بل هي اليوم مجرد تكييف رومانسي ليوطوبيا متعذرة التطبيق، تخيلها الأغريق القدامى شكلاً من حكومة يديرها الرجال الأكثر تطوراً. والحقيقة، هي أن الأفراد من فئة المواطنين كانوا يشكلون نسبة ضئيلة من مجموع السكان؛ فالنساء، والأطفال دون سن معينة، والآخرون ممن يخضعون لنفوذ لغيرهم كانوا مستثنين من حق المواطنة. وفي الواقع، كانت نوعاً من حكومة أرستقراطية؛ التمثيل فيها غير موجود؛ والمناصب الحكومية استظهار ببغاوي بين المواطنين وسلطة الجمعية التشريعية مطلقة.

وقد حدد أرسطو ثلاثة أشكال تقليدية للحكومة: الملكية، والأرستقراطية، والديموقراطية، وتعتبر هذه شكلاً تحكم فيه الأكثرية في سبيل المصلحة العامة، في حين أنها في شكلها المنحط أو القذر هي الديماغوجية، التي فيها يُدار الحكم لمصلحة طبقة خاصة، هي طبقة الفقراء عند أرسطو.

وفي العودة إلى مفهوم الحرية، يجب أن ندرك أن الحرية الحقيقية المطلقة لاعلاقة لها بأية ظاهرة خارجية، لأنها حالة داخلية عند الشخص. فالشخص لايمكن أن يكون حراً مادام عبداً لعواطفه ويعمل وفقاً للطعوم العقلية التي غرسها من يتلاعبون بالسلوك. فليس هناك من هو أسوأ من شخص محدود، أو قصير النظر، أو من يغزو قلبَه الكرهُ، والحسدُ، والامتعاضُ. ولا يمكن أن يكون حراً من يعتمد على نظام اقتصادي لامساواتي جائر يعمل كطفيلي على حساب الناس من خلال تنمية المال بطريقة مضادة للطبيعة، وذلك عن طريق القروض المصرفية وفوائدها، في حين يجب أن يتزايد فقط عن طريق العمل والجهد الشخصيين. والحرية المزعومة للمستهلك هي أيضاً ضرب من الخيال، لأن الكثير مما يشتريه غير ضروري وزائد عن الحاجة، ويحصل عليه لأن الإعلان ، وبرامج التلفزيون، والإغراق المتواصل الذي لايكل بالأخبار من قبل وسائط الإعلام غسلت أدمغة الناس. كل هذا يسبب عطالة معلوماتية دووَعيية هائلة تعزى إلى استقبال لامعنى له للرسائل، التي تجعل الفرد عبداً للمعلومات، مُنفّذاً مؤللاً لها فتستحوذ على دماغه دون أن تخضع لل "أنا."

تتصارع حملات الإعلان المختلفة على دماغ الفرد ويكون أمامه خيار وحيد هو "الانتماء عقلياً" إلى هذا أو ذاك من المنتجات، أو الأيديولوجيات، أو الأحزاب السياسية، وليس إلى ذاته أبداً. وتدافع المعلومات التي يحملها في دماغه عن نفسها ضد أية معرفة لاتتفق مع تركيبها الخاص، وترفض، على نحو أعمى، أية محاولة لمواجهة الواقع الحقيقي. والعمى العقلي

نموذجي للأدمغة التي تغرقها الرسائل الدُّووَعيية التافهة (العديمة المعنى)، التي تهبط عادة من مستوى "نصف سرنمه" إلى "سرنمة والعينان مفتوحتان،" وهي المرحلة الختامية للحرية والوعي.

وكما نعلم، فإنه ما من نظام أخلاقي يمكن أن يؤدي وظيفته بصورة صحيحة عند أناس يعانون من تدهور نفسي مترافق بضحالة إدراكهم للواقع. فمشكلة اللاأخلاقية أو الافتقار إلى القيم ليست أكثر من مسألة تخلف إنساني بقدر ما تكون الملكات الإنسانية معنية. وما لم يُعالَج المأزق من هذه الزاوية، فإنه لن يكون هناك حل ممكن.

ومما يدعو للأسف أن العديد من المصالح المالية والسياسية، ومصالح الشركات، سوف تتأثر في جميع أنحاء العالم في اللحظة التي يحقق فيها الإنسان حريته الحقيقية ووعيه الفرديين، وبالتالي، لن يبقى مستهلكاً مطيعاً لأنه يكون قد اكتسب مناعة ضد الغيبة التنويمية وسيصبح قادراً على التفكير باستقلالية تامة ودون ضغط للوصول إلى حجمه الإنساني الحقيقي.

وبهذه الطريقة، تكون قد انتهت العبودية الحديثة، التي هي أسوأ بألف مرة من العبودية التي كانت تقيد الجسد فقط وتترك حيِّزاً داخلياً للثورة أو حرية الإرادة. ولكن هذا الحيز الداخلي هو الذي يتعرض للغزو في الوقت الحاضر، ونتيجة لذلك، يتمتع عبيد العصر بكونهم أشخاصاً آليين مطيعين لا يتعبهم تقديم الشكر لأسيادهم لأنهم تكرموا عليهم بقبول خدماتهم.

من هم هؤلاء الأسياد؟

إنهم مجهولون كالدولة، ولكنهم موجودون في الواقع ويقدمون دائماً البرهان على اقتدارهم عن طريق تحكمهم بالعالم بشتى الطرق.

جهل الخير والشر

لكي يتصرف الشخص على نحو سليم، فإنه يحتاج إلى أن يميز بين الخير والشر ويعرف تماماً ما يعنيه كل من هذين المفهومين. وقد يحتج بعض الناس بأن التمييز غير ممكن وأنه يعتمد على وجهة النظر عند كل فرد، وهذا، في الحقيقة، تفكير لاأخلاقي بحد ذاته. وفي الواقع، إن قيماً مهمة كالحب، والواجب، والإخاء، والصداقة، والعدل، والصلاح لايمكن تركها لـ "وجهة نظر الفرد،" لأن الشهوات والدوافع البهيمية تستقطب رأي الفرد بصورة تامة، وذلك من خلال الجاذبية، أو العطالة، أو القصور.

وبمعنى آخر، إن الرأي عند كل فرد هو عادة ليس أكثر من مظهر لمعتقداته الخرافية، أي تعبير عن قسم ضيق من الواقع الذي يستجيب لتبرير ما ورثه من عيوب، ورذائل، ومشاعر، وخطايا، وللدفاع عن المنطقة من دماغه التي نفذت إليها المعلومات واستعمرتها.

ولهذا السبب، لايمكن أن ننتظر أن يكون رأي الفرد مهماً جداً أو ذا مغزى، لأنه عادة فعل منعكس تقريباً للعصبونات المستعمَرة، أو آلية لرد فعل غريزي أمام الخوف الذي توحي به حقائق معينة. ولهذا، علينا أن نعرِّف الخير والشر من وجهة نظر مطلقة، أي، بما يتجاوز التجربة الفردية المقيدة أو الشهوات الجسدية أو العاطفية وبما يتجاوز المتطفل المعلوماتي الذي نحمله في عقولنا، نتيجة للبرمجة القاسية للإنسان من قبل الإنسان.

ولا شك في أن الخير الذي يتجاوز أية وجهة نظر، أو عصر، أو إقليم، هو الذي يساعد الفرد على الاستيقاظ من الغيبة التنويمية البيئية التي تستلبه حتى أنها لاتترك له حيزاً، أو صفاء، أو قوة لإنجاز عملية ارتقائه، لكي يحقق تقدماً عمودياً صاعداً من خلال تنمية وعيه الأعلى، بحيث يكتمل روحياً، بما يساعده على اللقاء بأصوله والاتحاد مع الشرارة المقدسة.

والشر، على العكس، يتجاوز أي اعتبار شخصي، وهو كل ما ينتج عن الغيبة التنويمية التي هي من منشأ كوني وبيئي، والتي تمنع المرء من الاستيقاظ، وتشل أية محاولة لارتقائه. وهي التي تبرمجه وتفرغه، وتحمله إلى النوم ، وتنومه، وتدمر "أناه" وتقوده إلى الانكماش وفقدان النفس والروح. وهي التي تستلبه وتحطم جوهره الداخلي الحقيقي. إنها القوة الظلامية في الكون التي تحاول أن تخرب كل ما هو خير حقاً وتفترس الشرارة المقدسة.

يقتضي الواجب الأخلاقي من كل شخص، الواجب الذي لافكاك منه، أن يفكر ملياً بالطبيعة الحقيقية للخير والشر لكي يستطيع أن يحدد ، بالشكل المناسب، وكلاهما على الأرض. وبهذه الطريقة، يستطيع الناس أن يتجنبوا المواقف التي تعدهم بخير ظاهري، في حين تعمل، في الواقع، على الانحراف بهم عن سبيل الخير الأسمى. فلا شيء أكثر خداعاً من الخير الظاهري الآني، القائم على أساس اللذة المادية التي تحملنا على الظن بأننا وجدنا سعادتنا وهي خير مادامت تقدم لنا هذه اللذة. وكذلك أيضاً، ليس هناك ماهو أسهل من تصنيف حالات المعاناة والألم في خانة "الشر،" مما يعني فعلاً عملية شفاء مفيدة جداً بالنسبة للنفس.

تحملنا اللذة المادية عادة إلى النوم وتنومنا، في حين أن المعاناة توقظنا من الغيبة التنويمية التي تسيطر علينا.

مع ذلك، لايمكن ان يكون المرء ساذجاً حيال هذه المسألة ويتوجب عليه أن يعرف المواقف البسيطة التي لاتكون عند هذا الطرف أو ذاك. ومن الصحيح أن نتعلم النظر إلى ماتحت المظاهر ولا نعتبر ماهو سار شراً إذا ترافق بخير وألم. فهناك ألم يمكن أن يكون عقيماً وألم يمكن أن يكون شافياً؛ ولذة يمكن أن تستنزف وأخرى يمكن أن تُشبع. ومن سوء الحظ أن تكون الحقيقة الثانية مجهولة تقريباً، ولهذا، فإن أكثر الحالات متعة تستنزفنا وتخمدنا.

الناس، في الواقع، لايحملون فكرة حول كيف يمكن أن يتمتعوا دون أن يقترفوا الخطيئة أو يحطوا من قدر أنفسهم، أو دون أن يستنزفوها أو يخمدوا طاقتها. ومن المهم جداً أن نضع في اعتبارنا أن الشر لايظهر دائماً بمظهره الحقيقي، بل كثيراً مايتنكر بشكل شيء نافع ورفيع. ومن الجهل الافتراض أن مكر الشيطان يدفعه لتغليف مظاهره بأبخرة كبريتية، وأظلاف، وقرون، وذيل حيواني. بل على العكس، إنه يحيط نفسه بهالة من البراءة، والاحترام، والطيبة، وهو قناع مفيد من تحته يتصيد المتهورين.

ومن الواضح أنه لايمكن للمرء أن ينفذ من قشرة المعاني إلى جوهرها دون معيار رفيع فيما يخص الخير والشر، كما هي الحال عندما نرى أو نسمع مايمتع ذاتنا ويبهجها نفسياً. فقد اقتُرفَت فظاعات ومذابح وحشية عبر التاريخ باسم قضايا عليا، أو باسم خير ظاهري، أو مزعوم، أو زائف.

وعلى العكس، تم التلاعب بأفعال الوطنية، والخير، والعدالة وتشويهها بأن نُسِبَت إليها أغراض ونوايا منحرفة. فقد اتُّهِم المسيح باقتراف جرائم خطيرة، وغاندي بالخرق الخطير للقوانين، وفي كثير من الأحيان كان يُعتبَر الآباء المؤسسون لمختلف البلدان مجرد مجرمين.

فقد تعرض المحسنون الكبار من أبناء الجنس البشري للسخرية أو القتل، في حين كان منتهكو القوانين والمجرمون يحظون بالثناء والتمجيد. وتكمن المشكلة في أن معرفة من هو الصالح ومن هو الطالح تزداد صعوبة باضطراد، ويتم عكس الأدوار تماماً أكثر مما يشتهي المرء، بحيث يصبح الأمين لصاً، ومنتهك القانون محترماً. ويمكن أن يفلت من العقاب أكثر المجرمين سوءاً في حين يُسجَن الناس الشرفاء الأكفاء.

وتتكاثر "القبور المُبَيَّضَة" دائماً، ولكن قلة من المواطنين يمكنها أن تدرك النجاسة التي ينطوي عليها مظهرها الكريم المحترم. فالفرد لايمكن أن يعرف هذا من هذا، فالاحترام

الاجتماعي ليس ضمانة للطهارة، ولا توبيخ الفرد أو عقوبته أو منصبه المميز يعتبر ضمانة أيضاً.

إن الشيء الوحيد المؤكد هو الواقع المثبت الذي يمكن أن نلمحه فقط عندما لايبقى هو الحاضر بل عندما يصبح جزءاً من الماضي. وعندما نُصدر رأياً فيما يخص الماضي الذي خبرناه مباشرة فإننا نُصدره عن ثقة تقريباً، ولكننا نعجز عن تقييم وجودنا وتعاقب حوادثه بالشكل الملائم. وبقدر ماتتعلق المسألة بمعرفة الحقيقة والواقع، يبدو أن الشمس تشع عكسياً، وانهما اليوم يحجبهما الضباب والظلمة اللذان يولد منهما الشك، والجهل، والتَّوَهان، والذبذبة.

فالحقيقة عادة تمكث في الماضي، وبمرور الزمن، يصبح إدراكها أسهل بكثير، ليس فقط لأننا نصبح أبعد عنها عاطفياً، بل أيضاً لأن الحوادث التي تقع بمرور الزمن تميل إلى إلقاء المزيد من الضوء على مابقي خافياً حتى الآن.

قد يظن البعض أننا لانستفيد كثيراً من معرفة الماضي في حين أن مانحتاجه هو الوضوح في الحاضر. ولكن يمكن ، عن طريق إمعان النظر في الماضي، أن نتوصل إلى فهم أسباب فشلنا الحاضر، وبالتالي نتزود بوسائل مثالية لتحقيق النجاح.

والتحليل الصحيح للماضي أكثر فائدة لمن يلقون مسؤولية إحباطهم وسوء حظهم على القدر، أو البيئة، أو جماعات معينة من البشر، لأنهم بهذا يمكنهم أن يوطدوا علاقة العلة والمعلول بين مايحصدونه اليوم وما كانوا قد زرعوه في الماضي.

ويمكن أن يحقق هذا فائدة رائعة من وجهة نظر تربوية إذا أدركنا فعلاً أن الحوادث الإيجابية والسلبية ليست أكثر من نتيجة لتصرفاتنا في الماضي. فنحن يجب ألا نتعلم فقط أن نميز بين التظاهرات الخارجية والداخلية للخير والشر، بل أيضاً أن نرى بوضوح أكبر التصرفات الايجابية أو الخيِّرة التي يتوجب علينا أن ننجزها في هذه اللحظة وأيها التي يجب أن نحجم عنها.

يُظهر لنا الماضي أننا نرتكب عادة النمط نفسه من الأخطاء خلال حياتنا، ولهذه الغاية يمكن أن تساعدنا قائمة وصفية واضحة بهذه الآليات لكي نضع حداً لها في مختلف مجالات نشاطنا في الحياة. ويتوجب علينا أيضاً أن ندرس في العمق العمليات التي تقودنا إلى النجاح، لأنه مامن شيء يمكن أن يكون أكثر فائدة، سواء من الناحية المادية أو الروحية، من

اكتشاف السبيل لتحقيق النجاح، وبالتالي، تفادي الإحباط والفشل. مع ذلك، يجب ألا نتأثر بهذا التحليل عن طريق توقع تحقيق خير نظنه ثميناً ومديداً والذي ربما يكون مجرد سراب لخير ظاهري، لايجلب لنا على المدى الطويل سوى الإحباط والألم.

لن نخطىء أبداً إذا وجهنا جل جهودنا وطاقاتنا في سبيل تهذيب أعلى لقيمنا الأخلاقية والروحية وتطويرها، لأن هذا السبيل لن يقودنا فقط إلى سعادة دائمة بل أيضاً إلى الكمال الروحي الذي يأتي من إكمال المرء لملكاته الإنسانية، وبذلك ينجز العمل الشاق الذي تلقاه من الإله. وفي هذا السياق، يحتاج بصورة ملحة إلى أن يفرِّق بوضوح بين الخير والشر، ويتطلب أيضاً أن يكون قادراً على التفريق بين مايبدو خيراً وما يبدو شراً في ظاهره.

قلت سابقاً ان المعرفة لايمكن أن تأتي نتيجة لعاطفة، أو لدافع لحظي، أو إشباع الحواس بلذة خادعة. بل على العكس، إنها كالحكمة عمقاً، يستهلك إكمالها كامل حياة الفرد. وبهذه الطريقة فقط يمكن للمرء أن يجد السلام في الحياة، السلام الذي يأتي إجمالاً من الثقة في أنه يتصرف على نحو سليم، وهذا ممكن فقط إذا كان متأكداً من أن هذا خير وذاك شر. وعندما يتوصل الفرد إلى إدراك هذا، فإنه يكون قد طور بوصلة وعيه الأخلاقي. ويتأتى هذا عادة نتيجة للعادات والتكليف الاجتماعيين، ونادراً جداً مايكون انعكاساً لنظام أخلاقي رفيع يتشربه الفرد واعياً ومختاراً. يجد المرء عادة ماتفعله الأكثرية مقبولاً ومستحسناً، أو يقلد في بعض الحالات النماذج التي تروق له-يتم كل هذا دون عملية استبطان تأملية.

وكثيراً مانسمع بضرورة "التقرير وفقاً للضمير،" وهناك أناس يتباهون بأنهم يتصرفون على هذا النحو دائماً. ومع ذلك، قد يسأل المرء مانمط الضمير الذي يقصدونه عندما تكون الحالة العقلية السوية للإنسان هي حالة "اللاوعي، أو ماأسميه "غيبة تنويمية" أو حالة سرنمة. فعندما تكون ظاهرة ما غير معروفة لأنها لم تُجرَّب مباشرة، فإنه من السهل جداً أن يدَّعي أحدهم بأنه يتمتع بقدرة ما وهو، في الواقع، لايتمتع بها فعلاً، كما يحدث فعلاً في مجال الوعي، وقوة الإرادة، وحرية الاختيار، التي هي مجرد ملكات في حالة كمون، مهما حاول البعض أن يتباهى بأنه يسيطر عليها تماماً.

عندما نتحدث عن "الوعي،" فإننا ندخل في رمال متحركة أو أرض مستنقعية، لأن هذه الكلمة التي تستخدم في الممارسة بصورة مطاطة تتكيف مع أية حالة. فإذا كنا نتحدث عن

"وعي نفسي،" فإنه يبدو لنا أن الجميع يتمتعون به، وحتى الحيوانات أيضاً. وإذا تحدثنا عن الوعي بمعنى وعي الكائن بطريقة رفيعة، فإنه يتضح أيضاً أن قلة قليلة من بيننا هي التي تتمتع به. ويمكن أيضاً أن ندرك أن هذا الوعي الرفيع يحدث فقط عندما يتخلص المرء من الغيبة التنويمية التي تتحكم بعقولنا، ولهذا السبب يكون له مستويات لاتحصى، تتراوح من المستوى الأولي إلى أكثرها رفعة. والمستوى الأكثر بدائية هو مستوى الفرد الذي حرر نفسه من الغيبة التنويمية ولكنه لم يفعل شيئاً لتهذيب ملكته الجديدة وتطويرها. وأكثر تلك المستويات رفعة نجده عند الفرد الذي أنجز عملية تطوير وعيه، ووصل حقاً إلى مستوى عال كبعض الحكماء في الأساطير القديمة.

لاعلاقة للحكمة بالمعرفة المنهجية، لأنها تتعلق بالتجربة الروحية التي هي ممكنة فقط في الجزء الداخلي من الروح. وعلى المرء أن يضع في اعتباره أنه إذا كان يدرك ويسلّم بأن الشر المطلق هو القوة التي تمنع الإنسان من الاستيقاظ من الغيبة التنويمية المبتلى بها، وأن التظاهرة الدنيوية لهذا الشر تتجسد في كافة الوسائل التي تُبقي الناس، بطريقة أو بأخرى، في حالة سرنمة، فإن هذا الإدراك سيبدل تماماً منظور الفرد للوجود، لأنه سيكون له هدف ومعنى ولن يكون بعد الآن مجرد صفة عرضية أو مادة صرف.

هناك مناسبات يصبح فيها التلفزيون، والصحف، ووسائل الإعلام، وبعض الحملات الإعلانية أو الدعاية السياسية، دون قصد، وسائل مفيدة لخطط الشيطان. وغالباً، لابل وأكثر مما يبتغي المرء، يتلقى الناس معلومات مضللة بدلاً من الصحيحة، فيتحولون إلى برابرة بدلاً من متحضرين. ويتشوش تفكيرهم ويغيم بدلاً من أن يستنير. وتتعذب أدمغتهم بكافة أنواع الرسائل الدُّووَعيية المتناقضة، وهكذا تتعزز الغيبة التنويمية التي تبتليهم، بدلاً من أن يتلقوا رسائل تساعدهم على الاستيقاظ إلى حالة أرفع من الإدراك. فالجنس البشري يتعرض، بشكل مكشوف وقانوني تماماً، ودون أي نوع من الحيطة أو السرية، إلى مؤامرة حقيقية، غرضها الخسيس هو العمل تدريجياً على إضعاف مستوى اليقظة في عقول الناس بقصد جعلهم ميالين إلى التأثر بالقوة الظلامية وحلفائها الطوعيين على سطح الكوكب.

وتستفيد هذه القوى من تعاونهم اللاواعي عن طريق الزيادة التدريجية للمستهلكين الطيّعين الذين يسهمون بموارد أكثر فأكثر لخزائنهم. وبما أننا جميعاً، ودون استثناء، نتأثر بقوة التنويم البيئية من خلال استمرار مثيراتها الإيحائية التي لاتنتهي، فإن الأمل الوحيد أمام

الإنسان، لتحسين حالته الداخلية التي لم تتغير منذ القدم، يكمن في سيطرته على عقله، وتحصينه ضد تأثير التنويم البيئي، وهو شرط أساسي لأي تقدم روحي حقيقي.

إن الأخلاقية الحقيقية هي "معرفة المرء لشخصه الفريد،" وهذا يعني أن هذه المعرفة ترافق حالة الوعي الأعلى. ويمكن تحقيق ذلك فقط من خلال العمل الفردي المقبول بحرية وطواعية. وهذا مايعلل عدم انتمائها إلى الحشود، كما أنه لايمكن تبسيطها، لأنها ثمرة لاتُنكَر للجدارة والجهد الشخصيين. والحشد، في حد ذاته، لايمكنه أبداً أن يرفع من مستواه المفاهيمي بمعنى "الوعي الأعلى،" لأن إمكانيته تقتصر فقط على زيادة المعلومات التي تنفذ إلى دماغه.

ومن منظور هذه المفاهيم، يمكن أن يكون الحاسوب لصاً حقيقياً للوعي، أي المدمر للقدرات الإنسانية العليا، عن طريق تعزيز الغيبة التنويمية. وليس لدي أدنى شك في أن من يستخدم الحاسوب يفقد الـ "أنا" الخاصة به عندما يستخدمه، أو أن هذه الآلة تؤثر عليه. وفقدان الـ "أنا" آلية أساسية للعملية التنويمية، وفي هذاه الحالة، يلتهمها الحاسوب من خلال دمجها مع الصور على الشاشة وإعادتها معطوبة، ومنهكة، وفارغة حال تشغيله.

إن أي نمط من التقدم والتكنولوجيا يمكن أن يقدم فوائد لاتُنكَر، ولكنه، كالأدوية، لانعرف الكثير عن تأثيراتها الجانبية، أو أن تكون تلك التأثيرات مجهولة تماماً لدينا. فعلى سبيل المثال، في البداية لم نكن نعرف أن محرك السيارة يمكن أن يصبح كابوساً للتلوث، أو أن المبيدات الحشرية يمكن أن تصبح سامة إلى حد خطير. وتكنولوجيا الحواسيب حديثة العهد ولا نعرف تأثيراتها الجانبية. وكل ماتمت دراسته حتى الآن في هذا المجال هي الأشعة المؤذية التي تنتشر من الشاشة، وبطريقة أولية جداً. ومن الصعب اختبار تأثيراتها السلبية على مجال لانعرف عنه إلا القليل كمجال التنويم المغنطيسي، الذي بالكاد تم التعرف على القشرة الخارجية التي تكمن تحتها أهميته الحقيقية. وقد يكون جرى أيضاً حساب كل شيء بلامبالاة وأن الغرض الحقيقي من وجود الحاسوب هو تكوين حشود من عبيد الفكر الذين يحملون استعداداً للسير في الاتجاه الذي يرغبه من يديرون كامل النظام. فمن ذا الذي يعرف فعلاً التركيب الحقيقي لبرامج وأنظمة تشغيل الحاسوب الموجودة في السوق؟ ومن له أن يضمن خلوَّها من الرسائل الدُّووَعيية؟ وهل هي حقاً غير مؤذية للدماغ والعقل، أم أنها تسبب إدماناً، أو تفككاً، أو تأثيرات أخرى جانبية مؤذية؟

لم يقم أحد بدراسة هذه المشكلة في العمق. ولكن نتائج هذا البحث المحتمل ستكون ملتبسة تماماً كنتائج البحث الذي تم لتحديد الضرر الذي تسببه الماريجوانا أو العقاقير الأخرى المؤذية، حيث نجد دائماً أناساً يستخفون بتأثيراتها السلبية أو ينكرون وجودها ويعتبرون تعاطيها غير مهم، أو يضيفون أيضاً أنهم يجدون فيها راحة أكبر ولذلك يجب الترخيص لهم باستخدامها.

إن مصالح صناعة الحواسيب واسعة جداً ولذلك لايحتمل أبداً القيام ببحث جاد بخصوص التلف العقلي الذي يمكن أن تسببه هذه الأجهزة. ولهذا السبب، ينبغي أن يحدث تقدم كبير في البحث العلمي حول العقل للتحقق بدقة من جوهر وحجم الصفات العليا التي يمتلكها والتي يمكن أن تتعرض للتلف من غير قصد. ولكن ربما نتوصل إلى معرفة الحجم الحقيقي للمشكلة التي أطرحها الآن، وذلك بعد أن تصبح الحالة الحاضرة شيئاً من الماضي، وبعد مرور وقت كاف. ويمكن أيضاً أن تتفاقم إلى حد أبعد.

ليس من السهل علينا أن نحدد بدقة ماإذا كان هذا الشيء يتقدم أم لا، لأن الحاسوب الذي يساعدنا في تقنيات عمله يمكن ايضاً أن يشوه عقولنا ويضعف إمكانياتنا الداخلية، كتأثير جانبي. ولكن لن تتهيأ لنا أبداً معرفة ذلك على وجه الدقة دون أن نثبت علمياً ماالملكات العقلية الأكثر أهمية التي تعرضت للتلف، وأقصد الوعي. وفي تلك اللحظة بالذات، سوف ندرك أن هناك تقنيات وحالات في الحياة اليومية يمكن أن يرتفع معها رائز الذكاء عند الناس، ولكنها تعمل، في الوقت نفسه، على تدمير مستوى الوعي الأعلى عندهم. وهنا يأتي اليوم الذي يتعزز فيه اليقين بأن السبيل الوحيد المتاح لإنقاذ القيم المتسامية، وممارسة سلوك أخلاقي حقيقي وتحقيق السعادة، هو سبيل الكمال الروحي عند الفرد، الذي يواجه مقاومة عنيدة من قبل الغيبة التنويمية البيئية لعصرنا.

الاحتيال

يعني الاحتيال أن يحصل أحدهم على مال أو شيء ذي قيمة بالغش والخداع، وهو ينوي سلفاً عدم دفع ثمن ماحصل عليه. ويتضمن التعريف أيضاً أياً من الجرائم التي تتجسد بالربح كغاية، وذلك باستخدام الخداع أو سوء الائتمان كوسيلة. وعندما يُكتشَف الاحتيال، فإن عبء القانون بالكامل يقع على الجاني، ولكن هناك بعض المجالات فيها تبقى مناورة المخادع غامضة أو محجوبة، وبالتالي، تمر دون أن يلاحظها أحد أو يبلّغ عنها، لأنها لاتعتبر احتيالاً بالمعنى الدقيق للكلمة.

ماانتهاك القانون؟ أهو فقطماينص عليه قانون العقوبات؟ أم أن هناك انتهاكات غير مدونة؟

لكي نفهم هذه المشكلة، علينا أن نضع في اعتبارنا أن أي عملية احتيال تقريباً تنجح في خداع الناس بوجه عام لن تُكتَشَف أبداً. والشرط الأساسي لكشف الاحتيال هو أن تكون العملية قد نجحت في خداع جزء فقط من السكان، بحيث تتمكن البقية من إدراك هذا الغش. ولكي يستغفل أحدهم جميع السكان، لابد أن يكون لديه نمط جديد من الاحتيال، مناورة خادعة ذات أفق وأسلوب بحيث لايشك الناس أبداً في أنها عملية خداع. فعلى سبيل المثال، أظن أنه كان هناك عبر التاريخ الكثير من الاحتيالات، سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة لأن الدليل على ذلك قديم جداً، وقد تم تنفيذها بصورة ماكرة جداً أو ربما تم إخفاء الدليل عليها.

فهناك أبطال ربما لم يكونوا أبطالاً حقيقيين كما اعتُبروا. وعلى العكس، ربما جرى تشويه رواد مشهورين في ميادين العلم والفلسفة أو التعتيم عليهم لأنهم تجرؤوا على التفكير بشكل مختلف أو لأن نظرياتهم هزت الأسس الجبارة للمصالح الاقتصادية، أو السياسية، أو الدينية. والأكثر احتمالاً أن تبقى الأكثرية الساحقة من هذه المناورات غير الشريفة التي تتخذ الخداع وسوء الائتمان هدفاً وحيداً لها بقصد الربح مجهولة تماماً، وكذلك المسؤولون عنها الذين يظهرون بمظهر البراءة التامة في نظر العدالة. ووفقاً لهذه النماذج، فإن الأفعال الشاذة التي تبقى محجوبة أو التي لم تنص عليها القوانين لاتسبب أية عقوبة بحق مرتكبيها. ولكن، على الرغم من ذلك، سوف يلقون عقاباً حتمياً من قبل الطبيعة.

قد يظن بعضهم أن التصرفات المخالفة للقوانين، والشريرة، والفاسدة قابلة للتطور كما هو شأن هذيانات العقل المشوش وأن هناك ملايين الجرائم التي لانعرف عنها شيئاً أو التي لم تُلَفَّق ولم تُكتشَف. إن الصراع بين الالتزام بالقانون وانتهاكه لن ينتهي، لأنه ما أن تنجح جريمة ما، حتى يفكر أناس آخرون بطرق جديدة وأفضل وذلك لمنعها أو الدوران حولها إما للوقاية منها أو لانتهاك القانون. ولا بد من الاعتراف بأن هناك كثيراً من المناورات الخادعة، هي، في جوهرها، شكل من الاحتيال وتفلت من العقاب وذلك بسبب صعوبة إثباتها، وأيضاً لعدم مبالاة الناس بقبول التحقق من هذه الأمور.

والفائدة لاتعني بالضرورة الكسب المادي. وعلى الأصح، تتضمن أي نمط من الدخل أو المنفعة الناشئة من مصدر ما. وكما هي الحال دائماً، هناك وسائل غير مشروعة، تماماً كما أن هناك وسائل مشروعة، للحصول على الفائدة. فالعمل الشريف مشروع والاحتيال واحد من الطرق غير المشروعة.

فإذا اتفقنا على أن أية مناورة خادعة تنتهي إلى الكسب يمكن أن تكون في الحقيقة احتيالاً ، فإننا نتفق أيضا على أن أفق هذا المفهوم أكثر اتساعاً بكثير. وإذا افلت تصرف خاطىء من عقاب القانون البشري، فهذا لايعني أنه ليس جريمة في نظر الطبيعة. فالقانون الأسمى يقوم على أساس صفقة لقيم المكافىء المساواتي، والاحتيال يتكون من عملية خداعية ماكرة تهدف إلى تغيير التكافؤ في التبادل. ولتوضيح هذه النقطة، سأقدم مجموعة من الأمثلة التي يمكن أن تحدث على أرض الواقع على الرغم من أنها تخيلية:

المثال الأول: النشر في الصحف

تنشر الصحيفة "س" سلسلة من المقالات حول بعض الفضائح، وتصف، بمزيد من التفصيل، الجرائم المزعومة التي اقترفها فلان من الناس، الذي يكون في موقف المتهم، بسرقة مبلغ كبير من المال، في حين تكون الدعوى ضده بالكاد قد بدأت. وبعد مرور بعض الوقت، يُعلَن المتهمُ بريئاً من كل التهم.

النتيجة: تم خداع الجمهور وحقق أحدهم فائدة من هذا التشويه لسمعة المتهم وأسرته. وسيصعب عليهم استعادة سمعتهم لأن الصحافة لن تُكذِّب أبداً ادعاءاتها غير المُوثَّقة بالطريقة التي أسرفت في تعزيزها في البداية.

قد يحتج بعضهم طبعاً بأن الصحيفة قد تصرفت بنية طيبة، وظنت أن المعلومات الأصلية التي نُشرت حول القضية صحيحة. ولكن، يمكن أن يسأل المرء أيضاً لماذا تم نشر الاتهامات بمثل هذه الغزارة قبل المقاضاة؛ في حين قد يكون الظن الأولي للقاضي خاطئاً في أفضل الأحوال، فهو إنسان أولاً وأخيراً. والظن يعني الاشتباه فقط-الحكم أو تكوين رأي حول شيء ما بسبب وجود آثار أو علامات تدل عليه. ولكن مامن أحد يمكن أن يتفادى أن يتخيل نفسه من الناحية النفسية عندما يفترض، ولذلك يتقدم وفقاً لتعاطفه الوجداني أو شكوكه، أو على أساس مواطن ضعفه الشخصية (جميعنا يحملها)، أكثر منه على أساس عقلانية صارمة.

إن حقيقة براءة المتهم ليست سبباً كافياً لتبرير رواية الأنباء التي ذكرناها آنفاً، لأنه بنشر هذه المعلومات التي ظهر زيفها في النهاية، كان الناس قد خُدعوا بالغرض الوحيد لتحقيق الفائدة من بيع عدد أكبر من الصحف. وعلى الرغم من أن المعلومات لم تكن مثبتة، فإنها نُشرَت على الملأ كحقيقة لا على مجرد افتراض تهمة حتى تلك اللحظة.

لقد تم تشويه سمعة المتهم وربما تلطخت صورته إلى الأبد. وما من أحد يفترض أنه كانت هناك عملية احتيال. ولكن النية الطيبة عند الجمهور خُدعَت بدافع الفائدة من الافتراء على مواطن آمن، وهادىء، وشريف وعلى أسرته أيضاً. ومع أنه قد يكون صحيحاً أنه لم يكن هناك نية للخداع، إلا أنه كان يمكن الافتراض أن المعلومات ربما كانت زائفة. وبالمثل، فإن الصحيفة إياها تهتم فقط في إرضاء مراضة المرضى بين الحشود، النهمين دائماً للحقائق الدموية أو المثيرة. أرجو أن يضع القارىء في حسابه أنني أسوق مثالاً خيالياً، ولست مسؤولاً إذا كان يحمل أي شبه للواقع.

المثال الثاني: الخطاب السياسي الديماغوجي

إن إرضاء عواطف الناس لجعلهم أدوات للطموح السياسي عند أحدهم هو واحد من أشد أنواع الاحتيال قسوة وأكثرها وقاحة لأنه يقدم الناس ضحايا على مذبحه. فملايين الناس يتحمسون لإيمانهم بالوعود اليوطوبية التي لن تتحقق أبداً، لأنهم يُستخدَمون فقط كطعم انتخابي. والسلطة هي الكسب الذي يتحقق- سلطة في خدمة الدوائر الحزبية العليا لا في خدمة الناس. وتأتي ردود فعل هؤلاء الناس عنيفة عادة عندما يدركون أنهم خُدعوا، فيلقون باللائمة ظلماً على أناس لم يخطئوا وليس على من كذبوا عليهم عمداً لاستلام السلطة. وكما يقول ل. دومور في الجوامع الموجزة 6: "السياسة هي فن تحقيق الفائدة من الناس بحملهم على الاعتقاد بأن المرء يخدمهم." وفي غضون ذلك، أكد دالامبير في الفصل الخامس من مقتطفات من الأدب، أن "فن الحرب هو فن تدمير البشر، كما أن السياسة هي فن خداعهم." فالنفاق الجماعي يحول دون الاعتراف ببعض الحقائق عند الكشف عنها. والمبادىء الراسخة مسبقاً هي مصدر الطمأنينة العاطفية بالنسبة لكل من يخشون الاعتراف بأي عيب أو نقيصة في النظام، لأنهم تعودوا عليه. هذا هو خطر "الدَّقرَطَة"[1]، "إنه نوع من داء خبيث يقود المرء إلى الإيمان عاطفياً بالنظام الديموقراطي للحكومة ويرفض، من غير تمييز، أي نقد في

1-جعل النظام ديموقراطياً-المترجم.

سبيل كماله. فالديموقراطية لاتوجد فقط كمسألة اتفاقية أو قرار، ولكنها، على الأصح، تمثل حالة الوعي الذي يتطلب عملية طويلة شاقة من التحسين يكون فيها كل مواطن مجبراً على التخلي عن السلطة الأبوية التي تمارسها الحكومة ويضطلع بمسؤوليته تجاه نفسه-إدراك أن الجدارة الفردية هي المصدر الوحيد للثروة، والأمن، والنجاح، لأن هذه الأمور شرط أساسي لكي يكتسب المناعة ضد الأغاني الانتخابية التي تنشدها حوريات البحر.

يجب أن ندرك أن الاحتيال المقنَّع الذي يُمارَس على نطاق واسع، أي، ذلك الذي يؤثر على أكثرية كبيرة من السكان، ينجح عادة بسبب التوسع الساحق للدعاية التي تسهم فيها وسائل الإعلام. وبما أننا نعيش في عصر الغموض، فإنه من الشائع جداً أن نعتبر تصرفاً ما "احتيالاً في حين لايكون كذلك."

وفي الحقيقة، يعتبر احتيالاً بالنسبة لمن يقع عليهم الفعل، ولكنه ليس كذلك عندما يحين وقت الاعتراف به أو معاقبة الجاني.

وهناك نوع شائع من الاحتيال يتمثل في استغلال مرشح ما لحسن النوايا عند الجمهور عن طريق بذل بعض الوعود قبل أن يدخل الحكومة أو يتولى سلطة سياسية، وتبقى هذه الالتزامات دون تنفيذ بعد أن يكون كسب معركته الانتخابية. هذه شخصية لاأخلاقية هدفها الخداع المتعمد والكسب، وما من شك في أنها ستتلقى عقابها المناسب عندما تحين اللحظة التي تقيِّم فيها الأمة حجم تلك المناورات وتأثيراتها.

المثال الثالث: الرسائل التجارية

إن التكرار المتواصل لبعض الرسائل يولِّد القناعة عند الناس بأن بعض الوعود التجارية فعالة أو حقيقية، في حين يتبيَّن فيما بعد أنها مبالغ فيها أو أنها زائفة تماماً. فعلى سبيل المثال، نجد هذا في معظم الطرق "العجائبية" لتخفيف الوزن أو بعض مواد التجميل والمراهم الخارقة التي تبشر بسرعة تجديد شباب البشرة عند النساء عن طريق إزالة التجعدات أو تخفيفها. ليس هناك وكالة دعاية واحدة تضع المنتجات التي تشجعها موضع الاختبار، بل تتخلى عن تلك المسؤولية للشركة التي تتولى عملية الإعلان. والصحيح أيضاً هو أن إتقان رسائل الدعاية هو الذي يخدع الناس إلى حد أبعد مما يرغب به المرء، وذلك عن طريق عرض شيء لايمكن أن يحصلوا عليه، وربما لن يحصلوا عليه أبداً إذا لم يكونوا أسرى للتأثير المنوم الذي تمارسه الدعاية. فهناك، على سبيل المثال، مجالات فيها لااحتمالية رياضية ساحقة تعمل على إشباع

توقعات الناس، كما يحدث في اليانصيب، والقرعة، والمقامرة، التي هي ليست أكثر من سوق للأوهام. فهل بيع الأوهام جائز شرعاً؟ على المرء الذي يتعامل مع هذه الألعاب أن يقرر ذلك، ولكن الحقيقة هي أننا نقترب مرة أخرى من الغموض لأننا نُمَنَّى بالترحال، والبيوت، ووسائل الترف، وحل مشكلاتنا الاقتصادية بمجرد شرائنا بطاقات اليانصيب. وبالطبع، لن يحدث هذا -الناس يعرفون ذلك سلفاً. ويعتبر هذا خداعاً لأنه لم يتم الإعلان بوضوح أن مايباع هو مجرد افتراض بأن مشتري البطاقة يمكن أن يربح جائزة، وهو افتراض يبدو كوعد طفولي عند يُواجه بحساب الاحتمالات التي يستلزمها. أما أن يحب الناس أن يُخدَعوا فمسألة أخرى، ولكنها لاتعتبر ظرفاً مخففاً.

من واجب لجان اليانصيب والمقامرة أن تنبه اللاعبين إلى اللااحتمالية الرياضية الساحقة التي تحول بينهم وبين الربح، وربما يكون ذلك عن طريق تبصيرهم بحساب الاحتمالات.

فعلى سبيل المثال، تعالوا نحلل احتمالات اختيار عود الثقاب الأقصر من بين خمسين عوداً عادياً كنا أعددناها على نحو خاص بهذه الطريقة، ونقدم جائزة لمن يختاره وهو مغمض العينين. ودعونا الآن نضاعف عدد العيدان إلى عشرة آلاف أو أربعين ألفاً، وبهذا تتكون لدينا فكرة تقريبية حول مدى الأوهام التي نبتاعها عندما نشارك في لعبة اليانصيب. فتواجهنا من جديد حالة الغموض التي تقارب الاحتيال والتي هي ممكنة فقط إذا كانت عقول المستهلكين منجذبة إلى الصور التي يوحي بها عدد من الحالات التي تثير المتعة.

إن بيع الأوهام قانوني تماماً ولكنه، في الممارسة، يعني خداع الشاري، لأنه، في الوقت نفسه، يعني التحالف مع قوى الظلام، المتمثلة بأي شيء يمنع الفرد من الاستيقاظ من التنويم البيئي. والتنويم البيئي هو العقبة الأكثر صعوبة في سبيل الوصول إلى حالات أعلى من الوعي والارتقاء، الذي هو الهدف الأسمى للكائن الإنساني.

وبالمثل، يجب أن يعترف المرء بأن كل مايشجع التوقعات الخيالية الخادعة عند الناس يعمل على إضعاف تماسهم مع الواقع أو تعطيله، ويلغي تدريجياً قدراتهم الفردية لتحقيق مشاريعهم، التي هي الوسيلة الرئيسة لنجاح الأمم.

إن من يحلم بضربة حظ لايزعج نفسه كثيراً في الكفاح لشق طريقه في الحياة، وعندما تنتشر هذه الحالة في بلد ما، فإنها تؤثر سلباً على السلامة الاقتصادية والصحة العقلية

عند الناس، وبالتالي، ينتهون إلى العيش في واقع افتراضي من الوفرة والمتعة، في حين أنهم ليسوا أكثر من أحياء.

المثال الرابع: القروض الاستهلاكية

والقروض الاستهلاكية أيضاً لاتخلو من الغموض، مع أن المستهلكين يتجاهلون أو لايصدقون الكلفة الحقيقية للمال الذي يقترضونه. ويؤكد أحد الاقتصاديين في الصحافة التشيلية أن الفائدة في المؤسسات التجارية تتراوح من 3-7٪ شهرياً ، في حين أن المصرف يقدم قرضاً سنوياً يتراوح بين مليون وأربعة ملايين بيزو بفائدة 1.99٪ شهرياً، وتصبح، بعد إضافة التأمين، 26.8٪ سنوياً.

واعتماداً على ماأورده هذا الخبير، فإن هذا يعني أن المستهلك يدفع ديناً مكافئاً لكمية معينة من الوحدات ("وحدات التنمية الاقتصادية،" المستخدمة في تشيلي، بقيمة تتزايد تدريجياً) إضافة إلى 18.5٪ سنوياً. والمستهلك المطيع، مبهوراً بالشيء الذي يريد اقتناءه، لايزعج نفسه بخصوص الكلفة الحقيقية لصفقة القرض. وحتى لو فعل ذلك، فإنه يبقى في حالة من اللاوعي تحمله على رفض قبول واقع لايبعث على الرضا، لأن توقعاته المختارة أصابته بالعمى التام.

وفي هذه الحالة، يكون لدينا مثال يشبه إلى حد ما العبارات في طباعة أنيقة حول سياسات التأمين، التي حُدِّدَت مؤخراً كما أظن، بمعنى أنه يجب أن تظهر في النمط الحجمي نفسه كباقي بنود العقد. ولكنها لاتتضمن تحذيراً واضحاً للمستهلك حول الكمية الحقيقية للأموال التي يجب أن يسددها عملاً بالالتزامات التي تعهد بها. وعندما يصبح في وضع لايساعده على الدفع، فإنه يلام بإفراط لشروعه بالاستدانة بصورة غير مسؤولة ودون أن يكوِّن فكرة واضحة عن قيمة الفائدة والنفقات.

وبصورة طبيعية، ونتيجة لهذه المغامرة غير السارة، تبدأ مضايقة "مؤذية" ماكرة للحصول على تعويض، فقد حانت اللحظة التي فيها يدرك المدين أخيراً مايجب أن يدفعه من فوائد على قرضه.

وفي ظروف أخرى، يحدث عادة أنه عندما يريد أحدهم أن يشتري بيتاً بسند رهن عقاري، فإنه يدفع غالياً ثمناً لحلمه، لأنه بعد أن يدفع على مدى عدة سنوات، يدرك أن دينه

الحالي أصبح أكثر مما كان عليه عند البدء وأن دفعاته الشهرية ترتفع إلى مدى معه تصبح مواصلة الدفع مستحيلة في بعض الحالات. ويعني هذا، في حالات كثيرة، بيع البيت ومواجهة مؤكدة لدين كبير، لأنه من المحتمل جداً ألا تكفي قيمة التسوية لتسديد الدين الأصلي.

تكمن اللاأخلاقية في هذه الحالات في التوجيه المتعمد لسلوك الناس، بهدف جمع المال، أي تزييف الواقع غير الملائم وغير الجذاب بالنسبة لهم إلى درجة تجعله يبدو في عقل المستهلك كخيار مرغوب.

ويحتمل جداً أن تعتبر هذه المناورات في القرن الحادي والعشرين، في نظر القانون البشري، بمثابة هجوم أو انتهاك فظ للعقل الإنساني. فتكتيكات الإقناع يجب أن تكون محدودة لأنه، في حالات كثيرة، يمكن أن تُجبر الناس على اتخاذ قرارات ضارة جداً بجيوبهم، وصحتهم، وسلامة عقولهم.

المثال الخامس: العلاقات الزوجية

أدى انحطاط القيم بالناس إلى محاولة التغلب على الشريك من الجنس المقابل عن طريق الإسراف في اللجوء إلى الخداع، من خلال التكتم المنهجي الحذر على العيوب والإبراز الاصطناعي المتكلف للصفات الملفقة التي لاوجود لها على أرض الواقع. يحاول الرجال والنساء دائماً تزييف صفحتهم النفسية بصورة كاذبة لاتحمل شبها لكينونتهم الحقيقية، ويتظاهرون بفضائل لايتمتعون بها، وبالتالي، يحتالون لخداع الطرف الآخر الذي ، عندما يُخدَع بهذه الطريقة، يعتبر الخيال حقيقة دون أن يدرك الطبيعة الحقيقية للشخص الذي يجد فيه جاذبية. فإذا انتهت هذه العلاقة بالزواج أو المساكنة، فإن مرور الزمن سيساعد، بشكل حتمي، على كشف الصفات الحقيقية التي بقيت محجوبة حتى الآن، فيظن الشريك خطأ أن شريكه قد تبدل إلى الأسوأ، ويلجأ عادة إلى إلقاء اللوم على طرف ثالث. ولكن حقيقة ماحدث فعلاً هو أن بنيان الخداع قد انهار من خلال العجز أو فقدان الاهتمام بمواصلة تستر أحد الشريكين على حالته الحقيقية، التي تصبح واضحة عند مواجهة الواقع. في هذا المثال، شخص واحد فقط هو الذي يخدع، ولكن، هناك حالات فيها تتعرض الأمة بكاملها لخداع القادة ورجال الإدارة، عندما يكتشف الناس، بمرور الزمن، أن صور هؤلاء القادة كانت قد عُرِضَت بما لايتناسب أبداً مع الواقع المادي.

علينا أن نضع في اعتبارنا أن التلاعب بالصورة ينطوي على رغبة واضحة بالغش، وأن هناك اغتصاباً خبيثاً للصفات والمواقف بقصد الحصول على فائدة.. وكلما كان عدد الناس المتأثرين بهؤلاء المحتالين أكبر، كانت الجريمة المرتكبة أكبر، ويجب أن تتناسب العقوبة مع حجم الجريمة. إن الدعاية تضفي على المنتجات صوراً زائفة تثير الخيال والشهوات اللاواعية عند المستهلك، الذي لايهتم، في أكثر الحالات، بالناتج الذي يشتريه. وتنبع الجاذبية الحقيقة من الخيال الذي يُضاف إليها. وهذا هو السبب الحقيقي الذي يجعل بعض السلع تفقد أهميتها بسرعة في نظر المستهلك حالما تصبح في حوزته، لأنه يبحث عن الخيال فيها وهو لن يجده أبداً وهكذا يواجه، على نحو فظ، الواقع الموضوعي لصفقته.

يظن المستهلك، وهو يواجه هذا المأزق، أنه ربما ارتكب خطأ بشراء السلع وأنه ينبغي أن يشتري منتجات أخرى تبدو له أكثر جاذبية، لأنها ماتزال تُغلَّف بالخيال الذي تُسوَّق به، مادامت لم تخضع بعد لاختبار المواجهة مع الواقع.

الإجهاض

وفقاً للكنيسة الكاثوليكية:

إن احترام حياة الإنسان ليس فرضاً فقط على المسيحيين؛ والمبرر كاف للمطالبة به، على أساس تحليل ما الشخص وماذا يجب أن يكون ...

الحق الأول للكائن الإنساني هو حياته. وهو يتمتع بأشياء أخرى وبعضها أكثر قيمة؛ ولكن حق الحياة أساسي، إنه شرط يتقدم على كافة الشروط. ولهذا تجب حمايته قبل أي حق آخر. وليس من حق المجتمع أو السلطات العامة، أياً كانت، أن تعترف بهذا الحق للبعض وتحجبه عن الآخرين؛ وأي تمييز يُعتَبَر شراً، سواء قام على أساس العرق، أو الجنس، أو الدين...

ولا يمكن تبرير الانحراف الذي يعتمد على المراحل المختلفة من دورة الحياة أكثر من إمكانية تبرير أي نوع آخر من التمييز. ويبقى حق الحياة سليماً عند شخص مسن مهما كان معاقاً؛ والشخص المصاب بداء عضال لايفقد هذا الحق. وهو ليس أقل مشروعية بالنسبة للمولود حديثاً منه بالنسبة لشخص ناضج. وفي الواقع، يجب أن يبدأ احترام حق الحياة مع بدء عملية الحمل. فمنذ اللحظة التي يتم فيها إخصاب البيضة، تبدأ حياة جديدة هي ليست حياة الأب أو الأم ولكنها كائن إنساني جديد سوف ينمو بذاته. ولن يكون أبداً إنساناً إذا لم يكن كذلك في تلك اللحظة.

(الإعلان الرسمي للكرسي الرسولي 18 تشرين الثاني عام 1974).

تعلن الكنيسة ومعها الكثير من العلماء أن الجنين يعتبر شخصاً من اللحظة التي يتم فيها الإخصاب، وأن كل جنين له الحق في الحياة، ولذلك لايجوز اللجوء إلى الإجهاض، لأنه يعتبر جريمة.

لاأريد هنا أن أبدأ أي نوع من الجدل حول هذا الموضوع الشائك، بل أريد فقط أن أضيف بعض الأفكار لهذه المسألة.

لايسعنا إلا أن نثني على الحماس الذي يبديه من يدافعون عن الحياة، ولكن الإخلاص الذي يُظهره من يدافعون عن فكرة أن الجنين يُعتبَر شخصاً منذ اللحظات الأولى للحمل يدعو إلى الدهشة. إنهم يشددون كثيراً على حقيقة أن الجنين يبدأ بامتلاك صفات إنسانية في مرحلة مبكرة جداً، فيشيرون، مثلاً، إلى أنه في الأسبوع العاشر يكون قد تكوَّن الوجه والذراعان، والساقان، والأصابع؛ وأنه أصبحت لديه أعضاء داخلية ويمكن اكتشاف بعض النشاط في الدماغ.

ومع أنني أدرك الغرض النبيل لهذه البيانات، إلا أنني أظن أن الفكرة تكون في غاية السذاجة، عندما يمكن للمرء فقط أن يقرر بصعوبة أن كائناً عضوياً هو شخص لأن له شكلاً إنسانياً مماثلاً لشكل الأجسام الأخرى التي تعتبر أيضاً أشخاصاً بأسمى معاني هذه الكلمة. ووفقاً للتعريف المعجمي، فإن الشخص هو "فرد من النوع الإنساني".

وقد ورد في قاموس علم النفس لـ فريدريك دورش مايلي: "لم تأت الكلمة 'شخص person' من الفعل يُشَخْصِنُ personare، على عكس ماكان يُظَن سابقاً، ولكن يبدو أنها جاءت من معنى الكلمة الإترورية[1] فيرزونا fersuna، اي "قناع mask" في اللغة الانكليزية، وبمعنى أكثر دقة، الحجاب الذي ميز فيرزو Fersu، أي إله الأرض." وفي العصور الحديثة، يمكن للمرء أن يفهم من الكلمة "شخص" ليس فقط كائنا إنسانياً، فرداً ينتمي إلى النوع البشري، بل إنساناً يتمتع بصفة نوعية-الكائن الذي يتمتع بوعي و "أنا" مُوَحَّدَة.

فإذا فهمنا تعريف الشخص persona باعتباره الإنسان في طريقة وجوده المحددة، لايتمتع بأية جدارة فردية، فليس هناك شك في أن جميع الكائنات الإنسانية هي أشخاص،

1-نسبة إلى إتروريا، وهي مقاطعة في غرب إيطالية-المترجم

وبالتالي، يجب أن تحظى حياتهم باحترام غير محدود، إلا في حالة عقوبة الموت التي تطبقها بعض القوانين. فإذا سلّمنا بشرط التمتع بـ "أنا" واعية موحدة، فإنه يجب أن نسلّم أيضاً، بعد التفكير بعمق، أن عينات قليلة فقط من الإنسان العاقل تحقق هذا الشرط وأن هذه القلة فقط هي التي يجب أن تستخدم اللقب "أشخاص" بمعنى كائنات إنسانية راشدة وواعية. ومع ذلك، يجب أن يتسع احترام حق الحياة بحيث يشمل الجميع، مهما كانت طبقتهم، أو عرقهم، أو حالتهم، أو أن يشمل التفسير الذي أُعطي لهذه الكلمة.

فهل يظن أحدكم انه يتمتع بـ "أنا" واعية مُوَحَّدَة؟ أو هل يعرف أحداً يتمتع بها؟

أن يكون المرء واعياً يعني أن يكون حراً من الغيبة التنويمية، التي هي أدنى مستوى لإدراك يُظهره الإنسان العادي؛ وأن يكون منيعاً لتأثيرات الدعاية؛ وأن يمتلك مأتىً لحالات أعلى من الوعي (غير معروف عادة)؛ وأن يكون سيد عقله، وسيد أفكاره (أن يفكر إرادياً لاأن يفكر أحدهم بالنيابة عنه)؛ وأن يدرك الواقع كما هو، دون تحريف أو تكييف (التغلب على الآليات الدفاعية لـ "أنا")؛ وأن يسمو فوق الانفعالات والعواطف الدنيئة؛ وأن يكون قوياً ومستقيماً، فضلاً عن بضع قدرات يجب أن يتمتع بها الكائن الواعي.

وبقدر مايتعلق الأمر بالـ "أنا" الموحدة، فإن الناس الذين نعرفهم لايتمتعون بها كما يبدو، لأنهم يمتلكون شظايا عديدة من هوياتهم والآلاف تقريباً من "أنا" مهمة تقاتل كلها، بالتتابع، من أجل السيطرة على الروح والجسد. وهذا مايعلل سبب التبدلات المستمرة في سلوك الشخص.

وفيما يتعلق بالأنماط الأكثر استمراراً وثباتاً للسلوك، فإنها تكون آلية وتلقائية بحيث تبدو ساذجة فكرة "أنا" إنسانية عليا بمعنى مستوى الوعي الأعلى.

إن العقبة الكبيرة التي تواجه معظم العلماء عندما يحللون شخصا ما تتمثل بإصرارهم على أن كل الناس متساوون، وبالتالي، يتمتعون بالحقوق نفسها (مع أنهم لايخضعون ظاهرياً للواجبات نفسها). وقد خضعنا على مدى مئات السنين لعمليات غسل الدماغ لكي نصدق الأدب الجازم حول المساواة.

صحيح أنه يمكن للمرء أن يقول، بالمعنى الدقيق لما يجب أن يكون عليه شخص ما، إن هذا الشخص إنسان حقاً فقط إذا كان يتمتع بوعي أعلى، وهي خاصية يظن الإنسان أنها

من صفاته الموروثة، ولكنها في الواقع يمكن تحقيقها فقط على المستوى الفردي بعد ترويض روحي شاق ودؤوب.

ومع أن مقاربة أندريه مالرو لهذه الفكرة لاتتصل بالموضوع الذي أناقشه هنا، فإنني أورد الحوار التالي كما ورد في الأجزاء الأخيرة من روايته الحالة الإنسانية:

"تعرفين القول المأثور،" قال غيزورز، "يحتاج تكوين الإنسان إلى تسعة أشهر، ويوم واحد فقط لقتله. وكنا دائماً نعرف أن الأمور تسير على هذا النحو... ماي، اسمعي ماأقول: إنه لايستغرق تسعة أشهر، بل خمسين سنة من التضحية، والإرادة، وأشياء كثيرة. وعندما يتكون هذا الإنسان، عندما لايبقى عنده شيء من طفولته أو مراهقته، عندما يصبح إنساناً حقاً، فإنه يكون غير ذي نفع أكثر من أن يموت" ... فنَظَرَت إليه برعب؛ وهو يراقب الغيوم.

يهيء لنا هذا الاقتباس أن نلقى لمحة على الحالة الحقيقية للإنسان: حقيقة أن الكثيرين يموتون في محاولتهم لكي يصبحوا كائنات إنسانية حقيقية، والأقلية التي تنجح تبقى عادة مجهولة .

إن الشخص الطبيعي ليس أكثر من مخطط تقريبي لما يجب أن يكون عليه الكائن الإنساني حقاً، وقلما يتجاوز مستواه الأولي. وبصورة طبيعية، يصل البعض إلى مستويات أعلى في حين يمكن تعريف آخرين بوصفهم حالة أوتوماتية ويستحقون فعلاً أن نسميهم أشخاصاً آليين. وفي وسط الطيف، تبقى الأكثرية الساحقة في "حالة كمون،" ككائنات لايمكنها، نظرياً، أن تصل حقاً إلى مرتبة الإنسان ولكنها، وفقاً لقانون الاحتمالات، لن تصل أبداً إلى أبعد من وسطية عادية.

ولذلك، فإن الحديث عن شخص يشبه قولنا إنه "شخص في المستوى 1، أو شخص في المستوى 2، أو شخص في المستوى 80،" (على سلم مدرَّج من 1 إلى 100)، مستخدمين أرقاماً كيفية توضح نقص التفوق أو التفوق بالذات، مع أن هذا التقسيم لايمكن أن يشكل مبرراً للتمييز ضد الأشخاص المعتدلين فيما يتعلق بحق الوجود ونوعية الحياة. والدرجات المختلفة التي ذكرتها لاتنطوي على مضامين اجتماعية أكثر من تلك التي نجدها في المقررات المختلفة التي يدرسها الأطفال في المدرسة ربما إلى أن يحصلوا على شهادة جامعية، وبعد ذلك، تحقق نسبة ضئيلة تفوقاً إنسانياً وأكاديمياً. ومع أن أحداً لايقول بهذا، فإن المجتمع يميز، بشكل ملحوظ، ضد من لم يصلوا إلى مستوى التعليم الأعلى، فضلاً عن المساواة بين الناس في هذه

الحالة. فهل هناك مساواة في رواتب المتعلمين وغير المتعلمين؟

وبالطريقة نفسها، فإن الطبيعة تعترف بالاختلافات النوعية بين الكائنات الإنسانية، فيما يتعلق باختلاف مستويات ارتقائهم الفردي. وتكمن المشكلة بين الدرجة الأدنى والأعلى، فهناك بين الأفراد سنوات ضوئية[1] من الاختلاف فيما يتعلق بمستوى الإنسانية الذي يتمتعون به، وأقول بكل وضوح إنه عندما أشير إلى هذا الشخص أو ذاك، فإنما أتحدث عن أمور مختلفة جداً. وهناك أيضاً اختلافات هائلة بين الدرجات المتوسطة.

ومن منظور ثقافي، تشير الكلمة "شخص" دائماً إلى الشيء نفسه، باستثناء الثقافات ذات الأنظمة القائمة على أساس الطوائف الاجتماعية، حيث نجد هناك، مثلاً، أشخاصاً من الطبقة الأولى أو الثالثة، ولكن هذا الفصل، في هذه الحالة، لايوضح الاختلافات الحقيقية في النوعية الفردية للإنسان ولكنه فقط يتماشى مع مبررات دينية، أو سياسية، أو اقتصادية. إن عدم دقة المدلولات اللفظية اللغوية التي تشكل المادة الطبيعية لعقولنا هو الذي يسبب كافة أنواع سوء الفهم الذي ينتهي، بمرور الزمن، إلى تشكيل جزء ثابت من الثقافة، وعندما تظهر عقول أكثر صفاء وتحاول أن تغوص في عمق الأفكار بحثاً عن الحقيقة، فإنها تتعرض للاضطهاد أو النبذ جزاء لجريمة التفكير بطريقة مختلفة أكثر عمقاً.

وبقدر ماتتعلق المسألة بشخص، فإن هناك فعلاً آلاف الكائنات من مستويات اجتماعية مختلفة تماماً، وتُصنَّف، بصورة كيفية ودون تمييز، في المستوى نفسه. ولذلك، من الصعب أن نقول بدقة ماإذا كان الجنين شخصاً أم لا، بالمعنى العميق للكلمة، إذا لم يكن بالإمكان تأكيد ذلك بالنسبة للكبار.

فإذا كان هناك من يلح على القول إن الشخص هو كل واحد يُظهِر علامات خارجية للجسم البشري، عندئذٍ، ربما يمكن اعتبار الجنين شخصاً. ولكن إذا كنا نتكلم عن شخص بمعناه الأعلى الكامل، فإن الجنين بالتأكيد ليس شخصاً، ولا يمكن التأكد من أن قابليته للحياة تصل به إلى هذا الوضع. ومن المعروف أن الإجهاض، بالمعنى السريري، هو توقف الحمل، بصورة تلقائية أو مُحرَّضَة، قبل أن ينمو الجنين، أي، قبل أن يبدأ بإظهار علامات على النشاط الحيوي الأكثر تقدماً. وتعطي الأطر القانونية المختلفة مدة متغيرة لفترة

1-السنة الضوئية: وحدة طول تعادل المسافة التي يجتازها الضوء في عام واحد في خواء، وهي 5,878,000,000,000 ميلاً-المترجم.

العيوشية، وهذه الفترة هي السبب الرئيسي للجدل حول هذه المسألة، وهكذا، يصبح من واجب الوسط العلمي أن يقول كلمته النهائية في هذا الموضوع. ومن الواضح أن هناك مرحلة يكون فيها الجنين شبيهاً بـ "بذرة" كائن بشري، ونحن لايمكن أن نخلط بين بذرة وشجرة.

وتُطرَح حول هذا الموضوع حجج أكثر شيوعاً منها أن "كل شخص له الحق في الحياة" ولذلك، فإن الجنين أيضاً يجب أن يتمتع بهذا الحق. ومن الواضح أن ملايين الجائعين من الأطفال والكبار في العالم لهم أيضاً حق في البقاء. ومن الطيش، كما أظن، أن نتحدث عن "حق الحياة" بأي معنى فطري، وكأنه حق مجاني، وكأنه لاينبغي للمرء أن يحصل عليه بأي ثمن، حتى لكأنه يمثل مجرد هدية دون أي استحقاق أو جهد فردي. يصطدم هذا المفهوم بواقع الطبيعة، الذي لاوجود فيه لمفهوم "مجاناً" بقدر مايكون كل شيء نتيجة لصفقة تجارية، إذا جاز التعبير، بمعنى المقايضة أو التبادل المساواتي. والساذج فقط هو من يظن أن "هناك طعاماً مجانياً"؛ والصحيح هو أن أحدهم، دون استثناء، يدفع الثمن دائماً.

ليس في جسم الإنسان خلية واحدة يعيلها الكائن العضوي "مجاناً،" لأن كل خلية عليها أن تكسب عيشها عن طريق قيامها بمهمات ضمن الكل الذي يتوافق معها. ومن سوء الحظ أن يكون الجسم الاجتماعي جسماً مريضاً، لأنه يشترط اعتباطياً أن يقوم كل واحد بتغذيته دون أن يكون هناك توزيع مناسب للمواد المغذية على كافة الخلايا الإنسانية التي تكوّن هذا الجسد الاجتماعي. وصحيح أيضاً أن عدداً كبيراً من هذه الخلايا يحتاج إلى التغذية مجاناً ولا تقوم بأي عمل إنتاجي، وتنتظر من الدولة أن تقوم بإعالتها، على الرغم من أنها تتمتع بحالة كاملة من حيث الصحة الجسدية.

ومن بين الخرافات التي تسمم حياتنا، وتشحننا بالغيظ والإحباط، الاعتقاد بأن مجرد كوننا أحياء، يعطينا الحق في أن نطلب من أناس، في حين أن المجتمع هو الذي يجب أن يطلب من مواطنيه نمطاً لائقاً من السلوك. والآباء أيضاً هم من يجب أن يطلبوا من أطفالهم أن يتصرفوا بطريقة سليمة، لأنهم هم من جاؤوا بهم إلى الحياة ويقومون على حمايتهم، ولأنهم من لحمهم ودمهم. ووفقاً لقوانين الطبيعة، فإنه لاحق لنا في أي شيء فطري وعلينا أن نكسب أي شيء من خلال جهدنا الشخصي. ولما كان الجنين لايمكنه أن يكسب شيئاً بنفسه، بسبب وضعه الطفيلي وحالة نقص نموه، فإن حقوقه، في الممارسة، تأتي من والديه، لأن وجوده امتداد لوجودهما. ومن سوء الحظ أن تقع أخطاء الآباء على الأبنا، كما جاء في الكتاب المقدس، وهذا برهان إضافي على الحالة العاجزة والمقلقة للجنين.

ومع أن الوالدين يتحملان مسؤولية ولادة الطفل ورعايته فيما بعد، فإنه يجب أن يفكرا مقدماً بإثمهم المتمثل في التسبب بالحمل بالجنين من خلال إهمالهم في الجماع، الذي يتم عادة بطريقة بهيمية صرف، مجردة من أي تسام للحب، لارغبة بإنجاب أطفال، وهكذا يولَد هؤلاء الأطفال غالباً نتيجة لغريزة شهوانية أكثر منها غريزة حب.

ولا شك في أن لهذه الحقيقة تأثيراً سلبياً عميقاً على نمو الأطفال، لأن التأثير المغنطيسي لحالة الوعي الحيواني عند الوالدين يرثه الطفل، ولهذا فإنه سوف تجذبه بقوة الدوافع البدائية. فنحن لانرث فقط تأثير الجينات، بل أيضاً المجالات المغنطيسية التي سيطرت على آبائنا أثناء عملية الجماع، والتي تستحوذ على بنية الجنين. يضاف إلى هذا انتقال مغنطيسيتهم طوال فترة الحمل. وهذه العملية بكاملها تحدد، إلى مدى كبير، الحياة المستقبلية للجنين الذي يأتي إلى الحياة محملاً، إضافة إلى الصفات الإيجابية التي يرثها، بخطايا والديه، أي، بالعاهة التي تأتي من الطاقة الاهتزازية لوالديه.

ولسوء الحظ، أصبح الجماع يُمارَس فعلاً في سبيل "استهلاك اللذة،" وخالياً تماماً من الحب أو أي مضمون آخر رومانسي. وبالطريقة المباشرة نفسها، يمكن أن نعتبر ان أحدهم يقوم، كما يفعل عندما يشتهي أن يأكل الهمبرغر، بعملية الجماع دون أن يضع في اعتباره إمكانية الحمل بطفل وما يترتب على ذلك من تبعات، ودون أي مضمون من المشاعر السامية، مدفوعاً فقط بانفجار شبقي لايُقاوَم. وبهذه الطريقة، يكتشف الزوجان فجأة أن المرأة حامل، دون أن يكون لهما أدنى مأرب في ذلك. يعني هذا استيقاظ فظ من تصرف كان، بالنسبة لهما، مجرد "استهلاك للّذة،" وعندئذ، يلجآن إلى الإجهاض كوسيلة لحل المشكلة. وأنا على قناعة بأن أفكار الوالدين، ودوافعهما، وعواطفهما في فترة الحمل تؤثر، بشكل حاسم، على التكوين النفسي والفيزيائي للجنين. وأشك تماماً في أن جنيناً غير مرغوب فيه يمكن أن ينمو كما يجب، وعلى الأصح، أظن أنه يمكن أن يُظهِر تشوهات في الدماغ أو مشكلات سلوكية من خلال تسليط الطاقة المغنطيسية للعواطف والدوافع الغريزية المنحطة لوالديه، والتي تشكل، من خلال توضّعها في الرحم، جزءاً من بنية الطفل، وبذلك يمكن أن تصبح اندفاعات تدميرية فعالة؛ أو تفتقر إلى الحيوية بسبب رفض الشكل الجديد من الحياة أو افتقاره إلى الحب.

فلكي ينمو طفل بصورة سوية، يجب أن يكون ثمرة للحب وليس لدافع بهيمي. ويجب أن يتم إنجابه عن وعي وروية، ويقضي فترة ممتعة في الرحم، وأن يتم تعليمه من قبل زوجين

يـربطهما حب حقيقـي ويتمـتعان بقيـم أخلاقيـة رفيعـة. ولهـذا السـبب يجـب ألا تكـون إدانـة الإجهاض ذريعة للتهور في تشجيع النمو السكاني، لأننا بهذا إنما نهاجم نوعية الحياة عند كامل الجنس البشري. فالمجتمع هو الذي يقترف خطيئة الرياء عن طريق إدانته للإجهاض في حين أنه لايزعج نفسه مسبقاً في إنشاء "مدارس لآباء المستقبل،" تعلم الناس الثقافة الجنسية حتى لايكونوا عبيداً لدوافعهم الحيوانية، وبالتالي، ينجبون فقط عندما يتخذون قراراً واعياً بضرورة الإنجاب.

لماذا لاتُظهِر الجماعات التي تدين الإجهاض حماساً مماثلاً لمنع الحمل وتنظيمه من خلال تعليم الناس كيف يمارسون النشاط الجنسي؟ وما الحملات الجنسية التي يتم القيام بها لتصعيد النشاط الجنسي لكي يتم ضبطه عن طريق مستوى أعلى من الوعي؟

إن المجتمع، في الواقع، يعاقب باليد اليسرى مالا تمنعه اليد اليمنى، ويتعامى أيضاً عن الحقائق التي تبعث على الاشمئزاز بالدرجة نفسها أو أكثر من الإجهاض.

ففيما يتعلق بالحياة في الرحم، مثلاً، لم يأت أحد، بسبب الرياء، على ذكر الهجوم الذي يقوم به الوالدان على الطفل أثناء الحمل، ذلك الهجوم الانحرافي المثير للاشمئزاز لأنه يشبه غشيان المحارم. ولم يستنكر أحد أو يشجب هذه الظاهرة اللاأخلاقية المكشوفة على الرغم من حقيقة أن الجنين يخضع، بصورة غير مباشرة، إلى التجربة الجنسية البربرية لوالديه، لأنه مايزال شخصاً واحداً مع أمه.

وما من أحد يتوقف ليفكر في أن الجنين يعاني من كل شيء تشعر به أمه، وأن جملته العصبية الضعيفة غير المستقرة تخضع بصورة متكررة إلى إثارة الإيغاف[1]، وهي مسألة لايأبه الزوجان بما تعنيه. فهذا المخلوق الضئيل، في الواقع، هو وحدة واحدة مع أمه، ويشاركها تماماً حالاتها العاطفية، والعقلية، والغريزية. ومن هنا، يتضح لنا أن الجماع أثناء الحمل يعتبر سفاح قربى، إنه فعل ضار، وعنيف، ولاواعٍ، لأنه يجبر الجنين على المشاركة في النشوة الشهوانية. ويبدو أن أحداً لم يشجب هذا الفعل لأن الجنين لايعتبر شخصاً في هذه الحالة.

وأسأل: لماذا نعتبر الجنين شخصاً في قضية الإجهاض، ولا يعتبر كذلك في حالة سفاح القربى؟

1-هزة الجماع-المترجم.

لاأقصد بملاحظاتي هذه أن أحجب مسؤولية الإجهاض أو أخفف منها، بل لكي أشير إلى النفاق والتناقض فيما يتعلق بهذا الموضوع. فالناس يعظون بضرورة حماية حياة الجنين، وعندما تُضمَن حياته، فإنه يتعرض للهجوم بمختلف الطرق، بالقيام بكل شيء ممكن، وإن يكن بطريقة مقنَّعة، لتحريض نقص النمو لقدراته الإنسانية.

الحقيقة هي أننا لسنا أرانب ولا يمكننا أن ننجب مثلها. وإذا كان هناك شيء يمكن أن يميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى، فهو ضبطه لنفسه إزاء نشاطه الجنسي. مع ذلك، ولسبب غريب إلى حد ما، يُفترَض أن تكون القدرة البيولوجية عند الحيوان على الحمل والتكاثر مثالاً كافياً لأحدهم لكي يكون قادراً على أداء وظيفته كوالد بالشكل المناسب، في حين أنه يمكن تماماً، من خلال جهله للتنشئة التقنية للأطفال، أن يصبح الكثير من الآباء من أسوأ المدمرين لأطفالهم، على الرغم من الحب الذي يحملونه لهم. وبالتالي، فإن الجُدب الأخلاقي عند الجنس الإنساني لايدعو إلى الدهشة في ظل ظروف كهذه. فالآباء الذين أنجبوا وقاموا بتنشئة كائنات ناقصة يكررون الدورة ويضمنون أن أطفالهم أيضاً لايمكن أن يحققوا تطوراً كاملاً. وسبب كل هذا نوع من الحب الكاذب والنوايا الطيبة.

وبسبب التشويه الغريب لنظام بعض العادات الاجتماعية أو خلل ذلك النظام، فإن قلة نسبية من الناس يعتبرون إنجاب الأطفال عملية لاأخلاقية إذا لم يقم آباؤهم بتدريبهم وتنشئتهم كما ينبغي. وعلى العكس، إن فكرة التدريب المناسب لهذه الغاية، أي، أن ينجب المرء بوعي، ويبذل أقصى مايستطيع لتحسين نوعية شكل الحياة الإنسانية قبل الإخصاب، تزعج الناس إلى حد بعيد. وإنها لمسألة تنطوي على تناقض أن يسعى الإنسان إلى تحسين نوعية الحيوانات التي يستفيد منها، والثمار والنباتات التي يستخدمها، ولا ينجح في تحسين حالته الإنسانية حتى الآن، وذلك بمقدار مايتعلق الأمر بالنوعية الداخلية، بل إن تصرفه الوضيع يشبه، في كثير من الحالات، تصرف البهائم. علماً أنه لايوجد بين الحيوانات فساد، أو قسوة، أو دعارة، أو سادية، ولا عنف لامبرر له.

ولم ينجح الإنسان في الوصول إلى مستوى من الوعي يساعده على احترام بيئته الطبيعية وحمايتها. فهو ينهب الموارد الطبيعية وهو عاجز عن احترام حقوق أقرانه. وفي حالة الجنين، مثلاً، يبدأ الإنسان بالإعلان أن له الحق في الحياة، حتى أنه يجعل من نفسه ممثلاً له،

ويكون السبب في حياته ، ويجبره على العيش، ويخضعه داخل الرحم إلى مشاطرته علاقاته الجنسية، ويحكم عليه أن يكون مرة أخرى خادماً مستقبلياً للكتلة العالمية من المستهلكين المطيعين. وكأن هذا لايكفي، فيشب الجنين ليتعرض إلى خداع الخطاب السياسي الديماغوجي. ويتم تسليمه إلى نظام تعليمي يستخدم تقنيات تربوية دوغيية واستلابية، ويبقى عقله خاملاً قبل أن تخترقه، بشكل كثيف ومريع، المعلومات من وسائل الإعلام. ويشب وهو يجهل نواقصه، ناسياً أنه كائن غير كامل، محكوماً بوجوده كـ "نصف إنسان،" مالم يخبُر معجزة الإلهام الروحي الحقيقي.

ومن وجهة نظر الإنسان العاقل، يبدو واضحاً أن أجنة الأنواع الأخرى الحيوانية ليس لها حق في الحياة، لأنها تقع بتصرف نزوات هذا الإنسان. ويجري ذبح الحيوانات الكاملة النمو، أو إبادتها، أو التهامها، أو طبخها حية، وتُعذَّب في التجارب المختبرية أو تُشرَّح لمصلحة العلم.

فلماذا إذن يجب أن يكون للجنين البشري حق في الحياة أكثر من صغار الأنواع الحيوانية؟

من السهل أن يحتج أحدهم فيقول لأن ذلك إنسان وهذا حيوان. ولكن، هناك أوقات تكون فيها الحالة الإنسانية مثاراً للنقاش، وذلك عندما يهبط الإنسان، في الحقيقة، إلى مستوى البهيمة. ونعلم أيضاً أنه إذا ماتم تجريدنا من قشرتنا الثقافية الزائفة، فإننا سوف نظهر "قردة عارية،" تمارس حق بقاء الأصلح، فقط لكي تذبح الأنواع الأضعف.

وفي الحديث عن الإجهاض، على المرء أن يحلل ليس فقط مايعنيه ضمناً موت الجنين، بل أيضاً مايستلزمه بقاؤه في سياق هذه الحقبة وهذا الكوكب، ونوعية الحياة التي تنتظره، بعيداً عن أوهام النجاح المستقبلي التي تشيع في هذه الأيام. ويجب أن ندرك بوضوح ماذا يجب أن نجني وماذا نخسر بحقيقة كوننا أحياء أو في حالة موتنا.

وفي العودة إلى حالة الجنين، أظن أنه يمكن اعتباره شخصاً بالمعنى الدقيق للكلمة، فقط عندما يصل إلى حالة إنسانية حقيقية كراشد، وهي حالة قد تحدث وقد لاتحدث. وهذا، طبعاً، لايمكن أن يبرر الإجهاض. فقبل الوصول إلى مرحلة النضج، يكون الطفل فقط مشروع شخص، أو ربما نصف شخص. فإذا اتفقنا على تعريف الشخص بمعنى أنه هيكل على شكل إنسان، فإنه يمكن أن نسلّم بأن الجنين هو شخص من اللحظة التي فيها يظهر النمو الفيزيائي الذي يمكن تقييمه على أنه جسم إنسان.

وفيما يتعلق بالإخصاب بالجنين، يجب أن أشدد على أنه كثيراً مايكون الفعل الجنسي الذي يسبب نشوؤه لحظة من جنون شبقي فيها يفقد الشريكان سيطرتهما على تصرفاتهما، إلى حد يفقدان معه وعيهما مؤقتاً ويضعف إحساسهما بالمسؤولية أو يفقدان ذلك الإحساس. فالجماع الذي تمارسه الأكثرية الساحقة من الناس يكون على شكل طفرة مفاجئة من القوة تطغى على إرادتهم، وتدفعهم إلى التزاوج التناسلي وتنسيهم مؤقتاً إمكانية الإخصاب. وهذا هو السبب الحقيقي لولادة معظم الأطفال، ويستخدم الإجهاض بالتالي كوسيلة عنيفة لتفادي إنجاب طفل غير مرغوب.

وعلى المرء أن يفكر أيضاً حول ماإذا كان من المشروع إجباره على إنجاب أطفال لايريدهم في مجتمع فيه يفتقر الجميع إلى معرفة كيف يضبطون دوافعهم التناسلية بالشكل المناسب، تلك الدوافع التي تقود، في النهاية، إلى طقس تهتكي في الجماع كممارسة عامة، أي، طقس فيه يطلق المرء العنان لشهواته. إنني أعتبر تصرف المجتمع لاأخلاقياً عندما يعاقب على شيء لايزعج نفسه بمنعه، ونصادف في كل البيئات العديد من الأمثلة على ذلك. فعلى سبيل المثال، لماذا يُسمح ببيع المشروبات الكحولية للسائقين إذا كان محظوراً عليهم قيادة السيارات وهم تحت تأثيرها؟ وما وجه الشرعية في تصنيع وبيع سيارة يمكن أن تسير بسرعة 140 ميلاً في الساعة إذا كانت السرعة محددة بـ 55 أو 65 ميلاً؟ وإذا كان 800 مليوناً من الناس في العالم يعانون من المجاعة، فلماذا لايُطبَّق مبدأ تحديد النسل؟ ولماذا يتم ترويعنا بتخلف النمو والفقر إذا لم يتم توظيف مايكفي في التعليم، وإذا لم يتم الوصول إلى المستوى الضروري للفعالية؟ وكيف يتدبر الفقراء مسألة العيش في حال عدم وجود تبادل ثقافي منذ الولادة؟

إن المجتمع الذي يعاقب على مالا يزعج نفسه لمنعه سلفاً، وينكر بعض قابليات النجاح في حياة الناس ويعاقب على غيابها في حين يمكن أن يعزى هذا الغياب إلى المجتمع نفسه بسبب افتقاره إلى السياسيات التعليمية، مجتمع كهذا مجتمع مستبد، وكاذب، وظالم، ومنافق. إنه المجتمع الذي يرسل، دون مبرر، امرأة إلى السجن بسبب إجهاضها في حالة صحية يرثى لها، مع أن تصرفها لايتجاوز كونه انعكاساً للنقص والتناقض الاجتماعيين اللذين عملا سابقاً على تكييف سلوكها.

ونجد دليلاً وجيهاً فيما يتعلق بوجود الإرث النفسي الذي ينتقل من الآباء إلى الأبناء على

شكل أرشيف مغنطيسي خلوي، يجعل الأحفاد مجرد حَمَلَةٍ تكليفات ملائمة أو غير ملائمة نجد منشأها في حالات آبائهم الغريزية، والعاطفية، والعقلية. ولا أظن أنه يمكن أن نتوقع الكثير من طفل غير محبوب وغير مرغوب فيه، طفل يولد من مجرد انفجار تناسلي، لأن رفض والديه يمكن أن يكون وَسْماً سلبياً على نفسية طفلهما. وأطفال من هذا النوع يحملون عيوباً ونقائص لايمكن أن تعزى إلى الجينات أو التكييف البيئي أو الصحي.

إن العلاقة الجنسية المجردة من الحب، والتي تنشأ فقط من رغبة شهوانية، تنتج طفلاً قلما تكون الصفات العليا للنوع عنده قادرة على إظهار نفسها.

ويحدث عكس ذلك تماماً في الإنجاب الأعلى، الذي ينشأ من جاذبية رفيعة بين كائنين واعيين يرغبان بحماس إنجاب أطفال لأنهما يحبان ويحترمان بعضهما بعضاً. إنهما يريدان طفلاً، هو، في الواقع، ثمرة حب لاثمرة نزوة بهيمية، وطفل كهذا ستتوفر له الفرص لتطوير صفات أعلى للنوع، ولهذا السبب، أظن أن هناك مستويات مختلفة لجريمة الإجهاض. فعلى سبيل المثال، قد يحول الإجهاض دون الحمل بمخلوق أقل قابلية للحياة ككائن إنساني متكامل بسبب العوائق النفسية التي ورثها من والديه. وعلى العكس، قد يمنع الإجهاض حياة جنين أكثر قابلية للحياة كشخص إنساني، على الرغم من عدم ملاءمته لظروف الزوجين.

وأرى من واجبي أن أشدد على أن إنجاب طفل يجب الا يكون نتيجة للمصادفة أو الانفجارات التناسلية، بل، على الأصح، نتيجة لتفكير ناضج وقرار مسؤول من قبل الوالدين. فعليهما أن يحللا بوضوح نمط الحياة، ونوعية البيئة، وأسلوب التعليم وكل مايحتاجه الطفل. وما دام الناس، كالحيوانات، يمارسون الجماع بالطريقة السطحية اللامتسامية نفسها، فإنه لايمكن أن نطالبهم بمسؤولية ناضجة بخصوص عقابيل هذه الملامسة التناسلية التي تترافق بفقدان مؤقت للوعي. ومطالبتهم بذلك، في مثل هذه الحالة، يعتبر نفاقاً غبياً. ويجب الا ننسى أن الإجهاض لايحدث فقط لأن المرأة حامل، ولكنه نتيجة تعيسة لمرحلة نهائية لسلسلة من الحوادث سببها الرئيسي هو الجماع، أي أن المرأة تحمل بسبب ملامسة تمت في الفترة المخصبة عندها ربما من خلال إثارة جنسية مفاجئة لاتُقاوَم. والخطيئة أو الجريمة الحقيقية للإجهاض تُعزى إلى المجتمع الذي يعجز عن تزويد الفرد بالوسائل الأخلاقية والروحية لكي يصعِّد نشاطه الجنسي بحيث يتخلص من عبوديته لدوافعه البهيمية. وفي الوقت نفسه، يتوقع منه هذا المجتمع، مع ماينطوي عليه هذا من تناقض، أن يعمل بطريقة مثالية على تنشئة طفل أنجبه

بطريقة بهيمية، لأن هذا السلوك غالباً هو السلوك الجنسي الطبيعي عند المؤمنين والملحدين، على حد سواء. وعلى هذا، لايمكن تحليل الإجهاض باعتباره إثماً فردياً بل كعيب اجتماعي، والمجتمع لايتمتع بسلطة أخلاقية لإدانته بسهولة، لأن عجز المرء عن ضبط نفسه جنسياً يأتي، إلى حد كبير، من التمجيد الجماعي الزائف للدافع الجنسي الذي تشجعه العلنية الشبقية المثيرة المتقدة لمختلف حملات الدعاية المعروفة جيداً. حيث تسوّق هذه الحملات جنساً مقنَّعاً، والمجتمع يتغاضى عنها ضمناً لابل يستحسنها والدليل على ذلك تشجيعه للاستهلاكية. وهذا يعني أن ضغط المرجل الشبقي عند الفرد يرتفع إلى الحد الأعلى، وعندما تطغى الرغبة تماماً على عقله، فإنه ينتهي إلى إطلاق العنان لغرائزه، في تصرف جنوني مؤقت يسبب غالباً تكوين طفل، وبالتالي، يقبل مجبراً ماكان مجرد ناتج لجنونه.

وهناك أيضاً من يحظرون أو يثبطون استخدام موانع الحمل، وبذلك يعملون بفعالية على زيادة الحشد البشري غير المرغوب من قبل الآباء، لأن عضويتهم مقيدة بفرص نموهم لهذا السبب، حتى من قبل ولادتهم. علاوة على ذلك، من المقبول الا يكون الآباء مدربين على وظيفتهم الوالدية، ولذلك، يصبحون "آباء سيئين" بالمعنى التقني للكلمة. إنهم يجهلون تماماً كيف ينبغي أن يربوا أطفالهم لكي يضمنوا لهم حياة ناجحة وإمكانيات جيدة للوصول إلى مكانة الكائن الإنساني الحقيقي. وبخلاف ذلك، قد ينحدرون إلى حالة "الإنسان الآلي" أو يبقون دائماً ناقصين. ويُظهِر الواقع المؤلم أن أكثرية كبيرة من الآباء، أياً كانت حالتهم الاجتماعية أو الثقافية، لم يصلوا إلى حالة الأشخاص البشريين الحقيقيين بالمعنى الدقيق للكلمة. هذا لأنه يصعب عليهم تعليم أطفالهم مالم يتعلموه هم أنفسهم، وما كان بمقدورهم أن يختبُروه بأنفسهم. ولذلك، هناك تقريباً نتيجة محتومة بحقيقة أن الآباء غير الكاملين سيعلمون أطفالهم دائماً أن يكونوا مثلهم، فيحرمونهم بذلك من أية فرصة للنمو الإنساني والروحي الذي يتجاوز حدود العرف والعادات الشائعة. وهذا النمو الرفيع هو الذي يقود الفرد إلى إنجاز نفسه ككائن إنساني حقيقي.

ليست الثقافة هي التي تخلع على الناس الصفات الإنسانية، بل النمو الروحي بالمعنى التقني-أي، حقيقة أن تتوفر للفرد الإمكانية لكي يختبُر الحياة في مستويات أعلى من الوعي، الأمر الذي يمكن تحقيقه فقط من خلال الحرية المطلقة والقرار المستقل اللذين يقودان المرء في الاتجاه الصحيح.

أقصد بكل هذه الملاحظات أن ألفت الانتباه إلى مختلف مستويات المسؤولية التي يتحملها من يحرضون إجهاضاً. وفيما يلي بعض الحالات التي يمكن أن تنفي معقولية أن يكون الجنين قادراً على أن يصبح شخصاً حقيقياً بالمعنى الأعلى للكلمة:

أ-عندما يمارس الوالدان جماعاً بطريقة بهيمية، حيث بالكاد يمكن عزو هذا التصرف إلى الله.

ب-عندما يُخضعان جنينهما إلى المفسدة اللاأخلاقية بحمله على مشاطرتهما علاقاتهما الجنسية وهو في الرحم.

ج-إذا كانا لايريدان الطفل، ولا يكونان في وضع يتيح لهما تغذيته على نحو مناسب أو منحه الحب والرعاية الضروريين.

د-إذا كانا بذاتيهما غير كاملين، إلى الحد الذي يكون أطفالهما بالكاد قادرين على الحياة كأشخاص، بالمعنى الأعلى للكلمة.

هـ- إذا كانا والدين سيئين بالمعنى التقني للكلمة.

وأحب أن أسأل القارىء عما كان سيحدث لو أنه، قبل أن يأتي إلى هذا العالم، كان له الحق في أن يختار والديه بطريقة ما. فهل كان سيختار أن ينجبه والدان لايجمعهما حب بل عاطفة غريزية؛ والدان يثبان إلى الجماع بطريقة حيوانية صرفة، من غير رغبة بأطفال من أي نوع؛ ويعرفان أنهما، عندما يواجهان إلزامية إنجابهم، لن يستطيعا تغذيتهم بشكل مناسب أو منحهم الحب والرعاية الضروريتين؛ إضافة إلى كونهما بالذات نصف بشر ووالدين سيئين؟ فهل كان سيختار حقاً والدين أنانيين، أو عاجزين عن منحه الحب والحنان؟

إن أول وأهم اعتداء على الجنين يتمثل في إنجابه من دون وعي، لأنه بذلك تنتقل إليه الصفات الوضيعة لوالديه ويجبرانه، دون موافقته (وأنى لهما أن يسألانه عن ذلك؟)، على أن يأتي إلى هذا العالم وهو يحمل العبء الثقيل لكافة عيوبهما. إنه يُجبَر على أن يكون ابناً لوالدين لم يخترهما، ويتم إخضاعه إلى صدمة العلاقة الجنسية الوالدية من خلال جماعهما. ويتخليان عنه إلى نظام تعليمي غير مناسب، ويرغمانه على الخضوع لنوع من الحياة لم يطلبا موافقته عليه.

قد يحتج أحدهم بأن الجنين لايوجد قبل إنجابه، ولكن هذه الحجة تشبه القول إن الحياة تتفتح من العدم، أو أنها تبدأ فقط لحظة الإنجاب. ولكن، أظن أن الطفل، كشكل

للنموذج الأصلي، موجود في حالة كامنة داخل كل شخص، وأنه، قبل اتخاذ قرار بالإنجاب، يجب على المرء أن يحقق الاتصال مع هذا الجزء من نفسه لكي يعرف ماإذا كان هذا الجزء منه، كما هو الآن، يريد حقاً أن يصبح طفلاً مرة أخرى، وإذا صح ذلك، هل يريد أن يكون له والدان مثله وشريكاً على شاكلته؟

إنه لظلم، في الحقيقة، أن نأتي بكائن إلى العالم دون موافقته. وقد اخترت العبارة "أن نأتي بكائن إلى العالم" عن قصد، لأبيِّن أنه، قبل مجيئه إلى العالم، لابد أنه كان في مكان آخر، سواء بالمعنى البيولوجي أو الميتافيزيقي. ففي عالم مثالي، لاشك في أن واحداً يريد أن يُستشار قبل مجيئه إلى الحياة، وأن يكون له رأي في والديه. ويمكن أن يفهم هذه الفكرة من يؤمنون بوجود حياة بعد الموت، وبالتالي، ينبغي التسليم منطقياً بأنه يجب أن تكون هناك بالضرورة حياة قبل الولادة.

فإمكانية تحريض الإجهاض إذاً هي النمط الثاني من الاعتداء. والنمط الثالث منه يتمثل في الحكم على الجنين بأن يعيش حياة لايريدها أو نوعاً من الحياة لايلائمه. والنمط الرابع يكون بإلغاء عقله عن طريق الدعاية والاتصال السمعي البصري. ففي منهاتن، هناك إعلان ملصق على جدران مواقف الحافلات ولدي صورة عنه. إنه يحمل صورة زوجين يتعانقان، مع الشعار التالي:

يفكر الرجل العادي بالجنس كل 27 ثانية.

وفي الباقي من الوقت يكون لنا.

الشبكات العالمية. على الخط.

أحداث راديوية متكاملة.

فرص محدودة. ESPN. أكثر من تلفزيون سلكي الآن.

دون تعليق!

لايشك أحد طبعاً في حقيقة أنه سيتم، بشكل حتمي تقريباً، تحويل الطفل إلى كائن لايمتلك نفسه، وهذا هو نمط الحياة الذي يمكن أن يقدمه والداه، لأنهما لايمتلكان نفسيهما أيضاً. وللأسباب السابق ذكرها، فإن من لايريدان إنجاب طفل في اللحظة الراهنة يجب أن يعملا على تقييد الإخصاب بتحديد النسل بشكل طوعي بأفضل الطرق المناسبة، وألا يتخذا قراراً بالإنجاب إلا بعد تحليل عميق لوعيهما، وإدراكهما التام للمسؤولية التي

تتطلبها العملية. ينبغي ألا نكون دمى في أحضان العواطف، بل، على الأصح، مهندسين يعون مصيرهم. فإذا اتخذنا قراراً بإنجاب طفل إلى هذا العالم، فإنه يجب أن نتحمل كامل المسؤولية وندرك ماتستلزمه هذه المسؤولية فعلاً في تصرفنا. ولكن هذا يتطلب، دون شك، ضبطاً للنفس لايمكن أن يحققه سوى قلة من الناس.

ويحدث النمط الخامس من الاعتداء على الطفل عندما تُستلَب أجسادنا منا بفعالية وتُسلَّم للدولة لمجرد حقيقة أنه أُنكِر علينا خيار القتل الرحيم في حالة الأمراض النهائية.

والمرأة، في الممارسة، ليست هي صاحبة جسدها، لأنها لاتملك خياراً في أن تربي، أو لاتربي، طفيلياً صغيراً، أي جنيناً، حتى ولو حدث الإخصاب ضد رغبتها، أو في غياب تلك الرغبة، كما يحدث في حال اغتصابها أو مشاركتها في جماع في حالة من الجنون العاطفي الذي يسبب فقداناً موقتاً للعقل. وتشكل الحالة الأخيرة ظرفاً مخففاً في حالة الجريمة العاطفية.

وما يتجاوز حدود المسموح هو حدوث الحمل مراراً دون أن تكون المرأة مستعدة للأمومة، بسبب استهتارها بالمسؤولية. وفيما يتعلق بتقييد الحريات، فإن الشخص الذي لايريد أن يعيش بسبب اعتلال صحته لايمكنه أن يتصرف بجسده، لأنه مهما كانت الحياة مؤلمة بالنسبة له، فإنه لايملك حق التخلي عنه عندما يشاء. وأي نوع من الحرية هذا عندما يكون للدولة حق السيطرة على أجساد المواطنين؟! ويبدو لي منطقياً تماماً أن يُعطى من يريد التخلص من حياته، لسبب وجيه، حرية القيام بذلك، لأنه بهذا يختار لحظة وطريقة التخلي عنه بطريقة محترمة. يجب أن يجري كل هذا طبعاً بطريقة مستحبة وغاية سامية، وفقاً لتشريع ملائم. وفي بعض الحالات، يكون هذا الشكل من أكثر أنواع التمييز بشاعة، لأن محكمة البيروقراطيين تنكر على المواطن حقه في ميتة محترمة مع أنه يعاني من مرض نهائي أو مرض آخر مؤلم أو مشوه للسمعة. ومما لاشك فيه أن البيروقراطي الذي يمنع ميتة اختيارية لايفعل ذلك بمعزل عن العاطفة، بل بمعزل عن تبلد الإحساس، لأنه لايشعر بالألم أو الانزعاج الذي يعاني منه الشخص الذي يريد أن يضع حداً لوجوده، ولذلك يقرر من لايشعر بمثل ذلك بسهولة بأن الميتة المحرضة ذاتياً بقرار خاص من الشخص المعني غير قانونية.

إن علم الطب، في الوقت الحاضر، عاجز عن ضمان ميتة محترمة لبعض الناس. ولذلك، يجب على المجتمع ألا يفرض تلك العقوبة الوحشية بضرورة المحافظة على حياة هبطت

إلى مادون الحد الذي يمكن تحمله، لأنها أصبحت غير محترمة أو مشوهة للسمعة. لاشك في أن من يعارضون القتل الرحيم يعانون بذاتهم من بعض الأمراض الشديدة جداً ولذلك لايقدِّرون الحاجة إلى وضع نهاية اختيارية لهذه المعاناة.

ومن جديد، تعترضنا حجج من يعارضون الإجهاض: لكل فرد الحق في الحياة. وعندئذٍ يقال "لكل فرد الحق في الحياة" (أين تكون الحياة حقيقية، "هنا" أو "هناك؟"). هذا يعني أن الدولة، بإرغامها لأحدهم على الحياة، تتخذ دور المعذِّب لكل من يعاني من مرض عضال، أو حادث لايمكن إصلاح نتائجه، وبذلك تحكم عليهم بأن يصبروا على حياة مؤلمة وغير محترمة. لاريب في أنها لو كانت حالة عذابات أجسامهم، لأصدر القضاة ترخيصاً، كما في العصور القديمة، يسمح للمرء بأن يوقف حياته بطريقة محترمة وفي اللحظة التي يختارها. فإذا كان حقنا في الحياة مسلَّماً به، فلم لاينسحب ذلك أيضاً على الحق بالموت؟ إنه لتصرف وحشي، في بعض الحالات، وليس تصرفاً متحضراً، أن نتخذ ببرود قراراً حول معاناة الآخرين لمجرد أننا لانعاني مثلهم، وبالتالي، ننكر عليهم إمكانية أن يقرروا مختارين مايتعلق بمسألة موتهم.

وكما أُجبر الجنين على المجيء إلى الحياة، كذلك يُجبَر من يعاني من ألم عضال على تحمل الألم والشقاء الجسدي، وكأن هذا يجعله أكثر مرضاة للرب. وبمقدار ماتتعلق المسألة بالجنين والزيادة غير المقيدة للإنجاب، يقولون: "ليس مهماً ماإذا كان الجنين مهتماً بالحياة أم لا؛ فإنه يجب أن يكون مُلزَماً بالاهتمام؛ ولا يهم ماإذا كان الوالدان مريضين، أو غير ملائمين، أو غير كاملين، فإنه يجب أن يُجبَر على تحملهما؛ ولا يهم إذا وُلِد في حرب أو في خضم كارثة، فإنه يجب أن يولَد، حتى على الرغم من احتمال اكتسابه لمرض وراثي أو تعويق، أو كان مصاباً بمتلازمة داون[1]، أو متخلفاً عقلياً، أو مجنوناً، أو مشوهاً. فلندعه يتحمل عذاب شقائه أو فلنتركه يموت من الجوع أو العنف، إنما ليس بالإجهاض. ويجب إجباره على العيش في عالم مختل مريض ويُعتَدَى عليه لإلزامه بقبول أنماط السوائية الزائفة، التي هي حالة مرضية في الواقع. ويجب استعبادة نفسياً، أي تسليمه دون حماية إلى وسائل

1-المغولية أو المنغولية: مرض يصيب الأطفال، سمي بمتلازمة داون نسبة إلى جون لانغدون هايدون داون، عالم الفيزياء الانكليزي (1828-1896). ويطلقون على مجموعة الأعراض التي ترافق مرضاً ما اسم متلازمة، أو تزامن، أو تناذر-المترجم.

الإعلام التي تعمل على توجيه عقله. ويجب تسجيله في الكتلة العالمية للمستهلكين المطيعين لكي يواصل العيش في ظل النظام الاقتصادي السائد؛ كما يجب صوغه، وليُّه، واحتباله، وجعله أعمى أصم، وتلويثه، وإمساكه بقوة، والقيام بأي شيء آخر يلزم لتكييفه، بالإقناع أو بالقوة، إلى المعايير التي تروق لمجتمع مريض."

ويحق لنا أن نسأل ماعدد من سوف "يأسف على حياته" من هؤلاء، وما عدد الناس في هذه اللحظة الذين، إذا ماأمكن إعادة عقارب الزمن إلى لحظة الإخصاب، سيفضلون لو أنهم لم يأتوا إلى هذا الحياة الدنيا. ومن الواضح أننا سوف نجد في تلك اللحظة كثيراً ممن يعبرون، لظروف مختلفة في حياتهم، عن شكرهم لآبائهم لأنهم أحجموا عن التسبب بالحمل بهم. فمن المؤكد أن الحياة ستصبح مصدر شقاء كبير بالنسبة للمتخلفين عقلياً، أو المصابين بمتلازمة داون، أو الشلل، أو التشوه. ولو أمكن أن نستشير الأربعين مليوناً، من المدنيين والجنود، الذين قتلوا بوحشية في الحرب العالمية الثانية، فالأكثر احتمالاً أن نجد غالبية كبيرة منهم تفضل لو لم يكن قد تم الحمل بهم بسبب المعاناة الفظيعة التي خضعوا لها.

وما يبدو متناقضاً، هو أن هناك ترخيصاً بالموت في الحرب، أو من الجوع، أو بسم التلوث البيئي، أو الانهيار من خلال الكرب، أو بالقتل البطيء عن طريق المواد السامة التي تحملها المنتجات الغذائية. ومن المشروع، في نظر القانون البشري، إلغاء عقول الناس وأرواحهم عن طريق الإفراط في الدعاية، والمعلومات، و"الرسائل" الثقافية. وإجمالاً، يموت الناس جسدياً أو نفسياً بطرق كثيرة مختلفة: الجرعات المفرطة من العقاقير، وعن طريق المقومات الخطرة في المواد الغذائية التي تباع في المجمعات التجارية، ومن خلال حقد الديماغوجية السياسية، والإشباع المعلوماتي.

وفي كل يوم تُقتَل آمال وأحلام عدد لاحصر له من الناس في أنحاء العالم، ويرحب العالم بآلاف الأطفال الذين سيموتون جوعاً، ويُهمَل المسنون لكي يموتوا دون أية رعاية.

من المنطقي أن يهز موضوع الإجهاض وعي الناس بسبب مضامينه الأخلاقية. ولذلك، ليس من المشروع أن ينتهز بعض "الفرِّيسيين"[1] هذا الظرف كستار دخاني يمنع الناس من رؤية الطرق الأخرى غير المباشرة لحرمان الناس من حياتهم، وهي طرق أكثر مكراً وبطئاً وبراعة-لأنها تُمارَس ضد الأطفال والكبار أو حتى ضد بلدان بكاملها. فعلى سبيل المثال،

1-طائفة من اليهود في عهد المسيح عُرِفَت بتقواها الكاذبة وريائها-المترجم.

لماذا لايدافعون بالحماس نفسه عن العدد الكبير من الأسر من أصل متواضع، التي تموت ببطء بسبب فرط سوء التغذية ، وفقدان الرعاية الطبية، والعبودية غير المباشرة لبعض الضرائب والديون المالية؟ ولماذا لايستنكرون بصدق الإهمال المحزن للمسنين وتلوث الهواء والغذاء؟ أو التلف الدماغي الذي لايمكن إصلاحه بسبب المخدرات؟ ولماذا لايؤيدون أيضاً تقليص حجم الدولة لتطبيق برامج تعليمية كبيرة تدعم المعوزين، وبالتالي، تساعد على منع الإجهاض، والجنوح، وإدمان المخدرات؟ نحن، في الواقع، لانمتلك الحيز الكافي لكي نسجل مختلف الطرق المعقدة التي فيها تتعرض الحياة البشرية للهجوم، سواء كانت تلك الطرق قانونية أو مخاتلة. ولهذا، يمكن لكل واحد أن يستخلص نتائجه الخاصة حول هذه المسألة. فقد تناولنا، دون قصد، قدسية الجنين بالنسبة لضرر الكبار، إلى الدرجة التي فيها تعتبر حقوقه أكثر من حق الأم، وأن على الأم أن تضحي بكل شيء في سبيله، متهربين من الدليل البيولوجي على أن "هناك فقط أم واحدة،" ولكن هناك كثير من الأطفال.

نحن على قناعة بأن هذه الحماية للرُّضَّع والأطفال هي فقط مسألة حب طبيعي تحمله الأم لأطفالها، ولكن ماهو مؤكد أيضاً أنها تنشأ في "التلقين الأخلاقي" الذي يعود إلى مئات السنين وهي ليست مدفوعة بالحب بل بمبررات الدولة. فقبل عام 1760، لم يكن الطفل يعني شيئاً مختلفاً عما هو اليوم، لأنه أساساً كان يعتبر "شيئاً مزعجاً،" أما القديس أوغسطين فاعتبره، حال ولادته، رمزاً لقوى الشر، وكائناً ناقصاً، ويحمل الخطيئة الأصلية، ومن طبيعة فاسدة لابد أن تكون مهمة إصلاحها بالضرورة منهكة جداً. سيطر هذا النمط من التفكير على علم أصول التدريس حتى نهاية القرن الثامن عشر. وقد جاء في كتاب إليزابت بيدرنتر هل الحب الأمومي موجود؟ مايلي:

نحن على قناعة عميقة في الوقت الحاضر بأن موت طفل يخلّف جرحاً لايندمل في قلب الأم. والأم التي تفقد جنيناً، حتى لو كان مايزال مضغة، ستحمل ذكرى موته دائماً، إذا كانت ترغب به. إن كل امرأة سوف تتذكر ذلك اليوم كيوم خسارة لايمكن تعويضها، وإن لم تستسلم لتظاهرات مرضيَّة من الحزن. وحقيقة أنها يمكن أن تنجب طفلاً آخر بعد تسعة أشهر لاتنسيها موت الأول. لايمكن أن تحل كمية محل نوعية نعزوها لكل كائن إنساني، بما في ذلك الجنين العيوش. كانت المقاربة المعاكسة هي السائدة فيما مضى. فقد كتب ف. ليبرن في أطروحته:

"يعتبر موت طفل صغير، على المستوى الإنساني، حادثاً عادياً يمكن معالجته بولادة أخرى."

وتتابع بيدنتر، فتقول:

ربما كان أكبر دليل على اللامبالاة هو غياب الوالدين عن جنازة طفلهما. ففي بعض الأبرشيات، كما في آجو مثلاً، لاتحضر الأم ولا الأب جنازة طفل دون الخمس سنوات. والدليل النهائي على هذه اللامبالاة تقدمه ظاهرة معاكسة: إظهار الحزن على موت طفل هو نمط من السلوك تعتبره البيئة دائماً غير لائق.

تُظهر الأستاذة بيدنتر أنه كان في ذلك الوقت رفض عام للأمومة، لأن الواجبات الأمومية لم تكن تولى أي اهتمام ولم يكن المجتمع يقدِّرها أبداً. ولم تكن النساء يحظين بأي إجلال كأمهات، وعلى الرغم من ذلك، فإن تلك كانت وظيفتهن الرئيسية. وكان يتم عادة التخلي عن الأطفال للمربيات بعد بضع ساعات من الولادة، ولم يكن نادراً عدم التقاء آبائهم بهم لأول مرة إلا بعد أن يصلوا سن الرشد، هذا إذا وصلوا إلى المراهقة.

وتتابع:

ومنذ عام 1760، ظهرت منشورات كثيرة تنصح الأمهات أن يتولين بأنفسهن رعاية أطفالهن وإرضاعهم بأثدائهن. وعينت واجباً للنساء لكي يكنّ أمهات قبل كل شيء وخلقت اسطورة قُدِّر لها أن تبقى حية على مدى أكثر من قرنين: اسطورة الغريزة الأمومية، أي الحب التلقائي عند كل أم لطفلها.

وانكب الباحثون الأخلاقيون، ورجال الإدارة، والأطباء على العمل ونشروا حججهم البارعة لإقناع النساء بالرجوع إلى عواطف أفضل وأن يعدن إلى إرضاع أطفالهن بأثدائهن... كان خطاب السعادة والمساواة، هو الخطاب الذي يهمهن إلى أقصى درجة. وعلى مدى قرنين تقريباً، وجميع أصحاب الآيديولوجيات يعدونهن بالمعجزات إذا باشرن واجباتهن كأمهات: "لتكنّ أمهات فتحظين بالسعادة والاحترام. اجعلن من أنفسكن حاجة لازبة للأسرة فتحصلن على حق المواطنة".

علينا أن ندرك أن التقدير الراهن للأمومة جاء نتيجة لحملة دعاية عمرها مئتا سنة، وأن الأسباب الحقيقية لهذا الخطاب لاعلاقة لها بالحب، بل اعتمدت، بصورة أساسية، على حقيقة أنه في نهاية القرن الثامن عشر، اكتسب الطفل قيمة السلعة، لأنه اعتُبر ثروة اقتصادية كامنة. فقد قال الباحث المعروف في علم السكان موهو، "إذا كان هناك ملوك قلوبهم صماء لنداء الطبيعة، وإذا جعلهم الإجلال الفارغ ينسون أن رعاياهم رفاق لهم، فإنه يجب عليهم، على الأقل، أن يكفوا عن الظن بأن الإنسان هو، في الوقت نفسه، غاية نهائية

ووسيلة للمنتجات من كل الأنواع؛ وإذا كانت الحالة هكذا ، فإنه يكفي أن نعتبره كائناً له ثمن، لكي يُعتبَر كنزاً ثميناً للملك." ويعتبر أيضاً أن الدفاع عن الانفجار السكاني له فقط منشأ وحيد-كل كائن إنساني هو وحدة اقتصادية أساسية كمنتج ومستهلك، ولهذا، فهو مفيد للنظام. هذا هو السبب الحقيقي الذي يفسر رجعية بعض القطاعات تجاه أي شكل من أشكال تنظيم النسل، لأنه، بهبوط نسبة المواليد ، يتقلص انتشار الرأسمالية.

أظن أن ممارسة الإجهاض غير المميز يجب أن تتوقف تماماً ، ولكن مسؤولية من يمارسونها لايمكن أن تكون واحدة في كل الحالات، لأنه ربما تكون هناك ظروف مخففة ومشددة.

وكما هي الحال، في الحقيقة، مع كافة المعضلات الأدبية والأخلاقية، ماكان لهذه المشكلة أن توجد لو تمكن الكائن الإنساني من تطوير نفسه روحياً. فالمعضلات الأدبية تؤثر فقط على "أنصاف البشر،" بقدر ماتؤثر على الأفراد "الكاملين" الذين يتصرفون دائماً على أساس أعلى نموذج أخلاقي، ببساطة، لأن عقولهم لايمكن أن تدرك أي خيار آخر.

والإجهاض، في الواقع، ليس مشكلة قضائية أو أخلاقية، بل هو، على الأصح، أحجية بالنسبة للأفراد غير الكاملين؛ إنه مسألة نقص الوعي لاغير عند الإنسان العادي، مع كل العيوب التي يسببها هذا النوع من تخلف النمو. وهذا التخلف في النمو هو من أكثر أنواع التخلف التطوري خطورة، وقسوة، وخبثاً. فالناس الذي بلغوا درجة عالية من التطور يمارسون الحب عادة عن وعي، فيختارون الدورات الخصبة أو العقيمة وفقاً لمقاصدهم، ولكن إذا حدث حمل غير مرغوب عن طريق خطأ أو غفلة، فإنهم يتحملون المسؤولية كاملة أمام اللهوابالطبيعة

إن حقوق الجنين تنشأ من والديه. فهما اللذان ينجبانه، أو يغذيانه، أو يرعيانه، أو يعلمانه، أو يمنعانه من التطور. وعلى الرغم من أن الحياة الطفيلية للجنين طويلة، فإنه يبقى مجرد ضيف على الأم التي توفر له الملاذ، ويبلغ حالته المستقلة فقط عدما يُقطَع الحبل السري. ومن الواضح، أنه مع تقدم الحمل، يصبح الجنين قابلاً للحياة أكثر فأكثر، حتى أن الإجهاض يصبح، مع هذا التقدم، انتهاكاً أكثر خطورة.

إنني أؤمن بأهمية التخطيط المناسب للأسرة وتنظيم النسل إذا أردنا أن نتغلب على الهوس الكمي عند الكائن الإنساني فيما يتعلق بالتزايد المستمر للقطيع. وتستتبع هذه

المقاربة أفضلية الزيادة الكمية بدلاً من النوعية، التي تحكم على النوع الإنساني بالانحطاط الأخلاقي والروحي الذي هو نتيجة منطقية للتكاثر المبتذل والفظ للحشد الذي يتزايد بسرعة الضوء، مبدياً أسوأ الصفات عند النوع.

أثارت جمهورية الصين الشعبية جدلاً بموافقتها على قانون يعلن أنه يترتب على الزوجين اللذين يرغبان في الزواج فحص جيناتهما لاكتشاف الأخطاء الجينية والاضطرابات العقلية التي يمكن، في الحقيقة، أن تؤثر على الأطفال على الرغم من عدم ظهورها عند الزوجين بالذات. وبموجب هذا القانون، يُرفَض الترخيص بالزواج لمن يحملون جينات معيبة، أو يُسمَح لهم بذلك فقط إذا وافقوا مقدماً على تعقيم أنفسهم. وعلى الرغم من حقيقة أن الكثيرين يجدون في هذا تصرفاً غير إنساني يسيء إلى الكرامة الإنسانية، فإنه يجوز للمرء أن يسأل: "أيهما الأسوأ، أن ينجب زوجان طفلاً مريضاً أو مضطرباً عقلياً أو الحيلولة دون ولادته؟" وعلى كل واحد أن يقرر ذلك بنفسه في عالمه الداخلي، بعيداً عن الرياء والامتثال الأعمى للشعارات التي ترفعها الأكثرية.

ولكنها حقيقة ملموسة أنه كان هناك، على مر السنين، جينات معيبة في الجمعية الجينية البشرية. فالطفرات المعيبة تحدث مصادفة ولكن إمكانية ظهور زيادات عن طريق التعرض لبعض العوامل المُطَفِّرَة[1] كالمواد أو المنتجات الكيميائية للإشعاع النووي. علاوة على ذلك، إن التزاوج بين الأقرباء يزيد في نسبة الجينات المعيبة. وبالمثل، تؤثر ضروب التقدم الطبي أيضاً على المسألة عن طريق إطالة أمد حياة المرضى من أمثال السكريين والمنعورين[2]، الذين يموتون عادة في عمر مبكر، مما يعني التخلص من جزء من تلك الجمعية الجينية.

هناك قواعد لتكوين مواطنين صالحين، ومستهلكين مطيعين، ومهنيين فعالين، وأناس أذكياء، ولكن ليس لتكوين أفراد يتمتعون بمستوى عال من الوعي والقيم الأخلاقية والروحية من نوعية متسامية. ويبدو أنه لايوجد في ثقافتنا أكثر من مفهوم "الكمية" بالمعنى الفيزيائي، لامفهوم "النوعية" بقدر مايتعلق الأمر بالنمو الروحي. وهناك اهتمام كبير لدى بعض القطاعات لضمان تواصل النمو السكاني، وليس بتحسين النوعية الداخلية للناس. وهذا يعني ضمان زيادة متواصلة للأجساد والأحاسيس الأكثر حدة، وإغفال الحاجة إلى تشجيع

1-من طفرة-المترجم.

2-المصابون بمرض الناعور، أي الميل إلى النزف الدموي-المترجم.

تطوير روحية سامية. وليس هناك ماهو أكثر إنهاكاً من انتظار مضاعفة الكتلة السكانية مرتين أو ثلاثاً، ككتلة مجردة من أي محتوى روحي، وصفات داخلية أدنى من المستوى البشري، وقدرات محدودة بالبقاء على قيد الحياة، ولذة بهيمية. ومعنى هذا زيادة طائشة لعدد أنصاف البشر غير المكتملين، بدلاً من بذل الجهد لإكمال الموجود منهم.

إن تقديس الجنين يمكن أن يحملنا على الظن بأن الشيء الوحيد المهم في الحياة هو بقاء الجسد على قيد الحاة، وأن العبارة "نمو وتكاثر" لاتعني أكثر من زيادة محصول القطيع البشري. فنحن نغفل الهدف الحقيقي للحياة المتمثل بالالتزام بالأمر التطوري للخالق-إنسان كامل يمكن أن يرشد الناس على امتداد سبيل الكمال الروحي.

تختلف دوافع الإجهاض وتكثر تبعاً لاختلاف الأوضاع الحياتية للزوجين، ولكن من الواضح أن الإجهاض الذي يحرضه الضيق من إنجاب طفل هو الأكثر شيوعاً. ويمكن تفادي هذه المشكلة بتنظيم النسل من خلال الإفادة من الدورات العقيمة، ولكن، من سوء الحظ ألا يتم تثقيف الناس بهذه التقنيات.

ولطالما شددت مراراً على أن المسألة الأخلاقية هي مسألة المستوى الفردي للارتقاء، وأنه يمكن للمرء أن يتصرف بطريقة سليمة فقط عندما يبلغ هذا المستوى.

تعبر تصرفات الشخص عن مستواه الروحي، فإذا كان هذا المستوى في أدنى حد له، فإنه يمكن أن نتوقع منه سلوكاً أخلاقياً مقبولاً فقط إذا خضع للقواعد الأخلاقية التي يفرضها المجتمع، لأنه عندما نختار بين شرين، فالأفضل أن نختار أقلهما شراً. ولا شك في أن تطبيق دستور أخلاقي هو الأفضل لتحقيق أخلاقية مدروسة.

ولتحديد المعنى الدقيق لما تعنيه الأخلاقية فعلاً، يجب أن نشير إلى ان الأخلاقية الحقيقية هي تلك التي يلتزم الفرد بقواعدها بصورة حرة وطوعية، ويقتنع بالحاجة الماسة إلى التصرف باستقامة، لأنه يتمتع بمستوى من الإدراك لما هو خير وما هو شر. أما البقية، وهم الأكثرية الآن، فهم أولئك الذين لايدركون ولا يهتمون بتحقيق ذلك.

أن نتصرف بصورة أخلاقية يعني أن نتخذ قراراتنا وفقاً لما يمليه الضمير، وليس بما يمليه "ضمير" اللغة السهلة. وعلى الأصح، "الضمير" بالمعنى الأسمى للكلمة، الذي يُعنى بالارتقاء الروحي عند الفرد ويولّد وعياً شاملاً عند من يكتشفون ذاتيتهم المتسامية عن طريق

معرفتهم لأنفسهم، فيصبحون بذلك الناقلة المناسبة لتظاهرة الشرارة المقدسة، أي الذاتية الفردية النيِّرة- الفرد الذي يحرز فيما بعد القدرة على تمييز الشرارة نفسها عند كافة الكائنات الإنسانية.

من واجب كل شخص واع أن يحول، بقدر الإمكان، دون حدوث الحمل، وذلك عن طريق تنظيم مناسب للولادات، باستخدام نظام الدورات العقيمة للإخصاب الفيزيولوجي لتفادي مشكلة ولادة غير مرغوبة. كما يجب تبديد الوهم الذي نحيط الجنين به بمعنى أن يدرك الناس مدى النفاق الذي يكتنف هذا الموضوع، عند إدانة الإجهاض دون تمييز، ونتجاهل، في الوقت نفسه، مشكلة الـ 850 مليوناً من الناس الذين يعانون من المجاعة في أنحاء العالم (وفقاً لإحصائيات الأمم المتحدة)، والأشكال الأخرى من العنف والعبودية اللذين يمارسان ضد الصغار والكبار، على حد سواء.

ولا يجب أن ننسى أن الإجهاض خيار بائس ولكنه يستجيب للحالات الواقعية في حياة الناس، وأن العقوبة سبب يدفع إلى إجرائه بصورة سرية، مما يعزز خطر حدوث مضاعفات كالنزوف الرضحية[1]، والأخماج، والالتهابات المزمنة في البوقين[2]، بصرف النظر عن الرضح النفسي الناتج عن اللوم الاجتماعي بسبب إجراء الإجهاض.

وأكرر القول إنه من الضروري التشديد على ضرورة تعليم النشاط الجنسي بطريقة معها يصبح تصرفاً واعياً لكائنات إنسانية لاتصرفاً بهيمياً تمارسه الحيوانات، وبالتالي، يجب استخدام تنظيم النسل

لكي لانتعرض لإغراء الإجهاض.

العادة السرية[3]

تم في العصور الحديثة تجريد عادة الاستمناء باليد، كغيرها من الرذائل الأخرى، من الهالة اللاأخلاقية التي كانت تُضفى عليها في العصور التي سبقتها، وبات ينصح بها صراحة كثير من المحترفين كشكل من أشكال المعالجة لتفريغ التوتر العصبي. ولم تعد ممارسة

1-أو الرضية-المترجم.

2-نفيرا فالوب-المترجم.

3-أو الاستمناء باليد، وتُكنى أيضاً بجلد عميرة-المترجم.

يمكن اغتفارها فقط عند المراهقين، بل، على الأصح، أصبحت عادة لاتحتاج إلى تبرير عند الكبار.

وهناك اليوم، في مختلف البلدان، "حلقات استمناء" لتعليم هذه العادة بذريعة فوائدها المفترضة أو المتخيلة، التي هي، في الواقع، مجرد تبرير لنمط من التساهل مع الانغماس الذاتي الذي يدمر الشخصية وقوة الإرادة.

هناك نية مقصودة في عصرنا للتستر على مفهوم "الانحرافات الجنسية"، حتى أنه يجري تبرير أي نمط من السلوك الجنسي، مهما كان منحرفاً، بأنه مسألة "أفضلية فردية." إنها عملية ترافق فقدان القيم الأخلاقية أو تدهورها، كما لو أن هناك قوة تعمل في الخفاء للحيلولة دون أية نزعة إنسانية.

وما من أحد، في هذه الأيام، يشعر بالصدمة إذا اعتاد راشد على ممارسة هذه العادة، ليس فقط بسبب مايفترض بأنها طبيعية بل لافتراض أنها صحية أيضاً. ويمارسها الرجال عادة لتفريج مختلف أنواع الكرب الذي يشعرون به، والنساء يحاولن، دون وعي، التغلب على "حسد القضيب" أو الحسد لدور الذكر عن طريق تحقيق إثارة جنسية دون وساطة الرجل، تلك الإثارة التي تنشدها الكثيرات من النساء سراً أو علناً. وتحلم هؤلاء النسوة عادة بالاستغناء عن الجنس المذكر بحيث يصبحن قادرات على إشباع رغباتهن وحاجاتهن بأنفسهن. وهكذا، يتطلعن إلى رغبة ممزوجة، دون وعي، بازدراء الرجال والحط من شأنهم.

إن الكرب غير المحدد الذي تشعر به بعض النسوة يدفعهن إلى اللجوء إلى الملذات الانفرادية كصمام إفلات، وهو تدبير يكررنه دائماً لأن قلقهن يطفو على السطح تكراراً مع زيادة في الحدة. وبالتالي، يشيع الاستمناء كما هو شائع احتساء فنجان من القهوة، أو تناول قطعة من الحلوى.

يظن الوسط العلمي أن هذه العادة لاتؤذي الناس، بل على العكس، يعتبرها صحية ومقبولة. ولا أدري كيف تفقد "رذيلة انفرادية" صيتها السيء كعادة تستحق اللوم لتصبح تدبيراً مرغوباً. والصحيح هو أن من يعتاد على الاستمناء يصبح كئيباً، وحزيناً، وانطوائياً، وكثير النسيان ويعاني من تدهور في الشخصية وقوة الإرادة. كان يسود الاعتقاد قديماً أن الرذيلة الانفرادية تسبب اضطرابات نفسية مختلفة، ولكن هذه الممارسات الانفرادية باتت تعتبر اليوم فقط واحدة من العناصر في حالة سريرية يمكن أن تسبب استنزافاً وهواجس نفسية.

ويعرض أنطوان بورو في قاموس الطب النفسي والمعالجة السريرية، مايلي:

العادة السرية عَرَض لكثير من الاضطرابات العقلية، أو الذُهانات[1]، أو العُصابات، سواء كانت مستقلة أو مترافقة بممارسات مرضية مثيرة للشهوة الجنسية. وتبدو في سِيَر حياة المنحرفين جنسياً كتظاهرة لطفولية العاطفية، وكثيراً ماترتبط بالبهيمية[1]، والفَتْشِيَّة[2]، والعَرْض[3]. ونجدها أيضاً في حالات حادة كما في هذيانات السُكْر والخمج.

وتبدو مهمة في الحالات العُصابية وتترافق بحالات شاذة من الكآبة، والخجل، والتوحد[4]، والتخلف الموروث كالبلاهة[5]. وتظهر أيضاً في حالات الوهن الوهن النفسي[6] أو العصابية مع ضعف الإرادة، وذهان هوسي، وخَرَف.

وأنا شخصياً، أعتقد أن العادة السرية تسبب اضطرابات نفسية وتشوشاً وظيفياً في الدماغ، وتبدلاً في الحالات العاطفية وضعفاً في الشخصية والإرادة، وانطواء نرجسياً، بما يمثل انحرافاً أخلاقياً للطبيعة المقدسة للنشاط الجنسي. وهذا ماأشار إليه الكتاب المقدس بخصوص الخطيئة الأصلية عندما أمر الله آدم وحواء بألا يأكلا فاكهة من شجرة معينة في الجنة. ويقال إنهما طُرِدا من جنة عدن لأنهما لم يلتزما بهذا المنع. وأظن أن هذه القصة تنطوي على مغزى عميق يتجاوز المظاهر، وأن الخطيئة الحقيقية لآدم وحواء تتمثل بعدم احترامهما للنشاط الجنسي باعتباره نعمة إلهية أو تظاهرة مقدسة للخالق، بافتراض أن النشاط الجنسي كان مجرد أداة لإشباع شهوتهما الجنسية لامصدراً للإبداع كله.

وحول موضوع العادة السرية، جاء في ملاحظات ساندور فرنكيزي في كتابه الجنس

1-ذُهان، أو هُواس، أو نُفاس: اضطراب من أشد الأمراض العقلية خطورة، يتميز بانقطاع الصلة بين المريض والواقع، ويتطلب علاجاً في المشافي العقلية-المترجم.

1-علاقة شاذة بين إنسان وحيوان-المترجم.

2-انحراف يتمثل في تركيز الشهوة الجنسية على جزء من الجسد، كالقدم، مثلاً، أو على حذاء، أو جورب، أو خصلة شعر، أو ثوب تحتي-المترجم.

3-نزعة إلى إظهار مايجب ستره من الجسم-المترجم.

4-أو الاجترار العقلي: الاسترسال في التخيل هروباً من الواقع-المترجم.

5-حالة ضعف عقلي معها يتراوح معامل الذكاء بين 25-49-المترجم.

6-أو التعب العقلي: حالة من العصاب تتصف بعجز المريض عن التخلص من الشكوك ومقاومة الهواجس-المترجم.

والتحليل النفسي، فيما يتعلق بالاختلافات بين الاستمناء والجماع الطبيعي، مايلي:

سبّب التحليل في مجموعة من الحالات هلعاً من الخصاء ومن أفكار سفاح القربى، ولذلك، وضع حداً للأعراض العصابية النفسية، ولكن لم يحدث فيها امتناع كامل عن الاستمناء، وحتى أثناء المعالجة، أو بعد الاستمناء بيوم واحد، أظهر المرضى اضطراباً نمطياً، نفسياً وجسدياً، سوف أسميه الوهن العصبي النهاري. وقد تشكى المرضى بصورة رئيسة من: تعب واضح وثقل مرهق في أرجلهم، وخصوصاً عند الاستيقاظ صباحاً، وارق، أو نوم متقطع، وحساسية للضوء ومنبهات سمعية (أحياناً إحساسات محددة بوضوح بالألم في العيون والآذان)، واضطرابات معدية، ومَذَل[1] في الناحية القطنية، وحساسية للضغط في الأعصاب. وفي المجال النفسي عانى المرضى من هيوجية عاطفية عالية، وغضب شديد وميل لاكتشاف الخطأ، وعجز أو ضعف في القدرة على التركيز. وكانت هذه الاضطرابات تستمر في وسط النهار وتتضاءل في الساعات الأولى من المساء. وفي الليل، كان الجسد يستعيد حالته تماماً، ويسود الهدوء جو العواطف وتُستَرَد القدرة العقلية بصورة كاملة.

واحب أن أبيّن بجلاء أن هذه الأعراض لاتتزامن مع أي نُكْسٍ لأعراض العصاب النفسي ولم أتمكن في أية حالة من تناول هذه الأعراض أو التأثير عليها عن طريق التحليل النفسي. ولذلك، تقتضينا الأمانة هنا أن نتخلى عن التأملات النفسية وان نعترف بها على أنها نتائج نفسية للاستمناء.

ويعلن فرنكيزي أن النشاط الاستمنائي يمكن أن يسبب تأثيرات نفسية لاتحدث في الجماع العادي. ويشير إلى أنه عندما يمارس رجل اتصالات جنسية مع امرأة توفر له إشباعاً كاملاً، فإنه يشعر بالنشاط بعد الفعل، ويتمتع غالباً بإغفاءة قصيرة في اليوم نفسه، ويتصرف في اليوم التالي بكفاءة غير عادية وأسلوب فعال. ويحدث العكس بعد الاستمناء، حيث يحدث الوهن العصبي النهاري، مترافقاً بكافة الأعراض التي أتينا على ذكرها، لاسيما ألم العينين بتحريض الضوء، والثقل في القدمين، والهيوجية النفسية، وفرط الحس في البشرة، وحساسية خاصة للدغدغة.

ويضيف: "يمكن اعتبار العصاب الاستمنائي الحقيقي مزمناً، كمجموع أعراض الوهن العصبي الاستمنائي ليوم واحد ... من الواضح أن العمليات العصبية للجماع والاستمناء ليست متماثلة من الناحية الفيزيولوجية."

1-تشوش الحس-المترجم.

تظهر الاختلافات التي ذكرها فرنكيزي بين الجماع الطبيعي والناقص أن أحدهما، أي النمط السوي، يشكل مصدراً للإشباع والطاقة، في حين يسبب الآخر، أي الجماع الناقص، إثارة مفرطة، نفسية، وحساسة، ومحركة للأوعية الدموية، تستمر بعد الاستمناء. ويضاف إلى هذا أحاسيس بالحزن، والغم، والوحدة، والتعب.

هناك سبب عميق يحمل الطبيعة على إدانة الاستمناء، هو حقيقة أن أحادية القطب لاتولّد شيئاً. وثنائية القطب وحدها هي الخصبة. فكل شيء في الطبيعة، من الذرة إلى البُنى الأكثر تعقيداً، له قطبان، وهذه الثنائية القطبية هي أصل القدرة المبدعة. فالخصوبة لاتتوفر لاعند ذكر متوحد ولا عند أنثى مهجورة، وعلينا أن ندرك هذا بما يتجاوز مفهوم تكوين الذرية ونحمله إلى حقل الإبداع الشخصي.

ينعزل المستمني عن شريكه القطبي (شريك من الجنس الآخر)، وبذلك ينفصل عن الطبيعة ويمارس تقييداً كبيراً لقدراته الخلاقة، ويؤدي هذا إلى فقدانه للرجولة، وصعوبة في تجسيد مشاريعه الشخصية، واضطرابات نفسية شتى، ونقص في التركيز العقلي، ووحدة وتعاسة، وشذوذ في العلاقات مع الجنس الآخر، وضعف في الشخصية وقوة الإرادة.

إن الاتصال الجنسي الطبيعي بين رجل وامرأة هو تفاعل بين مغنطيسين، يتحدان، فيزداد جهدهما، فينتجان قدراً كبيراً من المتعة الجنسية.

فالمرأة، كقطب سالب، والرجل، كقطب موجب، يتحدان أثناء الجماع في تغذية راجعة فعالة تعني الأخذ والعطاء، أي تبادل لمغنطيسية جسديهما، وهي عملية تجدد الخلايا والحيوية. أما الاستمناء، فانحراف يأتي من حقيقة أن كل شيء في الطبيعة ثنائي وله قطبان، وأحادية القطب غير موجودة في المخطط الطبيعي للحياة.

والجاذبية الجنسية ظاهرة مكافئة لمغنطيسين ملتصقين معاً، ولكن الدافع الأساسي للنشاط الجنسي هو غريزة البقاء التي تؤدي إلى الإنجاب. وتكمن القدرة على خلق حياة جديدة في الاتصال الجنسي، ويمثل هذا ملكة مقدسة تفيض من الخالق.

يُعتبَر الجماع خلاقاً فقط عندما يكوّن طفلاً، ولكن المرء قد يسأل ماالذي يحدث في الحالات التي يحدث فيها اتصال جنسي طبيعي دون تخصيب البيضة. ويبدو واضحاً أن الإجابة ستكون لايحدث شيء؛ فالبذرة ببساطة تنزل على أرض مجدبة فلا يحدث الإخصاب. تنطوي

هذه الفكرة على عيب أساسي، وهذه هي حقيقة أن للحياة قطبين، وجانبين، وكتلة وطاقة، لايمكن فصلهما عند الفحص ولا عزل هذا أو ذاك، لأنهما متحدان على نحو لايمكن فكه. وهذا يعني أن الوظائف الجسدية لها نظير طاقيّ يتمتع بأهمية مماثلة، وهي حقيقة معروفة جيداً في المعالجة بوخز الإبر لأن الزمن ممعن في القدم. وحقيقة أن البذرة الفيزيائية تضيع لاتعني أن الشيء نفسه يحدث عند نظيرها الطاقيَ.

إن عملية الفعل الجنسي، من بدايتها إلى نهايتها، مكافئة للعملية العضوية في مجال الطاقة. ويعني هذا أن نسلّم بوجود نشاط جنسي طاقيّ، نظير للنشاط الجنسي العضوي، الذي هو المصدر الحقيقي للجاذبية الجنسية بين الجنسين.

وحقيقة أن المؤسسة العلمية لاتعرف وجود ذلك النشاط ولم تؤكد وجوده لايعني أنه غير موجود. وما يحدث كثيراً هو أن العلماء بغرورهم يُبعدوننا كثيراً عن المصادر الأصلية للحقيقة بحجة أن تلك كانت عقيدة القدماء. وينطبق هذا أحياناً على المفاهيم القديمة كالمفهوم الذي كان يقول إن الأرض منبسطة أو إن الكواكب تدور حولها، ولكن يُحتمَل جداً أن تكون هناك مساحات أخرى فيها يمكن للحكمة القديمة أن تقدم لنا دروساً، والمغنطيسية الحيوانية، أو المغنطيسية فقط واحد من تلك الدروس.

في عام 1790، حاول الفيزيائي الألماني، فرانز مسمير، أن يعالج الأمراض باستخدام المغانط[1]، لأنه كان قد اكتشف أن استخدامها يمكن أن يشفي بعض المرضى. واكتشف بعد ذلك أن الجسم البشري هو أيضاً مدَّخرة مغنطيسية، وأن الشفاء يمكن أن يحدث "بوضع اليد،" ومن هنا نشأت نظرية المغنطيسية الحيوانية. ولكن لجنة ملكية سفهت الأسس التي يقوم عليها مذهبه. وعلى الرغم من النجاح الكبير الذي حققه في باريس، فقد عاد إلى ألمانيا ليموت منسياً. واليوم، سواء رضيت المؤسسة العلمية أو لم ترض، فإن الطب البديل يمكن أن يعالج بنجاح كثيراً من الأمراض باستخدام المغانط والآلات التي تقذف نبضات مغنطيسية. علاوة على ذلك، من المحتمل جداً أن يكون العلاج الشافي كامناً في تشعيع الأعضاء بالطاقة المغنطيسية لإعادة توطيد النظام الذي كان قد تغير في مجالات الطاقة في الجسم.

لقد قدم هارولد ساكستون بار دليلاً كبيراً يؤيد حقيقة أن المادة تتكون من خلال تشعيع المجالات الكهربائية وأن المجالات التي تؤثر على الإنسان، والنبات، والأشجار،

1-جمع مغنيط أو مغنطيس، وهي المولدات الكهرطيسية-المترجم.

والحيوان متشابهة. ويبيّن في كتابه تصميم للأخلاقية كيف يمكن، بمساعدة مقياس الفلطية، اكتشاف المرض في مرحلة الكمون أو الحضانة. ويظن ساكستون بار أن الكون بالكامل مليء بهذه المجالات الكهربائية الذكية التي هي "نموذج" أو قالب معايرة تنتظم حوله الذرات وبنيان المادة، وأن المرض هو اضطراب كمونية هذه المجالات، التي يدعوها مجالات-ل (مجالات الحياة).

يقول ساكستون بار:

المجالات الإلكترودينامية [1] غير مرئية وغير محسوسة، ويصعب تصورها. ويذكر الناس ممن وصلوا إلى درجة عالية من العلم أنه إذا نثرنا برادة الحديد فوق طبق معدني بمساعدة مغنطيس، فإنها تنظم نفسها على شكل خطوط قوة للمجال المغنطيسي. ويحدث الشيء نفسه للجسم البشري، على الرغم من أنه أكثر تعقيداً بكثير. فجزيئاته وخلاياه تُطرَح باستمرار ويُعاد بناؤها بمادة جديدة من الغذاء الذي نتناوله. وقد أظهر البحث الحديث أن مواد جسدنا ودماغنا تتجدد أكثر بكثير مما نظن. فعلى سبيل المثال، تتبدل كافة البروتينات في الجسم كل ستة أشهر، ويكون التبدل أكثر تكراراً في بعض الأعضاء كالكبد. وعندما نواجه صديقاً لم نره منذ ستة أشهر، فإنه لن يكون في وجهه جزيء واحد من تلك التي كانت موجودة قبل تلك الأشهر الستة، ولكن بفضل مجالات الحياة الموجهة، تنسل الجزيئات الجديدة إلى الشكل القديم المألوف، وبهذا يمكن أن نميز وجهه. كان علماء الأحياء، قبل اكتشاف الأجهزة الحديثة، عاجزين عن تعليل سبب احتفاظ أجسامنا بشكلها في ظل الاستقلاب وعمليات التغيير اللانهائية التي تخضع لها المادة. واليوم، وجد هذا اللغز حلاً له. فالحقول الإلكترودينامية تعمل كقالب أو وِجاء يحافظ على شكل أو نظام أية مادة تُطرّح منه، حتى عندما يتكرر حدوث ذلك . . . ويتم فحص مجالات الحياة بمقاييس الفلطية ومسارٍ خاصةتظهر مختلف أشكال أو درجات الفلطية في أجزاء مختلفة من مجال الحياة.

ويمكن اكتشاف مجالات الحياة بقياس الاختلافات في الفلطية بين نقطتين على سطح الشكل الحياتي أو قربه. ويمكن قياسها عند الرجل والمرأة بوضع مسرى على الجبين وآخر على الصدر أو اليد. أو، بدلاً من ذلك، تُغمَس السبابة من كل يد في حاويات مملوءة بمحلول ملحي، متصلة بمقياس الفلطية، ويجب أن يكون هذا من طراز خاص مزود بأنبوب

1-أو الإلكتروحراكية: صفة للقوى الناتجة عن التيارات الكهربائية-المترجم.

فارغ، لأن مقياس الفلطية العادي يحتاج إلى تيار كهربائي مؤثر لكي يحمل الإبرة على الاهتزاز الذي يستهلك جهد مجال الحياة، مما يجعل القراءة غير مفيدة.

وينصح ساكستون بار باستخدام جهاز هيوليت-بيكرد نموذج 212A، الذي كان قد توقف استخدامه واستبدل بنماذج أخرى. وقد جاء في كتابه:

إن الكون الذي نعيش فيه والذي لايمكن أن ننفصل عنه، هو مكان قانون ونظام. وهو ليس عارضاً ولا فوضى. ولكنه منظم ويحافظ عليه مجال إلكترودينامي يمكنه أن يحدد موضع كافة الجسيمات المشحونة وحركتها. وقد خضعت نتائج هذه النظرية، على مدى نصف قرن تقريباً، لشروط تجريبية موجهة على نحو صارم ولم يتم الكشف عن تناقضات.

واستناداً إلى تجارب بار، فإنه ليس هناك أدنى شك في أن ميزة المجال الإلكتروني للجسم الحي هي خاصية أساسية للحياة. وبالمثل، يجب أن نتذكر أن أساس الكهرطيسية هو حقيقة أن أية ظاهرة مغنطيسية تنتجها تيارات كهربائية، وأنه عندما تكون شحنتان كهربائيتان في حالة حركة، تتولد بينهما قوة مغنطيسية. ويمكن أن تكون هذه نقطة تماس بين مفهوم مجالات الحياة وما يدعى بـ "المغنطيسية الحيوانية." وأظن أن المجالات الكهرطيسية عند الرجل والمرأة تكمل بعضها بعضاً بعلاقة بينية متناغمة، وتمنح بعضها، بصورة متبادلة، قوة جديدة من خلال الجاذبية الجنسية بين الجنسين، وأثناء الجماع والإيغاف. وبالطريقة نفسها، أظن أن مجالات الحياة عند من يمارسون العادة السرية تتبدل وتضطرب تحت تأثير الإثارة الانفرادية، نظراً لعدم وجود التكاملية بسبب غياب الشريك من الجنس المقابل.

إن تفكك مجالات الحياة، واضطرابها، وتدهورها يمكن أن يسبب حتماً ضعف الجسم، ويمكن لأي واحد بالتأكيد أن يجرب ذلك بنفسه إذا توفر له مايكفي من الوقت والاهتمام.

يتم الجماع الطبيعي بين رجل وامرأة، أحدهما ذو قطبية إيجابية والآخر ذو قطبية سلبية، النطفة والبيضة، وينتهي الجماع عادة بالإيغاف، في اللحظة التي فيها تتلقى المرأة المني، وهي، إذا كانت في دورة خصوبتها، فإنها على الأرجح سوف تحمل بطفل.

وبهذه الطريقة، فإن عدداً قليلاً فقط من الملامسات الجنسية ينتج أطفالاً، حيث يمكن تصنيف تلك التي لاتنتج أطفالاً في خانة "الملامسات العقيمة." ومع ذلك، أظن أننا

خلاقون إلى حد كبير، وأنه ليس هناك إيغاف عقيم، نظراً لوجود نظير طاقيّ للبذرة المذكرة والرحم المؤنث. وبالتالي، فإن كل فعل جنسي هو فعل خلاق، وإن كنا غير قادرين على تصور ثمرته بغياب ذرية مادية. مع ذلك، لاأشك في أن التشعيع الجنسي المغنطيسي للرجل والمرأة يكوّن دائماً نمطاً ما من طفل عندما يتجامعان وربما يستجيب هذا لنمط من تخثر الطاقة المغنطيسية التي تتمتع بمستوى معين من الوعي وفقاً لوعي والديه، وأنه يواصل الحياة من خلالهما. إن من لايصدقون سوى مايمكن رؤيته ولمسه ينبغي أن يتذكروا أن المادة المرئية تمثل فقط جزءاً واحداً من ألف مليون جزء من الكون، لأن العلاقة بين كميات الطاقة (فوتونات) وجسيمات الكتلة (نويات) تقارب ألف مليون إلى واحد. وهكذا، فإن الجزء الأعظم من الحياة يتألف من طاقة غير مرئية.

ولهذا، يبدو سخيفاً الافتراض بأن الإمكانية الخلاقة للجماع هي فقط ذرية مادية. ومن المنطقي أن نفترض أن الفعل الجنسي يسبب ذرية طاقيّة، أي أشكال من الطاقة، كانت موجودة عند الأب والأم، يقذفانها إلى خارج جسديهما فتستقل عنهما وتبدأ شكلاً من الحياة مايزال مجهولاً بالنسبة للعلم: ثمالة مغنطيسية عند الكائن الإنساني، طاقة ماأن تنفصل عن مكوّنها، حتى تواصل الوجود كنوع من جنين يتكون من طاقة صرف تبقى على ارتباط بوالديها عن طريق حبل سري، وتتغذى عليهما لكي تبقى. وعندما يسبب الفعل الجنسي إخصاباً، فإن الجنين المادي يعاود امتصاص هذه الطاقات.

أما الاستمناء فعقيم دائماً ويمثل انحرافاً عن الطبيعة، بمحاولة ممارسة جماع أحادي الجانب، واستخدام طاقات الحياة التي منحها الخالق، وإثارة ذاتية أثيمة للشبق الحسي، مجردة من الحب، والرومانسية، ومن أية علاقة زوجية. وهكذا، تنحط الطبيعة السامية للفعل المبدع للحياة إلى إثارة يدوية أو ميكانيكية للأعضاء الجنسية.

إن أصل كلمة استمناء في اللاتينية يدل على العار، والتدنيس، والخزي، أي أن من يستمني، فإنما يدنس جسده، وما يعتبر شراً ضرورياً تقريباً في المراهقة يصبح سلوكاً أثيماً في سن الرشد.

والخلاصة، إن الاستمناء لايمثل نشاطاً جنسياً طبيعياً، وقد كان رذيلة، وما يزال، وسيبقى كذلك، ويجب أن نتذكر مايعنيه هذا التعبير. إنه يعني الإتلاف والإفساد فيزيائياً وأخلاقياً، والاستنزاف، والإيذاء، والتفسخ والخراب، والمنع. فالمستمني يدمن الدعارة بإثارة

غريزته الخاصة، التي تحط من قدره، وتستنزفه، وتمنعه، لأنه انحراف عن الجماع الطبيعي. وتأتي حجج من يدافعون عن هذه الرذيلة تحت عنوان العقلنة، التي هي عمليات التفكير العقلي لتبرير تصرف أو رأي أساسه، في الواقع، دوافع أو أسباب أخرى، مع أنه ليس من الضروري أن تكون واضحة لصاحبها.

وهناك مدمنون للعادة السرية ممن يعملون على عقلنة هذه الرذيلة في سبيل تبريرها، ويزينونها بطريقة ما بدلاً من أن يقبلوها كما هي في الواقع، فيجعلون منها عادة صحية، منصوح بها، حتى أنهم يخلعون عليها مضامين صوفية. وهكذا، يتم تدنيس مايجب أن يكون ناتج الحب والحط من شأنه ليصبح تصرفاً فيه يُطلَق عنان الحيوان الذي نحمله جميعاً في داخلنا. إن أي كمال روحي أو أخلاقي يحتاج إلى تصعيد الرغبة الجنسية. والاستمناء، كما يبدو، تصعيد معاكس، ويمثل انحطاطاً أخلاقياً وروحياً أصبح يميز الجنس البشري في عصرنا. إضافة إلى ذلك، علينا أن نضع في اعتبارنا الطبيعة الأنانية المعادية للمجتمع التي يُظهرها المستمني، لأنه ينطوي على نفسه، ويتفادى الاتصال الطبيعي مع الجنس المقابل، وأحياناً مع أي شخص آخر.

تحتاج علاقة الحب الطبيعية بين رجل وامرأة إلى جهد وعمل، لأن كلاً منهما سوف يحاول، دون أن يدري، تسخير الطرف الآخر إلى حاجاته الخاصة، الأمر الذي يثير، عاجلاً أو آجلاً، خلافاً ومواجهة. والخلاف والمواجهة هما وسيلة التأثير بالعيوب الخاصة بالمرء كالأنانية والنرجسية، إلى أن يندمجا يوماً ما في اتحاد تخيم عليه السعادة، والانسجام، والتوازن. ولهذا الغرض، يحتاج المرء إلى الشخصية، والحساسية، وقوة الإرادة، والتسامح، والكرم.

يتهرب من يمارس العادة السرية من هذا العمل والجهد لكي يحصل على إشباع جنسي عاجل، وهكذا، يحرم نفسه من أشباع داخلي، جميل ومتناغم، ومن العلاقة العميقة التي يمكن أن يسببها بين الزوجين. حقاً، إن محك الكائن الإنساني هو شريكه، لأنه في هذه العلاقة، سوف تطفو على السطح كافة الحاجات والعيوب التي لم يكن بالإمكان التأثير عليها. إن من يواصل الاستمناء بصورة مُلزِمَة بعد المراهقة ولا يستطيع التوقف عنها، يُثَبَّت في مرحلة طفلية تمنعه من النضج، وكثيراً ماتحرمه من السعادة والوفرة اللتين يمكن أن توفرهما علاقة طيبة بين زوجين. يعمل المستمني الانفرادي دون شريك فقط على تبديد طاقته الخلاقة دون فائدة، بتفريغ الشحنة المغنطيسية في جسده وبالتالي يجعل تراكمها على نحو

مناسب مستحيلاً. وينجم عن هذا عقابيل سلبية على صحته وعلى إنجازه الذاتي. ومني المستمني لايمكن أن يكون، إذا تحدثنا بلغة البيولوجيا والطاقة، مشابهاً للمني الذي يندفق في حالة الجماع العادي، كما يكون ملوثاً بالجانب المظلم للقوة الكونية. والمستمني، بحد ذاته، ليس شخصاً واضحاً عادة بل هو، بكل تأكيد، شخص صموت. فإذا سلّمنا بأن الجسد البشري هو مدخرة مغنطيسية، فإن الفعل الجنسي لايمكن أن يكون غير مقايضة للمغنطيسية فيها كل فريق يأخذ ويعطي. وأظن أن المغنطيسية الحيوانية أساسية للحياة والصحة الجسدية وأن الحيوية كلها هي، في الأصل، حيوية الخلية. فعندما يشير فرنكزي إلى أن الإنسان يشعر بالنشاط بعد اتصال جنسي مع امرأة توفر له إشباعاً تاماً، فإنه يعني عزماً جديداً للجهد المغناطسي عنده من خلال تبادل المغنطيسية، لأن الشيء نفسه يحدث للمرأة.

وعلى العكس، فإن المستمني يعطي فقط، ولا يتلقى شيئاً مقابل مايعطيه، مما يؤدي إلى إيغاف يسبب إفراغاً حقيقياً لطاقة الجهد الكهرطيسي، مما يعلل الضعف الشديد الذي يشعر به بعد ذلك.

أظن أن الهبوط المتواصل في مستويات الجهد الكهربائي للجسم يجعله عرضة لخطر مختلف الاضطرابات الفيزيائية، ويمكن أن نذكر منها فقدان القدرة على التركيز وضعف نشاط الجهاز المنيع. ومن المحتمل جداً أن يتأثر الدماغ أيضاً لأن المحور الدماغي الشوكي هو مغنطيس أحد قطبيه في الدماغ والآخر في الأعضاء التناسلية. والعصبونات، ككل الخلايا، تحتاج إلى أن تتغذى على المغنطيسية، التي تدور، في هذه الحالة، عبر القناة الدماغية الشوكية، لأنها يتم تجديدها أو إعادة ملئها عن طريق الملامسة الجنسية الثنائية القطب مع الجنس الآخر. وهذا النمط من الجماع، عندما يفرط المرء في ممارسته، يغذي الدماغ ويثيره، ولكن هذا لايحدث في الاستمناء الذي يستنزف باستمرار مغناطسية الشخص الدماغية الشوكية من خلال ممارسته للنشاط الجنسي مع نفسه، مع ماينجم عن ذلك من اضطراب في التغذية والحيوية العصبونيتين.

يقول الدكتور بول لومال، في تعريفه للفعل الجنسي الطبيعي، إنه لكي يكون هذا الفعل سليماً بشكل فعال، فإنه يجب تحقيق النضج في ثلاث باحات: التناسلية، والجنسية النفسية، والعاطفية.

ويبيّن مول:

يتحقق عادة النضج الجنسي في نهاية البلوغ، عندما تكتسب الأعضاء التناسلية الصفات نفسها كما هي عند الكبار. وهذا النضج هو الذي يجعل الاتصالات الجنسية الكاملة ممكنة، وكذلك الإنجاب. إن النضج النفسي الجنسي هو الشهوة الجنسية المغايرة للجنس التي يجب أن نجدها خصوصاً عند شاب بلغ مرحلة الاختيار. ويبلغ هذا الشاب النضج العاطفي، وخصوصاً ذلك الذي يتميز بالتضحية بالنفس (القربان وروح التضحية)، عندما يمكن أن تتجسد إمكانية هذه التضحية دون قيود وبصورة نهائية. وبمعنى آخر، يمكن أن يحدث هذا عندما يكون هناك اعتراف كامل بـ "الآخر" كشخص بكل ماتعنيه هذه الكلمة. وبناء على ذلك، فإن الفعل الجنسي، من أي نمط، إذا كان لايستجيب لهذا المطلب الثلاثي، يعتبر فعلاً شاذاً جنسياً، وفي الوقت نفسه، شاذاً أخلاقياً.

واشير إلى أن مايعطي الفعل الجنسي البشري قيمته النوعية ليس النضج الجنسي أو الجاذبية للجنس المغاير (هذان الشرطان يظهران ويوجدان عند الحيوانات)، بل النضج العاطفي الذي يعني ضمناً الاختيار. وهو الدافع العاطفي عند الرجال والنساء الذين بلغوا مرحلة النضج، أي حب التضحية بالذات، الذي يشترط الفعل الحسي؛ والرباط التناسلي المجرد عند كائنات إنسانية متطورة لايمكن أن يكون كافياً بحد ذاته، لأنه، في حالة الانفراد، لايسبب أكثر من "اللذة،" التي لاتعتبر حتى ظلاً للسعادة المتعة (التي تتضمن اللذة)، هذه السعادة التي هي من حق من يحبون تماماً بعضهم بعضاً.

ويبيّن الدكتور لومول أن النضج العاطفي الذي يساعد على الفعل الجنسي هو الذي يجب اعتباره سوياً، وأنه، عند فقدان هذا المكوِّن، فإن الجماع بين الأشخاص لايختلف عن التسافد الذي تمارسه الحيوانات. وقد ذكرت شيئاً من هذا في الفصل السابق عندما قلت ان معظم الأطفال ليسوا ثمرة حب حقيقي بل ثمرة غرائز. ولا شك لدي في أن الطفل، أياً كانت طريقة تكوينه، دون حب حقيقي كامل لايمكن أن يكون من الناحية النوعية كالطفل الذي يتكون نتيجة حب. ومن سوء الحظ أن عصرنا لايتميز بكثرة الناس الذين يتمتعون بـ "أنا" ناضجة ومتطورة. وعلى الأصح، يتميز بكثرة الآباء العُصابيين، والضعفاء، والطفليين، والمحبطين تطورياً.

ربما يكون الحب هو الذي يسبب انسجام مجالات الحياة عند الزوجين وبالتالي يحقق

"السعادة الممتعة" التي ينسبها الدكتور لومال إلى من يحبون بعضهم بعضاً. إنها السعادة السامية التي لن يحققها الاستمنائي أبداً، مالم ينجح في تحقيق النضج في مجال العواطف والتغلب على هذه الرذيلة.

إن أكبر عقبة تواجه رجال العلم في فهم بعض الحقائق البسيطة التي تتعلق بحالة السوائية عند الناس هي حقيقة أن هناك تدهوراً سريعاً في القيم الأخلاقية، تدهوراً يجرف كامل الجنس البشري في تقهقر حقيقي للأخلاق، حتى أن ماكان يعتبر انحرافاً قبل خمسين سنة أصبح اليوم يعتبر طبيعياً. وعندما يريد الإنسان أن يبرر رذائله، أو أخطاءه، أو جرائمه، فإنه يلجأ إلى المناروة بمفاهيم الأخلاقية، محتجاً بأن ذلك هو "السواء،" مهما كان شاذاً أو منحرفاً في الواقع. ومن الطبيعي أن يتفق كل من يشعرون بالانجذاب إلى أنماط سلوكية منحرفة على أن تلك الأنماط طبيعية تماماً.

ومع أن عادة سيئة قد تنتشر على نطاق واسع ويقبلها كل واحد، فإن هذا لايعني أن هذه العادة سوية بالمعنى الأسمى للكلمة. ومن سوء الحظ أنه إذا ماتبنى النوع بكامله عادة، فإن تلك العادة، مهما كانت شاذة، ستكتسب صفة" السوائية." ولكن من السهل أن ندرك أن هذه السوائية لاصلة لها بالسوائية الحقيقية.

فعلى سبيل المثال، لنفترض أن كامل النوع اتفق فعلاً على ممارسة العادة السرية كشكل مثالي للجماع، الذي فيه يتم جمع المني من أجل الإخصاب في الأنابيب. فلا شك في أنه ستأتي اللحظة التي فيها يتعرض من يمارسون الفعل الجنسي السوي إلى الظلم أو العقاب، وسوف ينسى الناس يوماً ما كيف يمارسون الجنس فعلاً.

ومن حسن الحظ ألا يكون الانحراف الذي أتحدث عنه هنا موجوداً، ولكنه بالتأكيد حدث في الماضي بطريقة مماثلة في مجالات أخرى من الحياة البشرية، وقد يكون جزءاً مهماً مما نعتبره اليوم "سويا" كان، في الواقع، شاذاً، أو منحرفاً، أو منحطاً فيما مضى. وقد أشرت إلى أن الإنسان العادي بعيد عن كونه سوياً، إذا تخلينا عن المفهوم الإحصائي للسوائية وركزنا على "السوائية المثالية" لـ الطبيعة. والحقيقة هي أن الإنسان العادي "ناقص" في الواقع، والناقص يكون غالباً شاذاً.

إن القدرات التي تستحق أكبر قدر من التقدير التي يمكن أن يتوق الجنس البشري إلى التمتع بها هي في حالة كمون لاغير، ويمكن تنشيطها فقط عن طريق الارتقاء الفردي

الحقيقي. ومن منظور العواطف، فإن العادة السرية هي انطواء على الذات برضى أناني يتوضع عند القطب المقابل لتعاطف المرء مع زملائه واهتمامه بهم، وهي عقبة خطيرة في سبيل التطور الصحيح للـ "أنا." فالنمو الروحي لايُضاهى بالاستمناء أو الرذائل الأخرى، لأنه يتطلب تقوية مناسبة للشخصية والإرادة، وهو أمر غير ممكن إذا بقي الفرد عبداً لعواطفه.

وفيما يتعلق بالحب، فإنه لايمكن أن أدرك كيف يمكن للمستمني أن يدرك الحب بمعناه الحقيقي، إن لم يكن عن طريق النضج الحقيقي، الروحي والعاطفي، لأن الحب مزيج من التنازل، والفضيلة، والوعي الأعلى.

يمكن بسهولة التغلب على رذيلة العادة السرية، وذلك عن طريق تهذيب الإرادة والدخول في علاقات حب حقيقي مع شريك من الجنس المقابل. ولكن هذا يقتضي من الفرد أن يتغلب على ميوله الأنانية لكي يتعلم كيف يهب نفسه ويكتسب الحق في تسوية عاطفية وسط في العلاقات الزوجية.

ملاحظة (انظر الملحق بخصوص التجربة العلمية فيما يتعلق بالضرر الذي تسببه العادة السرية).

علاقات ضد الطبيعة

هناك أشخاص ينحرفون بمجرى نشاطهم الجنسي فيستسلمون إلى علاقات ضد الطبيعة. ومن بين هذه الانحرافات الجماع الشرجي الذي تزايد إلى حد بات معه يعتبر مجرد "تنويع جنسي،" وسوي كأي جماع آخر. ويبدو أن نوعاً ما من "حمى دماغية" انتشرت لتقود أناساً إلى ممارسة الفعل الجنسي بأجزاء غير مناسبة من الجسد، وبهذا يعارضون اللهوالطبيعة، اللذين زوداهم بقنوات صحيحة عضوياً للملامسة الجنسية. إن الشخص المريض أو المضطرب عقلياً فقط هو الذي يرغب بمباشرة هذا الفعل بالقناة نفسها التي وُجدَت بصورة طبيعية لطرح الغائط، ثم إن من يستسلم سلبياً لهذا الفعل، لابد أن يكون مضطرباً عقلياً أيضاً. ويحق للمرء أن يسأل مانوع هذه الرغبة الجنونية التي تقود كائناً إنسانياً لرفض جسد وأعضاء منحها له الله وفقاً لنوعه الجنسي، كما يحدث، مثلاً، مع ذكور يلتمسون التحول إلى إناث عن طريق الجراحة، أو إناث يرغبن بامتلاك أعضاء تناسلية مذكرة، مما يعني التنكر لخاصيتهم الجنسية.

إن مـن يطلب الملامسـة الشـرجية يحـوِّل النشـاط الجنسـي إلى مجـرد مسـألة تناسـلية وميكانيكية، كالتكملة بين المسمار الملولب والصمولة، على افتراض أن الجماع هو مجرد إثارة مادية لأعضائه. وهكذا، يُشطب الحب، والرومانسية واحترام المرء لنفسه وللجنس الآخر بضربة واحدة. وبالمثل، فإن الجمع بين العضو المذكر والغائط هو مزيج قذر، ولكننا نعرف أن هناك كثيراً من الأفراد الذين يشعرون بجاذبية إلى هذه الرذيلة أو إلى أي شيء يحط من قيمة القنوات الطبيعية أو يفسدها، وتقع مسؤولية تعليل هذا الاضطراب على عاتق الأطباء النفسيين. وبما أننا نعيش في مجتمع يسوده النفاق، فإن هذا الموضوع لايُطرَح عادة. ولكن، عند دراسة الأخلاقية، لايمكن إغفال هذا النوع من السلوك، وإلا فإننا سنتعرض، بمرور الزمن، إلى خطر الظن بأن انتهاك الطبيعة سويٌّ تماماً كاحترامها، وربما ننسى أيضاً ماهو الجنس السوي، كنقيض للنشاط الجنسي الشاذ.

وبذريعة احترام الحرية الفردية، ربما كان هناك قدر كبير من التساهل فيما يتعلق بهذا الموضوع، وقد يشب الأطفال في خضم غموض تام أو جهل مطلق للسوائية الجنسية. ومن الواضح أن الفرد الذي يرغب في أن يكون منحرفاً، من خلال ميوله الخاصة، فسوف يكون له ذلك، في كل الأحوال. مع ذلك، أظن أنه من المهم أن يعرف الناس كلفة الانحراف، لأن هذه المعرفة فقط يمكن أن تساعد على تقييم نتائجه الحقيقية.

ومن المنطقي أن يظن الرجال من ذوي السلوك الغريزي الصرف أن الخاصية الجنسية عند الإناث هي مجرد "تجويف" يقدم اللذة، أو فتحة لاتختلف عن أي شق آخر عند الحاجة. وهم، بهذه المقاربة، لايفتقرون فقط إلى احترام النساء والإنسانية بل يحتقرونهما، ولكنهم أيضاً ينزلون بأنفسهم إلى مستوى البهائم. وعلى أية حال، فإنني لاأظن أن أياً من هذه الاعتبارات أو غيرها، وإن بدت غريبة، يمكن أن تحمل من انزلق إلى رذائل مضادة للطبيعة إلى التخلي عن ممارستها. ويحدث شيء من هذا في إدمان التدخين. فالمدخن يعرف أن التدخين يمكن أن يسبب السرطان أو أمراضاً أخرى، ولكنه، على الرغم من ذلك، يواصل التدخين، لأنه لايتمتع بقوة الإرادة الضرورية أو لأنه يخدع نفسه بأنه لايتمتع بتلك القوة. إنه، في داخله، يحتال على نفسه لكي يواصل التدخين، وهو يدرك تماماً مدى الضرر الذي يسببه، ذلك لأن عالمه الداخلي لايدرك حقاً ولا يسلّم بالتأثيرات المدمرة للتبغ.

هناك خصوصية غريبة إنسانية طالما بعثت في نفسي الدهشة هي حقيقة أن الإنسان

يمكن أن "يعرف" شيئاً ما ومع ذلك لايجسده، لأنه لايفهم بعمق المعلومات التي يتمتع بها. وهذا نوع من المعرفة والجهل في آن معاً، ولذلك لايهتم الناس بما يفعلونه وما يعرفونه، نظراً لعدم وجود علاقة سبب ونتيجة بين المسألتين. وهذا هو أيضاً سبب عدم اهتمامهم بمعرفة الحقيقة الأصلية فيما يتعلق بالمسائل الأساسية في الحياة، لأن الحقيقة تفرض على المرء أن يلتزم بها لكي يعمل باهتمام، وقد يعني تغييراً تاماً في السلوك والعادات، مما يحرم الفرد من اللذة الشاذة أو المنحرفة التي يحققها من أوضاع "غير لائقة،" او لاأخلاقية، أو منافية للحشمة.

إن من يمارس الجماع الشرجي لايرى فيه شيئاً غير لائق، باستثناء الحظر الأخلاقي والرفض الاجتماعي، ولا يعتبره شكلاً مختلفاً عن الجماع الطبيعي. ولكن، من المؤكد أن الطبيعة الخلاقة لأي فعل جنسي تؤكد أن النتيجة المباشرة الشرجية ستكون "وليداً مغنطيسياً" يولد من مزيج من الطاقة المغنطيسية للقضيب والشرج.

لاحاجة إلى التفكير كثيراً بهذه المسألة لكي ندرك الطبيعة النوعية لهذه النزوة، التي يتكون أحد قطبيها المبدعين من إشعاع مغنطيسي للقضيب، الذي هو القناة الطبيعية التي تستخدم للجماع، والقطب الآخر هو مغنطيسية الشرج، الذي هو قناة التصريف للجسم، التي تستخدم في هذه الحالة كبديل شاذ للمهبل. فما نوع المخلوق الاهتزازي الذي يتكون باستخدام قناة يُطرَح منها الغائط كواحدة من نهايتين قطبيتين مبدعتين؟ إن ثنائية كل ماهو موجود تُظهِر أن أية مادة حية تحمل نظيراً طاقيّاً في حالة اهتزازية مكافئة، كما هي حالة مجالات الحياة، التي تنسجم مع العضو أو الجهاز الجسدي الذي ترافقه.

وفي هذه الحالة، يتم إنجاز فعل الخلق الطاقيّ باستخدام القذف المغنطيسي لقضيب الذكر والشرج، الذي هو القناة لطرح النفاية العضوية، وبهذه الطريقة، إن من يقوم بهذه المناورة، فسوف يخلق ذرية طاقيّة، هي ثمرة القذف المغنطيسي لعضو الذكر والمغنطيسية التي تشع عن طريق عمل كساحة المجارير.

ومع أن هذا الخلق حقيقي فقط في عالم الطاقة، فإن الشيء نفسه يحدث فيما يتعلق بطفل من لحم ودم، أي، طفل يعيش في مساكنة قريبة مع والديه.

إن الثمن الذي يدفعه من يدمن هذه الممارسة التي نتحدث عنها هو أنه لابد من أن يترافق دائماً بكائن ينبثق من بذرته الخاصة الطاقيّة، هو نزوة ذات طبيعة منحرفة يسيطر عليها، في هذه الحالة، الجانب الظلامي من القوة الكونية. وهذا الخَلْق سيثير بالتأكيد الاضطراب في حياة ذريته.

هناك مثل أسباني شائع يقول إن "الشيطان يلعب بذيله" في الإشارة إلى مثل هذه التعقيدات الفاحشة أو العقبات المفاجئة التي تظهر، بالضد من مخططات الناس. ومن المحتمل جداً، في هذه الحالات، الا تكون المسألة بدقة "ذيل الشيطان" بل مسألة "حافز الذرية المغنطيسية" الذي ينشأ من التضاد مع الطبيعة.

إن تطور البحث حول المغنطيسية والتقنيات الشبيهة بالتصوير الفوتوغرافي لكيرليان Kirlian، التي ستتعمق في القرن الحادي والعشرين، سوف تساعدنا على إثبات أن الطبيعة الخلاقة للقذف المغنطيسي من الكائن الإنساني، أي تناغمه الاهتزازي الأساسي، الذي يمكن أن يكون حباً أو حقداً، مثلاً، يمكن أن يؤثر على الكائنات الحية إما بشكل بنّاء أو تخريبي. وأقصد أنه لايوجد شيء في الفيزياء الحديثة يناقض هذا القول. وعلى العكس، هناك ثقة تامة بكل شيء أقوله في هذا الكتاب حول المغنطيسية، أما البرهان عليها فقد تعرض، لسوء الحظ، للحجب، والتحامل، والتجاهل، كما يحدث دائماً مع المكتشفات الحديثة والمختلفة التي تخضع عادة للتلاعب بحيث تبقى مجهولة.

يجب على المرء أن يتخلى عن "الخرافة العلمية" وغرور اللحظة، لكي يسلّم بإمكانية الرؤية الباطنية للواقع التي تتجاوز الفصل بين المادة والروح. وقد سلم بهذه الإمكانية سابقاً عدد من العلماء من أمثال هايسنبرغ، وشرودنغر، وبلانك، وآينشتاين، وبولي، وإدنغتون، وكُويْستلر، وغيرهم. وكما يقال، "القليل من العلم يحمل الفرد إلى الغرور، ولكن علماً أكثر كمالاً وعمقاً يحمله على التواضع." وأظن أن أي عالم يتمتع بقدر كاف من التواضع الداخلي، سيكون مستعداً للانفتاح على دراسة حقائق جديدة بطريقة غير متحيزة، ولكن التحامل العلمي الخرافي الذي يحمل المرء على الإيمان بمعرفة علمية ثابتة وقاطعة، كما قال أحدهم، يمكن أن ينسيه أن "العلم هو حقيقة اليوم وكذبة الغد."

يجب أن نضع في اعتبارنا أنه، في كتاب حول الأخلاقية، لايمكن للمرء أن يتفادى موضوعاً يثير الجدل كهذا الموضوع، ويجب عليه أيضاً أن يدفع الثمن لأن كثيرين قد يشعرون بالأذى. وعلى أية حال، يمكن الا يكون الاهتمام بمشاعر الآخرين مهماً بما يكفي لحجب الحقيقة، ومن واجب كل فيلسوف حقيقي أن يعلن هذه الحقيقة.

إن الهدف الوحيد الذي أسترشد به في هذا الفصل هو شجب عقابيل الجماع الشرجي، ولا أقصد الإساءة إلى أي شخص أو الحط من قدره. تمر في حياة بعض الناس أوقات، تقع فيها

حوادث فظيعة وتعزى فقط إلى المصادفة، على الرغم من أن منشأها الحقيقي يمكن أن يكمن في بعض الحالات، في آليات التكوين الذاتي اللاواعي لقوى تدميرية تشوش مجالات الحياة عند الناس وبيئتهم، أو تفككها، أو تفسدها. إن قوانين القرابة والتحريض المغنطيسي تجعل من الممكن بالنسبة لشخص ما أن يؤثر، دون دراية، على تنظيم بيئته الطبيعية، أي يشوش أحياناً مخطط القوى التي تحافظ، بطريقة ما، علىالنظام، أو الوضع، أو تؤثر على المستوى المادي وحوادثه.

وتدهشني الطريقة التي فيها يفصل عدد كبير جداً من الناس المثقفين الأذكياء بين المادة والطاقة، مفترضين أنهما توجدان في حجيرات منفصلة في حين أنهما، في الحقيقة، متداخلتان دائماً. ويقودهم الافتراض الذي أتيت على ذكره إلى الإنكار بشكل ثابت أن سبب الحقائق المجهولة المنشأ، التي يمكن أن تعزى إلى المصادفة، ربما يكمن في الصفقات المعقدة التي تحدث في مستوى معين لـ الطبيعة، لأن هذا المستوى "فيزيائي" (بمعنى الفيزياء) ولكنه غير مرئي.

إن الناس الذين أتيت على ذكرهم أعلاه قد يظنون أيضاً أن استنكار هذه "العادات السيئة" -لنقل على الأقل- يمكن أن يستجيب إلى مقاربة قديمة الطراز أو تقليدية جداً، مقاربة تم إقصاؤها من التقدم والحداثة. وإذا كانت هذه حالتي، فإنني أشعر بارتياح كبير بها ويسعدني أن أكون قادراً على الالتزام بالقيم التقليدية والمتسامية. وأريد أن أؤكد وأشدد على أن الجماع الشرجي هو انحراف عن الطبيعة، وأنه رفض مخجل للمهبل والرحم الأنثويين، تمارسه عقول مضطربة. إن الكأس المقدس لدى النساء يمكن أن يدنسه الفرد الذي يمارس الجماع الشرجي أحياناً أو اعتيادياً ويعجز عن التفريق بين الفتحتين. ولدي القدرة على مواصلة الحديث حول هذا الموضوع الحساس لفترة طويلة، لولا أنني أفضل التحدث بإيجاز عن نوع آخر من العلاقة المضادة للطبيعة، هو الجماع أثناء الطمث. فباستثناء بعض الديانات الشرقية، لم أسمع ابداً أن أطباء، أو قسساً، أو باحثين أخلاقيين أدانوا هذا النوع من العلاقة. وما سمعته من اعتراضات عامة لايعدو كونه نصائح مناسبة للصحة في العملية، وأعرف رجالاً يفضلون العلاقة الجنسية خلال هذه الفترة. وأريد أن أذكر معتقداً قديماً مقتبساً من نصوص هندوسية ونصوص أخرى، يقول إن المرأة تكتسب جاذبية ملحوظة بالنسبة للرجال أثناء العادة الشهرية، وهو مظهر لاتصعب ملاحظته على المراقب اليقظ. فكان يقال في العصور الماضية أن المرأة

تحكمها أو تسيطر عليها، خلال دورتها الشهرية، قوى غريبة، قوى هي، على وجه الدقة، التي تمنحها تلك القدرة على الجاذبية. مع ذلك، يمكن للمرء أن يميز بطريقة ملتبسة وغائمة بأنه "يجب الا يستسلم لهذا السحر،" لأنه يخضع لنوع من قوة ظلامية نواياها غير مشكوك فيها. فالفلاحون التشيليون يؤمنون بأنه يجب ألا تحدق المرأة في أية محاصيل مزروعة، لأنها إذا فعلت، فإن تلك المحاصيل يمكن أن تتعرض لليباس والموت. ويبلغ هذا الاعتقاد مدى من الشمولية يدفع الفلاحين إلى زراعة سواتر من نباتات أكبر، كالذرة، لحماية المحاصيل الحساسة لتحديق النساء.

وفي أمكنة أخرى كثيرة، جرت العادة على أن تمتنع المرأة عن العمل في الأرض أو بذر الحبوب أثناء الدورة الشهرية. ومع أن من يعبدون العلم الشكلي إلى حد خرافي وكأنه إله لايُمَس قد يسخرون. والصحيح، مع ذلك، هو أن هذه العادات تعتمد كلياً على أساس علمي. فالاكتشافات الكبيرة لم تبدأ عندما تبناها العلم؛ بل كانت دائماً موجودة في الطبيعة، محجوبة عن معرفة الإنسان. والعلم، في الواقع، لم يكتشف ولم يخترع شيئاً، ولكنه اكتشف فقط ماكان موجوداً سابقاً في ذاكرة الطبيعة. فالكهرباء لم تبدأ مع الإنسان؛ ولكنها كانت دائماً موجودة. وكل مايمكن أن يظهر إلى الوجود، في هذه اللحظة بالذات، له واقعه الخاص في الطبيعة، على الرغم من عدم رؤيتنا له.

تستجيب دورة الطمث عند الأنثى إلى عملية التخلص من مغنطيسية جسدية قديمة مستنفذة، تحمل نبوضاً طاقيّة سلبية لفضلات خلوية؛ وهي دورة الراحة الجنسية التي يجب احترامها بقدر ماتستجيب لمرحلة الاطّراح والتجديد. فالنساء يتجددن كل شهر عن طريق طرد الفضلات الطاقيّة من خلال دم الطمث، الذي يختلف عن الدم العادي، لأنه مشبع بالمغنطيسية السلبية، كما هو ثابت من البحث الذي نجده في الملحق في نهاية هذا الكتاب. فإذا كان الدم العادي ضمن التأثير الحيوي لإيروس Eros[1] وامكن اعتباره نقياً، فإن دم الطمث غير نقي، لأنه يحمل اهتزاز الموت، والاستنفاذ، والفضلات. فالدم العادي يستجيب للجانب النيِّر من القوة، في حين يستجيب دم الطمث للجانب المظلم منها.

ولهذا السبب، يمكن أن ندرك أن المرأة تتأثر أثناء دورتها بالجانب المظلم للقوة الكونية، وأن دمها يكون ملوثاً لأنها تطرح بواسطته الجزء السلبي من فضلاتها العضوية.

1-غريزة الحب عند فرويد، أو إله الحب عند الأغريق، ويمكن أن نقول غريزة الحياة-المترجم.

وتحظر بعض المبادىء الدينية في الديانة الهندوسية أية علاقات جنسية مع المرأة أثناء الحيض، على اعتبار أنها دنسة، وتحمل قدرة ملوّثة في تلك الفترة.

وفي الواقع، يسبب الجماع أثناء الطمث حالات ضارة بشكل ملحوظ بالزوجين، لأن هذا الجماع، علاوة على أنه قذر من الناحية الأخلاقية، فإنه يؤدي إلى عملية خلق أساسها الرذيلة. ومع أن القناة الطبيعية هي التي تستخدم، إلا أنها تكون في فترة طرح النفايات المتبقية، التي تكون مشبعة بمغنطيسية سلبية، وقذرة، وملوثة، ومستنفذة. والحقيقة هي أن هذه المرحلة التي تستجيب لتظاهرة الجانب المظلم من القوة تؤدي إلى جماع يضعنا على تماس مع الطاقة الكونية المدمرة. فالذرية الطاقيَة التي يتم إنجابها بهذه العملية ستكون موسومة بعلامة الضلال، وسوف تؤثر سلبياً على حياة خالقيها. إنه تصرف غير ملائم من وجهة نظر أخلاقية وفيزيولوجية، وممارسة ضارة لمجالات الحياة عند الأزواج التي هي مجالات حيوية، مساهمة أو مشتركة. فلو قيِّض للأطفال أن يتكونوا يدوياً من قبل الآباء من مواد شتى، كما يصوغ النحات جسداً، لطرحت على نفسي السؤال التالي: من يريد أن يكون بمثل هذه الدرجة من قلة الذوق فيخلق شيئاً من مادة نفاية؟ مع ذلك، هذه هي حالة الفعل الجنسي أثناء الطمث-ليس هناك ذرية مرئية، بل هناك، في الحقيقة، ذرية طاقيًة تولد من طاقة نفاية، مجال مغنطيسي سوف يؤثر سلبياً على مصير الآباء، الذين يرتكبون الخطأ ضد نقاء الطبيعة وتناسقها.

ملاحظة: (انظر ملحق التجارب العلمية حول الضرر الذي يسببه الجماع الشرجي والعلاقات الجنسية أثناء الطمث).

الزنى

وفقاً لبعض المبادىء الدينية "الزواج لايُفصَم وعلى الزوجين أن يبقيا موحدين حتى الموت." إنه عبء ثقيل حقاً، يستلزم سلفاً رؤية واضحة استثنائية لاختيار الشريك الصحيح، وتنزهاً كبيراً من الخطأ وصبراً لتحقيق الانسجام بين مختلف الصفات والتغلب على التقلبات اليومية في الحياة. إن انتهاك الإخلاص الزوجي مألوف عند نسبة عالية من الأزواج المتزوجين بصورة طبيعية من مختلف الطبقات الاجتماعية، وعندما يحدث هذا، يدور الحديث مباشرة حول الانحطاط الأخلاقي عند بعض الناس، ولكن الأسباب الحقيقية لهذا السلوك لايجري أبداً البحث فيها بصورة واقعية. ولا النماذج المختلفة للزنى يتم تصنيفها وفقاً لخطورتها.

أظـن أن المـرء لايمكـن أن يطلـق أحكامـاً عامـة حـول هـذه المسـألة، ويمكـنه فقـط التحدث عن حالـة شخص ما يجب أن تُعزى دوافعه بالتأكيد إلى أسباب مختلفة. ويحدث عادة أن تكـون فكـرة الإخـلاص الـزوجي محـدودة بمقصـورية الملامسـة الجنسية لجسـدين. فيتعهد كـل شـريك بمـنح مقصـورية جسـده لشـريكه. ولكـن أحـداً لايقـول شيئاً حـول مـايدور في أفكارهمـا ومشـاعرهما. فمـا الـذي يحـدث، مثلاً، مع شخص مخلص جسدياً ولكنه زان في تفكيره وشعوره؟ ألا يمكـن أن يكـون نمـط الخيانـة الـذي يثقل القلب، والـروح، والـتفكير أكثر خطورة من ذاك الذي يؤثر فقط على الجسد المادي؟ فعلى سبيل المثال، مامن أحد يطلق اسم "زنـى" علـى التسـافد الـذي تمارسه الحيوانات دون تمييز، لأنها لاتتمتع بالوعي الذي تتمتع بـه الكـائنات الإنسـانية. ولهذا السـبب، يمكـن اسـتخدام الكلمة "زانٍ" فقط لوصف الكـائن الإنساني، لأنه من المفترض أنه يتمتع بحرية الإرادة.

فهل يُعتبَر الـرجل مخلصـاً أم زانيـاً إذا كـان يحـترم المقصـورية الجسـدية ولكـنه، في الوقت نفسـه، يـرغب في عدد كبير جداً من النساء، ويشتهيهن كل يوم، ويستحضـر صورهن أثناء الجمـاع الـزوجي؟ وهـل يقتصـر الفعـل الجنسـي فقـط علـى الملامسـة الجنسية؟ ألا تُعتبَر الدوافـع الشـبقية أيضـاً نوعـاً مـن الفعـل الجنسـي؟ ومـاذا عـن إخـلاص الـزوجة؟ الـزوجة الـتي تواصل، على الرغم من إخلاصها، حلمها بأميرها الفاتن، أو التي ألفت الالتقاء بالرجال الذين تشعر بانجذابها إليهم، في حين لايحتل زوجها مكاناً في خيالها الشبقي-هذا الخيال أكثر حدة من الفعل الحقيقي- بل، على الأصح، تحتله صور الأشخاص الذين تشعر بجاذبية نحوهم.

قد يحتج بعضهم بـأن الرغبة في شـيء وعدم العمل مـن أجل تحقيق تلك الرغبة شيء، والعمل بفعالية مـن أجل تحقيقهـا شـيء آخـر. هـذا صـحيح تمامـاً، ولكـن بمعنـى يختلف عمـا يمكـن أن نظـن، لأنـه عنـدما توضـع رغبة موضـع التنفيذ، فإنهـا يمكـن أن تخيب الـتوقعات المبالغ فيها فتتراجع وتنتهي في اللحظة ذاتها. وعلى العكس، يمكن أن تبقى الرغبة الخيالية غير المشبعة نشيطة طوال الحياة، فتصبح، في هذه الحالة، أحياء مستورين" للشخص. وكلما كـانت هـذه الخيـالات أطول أمـداً، كـانت السلطة التي تمارسها على الشخص أكبر، وميله إلى الإفـراط في تقييم السـعادة واللـذة الـتي توفرها تلك الصور أقوى، وكذلك ميله إلى نقد أو تجريح علاقة لم يحافظ عليها في الواقع.

لاشـك في أن هـذا الطـرح لايمكـن أن يـبرر الـزنى. فهنـاك الكـثير مـن النـاس الذيـن

يبدؤون بحب الشريك عندما يفقدونه، لأنهم، قبل ذلك، كانوا يخضعون لأحلامهم الشبقية، أي أحبابهم العقليين الحقيقيين الذين عملوا، عن طريق أغاني حوريات البحر، على إضعاف وعيهم لصفات شركائهم. وهناك من يعتبر أن الخيانة تصرف يقتصر على الرجال، ولكن الإحصائيات تكذب ذلك، لأن نسبة الرجال إلى النساء في هذه المسألة لاتختلف كثيراً.

وهكذا، تنتفي خرافة أن الحاجات الجنسية عند النساء أقل منها عند الرجال. وما يحدث هو أن للنساء أنماطاً مختلفة من النشاط الجنسي الذي يتم إشباعه بطرق مختلفة. فالدافع الأقوى للزنى عند الذكر هو عادة عدم الإشباع الجنسي، في حين أن الدافع المسيطر عند الأنثى هو الافتقار إلى الحنان. ولكن المنشأ الحقيقي للزنى، دون أدنى شك، يكمن في حقيقة كون الرجال والنساء غير مهيئين للزواج، وبالتالي يصبحون أزواجاً سيئين من وجهة نظر تقنية. وليس بينهم من يتمتع بمستوى الوعي اللازم لممارسة حب حقيقي، حب أبعد مايكون عن زهرة برية، بل هو ثمرة فن يجب تنميته بعناية ومثابرة.

لن يكون هناك زنى لو أن الزوجين يعرفان فعلاً كيف يمارسان فن الحب، وهذا التعبير لاعلاقة له بكتب البحث الجنسي الكاذب التي تنصح فقط بأفضل أوضاع الجماع. فالحب الحقيقي أبعد بكثير عن الحب التناسلي الصرف، مع أنه يكتمل بالجانب الجسدي.

وما يُدعى بـ "الحب" هو عادة ليس أكثر من جاذبية شهوانية لجسدين، تُطلِق أعنَّتها عوامل كيميائية (فيرومونات pheromones[1]) وليس اهتزازاً متناغماً للروحين اللتين، عندما تلتقيان، تبتهجان في توقع متبادل. يحتاج فن الحب إلى عملية طويلة من التدريب والتركيز على التنمية الروحية للشخص، وهي الوسيلة الوحيدة الصحيحة لتنمية وعي أعلى، هو مصدر الحب الحقيقي.

أظن أن هناك تناسباً بين الحب الحقيقي والنمو الروحي عند الفرد، وأنه مالم يبلغ المرء هذه المرحلة من الارتقاء، فإن أية محاولة للحب سوف تُختَزَل إلى مجرد تقليد لشيء يلوح فقط في مستوى الخيال. فعلاقة الحب الحقيقي العميق تشترط وعياً عالياً عند كل من الرجل والمرأة. وفن الحب ليس أكثر من مَلَكَة لممارسة المرء لروحيته الخاصة في مجال الجماع والعلاقات الإنسانية.

1-مادة يفرزها جسم الفرد إلى الخارج ويميزها (من رائحتها) فرد آخر من النوع، فتولّد عند هذا رد فعل محدد-المترجم.

يجب أن نحلل الخيانة الزوجية من منظور عدم النضج والافتقار إلى توسع الوعي. فالزنى، أكثر من أي شيء آخر، يعني خيانة الثقة التي وضعها الزوجان كل منهما بالآخر. وهي ليست مجرد انتهاك للمقصورية الجسدية، ولكنها خرق لميثاق الشرف المعقود بين الطرفين. وكما في كل المسائل الأخلاقية، فإنني أظن أن هذه المشكلة تُعزى أساساً إلى حقيقة أن الأنظمة الأخلاقية معممة لاستخدام الجميع، ولما كان الناس غير متماثلين، فإن مايفيد أحدهم قد لايكون مفيداً لآخر، وتستثنى من هذا السياق تلك المعايير الأصغرية المصممة لتفادي العادات المعيبة، أو حماية النواة الأسرية، أو ضمان الحقوق الفردية، أو تحسين المساكنة والأمان الشخصي للناس. واشير هنا إلى حقيقة أن الفرد يفتقر عموماً إلى أية قدرة للتمييز بين الخير والشر، وبين ماهو صحيح وما هو خطأ، وهو عادة يحاكي عادة عادات الأكثرية، التي هي بالمناسبة لاتجذب الانتباه بسبب عقلانيتها وكمالها، بل، على الأصح، بسبب افتقارها إلى وعي أعلى.

والفرد لايضع نفسه عاطفياً في موضع الآخرين لكي يحترم حقوقهم ويقدر تطلعاتهم الأساسية حق قدرها. فالشرف، بمعناه الأسمى، يعني أن يرعى المرء الثقة التي وضعها فيه الآخرون، كما لو كانت كنزاً ثميناً، ويهتم باستمرار بعلاقاته مع الناس بما يتفق مع مفهوم المكافىء المساواتي. هنا، يمكن فقط للأفراد الذين يتمتعون بوعي أعلى كامل النمو أن يطبقوا هذه المبدأ الحكيم، لأنهم يعون حقوقهم الخاصة ويمكنهم أن يوفقوا بين هذه الحقوق وحقوق الآخرين.

وكما نرى، فإنه ماكان يمكن للمشكلات من أي نوع أن تظهر في العالم لو كان أكثر سكانه يتصرفون بهذه الطريقة. ولما كان هناك وجود للزنى، بالمعنى العميق للكلمة، ولا حتى للمجاعة، أو الحرب، أو انتهاك القوانين، أو العنف. والزنى واحد فقط من الأوجه الكثيرة للنقص الإنساني، وأن نحاربه باستخدام اللعنات الدينية أو الأخلاقية هو مجرد حل موقت للشقاء الفائق عند الإنسان العاقل-افتقاره الكلي للنمو الروحي، لأن المحتوى الداخلي للإنسان (محتواه أو خصوصيته الروحية) لم يختلف كثيراً منذ نشوئه حتى الوقت الحاضر. وفي الحقيقة، عندما نتكلم عن "نمو روحي،" فإنه يبدو لنا أن مكيدة ظلامية سرقت معنى هذا التعبير في مرحلة من مراحل التاريخ، لأنه عند استخدامه، تخترق الظلمة عقول الناس، الناس الذين لايعرفون ماهو والذين يكتفون باستخدام أوهامهم الفردية لتعريفه أو لوضعه في خانة التسميات التي تستخدمها عادة مختلف الثقافات.

يـربط بعضـهم هـذا المحـتوى بـالدين، ويـربطه آخـرون بالتخـلي عـن السـلع الماديـة، والغيبيات، والباطنية، والتحري النفساني[1] parapsychology، والعرافة، وحتىالاحتيال، ولكـن قلة قليلة جداً تحمل فكرة جيدة عما يعنيه النمو الروحي حقاً، أي، الارتقاء الحقيقي للوعي الفردي، مع كل مايتطلبه ذلك بالمعنى التقني اللاخرافي أو الصوفي الشبيه بالأحلام.

وحيـثما كـان هـناك فـرد مـتطور حقـاً، فإنـه سـيولي اهـتماماً جيـداً لـلالـتزام بمـبدأ المكافىء المساواتي في علاقته مع شريكه، لأنه سيتمتع بصفة روحية كافية لتقييم تصرفاته وتصـرفات الآخـرين في العمـق وبإنصـاف، دون مبالغة أو تقصير بما يوافقه أو يوافق زوجه بقدر ماتكون الواجبات والحقوق معنية، بعيداً عن أي تفسير أناني.

الـزوج لـن يخـون أنيسـه، أمـا الـزوجة، إذا مـاقُدِّر لهـا، لسـبب مـا، أن تستسـلم لإغـراء الـزنى، فـإن الـزوج ينبغي أن يعرف كيف يحتفظ بهدوئه ويتجاوز المشكلة بالتعاون معها، دون إلحـاق الأذى بالأسـرة أو الأطفـال. وعلـى الـرغم مـن ذلك، فإن "المكافىء المساواتي" يدل ضمناً علـى تـوازن عـال عند الزوجين بمعنى الوعي الفردي، لأنه في الزواج، كما في كامل المجتمع، يقـدم كـل واحـد مسـاهمته، سـواء كـانت مهمـة أو قليـلة الأهميـة، وإذا كـانت دون الحـد المقبول، فإن هـذا يعني أن أحد الزوجين فقط هو الذي يحمل عبء كامل العلاقة في حين يبقى الآخر كحمْل سـاكن.

إن عدم النضـج عند أحد الطرفين يمكـن أن يكـون سبباً في أن يكون أهم إسهام له في الـزواج بالجسـد فقـط، أو رعايـة الـبيت، وهـي حالـة يصـعب فيهـا المحافظـة علـى المسـاواة. ويمكـن أن ندرك أن الطرف الذي يسهم بدرجة أقل للزواج، بمعنى التكامل، إنما هو يمارس الـزنى، وهـذا أكـثر خطـراً مـن الخيانـة، تمامـاً كمـن يديـن لشـخص ما بمبلغ من المال وعلاوة على ذلك، يسرق جزءاً من ممتلكات ذلك الشخص؛ أو كمن يتلقى مساعدة أحدهم أو عطفه فيكافئه على ذلك بخيانته.

ومـع أنـنا ندرك أنه لايمكن أبداً تبرير الخيانة والزنى، فإن اقترافهما في سبيل "التفريج عـن الـنفس" تحـت تـأثير ضـغوط نفسـية لايمكـن تحملها، يعتبر ظرفاً مهماً مخففاً. فعلى سبيل المـثال، هـناك حـالات فيهـا يـزعج الـرجل زوجـته ويسـيء معاملـتها، فتـنزلق بسهولة إلىالخيانة، لأنها تشعر بالاضطهاد.

1-فرع من علم النفس يبحث في التخاطر وغيره-المترجم.

وعندما تبتز المرأة الرجل، فتحرمه من ممارسة الجنس بهدف حمله على تنازلات مبالغ فيها لصالحها، فإنها تجازف أيضاً بدفعه إلى البحث عن بديل، وربما لن يستطيع أحد أن يلومه على ذلك.

وعندما يكون هناك افتقار للحب أو الرعاية من قبل أحد الطرفين للطرف الآخر، فإنه يُخشى من أن ينزلق الطرف المُتَخَلّى عنه إلى الزنى، وهو احتمال قوي جداً في مثل هذه الحالات.

يحتاج الناس العاديون (غير المطوَّرين) إلى دستور أخلاقي قمعي لصرفهم عن الزنى التهتكي، لأنهم لايتمتعون بالضبط الصحيح لأنفسهم للصمود على نحو ملائم للإغراء، ولا يتمتعون أيضاً بالقوة والصراحة الضروريتين لتحمل مسؤولية تصرفاتهم.

مع ذلك، يجب أن ندرك أن الحرمان الجنسي هو المدخل إلى الخيانة عند الرجل، والحرمان العاطفي هو بداية الزنى عند المرأة. هذا لايعني أن الجانب الجنسي ليس مهماً عند المرأة أوالجانب العاطفي عند الرجل؛ ولكنهما مجرد عاملين خطيرين في تسريع الزنى. ومجرد حقيقة أن هناك قواعد أخلاقية تدين الخيانة على اعتبارها تستحق اللوم تحمل الفرد على التساؤل حول ماإذا كانت هذه النصيحة، كأي شرط أخلاقي آخر، يجب أن تستجيب للدستور الأخلاقي أو تشبع حاجة داخلية للقيام بما هو عادل ومستقيم.

هنا تكمن عقدة الأخلاقية الإنسانية الحقيقية؛ أي حقيقة أن فرداً، أو مجموعة أفراد، تتمتع دائماً بصوابية الضمير الضرورية للتصرف دائماً وفقاً لما هو عادل ومستقيم، لاالأن هناك أية مجموعة من القواعد التي تتطلبها، بل، على الأصح، بسبب يقين داخلي بأن هذا هو السبيل الوحيد المعقول لتحقيق خير وسعادة ساميين. والتصرف الصحيح ليس سهلاً في ظل الفساد لأنه يتطلب عادة أن يتمتع المرء بالقوة الضرورية للشخصية لكي يتصدى للتيار أو ليشجب الظلم، أو اللاأخلاقية، أو الاستبداد وهو مالا يلاحظه الآخرون أو يتجاهلونه.

إن معارضة الفساد، عندما يصبح سلوكاً شائعاً، تعتبر عملاً بطولياً بالنسبة للشخص الذي يتمتع بعقل نيِّر، وهذا يمكن أن يضعه في موضع الثائر في نظر النظام القائم، الذي يكافئ التحشيد ويلوم أولئك الأبطال الذين يتحلون بالشجاعة والمهارة ويبذلون جهوداً جبارة للمحافظة على حريتهم العقلية واستقلالهم. تقدس ثقافة الحشود، على نحو أعمى، الرياء، وتصفق للدنسين الذين يشقون ملابسهم عندما يتعرضون للنقد أو يزيلون القذى من أعين الآخرين.

وعلى أية حال، يبدو أن الكائن الإنساني لايمكن أن يتحمل حياة خالية من النفاق، لأن هذه التصرفات تشبه حشوة لينة حول الـ "أنا" عند من يمكنهم بالكاد أن يتحملوا التماس مع الواقع.

واليوم، هناك رغبة كبيرة لفعل ماهو غير أخلاقي ومحظور، بينما يقوم الفرد، في الوقت نفسه، بتنفيذ المكائد الاستراتيجية من كل نوع، على المستويين الداخلي والخارجي، لتلميع صورته أمام المجتمع.

وينبغي أن أبيِّن أنه، بسبب الطريقة الأبوية لثقافتنا، يُنظَر إلى الخيانة الذكرية بعين متساهلة حتى أنها تعتبر تظاهرة للرجولة، في حين تتعرض الزانية عادة لمهانة غير منصفة. إضافة إلى أن المرأة تتسامح مع الخيانة المذكرة أكثر مما يفعل الرجل في حالة مماثلة. فالمرأة تسامح عادة، ولكن الرجل لاينسى أبداً، وبالكاد يمكن أن يشفى من تجربة تلحق المهانة بشوفينيته المذكرة.

يحملنا الرياء الشائع على اعتبار أنه من الطبيعي أن يشعر الرجل بالانجذاب إلى أية امرأة غير زوجته، وعلى العكس، ننتظر من المرأة ألا ترفع بصرها عن زوجها لأي سبب. ويفترض بعضهم أيضاً أن للخيانة منشأً وراثياً، ولكن دوافعها، في الواقع، مختلفة تماماً. وأكثر هذه الدوافع شيوعاً يمكن أن يكون السأم الذي تسببه العلاقات المفرطة في روتينيتها، التي تدفع الناس إلى البحث عن إحساسات جديدة. والمجرم الرئيسي الذي يسبب هذا الروتين عادة هي الاستهلاكية، التي تجبر الناس على العمل بجد أكبر ضمن جدول زمني صارم لتوفير المبالغ الضرورية لإشباع الحاجات. وعلى الرغم من ذلك، علينا أن نضع في اعتبارنا أن هناك نمطاً محققاً ضروري للاستهلاكية المخصصة لإشباع الحاجات الأساسية، ونمطاً آخر يمكن وصفه بالزائد أو المبالغ فيه، وتكمن المشكلة في أن المستويات الطبيعية للرفاه المادي التي تحتاجها الأسرة ترتفع باستمرار عن طريق مضاعفة العروض الاستهلاكية. وعندئذٍ يحدث أنه بعد استنزاف الأيام في العمل، لايبقى هناك حيز كبير للتغيير والإبداع في العلاقات الزوجية للفرد، وكثيراً مايشعر الناس بأن لديهم مايملأ بطونهم من الأنماط التكرارية. وإضافة إلى هذا، يأتي التعب والكرب، ويصبحان المدخل الأمامي للبحث عن صمام للإفلات الذي هو الخيانة في حالة الرجال، لأنها عادة تخلو من الروتين بسبب خصائصها الذاتية.

وهناك سبب آخر للزنى هو عدم الإشباع الجنسي للمرأة، بسبب الإيفاف المبكر للرجل، أو عدم التوافق بين الشهوات الجنسية عند الرجل والمرأة.

فالرجال الخشنون في السرير؛ والنساء اللائي لايستجبن لحاجات أزواجهن؛ والأفراد المفرطون في سلبيتهم الذين يتزوجون من نساء حادات المزاج؛ والافتقار إلى حب الشريك ورعايته؛ والرغبة في التغيير والمغامرة كلها من بعض الأسباب الأكثر تكراراً للزنى.

وهناك دوافع أخرى محققة كالحالات التي يعاني فيها أحد الطرفين من اضطرابات خطيرة في الشخصية، كما يحدث مثلاً للشخصية الحدِّيَّة، والفصامية، والمتقلبة المزاج، التي تجعل الحياة مستحيلة بالنسبة لمن هم حولها، وهي حالات مستعصية تبرر، دون أدنى شك، وضع نهاية للعلاقة. وفيما يتعلق بهذه المشكلة، ينبغي أن أشير إلى أن الأعراض التي ترافق هذه الاضطرابات هي عادة ماكرة جداً ويصعب أن يميزها غير المختصين في هذا الحقل ويمكن الخلط بينها وبين الاضطرابات العصبية، مما يعلل لماذا يمكن أن تستمر هذه العلاقة لفترة طويلة. وفي الواقع، هناك، بين الناس العاديين، قلة قليلة يمكنها أن "تلقي أول حجر" لإدانة حالة الزنى، لأنه يمكن القيام بهذا فقط عندما يعرف المرء الأسباب الحقيقية التي تدفع شخصاً إلى السقوط في هذه الحالة.

ويمكن أن ندرك بسهولة تامة أن بعض الرجال فقط يمكنهم إثارة الهرمونات عند النساء، والعكس بالعكس، ولكن السؤال العادي الذي يمكن طرحه في هذه الحالات هو لماذا لايلاحظ الطرف الخائن أن شريكه لايشبعه منذ البداية. فإذا كان الزنى "خطيئة الجسد،" فإنه ينبغي أن أبيِّن أن المرء لايمكن أن يفضل الجسد لإيذاء الروح، ولكن يجب عليه أن يسلِّم بأن للجسد حاجات يجب إشباعها للمحافظة على الصحة والتوازن النفسي. وليس هناك ماهو أسوأ من الكبت الجنسي الصارم عندما يكون مرجل الرغبة الجنسية في ذروة غليانه، لأنه يمكن أن ينهار إلى شتى أنواع الانحلال الخلقي، كالخداعات الخيالية، أو المرضية، أو الإباحية، أو السادية الماسوشية، التي هي بدائل شاذة للنشاط الجنسي الطبيعي. فالكبت عادة هو مصدر معظم الاضطرابات النفسية الشائعة، مع أن التهتك يؤدي فقط إلى حَيْوَنَةِ الإنسان. والخيار المناسب أكثر هو النشاط الجنسي الطبيعي وتصعيد الرغبة الجنسية، لإيجاد مأتىً أيضاً إلى آفاق أعلى من الإبداع والكمال الروحي. إن التصنع الريائي للحشمة يمكن أن يداني الخطيئة كموقف تهتكي. وهناك مثال جيد لهذه الحالة هي حالة التزمت عندما تمثل دفاعاً لاواعياً ضد المراضة الآثمة أو الإغراء الآثم الذي يغزو العقل والقلب.

للرجل والمرأة، على حد سواء، كامل الحق في البحث عن الإشباع الجنسي ضمن الحدود الصحيحة، لامن خلال إجراءات شاذة غير صحيحة. وما تزال القاعدة الذهبية في هذه الحالة هي التي تقول: "عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك." وهناك طرق شرعية وغير شرعية لإيجاد مأتىً إلى الإشباع الجنسي. وينبغي أن تتضمن الحالة المثالية[1] دائماً الحب كشرط مسبق ودافع مثالي.

إن استهلاكية اللذة الجنسية الخليعة، المجردة من الحب، والحياء، والرومانسة، تجعل الزنى أكثر سوءاً بالمعنى الأخلاقي، مع أن تعرُّض المرء للخيانة قد يكون أكثر إيلاماً، على مستوى المشاعر الإنسانية، من تعرضه للخداع بسبب حالة مشوشة مؤقتة تثيرها العاطفة. ومهما كان عمق تحليل العلاقات الزوجية، فإننا نصل دائماً إلى استنتاج قسري هو ظاهرة متأصلة في النقص البشري والضعف الجسدي، وأن الطريقة الأكثر ملاءمة لتفادي ذلك تكون بواسطة الحب الحقيقي. ولكن نمو الوعي الفردي عند المرء هو شرط مسبق لتحقيق هذه الغاية، إذا أتقن علم الحب.

الطلاق

يجب النظر إلى الطلاق، كأي مشكلة أخلاقية، ضمن سياقين:

أ-طلاق الأشخاص العاديين (غير المتطورين).

ب-طلاق الأشخاص المتطورين روحياً.

أظن أن المسألة الأخلاقية لن تجد أبداً حلاً مرضياً لها مالم نسلّم بوجود أشخاص من أصناف مختلفة جداً، أكثر او اقل إنسانية حسب اختلاف محتواهم الداخلي، ضمن طيف واسع يبدأ من حالة دون بشرية إلى حالة إنسانية عليا، دون أن يكون لهذه الاختلافات أية علاقة بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها هؤلاء الناس. فالفرد المتطور حقاً لايحتاج إلى قوانين وقواعد لإجباره على التصرف بطريقة معينة، لأنه يتصرف دائماً من خلال إرادته الخاصة وفقاً للخير الأعلى والاحترام الخالص لزملائه والطبيعة. ولكن الأكثرية الكبيرة من النوع البشري-التي هي بالتأكيد ليست في الحالة السابقة-تحتاج إلى قواعد صارمة وقوانين قمعية للالتزام بالنظام القانوني المعمول به لكي تتصرف على نحو أخلاقي تقريباً. وإذا ماقدِّر لهذا النظام القانوني أن يُعلَّق فقط لثلاثة أيام، مع توقع عفو عن جميع المخالفات التي يمكن

1-وهل تعتبر مثالية إن لم تكن شرعية؟!-المترجم.

أن تحدث، فإنه سوف يكون هناك اضطراب تام. لأن هؤلاء الناس يتصرفون على نحو صحيح فقط لأن القانون يعاقب الاعتداء، وفي الحالة التي لايكتشف القانون فيها جرائم معينة أو يكون هذا القانون بالذات فاسداً، عندئذٍ تتزايد اللاأخلاقية وانتهاك القوانين.

هذا الحشد الهائل للكائنات الإنسانية، التي أسميها "كائنات عادية" في الإشارة إلى من لايزالون في مرحلة مبكرة من ارتقاء ذي مغزى، ليس بأية حال عينة من الحالة الإنسانية السوية، لأن الأكثرية الساحقة منها كائنات "غير مكتملة، أفراد من النوع الذي بالكاد بدأ قبل 15000 أو 20000 سنة وأظهر علامات على سلوك واع نسبياً في تلك الظروف عندما وُجد الإنسان لأول مرة ككائن إنساني من عصر إنسان كرومانيون[1]، وهناك دليل على أنه عاش بعد انتهاء العصر الجليدي. ولذلك، يجب ألا يفاجئنا عدم اكتمال الإنسان الذي نجد له وصفاً مثالياً في الموسوعة الشهيرة " يحتل مكاناً رفيعاً على سلم الكائنات الحية، وهو، من خلال ذكائه وتوقه إلى الأبدية، السيد الجدير بالعالم الذي يعيش فيه."

ولكن هذا الوصف، كالكثير من الأوصاف الأخرى، يصطدم بعنف بالواقع اليومي لكائن لاينتمي إلى نفسه، بل هو عبد لعواطفه والمعلومات المستقلة التي يحملها في دماغه، نهاب الطبيعة، سيد الاستغلال والحرب، المدافع عن العنف والظلم، خادم العجل الذهبي، العاجز عن توجيه تفكيره، ودوافعه، وعواطفه، ساكن ظلال حالة النعاس؛ إنسان بالغ الضآلة تسيطر عليه أحلام العظمة، التي يستخدمها كمسكنات لتهدئة الكرب الذي يشعر به قبل يقينه الداخلي فيما يتعلق بعجزه وضآلته. ويمكن أن يكون إضفاء صفات مثالية على إنسان خطأ فادحاً يعادل تجريده من أهليته. فكشف نقاط الضعف عند النوع لايعني الحط من شأنه، بل لوضعه حيث يجب أن يكون حقاً، وإنهاء أسطورة "ملك الطبيعة." يضاف إلى ذلك أن هذا الكشف، في جوانبه الثقافية والنفسية، مصدر ضروري لكل من ينبغي له، في بحثه عن إنجاز نفسه، أن يدرك خطأ وزيف بعض المعتقدات قبل أن يبلغ أعلى ذرى الكمال الروحي أو الأدبي.

يجب أن نتذكر أن الإنسان الأرضي، الفخور جداً بحالته الإنسانية، لم تُتَح له الفرصة حتى الآن لكي يقارن نفسه بنظير غريب من منزلة تطورية أعلى من منزلته وأنه، لو توفرت

1-نسبة إلى كهف كرومانيون في دوردونييه حيث اكتشفت بقايا للعرق الأوروبي تعود إلى العصر الحجري- المترجم.

هذه المقارنة، ربما تتبخر أحلامه بالعظمة فيما ينسبه إلى نفسه من سمة إنسانية عليا.

نعرف أن الإنسان قادر على القيام بأعمال نبيلة جداً، ولكنه قادر أيضاً على القيام بأعمال وضيعة جداً، بسبب حالته المزدوجة-حالة حيوان يحمل الشرارة المقدسة-حالة تفتقر إلى وعي حقيقي بالمعنى الأسمى. هذا هو واقع وجودنا، لأنه عندما يلاحظ المرء بيئته عليه أن يسلّم بأن نوعية الحياة عنده لاتتفق مع تلك التي كان العالم سيتمتع بها لو كان وصل من يحكمونه فعلاً إلى حالة إنسانية سامية. وبهذا يصبح الفشل التام للعلم، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة-من خلال الرغبة لتحقيق رفاه الإنسان وسعادته- واضحاً تماماً، مالم نقيّم هذا بمعايير الناس لوسائل الراحة.

إن الهواء الذي نستنشقه في المدن الكبيرة، والضجة وتلوث الغذاء، وانتهاك القانون، والإرهاب، واستغلال الإنسان للإنسان، والديماغوجية السياسية التي تخدع الناس، والكفاح ضد "الأسماك الكبيرة،" ومحاولة الدفاع عن النفس ضد مختلف مظالم الدولة، والحرب، والمجاعة، وإضفاء القيم المؤسساتية على المراباة في بعض الأنظمة المالية، كلها صفات غير مرغوبة لعالم هذا الإنسان الذي يُمَثِّلن بوقاحة كملك لـ الطبيعة والكائنات الحية.

أعتذر عن استطرادي في موضوع يمكن أن يبدو بعيداً عن الطلاق، ولكن ماأريد إظهاره هنا هو أن الطلاق، شأنه شأن الإجهاض، أو انتهاك القانون، أو اللاأخلاقية، أو الفساد، أو غير ذلك من العيوب الإنسانية الكثيرة، ليس أكثر من نقص محقق في المستوى الضئيل للارتقاء عند الإنسان. فالحشد الضخم من بني البشر، الذي يكمن لديه نوع من نقص يمكن توقعه فقط من كائنات في حالة طفلية فاسدة، من المفترض أن يتطور نحو مراتب أسمى من الوعي.

ولكن الارتقاء الروحي ليس من شأن الحشود بل هو، على الأصح، شأن فردي حصراً، لأن تطوير الوعي ممكن فقط في مستوى "فرد ما،" يمكن لتجربته أن تتكرر عند عدد كبير من الناس، ولكن قلما تُعرَض كظاهرة حشود لأنها تتطلب أولاً قراراً شخصياً حراً يحفزه شيء من يقظة داخلية لاعملية إقناع خارجي.

ومما يؤسف له، كما ذكرت سابقاً، أن المحتوى الداخلي للإنسان لم يَنْمُ كثيراً بمرور مئات أو آلاف السنين، ولهذا السبب تقضي الضرورة بإجراء دراسة جادة للمشكلات الأخلاقية تنطلق من التسليم بضآلة المرتبة التطورية عنده، لكي يمكنه، بعد أن يتخلى عن

مطامحه في أن يصبح ملكاً، أن يضطلع بدور المبتدىء المتواضع. والحقيقة هي أنه مهما اعتز بعلمه وتقنيته، فإن ذلك نتيجة منطقية لمضاعفة التجارب الموروثة من خلال الانتقال الثقافي بين الأجيال المتعاقبة.

يجب أن نعترف بأنه مهما كان الفرد غبياً، فإنه لو استطاع أن يعيش خمسمئة سنة، لاستطاع في النهاية أن يتعلم كيف تسير الأمور وربما أصبح مخترعاً عظيماً. ولكن الحالة تختلف كثيراً عندما يحاول أن يبلغ نمطاً من الحكمة التي تنطوي على وعي روحي رفيع، لأن هذه العملية تتطلب أولاً أن يتغلب على قابليته للتأثر بالتنويم البيئي. أنا لا أضع إطلاقاً ذكاء الإنسان موضع شك. ولكنني أقول فقط إن هذه القدرة مبالغ فيها، لأنه يمكن أن يكون الفرد ذكياً وفي الوقت نفسه عاجزاً عن تقييم نتائج تصرفاته وضبط نفسه لكي يحقق نمطاً متحضراً حقاً من السلوك. وأؤمن أيضاً بوجود حمقى "نصف حكماء" ممن يفتقرون، كفئران المختبر المزهوين بمعرفتهم، إلى المحاكمة الداخلية، والرؤية، والتواضع، والمقاصد النبيلة مما تتطلبه الحكمة الحقيقية، إنهم حاسبات حقيقية حية يوجهها مبرمجون مجهولون فيمتثلون لهم بالاقتناع بأن كافة هذه الأوامر الخارجية تخصهم في الحقيقة.

ولا شك في أن الوعي الأعلى هو القدرة القصوى التي يمكن أن يطمح إليها الإنسان، لأن الذكاء دونه يشبه مركباً دون موصلة أو دفة -لايمكن أبداً التنبؤ بسلوكه- وأحياناً يتعرض لتدمير مزعج -كما يحدث في الحالات التي بها تنتهي شتى ضروب العلمية عند استخدامها في الحرب أو الإبادة. فالإنسان العالم دون وعي أعلى ليس أكثر من أي حيوان آخر ذكي، أُشبع دماغه بمعلومات تستعبد سلوكه، وتحوِّل أية محاولة لتحقيق حرية حقيقية إلى وهم. من جهتي، لدي قناعة داخلية بأننا نعيش في عصر "قبل بشري، إذا أخذنا بعين الاعتبار ماتعنيه فعلاً الحالة الإنسانية الحقيقية، وأن تناقضات النوع البشري نتيجة منطقية لهذه الحقيقة، وليست شذوذاً. مع ذلك، فأنا متأكد من وجود كائنات متطورة أكثر من المألوف، ونجد عبر التاريخ مثل هؤلاء الناس المتفوقين روحياً الذين تحولوا اليوم إلى شخصيات أسطورية.

فالمسيح، وبوذا، ومحمد الذين يجسدون النماذج الروحية الأصلية في شتى الثقافات، ينبغي أن يكونوا دائماً عاملاً يذكرنا بضرورة بلوغ حالات أعلى من الكمال الروحي. وعلى الرغم من ذلك، فإن "الأيدي الخفية" تعمل، في بعض الحالات، على مصادرة الحقيقة بذريعة

حملنا على الاعتقاد بأنه من المستحيل مجاراة التطور عند هذه الكائنات البارزة لأنهم "آلهة،" أو "مرسلون من قبل الله." ومن هنا، لايستطيع الإنسان العادي أن يفعل شيئاً للتشبه بهم، لأنه ليس مرسلاً من قبل الله، ولذلك، فإنه يكتفي بعبادة هذه الكائنات المقدسة ويلتمس مباركتها في حين يبقى فقيراً روحياً.

وفي الحقيقة، يمكن لأي كان، عندما يقرر، أن ينطلق في الطريق باتجاه الارتقاء الروحي. ومن البدهي ألا يكون هذا الشروع سهلاً، أو عبثياً، أو محاولة للتسلية، لأنه يتطلب شخصية، وإرادة، وتصميماً. فإذا سلّمنا، على الرغم مما سبق، بوجود عدد معين من الناس يتمتعون بمستوى من الوعي والتطور أكبر مما هو عادي، عندئذٍ، يجب أن ندرك أنه إذا لجأ أحدهم إلى الطلاق، فإن تصرفه هذا لن يؤثر سلباً على أسرته، أو أطفاله، ولن يكون انفصاله سبباً لحقد أو خلاف بينه وبين زوجه، بل، على الأصح، مسألة اتفاق مشترك. وفي هذه الحالة، لن تحدث تلك التأثيرات السلبية التي يتوقعها المجتمع نتيجة للطلاق.

مع ذلك، يحق للمجتمع أن يضع القوانين من أجل الأكثرية، لأنها عاجزة عن فهم الكائنات المتطورة روحياً والاقتداء بها، ولأنها ليست في وضع يؤهلها إلى تصور هذا السلوك الرفيع أو قبوله.

وفي الواقع، لايمكن للناس أن يدركوا أن هناك أشخاصاً يمكنهم، عن طريق صمودهم للدافع البهيمي، أن "يحولوا الخد الآخر،" أو يحجموا عن أن يفعلوا للآخرين مالا يريدون أن يعانوا منه أنفسهم. ورغم ذلك، فإن هؤلاء الناس موجودون وإن كانوا قلة، وهم مجهولون، ليست رغبة منهم، بل من خلال العمى المتأصل عند الجماعة البشرية. وإذا ماقُدِّر لهم أن يحظوا بالشهرة، فإنهم سيتعرضون للسخرية من قبل الحشد، الذي لن يستطيع، مهما حاول، أن يتصور مبررات هذا "السلوك الغريب،" ولا شك في أنه ستخامره شكوك خطيرة بخصوص استقامة هؤلاء الناس. وقد حذر أبيقطيتَس[1]، في عصره، من الادعاء بأن كافة من يبحثون عن الحكمة سخفاء. فقد جاء في كتابه فن الحياة مايلي:

إن من يتعقبون حياة أسمى أكثر حكمة، الذين يبحثون عن العيش وفقاً لمبادىء روحية، لابد وأن يكونوا مستعدين للتعرض للسخرية واللوم.

1-(55؟-135 م؟): فيلسوف يوناني رواقي. كان عبداً رقيقاً أعتقه سيده-المترجم.

وان كثيراً ممن تخلوا عن معاييرهم الشخصية في محاولة للحظوة بالقبول الاجتماعي ومتاع الحياة، يمتعضون كثيراً ممن هم أكثر ميلاً إلى الفلسفة، الذين يتجنبون المساومة على مثالياتهم الروحية ويبحثون عن تحسين أنفسهم. فيجب ألا نعيش أبداً لمقاومة هذه الأرواح التي تستحق الشفقة، ولنتعاطف معها، ولنتمسك، في الوقت نفسه، بكل مانعرف أنه خير.

والأكثر احتمالاً أن نتعرض، عندما نبدأ بتطبيق برنامجنا في التقدم الروحي، لسخرية من هم حولنا واتهامنا بالغطرسة. ومن واجبنا أن نتصرف بتواضع ونمارس مثالياتنا الأخلاقية بطريقة منضبطة. ولنتشبث في أعماقنا بما نعرف أنه أفضل. فإذا كنا أقوياء، فإن من كانوا يسخرون منا سيتحولون إلى الإعجاب بنا.

ولكن، إذا سمحنا للآراء الوضيعة التي يحملها الآخرون بأن تجعلنا نتردد، فإننا سنعرض أنفسنا للعار.

من الضروري تحليل مشكلة الطلاق من زاوية مستوى الوعي عند الزوجين، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى تخصيص حيز كبير لهذا الموضوع.

وبوحي من حسن التقدير، وعلى هامش أية ديانة أو اعتبارات قانونية، فإنه من غير المعقول إطلاقاً أن نجبر شخصين لايحبان بعضهما، أو ربما يكره كل منهما الآخر، على البقاء معاً إلى الأبد. وأظن أن هذه فظاعة يساندها رأي خرافي أو تعصبي يستند إلى فحوى المبادىء الدينية. ونتحدث فيما يلي باختصار عن نوع الانتهاك الذي يمكن أن نلاحظه في كثير من الأمكنة، وخصوصاً فيما يتعلق بالحرية الفردية:

1-منع الطلاق: الفرد ليس سيد جسده، بل هي الدولة التي تجبره على أن يشاطر حياته شخصاً آخر لايرغبه. وبدهي أن الجسد يضم العقل، والقلب، والروح.

2-الإجهاض: المرأة ليست صاحبة جسدها، لأنها، في كثير من البلدان، لاتتمتع بحرية الإجهاض إلا في حالات معينة.

3-الإعلان: لن يكون الإنسان سيداً لسلوكه، الذي تحركه وكالات الدعاية.

4-الدعاية السياسية: يُجرَّد المواطن من دماغه عن طريق التقنيات النفسية لغسل الدماغ.

5-التلفزيون: لاينتمي الفرد إلى نفسه ويفقد حرمة عقله وبيته.

6-التكتيل: يعمل الحشد على امتصاص الفرد وتوجيهه، ويجرده من خصائصه،

ويجبره على التصرف كالجماعة، وهي حالة الحشد النفسي التي لاتسمح للملكات الأفضل عند النوع أن تتفتح.

7-الموت الرحيم: الدولة سيدة جسد المواطن، وتعذبه دون رحمة في حالة مرض عضال، وتجبره على المعاناة من ألم مبرح مخجل لايليق بالكرامة الإنسانية، وذلك بمنعه من مغادرة هذه الحياة بإرادته.

8-المال: النظام المالي والمصرفي هو سيد الروح وجهود العمل لكل من يلجأ إلى الاقتراض، سواء مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، في حين تخضعنا الدولة لضرائب تضاهي تلك التي يترتب على القن دفعها لسيده الأقطاعي.

9-الاستهلاكية: يتم توجيه جهد الفرد بكامله نحو الاستهلاكية التي تجرده من مقوماته الإنسانية عن طريق تغلغل الإعلان.

10-سلطة الأكثرية: إخضاع جماعات الأقلية إلى طغيان الأكثرية.

أدرك أن المقاربة المفرطة في الحياء عند الأكثرية العامة ستجعل القراء يشعرون بالضيق من هذا التحليل الفج. ومع ذلك، أظن أنه من الضروري تذكير الناس بأمور ننساها دائماً أو نرفض أن نراها في محاولاتنا لإرضاء الأكثرية.

هناك كثير من الأشخاص الذين يعترفون في عالمهم الداخلي بحقائق لايجرؤون على إعلان قبولهم بها على الملأ. وحقيقة أن يحصل أحدهم على الطلاق أو لا مهمة مقارنة بمدى التدهور الأخلاقي للجنس البشري، الذي يعرِّض الإنسانية للخطر والأذى من كافة الجوانب. وهذا مايبرر القيام بحرب شاملة، هي حرب القرن الحادي والعشرين، لاستعادة القيم الروحية، التقليدية والرضائية بحيث تندمج بقوة، ووضوح، وعمق في الثقافة الإنسانية. وبهذه الطريقة، تتكشف للشخص الحقيقة الدامغة القائلة إن أنبل هدف يمكن للشخص أن يتعقبه يتمثل بإكمال نفسه روحياً، لكي يتمكن من تقديم نفسه للمجتمع كإسهام أعلى قيمة-كائن إنساني متطور حقاً، أفضل مثال ومصدر إلهام لمن يلتمسون إنجاز أنفسهم.

إن منع الفرد بالقوة من الحصول على الطلاق يمكن أن يؤدي إلى إيجاد "مرجل شيطاني" حقيقي في الأسرة، أسرة يشهد فيها الأطفال بذهول، ربما على مدى سنوات، تبادل الإهانات بين والديهم.

ربما يكون من الأفضل، في زواج راشد نفسياً، أن يتم تلافي الخطر قبل وقوعه عن

طريق اتفاق مشترك على الطلاق، وتعريف الأطفال بما يحدث بطريقة موضوعية ناضجة. فمشكلات الأطفال تنشأ دائماً بسبب عدم نضج آبائهم، لأنهم يرثون عنهم عبئهم العاطفي، ذلك العبء الذي يتظاهر داخل الزواج وخارجه. والحقيقة، في حال افتقار الفرد إلى منزلة أخلاقية مناسبة، هي أنه لاعقد الزواج ولا خيار الطلاق أو حتى المساكنة يعتبر إيجابياً، لأن الضرر الذي يلحق بالأسرة أو تضاؤل إمكانيتها سيكون واحداً في جميع هذه الحالات.

ولا يجب أن ننسى أن الزواج لايمكن أن يكون هدفاً للحصول على هوية واعتراف اجتماعي، وأن المبرر الوحيد الصحيح للزواج هو الحب. فإذا كف الزوجان عن حب بعضهما بعضاً، فإنه لايمكن إجبارهما على البقاء معاً، ويصبح الحل الوحيد هو التفاوض حول إجراءات خاصة لحماية الأطفال.

يقودنا هذا إلى مشكلة أخرى، هي حقيقة أن الحب يكون كاذباً عادة لأن الناس يجهلون جوهره الحقيقي ولذلك لايمكنهم أن يحبوا بحق. مع ذلك، أظن أنه يمكن معالجة هذا العائق، ويمكن للناس أن يتعلموا الحب. ولهذا، يجب أن يبدؤوا بالتخلص من أنانيتهم، ليس فقط فيما يتعلق بالمحبة الإنسانية. ومن سوء الحظ أن التجربة تُظهِر أنه يصعب جداً أن يتخلص الفرد من تركيزه على "أناه الأنانية".

السادية الماسوشية

يُعرِّف فريدريك دورش "السادية" في قاموسه معجم علم النفس كما يلي: "مفهوم قدَّمه كرافت-إبنغ على أنه يأخذ اسمه من الكاتب الفرنسي المركيز دو ساد (1740-1814)، وهو انحراف سلوكي في المسائل الجنسية التي فيها يتم الوصول إلى الإشباع إلى درجة الإيغاف عن طريق إنزال الألم، والمعاملة القاسية، والإهانة بالآخر. وفي الحالات الشديدة، يمكن أن يسبب الإصابات والموت. والسادية هي نقيض الماسوشية[1]. فالسادي، في بعض الحالات، يبغي الحصول على اللذة من ممارسة قوة فيزيائية دون أن تترافق بنشاط جنسي (سلوك عدواني)."

وتوصف السادية الماسوشية في النص نفسه على أنها "اجتماع السادية والماسوشية بهدف الإشباع الجنسي عند الفرد نفسه. ويمكن أن نصنف بهذه الطريقة فقط الأشكال المُعرَّفة بوضوح، لأن كلا الميلين موجودان، إلى درجة ما، عند الكائن الإنساني.

1-إذا كانت السادية هي التلذذ بإنزال الألم بالآخر، فالماسوشية، على العكس، هي تلذذ المرء باضطهاد أو تعذيب ينزل به-المترجم.

ويعرّف جان لابلانش وجان برتراند بونتاليس السادية في قاموسهما معجم التحليل النفسي بوصفها: "انحرافاً جنسياً يرتبط فيه الإشباع بإنزال الألم والإذلال بالآخرين." وعندما نتحدث عن هذه الدوافع المنحرفة، فإن الجميع يهربون، كما لو كانت تلك الدوافع غريبة عن الممارسة الشائعة، وتتصل فقط بالأشخاص المرضى أو المضطربين عقلياً. بادئ ذي بدء، نحن نعرف أنه مامن أحد مستثنى كلياً من مستوى ما من التشوش العقلي، وصحيح أيضاً أن السادية الماسوشية هي سلوك شاذ أكثر شيوعاً بكثير مما نظن ويفسر الكثير من الانحرافات السلوكية. وينبغي معالجته بالتأثير على الأخلاقية لأنه سلوك منحرف عن النماذج الأصلية لانسجام الكون، ولذلك يعتبر تشوشاً أخلاقياً.

ظن فرويد أن هناك علاقة بين الانحرافات السادية والماسوشية، معتبراً أن الانحرافين وجهان لنمط واحد من الفساد، الذي نجده، بأشكاله الإيجابية والسلبية، بنسب مختلفة عند الفرد نفسه.

يقول فرويد: "السادي، في الوقت نفسه، ماسوشي دائماً، مما لايحول دون سيطرة الجانب الإيجابي أو السلبي من الانحراف ويضفي على النشاط الجنسي خصوصية مميزة." ويمكن أخيراً تحديد فكرتين أساسيتين عند فرويد:

1-العلاقة بين عبارتي القرينين [السادية والماسوشية-المترجم] قريبة جداً حتى أنه لايمكن دراستهما منفصلين في منشئهما أو في أي من مظاهرهما.

2-وأهمية هذا القرين تتجاوز مستوى الانحرافات: "تحتل السادية والماسوشية موقعاً خاصاً بين الانحرافات. والإيجابية والسلبية اللتين تشكلان خصوصياتهما المتعارضة بصورة جوهرية هما مكوّن الحياة الجنسية بصورة عامة."

يجب أن نبيّن أن مايعتبره فرويد والمحللون النفسيون الآخرون شذوذات جنسية، يُصنَّف عادة في هذه الأيام، ليس بحسن نية، تحت العنوان "التغيير في التجربة الجنسية." ويحدث الشي نفسه مع أكثر الانحرافات، التي تم حجب مدلولها المرضي لإضفاء مظهر مضلل على السلوك الطبيعي. وهكذا، جرى تزيين أوسع واجهة عرض ممكنة للانحرافات، على نحو ملائم، بحيث تبدو سوية المظهر، وتُقدَّم للشباب بهذا المظهر. وهذا مثال واحد فقط لعمل "المنزلق الأخلاقي" للإنسانية في هذه الأيام، في غوصها المتسارع، من خلال العمل الدؤوب لهذه الكينونات المجهولة التي، لسبب ما، تكرس جهودها لدمغ أنماط السلوك التي تمثل فعلاً انحرافاً متدرجاً للقيم الأساسية المتسامية بخاتم أنماط الشرعية والسوائية للسلوك الذي يمثل،

في الواقع، انحرافاً تدريجياً للقيم الأساسية المتسامية عند الإنسان.

لو لم يكن افتراضاً مفرطاً في وقاحته، لأمكن للمرء أن يتخيل مؤامرة مصممة لتدمير الاستقامة، والشخصية، والإرادة، والصحة العقلية ونقاوة الجنس البشري عن طريق تحريف القيم التقليدية، أو تلطيخها، أو تسفيهها، أو السخرية منها، مما يسبب انهيار النوع، أو ربما فقط الزمرة المذكورة سابقاً منه.

ولكن، من يمكن أن يقوم بهذه المؤامرة؟ أنا نفسي لاأجرؤ على أن أقدم رأياً حول هذه المسألة، ولكن الجنس البشري في سبيله إلى انحطاط أخلاقي سريع وأن هناك قلة قليلة جداً ممن يجرؤون على الاعتراف بالمدى الحقيقي لهذا الانحطاط. وليس لدينا هنا متسع من الوقت لتقديم معلومات إضافية حول نمط السلوك الذي يمكن دراسة خصائصه في أي نص متخصص. وأقصد هنا أن أشير إلى جانبين معروفين قليلاً للسادية الماسوشية-ذلك أنها رذيلة جنسية وأنها ترتبط بالماسوشية الأخلاقية.

تتميز الرذائل الشائعة بحقيقة أن الشخص المصاب يعرف مشكلته، وربما يمكنه أن يلاحظها عند الآخرين. وفي حالة عدم حدوث السادية الماسوشية، إلا في حالات شديدة، فإنها تكون عادة رذيلة جنسية محجوبة أو مخفية لايمكن لأحد أن يميزها عن طريق فحص سلوك الشخص المصاب. وعندما أقول رذيلة، فإنني أعني حقيقة كونها محكومة بنمط سلوكي متهتك غير سليم يبدل، في هذه الحالة، جوهر النشاط الجنسي ومبرره بالذات، وهو إجراء فيه يبقى الاضطراب المشار إليه في حالات كثيرة محجوباً تماماً، ولذلك يعتبر رذيلة متنكرة.

يرى فرويد أن كل إحساس هو إحساس جنسي، حتى مص قطعة من الحلوى أو مضغ الطعام يسبب إثارة شهوانية. وأول لذة جنسية عند الطفل هي مص ثدي أمه، وفيما بعد، طعام الأطفال والأغذية الأخرى. ويجب أن يكون واضحاً تماماً أن أي إحساس يحرض بصورة غير مباشرة مثيراً جنسياً. فالطعام، مثلاً، ليس فقط وسيلة لزيادة احترام الذات، بل أيضاً وسيلة لممارسة الإثارة الجنسية، التي تتضح عندما نتذوق بعض المقبلات التي تنتزع من الذواقين نمطاً من إيغاف يتوضع في المعدة.

وهناك حالات أخرى فيها يصبح الخيال مصدراً للمثير الجنسي ويحدث الشيء نفسه مع بعض التجارب العاطفية. وأحياناً، يكون هذا جزءاً متمماً للعملية الطبيعية للإثارة الجنسية، ولكنه في حالات أخرى، يمثل أشكالاً مخفية منحرفة للّذة الجنسية كما يحدث، مثلاً، مع

الناس الذين يجدون متعة في الروليت، وورق اللعب، وسباق الخيل، والمقامرة بشكل عام. وأثناء الإثارة التي تسببها المقامرة والمراهنة يَخبُر الفرد ترجحاً بندولياً في أحاسيسه يأتي من الأمل بالربح أو الخوف من الخسارة. ويقوده هذا إلى انتقال مفاجىء بين اللذة والألم، وقدح لذة سادية ماسوشية. يحدث الألم بسبب الخسارة أو توقع حصولها، وتحدث اللذة بسبب ربح متحقق أو مأمول. وأحياناً، يكون الفرد على وشك خسارة مبالغ كبيرة من المال ربما تأتي على جزء كبير مما يملك، وفي لحظة تالية يمكن أن يربح مبالغ طائلة، وهي عملية، تقدح، عند تكرارها بطرق مختلفة، إيغافات نفسية متتالية على شكل نمط منحرف من اللذة.

وعندما يصبح الفرد مقامراً تصعب معالجته، فإنه يخضع داخلياً إلى عوَلٍ جنسي شاذ أثيم. وبما أن المقامرين يخسرون غالباً، لذلك يمكن الظن بأن مايسيطر عليهم هو الدافع الماسوشي الذي يقودهم إلى الحصول على اللذة من الألم الذي تسببه الخسارة. فما من مقامر يقامر، في الواقع، دون مراهنة، لأن هذا يعني منع آلية اللذة أو إحباطها. وكلما كانت المخاطرة أكبر والرهان أعلى، كان تعاقب الإيغافات النفسية المثارة أكثر حدة.

ولكي نفهم الآلية الحقيقية للسادية الماسوشية، من المفيد أن نلجأ إلى تشبيه البندول ونقارنه بتأرجح الأحاسيس والعواطف الإنسانية التي تقود الفرد عادة، بسبب طبيعتها الثنائية (لذة/ألم، حزن/فرح، شمق/اكتئاب) من نهاية قطبية إلى أخرى. ولكن هذه الترجح يحدث عادة ببطء وبصورة تدريجية، وبشكل غير مدرك تقريباً، حتى أنه يمكن مقارنته بالإحساس الذي تُحدثه القيادة في سيارة بطيئة.

تعتمد التسلية واللذة عادة على شدة الإحساسات، ويمكن مقارنة ذلك بما يشعر به المرء عندما يكون في سيارة تسير بسرعة عالية. هنا، يكون لإحساسات الكائن الإنساني حركة وسرعة، وهي تُحدَّد بهذا الترجح البندولي. فعندما يكون البندول ثابتاً في الوسط، أو تكون حركته بطيئة جداً، فإن الفرد يسأم ويكون تقريباً في حالة خمول. والمتعة، بالنسبة للإنسان العادي، تعني زيادة السرعة، وهذا ماتهدف إليه أكثر أشكال التسلية.

وما دام البندول يتحرك بسرعته الطبيعية البطيئة، فإن الطرفين القطبيين يكونان واضحين، ولكن عندما تزداد السرعة فإنهما يغيمان، وفي هذه اللحظة يبدأ الفرد يتمتع بالألم ويتألم باللذة. هنا تأتي لحظة فيها يكون الترجح سريعاً وحاداً، كما في الروليت، فيسبب تبايناً مفاجئاً عنيفاً في الطرفين القطبيين (لذة/ألم)، محدثاً تفاعلات متسلسلة من البهجة الإيغافية النفسية.

والإدمان على الألعاب الرياضية الخطرة يعتمد أيضاً على هذا المبدأ نفسه، لأن الفرد بعد أن يجازف بحياته، تأتي لحظة، كما في حالة القفز بالمظلة، عندما يصل المرء سالماً إلى الأرض، حيث تتمثل لحظة التفريج الممتعة في كونه بقي على قيد الحياة وسليماً. وفي سقوط وجيز للقفز من طائرة، ينتقل الفرد فجأة بين حقيقة أنه يخاطر بحياته وبين وصوله إلى الأرض بأمان.

وهكذا يعتاد الفرد على هذه الممارسات، على الرغم من أنها سادية ماسوشية بطريقة ما. ومع ذلك، فإنها، باستثناء بعض الحالات، لن تصل أبداً إلى حد المرض، إلا إذا أصبحت إدماناً. وعلى العكس، قد يكون هذا هو سبب شعور المرء بمزيد من التواضع، والرضى والعرفان بجميل الحياة والإنجازات التي يحققها. وعلى خلاف المقامرة، فإن الألعاب الرياضية العالية الخطر تعتبر اختباراً للانضباط الذاتي ويمكن أن تساعد بشكل ملموس على تكوين الشخصية والإرادة، هذا إذا تحلى المرء بالحذر.

إن الآلية البندولية للأحاسيس توضح لماذا يجد الكائن الإنساني العادي صعوبة في تحقيق السعادة، ولماذا ينتهي غالباً إلى الولع بأوضاع مؤلمة تتكرر مراراً في حياته. وتعزى هذه الأوضاع عادة إلى القدر أو إلى عوامل خارجية ذات طبيعة معاكسة وليس إلى خيارات لاواعية يتبناها بدفع من إدمانه السادي الماسوشي للألم.

هناك كثير ممن لايريدون ظاهرياً أن يتصرفوا على هذا النحو، يفشلون في الحب، أو العمل، أو في الحياة بوجه عام، وينجحون تقريباً في لحظات الذروة لمشاريعهم في أن يعملوا بمكر على تخريبها بطريقة خفية حتى أنهم آخر من يعترف بوجود أي تلاعب. وفي هذ الحالة، تكون السادية هي مايطبقها الفرد على نفسه بهدف مقصود لتشجيع تجربة ماسوشية.

يحب أن ندرك أن هذه العادة الضارة التي تسبب الإدمان تحكم قدر المرء المصاب بنهاية مرة من الخيبة والمعاناة، في حين يبقى الجزء الآخر من عقله يتآمر من مقصورته الكتيمة لإحداث الفشل.

لابد من أن نبيِّن أن اللاأخلاقية تعني ضمناً تبديداً كبيراً للموارد الداخلية عند الفرد التي تُزهَق في الانتشاء بالإثارة الشهوانية المنحرفة مما يؤدي إلى الخراب والألم بدلاً من استخدامها بشكل خلاق لمصلحته ومصلحة الجنس البشري.

وفي الواقع، هناك في الحياة اليومية عدد لايحصى من الحالات التي تدخل ضمن آلية

السادية الماسوشية. وأفضل مثال لذلك هو غيرة أحد الزوجين التي تحمل قوة تدميرية ولا يمكن لأحد أن يقيّمها إلا إذا كان قد جرب جحيمها في وقت ما. ففي الغيرة يتحقق المبدأ البندولي بصرامة، وهذا هو سبب كونها إدمانية. إن المصاب بالغيرة، سواء كان رجلاً أو امرأة، يتألم بسبب خيانة مفترضة أو حقيقية هو ضحيتها، مع ماينتج عن ذلك من عنف وانتقام ضد الشريك أو ضد المنافس الكريه. ولكن، في لحظات الذروة من الشك والشبهة، تتدفق إلى عقله كافة أنواع التخيلات الشبقية حول أسلوب الملامسات الجنسية التي يظن أن قرينه يمارسها مع شريكه المفترض أو الحقيقي في تلك اللحظة، وعن طريق هذه التخيلات يحقق لذة شبقية عنيفة، وذلك عند امتزاج تلك اللذة بالألم الذي يعانيه أو تناوبهما، فينتج عن هذا لذة من نمط عنيف منحرف يعتبر نموذجياً للحالات السادية الماسوشية؛ لذة في صالة عرض الصور الشبقية التي يتخيلها، وألم عميق يترافق بشعور التعرض للخيانة، والإهانة، والسخرية.

ومن جديد، يترجح البندول بسرعة وعنف مخلّفاً العقابيل التي تحدثنا عنها آنفاً. ومن المعروف أن تكرار المواقف التي تسبب الغيرة لاينتهي، ولكن لايهم، سواء أكانت الغيرة موجودة أم لا، لأن المبدأ نفسه للترجح البندولي الشديد موجود دائماً.

وهناك أيضاً أنماط مرضية زائفة من الغيرة، وهي ناتج خيال الفرد. وفي هذه الحالة، من المهم أن ندرك لماذا نتخيل مثل هذ الحالات، وبتحليل دقيق لكثير من الحالات، نستنتج أن شك الفرد بأنه يتعرض للخيانة لاأساس له، لأن هذا الارتياب لايعتمد على حقائق مادية، وهو مجرد ذريعة أو تبرير لإطلاق العنان لميو له السادية الماسوشية. وهذا يعني أن الغيرة، في معظمها، تعتمد على حقائق تافهة، ولكن هناك زيادة في ردود فعل مثارة ذاتياً تهدف فقط إلى الوصول إلى ذروة نفسية منحرفة، تعتمد أحياناً على مبرر الشك التافه بخصوص التصرف الشفاف تماماً من جانب الزوج، مع أن هذا التصرف يُفسَّر على نحو منحرف، وهذا يمكن أن يسبب الاستنتاجات الأكثر قسوة وجنوناً.

وفي حالات أخرى، يكون للغيرة أساس، ولكن يكون هناك تفاوت كبير بين مدى الإساءة ورد الفعل الانفجاري للطرف الآخر، لأن هذا الطرف يبالغ دون شك بهدف واضح هو الحصول على لذة جنسية من نمط سادي ماسوشي.

إن المرأة أكثر استعداداً بكثير أحياناً إلى السقوط إلى العادات السادية الماسوشية من خلال ولعها بالروايات والأفلام الرومانسية المثيرة للشهوة الجنسية التي تجعلها تباشر العمل

بسرعة. وبهذه الطريقة فقط يمكن تعليل نجاح الأفلام التي هي مجرد مبرر للمتفرجات لكي يستطعن الاندماج ببطل الرواية والاستمتاع، بشكل مكشوف، وكأنهن بين ذراعيه. وبما أن المرأة أكثر حدساً وأوسع خيالاً من الرجل، فإنها تنجز في خيالها كثيراً من الأمور التي يحظرها المجتمع وعاداته. وهذا الخيال المركز هو الذي يقودها أيضاً إلى التمتع بصمت بالصور التي تتشكل في عقلها فيما يتعلق بالأوضاع الشبقية المحظورة.

والمرأة لاتحب الرومانسية فقط لكي تخبُر الانفعالات المتعة، بل لأنها غطاء مناسب لها لكي تجد منفذاً لنشاطها الجنسي المكبوت. ويؤكد المحللون النفسيون المعروفون أن المرأة ماسوشية داخلياً، وأن حياتها موسومة بالمعاناة التي تتقبلها وتتعلم كيف تتمتع بها.

فمن الدورة الشهرية إلى الولادة، وواجبات الأمومة، وخضوعها للرجل (خضوع أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً)، وكدحها في العمل المنزلي-كلها تعبر عن تضحية صبورة وغالباً مؤلمة في سبيل الأطفال والأسرة.

إن نجاح الأوبرات الصابونية بجرعتها الثابتة من الميلودراما[1]، والألم، والوجد، يعزى، بصورة رئيسية، إلى النزعة الماسوشية عند المرأة. والدور الذي تجد فيه متعة أكبر، وإن يكن دون قصد، هو الدور الذي فيه تتعرض البطلة للإذلال، أو السخرية، أو الاغتصاب، أو السجن، أو عندما تنتقم بتدمير الشخص الذي أساء إليها. مازلت أتذكر النجاح الذي حققه شباك التذاكر في عرض فيلم استمر لعدة أسابيع وكان يصور حالة تقليدية من السادية الماسوشية. كانت النساء ينتظمن بصبر في رتل لدخول قاعة السينما، ويغادرنها مسلوبات اللب، دون أن يدركن أنهن تلقيْن "درساً موجزاً في السادية الماسوشية،" وهي مسألة لم تدركها سوى قلة من المشاهدات. لقد كانت العبودية، في عصرها، ظاهرة فظة جداً للسادية الماسوشية، حيث كان بعض الناس يتحكمون بحياة آخرين مستعبدين، كمختلف أشكال الظلم الموجودة اليوم، مثل:

1-طغيان الأكثريات الكبيرة على الأقليات الصغيرة. 2- طغيان المخدرات. 3-احتكار العنف القانوني الذي تمارسه الدولة. 4-الاستغلال المالي للناس من خلال نسب الفوائد الربوية. 5-نمو الجريمة المنظمة. 6-الحرب. 7-الإرهاب. 8-غسل الدماغ الذي يمارسه

1-تمثيلية عاطفية مثيرة تعتمد على الحادثة أكثر من اعتمادها على تصوير الشخصية وغالباً ماتكون نهايتها سعيدة-المترجم.

الإعلان والتلقين السياسي العقائدي. 9-العِوَل على النفاق، ومن لايستخدمه يعتبر جاحداً. 10-التمييز العرقي. 11-التلوث البيئي. 12-نهب الطبيعة. 13-الاستهلاكية. 14-الفساد. 15-الديماغوجية السياسية.

إن الإساءة الأخلاقية في السادية الماسوشية لاتتشأ فقط من حقيقة أنها انحراف جنسي، بل أيضاً لأنها فساد لدوافع الناس. هذا لأن هؤلاء يضفون طابعاً مثالياً على حوافزهم لكي يصنفوا أنفسهم في خانة الشرف والفضيلة، دون أن يشكّوا بفساد هذه الحوافز في جوهرها وأنها تعمل وفقاً لدوافع شاذة وملتوية. من المفترض أن يكون الإنسان عبداً للّذة يسعى باستمرار في طلبها، ولكن الماسوشية، بالنسبة لهم، ليست فقط هرباً من الألم والمرض، بل هي، في الحقيقة، تجذبهم.

يظن تيودور رايك أنه من الممكن أن يصبح الإنسان "حيواناً ماسوشياً" بعد آلاف السنين من التحولات في البيئة وفي بنيته النفسية. وتؤكد التجربة اليومية واقعية هذا التصريح، الذي يمكن فهمه بواسطة تعريف رايك للماسوشية الأخلاقية: "اتجاه مميز إلى الحياة، فيه يتمتع المرء بآلامه الخاصة وسوء طالعه، فيبحث، دون وعي، عن الألم الجسدي والنفسي، ويستسلم مختاراً للحرمان، ويتقبل متعمداً التضحيات، والخجل، والإذلال، والإهانة." إن الماسوشية الأخلاقية داء الفرد، والجماعات، وبلدان بكاملها. فهناك جماعات من المواطنين الذين يجعلون من هذا الخضوع والترويض مشهداً أمام مختلف أساليب سوء المعاملة التي تقترفها الدولة أو الأفراد السريين، حتى أنه لايمكن تعليل سلوكهم باستثناء أنهم ماسوشيين؛ ومدن يعاني سكانها منذ أمد طويل ويتنفسون بوداعة هواء ملوثاً يهدد حياتهم وحياة أطفالهم دون احتجاج حقيقي، ويتحملون التلوث بالضجيج المُصِمّ، الذي يخرب حاسة السمع عندهم، وقد ألفوا استهلاك المواد الغذائية الملوثة التي لاتخضع لرقابة السلطات، أو يحتفظون بسلبيتهم إزاء الفساد، والجريمة، وانتهاك القوانين؛ ومدن أخرى فيها من يقتضيهم واجبهم محاربة مثل هذه الأوضاع ولكنهم، بدلاً من ذلك، يحاولون بأنفسهم استرضاء المسيئين خوفاً منهم؛ وغيرها فيها مواطنون ترهبهم سلطة الدولة التي تحتكر العنف القانوني، فيقبلون مذعنين دفع ضرائب غير متكافئة دون أية معلومات واضحة مفصلة بخصوص أوجه استخدام هذه الضرائب-ضرائب تتزايد شيئاً فشيئاً دون أن يعرف من يدفعها أين تذهب؛ وهناك مدن تُنتزَع فيها الملكيات من أصحابها الشرعيين بواسطة قروض المرابين لأنهم لم يستطيعوا تسديدها في موعدها، وفيها تُفرَض على المواطن ضريبة عالية لأنه يقيم في بيته الخاص وكأنه يدفع

إيجاره، أو نسبة سنوية عالية على قيمة السيارة الخاصة الخاضعة لضريبة والتي يمكن اعتبارها ببساطة ثمناً لقيادة سيارته في الشارع. ويقول تيودور رايك في كتابه الماسوشية والإنسان الحديث مايلي:

تستحق الماسوشية الأخلاقية أن تحظى باهتمام كل مثقف، لأنها تؤثر على شطر مهم من الحياة. فهي لاتقتصر على أفراد معزولين، ولكنها عامل مهم في حياة الكائنات الحية، الاجتماعية والوطنية والدينية. والماسوشية مكوّن مهم لكثير من عُصابات الشخصية وميزاتها. وعلاوة على ذلك، يُظهر البحث أنه يمكن أن نجد في ميول وسلوك كل منا آثاراً من الماسوشية الأخلاقية. والسمة الشائعة في كل هذه الظواهر النفسية هي الميل اللاواعي إلى التماس الألم للحصول على اللذة منه. وقد اكتشف التحليل النفسي، لأول مرة، وجود هذه الميول الماسوشية عند دراسته للشخصيات العصابية والمعادية للمجتمع، على الرغم من انقضاء بعض الوقت قبل أن يثبت أن هناك نسبة من الماسوشية الأخلاقية عند كل كائن إنساني. وتعكس حالة العُصاب والتشوه ماهو عند كل منا بطريقة مرضيّة ومبالغ فيها. وهذه الحالات لاتتجاوز حدود ماهو سوي.

يتصرف الأشخاص، الذين يساعدنا تحليلهم النفسي على دراسة الظاهرة، بطريقة مميزة وتنشأ هذه الطريقة، كما يقول فرويد، من الرغبة بالعقاب. هذه الرغبة لاتحتاج إلى إظهار نفسها بصورة واعية. فالناس الذين يسقطون ضحية لها لايدركونها ولن يبوحوا بها. ولكن نتائجها تتظاهر بوضوح تام في تصرفاتهم وفي أفكارهم. حتى لكأنهم من ألد أعدائها. وفي كل شيء يفعلونه، أو لايفعلونه، ينجحون في إفساد لذتهم وعملهم، فيحرمون أنفسهم من سعادة يستحقونها، وفي الحالات الشديدة يعرضون حياتهم للخطر. وفي كل الحالات تقريباً، قد يظن المراقب العرضي أن سوء الطالع أو الحظ السيء الذي يحكم حياة هؤلاء الناس يأتي من ظروف خارجية، وأن عليهم أن يكافحوا باستمرار ضد الحوادث والمحن المشؤومة التي تبرز دون انقطاع في نصيبهم. يمكن أن يتكون انطباع عند المرء أن القدر المعادي صب لعنته عليهم، أو أنهم ضحايا لخداع الآخرين ولكل شيء يحتكون به. ولكن الملاحظة التي تعتمد على التحليل النفسي تبرر القول إن هؤلاء الناس أنفسهم هم المسؤولون عن أكثر الكوارث والمحن التي يواجهونها، مع أنهم لايدركون ذلك. ومع هذا، فإنهم يُظهرون الحالة وكأن القدر أو قوة شريرة قدرت لهم أن يفقدوا أرقام الحظ في حياتهم.

يساعدنا تحليل أحاسيسنا وأحاسيس الآخرين كثيراً على فهم ظاهرة الماسوشية. فكثيراً مايحدث، نتيجة لفرط إثارة الأحاسيس عند الناس، أن يفقدوا قدرتهم على إيجاد أي

شيء يُكملُهم، وهكذا يبقون في حالة بلادة وسلبية. ثم إن موت الأوهام الأثيرة أو إحباطها يسبب إحساساً بالفراغ الداخلي يحاول الفرد أن يملأه بأية طريقة. وقد تكون المعاناة مؤلمة ولكنها تعمل بالتأكيد على ملء العالم الداخلي عند الناس حيث تساعدهم، وإن يكن بصورة سلبية، على تحقيق الإحساس بالامتلاء الداخلي أو استعادته. ويحدث هذا، مثلاً، في حالة المتقدمين في السن الذين يجدون في آلامهم وأوجاعهم مثيراً لملء حياتهم مما يجعلهم يشعرون بأهميتهم وإن تكن الوسيلة مؤلمة.

وهناك من يخضعون لعملية جراحية، فيحدثون أصدقاءهم بمزيد من التفصيل حول بواطن وظواهر العملية ويعرضون تلك الأجزاء التي استؤصلت من أجسامهم كتذكارات، وكل منها يُشعرُهم بأهميتهم. ويمكن أيضاً أن يتقبلوا، دون دراية، مرضاً باعتباره تجربة مشبعة لأحاسيسهم.

المشكلة الوحيدة في السادية الماسوشية هي أنها حافز ماكر يختفي خلف الكثير من الأنماط السلبية للسلوك. فالعنف والتخريب، مثلاً، ليسا أكثر من دافع سلبي يهدف إلى تحقيق لذة جنسية عن طريق جعل الآخرين يتألمون.

وهناك أيضاً كثيرون ممن يفشلون في الحب، والعمل، والنشاطات المريحة من خلال قرار داخلي خاص بهم، ولا يظنون أبداً أن لاشعورهم يجعلهم يعملون عمداً على إفشال مشاريعهم الخاصة، مع أنهم لايدركون هذا في مستوى وعيهم. وهذا يسبب تجارب مؤلمة تهيء لهم المعاناة الماسوشية التي يحققون بواسطتها اللذة المنحرفة التي ينشدونها.

في هذا الوقت بالذات، تعمل الخطيئة الأخلاقية على إغراء الفرد بهذه المناورات، التي تلوث الحياة العقلية والعاطفية وتفسدها فتضعف، أكثر فأكثر، معرفة الفرد لنفسه، وبالتالي يبتعد بها تدريجياً عن إمكانية توجيه ذاته وضبطها بمعنى القدرة على التصرف بأسلوب رفيع كما يليق بكائن إنساني حقيقي. وكما يحدث مع كل الرذائل، فإن هذه المناورات هي عوامل استلاب تحبس "أنا" الفرد، لأنه يبدد كل طاقاته في مناورة متواصلة لالتماس العذر لنفسه، وفي الوقت نفسه، يعمل على مضاعفة الأحاسيس التي تتملكه ويجعلها أكثر حدة، بينما يُلغى إبداعه، وحريته الداخلية.

إن إدراك الطريقة التي بها تعمل السادية الماسوشية يمكن أن يكون مفيداً جداً للشخص المصاب، ولكن من سوء الحظ أن يكون من يريدون الاعتراف بانحرافاتهم قليلين

جداً. وعلى العكس، إنهم يحاولون ماأمكنهم حجبها، أو إخفاءها، أو إنكارها، بهدف مقنَّع هو عدم فقدان اللذة المنحرفة التي يثيرونها في داخلهم.

إضعاف الأسرة

الأسرة هي الوحدة الأساسية في المجتمع البشري والمركز التشكيلي للحياة الوجدانية والأخلاقية عند الفرد. وهي ضرورية للحضارة الإنسانية لأنها الوسط الذي فيه تنمو الشخصيات التي ستكون مفيدة اجتماعياً، ولكن، مع الأسف، نجد أن الأسرة تفقد أحياناً هذه السمة. وتصبح الأسرة والبيت أول نموذج إنشائي في العالم يعرفه الطفل ومن هذه البيئة التشكيلية ينبثق تطوره النفسي، والأخلاقي، والروحي. إن هزيمة الإنسان، أخلاقياً وروحياً هي، في الواقع، فشل الآباء، لأنهم لايعملون عادة بما يكفي لتطوير أنفسهم، فهم قاصرون، ولذلك، لايستطيعون أن ينقلوا القيم الروحية إلى أطفالهم، ماداموا هم أنفسهم يفتقرون إليها.

هذا هو المنشأ الحقيقي للبؤس الروحي في العالم: نحن في معظمنا أطفال لآباء سيئين، بالمعنى التقني. فالآباء ملتبسون أخلاقياً مع ضآلة معرفتهم وغموضها بخصوص تربية أطفالهم بشكل مناسب، لأنهم أنفسهم لم يستطيعوا تعليم أنفسهم مايُعتبَر معرفة إنسانية سامية؛ أعني، كيف يسيطرون على أشخاصهم لكي يصلوا إلى مستوى أعلى من السلوك الإنساني بالمعنى الروحي، والأدبي، والأخلاقي؛ وحتى لاتسيطر عليهم العواطف البهيمية. ومن الواضح أن سلوك البشر غريزي أكثر منه عقلاني، وإلا لما كان بالإمكان تعليل حدوث الحروب والكوارث. والذكاء الإنساني لايمتثل للروح، أو العقل المتفوق، ولكنه، على الأصح، يخدم العواطف.

ولهذا السبب يبدو السعي إلى تحسين العالم عن طريق رفع مستوى الذكاء عند الناس غريباً جداً، لأنه مالم يترافق مع تطور مواز لوعي أعلى، فإن هذا يؤدي حتماً إلى تعقيد الجريمة إلى حد لايطاق، لأن منتهكي القانون سيصبحون أكثر مكراً وذكاء. وأسوأ مصيبة يمكن أن تنزل بالإنسان هو أن يحصل على رائز ذكاء يضعه في صنف العباقرة دون أن يكون قد حقق، قبل ذلك، وعيه الروحي الذي يصبح موجهاً ووقاء لملكاته، التي دونها لن يمر وقت طويل قبل أن يُدمِّر كامل الكوكب.

كلما كان ذكاء الإنسان أكبر، تزايد الاستغلال، وأصبحت اللاأخلاقية أكثر تعقيداً؛ وازدادت أعداد العميان أخلاقياً غروراً ونرجسية، وكذلك الحروب العنيفة والمدمرة،

وأصبح فرض القانون والنظام بالقوة أكثر صعوبة؛ وازداد الانحراف الأخلاقي وتشوش العلم، والوسائل العقلية التي يخدع بها المرء نفسه ويتصرف بغدر تجاه زملائه؛ واتسعت السيطرة على عقول المستهلكين، وتعززت فعالية غسل الدماغ عن طريق الخطاب السياسي -باختصار، تتضاءل الحرية الفردية من خلال تضاؤل الفرص لتحقيق الانبعاث الروحي.

والانبعاث الروحي ليس نعمة تهبط من السماء كالمطر أو أشعة الشمس، ولكنه يعتمد على عمل شخصي روحي ذي طبيعة شاقة ومداومة لابد للمرء حياله من أن يدرك ضآلته الخاصة كشرط مسبق، والذي قلما يتمكن من إنجازه بنشوة النصر التي يستمدها من أهميته الشخصية المُضخمَة. وأجرؤ على الافتراض بأن رائز الذكاء العادي عند آباء اليوم أعلى بكثير مما كان عليه عند الأجيال السابقة، تماماً كما يحدث مع التقدم السريع للعلم في عصرنا، الذي هو انعكاس لازدياد التطور الفكري عند الإنسان، مع أن هذه القدرة لاتجعلهم آباء افضل.

إذا التزمنا بما تعنيه حقاً كلمة روحية، فإن العلم لم يجلب تقدماً روحياً للإنسان، ولم يسهم في شيء لتسهيل تطوير وعي أعلى.

ومهما كان رجل العلم عظيماً، فإن معرفته لايمكن أن تساعده على ضبط أعلى للنفس أو على أن ينجز بوعي أعمالاً ذات تأثير أخلاقي أعلى. ولا يمكن أن ينجح في السيطرة على عواطفه أو يضع ذكاءه في خدمة روحه الخاصة. وبمعنى آخر، إن محتواه الداخلي لايختلف كثيراً عن مثيله عند أي شخص في الشارع وليس أكبر منه. يظن الكثيرون أن العلم سينقذ الجنس البشري. ولكن أظن أن الأكثر احتمالاً أنه سيسبب الضمور الروحي عند الإنسان أو أنه سيقوده إلى حافة الخراب، لأنه مادام العلم بحد ذاته غير اخلاقي بكل ما في هذه العبارة من معنى، فإنه يعتبر عاجزاً عن ضمان استخدام صحيح للتكنولوجيا التي يطورها.

وفي محاولة لحماية الأسرة ومساعدة المجتمع، قضت بعض الديانات بأن يكون الزواج غير قابل للفسخ. ومن سوء الحظ أن هذا القصد الجدير بالثناء للمحافظة على وحدة الأسرة يناقض أهدافه الخاصة عند مواجهته بالواقع المألوف، الذي لايمكن تبديله بقرار. فعلى سبيل المثال، إن زواج رجل غير كامل من امرأة مثله يسبب مضاعفة نقصهما، لأنه، بدلاً من اقترانهما من خلال حب واكتمال حقيقيين، فإنهما يفعلان ذلك بسبب النقائص الخاصة

بكل منهما، وهذا هو السبب الذي يجعل من الصعب أن تكون الأسرة نواة لنمو أطفالها بالشكل الملائم. ويعني هذا، فيما عدا بعض الاستثناءات، أن يكون الأطفال من نموذج وسطي أكثر ابتذالاً، مما يجعل من الصعب عليهم، إن لم يكن من المستحيل، تطوير ملكات إنسانية أعلى.

إن شخصية الطفل من زواج غير متطور مفاهيمياً وروحياً من الصعب أن تتجاوز حدود القالب النفسي والثقافي لوالديه. وعلى الرغم من أن الطفل يكون سوياً من الناحية البيولوجية، إلا أن شخصيته ستكون مقيدة لجهة مستوى وعيها، وبالتالي، محبطة فيما يتعلق بإنسانيتها العليا.

صحيح أن هناك استثناءات للقاعدة، وأن الأشخاص العظماء نشؤوا في أسر مقيدة جداً بهذا المعنى. والحقيقة هي أن الثقافة لاتصنع محتوى إنسانياً، بل إنها كثيراً جداً ماتعمل على إضعاف ذلك المحتوى بسبب نمطها الاستلابي، وبالتالي، تخلق نوعاً من البربرية المتعلمة، ، كما يحدث في حالة الناس الأذكياء دون معيار أو حساسية، وعند الأشخاص الشكوكيين، أو الغادرين، أو الأشرار. وعلى المنوال نفسه، هناك أيضاً أشخاص فقراء في المعرفة الثقافية أو الموسوعية ولكنهم أقطاب حقيقيون في النفس والروح. فالرسل، مثلاً، لم يكونوا متميزين ثقافياً، أو تعليمياً، أو سلوكياً، بل بسموّ أرواحهم.

هناك نفوس عظيمة في أجسام منبوذة أو مقيدة اجتماعياً، ولكن، من سوء الحظ أن يكون هناك أيضاً كثير من الناس الذين يتمتعون بصلة اجتماعية كبيرة ولكن مادتهم الروحية تافهة إلى حد لايطاق.

عندما ننظر إلى واقع العالم، يبدو لنا بوضوح أن الأسرة النموذجية لاتتمتع بالأهلية لتدريب أطفالها على تبني قيم روحية متسامية، وأنه يجب أن يكون هناك عملية حقيقية لإعادة هندسة الإنسان فيها لتطوير قدرتها على التكوين الصحيح. والحقيقة هي أن الآباء العاديين لايمكن أن ينجحوا في توجيه أطفالهم أو ينقلوا إليهم قيماً متسامية. وهذا يدعو إلى الأسف الشديد، لأن مرحلة ماقبل المراهقة هي عادة أرض خصبة لغرس التلوث أو الشذوذ.

لاأقصد طبعاً أنه يجب على الآباء أن يتعاملوا مع أطفالهم بصورة قمعية، أو يرغموهم على تبني عاداتهم الخاصة، ولكن ينبغي لهم أن يمارسوا عليهم سلطة أخلاقية حقيقية، بحيث يكونون قدوة لهم لاأداةً لتجريدهم من الأهلية والازدراء، وهذا مايحدث في حالات

كثيرة جداً. وعلى العكس، كثيراً جداً مانجد أن الآباء هم الذين يعجبون على نحو أعمى بأطفالهم ويصبحون تابعين نفسيين لهم. وعندما يجد الأطفال أنفسهم على مثل هذه الدرجة من المَثْلَنَة، فإنهم يظنون أنهم يمتلكون الحقيقة والحرية التامة للاختيار، حتى أنهم يسقطون بسهولة إلى الفساد الأخلاقي وقصور نمو الشخصية والإرادة.

وبما أن الأحفاد يرثون أحياناً قدرات أجدادهم، فهم أيضاً يرثون أسوأ عيوبهم، مما يؤدي إلى عجز الآباء كلياً عن توجيههم بالشكل الملائم. ومن البدهي أنه إذا كان الوالد عبداً لعيوبه، وورث طفله تلك العيوب، فإن عبوديته وافتقاره إلى توجيهه سيكونان أكبر لأن الطفل تجسيد لنقائص والده. وفي حالة الأسرة الكبيرة، كثيراً مايحدث أن يكون الطفل الذي ورث أسوأ ماعند والديه من عيوب هو الأثير لديهما، وما من أحد يمكن أن يعلل لماذا يكون الطفل الأكثر شغباً وشذوذاً هو الطفل المدلل في الأسرة، في حين يتلقى إخوته وأخواته الذين هم أفضل منه في كافة النواحي معاملة مختلفة. مع ذلك، يمكن تعليل هذه الظاهرة بأن الوالد الذي لم ينجح أبداً في معالجة نقائصه وعيوبه في عالمه الداخلي الخاص، يواجهها الآن خارج ذاته، ونتيجة لذلك، يتعذر عليه ضبطها تماماً. إن الافتقار إلى شخصية أبوية مناسبة، بمعنى الشخص الذي يمارس سلطة أخلاقية في الأسرة بسبب عمره وحكمته، يمكن أن يسبب مناخاً من الغموض المزمن فيه يقلد الطفل النماذج السيئة أو أنه لايستطيع اكتشاف الشخصية المهمة التي يتشبه بها أو يحترمها. وتحمله البيئة المغرقة في ماديتها على تجريد الكبار والمسنين من أهليتهم، وينظر إليهم على اعتبارهم عجزة، وكثيرا مايستخدم، وهو في حالة من التبلد العاطفي، كلمة "مخبلة" لوصف أمه وعبارة "العجوز المسكين" لوصف أبيه.

إن هذه المقاربة المادية الساخرة تقود الشباب إلى اعتبار المسنين كخردة مغبرَّة أو بدائية، واعتبار أنفسهم أدوات حديثة كاملة. ولهذا يستخدمون عادة ألقاباً تحقيرية مثل: قديم، وعتيق الطراز، وعجائز، ومومياءات، وهلمجرا.

مع ذلك، لايمكن لأحد أن يلوم شاباً بسبب هذا، ذلك لأن الوالد لكي يحظى بالاحترام، يجب أن يتمتع بالشجاعة الضرورية لكي ينال هذا الشرف ولكي لايكون مجرد رمز غامض، أو جبان، أو سادي، أو ملتبس، أو متناقض. وعندما أتحدث عن الشجاعة، فإنني أقصد التمتع بشخصية كاملة وإرادة قوية، مما يساعد الفرد على إنجاز أعماله في ظل

صخب الحياة اليومية عن طريق التوجه المدروس إلى الكفاح ضد الفساد، والرذيلة، والإغراء؛ والتمتع بقوة داخلية لكي يكون مستقيماً وفاضلاً؛ ومواصلة هذا السلوك على الرغم من حط الآخرين من شأنه؛ وامتلاك القدرة على التخلص من أي سلوك بليد أو عنف حيواني؛ وقابلية "تحويل الخد الآخر" بالمعنى الروحي والتقني لهذه العبارة، كجهد فائق تبذله الإرادة للصمود في وجه إغراء الاستجابة السهلة أو العنيفة؛ وقابلية التصرف ككائن إنساني متحضر حقاً؛ وعن طريق أن يكون قوياً، وصادقاً، وفاضلاً بحيث يكون القدوة الأفضل والأكثر وضوحاً لأطفاله.

هؤلاء هم الآباء الذين لايقصدون أن يقوم أطفالهم بما عجزوا هم عن القيام به والذين يرضيهم أن يكون مقياس النجاح مكافئاً لما يطلبونه من أنفسهم؛ الرموز الوالدية التي يمكنها، بسبب حجم إنجازاتها الداخلية ككائنات إنسانية، أن تثير الاحترام والإعجاب عند أطفالها لحملهم عل تقليد مدى الإنجاز الروحي عند آبائهم؛ شيوخ أخلاقيون، أفراد كاملون، يوحدون الأسرة من حولهم، وبذلك يصبحون نواة تشكيلية مثالية لأعضائها.

ومن سوء الحظ أن تكون هناك حالات كثيرة فيها تُمارَس السلطة الأبوية بأكثر الطرق تخلفاً وعنفاً من قبل أفراد قساة، وأنانيين، وجشعين وماديين، فيتحولون إلى قوة إفساد لأطفالهم ولكامل الأسرة.

وكما تعتمد الأمم على قادتها، كذلك الأسرة تعتمد على قائد هو الذي يحافظ على تماسكها. وتتحقق الحالة المثالية عندما يتشاطر الأب والأم القيادة بصورة متوازنة، كل منهما في مجاله الخاص، وهكذا يتعلق الطفل وهو في عمر مبكر، وبشكل مناسب، بالرمزين المذكر والمؤنث. وبهذه الطريقة، تطور المرأة علاقة متناسقة مع الجنس المقابل، ومثلها يفعل الرجل.

ومن الواضح أن الزوجين يجب أن يجمعهما حب حقيقي، وبخلاف ذلك، تصبح الحياة الزوجية خداعاً تاماً يهدد ترابط الأسرة، وعلى المرء أن يسأل نفسه عن الهدف الحقيقي من الزواج. هل هو لإنجاب الأطفال؟ أم للحصول على هوية اجتماعية؟ أم لإضفاء الشرعية على العلاقة الجنسية؟

إن مايجب أن نتفق عليه هو أن الزواج لايمكن اعتباره هدفاً في حد ذاته، بل وسيلة لاكتمال شخصين يوحدهما الحب، لكي يعمل كل منهما على سد النقص الخاص به

ويكمل كل منهما الآخر بصورة متبادلة. ولكي نفهم المعنى الحقيقي للزواج، وكذلك الأسرة، علينا أن ندرك بعمق مغزاهما الحقيقي. فالزواج يدل عادة على شرعية المساكنة بين رجل وامرأة، معتمدين على تقليد الحب. والزواج، بنظر الطبيعة، هو اتحاد رجل وامرأة من خلال حب حقيقي صادق، بعقد شرعي أو دونه. فإذا كان الحب حقيقياً، فإن الزواج يكون واقعياً؛ وإذا كان الاتحاد قانونياً ولكن دون حب حقيقي، فإنه لن يكون أكثر من حالة تسري. وقد يكون فهم هذا في غاية السهولة أو مستحيلاً، اعتماداً على درجة بعد النظر غير المتحيزة للشخص الذي يقوم بتحليله.

الناس يشبهون الآلات الموسيقية "المدوزنة" بصورة جيدة أو غير "المدوزنة"، أو المنسجمة النغمات أو المتنافرة، وعن طريق الانضمام إلى الفرقة الموسيقية يمكن للمرء أن يعزف أكثر الألحان سمواً أو أكثرها تنافراً. فكل شخص يرسل اهتزازات تنشأ من حالاته العقلية، والغريزية، والعاطفية وتكتسب هذه النغميات تآلفاً أو تنافراً مماثلاً لما يوجد في العالم الداخلي للفرد. والحب الحقيقي فقط هو الذي يساعد الزوجين على إكمال النغمات الاهتزازية عند كل من الرجل والمرأة على نحو متآلف، بحيث تتناغم، بدورها، مع موسيقا الأفلاك التي ذكرها فيثاغورث. والأسرة، بدورها "مجموعة موسيقية" أكثر أهمية، ونوعية تناغمها هي التي تضمن سعادتها، واستقرارها، وخصوصيتها الأخلاقية، وحياتها الروحية.

إن التنظيم الملائم لمجالات الحياة في الأسرة هو أفضل ضمانة للنمو الصحيح والتدريب الأخلاقي عند الطفل، وهو، بدوره، أساس الاستقرار العاطفي عن الزوجين. ومن السهل أن ندرك أن "النوعية الاهتزازية الموسيقية" عند فرد تسيطر عليه أكثر عواطفه انحطاطاً لايمكن أن تماثل التناغم الرفيع عند إنسان فاضل يكمن حافزه الحيوي في القيم المتسامية للروح.

وما الأنظمة الخارجية فيما يتعلق بالزواج، أوالطلاق، أو الإجهاض، أو الخيانة الزوجية، أو الأخلاق سوى بدائل بائسة لما يكون عليه إنجاز إنسان تام أو كامل؛ وهذا يعني توجيه سلوكه وفقاً للمبدأ الأسمى للمكافىء المساواتي. ويعني تكييف الذات مع احترام وحب أي شيء عادل وصحيح لذاته، لاوفقاً للمصالح الشخصية أو الآراء الاجتماعية. والراشد الأخلاقي في الفرد، أي المستوى الذي يكون عنده واعياً تماماً لتصرفاته ومسؤولاً عنها، هو الذي يأخذ مايستحقه من العالم ويعطي للآخرين مايستحقونه. إنها حالة الوعي الموضوعي التي فيها يرتبط الفرد بنفسه وبالآخرين وفقاً للعدالة والخير الأسمى.

هذا النمط من التطور هو الذي يسمح بتكوين أسرة يمكن أن تصمد في مواجهة مؤثرات التلويث والتفكيك التي تأتي من البيئة، وتكون ملجأ للسلام، والانسجام، والحب.

إن العادة الشائعة "العيش من أجل الخارج" تعرِّض الفرد بشدة إلى التأثيرات الخارجية والسقوط إلى رذيلة تعديل سلوكه بما يرضي محيطه. فإذا استحسنت أكثرية الناس شيئاً ما، فإنه سيكون كافياً بالنسبة له لكي يصنفه في خانة جيد دون أي تحليل إضافي.

تعمل هذه العادة التي تقضي بقبول آراء أو أفكار الرموز ذات الصلة دون تمييز، فقط بسبب مكانتها الاجتماعية وليس من خلال أي اتفاق شامل، على إفقار وإضعاف العالم الداخلي عند الفرد، مما يمنع أو يحبط نمو ونضج "أناه".

يجب أن تكون الأسرة الحقيقية "ورشة حياة،" أي المكان الذي يتم فيه قبول الحقائق فقط من خلال الإدراك والموافقة المنطقية، وليس من خلال وزن لايمكن حمله لرأي الأكثرية أو الجاذبية الاجتماعية أو السياسية لكل من يمكن أن يمثلها.

والأسرة الحقيقية يجب أن تقاوم الاختراق الدُّووَعيي لكي لاتصبح ضحية سهلة لرسائل الإعلان، أو لأي تدريب دووَعيي يخلق نوعاً من "إنسان ثان" غريب بالنسبة للفرد نفسه، شبح مولود من الطعوم الاجتماعية، أو الثقافية، أو السياسية، أو الدعائية. فيعمل هذا "الإنسان الثاني،" خلال فترة قصيرة جداً على استلاب الكائن الحقيقي وإحباطه تماماً، ليبقى مطموراً تحت ركام الرسائل أو الأوامر الخارجية التي تكيف سلوكه؛ وهي أنماط تندمج في العصبونات المخية على شكل "معلومات مستقلة،" وبهذا تنشأ كينونة فكرية تابعة ويتحول الفرد إلى مجرد حامل لمخلوق غريب يسيطر عليه، يخدم، بدوره، المصادر الخارجية التي انبثق منها.

إن عالمنا ليس أكثر من كوكب مليء بالهائمين المُضلَّين الذين يكرسون حياتهم لمطاردة الأوهام التي يسببها شبح الاستلاب، بينما تبقى الكينونة الحقيقية مشلولة، ومكبوتة في عمق الوحدة، والحزن، والعجز.

ولما كان لايمكن تحمل الحياة في ظل ظروف كهذه، لذلك يلجأ الإنسان إلى بناء سوق مركزية جبارة للاستهلاكية، والتسلية، والأوهام، بحيث يتمكن، على الأقل، من تحقيق تفريغ عابر لبؤس كينونته الداخلية المنفصلة عن جوهره، ولذلك تكون بعيدة عن الإله والطبيعة.

إن الكرب الغامض الذي يبتلي الإنسان يتمشى مع حدسه الداخلي بشعور الاجتثاث من المكان الذي انبثق منه وجوده الحقيقي، بشعور سجينٍ للروح الجماعية للحشد، بشعور قطعة ثانوية في الآلة الاجتماعية الضخمة التي تخنق هويته الفردية. وليس هناك سوى قدرة التكوين الواعية لأسرة تتألف من زوج من كائنين كاملين يتمتعان بوعي عالي التطور يمكن أن يرشد أعضاءها إلى نوعية أعلى من الحياة: تلك النوعية التي تدافع أيضاً -باحترامها لحقوق الآخرين وسلامة الطبيعة- عن الهوية الفردية، وتعطي الأفضلية للتنمية الروحية بالقيم التي تستلزمها، بما يتجاوز المادية الساخرة القاسية عند من لايريدون، على الرغم من تنكرهم، سوى استخدام الكائن الإنساني كمستهلك مطيع يشتري هذا أو ذاك، ويعمل كمُلَقّم مدفع للتجارب الاقتصادية ويقترع لمرشح معين.

ونوعية الحياة وحدها هي التي تتيح للفرد حرية حقيقية، حرية تعتمد على تغلب المرء على عواطفه وتوجيه عقله، بما يتيح له السيطرة على نفسه لكي يكون قادراً على الوجود بما يستجيب حقاً لوجود إنسان حقيقي في نوعيته بحيث يكون قناة لظاهرة الكينونة، التي فيها تتولد هويته الداخلية الحقيقية.

إنه المستوى الذي عنده يدرك الفرد حقيقة معنى الحياة وغرضها، وهذا لايعني فقط أن نعيش، أو ننمو، أو نتكاثر، ولا أن نشجع التقدم الهندسي للكمية وتنويع السلع الاستهلاكية.

يمكن لمئة أسرة واعية، يوجهها أرباب كاملون أجلاء، أن تغير حياة أمة، وألف أسرة من هذا النوع، يمكن أن تغير مصير العالم.

ولكن، هناك قوى رجعية تعارض غرس أخلاقية رفيعة، قوى تترصد في كمين الأوامر المعلوماتية التي تأتي من الاقتناع الدّووَعيي وتبقى نشيطة في أعماق اللاوعي عند الناس، مستعدة لحملهم على الوقوف ضد أي شيء يمكن أن يجعل المستهلك المطيع الجبري واعياً منيعاً ضد الاختراق الدّووَعيي، قادراً على اختيار مايريده بحرية داخلية تامة.

إن هذه الرسائل، التي يرسلها باستمرار وغزارة من يستفيدون بطريقة ما من العبودية العقلية للإنسان، غسلت تقريباً الأدمغة في كامل الكوكب بحيث بات الناس يتقبلون أسلوب الحياة المضاد للطبيعة الذي يريد المستغلون أن يفرضوه كأسلوب طبيعي ومرغوب.

لابد من العمل في هذا القرن الجديد على تغيير إعلان حقوق الإنسان ، الذي نعرفه جميعاً ، إذا كنا نريد للحريات الفردية البقاء. ومن بين حقوق أخرى، يجب إضافة حق الفرد في خصوصية العقلية، بألا يخضع لطغيان الأكثرية، وأن يكون قادراً على تفادي الدعاية المفرطة. كما يجب أن يُعطى حق التصويت لمرشح من لحم ودم وليس لشبح يخلقه التسويق، أو الحق بتأمين عدالة نزيهة فعلاً، وأن تتوفر له الحماية ضد عنف الدولة وكافة أشكال التمييز، والاحتكار، والعنف، والاستغلال.

إن الوضع الراهن للأسرة العادية في كل الثقافات يتأثر سلبياً بالعرض الاستهلاكي الواسع، الذي يملأ عقول الناس بعدد لايحصى من الأوهام. وعندما يقعون في الشرك، يكرسون كل وقتهم وجهدهم للعمل من أجل كسب مايكفي من المال لإشباع رغباتهم، التي تمنع أو تحبط أية فرصة للتحليل البسيط للذات وإمكانية أن يستنطق المرء حياته أو نفسه. وبدلاً من ذلك، يفضل، دون تفكير إطلاقاً، أن يتقبل الأفكار والعادات الآتية من الأكثرية أو من القادة الأكثر جاذبية لمجرد كونهم يتفقون مع حاجاته الخاصة.

عندما لايكون لدى الشخص وقت أو اهتمام بإجراء تحليل استبطاني أو للعالم من حوله، فإنه يكتفي بالامتثال الأعمى لإملاءات المعلومات المستقلة التي تكمن في دماغه. فلكي يكون الإنسان حراً حقاً، فإنه يجب ألا يُخدَع عقلياً أو يقنع نفسه بما هو مألوف لديه، بل يجب أن يبحث عن مأتىً إلى الحقائق المتسامية التي تبقى نقية على امتداد الزمن بسبب طبيعتها بالذات.

إن الفرد الذي يكون "إنساناً سيئاً" بالمعنى التقني للعبارة، لمجرد أنه لايتمتع بجرعة محسوسة من الجودة الداخلية، سيكون أيضاً أباً سيئاً، لأنه لن يكون قادراً على نقل الصفات الجيدة لأطفاله مادام هو نفسه يفتقر إليها.

وكثيراً مايحدث أن مثل هؤلاء الآباء، بدلاً من أن يُعلّموا، فإنهم يتعلمون على نحو سيء من أطفالهم الذين يلجؤون، عندما يدركون ضعف آبائهم، إلى المناورة العاطفية لكي يشقوا طريقهم الخاص. والآباء الذين يتمتعون بمستوى عال من الوعي هم فقط من يستطيعون توجيه أطفالهم على نحو ملائم دون أن يحاولوا تحويلهم إلى نسخ عنهم أو يسمحوا للنزوات المألوفة في الطفولة أن تمتصهم أو تسيطر عليهم. فالآباء هم من يجب أن يتبصروا ويغرسوا المعايير المناسبة للتعايش داخل البيت بحيث يكون هذا حقاً النموذج المناسب للقيم العليا. ويجب الا نلجأ أبداً

إلى التسلطية لحمل الأطفال على القيام بما نريد ، بل علينا أن نوضح الأسباب أو الدوافع التي تقتضي منهم القيام بهذا العمل أو ذاك بطريقة يسهل فهمها ودون تناقض. فالأطفال يفهمون عادة أكثر بكثير مما نظن عندما نستخدم معهم الأسلوب الصحيح للّغة. فالأب الذي يضبطه طفله وهو يكذب يخسر سلطته الأخلاقية لتعليم طفله أن يقول الصدق، لأن الطفل يكون قد جرد أباه من هذه الأهلية.

إن واحدة من أكثر نقاط الضعف أهمية عند الآباء هي الاستسلام إلى عبادة البطل التي يتوجه بها أطفاله إليه، لأنها لذة نرجسية متواصلة. فأن يسمح المرء بأن يُعبَد كإله بعيد يُظهِر سلطته دون تقديم إيضاحات، ذلك هو النموذج التربوي الأدنى نوعية من بين كافة النماذج. لايمكن أن نتوقع من طفل أن يرتفع إلى مستوى والديه لكي يفهمهما. ولكن الوالدين هما من يجب أن يهبطا إلى مستواه ويقومان بالاتصال به بلغته الخاصة ويجعلانه يدرك، بمرور الزمن، أن أباه إنسان معرض للخطأ، ويخضع للخوف، والألم، والقلق، والمعاناة، تماماً كأطفاله، ولكن شخصيته وإرادته تسمحان له بالتغلب على المواقف المتعارضة.

عندما يجعل أب من نفسه إلهاً لأطفاله، فإنه يصبح في النهاية صنماً طينياً مزوداً بقدمين، يُظهِر عند أدنى انزلاق افتقاره إلى العصمة، وهكذا يعمل على تقويض احترام أطفاله وحبهم له. ويحدث عادة، في المشاحنات المادية التافهة، أن يتساءل الأطفال مرتبكين عما يحدث، ولكي لايقول لهم الآباء الحقيقة، فإنهم يلفقون أي عذر أو مبرر، ليظهر في النهاية أنه كذب وتناقض، مما يولِّد حالات تؤثر سلبياً على الصحة العقلية عند هؤلاء الأطفال.

ويحدث أحياناً أن يحاول كل من الأب والأم إلقاء اللوم على الآخر لكي يضمن حب أطفاله له، وهو تصرف يمارس تأثيراً مدمراً على عقول الأطفال، لأن والديهم يشكلون، في نظرهم، وحدة لاتنفصل. ولهذا يعتبر الاتصال المناسب الصادق بين أعضاء الأسرة ضرورة حيوية، وبخلاف ذلك، تتزعزع وحدة الجماعة، وتصبح أكثر عرضة لعوامل التفكيك، الخارجية والداخلية.

والتلفزيون واحد من العوامل الخارجية الذي يعمل، على الرغم من أنه يربط الجماعة مع بعضها فيزيائياً، على فصل أعضائها عقلياً وعاطفياً. لأن الأمسيات الصامتة تصبح عادة

خالية من أية محادثة لكي لايفوت الفرد تفصيل واحد من برنامجه المفضل. والتسلية عن طريق التلفزيون هي عادة أسوأ منافس لأية محاولة تربوية يقوم بها الآباء، لأنهم لايعرفون كيف يوضحون أن الشاشة، على الرغم من حقيقة أنها تعتمد على أشياء يمكن أن تكون واقعية، تعرض عادة واقعاً زائفاً، منفصلاً كلياً عن الحياة الحقيقية. ولهذا السبب، يصبح من المهم أن تخصص الأسرة وقتاً محدداً يقتصر فقط على الاتصال العائلي، وأن يدرك جميع الأعضاء ضرورة الالتزام بهذه القاعدة، لأنها توفر الفرصة لكل واحد للتحدث عن شتى مشاغله. ويجب أن تتوجه الحوارات لمعالجة المشكلات عند كل عضو، وحالته العاطفية، وما يغضبه ويزعجه، وما لايفهمه، وعلى الجميع أن يدلوا بآرائهم في هذا المجال.

يجب أن تُعقَد هذه اللقاءات أسبوعياً، كما يجب إحاطتها ببعض الشكليات التي تضفي عليها الأهمية التي تستحقها على اعتبار أنها فرصة مختارة للاتصال عاطفياً وفكرياً، وإدراك أنها ممارسة يمكن أن تكون حيوية للسعادة، والنجاح والنمو الروحي عند الأعضاء. ويُستحسَن أيضاً اختيار مواضيع المحادثة حول المعضلات أو المشكلات الأخلاقية في الحياة، لكي يتعلم الجميع الاتصال عن طريق عرض مايرتأونه حول تلك المشكلات.

ويمكن للآباء، الذين ينبغي أن يوجهوا هذه اللقاءات، أن يختاروا المواضيع التي تستجيب لمعرفة القيم الأخلاقية العليا، التي تشدد على أهمية الاستقامة، والقيمة الأخلاقية، والصداقة، والوطنية، والعمل، واحترام حقوق الآخرين، والتسامح، والانضباط، وكبح العواطف، وهلمجرا. وهذا يحمل الأطفال على التفكير بمدى أهمية التصرف السليم في الحياة لكي يكونوا مواطنين صالحين وأناساً طيبين.

وعندما يتصرف أحد أعضاء الأسرة على نحو غير سليم، يجب التحدث إليه بحضور الجميع، لالتأنيبه بطريقة تسلطية بل لجعله يدرك مدى افتقاره إلى الاحترام والضرر الذي يمكن أن يسببه لنفسه وللنواة الأسرية، على حد سواء.

ليس هناك ماهو أفضل من أسرة تعتمد النوايا الإنسانية والأهداف الروحية العليا، لأنها يمكن أن تصبح مستودعاً للثروة الأخلاقية التي يرثها الأحفاد كالمشعل الذي ينتقل من يد إلى يد ويتضاعف إلى حد كبير بمرور الزمن.

إن البؤس الأخلاقي للبعض ممن هم أنصاف بشر لايمكن أن يطال من تحميه أسرة يوحدها الحب والمعرفة الحقيقية، الأخلاقية والروحية.

فالأسـرة هـي الأمـل الحقيقي بعالم أكثر إنسانية، وجمالاً، وأفضل حالاً، لأنها تضمن نوعيـة حياة متفوقة روحياً في العوالم الداخلية عند الناس، حيث تجري هناك بحكمة دراسة التجارب اليومية لتغذية الروح.

والسـماح بضـعف الأسـرة نمـط واضح من اللاأخلاقية بسبب الخطة الإيجابية أو السلبية للغاية الـتي تسـتخدمها لـتدريب الناشـىء، أمل المستقبل. وهذا التسـاهل يمكـن أن يكون سلبياً أو إيجابيـاً، بالإهمـال أو عـدم الاحترام، وفي كلتا الحالتين، تتعرض نوعية الحياة عند الجنس البشري للتهديد.

وينبغي أن نـبيّن أنـه مـن الخطـأ الفـادح أن نقيّـم وحـدة الأسـرة مـن خـلال الـزمن الـذي يتشارك فيه أعضاؤها فيزيائياً. فعدد السـاعات ليس معياراً، ولكن المعيار هو عمق الاتصال، والحب، والإخـلاص ممـا يبقى دائماً في حالة كمون، مع أن الحياة اليومية يمكن أن تحد من الزمن الفيزيائي الذي يمكن المشاركة فيه.

ومـن الواضـح أيضـاً أنـه لاالأب ولا الأم الـلذين يـنهكهما العمـل، والقـلق، والكـرب يمكنهما أن يقدمـا للأسرة مساهمة إيجابية جداً، عاطفية أو نفسية، مهما امتد أمد عيشهما معـاً. ولهذا السـبب، يجب أن يعطيا الأفضلية لنمائهما الروحي لكي تظهر قدراتهما الإنسانية إلى العلن. وهـذا يعني أنـه كلما ارتقت حالـتهما الداخلية، كـان إسهامهما في الأسـرة أكثر أهميـة، ويـتجاوز قيـود الوقـت المتاح الشـائع كـثيراً في عصـرنا. وإذا لم يـتوفر للآبـاء الفـراغ الخـاص من أجل الاستبطان التأملي الصحي بصورة دورية، فإنهم لن يتمتعوا بالتوازن الداخلي الضـروري لتوجيه أطفـالهم بصـورة فعالـة. وفيما يتعلق بالعلاقات اليومية، فإننا نحتاج بحق إلى اتصـال مكـثف، وعميـق، ودافـىء، ومناسـب. وبهـذه الطـريقة، يمكـن أن يكـون اجـتماع لأعضاء الأسرة لمدة نصف ساعة يقول فيه كل عضو ويفعل مايراه مناسباً مفيداً أكثر بكثير مـن عـدم الاتصـال عـلى مـدى أيـام كامـلة وأفضـل مـن ارتكـاب المخالفـات السـلوكية، والعاطفيـة، والنفسية. فالأطفـال يجب أن يعرفوا أن بإمكـانهم أن يعولـوا على آبائهم، ولكن ليس بالمعنى النرجسي لاستخدامهم كأشياء، ولكـن كمصادر للحب الحقيقي، والاتحاد، والانهماك بشؤونهم.

وفي سياق آخر، على المرء أن يتوقف ويفكـر في أنه عندما نتحدث عن وحدة الأسـرة، فإن هـذه الفكـرة تكـون عـادة محـدودة بمعناهـا الاجـتماعي، في حين يسـتثنى تحليل حالـتها

الأخلاقية على افتراض أنها محظوظة لمجرد بقائها مجتمعة. وهذا مايساعدنا على ملاحظة التناقض في حالة الأسر المتحدة بقوة مع أن هذه الوحدة لاتأتي عن طريق الفضيلة، بل عن طريق اللاأخلاقية، والعادات السيئة، أو حتى الجريمة، والحقد، والعنف، والحسد، والامتعاض وأرضية التدريب الأكثر سوءاً لنمو الأطفال.

وبهذه الطريقة، يتم تفادي الحقيقة التي لايمكن نكرانها لأنه من وجهة نظر "تقنية" هناك أسر جيدة وأخرى سيئة، على الرغم من وحدة أعضائها، حتى أن النماذج المثالية، الأخلاقية والنفسية، لتعايش الأسر يجب أن تتكون بهدف توحيد هذه المفاهيم مباشرة من التعليم المدرسي، الذي هو أفضل فرصة لتنمية ثروة حقيقية للبلد. وعلى هذا، يجب ادخار المفهوم الأخلاقي للأسرة للجماعات الأسرية التي توحدها القيم الروحية والأخلاقية العليا، التي تنشر مبادئها ليس فقط إلى المتدينين بل أيضاً إلى الملحدين، بحيث يمكن أيضاً أن يجدوا مأتىً إلى الروحية من خلال رسالة تقنية منطقية لاتتطلب إيماناً غير محدد إذا التزم المرء بمحتواها.

الراحة

تعود الناس على تكييف أنفسهم بمستوى الحاجة الأدنى، وذلك بهدف تحقيق وضع عقلي وعاطفي صلب وثابت في الحياة بأسرع وقت ممكن، وذلك لكي يشعروا بالأمان ويتفادوا الخوف والكرب اللذين يثيرهما التغيير، متجاهلين أن الحياة هي تغيير متواصل وأن التحجر النفسي يكوّن الموت في الحياة. والفرد، منذ شبابه وما بعد، يسعى إلى معادلة شعوره بالخطر بتحقيق نمط ما من التوازن الداخلي يساعده على الصمود في وجه المتغيرات غير المحدودة لوجوده.

ويقلد الشاب عادات وتصرفات الناس الذين يُعجَب بهم بسبب التأثير الاجتماعي الذي تبعثه في نفسه هذه الشخصيات، أو شهرتها بين الجماعات التي يتحرك ضمنها، وليس بسبب مايستحقونه فعلاً. وهذا يقوده، دون أن يدري، إلى يكتسب عادة التقليد لأنماط جريئة من السلوك تهيء له شعوراً بالأمان أمام الحشد. ويحل تدريجياً محل الكرب الذي كان ينهشه إحساس بالتفوق، الذي يقوده في مرحلة ما إلى الشعور بأنه آمن نسبياً في عالم كان من قبل يبدو معادياً له. وتأتي لحظة يتضاءل فيها جهده المُوازِن أو يتوقف لأنه يشعر بأن الناس ينظرون إليه باحترام، أو خوف، أو إعجاب، حتى يظن بأنه وصل إلى مستوى أعلى من الأمان الفردي

الذي توفره الشخصية الناجحة اجتماعياً. وعندما يشعر الفرد بأنه احتل مكانة اجتماعية مناسبة، فإنه يضع حداً لتفريد[1] جهوده ويتحجر عقلياً ونفسياً بهدف حماية الهوية التي حصل عليها وإدامتها، لأنه يشعر أن هذا يحميه بفعالية ليس فقط من عدوان الآخرين بل أيضاً يهيء له موقعاً متميزاً على الصعيد الاجتماعي. ويمكن أن تتخذ هذه العملية شكلاً معيناً من حماية الذات، مع أن هناك شكلاً آخر فيه يقرر الفرد أن أفضل دفاع ضد عدوان مفترض أو حقيقي من قبل الآخرين هو الهجوم، وهكذا، يتحول إلى متنمر نفسياً يحط من قدر الناس ويثيرهم لفظياً أو نفسياً كوسيلة للشعور بالأمان. ومما لاشك فيه أن هناك حالات أخرى فيها تتبنى الشخصية العدوانية عمداً وبقصد واضح تخويف الناس لتحقيق فوائد غير قانونية.

ومن الواضح أن تلك الآلية نفسها يمكن أيضاً أن تحوّل الفرد إلى شخص جبان، لأن هذا يتفق مع مقاربة دفاعية مناسبة جداً. وهناك أمثلة أخرى فيها يتحايل الفرد الذي يحتل موضعاً اقتصادياً سياسياً متدهوراً لتبرير فقره بمبررات معقدة، ويحوله إلى نوع من العوز الأبي فيه يسمح له إباؤه بأن يبالغ في تقييم احتياجاته ويحط من قدر من "هم فوق." ومن وجهة نظر أخرى، يحدث الشيء نفسه عادة مع كثير من الأفراد غير المرغوبين حقاً الذين يعتبرون أنفسهم، من خلال المناورة بعقولهم، أفضل ممثلين للنوع البشري، مع أنهم، في الواقع، حثالة هذا النوع.

وفي الحقيقة، يكتشف الفرد في مرحلة معينة أن طريقته النموذجية في التصرف يمكن أن تعود عليه بالفائدة من خلال علاقاته بالناس، ومنذ تلك اللحظة، يصبح هدفه في كل مايقوم به هو البحث عن العناصر الضرورية التي تعزز أنماط سلوكه. ومنذ تلك اللحظة أيضاً تتحجر شخصيته ولن تتعدل في بنيتها الأساسية، لمجرد كونها تنمو بمعنى زيادة آلياتها أو تعزيزها. تؤدي هذه الحالة إلى نشوء نوع من الراحة يتجاوز مجرد الكسل، ليصبح، في الحقيقة، دافعاً للعطالة أو الموت وهو مايعرف في التحليل النفسي بـ غريزة الموت، النقيض لـ غريزة الحياة-التي هي إشراق الحياة. والفرد عندما تستحوذ عليه عطالة تنبع من هوية شكلتها أنماط ميكانيكية تفتقر إلى الوعي، يرفض أن يخرج من طريقه المألوف لكي يفهم واقعاً جديداً. وهذا هو الاتجاه عند كامل الجنس البشري، وهو منشأ العجز عن الاتصال وأصل العنف بين الناس.

1-جعلها فردية-المترجم.

يبدو أن التبدلات التي يخضع لها الكبار تحدث على السطح وليس في بنيتهم الأولية، حتى أنه لايوجد عادة تحول تطوري بين اللحظة التي فيها تتحجر الشخصية واللحظة التي فيها يحدث الموت الفيزيائي. وهذا يعني أن هناك تبدلاً وحيداً في العادات الاجتماعية، كما هي الحال عندما يغير الشخص لباسه تمشياً مع "الموضة" أو عندما يقتني دمىً لم يسبق له أن لعب بها. فالشطر التملكي يتعدل، ولكن لايحدث تغيير حقيقي في الكينونة، التي تشكل انحرافاً عن التكليف التطوري لـ الطبيعة. فعندما يكتسب الفرد ثباتاً نفسياً، وهو سمة للشخصيات المتحجرة، فإنه يكتفي بالدفاع، على نحو أعمى، عن أنماط سلوكه، ويستحسن الأنماط السلوكية التي تتفق مع أنماطه ويتنكر لتلك التي تختلف معها، دون أي تحليل إضافي.

وأياً كان المستوى الاجتماعي أو الثقافي لهؤلاء الناس، فإنهم يشكلون طبقة خاملة، كائنات عاجزة عن الانفتاح على أفكار جديدة أو مختلفة، كالدجاج في خُمِّه، يقضون حياتهم جاثمين في أعماق معتقداتهم، يخشون مقاربة نور الحقائق الأكثر عمقاً.

لايكفي أبداً أن ندرك أن هذا هو المقياس الذي يستخدم لتعريف مايدعى خطأً بـ "السَوائية،" أي دافع المرء إلى أن يكون "إنساناً آلياً اجتماعياً،" فرداً يحمل دماغاً مبرمجاً بصورة متكاملة بواسطة الرسائل الحديثة، سواء أكانت ثقافية، أم سياسية، أم دينية. والراحة، بالمعنى الذي نحلله، هي انتهاك أخلاقي لأنها تخالف التكليف التطوري للخالق، الذي هو الهدف المهم للوجود.

وبسبب المريح، يُترَك، بلامبالاة، الكثير من المسنين للضعف؛ وملايين الأطفال للجوع؛ ويحتفظ الناس بلامبالاتهم بهذه المعاناة في حين تقبع أرواحهم في سجن كونها عاجزة عن إظهار نفسها من خلال ناقلتها الجسدية. ويصبح الناس أيضاً شركاء متواطئين في الآيديولوجيات المنحرفة أو مع القادة الشاذين؛ ويتم التساهل مع الفضيحة والفساد العام؛ والسماح بالتلاعب بالعدالة؛ ويصبح هذا التلاعب في بعض البلدان، بصورة خفية وماكرة، أداة سياسية للدولة. ويموت المرء ببطء في الامتثالية اليومية للجبن الأخلاقي عند العاجزين عن التغلب على طبيعتهم الحيوانية، بسبب ضمور شخصياتهم وإراداتهم، ، ويبقون كأدوات سلبية لعواطفهم الخاصة، مع وضع ذكائهم في خدمة الجشع، أو الامتعاض، أو الحقد، أو العنف، أو الكسل، أو التخريب.

في كل يوم يموت الشرف والكرامة عند العاجزين عن الالتزام بالحقيقة والعدالة؛ عند من يتشكون رياء من الظلمة في وسط النور؛ عند من يُقَهِّرون عقولهم للدفاع عن قضايا لاأخلاقية؛ عند من يبيعون بلدهم للمصالح الأجنبية باسم الإنسانية والسلام؛ عند من يحافظون على الصمت السلبي تجاه الفجور والفساد بسبب الراحة أو الخوف.

إن الراحة أو المريح، بسمهما القاتل، يدمران النوايا الحسنة عند الناس. فيفقد المرء كل قوته ويدعم نفسه بالعطالة اليومية، كالشخص المريض الذي يتداعى على فراشه مذعناً للاستسلام للموت. إنه يمثل دافعاً داخلياً لمواصلة ماكان يقوم به دائماً، وألا يبتعد عن ذخيرته العاطفية النموذجية، ويستمر في التفكير كما كان يفعل حتى الآن. ومن خلال العطالة، يواصل المرء الفشل، والانحطاط، والموافقة السلبية، وإحباط الرغبات الداخلية؛ وإنكار الحقائق التي لاتلائم قناعاته الخاصة، مهما كانت واضحة؛ والتلاعب بالأخلاق لكي يتصرف على نحو خاطىء والظن بأنه يتصرف على نحو سليم؛ والتشبث بالأفكار القديمة وكأنها أصنام؛ ومقاومة الانفتاح على النماذج الجديدة أو المختلفة؛ واللجوء إلى الانغماس الذاتي النفاقي لكي لايفسد راحته؛ والاستسلام للتأثر برأي الأكثرية والخوف منه، مهما كان مختلاً.

ومرة أخرى يجب أن نتذكر أنه لكي يتصرف المرء بالشكل السليم، فإنه يجب أن يعمل على تنمية شخصيته وقوة إرادته، وهذا غير ممكن مادام هذا السلوك السهل الكسول يسيطر عليه مما يقوده إلى الاستسلام والانهيار عندما يعترضه عمل يتطلب بذل جهد عنيف ومداوم.

تسبب الراحة إدماناً لأنماط مألوفة من السلوك وهذه الديمومة المُؤَتْمَتَه في عاداتنا النفسية، والعقلية، والعاطفية تخرب وتحبط أية إمكانية إيجابية. فهناك كثير من الناس يشعرون بالتعاسة ويرغبون بقوة أن يحققوا السعادة التي يبحثون عنها. ولكنهم لايدركون أن استمرارية سوء الحظ هي نوع من الراحة. وهذا مايجعل السعادة مرغوبة ومرهوبة في آن معاً، ولهذا يختار الفرد، دون وعي، أن يبقى تعيساً.

من البدهي ألا يعترف أحد بأنه تعيس بقراره الخاص، وقلما يعترف أيضاً بأن رذيلة الراحة هي التي تسبب تعثر حظه. ويلجأ عادة إلى إلقاء اللوم على عوامل خارجية لتعاسته، وقلما يلقيه على آليات لاواعية ذات طبيعة تخريبية. يتشكى هذا الفرد المتواني عادة من كل

مـايحدث في بيئته الاجتماعية والشخصية، فيعزو إخفاقاته إلى أناس أو أوضاع معينة، ويستثني نفسه من هذا التحليل. فاتخاذ دور الضحية عادة شائعة، لأن هناك رسائل ثقافية ودينية تذكر سراً أن كافة الضحايا، سواء كانوا ظاهريين أو حقيقيين، هم أناس طيبون يتألمون على أيدي بعض الظالمين المنحرفين. وكثيراً مايشغل هذا المكان حاكم غير محبوب من قبل الناس، أو مؤسسة بعينها أو آيديولوجيات معينة، ولكن مادام هذا التكييف العقلي يعمل في أدمغة الطبقة الخاملة، فإن أعضاءها يعتبرون أنفسهم "طيبين."

إن واحدة من المشكلات في عالم اليوم هي صعوبة التمييز بين الضحية الحقيقية والمدَّعية. فالأشياء التي تبدو واضحة هي عادة الأكثر غموضاً، كما يقول الفلاسفة منذ آلاف السنين. فعلى سبيل المثال، ليس من النادر أن يقع أناس بريئون ضحايا لعدالة عمياء تصدر قرار إدانتها دون أن تدرس الحقائق في العمق، لأنها لاتتمتع بالاستقلال الضروري للصمود في وجه بعض الضغوط. ويبقى المبتلون إلى مالا نهاية تحت وطأة وصمة العار التي جرها عليهم الشر والفساد.

والحقيقة هي أن "المتمهلين" يجدون من الأسهل عليهم بكثير أن يصنفوا أنفسهم ضحايا لشيء ما، سواء أكان ذلك الشيء حقيقياً أم مفترضاً، كوسيلة للحظوة بالاحترام وتفادي الجهد الشاق والمداوم الذي يلزمهم لكي يربحوا بصورة اختيارية من خلال قرارهم الخاص، ويسعدوا، ويتخلصوا من العدوانية والامتعاض. وأن تتشكى هو أسهل بكثير من أن تعمل بجد، فتطلب من الدولة، أو من شخص ما، أن يقوم بحل المشكلات التي هي، في الحقيقة، مسألة جهد فردي خاص بك. وكلما كان الشخص لامبالياً أكثر، كانت تشكياته أقل معقولية، ومطالبه أقل تناسباً أو أكثر اعتباطية. ويبدو الشخص الكسول، في عالمه الداخلي، وكأنه يعي سلوكه، حتى أنه يذهب إلى النهاية الأخرى لكي يلمِّع صورته، مقتنعاً بأنه يستحق كل شيء (وهو، في الواقع، لايستحق شيئاً، وهي نتيجة منطقية لكسله أو خموله). ولما كان، على الأرجح، لايملك الكثير، فإنه يقنع نفسه بأنه ضحية للنمط الأكثر شراسة من العدالة ويشعر بامتعاض مرير. وبهذه الطريقة، يلقي اللوم على المجتمع، أو على شخص معين، أو على نظام، أو على طبقة اجتماعية معينة، أو على أي شيء لكي يتفادى النتيجة الحتمية لشعوره بالمقت لبذل جهد ملائم والتصرف بفعالية بطريقة منضبطة.

يجب ألا نظن أن الفرد لايعتبر كسولاً لمجرد حقيقة أنه يعمل بانتظام. فكلنا نعرف أن

العطالة هي عجز الأجسام عن القيام بذاتها بتعديل حالة الراحة أو الحركة التي تجد نفسها فيها. فمن يبقى مرتاحاً طوال الوقت هو خامل تماماً كمن يتحرك آلياً بنشاط انفعالي شديد، وهو نشاط غير منتج لأنه يفتقر إلى الوعي والتنظيم. وعلى المرء أن يعلم أنه لايكفي أن يعمل؛ بل يجب أن يعمل بكفاءة، وبهذه الطريقة فقط يمكنه أن يحقق أهدافه الشخصية. وعليه أن يضع في اعتباره أن تحقيق الكفاءة في بعض المجالات قد يحتاج إلى سنوات وأنها لايمكن أن تُرتَجَل، ولهذا يجب أن يتخلى عن مفهوم "الكسب السهل." إن أي شيء ذا قيمة حقاً له ثمن، وفي هذه الحالة، يجب دفع الثمن بما يكافىء الجهد والمثابرة. وفيما يتعلق بالسلوك، فإن المرء يحتاج إلى مرحلة سابقة من التضحية والانضباط الذاتي لكي يصبح مستقيماً حقاً، وهي مرحلة يجب علىالفرد فيها أن يبلور شخصيته وإرادته، ويصمد في مواجهة الرذيلة والفساد، ويتغلب على كثير من الإغراءات قبل أن يصل إلى حالة منيعة على الإفساد.

كل من يكره بذل جهد مداوم طوال الوقت يعتبر ماقلناه آنفاً عملية عقيمة وعديمة الفائدة، عملية لاتتفق مع الجهد السهل ومتعة اللحظة. إنهم عاجزون عن التخلي عن أهداف عاجلة في سبيل أهداف آجلة، مهما كانت هذه الأهداف قيِّمة وسامية، ويسعون باستمرار لإشباع عاجل لدوافعهم كالأطفال. لقد كانت استحقاقات الجهد المنظم دائما موضع تساؤل، بحجة أنها تستجيب لميل سياسي معين، وكأن هناك نظاماً صادقاً للنجاح في الحياة يستبعد العمل الجاد والكفاءة الشخصية.

الراحة هي سبب الهرم والتراجع المبكرين ونتيجة لهما. ومن يستسلم لها يجهل أن دافعه يقيم في الموت أكثر منه في الحياة. والصورة العادية التي نحملها للراحة هي صورة فرد خامل يقضي معظم وقته متمدداً على أريكة، لايزعج نفسه للحصول على مايريد، أو فرد يعيش حياة عربدة شهوانية من وسائل الراحة المادية. ويمكن التعرف على هذا النمط من السلوك بسهولة ويصعب على الفرد نفسه أن ينكره.

ولكن هذا لايحدث مع العطالة النفسية التي تؤثر على العقل والعواطف، والتي تتكون من مقاومة عميقة آلية للابتعاد عن القنوات المألوفة للتفكير، والسلوك، والشعور. وهي آلية غامضة يفسرها الفرد على أنها رغبته أو إرادته الخاصة، أي كخيار حر لمن يريد أن يواظب على أنماط سلوكية مختارة من عقلانية أعلى. ولن يظن هذا الفرد يوماً أن أصل هذا السلوك يمكن أن يكمن في الكسل الذي تحرضه العطالة، التي تؤثرعلى نفسه، بعد أن تكون أثرت على حركة الجسم بالكامل، فتدفعها إلى سلوك مماثل.

هذا واحد من الأسباب التي تكوِّن ميلاً قوياً عند الناس لمواصلة القيام بما كانوا دائماً يقومون، ويفكرون، ويشعرون به، وفقاً لعادتهم المألوفة، وهو موقف يمكن أن يتبدل فقط عن طريق تطوير حالة من قوة الوعي أعلى من حالة العطالة. وما من أحد ينكر أن فتح طرق جديدة أصعب وأكثر مشقة من السفر في طرق معروفة جيداً. وعندما يكون الدماغ هو المعني، فإن المهمة تصبح من اختصاص إنسان متفوق، وتُدَّخر فقط للأبطال أو لمن يتوقون إلى أن يكونوا أبطالاً، لأن المعلومات التي نحملها في أدمغتنا على شكل معرفة أو إشراط[1]، تفتح مسالك أو قنوات للاتصال بين العصبونات تشبه دارات إلكترونية، تصبح ممرات ثانوية إجبارية لدوران الطاقة وهي، في هذه الحالة، المعلومات المتبادلة بين خلايا الدماغ. وبمعنى آخر، إن أدمغتنا تحتوي أيضاً على دوائر للراحة، أي مسالك للاتصال العصبوني من خلالها تعبر الدوافع العصبية بطريقة مرنة جداً وهي متاحة للنشاط الدماغي المألوف.

ولذلك، فإن التفكير السوي يعني الدوران الحتمي على امتداد مسالك معروفة جيداً، والوقوع في التكرار المتواصل للخطط الخاصة بالفرد، ويمكن تفادي هذا فقط عن طريق نشاط عقلي أعلى، وهو ليس قدرة فطرية ولا نتعلمه من خلال التعليم أو الثقافة، بل يمكن اكتساب هذه الصفة بعد تدريب طويل في حالات من اليقظة العميقة، وهي عملية من خلالها يمكن للمرء يوماً أن يصل إلى مايُدعى بالتلقائية العصبونية، التي تشابه أشكالاً من ترابط عصبي لم تُسجَّل سابقاً، ولا هي آلية، وكأن البنية العصبونية الكاملة يجب أن تنسى كل يوم الشكل المألوف للاتصال، بحيث تُرتَجَل يومياً طريقة جديدة. وتشبه هذه الظاهرة ظاهرة الوعي اليقظ الحقيقي. وبهذه الطريقة، تحكم الراحة حياتنا بصورة تامة، وتحملنا على تعديل رؤيتنا للعالم بما يتفق مع آلياتنا، أو أخطائنا، أو عيوبنا، أو رذائلنا، أو إخفاقاتنا لابما يتفق مع أية صورة حقيقية للواقع. وهذا مايجعل الفرد يمتثل، بشكل أعمى، للسلطة المضمرة للأكثرية، مهما كانت ضئيلة الأخلاقيات التي تنطوي عليها عاداتها، ملتزما، بصورة سلبية، بأشكال السلوك غير الملائمة، وخصوصاً عندما تتنكر بكلمات جميلة مثل حرية، أو عدالة، أو مساواة، أو تسامح.

يؤيد بعضهم إلغاء عقوبة الموت، حتى في الحالات المبررة بقوة، ليس فقط باسم المثاليات

1-الإشراط: عملية ربط منبه برَجْع لم يكن بينه وبين ذلك المنبه صلة في الأصل، وذلك عن طريق التداعي- المترجم.

الإنسانية والمحبة المسيحية، ولكن أيضاً باسم الامتثالية السهلة الفاترة، بحجة أنها عقوبة همجية لأنها تُنفّذ ضد أغلى مايمتلكه الإنسان، التي هي الحياة، وأن المجتمع لايمتلك حق الانتقام لنفسه. لقد أُطلقَت عبارة "انتقام" على فعل توزيع العدالة ذاته. ولكن، يتم أحياناً تبني موقف متساهل يساعد بعض المجرمين على أن يشعروا بحرية وضعهم نهاية لحياة أناس آخرين لأنهم لايخافون العقاب. وبهذه الطريقة، ولإنقاذ القلة فقط، نجازف ليس فقط بالحياة، بل أيضاً بهدوء الناس المسالمين. ولأن يموت المرء ببطء، ثانية بثانية، ربما أكثر قسوة بكثير من إعدامه، كما في التعذيب الشرقي الخرافي الذي فيه يسقط الماء قطرة قطرة على رأس المحكوم حتى يصاب بالجنون.

وعلى الرغم مما يقال بعكس ذلك، فإن ملايين الأطفال، والكبار، والمسنين البريئين يموتون يومياً بسبب الهواء الملوث الذي يتنفسونه، ومن خلال رقابة غير كافية لأطعمة ملوثة ممزوجة بإضافات، ولا يمكن التنبؤ بتأثيراتها، وتتعرض أدمغتهم لطرق التلوث السمعي وعقولهم للغزو والتسمم بعدد لايُحصى من الرسائل الدُّووَعيية المتناقضة والتي تحرض العُصابات.

ويبقى الناس لامبالين مع أن المحرومين لايجدون مأتىً إلى العدالة، لأنها تجري عادة في الاتجاه الذي يوفر لها المال. ويتعرض المسنون للهجوم بوصفهم أعباء ثقيلة على المجتمع أو الأسرة. ويتزايد استهلاك المخدرات كل يوم ويموت في الحياة كثير من المبتلين بها بسبب تعويلهم الشنيع عليها. فلماذا لااندافع عن الحياة الإنسانية في هذه الحالات بالحماس نفسه الذي نطالب فيه بإلغاء عقوبة الإعدام؟ من الواضح أنه في ظل آليات مهذبة ماكرة للموت والتدمير، فإن مايتعرض للهجوم هو الشكل الوحيد للتخلص من شخص ما ليس مرائياً ولا منافقاً، بل يستجيب للفعل الشفاف للعدالة الاجتماعية.

يجب على المرء أن ينعم النظر فيما إذا كان مجرد تدمير شخص خلال لحظة يعتبر قتلاً عمداً أو ماإذا كانت الجريمة لاتمتد أيضاً بحيث تشمل مختلف أشكال الموت البطيء. فإذا قام أحدهم بتسميم شخص بسم بطيء المفعول يستغرق عشرين عاماً ليقتله، فهل يعتبر هذا التصرف جريمة أقل من جريمة التخلص منه بضربة واحدة على الرأس؟ وعلى العكس، إن التفكير المسبق والنية السيئة الضروريين لتأمين المادة السامة بانتظام لبعض الوقت يجعل الجريمة أكثر سوءاً بكثير.

لايتردد الطب التقليدي في استئصال الأورام السرطانية جراحياً، مع معرفة أنه إذا لم يتم الاستئصال، فإن الجسم بكامله سوف يموت. ومن خلال الرياء والمحبة الزائفة، يرفض المجتمع أن يسلّم بأن أشكالاً معينة من انتهاك القوانين هي سرطان اجتماعي حقيقي، والحل الوحيد له هو التخلص الحاسم من العامل المزعج، قبل أن يتفاقم التلف في الجسم الاجتماعي- وإذا لم نفعل ذلك، فإننا سنصبح حلفاء وشركاء لهذه العناصر التخريبية. وربما يكون التخلص جسدياً من مجرم أثيم أكثر رحمة من سجنه مدى الحياة. وقد يحتج بعضهم بأن "الله يعطي الحياة، وهو وحده يحق له أخذها." وفي الواقع، إن من يقتل شخصاً يستحق العقاب الذي قرره المجتمع سابقاً. ولذلك، فإن القاتل يصبح قاتل نفسه في حال إدانته بالموت. وهذا لايعتبر انتقاماً، بل هو إعادة توطيد للعدالة وأمن المجتمع.

ينطوي إلغاء عقوبة الموت على التناقض، ويكمن هذا التناقض في حقيقة أننا نعاقب ضمناً الضحية وأسرته في آن معاً، أولاً، لأننا نؤيد موته، وثانياً، لأننا نمنع المكافئ المساواتي الذي يعني التخلص الجسدي من المجرم، وبذلك نعطي لكليهما حقوقاً مختلفة ضمن القانون.

وبالمثل، فإن الشخص المسؤول يُكافأ مرتين، أولاً، بالسماح له بإشباع دوافعه الإجرامية المنحرفة، وثانياً، عن طريق الاهتمام الدائم بطعامه وسكنه وصحته، وبالتالي، يتم منع اللعنة التوراتية "كسب الخبز بعرق الجبين" التي أُدين بها الإنسان بسبب الخطيئة الأصلية. فإذا تم رفض عقوبة الموت بسبب الشفقة، فإنه يجب على المرء أن يدرك أن العقوبة مدى الحياة ليست حقاً بديلاً، لأن الحرمان من الحرية بالنسبة للكثيرين من الناس، وخصوصاً من يعيشون في فقر مدقع، يمكن اعتباره مكافأة بمقدار مايضع نهاية لكفاح المرء في سبيل خبزه اليومي.

ويبدو أن المجتمع سيشرع في مطلع القرن الحادي والعشرين بتغيير أسماء الكثير من الأشياء إرضاء للرياء المألوف وتفادياً لحسد الامتعاض. فهو سوف يسمي العقوبة القصوى للعدالة التقليدية "انتقاماً"؛ والسلوك المنحرف، "تنويعاً في التجربة الجنسية"؛ والاستهلاكية الجنسية، "حباً"؛ والغموض، "وسطاً[1]"؛ والاستهلاكية، "رفاهاً"؛ والخلاعة، "حرية"؛ وشجب الفساد، "هجوماً على شرف الناس."

كما يبدو أن نمط الصفقات الكلامية بين شخصين صادقين كاملين التي تُعقَد بينهما بالمصافحة، سوف تصبح شيئاً من الماضي أو سبباً للضحك والسخرية.

1-أي المركز الوسط بين اليمين واليسار في السياسة-المترجم.

تمنحنا العطالة المتراكمة نشاطاً عقلياً مدهشاً لتكييف محاكماتنا الداخلية، وأذواقنا، وأفضلياتنا الأخلاقية بحيث تتلاءم مع توترية دوافعنا الفريزية، وبالتالي، لتبرير تجاوزاتنا اللاأخلاقية اللاشعورية.

لاشك في أن السلوك اللاأخلاقي يمثل انحطاطاً للملكات الإنسانية، لأنه عملية انحدار، عملية هبوط سهلة ميسورة باتجاه الأسفل، في حين أن الاستقامة تستلزم عملاً شاقاً عسيراً لأنها تتطلب الارتفاع إلى مستوى أعلى من السلوك، وتنمية ملائمة للشخصية والإرادة، كما بيَّنت ذلك مراراً.

إن الاستقامة نقيض الراحة؛ إنها عمل متواصل للقدرة التي تحتاج إلى كامل القوة الداخلية عند الفرد. والرذيلة، على العكس، لايحتاج المرء إلى كبير عناء لاكتسابها، إذ يكفي أن يوافق باستكانة لكي ينحدر، دون دراية، اكثر فأكثر نزولاً على السلم حتى ينتهي، في بعض الحالات، إلى تدنيس حالته الإنسانية بالقناعة العمياء بأنه يتصرف على نحو سليم.

وفي خضم تناقضاتهم الكبيرة، يقول بنو البشر إنهم يلتزمون بطريقة فاضلة في الحياة، ولكنهم في الوقت نفسه يحطون من قيمة النُّخْبِيَّة[1] ويهاجمونها، وكأنها خطيئة خطيرة كأي شكل من أشكال الفساد، متجاهلين حقيقة أن الفضيلة لم تكن يوماً امتيازاً للحشد ولكنها ميزة لبعض الأفراد القادرين، بسبب جهدهم واختيارهم الحر، على الاندماج في أقلية مختارة ممن نجحوا في تحرير أنفسهم من الشهوات.

الحشود بطبيعتها غير منضبطة ومتقلبة، وتفتقر إلى رأس مسؤول يضمن سلوكها الأخلاقي المناسب. فعندما يُطلَب منا أن نطبق المساواة دون تمييز، تكون هناك محاولة ماكرة لحثنا على تبني أنماط من السلوك شبيهة بأنماط السلوك عند الحشود العمياء لكي نسقط مثلها إلى الغموض الأخلاقي. ويبدو أنها محاولة لمنعنا من التخلي عن الدور السلبي كمستهلكين مطيعين.

والسبيل الواضح للراحة هو طبعاً أن يسلم المرء نفسه إلى الحشد ويفقد هويته الخاصة هناك لكي لايتعرض لنقد أو هجوم لأنه يصعب تمييزه من الحشد.

1-نسبة إلى نخبة-المترجم.

إن الطبيعة العقلية عند الناس تجعلهم يبحثون عن ثقافة معلبة في الكتب، مهضومة مسبقاً، أفكار محبوكة على نحو جميل تحمل المرء على قبولها بشكل أعمى، فلا يزعج نفسه بالتفكير بها، بل يهتم فقط بالدعاية أو مكانة دار النشر.

وتقع أفضليات القراءة في خانة الأدب "المغلف بالسكر" المصمم خصوصاً لتملق غرور الناس أو إشباع الأوهام التافهة عند الكسالى والمنغمسين ذاتياً.

وينضم الناس أيضاً إلى أكثر الأحزاب السياسية قوة أو نفوذاً من خلال العطالة، ويصفقون للفنانين الذين يرعون أسلوب الغرتسك في الفن فقط لأن النقاد "المعتبرين" يقرظون "جمال" أو "عمق" عملهم. وبالمقابل، إنهم يحطون من قدر الذين يمكن أن يصبحوا عباقرة كعباقرة عصر النهضة. فالراحة هي، دون شك، عدو للقيم الأدبية والأخلاقية، وتتآمر، من جحيم ظلمة الروح، لتمنع الإنسان من الصعود.

الحقد

قال القديس أوغسطين إن "الغضب يولّد الحقد، ومن الحقد يولد الألم والخوف." ويقول غوته "الحقد هو الحِمْل الساكن الذي يغوص بالقلب إلى أعماق الصدر، ويجثم بشدة على جميع المباهج كشاهدة القبر." فالحقد، والنفور، والمقت لشخص أو شيء ما نريد له الأذى مرض أخلاقي يؤثر على جزء كبير من الجنس البشري. والحقد، كالمشاعر الأخرى السلبية الحادة كالحسد والغيرة، ينتشر بسرعة على نحو معدٍ وسامٍ جداً إلى حد ينتهي به إلى إلغاء إرادة الضعيف. وكما في الحالات التي وصفناها أعلاه، فإن الإحساس بالحقد الشديد، كأي نشوة أخرى قوية، يعبر عن سَوْرَة منحرفة للنشاط الجنسي الذي يتخذ، في هذه الحالة، شكلاً تدميرياً. والحماس نفسه، في مظهره الإبداعي السلبي، هو الذي دفع ميشيل آنجلو إلى رسم كنيسة سستين أو إنتاج أي عمل من أعماله.

يمكن أن يكون للطاقة الجنسية ثلاثة منافذ مختلفة للتصريف، أكثرها شيوعاً الوظيفة التوالدية؛ ويمكن أيضاً تصعيدها كقوة دافعة في سبيل الروحانيات والفنون؛ أو أنها، في أحط أشكالها، تتنكر بلباس الحقد، فتنحرف وتسبب الدوافع السادية. إن معظم الناس المكروهين هم ساديون ومن خلال فيض أحاسيسهم الشبقية المنحرفة يصلون إلى إيغافٍ نفسي يستمر طوال الوقت. وهذا يعلل معاودة حدة عواطف كالغضب، والغيرة، والعنف وما يعترض سبيل كبحها من صعوبات. تسبب الأحاسيس الشديدة جداً قذفاً للمغنطيسية البهيمية عند

الفرد. وفي هذه الحالة، يعمل الحقد على تعميق المشاعر التدميرية عنده إلى قدرة استثنائية ويولّد مغنطيسيته المشبعة بنية مهلكة.

كان الساموراي[1] Samourai القدماء قادرين على أن يدركوا مقدماً، وعلى مسافة بدنية محددة، ماكانوا يسمونه "ريح القاتل،" وهو معادل للنوايا الإجرامية عند من يريدون مهاجمتهم، حتى أن مفاجأتهم كانت صعبة جداً إن لم تكن مستحيلة تقريباً. وبطبيعة الحال، كان هذا الإدراك نتيجة لتدريب طويل الأمد، وعلى هذا، فإن الرجال العاديين يفتقرون إلى هذ الحساسية. ولكن "ريح القاتل" هو تسليط مغنطيسية مشرَّبة بالنوايا التدميرية لشخص يريد أن يقتل المحارب. وتعمل نوايا الناس، ومشاعرهم، ودوافعهم على تشريب وتشبيع مغنطيسيتهم الحيوية إيجابياً أو سلبياً، وهذا ليس تجلياً ميتافيزيقياً، ولكنه ظاهرة طبيعية تماماً كادخار المعلومات على قرص مرن أو قرص صلب من تلك التي تستخدم في الكومبيوتر. إن الشخص الذي يكره يصنف اهتزازاته التدميرية في مغنطيسيته الشخصية وفي مجالات الحياة الخاصة به، مسلطاً هذه الطاقة على الشخص أو الشيء الذي يمقته. وأول من يتعرض للأذى بتصنيف الحقد هو الفرد الكاره بالذات، لأنه طالما كانت هذه عاطفة ذات طبيعة تدميرية ومبغضة، فإنها تبث الفوضى في مجالات الحياة الخاصة به، وتفككها، وتلطخها، وتشوشها، وتلوثها بضرر لاحق لصحته.

هناك كثير من الناس يصابون بأمراض خطيرة بسبب الحقد الذي يضمرونه. فالاستياء، والحقد، والحسد، والميول التدميرية كلها نغمات موسيقية متنافرة وتدميرية تصدر عن أرواحنا التي تعمل كمراسلين للموت إلى خلايا أجسامنا.

إن التأثير التدميري للعواطف السلبية مقبول في علم الطب، ويتفق بعض الأطباء على أنه "ليس هناك مرض مستثنى من عامل نفسي جسدي." فعلى سبيل المثال، لوحظ أن الشفاء بعد العمل الجراحي عند فرد سعيد، منسجم مع أسرة تحبه، يكون أكثر سرعة وعمقاً منه عند فرد مكروه، منزو، مغتاظ.

والـ "عين الحمراء،" قبل أن تكون خرافة، هي ظاهرة طبيعية للمغنطيسية الحيوية التي تسلطها العيون، التي يمكن أن تُحدث تأثيراً سلبياً أو تدميرياً عند الكائنات الحية، وهو تأثير يسببه الحسد أو الحقد الذي يحمله الفرد، وفي هذه الحالة، الفرد الذي يحدق بغضب.

1-طائفة عسكرية عند اليابانيين القدماء-المترجم.

ومن المعروف أن هناك نظرات تعمل على تهدئتنا وتطييب خواطرنا، لأن هذه هي طبيعة الفرد الذي يحدق، في حين هناك نظرات أخرى تشل الروح، أو تبدلها، أو تزعجها، أو تشوشها. ولا نعرف سوى القليل عما يمكن أن يكون هناك " بعد" أو "خلف" عيني شخص ما، باستثناء أن "العيون هي مرآة الروح." والصحيح هو أنه عندما ننظر إليها، نشعر أنها تضعنا في تماس مع شيء ما صميمي جداً إما أن يسرنا أو يغضبنا، وهذه حالة إما أن تكون منسجمة أو متنافرة لما يُصَنَّف في المغنطيسية الجسدية للفرد، وهي رسالة نجحنا في فك رموزها في لحظات الاستقبالية الأعظم.

لايمل المحبون أبداً من النظر في عيون بعضهم بعضاً. لأن المتعة التي يخبُرونها تأتي من حقيقة أنهم يتشاطرون السوائل المغنطيسية الخاصة بكل منهم. وسهم كيوبيد رمز حدسي للإشعاع المغنطيسي عند الشخص ويصل إلى شخص آخر من الجنس المقابل، فيستسلم هذا للجاذبية مفتوناً بالمتعة التي يستمدها من ذلك الإشعاع.

كان التنويم المغنطيسي، في عصر مسمير ، يعرف بـ "المغنطة، " لأنهم كانوا يظنون أنها الطريقة التي فيها تحدث ظاهرة التنويم المغنطيسي.

وربما كانت عادة المصافحة بالأيدي قد ظهرت في وقت كان فيه حدس الإنسان قد تطور إلى حد كبير، كوسيلة لـ "لمس" أو "تحسس" مغنطيسية الشخص الآخر لمعرفة ماإذا كان صديقاً أو عدواً، أي ماإذا كان طيباً أو سيئاً. فالشخص الذي يكره هو، دون أدنى شك، مرسل المغنطيسية التي تحمل أوامر الموت والتدمير، تلك الأوامر التي تأتي من أرشيف اهتزازات كرهه. ويصبح هذا الأرشيف مصدراً لقذف اهتزازي، يدخل، عندما يصيب الناس الآخرين، في التيار المغنطيسي لأجسامهم، فيؤثر، على نحو تدميري، على مراكزهم الحياتية، والعقلية، والعاطفية.

يشعر الشخص المكروه بالاكتئاب، والخيبة، والتثبيط، وبدوره، يبدأ ينفر من الأشياء التي لم يسبق أن أزعجته أبداً. والحقد، ومعظم الرذائل، معدية إلى حد كبير، ولهذا السبب تنتشر بعض أشكال الفساد بطريقة مثيرة جداً.

والحقد عيب أخلاقي خطير، لأنه يمثل اعتداء على حياة الناس، الذين يمكن أن يتأثروا سلبياً في سلامتهم النفسية والبيولوجية عندما يصل إليهم القذف المغنطيسي التدميري، ويَخبُرون مشكلات لن يكتشفوا منشأها أبداً. والفرد الذي يكره يلقى عقابه بطريقة فعالة

جداً، لأن العاطفة السلبية التي تقضمه تصبح تدريجياً جزءاً مدمراً لخلايا جسمه، وتشوه أيضاً ملامحه الوجهية والجسدية وتسبب عدداً من التبدلات العقلية والبيولوجية.

هناك أناس يعملون على إفساد سلوكهم بدلاً من العمل على كماله، حيث يصبحون أكثر فظاظة وعدوانية بمرور السنين. ويلوث التفسيرُ المضلل لظروف حياتهم الخاصة مشاعرَهم ويوسِّخها لأنهم يتهمون جهات خارجية (سواء أكانت أشخاصاً، أم جماعات، أم مؤسسات) بما يواجهون من سوء طالع أو تعاسة، علماً أنهم هم الذين يتحملون المسؤولية فعلاً. عندما يتلطخ هذا الشخص، ويتلوث، ويحنق، فإنه يعتاد على أن يصوغ في عقله، دون وعي، نوعاً من "عملية حرباوية" فيها يستطيع أن يلوم الآخرين أو يكرههم من خلال سلسلة من التبريرات المعقدة، بقصد حقيقي لإخفاء عيوبه ومواطن ضعفه الخاصة وإنكارها. وعندما يتوصل إلى إقناع نفسه ببراءته وخطأ الآخرين، فإنه يطلق العنان لكرهه، أي دافعه السادي الذي يجعله يخبُر، إلى مدى غير محدود، إيفافاً انفعالياً مراراً وتكراراً للذة منحرفة. وكما هو معروف، فإن مدى هذا الإحساس يجعله يدمنه، إلى درجة معها يألف اللجوء إلى الآلية نفسها لإشباع حاجاته المنحرفة.

الحقد، كالحسد تماماً، خطيئة ضد أي شكل من أشكال الحياة ويُعاقَب عليه بشدة لأن طبيعته المفزعة ترتد، بطبيعة الحال، على الشخص الذي يكره. وهو كأي سلوك آخر شرير، يتساءل المرء عما إذا كان يتم اختياره بحرية أم أنه قوة لايمكن مقاومتها تستحوذ على إرادة الفرد. أما أنا، فأظن أن مايختاره الفرد هو، بحق، ضعفه أو قوته. وفي حالة الضعف، يكون الفرد كقطعة الاسفنج، يمتص أنماط السلوك التي تجذبه أكثر ويختص بها، وبهذا يعزز وضعه كضحية بترك نفسه عاجزاً أمام تسلط عادة سيئة تتحكم به. وهكذا تتهيأ له الفرصة لإشباع وهمه الماسوشي بالسقوط في الإغماء أو الاستلقاء خاملاً، عاجزاً عن الإفلات، قبل أن تقهره قوة غريبة. أما من يختار أن يكون قوياً ويتمتع بشخصية لطيفة الطبع، فيمكنه أن يقاوم، بصورة جيدة، إغراء التصرف غير السليم والجاذبية التي تثيرها الرذيلة.

عندما نكون في خطر، يكون أمامنا خياران: إما أن نهرب أو نهاجم. والهرب يمكن أن يكون فيزيائياً أو عقلياً، لتفادي الوضع الخطر أو إنكاره. والعدوان، في أحط جوانبه، يجب اعتباره مواجهة فيزيائية، وفي أرقى أشكاله، قدرة على مواجهة الأوضاع الضاغطة، أو المشكلة، أو المهددة في الواقع اليومي.

ويجسد كلاً من الخيارين إيروس كقوة للحياة وثناتوس كقوة للموت. وإيروس هو الاسم الذي أطلقه الأغريق على الحب وإله الحب، وقد استخدمه فرويد في نظريته الدوافع ليدل على مجموعة دوافع الحياة، مقارناً إياها بدوافع الموت، أو ثناتوس، وهي كلمة أغريقية تعني الموت. وهناك من يختارون تسليم أنفسهم لثناتوس، ويصبحون اختصايين في الهرب من الحقيقة، ومن المسؤولية، والفضيلة، والمفيد، والحب، يدفنون رؤوسهم في الدور التحتي لعقولهم. ويبررون دائماً أخطاءهم، ورذائلهم، وإخفاقاتهم، ويوجهون اللوم إلى الآخرين لتنظيف صورتهم الكريهة من خلال خدعة تحولهم إلى ضحايا.

أظن أن الكائن البشري يختار إما دور الضحية أو دور شخص راشد، وناضج، ومسؤول. ولا أنوي طبعاً أن أنكر حقيقة أن هناك كثيراً من الشهداء الحقيقيين؛ وأقول فقط إن هناك نسبة كبيرة من أبناء الجنس البشري تختار، صواباً أو خطأ، دور الضحية. وفي التحليل النفسي، يمثل هذا الاختيار بالنسبة للنوع السادي الماسوشي نكوصاً إلى الرحم، كدافع لتدمير الذات الذي يقود الفرد إلى البحث عن حالات الألم ومواجهتها ومعاناتها.

إن من يختارون الدافع النيِّر في الحياة يرفضون اعتبار أنفسهم ضحايا؛ لأنهم قادرون تماماً على مواجهة المواقف الخطرة بعدوانية تظهر بشكل قوة في خدمة الـ "أنا." إن وجودنا، في الواقع، سلسلة متصلة من المشكلات، ويجب على المرء أن يدرك أن هذه الحالة ملازمة له طالما هو على قيد الحياة، وليست حالة "شاذة." ومن يشعر بأنه ضحية قد يظن أنه هدف لإجحاف كبير فيستسلم بسهولة إلى نوع من الاستياء الذي يقوده، بمرور الزمن، إلى الحقد.

أنا على قناعة بأن الفرد يختار متعمداً دور شخص ضعيف أو قوي، ويعتمد اختياره على ما إذا كان يريد أن يواجه الحياة تماماً أو يتفادى المجهود المؤلم الذي يتطلبه تكييف نفسه مع الواقع الخارجي الأكثر إشكالاً وتعقيداً دائماً والذي لايمكن التحكم فيه.

وأظن أن أكثر الذين يبدون ضعفاء هم، في الواقع، كسالى مدمنون اختاروا هذا النمط من السلوك لأنه يساعدهم على العيش بأدنى مجهود عن طريق التلاعب خداعاً بعواطفهم وعواطف الآخرين. ويقوم هؤلاء الكسالى بذلك عن طريق تمويه أنفسهم كأعضاء في طبقة خاملة على سبيل إثارة الشفقة أو التملص من المسؤولية.

عندما أتحدث عن شخص قوي، فإنما أقصد، في المقام الأول، قوة الشخصية والإرادة التي تتعزز عن طريق الانضباط الذاتي الحقيقي والمواجهة الواقعية للصراعات اليومية. هذا

الشخص الذي يُقبل على الحياة بحب وفرح، بوصفها حياة يجب أن تُعاش على نحو إيجابي وخلّاق، وبدلاً من تفادي مشكلاته، فإنه يتوجه إليها باستعداد داخلي متناسق، ومتوازن، وهو موقف يشير إلى بداية جيدة لاكتشاف السعادة.

هناك خطيئة أكبر حتى من الحقد، تتمثل بنشر هذا الحقد على الحشود، التي هي دائماً على استعداد لهذا النمط من التأثير. وهذه العملية شبيهة بأن يتعمد أحدهم أن "يخمج" الجمهور بفيروس مرضه، مضاعفاً ومضخِّماً تأثيراتها التدميرية، لأن جميع أفراد الأسرة يصابون بالعدوى في النهاية وبعدها كامل البلد، مسببة، في كثير من الحالات، تصاعداً تدريجياً في الموت والتدمير.

أشار فرناندز دو لامورا إلى بعض المهيجين السياسيين عندما وصفهم بأنهم "مهندسو الحسد،" وهي كائنات يعتمد نشاطها اليومي على خَمْج عقول الناس بسمّ الحقد والحسد. إن كامل البلدان ملوثة بهذا السم، الذي، ماأن يدخل عقل الشخص، حتى يصبح معلومات مستقلة، أي، ليست خاضعة للـ "أنا." فيعمل هذا على استلاب سلوك الفرد بصورة كلية، ويحوله إلى كائن ناقم اجتماعياً، ليس لأنه يمتلك أسباباً قوية لذلك، وإنما لاعتماده على السم العقلي الذي يحمله في باطنه. وعندما تعم هذه النقمة الأكثرية، تضيع البلد، لأن القوة التي تدفعها لم تعد بناءة ومنضبطة بل أصبحت تدميرية وعمياء. حدث هذا مترافقاً بحمام دموي في الثورة الفرنسية، التي فيها تدحرجت بالدور رؤوس عدد من قادتها تحت المقصلة.

إن بلداً يصاب بعدوى الحسد والامتعاض يمكن أن يبقى أبداً بلداً متخلفاً اقتصادياً، فأن نحسد، يعني أن نختار، دون وعي، موقعاً ثانوياً في الحياة، لأن المرء يمكن أن يحسد فقط من "هم فوق"، وأن يفعل ذلك، يعني أن يضع نفسه في موضع ثانوي "تحت". يمكن لأحدهم أن يحسد فقط من هم فوقه بطريقة ما، متطلعاً دائماً إلى أعلى. وهكذا، يجبره تمرغه في داء الحسد على أن "يكون تحت" ويبقى هناك.

لقد قيل "من يزرع الريح يحصد العاصفة،" وهذا صحيح تماماً، لأن النتائج التي يسببها الناس بتصرفاتهم غير الصحيحة سوف ترتد حتماً عليهم في الوقت المناسب. صحيح أن الطبيعة لها أخلاقياتها الخاصة، ووفقاً لقوانينها فإن "من يتصرف على هذا النحو سوف يدفع الثمن" في مرحلة ما دون أن تتوفر له فرصة النجاة. ونحن لانلاحظ هذا عادة لأن الزمن عند الطبيعة يمضي ببطء أكبر بكثير منه عند الإنسان، حتى أن عقوبة بعض الناس ربما تأتي بعد

موتهم، كما تعتبر بعض الديانات عندما تقول إن مرتكب الأخطاء الكثيرة سوف يدخل جهنم عند موته. ولا حاجة بنا إلى أن نذهب بعيداً في علم الطبيعة الحديث لكي ندرك أن وجود جهنم ليس استحالة فيزيائية، لأن هناك الكثير من خطط لواقع مماثل.

يجب أن نفهم أن الخطيئة الأصلية ليست انتهاكاً لمجموعة من القوانين التي ابتكرها الإنسان تحت تأثير نزواته ولكنها، على الأصح، خرق للقوانين التي بها تحافظ الطبيعة على الحياة وتوازن الكون. وأن نرتكب الخطيئة يعني أن ننتهك هذه الشريعة العليا وسينال المخطئ عقوبته بغض النظر عن كونه مؤمناً أم لا. فعلى سبيل المثال، لاضرورة إلى الثقة بقانون الجاذبية حول تفاحة تسقط في الهواء لكي تعود إلى الأرض.

يجب أن تكون الأخلاقية الأصيلة ملخصاً لقوانين الطبيعة، يجري تطبيقها بحكمة على الوجود الإنساني، وليس ملخصاً للمحظورات والتوصيات التي تولّدها النوايا الخيِّرة للناس الذين ينشدون الخير، ولكنهم يتجاهلون نماذج القانون الطبيعي. يجب أن يكون مفهوماً أننا باعتبارنا كائنات إنسانية نعيش ضمن الطبيعة، وأننا لسنا أسيادها كما يفترض بعض المغرورين.

ونحن، على ظهر كوكبنا العزيز-الأرض، لسنا أكثر من خلايا ضئيلة في كون ضخم. فلنتصور مايحدث لخلية من جسدنا تظن أنها سيدة الجسم بكامله، وتمضي لانتهاك قوانينه البيولوجية، عن طريق مهاجمتها وتدميرها للخلايا الأخرى مثلاً، لكي تسرق غذاءها، أو تستعديها على الحكومة المركزية التي هي الدماغ. وما يحدث مع الناس اللاأخلاقيين شبيه بهذا. إنهم أفراد لايحترمون التركيب التجسيمي للحياة كجسم واحد فيه تترابط جميع الأشكال الحية عن طريق تواصل التغذية الحيوية الراجعة عبر رابطة دقيقة. فهم لايدركون أنهم، بتدميرهم للآخرين، إنما يدمرون أنفسهم.

"عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك" جملة ليست جميلة فحسب، ولكنها تعبر أيضاً بوضوح عن المبدأ الكوني التجسيمي، الذي يمكن اختصاره كما يلي: "الكل في داخل الفرد والفرد في داخل جميع الآخرين." فكل خلية في جسمنا تحمل ذاكرة شاملة لكامل الجسم. وكل جسيم في الكون هو أيضاً انعكاس لتركيبه الإجمالي. وطالما يظن الناس أن القواعد الأخلاقية لاتمثل أكثر من أفضليات سلوكية عند بعض أساتذة علم الأخلاق، وأن كل واحد يمكن أن يختار تصرفاته الخاصة وفقاً لرغباته الشخصية، فإنه لن يكون هناك أمل أمام الإنسان في الوصول إلى أي نمط من سلوك أرقى.

وفي العودة إلى موضوع الحقد، نجد أنه ينشأ من الرغبة في كبت شيء ما يزعجنا أو يكدِّرنا بطريقة ما، ليس لأن موضوع كرهنا سيء أو منحرف بالضرورة. وهذا يعلل المنشأ الحقيقي لبعض الثورات، التي منها يستمد الحقد، والحسد، والتدمير قوة دافعة. فالمقت الذي نشعر به تجاه شخص ما ينشأ غالباً من حقيقة كونه "مرآة غير مطاوعة،" لأنه عندما نواجهه، فإن تفوقه يصبح واضحاً، وكذلك ضآلتنا. ولهذا نحاول بأي ثمن، ومن غير دراية، تشويه الصورة التي تزعجنا وطمسها.

هذا هو سبب الغضب والرفض الذي ينبعث من الجماهير ضد بعض الناس الذين يبدون "نظيفين جداً" أو "كاملين جداً،" إذا أصبحوا مرايا أخلاقية تعكس مدى وضاعة الآخرين. وأظن أن الناس الذين هم متوسطون، أو ضعاف، أو معتلون، أو بطريقة أخرى غير جذابين من الناحية البدنية، يتمتعون بحظ أوفر للقبول لدى الجماهير من أولئك المنسجمين جداً، باطنياً وظاهرياً. إن معظم القادة أو المرشحين يُنتخَبون عادة بفضل مَعْلَمَةٍ داخلية لناخبيهم، وقلما يكون هذا بفضل مكانة أعلى من المرجع الباطني لكل ناخب، لأنه التعبير عن مستوى الكمال أو النقص الروحي عند كل واحد. والمكانة المعرفية للفرد، في تعبيرها الحقيقي، لاتتجاوز أبداً معامل وعيه الروحي، ولهذا السبب لايتمتع الجمهور، وهي الظاهرة الحسية للوسطية، بالقدرة على التمييز الضروري للتعرف على الرجال العظام، حتى أنه يتقبل أوامر الدمى أكثر بكثير مما نتوقع.

يستحيل على رجل جاهل أن يقيِّم رجلاً عاقلاً، ولكن هذا يتمتع بالقدرة على اكتشاف الشخص الأبله. وعلى أية حال، فإن أسوأ شكل للجهل ليس ذاك الذي يتصل بالافتقار إلى المعلومات الثقافية أو العلمية، بل ذاك الذي يتصل بافتقار الفرد إلى معرفة كينونته الخاصة، وعالمه الباطني، والحالات المتسامية للوعي. هذا الشخص يشبه البقعة العمياء في عقول من يُعتبَرون أكثر ثقافة وذكاء، إن لم يكن موضوعاً لعدم الاكتراث، أوالسخرية، أو مجرداً من الأهلية عند معظم الناس. والسخافة الأخطر لاتكمن في الأمية ولا في الرائز المتواضع للذكاء، بل في الافتقار إلى الوعي ذي المغزى، أي الكفاءة غير الفطرية، التي نتمتع بها في حالة الكمون. والإنسان دونها ليس أكثر من وعاء للمعلومات، مجرد أرشيف للمعلومات المستقلة التي لاتخضع لـ"أناه".

إما أن يتجاهل المرء كلمات السير آرثر إدنغتون أو يفشل في فهمها عندما قال إن

"الشيء الوحيد الذي يمكن للمرء دراسته هو محتويات وعيه الخاص." وهذا إعلان مهم لمن لايكونون في وضع فيه ينجزون دراسة عميقة ودقيقة للواقع الداخلي والخارجي، لأنهم يفتقرون إلى أية معرفة لمعالجة وعيهم الخاص؛ وهذا هو الموقف المحسوس للناس الذين يُعتبَرون خطأ أسوياء. فالنائمون لايمكن أن يروا المستيقظين، ولكن المستيقظين يمكن أن يميزوا، بشكل ثابت، من يسيرون أثناء نومهم.

سوء استخدام العقاقير

إن رذيلة سوء استخدام العقاقير هي طريقة التدمير الأكثر عنفاً في سبيل تفادي مواجهة الواقع. وتستتبع اللجوء إلى عالم الأحلام، والهذيان، وتبدل الإدراك، وفي هذا العالم، يعمل الفرد، في الوقت نفسه، على تدمير ذاته عندما يتجاهل التأثير المؤذي لإدمانه. وبصرف النظر عن كون تعاطي العقاقير رذيلة، فهي أيضاً غلطة أخلاقية خطيرة، لأنها تهاجم سلامة الفرد البدنية والنفسية، حتى أن المرء يرفض الفرصة لتحقيق ذاته ككائن إنساني حقيقي.

مدمن العقاقير شخص مريض، ولكنه أيضاً شخص شرير وكونه مريضاً لايبرر كونه شريراً. فالعوَل العَقّاري حالة نفسية وأحياناً بدنية، تتميز بإرغامه على استهلاك المادة المخدرة لكي يَخبُر التأثيرات المثبطة. والإدمان شكل حاد من العوَل، يتميز بالخضوع البدني. وتحدث هذه الحالة عندما تسبب المادة المخدرة تبدلات فيزيائية في الجسم، حيث يتطور التحمل والحاجة إلى زيادة الجرعة لكي يخبّر تأثيراتها، وتؤدي إلى متلازمة اضطرابات كالغثيان، أوالإسهال، أو الألم، الذي يظهر عندما يتلاشى مفعول العقار.

أكثر العقاقير شيوعاً هي: الأفيونات، كالمورفين، والهيروين؛ والمنومات-المركّنات، كالباربيتورات Barbiturates، والمسكنات؛ والمنبهات، ومن بينها الكوكايين والأمفيتامينات Amphetamines؛ والعقاقير الهلاسية (العقار النُّفاسي[1] 'ليزرْجيد' LSD، والمسكالين Mescaline، والبايوت Peyote)؛ والقنبس (الماريجوانا)؛ والنشوقات كالنيوبرين Neoprene، والغازولين Gasoline، والرُّذاذات Aerosole المختلفة. وبسبب تأثيرها الكبير على الشباب، سأذكر الأضرار التي سببتها الماريجوانا، لكي يعرف الشباب والكهول الثمن الذي يدفعونه للدخان الذي يستنشقونه. هناك مثل قديم كان، وما يزال، موضع جدل، يقول "إن لم تؤدب ولدك بالعصا فسد." لاشك في أن هذا المثل يشير إلى الشدة

1-Lysergic acid diethylamide-المترجم.

التي يجب استخدامها لتعليم شيء ما يرفض الناس أن يتعلموه.

ربما تكون الاستجابة للقواعد الأخلاقية أسهل عندما لاتكون نصائح بسيطة دافعها حسن النية، لكي يمكن للناس أن يدركوا، بصورة حسية، مدى الضرر والانتحار الذي يولده عدم الاستجابة لتلك القواعد. وهذا واضح تماماً بقدر مايتعلق الأمر بالماريجوانا، ولكن كثيراً من المدخنين قد يحتجون بأنها "أقل ضرراً بكثير من التبغ." نبتة القنبس هي مصدر الماريجوانا والحشيش. تُطحَن أوراق هذه النبتة وأزهارها وأغصانها لإنتاج الماريجوانا، أما الحشيش فينتج من تركيز مادتها الراتنجية. تسبب الماريجوانا حالة من الاسترخاء، وزيادة في سرعة القلب، وبطئاً في إدراك الزمن، وحدة في السمع، والشم، واللمس، والذوق. وتتضمن تأثيراتها الإدراكية السلبية الاختلاط الذهني ، والهلع، وردود الفعل، ونوبات القلق، والخوف، والإحساس بالعجز، وفقدان السيطرة على النفس. إن المادة الفعالة في الماريجوانا هي رباعي هيدرو قَنَّبينول Tetrahydrocannabinol التي تُعرَف اختصاراً بـ THC. وقد قام عالم سويسري بحقن هذه المادة إلى جرذان وأرانب وحلل فضلاتها، فاكتشف أن بول هذه الحيوانات وبرازها بقي مشعاً فترة أقلها ثلاثة أيام. واكتشف أيضاً استمرارية مماثلة لتركيز النشاط الإشعاعي في الأجزاء المُشَرَّحة من الكبد، والطحال، والكلى، والكظر عند الجرذان والأرانب، على حد سواء. وتكمن أهمية الطحال في كونه جزءاً من الجهاز المنيع لأجسامنا.

وقد أُجريَت أيضاً تجارب بحقن مادة THC في أوردة عدد من المتطوعين. ولم يكن بعضهم قد مارس تدخين الماريجوانا أبداً، في حين كان الآخرون قد تعودوا تدخينها لأكثر من عشر سنوات. وفي كلتا الحالتين اكتُشِف أن النشاط الإشعاعي في البول والبراز استمر لأكثر من أسبوع، لأن THC تُختزَن في النسج الدهنية كالكبد، والدماغ، ونقي العظام، والكظر وتُطرَح ببطء في البراز والبول. فعندما تنحل مادة THC في الدهن، فإنها تبقى في الجسم وتُحدِث تأثيراً يستمر لأيام أو أسابيع وحتى أشهر. وتُظهِر بعض الملاحظات السريرية زيادة في سرعة ضربات القلب، وحمرة في العينين، وفقدان التنسيق، وضعف العضل، وزيادة السلبية، وتبدلات موقتة في الموجات الدماغية، وفقداناً قصير الأمد للذاكرة. وتُظهِر أيضاً تردياً للمهارات الحركية عند الفرد وبطئاً في اللحظة الذاتية[1] subjective moment.

1-ربما يقصد اللحظة النفسية (وهي فكرة أو عاطفة قادرة على الدفع إلى العمل)-المترجم.

وصل عدد من جربوا الماريجوانا في الولايات المتحدة عام 1977 إلى 43 مليوناً من الناس، وكان أكثر من 10٪ منهم بعمر 12-17 سنة. ومن بينهم 12 مليوناً يستخدمونها بانتظام تقريباً. وفي العام 1971، أظهر النشاط الإشعاعي الذي وُسِمَ باسم رباعي هيدرو قَنَّابينول دلتا-9 (Delta-9-THC) أن المستقلبات الفعالة من الماريجوانا تُختزَن في النسج، بما فيها الدماغ، لمدة لاتقل عن ثمانية أيام بعد الدخول البدئي للعقار إلى الجسم. هذا يعني أن من يُدعوْن بـ "المدخنين المعتدلين" لن تستثنيهم تأثيرات الماريجوانا. فقد أثبتت بعض الدراسات أن هناك ثلاثة من كل أربعة يتعاطون الماريجوانا مصابون باللمفاويات Lymphocytes ونقص انقسام الخلايا. وأظهرت اللمفاويات التي دُرِسَت على مدى ثلاثة أيام شذوذاً كبيراً في عدد تمزقات الجسيمات الصبغية. والجسيمات الصبغية هي خيوط الدِّنا DNA التي تحمل الصفات الوراثية لخلايانا. ولاحظ الدكتور آكرا موريشيما أن الصبغيات في لمفاويات 30٪ من مدخني الماريجوانا أقل من الكمية السوية المطلوبة. كما أن لجنة للبحث أعلمت مجلس الشيوخ الأمريكي أن "THC، وهي المادة القنَّبيَّة ذات المفعول النفسي الأكثر أهمية، تميل إلى التراكم في الدماغ، والغدد التناسلية، والأنسجة الأخرى الدهنية في الجسم بطريقة شبيهة جداً بطريقة اختزان الـ DDT[1]."

وأعلن خمسة من العلماء أمام لجنة فرعية من مجلس الشيوخ أن "منتجات الماريجوانا تمنع تكاثر اللمفاويات في الخلايا، كما يحدث للخلايا الأخرى التي تتم دراستها." وعبَّر كل من هؤلاء الباحثين عن خوفه من أن "هذا التلف الخلوي يمكن أن يؤدي إلى السرطان، وزيادة في شتى الأمراض، وربما إلى زيادة الذرية المعتلة وراثياً."

لاشك في أن هناك دليلاً على أن الماريجوانا يمكن أن تسبب تلفاً لاعكوساً في الدماغ عندما تستخدم بانتظام لعدة سنوات. فقد اكتشف الدكتور وليم بيتون، أستاذ علم الأدوية في جامعة أكسفورد، ضموراً في أدمغة مجموعة من المدخنين الشباب يماثل مايجده المرء عادة عند من بلغوا السبعين والتسعين من العمر.

وهناك أيضاً دليل على أن مستوى الهرمونات المذكرة انخفض إلى 44٪ عند الشباب الذين استخدموا الماريجوانا بما لايقل عن أربع مرات أسبوعياً ولفترة قصيرة لاتتجاوز ستة أشهر. وقد هبط تعداد النطاف عند المجموعة نفسها بما يتناسب مع كمية الماريجوانا

1- -Dichloro-diphenyltrichloroethane- المترجم.

المستخدمة، الأمر الذي سبب العقم عند من دخنوا كميات كبيرة. كما أن هناك دليلاً على أن خلايا النطاف عند بعض الحيوانات التي تعرضت للماريجوانا كانت تنتج كميات منقوصة من الدّنا وأن تلف الصبغيات عند من استخدموها بشكل منتظم كان أكبر بثلاثة أضعاف منه عند من لايستخدمونها.

وأعلنت اللجنة أيضاً أن التعود على استخدام الماريجوانا انتهى إلى تردي عمل العقل، وحالات مرضية تشبه البارانويا[1] Paranoia، وسلبية مألوفة مترقية، وافتقار إلى الإثارة. وعرض تسعة من العلماء الذين أدلوا بشهادتهم أمام اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ، وبعضهم أساتذة في الطب النفسي، دليلاً واضحاً وعدداً كبيراً من المشاهدات لسلوك شاذ وخطر عند مدخني الماريجوانا، حتى عند المعتدلين منهم. فقد قال الدكتور تيننْت، "كانت التظاهرات الرئيسية عند أشخاص هي السدر[2] Apathy، وانعدام الحس، والوسن، مع تردٍّ حاد في المحاكمة العقلية، والتركيز، والذاكرة. وكان مظهرهم الفيزيائي نمطياً وبدا الجميع أغبياء، ويفتقرون إلى التصحح الشخصي كما أظهروا بطئاً في الكلام." وهناك دليل محقق على نقص مهم في تركيز وعدد الخلايا التي تتراكم في مني المدخنين يصل إلى 50٪. ويترافق النقص في إنتاج النطاف عادة بإنتاج نطاف شاذة، أي خلايا توالدية من نوعية ضعيفة. وتؤثر مادة THC، إلى حد مثير، على الكريات البيضاء (اللمفاويات)، مما يسبب تدهوراً ملحوظاً في الأجهزة المنيعة عند الناس.

اجتمع في مؤتمر هلسنكي، عام 1975، ثلاثة آلاف من علماء الأدوية على مدى أسبوع، وقُدِّمَت في هذا المؤتمر مئات الدراسات في عشرات الجلسات. وفي الندوة حول الماريجوانا، عُرِض فيلم مؤثر أظهر كرية بيضاء انفصلت من البطانة الرئوية. وكانت الخلية وكل أجزائها تتحرك باستمرار بطريقة طبيعية، ولكن بعد إضافة كمية صغيرة من THC، أصيبت الخلية نفسها بشلل كامل وكأنها فقدت حياتها. وأعلن أستاذ الطب النفسي، كوستاس ستيفاني، وأستاذة البيولوجيا الخلوية، ماريتا إسيدوريدس، أنهما اكتشفا تبدلات كيميائية جوهرية في الكريات البيضاء وفي الخلايا المنوية عند من يدخنون الحشيش بانتظام، مما يشير إلى شذوذ في نواة الخلية. واستطاع ستيفاني، باستخدامه لشرائح متنوعة،

1-الزَّوَر، أو الهذاء، أو الذهان الهذائي: هو اضطراب عقلي يشمل جنوناً كجنون الارتياب وجنون الاضطهاد وجنون العظمة-المترجم.

2-أو جمود الحس، أو الخمول، أو البلادة، أو اللامبالاة-المترجم.

أن يُظهِر التبدلات الخلوية الجوهرية التي حدثت في الكريات البيضاء والخلايا المنوية نتيجة لاستخدام الماريجوانا، الأمر الذي يمكن أن يعلل تدخلها في تشكيل المواد الكيميائية الأساسية للخلايا. وأظهر الأستاذ روبرت هيث، من جامعة تيولين، من خلال تجاربه على قردة الرِّيص أن الرئيسات التي تتعرض لدخان الماريجوانا تُظهِر تبدلات دائمة في أنماط الموجات في الجملة الحُوفية[1] في الدماغ، وهو الجزء من الدماغ الذي يوجه السلوك العاطفي. كما أكد الدكتور غابرييل نحاس أن واحداً من أكثر تأثيرات الماريجوانا سرعة هو ترقي فقدان الإرادة الذي يمكن ملاحظته بوضوح بعد ستة أسابيع من الاستخدام المعتدل، وأن القدرة على التمتع بلذة حقيقية اختفت، ليحل محلها تظاهر صاخب بالسعادة. وفي حين يشارك الشباب الأصحاء بنشاط في مختلف نماذج الألعاب والنشاطات الأخرى، فإن من يتعاطون الماريجوانا يكشفون عن تنامي ميولهم للتحدث إلى مالا نهاية عن أهدافهم العالية دون أن يقوموا بأي عمل لتحقيقها. وبدلاً من أن يشعروا بمحبة عميقة للآخرين، فإن مدخن الماريجوانا يميل إلى التمرغ في فائض الانفعالات العاطفية.

أظهرت البحوث التي أجراها المعهد الوطني التابع لإدارة الصحة العامة في الولايات المتحدة حول سوء استخدام العقاقير أن الماريجوانا تضعف الهرمونات التوالدية المذكرة، مما يسبب تبدلات مهمة في الأعضاء التناسلية، كهبوط وزن الخصيتين، والحويصل المنوي، والغدة البروستاتية. ويترافق كل هذا بقلّة النطاف وشذوذات منوية. وأكد المعهد أيضا أن الاستخدام المزمن للماريجوانا يسبب تراجعاً في وظيفة الغدد الصم، كالنخامى، والخصيتين، والدرقية، وقشرة الكظر. والوطاء[2] هو الباحة الأكثر تأثراً بـ THC، ويُظَن أن تبدلاً يحدث في الدخل العصبوني إلى هذه الباحة. وهناك أيضاً دليل مثبت مُوَثَّق على أن القنَّبينويْدات Cannabinoids تغير الوظيفة الخلوية، مما يسبب تبدلات في التسلسل والشكل اللذين فيهما تتم معالجة المعلومات الوراثية ونسخها. ولا يمكن عادة التنبؤ بتأثيرات هذه التحولات.

أكد جيروم جافيه، أستاذ علم النفس في كلية الأطباء والجراحين في جامعة كولومبيا، وروبرت بيترسون، وجُويْنت دايركتور، من قسم البحث في المعهد الوطني التابع

1-البنى الدماغية الموجودة عند كل الثدييات (وتتضمن الحصين ، والتلفيف المسنن مع قشرتهما البدائية، والتلفيف الحزامي، والباحات الحاجزية، واللوزة)، وهي مهمة جداً للشم ونشاطات أخرى كالوظائف المستقلة وبعض الجوانب العاطفية والسلوكية-المترجم.

2-ماتحت السرير البصري-المترجم

لإدارة الصحة العامة في الولايات المتحدة، والعالم النفسي راي هودغسون، من معهد لندن للطب النفسي أن : "واحدة من أكثر النواحي أهمية في الأعمال اليومية التي تتأثر بالماريجوانا هي قيادة العربات، لأن البحث الأكثر دقة الذي أُنجز مؤخراً يشير إلى أنه إذا كان سائق العربة يدخن الماريجوانا ، فإنه يكون معرضاً لتأثيرات معاكسة شبيهة تماماً بالتأثيرات التي يُحدثها تناوله للكحول ويقوم بقيادة السيارة وهو في تلك الحالة." ويضيفون أن هناك حقيقة مهمة بشكل خاص، هي أن بعض المشكلات البصرية التي تسببها الماريجوانا يمكن أن تستمر ساعات بعد توقف التنبيه. فعلى سبيل المثال، لايستعيد المرء الإبصار المحيطي حالاً. ويقولون:

يتعرض الشخص الذي يقود عربة تحت تأثير القنبس Cannabis إلى أخطار لا علاج لها. واجتماع الكحول والقنبس شائع جداً ويمكن ان يكون أكثر خطراً من تعاطي المادتين كلٌ على حدة.

ولاحظ العلماء الأمريكيون الذين قاموا بدراسة تأثيرات الماريجوانا في الذبحة الصدرية، أعني، الألم خلف القص عند المرضى الذين يعانون من مشكلات قلبية، أن استخدامها سبب ألماً أسرع منه عند من يدخنون السجائر وبعد جهد أقل أيضاً. أما الآخرون الذين ربما لاينبغي لهم أن يجربوا الماريجوانا فهم أولئك الذين يعانون من مشكلات عاطفية خطيرة: أظهرت دراسة لمجموعة صغيرة من الأشخاص الذين كانوا مصابين بالفصام وتحقق لهم الشفاء أن المرض عاد إلى الظهور بعد استخدام العقار. وقد تبيَّن أن الذين هم أكثر اهتماماً بصحتهم وأقل قدرة على ضبط النفس، أو التحكم بأساليب حياتهم من بين طلاب الجامعات، هم أولئك الأكثر معاناة من التأثيرات المخيفة وغير المستحبة للماريجوانا.

والأسباب الأخرى التي تشغل البال حول سوء استخدام الماريجوانا تتركز على إمكانية التهاب القصبات، ويتابعون:

أثبت باحثو لوختنبرغر السويسريون أن نسيج الرئة البشرية الذي تعرض لدخان القنبس في أنبوب اختبار، أظهر تبدلات خلوية أخطر بكثير من تلك التي لوحظت في عينات نسيجية مماثلة تعرضت لدخان التبغ العادي. وكانت التبدلات التي لوحظت شبيهة بتبدلات الخلايا السرطانية. فعندما أُدخِلَت خلاصات دخان القنبس إلى جلود حيوانات الدراسة، تطورت أورام شبيهة بالأورام التي يسببها قطران تبغ السجائر.

أما بخصوص ملاحظاتي، فقد تمكنت من اكتشاف تبدلات عديدة حدثت عند من ألفوا تدخين الماريجوانا. فكلهم، دون استثناء، يظهرون نوعاً من النرجسية العاطفية تجعل من الصعب عليهم أن يشعروا بالتعاطف مع زملائهم، وعلى الأصح، إنهم يميلون إلى التلاعب بمشاعر من هم حولهم. وعلى الرغم من حقيقة أن تظاهراتهم العاطفية تبدو عنيفة جداً، فهي، في الواقع، ميكانيكية، وسطحية، ونمطية، تنتهي إلى "برودة عاطفية" متخفية تحت مزاج عالي الحساسية ظاهرياً. وقد لاحظت أن العقار، بمرور الوقت، يؤثر بشدة عند الكثيرين منهم على الوظائف العليا الدماغية فيلحق الأذى بالقدرة العليا على التمييز، والقياس، والمحاكمة العقلية الداخلية. وتضعف أيضاً، إلى حد مثير، قدرة المرء على أن ينفتح على نماذج جديدة من التفكير أو أشكال أرقى من السلوك، حتى عندما يقتنع الشخص المتأثر بعكس ذلك تماماً. فلا عجب إذا أظهر الرجال ضعفاً في القدرة الجنسية وصفات ثانوية مؤنثة كفرط نمو الأثداء أو ميلاً نحو الجنوسية Homosexuality. ظهرت في جريدة نيوزويك، في 28 تشرين الثاني عام 1986، مقالة تحت عنوان: "واحد من مساعدي ريغن يعلن: الماريجوانا يمكن أن تحوِّل المرء إلى لوطي." كان هذا التعليق يشير إلى مستشار البيت الأبيض المعادي للعقاقير، كارلتون إ. تيرنر، الذي كان على قناعة بأن رذيلة الماريجوانا تؤدي بالمدمن إلى الجنوسية. وأكد أيضاً أن الجهاز المناعي عند اللوطيين، لمجرد حقيقة كونهم يتعاطون الماريجوانا، يصبح مكشوفاً للإيدز، بدرجة خطيرة. فقد كان كلما قام بزيارة لمركز المعالجة المضادة لتأثير العقاقير عند المرضى دون الثامنة عشرة، يجد أن أكثر من 40٪ من هؤلاء القاصرين المدمنين للعقاقير يقيمون علاقات جنوسية. ولما كان تيرنر دكتوراً في الكيمياء العضوية، فإنه تكونت لديه القناعة بأن العقار هو الخطوة الأولى وتأتي الجنوسية بعدها مباشرة كخطوة ثانية. ودافع عن رأيه بقوة حول أن الماريجوانا تجعل مُعْوليها أكثر عرضة للإصابة بالإيدز، بسبب طريقتها في التأثير على الأجهزة المنيعة وإتلافها.

إن سوء استخدام الماريجوانا، من وجهة نظر أخلاقية، تلحق الأذى بالفرد -كأي رذيلة تسبب العوَل- عن طريق إلغاء شخصيته وإرادته. وعلاوة على ذلك، إن استخدام المرء للقنبس، كما رأينا، يعتبر عدواناً على جسمه الذي يحوي الشرارة المقدسة وبالتالي فهو معبد الروح لأنه يحمل الكينونة. هذا هو المعبد الذي نهاجمه عندما نسمم جسمنا بالماريجوانا، أو الكوكاين، أو أية منتجات سامة، وتكون خطيئتنا الأخلاقية على الدرجة نفسها من الخطورة. ويبدو أن مايحدث مع القنبس فإنما يحدث في سياق هذه الأمور التي تعوق سلوكنا

الفاضل، وتنبه فقط أهواءنا العاطفية، لأن المركز الدماغي الذي يكون أكثر تأثراً هو الجملة الحوفية، حيث تتراكم هناك أكبر كمية من العقار.

كان الدماغ العتيق Paleoencephalus أو "الدماغ القديم[1] Old brain" الجزء الأكثر أهمية في الدماغ عند الإنسان البدائي، وأيضاً في دماغ الحيوان، في حين تطور، عبر ملايين السنين من الارتقاء، مايدعى اللحاء الجديد Neocortex أو "الدماغ الجديد New brain"، والذي يعرف أيضاً بقشرة المخ أو "سقف الدماغ،" وهو اسم أطلقه عليه تشارلز شرنغتون.

إن ملكاتنا العقلية كاللغة، والتعابير الرمزية ، وقابلية التحليل، ومعرفة الذات، كلها تأتي من الدماغ الجديد، بينما تُختزَن عواطفنا وغرائزنا في الدماغ القديم، وفيما دون الوعي. وينتج سلوك الإنسان من التفاعل بين كلا الدماغين، وعندما يتبدل هذا التفاعل، فإن السلوك يتعدل أيضاً. واكتشف الطبيبان بينفيلد وجاسبرس أن التنبيه الكهربائي للباحة الحوفية عندد مرضى مستيقظين سبب فقداناً للهوية، وخوفاً، وزَوَراً، وتشوهاً في الإدراك، وتبدلات في الإحساس بالزمن. وأنجز أولدز وميلنر تجربة تكونت من إدخال مسارٍ كهربائية دقيقة جداً إلى الباحة الحوفية عند الجرذان، التي يمكن أن تنشط الحيوانات عن طريق ضغط رافعة صغيرة لتنبيه هذه الناحية. وعندما قرنت الحيوانات التنبيه بإحساس ممتع، بدأت نمطاً من منبه امتد حتى أصيبت بالإنهاك، ضاغطة الرافعة حتى ثلاثة آلاف مرة في الساعة. وتوصل الباحثون إلى استنتاج يقول إن هناك باحة محددة في الدماغ القديم تسبب، عند تنبيهها، نمطاً من السلوك المقترن بمكافأة ولذة.

كما توصل الأستاذ روبرت هيث، من جامعة تولين، إلى استنتاج يقول إن التنبيه الكهربائي لقسم الوطاء في الدماغ القديم يسبب أحاسيس السعادة والشمق عند الرئيسات وعند الإنسان. وبعد إدخال المساري عميقاً إلى الباحة الحوفية عند قردة الريص، حملها على استنشاق الماريجوانا ولاحظ " تفجرات" من نشاط كهربائي منتظم، أو "ثقوباً" سببتها الماريجوانا في الباحة الحاجزية للدماغ، التي هي النقطة البؤرية للمكافأة واللذة. وبعد مدة، قتل عدة عينات لكي يفحص الدماغ القديم واكتشف تلفاً في مشابك النسج الحوفية.

ينبه تدخين الماريجوانا الجملة الحوفية، وليس بعيداً عن الواقع أنه يطلق العواطف،

1-ويشمل جذع الدماغ والمخ والمخيخ-المترجم.

ويحول دون ضبط النفس، ويجعل الارتقاء بالعقلانية صعباً ويبدل السلوك الانفعالي.

وكما هي الحال مع أية رذيلة انفرادية، فإن استخدام القنبس يعني مكافأة سهلة من خلال تنبيه مراكز اللذة، وبالتالي التهرب من العملية الطبيعية التي فيها تكون اللذة عادة هي الجائزة النهائية لعملية طويلة شاقة للفوز بهذه المكافأة. وهذا واحد من الأسباب التي يؤذي بها القنبس الشخصية ويلغي الإرادة، لأن مفهوم المكافأة السهلة يتحول إلى عادة تمنع الجهد الشخصي الحقيقي، الذي هو أساسي لتصليب الإرادة وتحقيق ضبط ملائم للنفس.

يتوقع المدمن، دون أن يقوم بشيء، أن يحصل على كل شيء بمعجزة أو ضربة حظ ويُظهِر جزعاً من القيام بجهد مؤلم. ويتضح هذا ليس فقط في ميدان العمل، بل أيضاً في العلاقات بين الأشخاص، فلكي يضع المرء نفسه في موضع الآخرين ولكي يكون قادراً على فهمهم على نحو أفضل، يتطلب اهتماماً متواصلاً. يتشكى مدخن الماريجوانا عادة، ويقول "إنهم لايفهمونني،" أو "إنهم لايساندونني،" أو "إنهم لايحبونني،" ويرفض الاعتراف بأن مايدركه ليس، في الواقع، سوى تفكيره الخاص.

أظن أن العقار يطور نوعاً من نرجسية مرضية أكثر خطراً من تلك التي تثيرها الأسباب الأخرى، لأنها تعزل الفرد في عالم من الخيال لايمكن لزملائه أن يصلوا إليه ويضعه على شفا سلوك معاد للمجتمع. فمدمن القنبس يُشَيِّء Objectify الناس في عقله، حتى أنهم يظهرون إلى الوجود فقط كأشياء مفيدة له وليس كأشخاص لهم حاجاتهم ومشاعرهم. وهكذا، تقتصر صداقاته على رفاق في الرذيلة نفسها والناس المفيدين له لتحقيق أغراضه الخاصة.

إن مفهوم الصداقة أو الحب، عند نسبة كبيرة من المدمنين، لايمثل تبادلاً متكافئاً بل "تلقياً" فقط. والتبدل الانفعالي الذي ينتج من رذيلتهم يجعل من الصعب عليهم أن يحافظوا على العلاقة المتبادلة بين الأشخاص التي تعني حباً ورعاية حقيقيين للآخرين.

يعني الخوف من الجنس الآخر أنه عندما تنهار الحوائل القشرية العليا، فإن الفرد يسعى وراء علاقة جنوسية لأن متطلباتها أسهل وأقل فيما يتعلق بالعطاء. فالارتباط بامرأة، بالنسبة لرجل، يعني ضمناً أن يتعلم العطاء بطرق متنوعة، ويستدعي أيضاً أن يُترَك مكشوفاً فيما يتعلق بحالته الحقيقية عن طريق التخلي عن الصورة التي يعرضها عادة. ويعني أيضاً أن يبذل جهوداً مضنية لكي يفهم رفيقه المؤنث، الذي يتطلب حلاً مناسباً لشيفرة نمط من

السلوك يُترجَم بالنسبة للرجل إلى رسائل معقدة غامضة. والشخصيات التي تواجه هذه الخيارات، وقد أوهنها العقار، تفضل علاقة جنسية نرجسية مع شخص من الجنس نفسه، لأن كليهما في هذه الحالة يتحدثان اللغة نفسها. وبهذه الطريقة، يبقى الكثير من الناس معزولين في أنانيتهم الخاصة، يحرمون أنفسهم من معرفة "الوجه الآخر للحقيقة،" أي النسخة الأنثوية للواقع التي هي ضرورية إذا أراد المرء أن يعرف كلا جانبي الوجود.

أما المرأة، فإن ارتباطها برجل يعني استسلامها عاطفياً وقبولها للاختراق، الذي يمثل مواجهة بين أنوثتها ورجولته. فتشعر أن طبيعتها الأنثوية توضَع موضع اختبار، مما يسبب خوفاً كبيراً كثيراً مايدفعها إلى اختيار شركاء ضعفاء غير أذكياء لايمثلون تحدياً بالنسبة لها. وليس هناك مايدعو إلى الدهشة، في مثل هذه الظروف، إذا مالجأت النساء ممن يتعاطين الماريجوانا إلى إقامة نوع من العلاقة مع نساء من جنسهن. ولكي يبررن عادتهن، فإنهن يؤكدن أن العقار، على خلاف الكحول، يخفف العدوانية، ويبدو أن هناك إجماعاً بينهن على هذا الرأي. ولكنني أرى أن تأثيراته في هذا المجال مختلفة تماماً، وانه، بدلاً من تخفيف العدوانية، يؤدي إلى سلبية مفرطة، تعمل طبعاً على إخماد العدوانية. ومن الواضح أن شخصاً نائماً أو في حالة ثبات إجبارية لن يهاجم أحداً، ولكن هذا لايعتبر دليلاً على ضبط النفس.

أظن أن واحداً من الجوانب الوثيقة الصلة بسلوك مدخني الماريجوانا المدمنين هو الصعوبة التي تواجههم لوضع تقييم مناسب للحظات حياتهم التي لايكونون فيها تحت تأثير منبه جديد أو مباشر للعقار. فالتقييم المفرط لتجاربهم تحت تأثيرات THC يقودهم إلى التقليل من أهمية الأحاسيس السوية، وإلى الشعور بأنهم عندما لايكونون مخدرين تصبح الحياة تافهة، ورتيبة، ومملة. ومن الطبيعي أن يقودهم هذا إلى قلق استحواذي مع مزيد من تجريب المنبه المرغوب جداً.، يتعرض الشخص المصاب بصورة مستمرة إلى ملاحقة الاكتئاب، والكرب، والحط من قيمة الذات، بسبب نشوء ميل داخلي يعتبر أن ذلك هو العالم الحقيقي، عالم يستحق فعلاً مايُبذَل من أجله، إنه عالم التجارب القائمة علىالخيال، والتي يسببها العقار؛ أما العالم الآخر، عالم الوجود اليومي الطبيعي، الذي فيه يكافح الناس العاديون في سبيل البقاء، ويبذلون الجهود، ويتألمون، ويتمتعون، ويفشلون أو ينجحون، فيبدو لهم زائفاً وغريباً. فليس غريباً إذاً أن يصبح مدخنو الماريجوانا أشخاصاً ساخرين، ومادين، وشكوكيين، لأنهم يعتبرون تلك الحياة لاتستحق أن تُعاش لأنها لامعنى لها ولا هدف.

تتمثل إعادة تأهيل المدمنين بالشفاء أو مواجه البهجة الحقيقية للحياة، وإدراك أن كافة الأشياء القيّمة لها ثمن مساو وقبول ذلك داخلياً. ويجب أن يسلّموا بأن واحداً من القوانين الكبرى لحياة البشر يتوقف على مكافأة الجدارات الخاصة للمرء، وأنه يمكن أن نحقق أهدافاً مهمة جداً إذا بذلنا مايكفي من الجهد في هذا الشأن. إن من يعوّلون على العقاقير لايمكنهم أن يدركوا حقيقة أنهم لايحتاجون إلى هذه المواد السامة لكي يشعروا بالإثارة، وأن الألعاب الرياضية والاهتمام بالآخرين يمكن أن توفر لهم حوافز جديدة أكثر أهمية لكي يتخلصوا من عادتهم السيئة.

وبالمثل، إن اكتشاف معنى الوجود عن طريق تطوير وتنمية قيم روحية يمكن أن يحوّل حياة الشخص تماماً. والوظيفة الحقيقية للكمال الروحي، الذي هو في الوقت نفسه تقني وصوفي، تساعد المرء على أن يَخبُر حالات عليا من الوعي لايمكن للعقار أن ينافسها. فليس هناك نوع من العقار يمكن أن يكوّن وعياً؛ بل إنه يسبب فقط نوعاً من الشمق العابر من خلال تنبيه تخيلات الفرد. ويمكن للمرء أن يصل إلى وعي متسام فقط عن طريق قيامه برعاية طويلة، ومثابرة ومنظمة لمَلَكاته الكامنة. ولا شك في أن كلمات "طويلة،" و"مثابرة،" و"منظمة" ستقدح الرعب أو الازدراء في تلك الأدمغة التي غسلتها الرسائل الإعلانية التي تجعل الناس يظنون أنه يوجد كسب سهل أو أنه يمكن للمرء أن يحصل بثمن على كل شيء مهم هنا، الآن وفي هذه اللحظة بالذات. والصحيح هو أن السعادة الحقيقية الدائمة لايمكن أن تكون أي شيء آخر سوى المكافأة التي تنتظرنا في نهاية رحلة طويلة شاقة. فعلينا ألا نرتكب خطأ سلوك الطريق السهلة على نحو خادع لأنها يمكن أن تقودنا في النهاية إلى هاوية لايمكن التنبؤ بها. ويُفضَّل الجهد الشخصي الشرعي الذي ينسحب على الشؤون غير الوهمية، لأنه يؤدي، مع الزمن، إلى النجاح التدريجي والسعادة، ولأنه يتفاعل بصورة صحيحة مع الواقع. إن واحداً من العيوب الموروثة الأكثر عصرنة في هذه الأيام، أي ناتج الإعلان غير المقيد، هو حقيقة الإحساس بأن المشكلات، والواجب، والجهد، والجدارة كلها تمثل النقائص التي تسرق شيئاً منا، في حين يُعتبَر الممتع والنافع، من غير وعي، فاكهة برية مجانية، أي ناتج الحظ أو المصادفة، لايدفع المرء لقاءها أي ثمن إطلاقاً. فالناس الأكثر نجاحاً هم من يحالفهم الحظ، أما من يواجهون العديد من المشكلات فهم ضحايا شيء ما. ولهذا يسيطر وهم المكافأة على عقول معظم الناس الذين يعيشون في البلدان المتخلفة، وما وهم المكافأة سوى نتيجة طبيعية لوهم مواتاة الحظ. ولكن الشرط الأساسي لنجاح الشعوب والأمم يقوم على

أساس القبول الحقيقي والقناعة الداخلية بأن كل شيء له ثمن، وأن هذا الثمن يساوي مانرغب فيه، وأنه يجب على المرء أن يدفع بسرور ومقدماً، لأن هذا الدفع سيتيح له امتلاك مايتوق إليه، أي، أن يحصل على رغباته. إن تعاطي الماريجوانا والعقاقير الأخرى التي تعد بمكافأة سهلة ومتعة عاجلة يقود إلى الكسل، والسلبية، والحط من شأن أهلية الجهد الشخصي كعنصر ضروري لتحقيق الرفاهية، والنجاح والسعادة.

النكث بالوعد

جرت العادة تقريباً على ألا يحافظ الناس على كلمتهم إلى درجة بتنا معها لانستطيع أن نشعر بالأذى الذي تسببه هذه العادة السيئة. إن خلايا أجسامنا حساسة لعواطفنا، وكلماتنا، وأفكارنا، لأنها تميل، إلى حد ما، إلى الالتزام بتكليف الـ "أنا." ولأن الـ "أنا" تكونت من باحة واعية وباحة أخرى غير واعية، فإنها ترسل عادة تكليفها بصورة آلية، تماماً كما تفعل آلة الكترونية ترسل إشارة ما لأن برنامجها يأمرها بذلك. فهناك كثير ممن يتعرضون لحوادث طارئة أو يصابون بالمرض بسبب مناورات اللاوعي، الذي يحاول تفادي المسؤولية، أو يروغ من الواقع، أو يكتفي بالشعور بالذنب. والعواطف السلبية، كالاكتئاب، أو الكرب، أو الحزن، هي عوامل التفجير أو العناصر الفعالة التي نجدها عادة في أمراض خطيرة كالسرطان.

هناك حالات هدأة تلقائية في الأورام الخبيثة وربما يكون السلوك النفسي الإيجابي للفرد حاسماً في شفائه. وأظن أن الضحك، والفرح، والتفاؤلية، والمزاج الجيد كلها تعزز الأجهزة المنيعة عند الناس، في حين تضعفها الحالات المسببة للاكتئاب. ومن الشائع جداً، عندما يصاب الناس بمرض ما، أن يتزامن حدوثه مع أفكار ومشاعر مؤلمة، وكأن هذا النمط من الحالة يعمل على إلغاء أو إضعاف اللمفاويات، وتنشيط الفيروسات، والميكروبات، والبكتريا.

كثيراً مايعمل الكائن الإنساني، دون وعي، ضد نفسه عن طريق مناورات نفسية مدمرة للذات. والنكث بالوعد واحدة من هذه المناورات. فقد اعتاد الناس على أن يتعهدوا شفهياً بالقيام بعمل ما ولكنهم، في النهاية، يقومون بعمل مختلف تماماً. وهؤلاء الناس لايقيمون وزناً لهذا السلوك ولا يدركون أنه آلية للانتحار. ولما كانت هذه الحالة هي الحالة الوحيدة المنطقية، فإنها لاتشير إلى الحالات التي فيها يقول الفرد إنه سيذهب شمالاً وينتهي

إلى الذهاب جنوباً، لأن المزيد من التحليل المفصل للحقائق يبيّن له أن قراره السابق كان خاطئاً.

وتحدث الالية المؤذية عندما يلتزم المرء شفهياً بالقيام بعمل ما صحيح ومناسب، وينتهي إلى النكث بوعده، إما بسبب كسله تجاه مايتطلبه العمل من مجهود أو لتوقع وهمي بتنفيذ العمل بطريقة أسهل.

هناك طريقتان للنكث بالوعد، وكلتاهما مؤذيتان بالدرجة نفسها. تتمثل الطريقة الأولى بنقض الوعد الذي يقطعه أحدهم لشخص أو مؤسسة ما، والثانية بتعطيل الوعد الذي يقطعه أحدهم على نفسه علناً وبقناعة كاملة بما يقوم به، لينتهي بنقض وعده بينه وبين نفسه. إن نقض وعد يُقطَع هو سلوك نموذجي عند غير المستقيمين الذين لايحترمون أنفسهم ولا يؤمنون بها.

من الضروري القيام بتحليل مايدور في داخل الفرد ويمنعه من إعطاء أدنى أهمية لكلمته. ويعني هذا أنه غير صادق حتى مع نفسه؛ ولا يؤمن بما يقرره بنفسه.

هناك، في الواقع، أناس يكذبون كثيراً إلى درجة يفقدون معها مصداقيتهم، أي أن مادون الوعي لايصدق مايقوله الوعي، إلى درجة يحدث معها تشتت لهاتين الباحتين، بمعنى إلحاق الإرباك والضرر بالتفاعل السوي بينهما. فالشخص الذي لايحترم كلمته، بل يستخدمها للكذب وخداع الآخرين، أو الذي يستخدم وعده لإغراء زملائه ونقض الاتفاق دون أن يرف له جفن، يخلق بذلك عدواً متوارياً داخل نفسه يقاومماينوي أن يفعله. هذا الكيان هو الكيان الدُّووَعيي، الذي لم يعد، بسبب خضوعه للخداع غالباً، يصدق مايقوله الكيان الواعي ولا يرغب بالتعاون معه أو المشاركة بدسائسه. وعلى العكس، من المحتمل جداً أن يعمل منهجياً على معارضة مشاريع صاحبه.

وهناك شكل للاأخلاقية مقنَّعة، حتى بالنسبة للشخص نفسه، يتصرف بموجبها كمحتال، وكذاب، ومخادع، وتشوش عقله وتجعله عصابياً، لأنه عادة يقول شيئاً ويفعل غيره، حتى أن بعض المسائل تبدو صحيحة وقويمة ظاهرياً، ولكنها، في الواقع، غامضة باطنياً. هذه العادة تقود الشخص إلى اكتساب نوع من الخداع العقلي، وهو نوع من شخصية مزدوجة يعرف شطرها (الوعي) جزءاً بسيطاً جداً فقط من دوافع صاحبها ويأتيه جزء متناه في الصغر من المعلومات من الدماغ، في حين أن الشطر الدُّووَعيي، وهو الباحة الرئيسة، يعرف

كل شيء، باستثناء معظم الباحة الخفية من اللاوعي.

تتصرف الـ "أنا" وفقاً لأسباب جيدة أو سيئة وتعتمد على معلومات محددة تمتلكها. إنها تفكر، ولكن فقط على أساس عدد هزيل من عناصر العقل الكامل. تظن أن دوافعها نظيفة، في حين أنها يمكن أن تكون، في الواقع، فاسدة، أو ضالة، على الرغم من حقيقة أن الفرد مقتنع باستقامتها.

ويصنف فرويد العمليات النفسية إلى شعورية، وقَبْل شعورية، ولاشعورية. وفي نطاق هذا التحليل، من المهم أن ندرس مايمثله اللاشعور في الوعي الإنساني، وهو مستوى أكثر عمقاً من الدُّووَعي. يرتبط الدُّووَعي بالعملية النفسية القَبْل شعورية التي أشار إليها فرويد. والحقيقة هي أن اللاوعي عند الفرد هو مجرد عرض للاّوعي الجماعي عند الجنس البشري، وهو نوع من روح بدائية تكونت من إرث يمتد من القرد حتى إنسان اليوم. واللاوعي الجماعي هو الأرشيف النفسي لذاكرة النوع، منذ أصولها القاصية حتى الوقت الحاضر.

يظن أكثر الحكماء المصريين والأغريق المعروفين أن الحيوانات، على خلاف الإنسان الذي يتمتع بروح فردية خالدة، تتحرك بروح جماعية بدائية، نوع من نواة فعالة توجه جميع وظائف النوع، كالهجرات، ومواسم التزاوج، إلخ.

وعلى هذا النحو، يكون اللاوعي ميراث الروح الجماعية للقرد، التي لم تمت خلال مجرى ارتقائه الدماغي والبيولوجي، بل بقيت سليمة تُظهِر نفسها من زاوية ما في الدماغ القديم، أي الدماغ العتيق، الذي ينشُط نفسه ويتفاعل ضمن ظروف معينة مع الدماغ الجديد أو اللحاء الجديد.

يترصد القرد في كمين في أعماقنا الداخلية، ومثله إنسان نياندرتال، وكرومنيون، وإنسان أستراليا، والإنسان الشبيه بالقرد. وفي الليل، عندما يكون القمر بدراً، تستيقظ هذه الحيوانات في أعماق لاوعينا، الذي يمتثل لدعوة الغابة. روحها المشتركة جزء من الروح الجماعية وتنضم إلى لاوعي كل فرد من النوع، وتتشابك مع مشاعره وسلوكه على نحو لايمكن علاجه.

هذا يعلل التناقضات العميقة لنوعنا كإنسان عاقل، يتحدث عن السلام ولكنه يعيش باستمرار في حالة حرب، ويعظ بالحب ولكنه يتصرف بحقد؛ يحقق إنجازات كبيرة، علمية

وتقنيه، ولكنه يعلن عن تقدم روحي عديم الأهمية أو غير موجود. ويمكن أن نفهم هذا إذا التزمنا بما تعنيه الروحية فعلاً: تبدل الشخصية التقنية الوظيفية في العقل الذي يساعد الكينونة (الروح) على إظهار نفسها في واقع اللحظة الحاضرة. هذا النموذج للروحية المادية هو الذي يتخطى الكلمات الخرافية، أو الأشراك الخفية الكاذبة، أو التأملات الفلسفية، النظرية أو غير الواقعية. والآن، ماعلاقة كل هذا بالنكث بالوعد؟

الحقيقة هي أن للّغة أساساً فيزيولوجياً عصبياً عميقاً، وما نقول وكيف نقول يؤثر بعمق على دماغنا. وفي لحظة كلامنا بالذات، تتهيأ خلايانا وعصبوناتنا للقيام بفعل مكافىء للفعل الذي حددته الكلمات. فإذا كان مانقوله يفتقر إلى الثبات والجدية، فإنه سيعاد تلقيمه إلى الدماغ بصورة سلبية. وإذا نقضنا وعدنا، فإن خلايانا سوف تُحبَط باستقبال رسائل متناقضة. والخلية لايمكن أن تكون مختلفة عن أي شخص محبط مخدوع وسوف تُظهِر أعراضاً مماثلة: كرباً، وتوتراً، وسوء طبع، وعُصاباً.

لايمكن أن يكون التأثير الداخلي والخارجي الذي تُحدثه كلمة شخص يكرر فقط مفاهيم شخص آخر، دون أن يعرف مايقول، مثل تأثير مايقوله شخص يدرك عمق معنى مايتحدث عنه. في الحالة الأولى، تكون كلمات الشخص فارغة بصورة مطلقة: مجرد أصوات تلفظ كلمات، وهذه تكوّن عبارات ومفاهيم فارغة من أي معنى في عقل المتحدث، مع تغذية راجعة سلبية للدماغ.

ليس مهماً مدى الإتقان الذي به يكرر واعظ كلمات يسوع، أو إلى أي مدى يمكن أن تكون صادقة؛ فإذا لم يكن مستوى معناها عند المتحدث كما كان في عقل المسيح، فإن كلماته ستكون مثل سنابل القمح الفارغة، مجرد سنفات دون أي محتوى حقيقي. وتؤدي حقيقة ماتعودناه من عدم المحافظة على كلمتنا إلى تناقض أغراضنا، وبالتالي، إلى إضعاف قابليتها للتحقق، مما يجعل الدُّوَعي يفقد احترامه لنا ويتحول في النهاية ضدنا. أما المحافظة الصارمة على الوعد الذي نقطعه للآخرين أو لأنفسنا، فتجعلنا أناساً صادقين، أشخاصاً كاملي النضج والانضباط الضروريين لتحقيق أغراضنا، حتى على حساب تأجيل منفعة عاجلة في سبيل منفعة مستقبلية أكثر اهمية أو متسامية. وبالمثل، فإن الاحترام والتعاون الذي يبديه لنا دووَعيُنا يمنعنا من السقوط إلى الآلية العاثرة لتخريب مشاريعنا الخاصة حتى دون أن ندرك ذلك. أنا لاأبالغ في ظني بأن هذه حقيقة يمكن أن تكون محكاً لنجاحنا وسعادتنا-

كل مرة ننجح فيها في أن نحافظ على كلمتنا نظيفة من الكذب، أو الافتراء، أو الروايات المؤذية، أو اللغة السيئة. ولن نبتعد كثيراً إذا ذكرنا أن مدرسة فيثاغورث كانت تسعى جادة في طلب أغراض عميقة أكثر بكثير مما يُظَن حالياً عندما نصحت من يتوقون إلى الكمال الروحي بنذر الصمت. والواقع، إن تطهير الكلمة خلال مرحلة من الصمت الاختياري يمكن أن يؤدي إلى نوع من الاستبطان الذي يساعد الفرد على معرفة نفسه بطريقة عميقة جداً، وتشحنه بحياة وطاقة جديدتين، لأن الناس يبددون عادة كمية كبيرة من الطاقة من خلال الكلام.

يجب أن يضع المرء في اعتباره أن الأشكال الشائعة للكلام شبيهة بالآلة في أن الكلمات قلما تُدرَس في الدماغ بطريقة واعية، وهذا، كما يبدو، هو سبب هذه الطريقة المكننة لتعبير التغذية الراجعة إلى الدماغ في اتجاه واحد: دون أية إمكانية للاختيار، فهي تعمل فقط على تعزيز الدارات الدماغية الموجودة حالياً. وهذا يعني أن التغذية الراجعة تزيد ميكانيكية الفرد، وتخفف، بما يتناسب مع ذلك، الوعي ومستوى التنبه. إن الحديث العادي التكراري الذي ينوِّم الناس بعمق أكبر من المألوف، ويغوص بهم إلى الانغماس في الملذات مريح، وسلبي، وكسول يبتعد بهم تدريجياً عن الواقع. والافتقار إلى عمق ذي مغزى يولِّد في التفكير شكلاً نمطياً، وميكانيكياً، ورتيباً من التعبير. إن الكلمات الأكثر حكمة وعمقاً توضع في فم شخص كان قد تعلمها غيباً وتوصله فقط إلى الجزء المعلوماتي من المعرفة لاتولِّد حكمة، بل هي، كالكومبيوتر، مجرد مأتىً إلى ملف ما.

قيل إن الكلمات التي نطقها المسيح سببت تأثيراً خارقاً على من فهمها، وأصبحت رسالته مصدراً لحياة خالدة. ولكن الكلمات نفسها في عِظَة واعظ سيكون لها فقط تأثير الأمل، عن طريق ضرب أمثلة تواسي الروح ومعنى الأخلاقية، ولكنها لن تصبح "ماء يروي ظمأ المرء بخصوص كل شيء حول الخلود." وبما أن الكلمة، بطريقة ما غامضة، وتحمل المحتوى المهم لفكرة الشخص الذي ينطق بها، ولأنها منطقية فقط، فإن عقل الواعظ (على الرغم من حقيقة أنه يمكن أن يكون رجلاً بسيطاً صالحاً) لايملك مستوى المغزى الذي يمتلكه المعلم السماوي.

يبدأ إنجيل يوحنا بالقول، " في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمةُ اللهَ. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان.

فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس." وبهذه الطريقة يبدو أن الكلمة مُنحَ منزلة موثوقة وقدرة مقدسة.

والإنسان، الذي يحمل الشرارة المقدسة التي تفيض من الخالق، يمتلك جزءاً ضئيلاً من هذه القدرة في حالة خاملة. ولتنشيط هذه القدرة، عليه أولاً أن يمحص كلامه، ويحجم عن استخدام لغة نابية، ويأبى أن يؤذي زملاءه أو يهينهم بالكلام، ويتفادى الإكثار من الحديث، ويرفض التحدث بسوء إلى الآخرين، ويحافظ بحماس على السر الذي اؤتُمِن عليه، ويهتم بالوفاء بالوعد عندما يقطعه. وعلى هذا النحو، يطهر نفسه وينظفها لكي تكون لغته تعبيراً عن شفافيته الخاصة لاعن كرهه أو امتعاضه. وعليه أن يحافظ على فترات دورية من الصمت لكي يعي مايتحدث به وكيف يعبر عنه. كما يجب أن يتفادى تكرار الرسائل أو المعلومات الخالية من المغزى التي يتعلمها عن ظهر قلب (إنها دون معنى)، تماماً كالآلة التي تسبب الصوت، لكي لايتغذى الدماغ رجوعياً بالتسجيلات اللاواعية التي تمارس تأثيراً مُمَكْنَناً عليه. وعليه أن يدرك أن الكلمة مقدسة، وأنه ينبغي احترامها واستخدامها للأعمال الخيرة المحترمة، لالتلطيخ شرف الناس وكرامتهم.

إنها لخطيئة خطيرة تلك التي يرتكبها من يُعهِّرون كلمتهم عن طريق تسخيرها لخدمة الكذب المزخرف بأغراض خفية. والمثال على ذلك أولئك الذين ينشرون الروايات حول تصرفات شخص أو مجموعة من الأشخاص لمجرد تشويههم، أو إلحاق الأذى بهم، أو لأغراض سياسية غايتها تشويه الصورة العامة التي يمكن أن تكون لهم؛ وأولئك الذين يشهدون زوراً أمام المحاكم؛ وأولئك الذين يستخدمون، على الرغم من سوء استعمال السلطة من قبل الجماعات المتنفذة، الترهيب أو الضغط على من يعرفون شيئاً عن حالات الفساد العلني أو السري لكي لايكشفوا مايعرفونه، ومن يمارسون - باستخدامهم للكلمة والتأثير، بطريقة ما- تهديد السلطة القضائية، أو الضغط عليها، أو ترهيبها لقلب ميزان العدالة؛ والذين يكذبون بوقاحة لإشباع طموحاتهم الشخصية أو لإسكات ضميرهم الأخلاقي.

لاريب في أنها معركة نبيلة، هي معركة إنقاذ الكلمة من مخالب الكذب، أوالعبث، أو الميكانيكية، أو التفاهة، أو العدوانية تجاه الزملاء، بحيث نضعها خارج متناول العواطف ونجعلها تعبر عن قيمة داخلية لاعن الجانب القاتم للكائن الإنساني. غير أن القرد في داخلنا يستولي في مناسبات كثيرة جداً على أفواهنا، فنهدد ونتوعد، ونادراً جداً ماتعبر الروح عن نفسها من خلاله.

يمكن أن تحرك الكلمةُ العالمَ، ولكن منذ قيام برج بابل فرقت اللغة بين الناس واستعدتهم. وأن نتكلم اللغة نفسها ليس ضمانة لفهم بعضنا بعضاً، لأن الكلمات المتشابهة في عقول الناس تحمل معاني مختلفة. فكثيراً مايحصل أن يتجادل شخصان بحدة على مدى ساعات دون أن يدركا أنهما يقولان الشيء نفسه، مع أن عقليهما يسجلان مفاهيم مختلفة؟ من الضروري أن نفهم لماذا يشكل سوء استخدام الكلمة انتهاكاً أخلاقياً خطيراً تعاقب عليه الطبيعة بما يكافئه، لأن كل شيء يأتي من الإنسان يعود إليه في اللحظة نفسها.

خداع السمع البصر

يتكون هذا النوع من الخداع من الكتمان، أو التزوير، أو الإنكار لمانسمعه أو نراه، لأنه يشوش وعينا الأخلاقي، أو يؤذي احترامنا لذاتنا، أو لايتفق مع أفكارنا، أو يسبب لنا الكرب. وهو خطأ أخلاقي لأنه آلية اللاوعي التي نستخدمها للتصرف بغدر، بطريقة غير مفهومة، لكي نتفادى مواجهة الواقع عندما لايكون ملائماً لنا.

ولكن عندما يكون ملائماً لنا، فإننا ننكر أننا سمعنا شيئاً كنا سمعناه فعلاً، أو نضخم تلك الكلمات التي يمكن أن تتضمن ولو إطراء أو استحساناً لتصرفاتنا، باستخدام هذه الرسالة لموازنة نقص يمكن أنه بقي مؤجلاً في داخلنا.

السمع واحدة من الأحابيل الكبيرة لعقلنا، لأنه، في الممارسة، ليس أكثر من خيوط كثيرة تتلاعب بالدمية التي هي نحن.

والحقيقة هي أننا نقوم بانتظام ويومياً أيضاً بخداع أنفسنا. فنحن لانصغي إلا لما يلائم صورتنا ونرفض ماعداه. ونسمح بأن يصل إلى دماغنا كل مامن شأنه أن يطربنا أو يتفق مع أفكارنا أو يمثل نوعاً من أسلوب يساعدنا على تبرير عيوبنا الخاصة، وموروثنا من العيوب والنقص.

ويصبح سمعنا حساساً وحاداً، بشكل خاص، عندما نُذكَر بخير، ويُصَمُّ فجأة عندما نتعرض للنقد أو عندما نسمع أفكاراً تناقض أفكارنا أو تنحرف عنها. وبصرنا حاد بما يكفي، خصوصاً، لرؤية "القشة في عين الغير" ولكنه يعجز عن رؤية لوح الخشب في أعيننا.

فنحن لانرى سوى ماننتظر أو نرغب برؤيته، في حين نقرِّب عيوننا من بقية الأشياء. وأحاديثنا ونقاشاتنا حول بعض المواضيع عقيمة جداً حتى أننا، في الواقع، لانستمع إلى شيء

لانـريده ولا نهتم إلا بالكلمات التي يمكن أن تعني بأننا على صواب فيما نقول. فالمناقشات السياسية والدينية هي عادة حوارات بين أناس صُمّ، لأنه مامن أحد يهتم في الإصغاء بل فقط في فرض أفكاره. والشجارات بين زوجين هي عادة مجرد عملية انتظار بَرِمَة صماء للطرف الآخر لإنهاء كلامه دون اهتمام بما يقال مالم ينسجم مع ميله، وهي حالة فيها تُستَرَد حالاً القدرة على الإصغاء.

نحن نصغي فقط لكلمات الإطراء ونتصامُّ عن أي نقد. ويساعدنا هذا على أن نطور كافة أنواع المناورات الغريبة، العقلية والعاطفية، لكي نقنع أنفسنا بأن الأحمر هو أزرق في الواقع، لأنه لوننا المفضل، وأن الأخضر هو أصفر، لأننا لانحب الأخضر. والمحاورة نادرة حتى لو كان المشاركون فيها اثنين أو أكثر. وهي شائعة لأن هناك حواراً فيه يعلن كل واحد فقط الرسائل التي تتولد في برنامجه الدماغي، دون أي ميل داخلي للإصغاء إلى أراء مختلفة.

من الشائع جداً عندما يسمع الناس شيئاً يتعارض مع آلياتهم الخاصة أن يصابوا بعارضة من الصمم النفسي، الذي يتميز بإدراك نوع من كلمات أو أفكار "موسيقية" أو "صاخبة،" لايفهمون معناها أو يتجاهلونه. ويحدث مثل ذلك مع الأطفال عندما يوبخهم آباؤهم، لأنهم يجتازون اضطراباً عاطفياً كبيراً يربك عقولهم ويمنعهم من إدراك رسالة آبائهم. ويجب أن أبيّن أن الصمم النفسي ليس من نوع المرضيات المتفق عليها، لأنه، على الرغم من كونه وباء عالمياً، فإن هناك قلة تصغي فعلاً وهي استثناء نادر. ومن الواضح أننا لانصغي بآذاننا بل بدماغنا، وعلى الرغم من أن سمعنا قد يكون سليماً تماماً، فإن الدماغ هو الذي يعالج ويسجل مانسمع.

نحن ندرك، باللاوعي، كل مايصل إلى عقولنا وننقحه، وتنفذ إلى مستوى الوعي فقط النتف التي يقبلها الجهاز الشبكي الصاعد. والجهاز الشبكي الصاعد جزء من النخاع المستطيل الذي يوجه التعليمات إلى قشرة المخيخ عندما يتوجب عليها أن تنتبه إلى شيء ما. وتنتهي بقية المنبهات في قبو اللاشعور، دون أن يعي الفرد وجودها.

ويمكن إثبات هذه الحالة تجريبياً بواسطة التنويم المغنطيسي، وهي عملية يصل الفرد فيها إلى كمية كبيرة من المعلومات التي لايعرف شيئاً عنها عندما يكون في حالة من الوعي الطبيعي.

يجب أن نسلّم بأننا كائنات تتمتع بوعي مصغر ضامر، لأن الانتباه والوعي المكثفين

ليسا مَلَكَتين اختياريتين، إلا في مناسبات نادرة. فقلما نعير اهتماماً مداوماً لما يجب أن نهتم به حقاً؛ ولا يمكن أن نتوقف عن التفكير ساعة نشاء؛ ولا نتمتع بالقدرة على الدخول إلى حالات أعلى من الوعي بملء إرادتنا.

يستولي على انتباهنا كل ماهو واجب مُلِحّ أو يثير رغبتنا وجاذبيتنا، مع أنه لايمكن أن نركزه على ماليس مروعاً، أو مؤثراً، أو مبهرجاً، أو أي شيء لايقدم مثوبة عاجلة.

يبدو أن الهدف من أجهزة الترشيح الدماغية هو أن تعمل كأجهزة امتصاص للصدمات بين الـ "أنا" والواقع، ربما لكونها النظير الفيزيولوجي لآليات الدفاع الذاتي لـ "أنا" كالإنكار، والكبت، والإسقاط، والنكوص، والتثبيت، والتكوين الضدي التي تُدرَس في التحليل النفسي.

ويذكر كالفن س. هول حول هذا الموضوع مايلي:

إن واحداً من أهم واجبات الـ "أنا" هو مواجهة التهديدات والأخطار التي تكمن في الانتظار للفرد وتسبب الكرب. ويمكن أن تحاول الـ "أنا" كبح الخطر عن طريق تبني طرق واقعية لحل المشكلة، أو قد تحاول تفريغ الكرب عن طريق استخدام طرق تنكر الواقع، أو تزيفه، أو تشوهه. وتدعى هذه الطرق آليات دفاع الـ "أنا" عن نفسها. وهي طرق غير منطقية لمواجهة الكرب لأنها تحرِّف الواقع، أو تحجبه، أو تنكره وتخلق العقبات ضد النمو النفسي.

فما الغرض من وجود مثل هذه الدفاعات إذا كانت على مثل هذه الدرجة من الأذى؟

"أنا" الطفولية ضعيفة جدا بالنسبة لتوحيد وتركيب كل المطالب التي تُطلَب منها. فتتبنى دفاعاتها كإجراءات وقائية. وإذا لم تستطع تخفيف الكرب بوسيلة منطقية، فإنها تستخدم هذه الإجراءات لإنكار الخطر، أو تبريره، أو إخفائه، أو لكي يبقى في الحالة نفسها أو يتراجع.

فلماذ تستمر هذه الدفاعات عندما تحقق أغراضها في الـ "أنا" الطفولية؟ إنها تستمر عندما لاتستطيع الـ "أنا" أن تتطور بذاتها. وأحد الأسباب التي تجعلها غير قادرة على التطور هو أنها تستهلك كمية كبيرة من طاقتها في دفاعاتها. فتتشكل، في هذه الحالة، حلقة مفرغة. لايمكن التخلي عن الدفاعات لأن الـ "أنا" غير كفوءة، وتستمر الـ "أنا" في كونها غير كفوءة عندما تعتمد على الدفاعات. فكيف يمكن أن تخرج الـ "أنا" من هذه الحلقة؟ العامل المهم الوحيد هو عملية النضج. فتحت تأثير عملية النضج، تشعر الـ "أنا" بأنها ملزمة بالتطور.

يواجهنا الكرب لحظة ولادتنا، لأنه يترتب علينا أن نتنفس، ونشعر بالمنبهات والحاجات الأخرى التي كنا بغنى عنها سابقاً. فنحن نفقد سعادة الرحم، ونتلقى مقابل ذلك أثداء أمهاتنا كمكافأة. ولهذا السبب، فإننا، في الوقت نفسه الذي نَخبُر هذا، نَخبُر أيضاً تهديد الكرب الذي يمكن أن يمثله بالنسبة لنا الحرمان من ذلك الغذاء. وعندما يحين الوقت الذي فيه نسلّم بأننا كائنات منفصلة عن الأم، فإننا نبدأ نَخبُر عذاب الحاجة إلى الحظوة بالرعاية والرفقة. وعندما نشب، نعي الكبار كعمالقة مهددين يكشفون الستارة عن عالم واسع وغريب إلى حد مؤلم. ولكتمان القلق الذي تسببه لنا حالات الخطر والتهديد، نبدأ، دون قصد، نتملص من الواقع الذي يعمل بالقوة على تحطيم حياتنا عن طريق إنكار مانراه وتزييفه. يعمل هذا التملص عادة كعلاج عاطفي إرضائي يهدئنا موقتاً. ومن سوء الحظ أن هذه العادة تسبب إدماناً وتُظهِر ميلاً إلى الهروبية والمراوغة التي تصف الشخص، وفقاً لمدى تكرارها، ككائن يعيش عادة خارج الواقع. أما وقد لجأ إلى أحلامه الخاصة وحيله العقلية الخادعة، فإن إدراكه قد تلوث وتبدل بهذه الحقيقة؛ فهو يركز على خطته ويبتعد، إلى حد مثير، عن الأشياء الخيِّرة التي يعرضها العالم الواقعي.

إن خطيئة التلاعب بالواقع بقصد تكييفه مع مخاوف المرء ورغباته تمثل تشوشاً أخلاقياً، لأنها تحرمنا من الدروس التعليمية للحياة، ولأننا لن نفهم أبداً السبب الحقيقي لإحباطاتنا، وآلامنا، واحتياجاتنا، ومعاناتنا. وهذا شبيه تماماً بالقول إن المعلم أعطانا درجات سيئة في المدرسة لأنه لايحبنا بدلاً من أن نعترف بجهلنا أو افتقارنا إلى الاجتهاد في دراستنا. إنها طريقة ماكرة للتملص مما ينتظره الخالق والطبيعة من الفرد الإنساني-إدراك واقع الحياة لكي نتطور منه. إن الله وحده يعرف عدد الديانات، والمعتقدات، والآيديولوجيات، والأنظمة التي ظهرت عبر تاريخ النوع البشري كدواء عاطفي إرضائي، كخطط مغلفة بالسكر هدفها الوحيد هو تسهيل الهروب من واقع كريه. وطالما واصل النوع البشري الرضاعة من دواء إرضائي كبير الحجم يتمثل بالاستهلاكية من كل الأنواع، فإنه سيضعف نفسه عن طريق ابتلاع دمه الخاص، كما في أسطورة الأفعى التي راحت تلعق المبرد بسرور، ولكنها لم تكن تشرب سوى دمها بالذات.

ولا يمكن أن نفهم أبَداً مدى الخداعات التاريخية التي كان الإنسان ضحية لها، بقصد التستر على التصرفات الغادرة أو إخفاء المشاريع السياسية والمالية.

ومادامت التعليلات التي تقدم لإحدى الفضائح ترضي النفاق العام، فإن الجميع سيتقبلون هذه الرواية على أنها الحقيقة، و"يغسلون أيديهم،" ويحافظون على الهدوء. وإذا كانت الحقيقة واضحة جداً وكشفت أخطاء الناس، وخداعهم، وآلياتهم النفسية المبتذلة، فإن الأكثرية سوف ترفضها، في حين يتقبلون بالإجماع وبسهولة كذبة وقحة إذا كانت تهدىء كربهم أو حسدهم الجماعي.

إن الحقيقة مادة غذائية تُحفَظ فقط لمن نجحوا، بطريقة ما، في الإفلات من مخالب آليات دفاع الـ "أنا،" والذين نجحوا أيضاً في تنمية "أنا" واعية، ناضجة، راشدة.

والحيل النفسية التي تحرّف الواقع، أو تنكره، أو تغيّره مسؤولة جزئياً عن فقدان التفاهم بين الناس، لأن كل واحد يجرد الأفكار والمفاهيم التي لاتنسجم مع أفكاره ومفاهيمه من أهليتها. إن وسائل الاتصال الجماهيرية تعالج "الحلوى" و"القنابل" ببراعة. فالحلوى هي كافة المعلومات التي تركز على ضروب التقدم العلمية، أو الطبية، أو التقنية أو تضخمها، أو تُظهِر المدى الهائل للتسلية واللذة الموضوعتين بتصرف الناس: النماذج المختلفة لـ "الحلوى" هي الغذاء، والجنس، ورعاية احترام الذات، والنُّصُب التذكارية، والرحلات للهرب من الذات، واللباس للتنكر على نحو كاف وفقدان الرؤية للهوية الخاصة، والإشباع النرجسي بكافة أنواعه. أما "القنابل"، فحوادث مثيرة، أو دموية، أو وبيلة تجعل المرء يتوق إلى "الحلوى" لتهدئة الكرب الذي تسببه.

مناورة العقل تجعل صاحبها يرى القديس محتالاً، وفظ الطبع رجلاً مهماً، والحقيقة كذبة، والزيف أصالة. وتحمله على أن يتخيل نفسه نموذجاً للاستقامة والشهامة حتى على الرغم من اقترافه لأكثر الأعمال خزياً. وقد تجعله يجرد عاقلاً من أهليته ويطري آخر جاهلاً. كل هذا انسجاما مع تقلب رغباته، وأخطائه، ومخاوفه، لاانسجاماً مع الواقع.

والمكيدة الأكبر هي لعبة تزييف الفرد لذاته. وتحمل الذات المزيفة ثلاث هويات مختلفة:

1. كيف يرى نفسه.
2. كيف يراه الناس.
3. كيف هو في الواقع.

كل شخص "يحلم بالرفعة،" ويصوغ نفسه في خياله وفقاً لنزواته الخاصة، التي

تستجيب عادة لأوهام العظمة والقوة. وبهذه الطريقة، تتوطد الـ "أنا" المثالية التي يعتبرها الفرد كيانه الحقيقي، مؤمناً في أعماقه بأنها تتطابق مع هويته الحقيقية. وهكذا، تنشطر شخصيته بين الصورة التي يحملها لنفسه، التي يعتبرها "أنا" الحقيقية الخاصة به، وبين ماهو عليه في الواقع. ومن هنا، يمكن أن يظهر وجود شخصيتين لاتعرف الواحدة بوجود الأخرى. وفرويد وحده هو الذي قارب انشطار الـ "أنا" في المستوى الوصفي لا في المستوى التفسيري؛ ويقدم لنا المقطع التالي تفسيراً أوسع:

ابتكر بلولر، عام 1911، عبارة انفصام الشخصية في الإشارة إلى مجموعة من الذُهانيين، وهي الوحدة التي استخرج منها كريبلن تصنيف هؤلاء تحت عنوان الخرف المبتسر وصنفهم إلى ثلاثة أشكال أصبحت تقليدية: الفَنَدي[1]، والجامودي[2]، والزوراني. ويُصنَّف الفصام، سريرياً، إلى أشكال تختلف كثيراً عن بعضها من حيث الظاهر، ونلاحظ فيها عادة الصفات التالية: تنافر التفكير، والتصرف، والعاطفة، وانفصال الواقع مع الانطواء على الذات وسيطرة حياة باطنية تستسلم لمنتجات التخيل (الاجترار العقلي)، وهونشاط هذياني مشدد إلى حد ما يُنَسَّق خطأ على نحو لايقبل التغيير؛ وأخيراً، الطبيعة المزمنة للمرض الذي يتطور بنظوم مختلفة جداً نحو تردٍ عقلي وفعال وكثيراً مايؤدي إلى حالات تشبه الخرف.

-جان لابلانش وجان برتراند بونتاليس

لانبالغ إذا أكدنا على أن معظم التشوشات التي تصيب الشخصية، والعقل، والعواطف، والسلوك تنشأ في اضطرابات الانتباه- في القدرة على تركيز التفكير على مايجب التركيز عليه، في الطريقة التي نستخدمها لكي ندرك الواقع كما هو.

والإدراك المشوه للواقع يقود الفرد، بشكل حتمي، إلى وجود زائف يحتل مكانه في عالمه الشخصي الاعتباطي، عالم فيه تستجيب القوانين التي تحكمه لهذيانه الباطني. ويمكن أن نفهم الهذيان الباطني هذا على أنه حالة يمر فيها الفرد بتجارب وهمية تشبه مايَخبُره في أحلامه أو هلوساته، إنه تغيير لوعي الواقع الذي يتبدى في تكون المحاكمات العقلية الخاطئة المعزولة عن الواقع. فإذا فهمنا العالم كمكان فيه يعيش كل واحد عادة غارقاً في هذيانه، عندئذ، يمكن أن ندرك مدى صعوبة أن يتصل الناس بصدق، لأنهم، في الواقع، يفعلون ذلك "من صورة إلى صورة." ومعنى ذلك أن "س" يتصل بـ "ع" من صورة مقبولة

1-الفَنَد: جنون المراهقة-المترجم.

2-المصاب بشذوذ الحركة-المترجم.

لديه على أنها ذاتيته الحقيقية، في حين يصغي "ع" في الظرف نفسه من ذاتية زائفة، وفي الوقت نفسه يظن أن مايدركه "س" ينسجم مع واقعه الحقيقي، مع أنه، بكل المعايير، واقع افتراضي فقط.

وبهذه الطريقة، يصبح الاتصال بين الذاتيات الافتراضية هو الوسيلة الرئيسية للاحتكاك بين الناس، دون أن تكون كياناتهم الحقيقية قادرة على أن تلمح بعضها بعضاً.

الحديث، أو الشعور، أو التصرف حيال القوة التي نظن أن أحدهم يتمتع بها لاعما هو عليه في الواقع، لايختلف عن إنجازات الإنسان الخفاش أو الإنسان السوبرمان: خيال محض. ويمكن أن يكون المثل القديم (اعرف نفسك) قد وُضع لغرض أساسي هو تحقيق اتصال صادق أمين بين الناس، وبالتالي، تفادي الثرثرة التي لاتنتهي ولا نفع منها التي يتحاور فيها جزء من عقل الفرد يحكمه الخيال مع نظيره عند الشخص الآخر.

يدرك الناس، إلى حد ما، الطبيعة اللاعلاقية الزائفة لهذه الاتصالات، لأنه كثيراً مايشعرون، بعد المحادثة، بعدم الرضا، أو الانزعاج، أو الشك، وكأنهم عبَّروا عن شيء بطريقة غير مناسبة أو أنهم لم يقولوا ماكانوا يريدون قوله فعلاً، إنه شيء يبحثون عنه دائماً في عقولهم ولا يجدونه. والذي يحدث هو أنه في اللحظة التي يلمحون هويتهم الحقيقية، التي تختنق تحت أوراق الصورة، ويُظهِر لهم الإدراك العاطفي العكس أيضاً، يظهر زيف سلوكهم اليومي الذي فيه يُنزَل فيه الكيان إلى مرتبة أدنى ويُهاجَم باستمرار لكي يدافع عن صورته الخاصة المُمَثْلَنَة. ونتيجة لكل هذا، يبدو هناك تبرم أو إحباط غامض، يشبه الشعور بفقدان أو نسيان شيء ما، أو بعدم النجاح بإنجاز ماكان الشخص يريد إنجازه. على المرء أن يفكر في ذلك عندما يتخذ هوية زائفة أو خيالية، كما في حالة الصورة المُمَثْلَنَة، فإن الـ "أنا،" كنقطة مركزية في هذا التكوين، تجذب حولها كل عناصر التجارب اليومية الجديدة، التي تتجاوز الكيان إلى الصورة بدلاً من توسيعه، وكأن عامل الكومبيوتر ارتكب خطأ عند تصنيفه للمعلومات فوضعها في غير مكانها. تتغذى الصورة بكافة تجارب الفرد، ولهذا السبب تفقد هذه التجارب فائدتها الارتقائية وتنتهي فقط إلى توسيع التمثال، في حين يبقى الكيان، الذي هو الـ "أنا" المتسامية، محروماً ومتخلفاً.

هذا، وليس غيره، هو سبب حماقة الجنس البشري: نحن عمالقة بمستوى الذكاء وأقزام بمقدار ماتكون الكينونة معنية، وهذا الضآلة المدهشة تنعكس بشكل بؤس

مماثل، أدبي وأخلاقي. نحن لاننجز شيئاً بزيادة الوسائل المادية للرفاه والإفراط في تغذية بطوننا وعقولنا إذا بقيت أرواحنا في حالة فقر مدقع. هذا هو البؤس العام الذي يهاجم الناس بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية، أو عقيدتهم، أو جنسهم، أو لونهم. ولكن مهما كان الفرد، غنياً، أو ذائع الصيت، أو صاحب شأن، أو خيِّراً، أو شهماً، أو ذكياً عاقلاً، فإن كيانه الخاص يُحتمَل جداً أن يكون في حالة من الفقر المدقع، بينما تعاني ذاتيته الزائفة من سمنة مزمنة. وبهذه الطريقة، فإن كل واحد لايعمل أكثر من الدفاع عما يراه في الصورة التي يكوِّنها في أحلامه، التي علق عليها ذاتيته الخاصة بطيش وعلى نحو خاطىء. وخلال كل ذلك، يذوي الكيان الأصيل في طوايا النسيان والهجر.

ولكن، هناك كثير ممن يقومون، بطريقة ميكانيكية جوفاء، بإيجاد التبريرات للإنسانية، والأخلاقية، والأخلاق دون فهم حقيقي لما يقولونه ويقيدون أنفسهم بتقليد ماتعضده الطقوس الخارقة دون أن يجشموا أنفسهم سلفاً مشقة صقل حجرهم الغشيم لكي يستعيدوا جوهرهم الداخلي من مخالب صورتهم. وهو الشرط الأساسي للنمو الروحي الذي يمكن أن يضفي مضموناً معرفياً أعلى لكلماتهم.

كثيراً مايحدث أن يرفع بعض الناس طوال حياتهم، بهدف خفي لغسل صورتهم، راية المفاهيم أو المثاليات الرفيعة التي لايشعرون بها، أو يفهمونها، أو يمارسونها فعلاً، ولا شك في أنهم يفعلون ذلك بإخلاص من غير قصد واع لخداع أحد. وكما سوف نستنتج، فإنه من المفرح جداً التباهي بالصراحة وحب الخير مع أن هذا لايتصل بالواقع الباطني الحقيقي عند الفرد.

إن مواجهة الحقيقة الداخلية والخارجية كما هي في الواقع، هي، في آن واحد، شرف وامتياز، ومن لايفعل ذلك يرتكب جريمة أخلاقية ضد الله وشرارته المقدسة، وبالتالي يحكم على نفسه بالنفي الروحي.

الكحولية

الكحول هي العقار الأكثر استهلاكاً في العالم، لأنه مقبول اجتماعياً ويباع علناً. وبالتعريف التقني "العقار هو أي مادة طبيعية أو اصطناعية تسبب عند دخولها إلى الجسم تبدلات مستمرة تقريباً، في بنيته أو أداء وظائفه السوية."

والكحول ليست ذلك الناتج الذي يؤذي كل من يستهلكونه، ولكنه يؤذي من يفرطون في شربه، وينتهون إلى إدمانه.

وتُعرّف الكحول على أنها عقار نفساني المفعول يؤثر على الجملة العصبية المركزية، فيؤثر على الدماغ ويلطف الطريقة التي فيها ينظر الفرد إلى نفسه وإلى العالم. فعندما يفرط في الشراب، يتبدل إدراكه للواقع، وتغيم أفكاره وتتشوش. إنها مادة موهنة وليست منشطة، لأن السعادة الزائفة التي يشعر بها الشخص تعود إلى حقيقة أن الكحول تخدر المراكز العصبية التي تؤثر على الرقابة أو تثبط بعض أنماط السلوك أو الأحاسيس، وبالتالي تحمل الشخص الذي نتحدث عنه على التصرف بطريقة غير لائقة.

ولما كانت الكحول مادة موهنة، فإن تعاطيها، بالترافق مع الباربيتورات[1] Barbituratees، ينطوي على خطر كبير، لأنه عندما يتعزز التأثير المُخَمِّد، فإن الجسم يؤدي وظائفه ببطء كبير، مما قد يسبب هجمة قلبية، أو توقف التنفس. ونورد فيما يلي التبدلات المترقية التي تم تحديدها عند شخص سكّير:

المرحلة الأولى:	يشعر بالسعادة والانفتاح. ويصبح ثرثاراً، ودمثاً، ومسترخياً، ولامبالياً.
المرحلة الثانية:	شمق وإثارة، ثرثرة، فرط نشاط؛ يصبح ملحاحاً وتكرارياً، سريع الانفعال.. تتضاءل حدة تفكيره؛ تسوء محاكمته العقلية، يصبح سلوكه شاذاً وحركاته لامبالية.
المرحلة الثالثة:	ارتباك وتَوَهان. لايمكنه أن ينظم حركاته، ولا أن يحافظ على توازنه وتنسيق كلامه. تحدث مشاعر الحزن، أو السوداوية، ، أو الخوف، أو الغضب الشديد. وتتضاعف الرؤية عنده (الشَّفَع Diplopia).
المرحلة الرابعة:	لايمكنه أن يبقى واقفاً على قدميه أو يمشي. انسمام ضخم وتبدل في سلوكه الحركي والعقلي. يفقد مفهوم الزمان والمكان (لايعرف من هو أو أين هو). إقياء وسلس.
المرحلة الخامسة:	حالة من اللاوعي؛ تتباطأ الوظائف الحيوية شيئاً فشيئا حتى يدخل في سُبات. هنا، يمكن أن يتوقف قلبه أو تنفسه.

1-عقار منوم أو مسكن-المترجم.

الحقيقة هي أن الكحولية تحرض تدريجياً تبدلات نفسية، وفيزيائية، وسلوكية، وكلها مترابطة مع بعضها بعضاً، كالعلاقات الأسرية، والاجتماعية والعمل. وفيما يلي موجز لهذه التبدلات:

التبدلات النفسية

الطور 1: شعور بالذنب بخصوص طريقة تناوله الشراب، هيوجية أكبر؛ يبدأ بفقدان ذاكرته؛ ينشغل باله بمسألة التزود بالشراب؛ يصبح الشراب ضرورة.

الطور 2: يفقد السيطرة تماماً على استهلاكه للكحول؛ تستولي عليه أفكار ومشاعر بأنه يتعرض للظلم؛ "الجميع ضدي؛" الرثاء للذات؛ مخادعة النفس؛ احترام ضئيل جداً للذات؛ يمكن أن تظهر أفكار انتحارية؛ تزايد الشعور بالذنب.

الطور 3: اكتئاب؛ فقدان الإحساس بالواقع؛ عملية ضياع الشخصية؛ هلوسات؛ تشوه الإدراك، والتفكير، والمحاكمة العقلية.

التبدلات الفيزيائية

الطور 1 : يشرب لتخفيف حالات الكرب والتوتر الجسدي، وبهذا يزداد تحمله للكحول.

الطور 2 : انسمام دائم تقريباً؛ ضعف الدافع الجنسي؛ فقدان الشهية؛ تدهور الصحة.

الطور 3: تدهور حاد ومزمن في الصحة؛ رجفان؛ سوء تغذية؛ ضعف؛ اضطرابات عضوية؛ فقدان الشهية.

التبدلات السلوكية

الطور 1: يزداد تكرار شربه ويقضي المزيد من الوقت في الشرب مع الجماعة.

الطور 2: نسيان كحولي؛ شرب إجباري؛ هبوط حاد في إنتاجية العمل؛ شرب صباحي؛ يشرب وحيداً؛ سلوك السكارى المعروف؛ تعامل فوضوي بالمال؛ سلوك عدواني؛ قد تستولي عليه نزوات الانتحار أو محاولاته.

الطور 3: فقدان كامل للاهتمام بالطعام؛ يعيش للشراب؛ يشرب أي نوع من الكحول بما في ذلك الأنواع التي تستخدم لأغراض مختلفة؛ إمكانية الموت نتيجة لحادث عرضي أو انتحاراً.

العلاقات مع الآخرين

الطور 1:	يعد بالإقلاع عن الشرب؛ تبدأ التبريرات بخصوص المضايقات الاجتماعية؛ وتبدأ الصعوبات في العمل: التغيب، فقدان المقدرة، تكرار المجادلات.
الطور 2:	ينكر الكمية التي شربها أو يتستر عليها؛ تدهور ملحوظ في العلاقات العائلية؛ تضطلع الزوجة بمزيد من المسؤوليات؛ إمكانية فقدان العمل؛ تبرير الشرب بمبررات أقل معقولية؛ زيادة المديونية؛ زيادة العزلة الاجتماعية؛ الاختلاط بالآخرين فقط من أجل الشراب.
الطور 3:	العزلة عن الأسرة والأصدقاء؛ انهيار الزواج؛ تجنب الناس الذين يريدون تقديم المساعدة.

يشيع اعتبار الكحولية مرضاً لارذيلة أو مشكلة أخلاقية أو مجرد ضعف في الشخصية، حيث تبدو متساهلة إلى حد مفرط. و"الرذيلة" تعني: "فرط الشهية لشيء ما يغري المرء باستخدامه بإفراط،" ويُفسَّر "الضعف" على أنه "تلف أو فساد فيزيائي أو أخلاقي،" ويحدث هذا عند سوء استخدام الكحول. وأظن أن المرض شيء لايمكن كبحه، شيء لايمكن للفرد أن يتفاداه، حتى لو تدخلت الإرادة والتصميم الداخلي، ولا نجد شيئاً من هذا في حالة الكحولية.

إن تخلف الـ "أنا" وضمور الشخصية وقوة الإرادة هي أمهات كل الرذائل، لأن درجة سيطرة الفرد على شهواته وعواطفه، في هذه الحالة، تكون ضعيفة جداً، فيصبح عاجزاً عن مقاومتها. وهناك أسباب عديدة يمكن أن تغري الفرد بالشراب: التكيف العائلي والاجتماعي، الخجل، انعدام الشعور بالأمان، الكرب، التسلية، مركب النقص، تكرار المشاركة في الحوادث الاجتماعية التي يُقدَّم فيها الكحول، الهروبية، العُصاب، الشخصية الطفولية، الإحباط، العزلة، الخوف، إلخ. ولكن السكارى هم عادة أناس ذوو ملامح طفولية فشلوا في تنمية شخصيتهم وإرادتهم، ولهذا فهم يفتقرون إلى التدريب وضبط النفس الضروريين لوقف الشرب أو الشرب فقط بكميات قليلة.

وأظن أنه من المفيد أكثر لو اعتبرنا الكحولية مشكلة أخلاقية وروحية بدلاً من اعتبارها مرضاً عضالاً. وربما سلك المجتمع الطرق الخاطئة في محاولته لفهم الأسباب التي

تدفع الكحوليين إلى الإفراط في الشراب. وأرى أنه من الأجدى أن نعرف الأفراد الذين يحجمون عن الشراب، أو الذين يشربون باعتدال، أو المنيعين للرذيلة، أو سواهم.

لاشك في أن أسباباً مختلفة، تعد بالمئات، تجعل الأفراد غير سكّيرين، وربما كان التصرف الاختياري للفرد ليس من بينها، وقد يكون هذا التصرف نوعاً من برمجة معاكسة، كما يحدث، مثلاً، مع أطفال لآباء كحوليين كانوا قد عانوا كثيراً في طفولتهم بسبب الكحول، أو أناس تحرّم ديانتهم شرب الكحول، أو رياضيين يزعمون حسن الأداء، أو أتباع المذهب الطبيعي، أو نباتيين، أو أناس أبعدتهم أنماط حياتهم عن إغراء الشراب.

يصعب علينا أن نصدق أن فرداً يتمتع بمزايا أخلاقية وروحية يقع في رذيلة استهلاك الكحول. فالشخص الذي تهيأ له النمو الروحي لايبتعد فقط عن الإفراط في شرب الكحول، بل أيضاً عن أية رذيلة أخرى، لاأخلاقية ومنافية للأدب، وعن أي نمط سلوكي من هذا النوع. فما سبب هذا؟ ببساطة، إنهم ينجحون، عن طريق ضبط النفس، في تكوين "أنا" ناضجة راشدة، إضافة إلى شخصية نشيطة وإرادة صلبة. وبمعنى آخر، إنهم أناس يزيدون نموهم أو يحققونه، ويتخلصون من النقص، مما يجعلهم يتمتعون بالقوة، والوعي، والاستقرار.

إن نجاح منظمة "كحوليون مجهولون،" وهي مؤسسة للكحوليين السابقين تهدف إلى مساعدة من يعوّلون على الكحول، يعزى إلى حقيقة أنهم يعتبرون الكحولية مشكلة روحية عند الكحوليين، وأنهم يتضررون عاطفياً لأنهم يشربون لتعويض عجزهم. وتتألف معالجتهم لأنفسهم من اثنتي عشرة خطوة، وإليكم أهمها: يسلّم كل عضو بعدم تناول الكحول ويمتنع عنها كلياً؛ ويؤمن بقدرة عليا يمكن أن تبعثه؛ ويقيّم نفسه بدقة، ويتعهد بمساعدة الكحوليين الآخرين.

إن ماندعوه "أذى عاطفياً" لايحدث عادة عند الفرد الذي ينجح في أن يحمل قيماً متينة، أخلاقية وروحية، لأن قيماً كالاستقامة، والطهارة، والحب، والانسجام تكفي للتخلص من العواطف السلبية أو لإصلاح الضرر الذي أحدثه العدوان الخارجي. ولن نرى أبداً شخصاً يحمل قيماً روحية منغمساً في الرذائل، لأن كلاً منهما ينفي الآخر.

عندما يُبتلى أحدهم في الحياة بضر أو جرح، فإنه يمكن، في أية حال، أن يصحح الضرر أو يشفي جراحه الأخلاقية أو العاطفية إذا تخلص من أنانيته وواجه، بصورة جدية، نموه الروحي. وعليه أن يتذكر أن "الأنانية" ليست فقط فقدان المحبة، ولكنها على الأصح،

تمثل، بالدرجة الأولى، الحب المفرط للذات (حب ذات الشخصية، لاذات الروح)، وأنها تحمل الشخص على إيلاء اهتمام كبير لمصالحه، دون الاهتمام بمصالح الآخرين. هذا إذاً ماتفعله الكحول: عدم جعل أنانية الشخصية مركزاً لذات الشخص لكي لاتعطي مغزى أكبر لوجوده، بحيث لايحتاج إلى "إبعاد" الكحول من حياته لأنها فقط تفيض عليه كما تفيض قطرة ماء على زجاج.

من الواضح أن هناك مستويات مختلفة كثيرة لتقييم الوجود الخاص للمرء، وفقاً للحدود العليا التي يبلغها في نموه الروحي، من أكثرها تواضعاً إلى أكثرها سمواً. فلايستطيع المتعصب روحياً أو دينياً أن يقارن نفسه بقديس، ولكنه سيكون أيضاً على الطريق إلى تجربة متسامية.

لاريب في أن منظمة "كحوليون مجهولون" تقدم لأعضائها الحب، والتفهم، والأخوة، والدفء الإنساني، هؤلاء الأعضاء الذين عملوا على كبح إدمانهم، يعملون أيضاً على إعادة تقييم أساليب حياتهم عن طريق العمل كمساعدين لمدمنين آخرين. والسكّير المتعود هو عادة شخص منغمس في الملذات يرثي ذاته، وفي لحظة ما، يختار الشراب لتفادي الواقع بدلاً من مواجهته. وهناك أوقات فيها يتصرف بحساسية أكثر من الآخرين، الذين لايمكنهم التنكر بطريقة فعالة أو إنكار بعض الحقائق، وكأن هناك خللاً وظيفياً في آليات دفاعهم الذاتي، التي ربما تجد تعزيزاً لها في الكحول.

يبدأ الميل إلى الكحولية مع أية تجربة مؤلمة تُفسَّر على نحو خاطىء، تجربة لم يتم استيعابها أو مواجهتها، الأمر الذي يقود إلى الرثاء للذات، والانغماس في الملذات، وتدني احترام الذات. وهكذا، يتعلم السكير الطريقة الخاطئة لمواجهة الكرب والألم عن طريق إنكارهما، فيرثي ذاته، ويشعر بالعودة إلى المستويات الطفلية في النمو. وبالتالي، تتوطد، بشكل تدريجي، حلقة مفرغة فيها يعاود الفرد الشرب لتهدئة كربه الذي تسببه الأوضاع المؤلمة، وبذلك يتفادى مواجهة الحقائق التي، لو جرت معالجتها بصدق، لجعلته يتطور. وما دام هذا لايحدث، فإن الكرب يعود من جديد، وبعده الكحول، مع رثاء لاحق للذات وتضاؤل احترامها.

يبدأ السكير، خلال النوبة الكحولية، التخيل مع من يشاطرونه عادته، فيحدثهم حول بسالته الجنسية، أو مآثره البطولية المزعومة، أو تلفيق الأكاذيب من كل نوع بما يُظهر

مدى نبله، أو أهميته أو شجاعته. وبعد هذه المرحلة، يشرع بالبكاء بوحشة وكرب، وهي حلقة تتكرر، بصورة طبيعية، في كل مرة يفرط في الشراب.

وبوجه عام، إن الناس الميالين إلى الكحول والمشكلات العقلية والعاطفية يكذبون كثيراً فيما يتعلق بمواجهة الواقع، وتعتمد حياتهم اليومية على الاستمرار في خداع الذات الذي يعمل، بصورة تدريجية، على إفساد تماسهم مع الواقع. إنهم كائنات تحاول "تطويع" الحقيقة لاحتياجاتهم الخاصة، عن طريق وضع خريطة عقلية للعالم الذي يبرر أخطاءهم وعيوبهم، ويبدد مخاوفهم، والذي يبشر بتحقيق أوهامهم بالقوة ونيل تلك الرغبات التي هي أكثر إغراء بالنسبة لهم.

وكنتيجة منطقية، يؤدي كذبهم على أنفسهم إلى خداع رفاقهم، وعلى الرغم من أنهم لايقصدون ذلك، فإنه يسبب تدهوراً عميقاً في الاتصال مع أنفسهم ومع الآخرين.

الكحولية، كأي شكل آخر من إدمان العقاقير، عيب أخلاقي لأنها تهاجم الغلاف الجسدي للروح، وهي وسيلة يجب على المرء أن يقوم بحراستها لكي يحافظ على إمكانية الارتقاء الفردي. والسُكْر واحد من طرق عديدة للتملص من الواجب الذي تفرضه الطبيعة والخالق، لأن كل شيء في كوننا، إذا لم يتغير ويتحول وفقاً لمقتضيات الحياة، ينتهي إلى الانحطاط والموت دون أن يبلغ هدفه الارتقائي.

على المرء أن يسلّم بأن ارتقاء الفرد يعتمد، بصورة كلية، على قدرته على مواجهة الواقع الداخلي والخارجي بصدق وثبات، ، لكي يستخلص الجوهر من التجربة اليومية ويفهم بعمق دروس الحياة. فليس هناك وسيلة أخرى للكمال الروحي الأصيل غير تلك التي تعتمد على ترك كافة الخرائط العقلية الوهمية إلى الغوص بشجاعة في الواقع الحقيقي، فهناك يجد المرء جوهره الداخلي، ووراءه الخالق. هذا هو الهدف الحقيقي للحياة ومن يفشل في الاستجابة له فلا بد له من أن يعتبر نفسه فاشلاً، مهما بدا غنياً، أو ذكياً، أو مشهوراً، أو قوياً، وعليه أن يكرر دروس الحياة مراراً حتى يفاجئه القدر.

من وجهة نظر لاهوتية، إن أحد واجبات المرء هو أن يحافظ على وجوده، الذي لايقتصر طبعاً على البقاء فقط ولكنه يعني العيش بطريقة أسمى، ومعنى هذا أن يعمل على إكمال نفسه وتطوره. وبقدر مايكون المجتمع معنياً، يصبح معروفاً تماماً الضرر الذي تسببه الكحول، لأن هناك علاقة واضحة بين استهلاك الأشربة الكحولية وانتهاك القوانين، والعنف العائلي، وحوادث السير.

إن الانحلال الخلقي الذي يبلغه الكثير من المدمنين يجعلهم يعاملون الأطفال بقسوة فظيعة، وهو تصرف يتسم بجبن مفزع لايمكن تبريره، لأن الأطفال كائنات قاصرة. والحقيقة هي أنه يجب العمل بدقة على قياس التلف الذي يسببه الكحول في جسم المدمن ودماغه.

فسوء التغذية، والقهم[1]، والتهاب المعدة، والتهاب المعثكلة، والصَّرْع الكحولي، والاضطرابات العقلية، وتبدلات الذاكرة، واعتلال فيرنك الدماغي (صعوبة التركيز وبطء الإجابة عل الأسئلة)، والهذيان الارتعاشي، والعته الكحولي، كلها احتمالات قوية في حياة المدمن.

كل هذه الاضطرابات هي اضطرابات عضوية ولكن هناك اضطرابات أخرى تأتي تحت عنوان الاضطرابات الوظيفية، كالغيرة المرضية، والهلوسات الزورانية. والهذيان الارتعاشي هو واحد من أكثر الاضطرابات التي يمكن أن يعاني منها الإنسان إثارة بسبب أعراضه اللافتة للنظر. وفيمايلي وصف موجز وضعه نيل كيسل وهنري وولتُن:

تترافق كل لحظة واعية من حياة الضحية بخوف شديد. والصفات السائدة هي الخوف، والهياج، والارتباك الكبير؛ والتوهان والهلوسات النشيطة. يبدأ الهذيان الارتعاشي من 2-5 أيام بعد التخلي عن الإفراط في الشراب ... هناك عادة مالا يقل عن عشر سنوات من الشرب بإفراط قبل أول هجمة.

والأعراض مثيرة: يشعر الضحية بتململ وهياج كبيرين. وفي المستشفي، يحتاج إلى شخصين أو أكثر لوضعه في سريره، على الرغم من ضعفه. إنه لايستقر، فهو يتقلب ويتحول باستمرار، ويثرثر دائماً وينتقل من شخص إلى آخر ومن موضوع إلى آخر لأدنى إشارة: وهو خائف، وكثيراً مايصرخ محيياً أو محذراً من يمر قريباً منه. وتلوح يداه حوله بطريقة خارجة عن سيطرته ويتشبث بالملاءات؛ والمريض المصاب بالهذيان يحاول دائماً أن يلتقط أشياء خيالية بعيدة عنه، قطعاً نقدية، أو سجائر مشتعلة، أو أوراق اللعب، أو حشرات. والكحولي، الضحية للهلوسات البصرية الدائمة التبدل، يحجب وجهه لكي لاينظر إلى الأشياء، والحيوانات، ويهدد الناس الذين يهاجمونه.

تسيطر على المريض رهبة مفزعة تنشأ، بصورة أساسية، من خطأ إدراكه وتمثيله للبيئة

1-قلة الشهوة إلى الطعام-المترجم.

المحيطة به. ويشعر بأنه مهدد من كل جانب وربما يقاتل لوقف مهاجميه.

لايحتاج المريض إلى الدخول في الهلوسات، لأنها موجودة بشكل واضح. فهو يستجيب لأصوات خيالية ويتفاعل مع رؤى وهمية. ويرى، بشكل خاص، أشياء صغيرة تتحرك بسرعة. ويتحدث عادة عن جرذان وفئران، ولكن هذه الحيوانات كثيراً ماتكون نذيراً أكثر شؤماً: ذباب أسود كبير يطن قرب وجهه؛ وقطط تأتي لخمشه. وأحياناً، تكون الهلوسات غريبة أكثر: حقائب سفر مزودة بسحابات تعض الأرجل. كما قال أحد المرضى. ويتحول الخوف أحياناً إلى استسلام: "أعرف أنك ستقتلني، هيا افعلها مرة واحدة."

أوردت هذا الوصف لكي يتمكن القارىء من تكوين فكرة دقيقة عن الرعب الذي يمكن أن يؤدي إليه الشراب، ولكي يدرك أيضاً أن الرذيلة يمكن أن تتغلب على درجة النمو الشخصي والروحي عند الفرد. فالسلوك الأخلاقي العالي ليس أكثر من سلوك عفوي للفرد المتقدم روحياً. أما اللاأخلاقية والرذيلة فنتيجتان منطقيتان لفقدان القيم الروحية الرفيعة.

وينبغي أن نتذكر ماقاله الفلاسفة الإغريق القدماء، "من يفهم الفضيلة لايمكن أبداً أن يكون لاأخلاقياً أو شريراً." وبما أن النمو الروحي الحقيقي ليس موضوعاً ثقافياً، فإن المشكلة الأكثر خطورة تتمثل بعدم وجود اهتمام حقيقي بالفضيلة والقيم، لأن المفهوم الثقافي للروحية لايقوم على أساس صعود عمودي لوعي الفرد. وما من أحد يمكن أن يدرك إلى أين يؤدي هذا الارتقاء.

إن طريق الروحية المكرسة للدين محددة تماماً، ولكن قلة قليلة جداً يعرفون أن هناك طريقاً علمانية للروحية، أي للطبيعة الفلسفية والعلمية، فيها يكون كمال الفرد مسألة تقنية/صوفية. فالروحية، من وجهة نظر ثقافية، توازي الاستقامة، والإنسانية، والموسيقا، والرسم، وأعمال البر، وليس منها، طبعاً، مايضمن تنمية روحية حقيقية لدى الفرد.

وروح الانتصار العلمي والثقافي أيضاً تثبط الناس عن الطريق الروحي لأن ضروب التقدم المؤثرة في العلم والتكنولوجيا تسبب إحساساً عاماً بأننا على الطريق الصحيح وأننا لسنا بحاجة إلى أي شيء آخر. والحقيقة هي أن طريقنا تبدو طريق التقهقر الأخلاقي والروحي، علاوة على التقدم المُسَرَّع، العقلي، والعلمي، والتكنولوجي. وهذا التوافق لايبشر بخير كبير بالنسبة لمستقبل الجنس البشري.

المادية

مذهب فلسفي يسلّم فقط بالواقع الحقيقي للمادة، التي عليها يقوم كامل الوجود. ووفقاً لهذا المذهب، ليس هناك وجود خارق للطبيعة، ولهذا، لاضرورة إلى سبب غائي أو هدف نهائي، أو لأي ذكاء لتفسير الكون و الطبيعة. والنتيجة المنطقية للمادية هي المغالاة في تقييم الثروة، وملذات الحواس، وإشباعات الجسد، مع إعطاء أهمية مبالغ فيها للمظهر الفيزيائي والقوة المادية، مما يلحق الأذى بكل ماهو روحي. والواقع أنه لايمكن أن نتوقع من نوع الإنسان العاقل أكثر من هذا، بسبب ضآلة أمد ارتقائه من حيوان وحقيقة أن سلوكه الغريزي مازال محكوماً بالدماغ الحيواني، أو القشرة القديمة، أو "الدماغ القديم".

إن تاريخنا، حتى اليوم، ذخيرة مؤثرة من الجريمة والعنف. فالحرب العالمية الأخيرة وحدها خلّفت أربعين مليوناً من الموتى. واللغة المنمقة التي تستخدم للمواربة أو لتبرير هذا غير مهمة، فالحقيقة هي أن هذه الحالة يمكن أن تحدث فقط بين الكائنات الأدنى، الكائنات القريبة جداً من الحيوان. فلا الحضارة الحديثة ولا ضروب التقدم العلمية والتكنولوجية، ولا حقيقة أن هناك أمثلة للمحبة والخير تستحق أن تُقلّد، استطاعت أن تحظر أو تمنع البربرية، والوحشية، والعنف، والقسوة، والفساد.

فالمادية ليست أكثر من لصق أربع قوائم، وذيل، وحافر؛ إنها المطابقة الداخلية مع طبيعة المرء الحيوانية التي تسلّم فقط بشريعة الغاب. كل هذا، إضافة إلى ظرف إضافي مفاقم-حتى الحيوان الصرف يكون نظيفاً وشفافاً بمعنى أنه لايمكن أن يعزى إلى سلوكه أي انحراف. فهو لايشرب الكحول، ولا يدخن، كما أنه ليس قاسياً ولا سادياً، ولا يتعاطى المخدرات، ولا يدمر في سبيل اللذة، ولا يعرف معنى للحقد. والإنسان، على العكس، حيوان فاسد، وكما يبيّن ماضيه وحاضره، يمكن أن يبلغ حدوداً من الشذوذ لايمكن لدماغ بسيط أن يتصورها. حقاً، إنه لايستطيع الابتعاد عن الأرض، وحتى عندما يقف منتصباً، فإن طبيعته الغريزية تقوده إلى أن يكون مجرد أداة لشهواته الحيوانية.

إن الغذاء، والصراعات الإقليمية، والتوالد، وسيادة القطيع، والتنافس على النفوذ بين الذكور المسيطرين، وحفظ النوع، هي كل المشاغل التي تستحوذ على تفكير الجنس البشري.

والمادية محاولة تراجعية لكي يتمكن الإنسان من حمل نفسه على الاكتفاء بكونه

حيواناً دون أن يحاول قطع الحبل السري الذي يربطه بالروح الجماعية للقرد، الذي يبقى حياً في لاوعيه. ويتم عادة تمويه كل هذا بتبريرات وتعليلات مقنعة.

إن التقدم العلمي، والتكنولوجيا، والنزعة الإنسانية [1]، والكنوز الفنية، والثقافة كلها تصبح عناصر لإثبات "إلى أي مدى وصلنا ككائنات إنسانية،" في حين تُستبعَد أية مواجهة مع الجانب المظلم للنوع. يزين الإنسان نفسه جيداً وإلى حد استثنائي لكي يخفي حافره وذيله، مما يجعله يبدو كفاتح عظيم للطبيعة. وهذا ليس صعباً، لأن عمل المادة عنده مؤثر: مبان ضخمة؛ وجسور عملاقة؛ وسدود؛ وشتى أنواع المهارات الميكانيكية؛ والآلات التي تطير؛ والأشياء المصنوعة التي تحاول أن تقلد الدماغ البشري والأدوية الجديدة والتكنولوجيا الطبية المتقدمة؛ ومستويات الرفاه التي لم يكن بالإمكان تصورها قبل بضع سنوات؛ والهندسة الحيوية؛ وعدد لايحصى من الأشياء الأخرى.

وهناك، بموازاة كل هذا، الصناعات النووية، والأسلحة الكيميائية والبيولوجية، والحرب، والتدمير؛ والمجاعة، والانسمام الجسيم بتلوث الجو، وانتهاب الطبيعة، وتجارة المخدرات وتعاطيها، والفساد، والسرطان، والإيدز، وغسل الدماغ، واستعباد العقل، والإرهاب، والجنوح، واضطهاد الأقليات، وفقدان الحرية الفردية، والتباس الأدوار المذكرة والمؤنثة، والشذوذ من كل الأنواع، والافتقار إلى القيم العليا، والمراوغة، والاستبداد المُقنَّع للسياسيين.

ولكن، يجب ألا نُخدَع، فنحن متطورون عقلياً ولكن ذكاءنا يخضع بسهولة لمختلف "تقنيات الإقناع" التي يستخدمها الإعلان. ونقف عاجزين أمام الحرب النفسية والأسلحة الأخرى للجم الرأي العام. ونتقدم بصورة مرضية في العالم المادي، ولكننا مجردون من أية إمكانية لتحقيق وعي فردي أعلى. و"الكينونة" بالنسبة لنا فكرة مجردة ليس إلا، لأننا نعيش من أجل الصورة، وبواسطة الصورة، وبلغة الصورة.

تحملنا سيادة المادة على الظن بأن خلاصنا يكمن في الآلات، وأنه يمكن تحقيق أي شيء بواسطتها، وهذا هو سبب قناعتنا بأن جسدنا مجرد آلة، ولكنها أكثر تعقيداً من الآلات الأخرى. ونحن، كما يرى الكثيرون، مجرد أجساد تفكر وتتحسس، وليس هناك شيء أكثر من هذا. إذاً، كيف يمكن أن يكون هناك مكان لسلوك أخلاقي أعلى بين من

---

1 -فلسفة تؤكد على قيمة الفرد وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل-المترجم.

يعتبرون أنفسهم نتاجاً لمصادفة مادية ويظنون أن العقل ليس أكثر من ناتج عضوي ثانوي؟

إن التشبث المفرط بالاعتقاد في أن مايمكن رؤيته ولمسه فقط هو الواقعي كان، أكثر من أي شيء آخر، سبباً في انتشار اللاأخلاقية وفقدان الأخلاق. وعلى الرغم من ذلك، يجب على المرء أن يدرك تماماً أن المادية ليست أكثر من عقيدة خرافية.

حتى العلم له خرافاته الخاصة به، فهو يعتبر العقائد ثابتة، فيودعها إيماناً أعمى، ويرفض أن يتقبل مالا يمكن إدراكه بأسلوب الملاحظة المحدودة للباحث، وينسى هذا الباحث عادة أنه هو وحده من ينظر داخل حدود مستواه الخاص من الوعي وليس فوقها.

يتضح لنا سخف موقف الماديين إذا استمعنا إلى مايقوله كارلو روبيا، الفائز بجائزة نوبل عام 1984:

العلاقة بين كمّات الطاقة (فوتونات) وجسيمات الكتلة (نويّات) هي تقريباً ألف مليون إلى واحد ($1: 9.746 \times 10^{8}$)

هذا يعني أن المادة المرئية لاتشكل أكثر من جزء واحد من ألف مليون جزء من الكون الموجود فعلاً، وهذا هو بالضبط الجزء من الواقع الذي يتقبله الماديون. والحقيقة هي أن المادة ليست أكثر من تعبير موقت للتكثيف النشيط، الذي يمكن أن يتفكك مرة أخرى في أية لحظة. وأجرؤ أيضاً على الظن بأن عقل الإنسان يمتلك ذاكرة شاملة للكون في حالة كامنة، وأن المادية مكافئة لحالة مفاهيمية ذات حد ضئيل يعادل جزءاً واحداً من ألف مليون جزء من الواقع. وهكذا، تكون القيم المتسامية للروح بعيدة عادة بمقدار سنة ضوئية عن الآيديولوجية اليومية للإنسان المادي. وتتضمن هذه الفئة طبعاً كثيراً ممن يعلنون ويظنون أيضاً بأنهم إنسانيون، في محاولة لتجميل صورتهم، ولكنهم يتصرفون في ظل النفوذ الشامل لعواطفهم ودفع من الدماغ القديم.

يخبىء الماديون رؤوسهم في الجزء الواحد من الألف مليون جزء من الواقع، ويتجاهلون أن هناك نموذجاً أصلياً للروحية الحقيقية يتجاوز التزييفات والتعميات، وزيادة على ذلك، يتجاوز الفصل الاعتباطي بين المادة والطاقة، وهو ينتظر اندماجهما أو تنافسهما. وهكذا يمكنهم، عن طريق إغماض أعينهم عن هذه الفرصة الأخيرة، أن يطلقوا العنان لدوافعهم البهيمية، سراً أو علناً. زيادة على ذلك، هناك أياد قذرة تبذل قصارى الجهود لتسفيه، أو

تشويه، أو تحريف حقيقة أن الفرد كائن روحي يقع أسير المادة لأنه كائن منحط. ولكن هذه الأيدي القذرة لاتضع في اعتبارها أن هذا الأسير يمكن أن يستعيد حالته الحقيقية عن طريق تنمية مَلَكاته الكامنة.

ولغرض إخفاء تألق الروح، يجري تنويم الناس بواسطة التلفزيون، وأجهزة الكومبيوتر، وألعاب الفيديو. وتُقدَّم لهم بدائل اصطناعية لكل ماهو حقيقي وواقعي؛ ويتم تزييف الأصلي لكي لايستيقظون، بل لكي يستمروا إلى مالا نهاية كأسرى لنزوات متتابعة أكثر إثارة. وبما أن الحب الحقيقي نادر، فقد تم اختراع نماذج نزوية تحفل بها السينما وشاشة التلفزيون. واستُبدِلَت الرومانتيكية التي تؤدي إلى الزواج بالاستهلاكية الجنسية، واستُبدلَت هذه، بدورها، بمَثْلَنَة الاستمناء كـ "علاج".

تُستَبدَل الحساسية بالهستيريا؛ والسلام بالسلبية؛ والقوة بالعنف؛ والجمال بالقبح؛ والالتزام الاجتماعي بالمنحة المالية؛ والرجولة بالوقاحة التناسلية؛ والأنوثة بالملابس والتبرج؛ وتكافؤ الفرص بالتسوية الاجتماعية التي تنفذها الدولة بالقوة؛ والأخوة بالطعام والكحول كواقع اجتماعي؛ والتسامح بالجبن في دفاع المرء عن حقوقه الخاصة؛ وحب المرء لأطفاله بحاجة الآباء إلى تحويلهم إلى صور لأنفسهم؛ والحرية بالانفلات؛ والموسيقا الحقيقية بالضجيج. فتصبح المعلومات غسلاً للدماغ؛ والدولةُ مستبدةً؛ والرئيس ملكاً؛ والموظفون الحكوميون أسياداً للموطنين؛ والعدالةُ مسألةَ من يملك مالاً أكثر أو سلطة سياسية أوسع؛ والثمين هو الأشد بريقاً؛ وأكثر الناس اهمية هم أكثرهم تفاهة؛ ويتم تجاهل الناس المهمين فعلاً؛ وتصبح وسائل الإعلام عناصر ضغط أو معلومات مضللة؛ واللغة كلماتٍ ذات مدلولات زائفة لكي ترضي الجميع؛ والعواطف النبيلة عتيقةَ الطراز؛ وقلة الحياء نماذج يقلدها الناس؛ والشذوذ الجنسي "سلوكاً بديلاً"؛ والاتصال بين الناس "تماساً شبحياً" (بين صور)؛ والناس مفيدين أو غير مفيدين؛ ومنتهكو القانون ضحايا، وهكذا، إلى مالا نهاية.

ويحل الواقع الافتراضي محل الواقع الحقيقي ويبتعد الإنسان أكثر فأكثر عن الطبيعة وعن شرارته المقدسة. هناك تدين وإيمان كبيران في ثنايا المذهب المادي من حولنا، وإن لم يكن بإله واحد حقيقي بل بالخريطة النفعية التي يرسمها كل واحد بخصوص الألوهية. وبهذه الطريقة يتم بسذاجة تصنيع صورة عقلية للألوهية بما يتفق مع حاجات الإنسان المادية.

عندما تتكاثر خطايا المرء ويعجز عن حملها، فإنه يتوسل إلى يسوع المسيح لحلّه منها، فيحملها السيد المسيح بنفسه نيابة عنه، أو يلجأ إلى التوسل إلى قديس معين من أجل إشباع رغباته الأكثر إلحاحاً.

ليس هناك اختلاف كبير بين الآلهة البدائية المحلية، آلهة الماء أو المطر أو الحصاد أو الخصوبة، والاستخدام الذي يجريه الناس لجعل الألوهية في خدمة المادية البشرية.

وأصبح الملائكة مؤخراً خدماً لجشع الإنسان وعبثه ويظن الناس أنهم كثر، حتى أنهم يقومون باستمرار بزيارة الأرض وهم تواقون إلى التدخل في وجود الإنسان. فلماذا يهتم الناس بالملائكة؟ هل لكي يقلدوهم في تواضعهم، وحبهم، وخدمتهم، أو ليستعلموا منهم، دون حذر، عن أكثر المواهب المادية أنانية وإشباعاً للشبق الحيواني عند الشخص؟

وانتشر الإلحاد عبر العالم وهو عادة المظهر الأكثر وضوحاً لفقدان الإيمان عند المرء. فالملحد لايؤمن بالله لأنه يجهل شرارته المقدسة. وينكر الألوهية لإدراكه انه غير جدير بالثقة والاحترام ولأنه يعرف تفاهة حجمه الداخلي الخاص؛ وهو سيء الظن لأنه يدرك مدى خبثه.

ويرفض الآخرون ممن هم أكثر تبحراً أن يقبلوا صورة الإله مفرغة في صورة إنسان أو شبهه، دون ترك الباب مفتوحاً للاحتمال المقابل في أن يكون الخالق قد كوَّن الإنسان في صورته هو وشبهه، ولو أن المصنوع فقط يشبه "عمله الأولي،" حتى أنه يمكن أن يترتب على من يريد استعادة ربه أن يتصدى إلى العمل العظيم في إكمال نفسه، وهو امتحان أكثر قسوة من عمل هرقل، وهو المشروع الأكثر نبلاً والأكثر سمواً يمكن لإنسان على سطح الأرض أن يباشره. أما الاحتمال المقابل فهو البقاء في حالة نقص، أي في حالة يرقية.

وهكذا، يكون الكائن الإنساني أمام خيارين لاغير في الحياة: إما أن يبقى في حالة يرقية أو أن يبلغ حالة التحول الروحي التي تمكنه من أن يطير إلى الخالق ويكتشف منشأه الخاص. وأي شيء لاينسجم مع ماسبق هو مجرد حفلة تنكرية صُمِّمَت لتغيير اتجاه الناس لمصلحة حفلة كبيرة طفيلية.

من الواضح أن نوع الإنسان العاقل في حالته الراهنة هو نوع يرقيّ، والناس العظماء الحقيقيون فقط نجحوا في تحقيق عظمتهم من خلال عمل باطني شاق اتجه إلى تحقيق فرديتهم الحقيقية عن طريق إلزام انفسهم بالعمل الكبير لإكمال حالتهم الإنسانية الخاصة. وهذه مسألة في غاية الخطورة، بسبب عدم وجود خيارات أخرى من وجهة نظر الارتقاء.

الطبيعة لايمكن أن تُخدَع، وإن من يمثل عابثاً بالكمال الروحي "المغلف بالحلوى،" أي، أولئك الذين يمتعون شخصيتهم، سوف ينجحون فقط في أن يكونوا يرقات تعبث بتحقيق الذات دون أن تأخذ هذا النجاح على محمل الجد وبالتالي تفشل في تحقيق الارتقاء المرغوب. وهذا لايدعو إلى الكدر، لأنه، لما كانت اليرقة لاتعرف معنى أن يكون لها أجنحة، فإنها ستكون راضية بحالتها الخاصة ولا تطمح إلى أي شيء آخر. ولكن، لكي تواصل وجودها اليومي بصورة سلبية وراضية، يتوجب عليها أن تدفع ثمن تفاديها لأية مرآة حقيقية يمكن أن تعكس رؤيتها المتواضعة لقيمتها الأصلية المحددة. وهذا يعني التشبث الأعمى بثقافة ما في مرحلة يرقية؛ وممارسة الحب اليرقي وتقييد الذات بتفكير وسلوك نموذجيين بالنسبة للحالة الحقيقية. اليسروع[1] والفراشة رمزان للقابلية المفاهيمية عند الإنسان، سواء لأنهما يميزان الاختلاف بين الحياة جرجرة على الأرض أو رؤية الواقع الأكثر بعداً من العالي. إن شعار الشمس المجنحة، النموذجي للديانة المصرية، كان يذكّر بالتحول الروحي الذي يمكن أن يطمح إليه الإنسان.

يتجاهل المادي بعناد الفرص التي تتهيأ له للارتقاء الروحي، وطالما أنه يستمر في تصرفه هذا، فإن هالة جبرية ثابتة ستحيط به بصورة حتمية، لأن قانون الاحتمالات يُظهِر أنه من المرجح أن يستمر في هذا التصرف إلى مالا نهاية، متوقفاً عند المستوى الأكثر بدائية للحياة البشرية: الحالة اليرقية.

يوضح هذا ضرورة أن تكون الأخلاقية إلزامية، لأن الشخص اليرقة يكون عاجزاً -بقدرته الخاصة على التمييز- عن التسليم، بوعي واختيار، بنموذج سلوك أعلى يتطلب تضحية وجهداً. ولكن ذلك الإلزام الذي ذكرناه آنفاً يحط من قيمة الشيء الأساسي الذي تتطلبه كافة الأنظمة الأخلاقية، أي، أن يكون مقبولاً بحرية واختيار من قبل الفرد، دون أي نوع من الإكراه. ومع ذلك، ليس هناك حل آخر لتطبيقه جملة، لأن الأفضل بالنسبة للناس هو أن يتصرفوا على نحو ملائم من أن يستسلموا للرذيلة والفساد عن طريق استغلال سوء فهم الحرية. وفي الحقيقة، يجب أن يكون واضحاً تماماً أنه ليس هناك جدارة روحية في التصرف بصورة حسنة من خلال الإمكانية المادية لفعل غير ذلك، وأن الانتصار الأخلاقي الحقيقي للفرد يكمن في تبني الفضيلة بحرية لأنه يفهم، في الواقع، مايعنيه هذا ويتصرف تماماً خلافاً

1-يرقة الفراشة-المترجم.

للقناعة الداخلية بصلاحية السعادة العليا الحقيقية ليس بسبب نوع القانون الذي يمنعه من التصرف على نحو خاطىء. وندرس هنا طبعاً حالة من هم ليسوا أسرى النموذج الصارم للمادية العمياء.

وفيما يتعلق بالإلحاد ، من الواضح أن من يظن أنه مؤمن صادق ولكنه يواصل التصرف في الحياة وكأن الخالق غير موجود ، ويمارس فقط نمطاً طقوسياً لديانة طبيعية خارجية ، هو ملحد ، مثله مثل من ينكر وجود الله.

هناك الكثير ممن يشبهون "القبور المبَيَّضَة ، " يعرضون صورة أخلاقية براقة ولكن عالمهم الداخلي فاسد. إنهم يكذبون قليلاً ، ويسرقون أكثر بقليل، ويخدعون كثيراً غيرهم، ويتاجرون بمصائب الآخرين، ويكيفون الأخلاقية بما يلائم ذوق شخصيتهم الأنانية، ويمارسون عمل الخير لتهدئة شعورهم بالذنب وليس بدافع طيبة داخلية؛ كل هذا كأنما لخداع الإله، أو كما لو كان الإله غير موجود ولا يعرف ما يفعلونه على أرض الواقع. وهناك كثير ممن يدفعون للخالق على سبيل النفاق وفي الوقت نفسه ينكرونه من خلال تصرفاتهم. ولكن، من هو الإله الحقيقي؟ هل هو إله الكاثوليك، أو البروتستانت، أو الأرثوذوكس، أو المسلمين، أو البوذيين، أو الهندوس، أو غيرهم؟ وبما أن هناك، في الواقع، إله واحد لاغير، فإن الديانة محاولة لتعريف الخالق وفقاً للظروف الثقافية والتاريخية التي نشأت فيها كل عقيدة، بحيث يتكلم الجميع عن الإله نفسه ولكن بلغة مختلفة.

تبدو الأرض عند مستوى سطحها متنوعة، ولكنها تبدو من الفضاء الخارجي متشابهة على نحو واضح. وكل هذا يعتمد على ارتفاع المنظور الذي منه نلاحظها. وهناك كثير ممن حاولوا أن يُثبتوا، بطريقة أو أخرى، أن الله موجود. ولكن، في واقع الأمر، يمكن الوصول إلى هذه القناعة فقط في احتمالات متنوعة خاصة جداً. أولاً، إن الشخص الذي نشأ في أسرة دينية أو مؤمنة يؤمن عادة بالله، والشخص الذي يتحرك في وسط اجتماعي من المؤمنين يؤمن أيضاً بالله، وكذلك الشخص الذي أشرف كاهن على توجيهه، أو من يعتبر الإيمان مسألة ذوق، أو من يتأثر بأكثرية تقول إنها مؤمنة. وفي المستوى الآخر، هناك الشخص الذي عانى كثيراً أو عاش حياة مليئة بالتجارب القاسية، وأحس في وقت ما بنوع من الإلهام الداخلي بوجود شكل من أشكال الألوهية. وأخيراً، هناك الشخص الذي يفهم بعمق، بسبب نموه الروحي، أن الخالق موجود، لأنه يظهر من خلال الشرارة المقدسة لديه، ولهذا يحاول أن يكيف سلوكه مع التكليف الإلهي الكامل بالارتقاء.

والحقيقة هي أن الله يُظهِر نفسه بصورة كاملة فقط لمن يتسامون بأنفسهم فوق مستوى نقاط ضعفهم لكي يبلغوا مأتىً إلى حالات فائقة من الوعي، الذي هو ممكن فقط في التجربة الفردية.

ومرة أخرى، أريد أن أشدد على أن السلوك الأدبي والأخلاقي، في أنقى أشكاله، يظهر فقط بصورة تلقائية عند من يحققون نمواً روحياً حقيقياً، يتجاوز التزييفات التي لاتحصى والتي تتكاثر كالفطور. فلا ضرورة إلى التحدث إلى شخص روحي فعلاً عن الأخلاقية والأخلاق، لأنها جزء من طبيعته الداخلية، وهذا مايحتاج إليه بحق الجنس البشري.

ولكي نجدد تهذيب أخلاق العالم، يجب تنمية البيئة الروحية للناس، ولكن يجب أن يكون هذا نتيجة لقرار فردي حر بصورة مطلقة يوضع على أساس مفهوم واقعي من النوع التقني لاعلى أساس معتقدات ذاتية لأناس من ذوي النوايا الحسنة، مهما كانوا محترمين. إن مجرد محاولة استخدام خيار ثقافي رضائي لرَوْحَنَة الناس سوف يسبب جدلاً بيزنطياً لاينتهي حول ماالذي يجب اعتباره روحياً حقاً، بحيث يكون السبيل الوحيد المعقول والمتاح مباشرة لكل فرد لكي يشعر ويدرك الحاجة إلى الروحانية، لكي يباشر العمل بمهمته الأولية في الكفاح ضد رذائله وعيوبه، لجعل نفسه تتسامى على عواطفه، وتصليب إرادته وشخصيته، والتغلب على نفسه وممارسة الفضائل، لأنه عندما يتصدى للقيام بكل هذا، فإن أية روحانية حقيقية فعلاً ستصبح واضحة تماماً بالنسبة له. هل هذه المهمة صعبة؟ إنها أكثر سهولة وأكثر مردوداً على المدى الطويل من البقاء إلى مالا نهاية دون تطور، والغرق في وجود كوجود اليرقة.

هذا النمط من الروحانية الصالحة، هو أكثر من قناعة شخصية، أو سياسية، أو دينية يمكن أن يهاجمها أو يرفضها فقط من يدافعون علناً أو سراً عن الأخلاقية والفساد. ومن يقومون بهذه الهجمات يكشفون عن نواياهم الحقيقية، لأنه مامن شر يمكن أن يوجد في الكمال الروحي عند الفرد.

إن واحداً من التأثيرات الفذة للارتقاء الفردي هو أن الفرد يحقق كامل الحرية الداخلية، التي يمكن أن تكون من أكثر الهدايا أهمية لإنسان القرن الحادي والعشرين. ومن الواضح أن الإنسان يصبح "غير قابل للتأثر" بسبب هذا الاستقلال العقلي، حتى أنه يمكن التنبؤ بأن كل من يهتمون بالناس المتأثرين، سواء عقلياً أو عاطفياً، سيعارضون بعناد النمو الروحي عند الفرد.

ومن سوء الحظ أن يكون نظامنا الاقتصادي بحاجة إلى زيادة تدريجية في عدد المستهلكين، ويجب "إقناع" هؤلاء بالشراء دون أن يُترَك لهم هامش محسوس لاختيار شخصي حقيقي. ولكن، يجب أن تكون لدى المرء أفكار واضحة جداً حول هذه المشكلة لكي يعرف حقاً سبب وجود الانحلال الخلقي الذي نراه حولنا وكيف يمكن اكتشاف الحل.

تسير عادة المادية- ظاهرياً- والعبث جنباً إلى جنب، ولهذ السبب لانعرف إلا القليل جداً عن كل شخص. فنحن قادرون فقط على ملاحظة الصورة التي يعرضها الأشخاص، ونعرف ماذا يعملون لكسب عيشهم، وما الأشياء التي يملكونها، وما أعمارهم، وما هم، وما مؤهلاتهم، ونستخدم هذه المعلومات الضئيلة لتصنيف الفرد، معتقدين أنه، "هو هو."

فكروا معي فقط في أن ذلك الجزء الذي نستطيع رؤيته وإدراكه من فرد ما -وهو مادة فيما يتعلق بالطاقة-ربما كان أقل من جزء من ألف مليون جزء. وفي الحقيقة، نحن لانعرف شيئاً عن عالمه الداخلي، ورغباته المستورة، وآلامه، ومعاناته، وطموحاته. وحتى الفرد بالذات لايعرف الكثير عن نفسه. وهكذا، فإن الناس يرتبطون أكثر من أي شيء بالمستوى الجسدي، لأنهم يعتبرون الجسد هوية خاصة بهم، وبهذه الطريقة، يقيدون أنفسهم ضمن الحدود الضيقة للمادة، دون أن يشكوا في أن وحدتهم الكلية الطاقيَّة تكافىء، بشكل تناسبي، الحيز الكلي لكوكب الأرض، في حين تكافىء مدينة فيلادلفيا الحدود المادية لوعي الإنسان السوي. فالجزء من ذاتنا والأجزاء من ذوات زملائنا التي نعرفها هي واحد، والشطر الذي نجهله، هو ألف مليون.

ينكر الماديون الجزء الأكبر لأنه غير مرئي، وكأنه لاوجود لأفكارالناس، وأشواقهم، ورغباتهم، ومشاعرهم لأنها غير مرئية. وبما أنها غالباً غير مرئية، فإننا نعيش في جزئنا المادي اللامتناهي في الصغر، فهل جسدنا هذا فعلاً هو نحن؟

إن ماسبق ذكره لايتماشى مع التعقيدات الخارقة للطبيعة، بل مع التأملات حول مفهوم الفيزياء المتداولة. وأنا مقتنع بأنه مالم يفهم الناس أن أجسادنا المادية هي مجرد ناقلة لتظاهرة كينونتنا الحقيقية، فإنه لن يكون هناك اختيار حر لأخلاقية عليا تكون جزءاً من أرواح الناس لامن التزاماتهم العقلية.

يكمن المنشأ الحقيقي لمشكلتنا في حقيقة أن عملية تظاهر الكينونة الحقيقية هي مادة الارتقاء، وهذا التطور كثيراً مايتعرض للإحباط، أو المنع، أو الازدراء، لأن الإنسان

انحرف عن سبيل الارتقاء ليركز على غزو المادة بدلاً من التحول الداخلي، الذي هو السبب الحقيقي لأزمة القيم المتسامية؛ وفرط النمو المادي؛ وقصور النمو الروحي؛ وعدم تناسب الانشغال مع الراحة، والرفاه، والقوة المادية؛ والتخلي التام عما هو نحن حقاً. والحق إننا نزداد انحطاطاً مع مرور كل يوم. فنحن لايمكن أن ندرك أننا كائنات روحية احتبلها جسد مادي.

التوقع دون استحقاق

إنه لمرض عضال أن نظن أنه لمجرد كوننا موجودين، ودون أي جدارة أكثر من هذا، فإننا نستحق كل ما في هذا العالم من منافع مادية وروحية. ولمجرد كوننا فقراء، نشعر بالتعاسة عندما نقارن أنفسنا بالأغنياء، وإذا فشلنا حيث نجح الآخرون، نظن بأننا ضحايا تمييز ظالم. دون أن نقوم في أي وقت بتحليل جدارتنا بالمعنى المناسب لتحديد التدريب الذي نحتاجه، أو مدى أهليتنا، أو ماالذي قمنا به فعلاً لتحقيق مانريد. ولم نتوقف لدراسة الشهادة العلمية، أو معيار التدريب، أو المهارة، أو الذكاء، أو نشاط من ينجحون. ونحن مقتنعون أن العالم يشبه كعكة ضخمة وطالما أننا موجودون، فإنه يجب أن نمتلك قانونياً مايمتلكه الآخرون، بغض النظر عن الجهد الفردي.

ومن سوء الحظ أن كثيرين يشعرون بالبؤس عندما يرون الآخرين سعداء أو عندما ينظرون إلى ممتلكاتهم المادية أو الشخصية. فطموح المرء إلى شيء ما في الوقت الذي يفتقر إلى جدارة تؤهله لما يريده هو غلط أخلاقي شائع أصبح اليوم جزءاً من الشخصية الطبيعية عند الناس.

يشعر كل واحد بأنه كفوء، وصالح، ومستحق، وعندما يخذله الحظ، فإنه يصبح على قناعة بأنه ضحية لظلم فادح، وأن مايفتقر إليه قد سرقه الآخرون أو اغتصبوه. فمن هم هؤلاء الآخرون؟ إنهم كل من يقع عليهم اختيار الشخص الذي يشعر، دون وجه حق، بأنه يتعرض للتمييز. فموتسارت هو الملوم في نظر ساليري؛ والهنود هم الملومون في نظر مستعمري غرب أمريكا؛ ويوليوس قيصر في نظر بروتوس، وهكذا نجد عدداً لايحصى من الحالات الأخرى التي نفضّل ألا نتطرق إليها لكي لانثير حساسيات الناس. فكل واحد يعتبر نفسه صالحاً ويَصِم بالشر كل من يشغل موقعاً مناوئاً لمنصبه أو مختلفاً عنه، أو من يمتلكون سلعاً حُرِم هو من الحصول عليها. فالعالم مليء بالشياطين الذاتية، التي تولد من الهلوسات أو من التضخيم المفرط للجدارة الفردية والتباين بين هذه الأشياء والواقع الحقيقي.

يشجع فيروسَ الحسد عددٌ من المجموعات المنظمة التي تحاول إقناع الناس بأن العدالة لن تتحقق في العالم مالم تكن هناك مساواة تامة. وبطبيعة الحال، إن هذا يعني، بالنسبة لهؤلاء الناس، إخماد أية معارضة لإزالة الفوارق بين الجميع ضمن حشد متجانس، طيّع ومنقاد، في حين يبقون هم على الهامش ويوجهون هذه المساواة الرِّقِّيَّة المُدجَّنة لمصلحتهم الخاصة.

ونحن نعرف أن تحقيق المساواة عن طريق ثورة أو مرسوم سيكون، بالضرورة، "هبوطاً" ولا يُحتمَل أبداً أن يكون "صعوداً." وحقيقة أن هناك مفهوماً خاطئاً للمساواة يحمل الناس المصابين بخمج فيروس الحسد على الظن بأن العالم ظالم وأنه يجب أن نأخذ ممن يملكون أكثر، دون تمييز لجدارتهم أو افتقارهم لها. ولما كانت أسواق الاستهلاك تتضاعف بسرعة كبيرة، فإن عرض السلع المختلفة يزيد من حاجات الناس بصورة مصطنعة، فيشعرون كل يوم بمزيد من العزل والتهميش، لأنهم، في مستوى اللاوعي، يظنون أنه من الطبيعي أن يمتلكوا كل شيء قيِّم تعرضه السوق وأنه من الظلم ألا يمتلكوه. إن أكثر المجرمين لايحملون فكرة عن الجدارة الفردية، وبالتالي، يظنون أنهم يحققون العدل عن طريق السرقة ممن يملكون أكثر مما يعملون.

لماذا يميل الإنسان كثيراً إلى هذه المناورات الماكرة التي يقوم بها دماغه؟ يحدث هذا لأنه، بدلاً من أن يزعج نفسه بمعرفة الواقع، يواصل تبرير رذائله، أو أخطائه، أو نقائصه، أو يتقبل، بشكل أعمى، المعتقدات الأكثر ملاءمة لعوطفه.

ويشيع أيضاً مفهوم السعادة الجنينية، الذي فيه يكون العالم في خدمة الناس لإشباع كل حاجاتهم دون أي جهد، وهو هدف يجرى تعقبه على اعتباره هدفاً مرغوباً أكثر. والثروة، بالنسبة للمجرمين من المستوى العالي، هدف سهل ضمن متناولهم، ويكفيهم أن يسرقوها أو يسلبوها دون أي رادع أخلاقي.

إن تحقيق النجاح وإحراز الثروة بسهولة هما الطموح الأساسي للشخصية الضعيفة واللاأخلاقية التي لايستطيع صاحبها أن يوطد، في عالمه الداخلي، علاقة بين السبب والنتيجة-بين كونه ناجحاً وكونه يعمل بدأب، وصبر، وإخلاص.

يتشكى معظم الناس من وضعهم، ويحملون في نفوسهم طعماً مراً لنوع ما من الظلم الاجتماعي الذي يظنون أنه يمنعهم من تحقيق النجاح الذي يريدونه. ولكن من يتشكون عادة

لايستحقون الكثير، لأنهم عموماً أناس كسالى، ومتراخون، وعدوانيون، وحاسدون. ويحدث الضرر الأكثر خطورة بسبب الرغبة في النجاح دون جدارة شخصية عند الشباب الذين يتلقون بكثرة رسائل "النجاح السهل" الذي يؤدي إلى إحباط تطلعاتهم بشكل يستعصي على العلاج.

"كسب المال دون جهد" و"النجاح السهل" هما الشعاران المفضلان للكسول وهذا يتناقض مع واقع الحياة الذي يتطلب من المرء أن يعمل بجد وإخلاص إذا كان يريد أن يحسِّن حاله ويحقق النجاح فعلاً. وهذا المفهوم يتضمن، بطبيعة الحال، كماله الروحي، وإلا فإنه سيكون فقط حالة امتياز مادي.

ومن سوء الحظ أن يكون هناك كثير ممن تسكرهم الرسائل غير الواقعية، فيكرهون العمل الجاد والتخطيط الطويل الأجل، فيعيشون في وهم بمعنى فكرة النجاح الخيالية.

ولكن، لماذا يرفض هؤلاء الجهد المنظم والعمل الجاد؟ هذا لأنهم، بطريقة ما، لم ينضجوا بحيث يتجاوزون مرحلة النرجسية الجنينية، وهم ضحايا طفوليتهم التي تقودهم إلى تحميل الأعباء لمجتمعهم. ويبدو كما لو أن رؤوسهم، ومَعِداتهم، وقلوبهم ماتزال في الأرحام ويطلبون أن تكون الدولة، أو المجتمع، أو الكنيسة أماً بديلة، وهو أمل زائف لايلقى التشجيع لدى هذه المؤسسات. والحياة الجنينية، في الواقع، تجربة خالية تماماً من الجهد أو الجدارة. فالجنين يعيش وجوداً طفيلياً ولا يقوم بأي جهد للتغذية أو التنفس. أظن أن مفهوم السعادة عند أكثر الناس يرتبط بالرفاه الجنيني ولا ريب في أن أكثرية كبيرة تحمل تثبيات نفسية في تلك الفترة التي فيها يتوقعون ظروفاً مماثلة في الحياة لظروف وجودهم في الرحم، دون أن يفكروا بأنه أصبح يترتب عليهم الآن أن يكسبوا عيشهم ويحققوا سعادتهم.

إن الراحة والسعادة المادية تشجعان هذه المطالب غير المعقولة، وبالتالي، الإحباط والامتعاض اللذان يسببهما عجز المرء عن تحقيقها. فيلجأ أحياناً إلى وسائل غير شرعية لتحقيق مايريده متجاهلاً القاعدة الذهبية بخصوص الصدق، والجدارة، والجد في العمل، والمثابرة على بذل الجهد.

والبحث عما هو سهل، ورفض دفع ثمن لما نريد الحصول عليه، هو من تصور جنيننا الداخلي-مطلب طفيلي لما كنا عليه عندما كنا نعيش في أرحام أمهاتنا.

ومما يُرثى له أن يلجأ نوع من الأفلام السينمائية إلى تقديم كثير من العروض التي تُظهِر عدداً لايحصى من الطرق لخرق القانون بهدف الحصول بسهولة على المال، لأن هذا الأسلوب من القصة كثيراً مايستخدم كمثال لانتهاك القانون.

والإعلان الذي نتعرض له أيضاً يقدم ، كما قلت سابقاً ، نسخة ذهبية لوجود فيه الكثير من التسلية والقليل من الجهد ، صورة تخترق أدمغتنا بعمق لمزج الواقع والخيال، وحملنا على الظن أن كل شيء سهل، وعندما نعجز عن تحقيق مانريده بسرعة فإننا نصاب بالإحباط.

هناك مؤامرة لاأخلاقية تتمثل بالصمت حول حقيقة أن تحقيق الرغبات المشروعة يعتمد حصراً على عملنا الفردي وجدارتنا الشخصية ، ولسنا بحاجة إلى أن نطلب ترخيصاً من أحد لكي نحصل على مانريده بأسلوب شريف. وعلى العكس، هناك أناس يعيشون دائماً على أمل ضربة حظ أو منحة حكومية، وآخرون يتوصلون إلى الاقتناع بأن مايفتقرون إليه انتزعه منهم أصحاب الامتيازات، وليس هناك حل آخر سوى استرداده بالقوة والعنف.

وبسبب هذا الإلحاح على إظهار أننا "كلنا متساوون" أو أننا "يجب أن نحقق المساواة،" فإننا نرفض، دون تمييز، أي تفاوت بين الناس على افتراض أن حالتنا الطبيعية أو المثالية هي حالة التماثل العامة.

وبهذه الطريقة، ننسى أن التمييز الفردي هو أساس الارتقاء، لأن مسألة الارتقاء ليست مسألة حشود بل هي شيء ما يتطلب قراراً حراً من كل فرد. فمهما حاولنا أن نسوي بين الناس بالقوة؛ فإنهم سرعان مايعودون إلى التفاوت بسبب جهودهم الفردية. ومن الطبيعي أن يكون التقدم والحرية مزعجان لمن يسعون إلى توجيه الحشود لكي يستخدموها لمصالحهم. ولا شك في أنه كان هناك دائماً موظفون حكوميون مفترضون، أي قادة يرغبون، في الواقع، في أن "يقوم الناس بخدمتهم،" وهي رغبة نموذجية للطبيعة البشرية البهيمية أو "الناقصة."

يعرض ويل ديورانت التاريخ كجزء من البيولوجيا ويقول إن حياة الإنسان جزء من تبدلات المتعضيات في البر والبحر. فيكتب:

عندما يتمشى أحدنا وحيداً أحياناً عبر الغابات في يوم صيفي، فإنه يسمع أو يرى حركة مئات الأنواع من الكائنات التي تطير، أو تنط، أو تتمعج، أو تزحف، أو تحفر جحوراً. وتهرب هذه الحيوانات عندما نباغتها؛ فالعصافير تطير مبتعدة؛ والأسماك تتفرق في هربها باتجاه أعلى النهر. وندرك فجأة إلى أية أقلية خطرة ننتمي في هذا الكوكب اللامتحيز، وعندما تظهر هذه

الحيوانات المختلفة المقيمة وللحظة، نكون متطفلين عرضيين على مواطنها الطبيعية عندما تظهر بوضوح. ولذلك، فإن جميع حوليات الإنسان وإنجازاته تغوص بتواضع في تاريخ ومنظور الحياة المتعددة الأشكال؛ وكل مقدرتنا الاقتصادية، وكل كفاحنا لتوحيد القوى، وكل شهواتنا، وحبنا، وآلامنا، وحروبنا تشبه القلق، والتزاوج، والكفاح، والمعاناة التي تختبىء تحت جذوع الأشجار وأوراقها المتساقطة في المياه، أو في الأجمات.

ويقول ويل ديورانت إننا نولد جميعاً غير متساوين وعلينا أن نُخضِع أنفسنا، بصورة حتمية، لعملية الاصطفاء في الكفاح في سبيل الحياة، التي ينجح فيها البعض ويفشل آخرون، ويزداد التفاوت مع تعقيد الحضارة والحرية، لأن الحرية والمساواة أقسمتا على المعاداة الأبدية كل منهما للأخرى، ولكي نؤيد المساواة، علينا أن نعمل على إلغاء الحرية[1].

لايمكن أن نغمض أعيننا عن الدليل بأن البقاء والتقدم يلائمان الأكثر قدرة وأن المساواة المفترضة والتي يرد ذكرها كثيراً هي يوطوبيا استُخدمَت كأداة لخداع الجماهير، كما يحدث مع الحسد، لأن الحسد والإيمان بالمساواة مترابطان عادة. فالحسد يُستخدم لرفض عدم المساواة[2]، مما يجعل الناس يظنون أن الآخرين حققوا تفوقهم بصورة لامشروعة، وبالتالي، فإن تسوية الأشياء، تستلزم تدميرها أو إخضاعها.

نحن لانكف عن التفكير بأن الأشخاص الأحياء جميعاً، مهما بدوا بائسين، هم متفوقون بالنسبة لنا بطريقة ما، إنهم يمتازون عنا بصفة ما، يمكن أن تكون الصحة الجيدة، أو الفطنة، أو القوة البدنية، أو فقدان الكرب، أو المهارة اليدوية، أو القدرة على البقاء، أو ربما يبزوننا بالمَلَكات الداخلية كالاطمئنان، والاحتشام، والتسامح، والفضيلة. ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للحيوانات، لأن الإنسان لايمكنه أن يعيش تحت الماء؛ فهو يفتقر إلى قوة الفيل، وجلال الأسد، ولا يمكنه أن يحلق كما تفعل الطيور.

ليس هناك كائن حي واحد لايتفوق علينا بطريقة ما أو لايستفيد من نقاط ضعفه أو افتقاره إلى الموارد. ومتلازمة التوقع دون استحقاق تظهر أيضاً في علاقة الزوجين التي يقوم فيها الرجل، في محاولة منه لكي يكون محبوباً، باختبار المرأة التي يهتم بها لمعرفة مَلَكاتها دون

1-لا أتفق مع المؤلف في هذا الرأي-المترجم.

2-هل كانت الثورات التي قامت عبر التاريخ ضد الأنظمة الطبيقة مدفوعة بالحسد؟ وهل الحسد هو الذي يثير النقمة في نفوس شعوب العالم الثالث ضد التسلط الأمريكي؟-المترجم.

أن يفعل مثل ذلك مع نفسه مفترضاً أنه يتمتع بملكات بارزة، حتى إذا رُفض، فإنه سيجرد مَن رفضه من أهليته، محاولاً إثبات أنه أسيء فهمه، أو يوجه اللوم إلى إخفاق الرواية الخيالية حول تدخلات طرف ثالث.

إن رغبة المرء في أن يُحَب دون أن يزعج نفسه بالحب أولاً، أو أن يطلب دون أن يعطي شيئاً، أو يلتمس الصداقة دون أن يكون ودوداً، أو يطالب بالعدالة دون أن يستحقها، كلها نموذجية لمتلازمة المطالب هذه. وهذا الاضطراب الأخلاقي يحمل معه إحساساً داخلياً ملحوظاً بعدم الأمان، لأن الشخص المتأثر بطريقة ما يدرك أن ذخيرته من الملكات أو الجدارات ضئيلة بالنسبة لطموحاته، حتى أنه يقوم باستمرار بالتباهي أو إبراز قدراته لكي يعزز احترامه المهزوز لذاته.

عندما نُسقط هذه المسألة على عالم العمل والتجارة، فإننا نواجه باستمرار رجال أعمال يفشلون لأنهم حاولوا، من غير دراية، أن يحصلوا على فوائد لايستحقونها فعلاً بسبب افتقارهم إلى التدريب، أو الارتجال، أو فقدان الكد أو التضحية، أو المستوى التافه من الالتزام الداخلي بالعمل.

ويحدث الشيء نفسه في عالم العمل. فهناك كثير جداً من الناس الذين يحاولون كسب مايتخيلون في عقولهم أنهم يستحقونه، والقناعة بأن مستخدميهم لايريدون أن يدفعوا لهم أكثر من مجرد الرغبة في استغلالهم. وهم، طبعاً، لايكفُّون عن تحليل مؤهلاتهم، أي، يحددون الأسباب المادية التي بها تتذرع الشركة التي يعملون فيها لكي لاتدفع لهم مايريدون.

وهناك أناس يشعرون بالتعاسة بسبب ضآلة أجورهم، أو إذا قضى حظهم العاثر بطردهم من عملهم، فإنهم يظنون أن ظلماً كبيراً مورس عليهم. ومع أن هذا قد يكون صحيحاً، إلا أنه كثيراً مايحدث أن هؤلاء الأشخاص، ولسوء الحظ، لايستجيبون للمتطلبات الضرورية التي تلبي شروط عملهم، أو أن تكون الشركة بصدد تخفيف النفقات إو إجراء تعديلات بسبب التغيير المستمر في دينميات العمل.

فعلى سبيل المثال، هل ينبغي للمرء إذا كان صاحب شركة أن يطرد مستخدماً وهو بحاجة إليه؟ الجواب، طبعاً لا، ولكن إذا لم يكن صاحب الشركة بحاجة إليه، فكيف يحتفظ به، في حين أن المال هو الشيء الوحيد الذي به يمكن لشركته أن تقوم بالتزاماتها؟

يعمل مبدأ "بقاء الأصلح" على نحو لايرحم في سوق العمل والتجارة، ومن لايكون كفوءاً، فإنه يُستبدَل عادة بعمال آخرين أفضل. وهناك بعض الناس لاينقصهم العمل أبداً بسبب الملكات الرائعة التي يتمتعون بها، ويحتمل أن تكون هذه الملكات نتيجة لنمو اختياري ولم تولد معهم.

عندما تجري دراسة توزيع الثروة في بعض البلدان، فإن موضوع الظلم الاجتماعي يبرز فجأة، وبشكل حتمي، وذلك عند إقامة الدليل على وجود اختلاف في الدخل بين الأغنياء والفقراء.

وإنه لخطأ فادح، كما أظن، أن نحاول حل هذه المشكلة بالاعتماد على سياسات اقتصادية محددة، في حين أن مايتوجب القيام به في المقام الأول هو إتاحة المزيد من الفرص لكل الناس لتطوير أنفسهم، وتثقيفهم، ومساعدتهم على تنمية مواهبهم ومهاراتهم، للحصول على مراكز مفضلة في سوق العمل، وفي الوقت نفسه، يعني إسهاماً كبيراً في ثروة البلد. ويبدو أن هناك مصلحة ثابتة في أن تُحجَب عن الفقير حقيقة أن الثروة أو الرخاء يكمن داخل كل شخص وأن كل واحد حر في تنمية هذه النزعة الثمينة. فالناس يصرون، إلى حد الملل، على أن الفقر مشكلة تؤثر على بعض المجموعات الاجتماعية التي قُضي عليها، على نحو لاعلاج له، أن تبقى في هذه الورطة مالم تنجح دولة مسيحية في إعادة توطيد توازن العدالة الاجتماعية. وكما هي العادة، فإن الشيء الأساسي الوحيد الذي يُغفَل أو يُنسى هو الفرد، التابع، الشخص بالذات، الذي يُعتبر الوحدة الأساسية التي تكوّن أية جماعة اجتماعية.

إذا كانت الأسرة هي نواة المجتمع، فإن الفرد واحد من الأسرة، وهو، على وجه الدقة، من يجب أن يدرك أنه، لكي يتغلب على الفقر، فإنه لايحتاج إلى ترخيص من أية جهة، لأنه يمكن أن يباشر العمل فوراً. ويكفيه، لهذه الغاية، أن يفهم ويتقبل بشكل حاسم أن أساس كل ثروة تكمن في تنمية موارده الداخلية، وأن النجاح المادي هو مجرد انعكاس للقابلية الداخلية عند كل واحد. فلندع الفرد يقرر الآن أن يأخذ زمام مصيره بيده، ويتحمل مسؤولية نفسه دون أن ينتظر رحمة الحكومة التي تتولى السلطة، فيكافح ويدرب نفسه لكي يكتسب مزيداً من المهارة بمرور كل يوم، يتدرب لكي يتقن الأعمال التي تتطلب تخصصاً عالياً، ويصرِّف حياته بفعالية. ولكن، لكي يقوم بهذا، عليه أن يُحدث تغييراً شاملاً في عقليته، وعليه أن يكف عن انتظار المساعدة من الخارج ويبدأ بمساعدة نفسه ورعايتها، وأن ينمي قابلياته إلى أقصى درجة. وإذا أمكن، فإنه يجب أن يعرف كل شيء عن

الناس الذين ولدوا في أسر متواضعة، وأفلحوا في تحقيق النجاح بوسائلهم الخاصة. وعليه أن يسجل كيف حققوا ذلك، وما نوع الحياة التي كانوا يصرّفونها، وكيف كانت تسير حياتهم اليومية، وما الذي كان يعتلج في عقولهم وصدورهم. ويجب أن يقتنع، في قرارة نفسه، بأنه يمكن للمرء أن ينجح على الرغم من كونه في وضع غير مؤات.

وعلى الرغم من ذلك، هناك، في عالم اللامساواة هذا، تكافؤ في الفرص بقدر مايتعلق الأمر بالإمكانيات الروحية عند الناس، لأن أي واحد، مهما كان ظرفه، أو عرقه، أو طبقته، أو لونه، يمكنه أن يبدأ طريق الكمال.

ولكن قلة قليلة جداً تعي أن النمو الروحي لايعني أن يسمح المرء لنفسه حق إيذاء الآخرين. إنها ليست حالة الفرد الذي يكرس نفسه لوجود باطني تأملي لإهمال العالم المادي. فلا يمكن أن يكون هناك انفصال لأن الروح والمادة تتكونان من نمط الطاقة نفسه.

يعني النمو الروحي أن نضع داخل الكائن مايتركز، بصورة طبيعية، في الشخصية. ولذلك، فإنه يستلزم نمواً من الداخل باتجاه الخارج وليس العكس.

تؤدي هذه العملية حتماً إلى ارتقاء الوعي وامتلاك "أنا" راشدة، ناضجة حقاً. وفي ظل ظروف كهذه، يمكن للفرد أن يصنع قدره الخاص لأنه يصبح تدريجياً أكثر تلاؤماً عن طريق رؤية الواقع كما هو، بصرف النظر عن التقييمات الذاتية، فيحرز بهذا قوة داخلية يمكن أن يستخدمها لتحقيق نوع من النجاح الكلي بتناسب دقيق بين الروح والمادة. وبهذه الطريقة، يمكنه، في لحظة معلومة، أن يصل في الوقت المناسب إلى الاستحقاق دون تعب، أي، جمع الجدارة.

يتوق الإنسان الأحمق الطموح إلى آلاف الأشياء التي لايستحقها ولا يحتاجها؛ ويراكم الإنسان الحكيم الجدارة حتى أن الأشياء، والأشخاص، والأحداث التي تدخل حياته يمكن أن تقوده إلى العثور على السعادة والخير الأسمى. فإذا أردنا أن نعمل وفقاً للقوانين الأخلاقية العليا، فإنه يجب أن نعدّل توقعاتنا بحيث تتناسب مع مدى جدارتنا ولا تتجاوزها.

فدعونا نجمع الجدارة عن طريق إنجاز أعمال روحية تستتبع مثلاً أعلى موضوعياً لفائدة الجنس البشري. ولكن، دعونا أيضاً نهتم بألا نقع في شرك الغرور الذي يؤثر على الكثيرين ممن يخدعون أنفسهم ظناً بأنهم يقومون بعمل ما لخدمة الآخرين بينما هم يعملون فقط لتضخيم صورهم.

قواعد أخلاقية عشر

1. أن يرتب المرء أهدافه الشخصية حسب أولوياتها، بما يرسخ التزامه تجاه نفسه أولاً، لأنه عن طريق تحقيق ذاته ككائن إنساني أعلى كامل فقط يمكنه أن يعيد للعالم والناس شيئاً من القيمة.
2. أن يلتزم بالخير ويعاهد نفسه على الإخلاص.
3. أن يواجه الاعوجاج في سلوكه.
4. أن يضع نفسه عاطفياً في موضع الآخرين، ويتعلم أن يفهم أصدقاءه ويتسامح معهم.
5. أن يسيطر على نفسه.
6. أن يخرج من مخبئه. ويغادر الشبكة العقلية الضيقة التي يحتمي بها وينفتح على واقع الآخرين.
7. أن يعمل على تقوية إرادته وتصليب شخصيته.
8. أن يحيا منسجماً مع الطبيعة.
9. أن يمارس قانون المكافئ المساواتي.
10. ألا يثق بالمظاهر ويلتزم بالبحث عن حقائق أكثر عمقاً.

1- رتب أهدافك الشخصية حسب أولوياتها

على المرء أن يفهم أن هناك واقعاً واحداً حقيقياً ذا طبيعة موضوعية وأخرى ذاتية وواقعاً آخر زائفاً يُكيَّف وفقاً للتوقعات الخيالية عند الفرد. ونحن، دون ريب، معتادون تماماً على العيش وفقاً للنسخة الفردية للعالم، النسخة التي تولد من عمليتنا المتاهية، وخيالاتنا، وأحلامنا الشخصية حتى أنه لايمكن أن نشك بوجود واقع مادي غير شخصي وأكثر عمقاً يولد من التفاعل النشيط بين الإنسان و الطبيعة. أما الواقع الزائف الذي نعتبره واقعاً حقيقياً فيولد ضمن حدود العقل، هذه الحدود التي التي ترافق الانخفاض الكبير لنمو وعينا، ذلك لأننا فعلاً غير كاملين.

وينبع مانواجهه في حياتنا من كرب، وألم، ومعاناة من حقيقة كوننا "أناساً مزيفين،" أي أننا أناس لايمكن لوسيلة إدراكهم أن تفرق بين الخيال والواقع، أو الأحلام واليقظة، ولهذا فإننا كثيراً جداً ماننتهك قوانين الطبيعة أو نخالفها ونتعرض لقاء ذلك لعقاب مكافئ.

إن معظم الاهتمامات الملحة للجنس البشري لاتعتمد على عوامل خارجة عن سيطرته،

لأنها، لو كانت كذلك، لاستتبعت مشكلات تشوش الملكات العليا للعقل وتؤثر تقريباً على كامل سكان العالم. وتنشأ هذه المشكلات من فقدان الوعي البشري الذي يمكن تطويره بالجهد الشخصي. والافتقار إلى هذه القابلية الثمينة هو السبب في معظم الآلام والعيوب التي تبتلي العالم.

يرتكب الناس خطأ جسيماً في بحثهم عن النجاح وحصر نوعية الحياة بالتركيز، بشكل تام تقريباً، على العوامل المادية، وبصورة أساسية، على التمتع بدخل يتناسب مع التطلعات العادية، وهكذا ينتهكون التفاوت الطبيعي ويتجاهلون حرية الفرد في اختيار أهدافه الخاصة. وهناك، فيما يبدو، محاولة لزيادة دخل الناس ليس بقصد إنساني لإشباع حاجاتهم الأساسية، ولكن، بالدرجة الأولى، لتحويلهم إلى مستهلكين أفضل بهدف تمكين النظام الرأسمالي من تحقيق أقصى ربح.

وهناك بلدان تقوم حكوماتها بتحويل الكفاح في سبيل إعادة توزيع الثروة بمرسوم إلى هدف وشعار، محتجة بأن التفاوت الاجتماعي هو مصدر الظلم والمعاناة، ويحاول آخرون تحقيق الشيء نفسه عن طريق الثورة، ناسين، كما يقول ويل ديورانت، أن تركيز الثروة هو نتيجة طبيعية لعدم تساوي الناس، لأنه مادامت الكفاءات العملية تختلف من شخص إلى آخر، فإن أكثر هذه الكفاءات، في كل المجتمعات تقريباً، تتركز عند أقلية من الناس[1]. وما تركيز الثروة سوى نتيجة طبيعية لتركيز الكفاءة.

دعونا ندرك، مرة واحدة وإلى الأبد، أن الثورة الوحيدة الحقيقية هي التي تطور قابليات الناس وأن إعادة توزيع الثروة بمرسوم هو مجرد مسكِّن تم تصميمه بهدف تحقيق مكاسب سياسية لحزب ما أكثر منه لرفع مستوى حياة الناس.

فلماذا لانوجه جهودنا لتطوير قابليات الناس؟ أظن أن هذا يعود إلى حقيقة أنه لاالأكثرية قادرة على هذا ولا الأقلية الماهرة تريده. فالبعض لايريدونه لكي يتفادوا المنافسة؛ وآخرون لكي لايفقدوا الأصوات؛ وآخرون أيضاً، على الرغم من أنهم مستهلكون، يلتزمون بالطاعة. فالحديث عن العدالة الاجتماعية مجرد نفاق في حقيقته، لأن العدالة الاجتماعية الحقيقية هي العدالة التي يمكن تحقيقها من خلال الحرية الفردية لمن يتدربون بالشكل المناسب لتحقيق النجاح.

1-إذا سلّمنا مع ويل ديورانت بأن من يتمتعون بالكفاءات هم قلة، فهل هذه القلة هي التي تتمتع بالثروة في بلدانها؟-المترجم.

ويجب أن ندرك أن هذا النوع من التدريب لايعني التعليم، بل ماهو أبعد من ذلك. فالتعليم متحيز وتعسفي. وهو، بشكل ثابت، يعمل على برمجة أدمغة الناس من خلال أنماط تنبثق من الجماعات الاجتماعية المسيطرة دون أن تتاح للتلميذ أدنى فرصة لكي يختار بحرية ووعي، لأن اختياره يكون إلزامياً وفقاً للمعلومات التي غرست في دماغه سابقاً.

صحيح أن التعليم يوسع الآفاق الثقافية للفرد ويدربه مهنياً، إلا أنه من الإنصاف الاعتراف بأنه يعمل أيضاً على برمجته بصرامة ضمن أنماط آيديولوجية وسلوكية، مما يحد من قدراته المفاهيمية والإبداعية. ولا نبالغ إذا قلنا، وبالقدر الذي نعني فيه الإبداع والحرية العقلية، "أن تتعلم يعني أن تتقيد،" على الأقل، وفقاً لأسلوب التعليم السائد في هذه الأيام. فالعالَم، بالنسبة لكل شخص، هو كما غُرِس في ذهن ذلك الشخص من خلال التعليم الذي تلقاه، وقد أُفسِدَت هذه الرسالة بلمسة سياسية أو دينية من كل من الآباء والدولة، الذين يؤيدون أساليب تعليمية معينة ويتجاهلون أخرى.

لقد تعلمنا أن نرى فقط جزءاً صغيراً من الواقع، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى التضامن والتفاهم بين الناس، لأن كل واحد يدافع عن جزء ضئيل جداً من الحقيقة التي كانت قد غُرِسَت في دماغه، مما يجعل من غير الممكن التعبير عن المستوى العالي للمشهد الذي يرافق امتلاك واقع أوسع وأكثر عمقاً. وهذا المستوى العالي للمشهد ضروري إذا أردنا أن يكون لدينا عالم موحد ينطوي على قيم عالية. إن الحرية الوحيدة الحقيقية هي أن يسمو الفرد بنفسه فوق برمجته العقلية، وأن يتفوق عليها لجعل المعلومات التي دخلت إلى عصبوناته تعبر إلى البوتقة المُمَيِّزَةِ للوعي الأعلى اليقظ، وبهذا يستطيع بصورة طبيعية أن "يختار وفقاً لما يمليه الضمير،" أي، بفضل الصفاء الذي ينبثق من محاكمته الداخلية العليا.

هذا هو الواجب الأخلاقي الأكثر أهمية للإنسان؛ إنها الوصفة الوحيدة الصحيحة للتطور الداخلي، والارتقاء الإنساني، والعدالة الاجتماعية الحقيقية. تعالوا نفتح أعيننا: هناك عدالة اجتماعية، وما علينا سوى أن نفهمها، أن نجعلها عملية. ويكمن هذا في فرصة النمو الروحي للفرد، الذي هو مصدر كل خير وقيمة. ولكن هذا لن ينجح في الممارسة، لأن هناك مؤامرة صمت لإخفاء هذا الاختيار أو التشكيك فيه لإبقاء الجنس البشري عبداً للجهل والخرافة. فقد تم غسل أدمغة الناس إلى المدى الذي يريدون معه أن يعيشوا في حدود الاستهلاكية واللذة، وهذا لايترك لهم حيزاً لإدراك تناقضات حياتهم.

هناك، في كل الظروف، قصد من وراء إلزام الكثيرين بالعمل مجاناً لمدة تزيد على مئة يوم في السنة لكي يستطيعوا دفع الضرائب المترتبة عليهم، وهذا ليس موضع شك، وليس هناك دليل واضح يشير إلى المكان الذي فيه تستثمر الدولة هذه الأموال. والقصد هو حمل الإنسان على مواصلة الدفع بوداعة فوائد القروض للمرابين، وهي قروض لايحتاجها في الواقع، لأنه يمكن أن يحصل على المال نفسه عن طريق التوفير؛ ولكي تبقى النساء مقيدات فقط بالرغبة في إنجاب الأطفال وتربيتهم كهدف أساسي لوجودهن، بحيث لايتوفر لهن الوقت ولا الرغبة لتوسيع إمكانياتهن الإنسانية في سبيل إكمال أنفسهن روحياً واكتفائهن بالقبول السلبي لدورهن كمرضعات؛ ولحمل الفقير عى التفكير بأن ماينقصه ناجم عن وجود أناس أغنياء منحرفين لاعن وجود فروق في القابليات الشخصية؛ وجعل الجميع يظنون بأن الفقر ناجم عن عدم اكتشاف النظام الذي يخلق الثروة، وأنه ليس هناك إجماع حول توزيع الثروة.

يقول ويل ديورانت: "قد يصل التركيز [الثروة] في المجتمعات المتقدمة إلى نقطة فيها تنافس القدرةُ العددية للكثرة الفقيرة قدرةَ الكفاءة للأقلية الغنية[1]؛ وعندئذٍ، يولّد اختلالُ التوازن وضعاً حرجاً، جرت مواجهته عبر التاريخ على نحو مختلف، بالقوانين التي تفرض توزيعاً جديداً للثروة أو بالثورات التي توزع الفقر."

هناك كثير من الناس يحاربون، بطريقة آلية تكرارية، التفاوت البشري عن طريق إعطاء هذا المفهوم معنى دونياً يقوم حصراً على مستوى الدخل الاقتصادي للناس، دون اعتباره نتيجة منطقية للجدارة الفردية أو عدمها، مغفلين حقيقة أن أي واحد يتمتع بعزيمة جادة في البلدان التي تتمتع باقتصاد مقبول يمكنه أن ينجح في الحصول على وضع اقتصادي يتيح له نوعية مرضية من الحياة. ولكن، لتحقيق هذه الغاية، على المرء أن يكرس جهوده بإخلاص وفعالية، وينسى مايملكه الآخرون من فائض، ويفكر فقط بما يمكن أن يحققه نفسه.

وهناك قطاعات أخرى تحاول فرض نموذج المجتمع المادي، مجتمع غني بالسلع المادية ولكنه خال من القيم الروحية العليا. وتُنتَقَد عوارض الحياة اليومية بشكل مكشوف لأن الناس لايدركون أن أي نمو روحي، الذي هو هدف حياتنا الدنيوية، يحتاج إلى ممارسة فردية

1-هل يريد منا المؤلف أن نصدق أن الأقلية الغنية هي التي تتمتع بالكفاءة، وأن غناها جاء نتيجة لتمتعها بالكفاءة؟-المترجم.

في كفاح شاق متواصل أو مواجهات مع المشكلات الملازمة للكائن الحي. وعندما نحرم الناس من هذه الفرصة، فإنما نمنعهم من التطور وننتهي إلى إضعافهم أو إلغائهم، ونحولهم إلى حمل اجتماعي ساكن، وهذا، على وجه الدقة، مايحدث في بعض الأمكنة في العالم. إن فرط الراحة، وزيادة حماية الدولة، والإشباع المعلوماتي المتحيز يمكن أن يعوقنا عقلياً بقدر مايتعلق الأمر بمستوى يقظتنا وسمو وعينا.

إن أداة معرفتنا عاجزة ومشوشة وظيفياً، ولكن مامن أحد يهتم فعلاً بحقيقة أن الكائن الإنساني يمكن أن يطور نفسه، لأن الناس يفضلونه مستهلكاً مدجناً. ولهذا السبب، ابتُكِرَت خرافات عديدة وتم قبولها بصورة سلبية دون معارضة لمجرد كونها تتكرر باستمرار. فمن السهل إخفاء الأشياء الحقيقية جملة لأن أي شيء يتكرر كثيراً وباستمرار يتم تقبله دون مساءلة.

وواحدة من هذه الخرافات هي خرافة اللامساواة الإنسانية عندما يحاول الناس ردها إلى عوامل اجتماعية اقتصادية، بصرف النظر عن الفروق في الموهبة الفردية والجهد الشخصي. وعلى هذا النحو، يتم بذل المحاولات لفرض قوانين المؤيدين لمذهب حماية الإنتاج الوطني[1] لمساندة القطاع الأقل ثروة، ومساعدته علىالارتفاع إلى مستوى البقية. هذا الإجراء متناقض كتناقض إجراء حماية قصار القامة عن طريق إجبار كامل السكان على المشي دائماً وظهورهم محنية لكي لايشعر قصار القامة بالدونية، وبالتالي، يوفر عليهم بذل الجهد الشاق الذي يتطلبه النمو، ولكنه يقضي عليهم أن يبقوا قصاراً إلى الأبد. ويبدو أن الكفاح في سبيل تقصير قامة من يقاومون بعناد، على شكل جماعة، هو من الرغبات الرئيسة للحشد، ربما لأن من يصمدون، فإنما يقاومون بصمودهم المحاولات نحو التجانس الشامل. يجب على المرء، مرة وإلى الأبد، أن يضع نهاية لخرافة أن اللامساواة تنطوي ضمناً على ظلم اجتماعي، ويكف عن مَثْلَنَة الضعف على اعتباره نموذجاً تجب محاكاته، وبدلاً من ذلك، أن يقبل التحدي ليصبح كائناً يتمتع بقوة الإرادة والشخصية، وإن يكن بحساسية وتماسك.

المساواة في الفرص موجودة فعلاً وتعتمد على التطور الداخلي لكل فرد، التطور الذي

1-تشبيه غير موفق. فهل حمايتنا لمنتجاتنا الوطنية ضد غزو المنتجات الأجنبية تشبه حمايتنا لفرد ذي كفاءة أدنى ضد آخر أعلى كفاءة؟ وهل حماية اقتصاد البلد إجراء خاطىء بذاته، أم أنها دعوة لتبني مبدأ "دعه يعمل، دعه يمر"؟-المترجم.

يؤدي إلى النمو من الداخل إلى الخارج. فالعملية الشاملة لأنسنة الناس تجعل القدرات الكامنة عند الفرد تظهر بفضل رؤيته الصحيحة للواقع الداخلي والخارجي، الذي يعمل كأقوى وسيلة تعليمية وارتقائية. إن التطور الأساسي للإنسان مزيف ومشلول بسبب التحريف المتعدد والمتواصل للواقع، مما يجعله يعيش في عالم خرافي غير واقعي.

الناس، كالعصافير، يبنون عش "أناهم" حول مخاوفهم، ورغباتهم، وخيالاتهم، وعندما ينجزون مهمتهم، فإنهم يطمئنون فقط في راحة مسكنهم العقلي. ويدعى هذا العش بالشخصية ويتحكم بوجود الفرد إلى يوم مماته. وإنه لعمل مؤذ جداً القيام، بصورة منهجية، بحجب الواقع لمحاربة كرب الـ "أنا" أو تفاديه، واللجوء، لهذه الغاية، إلى آليات الدفاع النفسية المعروفة.

لايسأل المرء أبداً حول ماإذا كان هناك شيء ما بالنسبة لنا خارج الشخصية، وما ذلك الشيء، وما التأثير الذي يمارسه عليه، وكيف يحققه. والحقيقة هي أنه يوجد فيما وراء الشخصية باب يؤدي إلى الكمال الروحي، وهو أساس السعادة الحقيقية، ولكن من يعبرون هذه العتبة قليلون جداً.

وأوافق على أن الفرصة نفسها للنمو الروحي مهيأة للجميع، وأن هذا النوع من التقدم ينسجم مع مايصبح فعلاً نمواً سوياً لدى الفرد، إذا استطاع هذا النمو أن يحول دون حجب الواقع وتكييفه. ولاينبغي أن نفهم عبارة النمو الروحي على أنها عملية دينية أو تعبدية، بل هي ،على الأصح، نمط من السلوك الذي ينتظره الخالق من الإنسان، إنه الارتقاء الحقيقي لوعيه الخالد.

إن المأتى إلى طريق الارتقاء هو الآن في متناول الناس، ولا يحتاج سلوكه إلا لقرار فردي بسيط، لأنه مامن أحد يستطيع أن يمنع من يختاره بحرية.

ومشكلة التفاوت لاتكشف شيئاً أكثر من انه يمكننا أن نصل إلى مستويات أعلى، وأنه مامن أحد يستطيع أن يمنعنا، وانه يمكن أن ننمو بمدى جهدنا وهدفنا. ولا نحتاج إلى طلب ترخيص من أي من البيروقراطيين لكي نبدأ نمونا الرحي، الذي ينسجم مع تفتح قابلياتنا الفردية الكامنة. ويمكن لأي واحد، حتى أولئك الذين لم يجدوا مأتىً للتعليم، أن يصبحوا معلمي أنفسهم في مستوى الحكمة التي لايمكن لأحد أن يتخيلها، إنها الأهلية التي تلغي، دون شك، أي تهميش أو تمييز اجتماعي ممكن دفعة واحدة. وفيما يتعلق بإمكانيات

ارتقائنا، فإننا جميعاً متساوون ولا نحتاج إلا أن ندرك هذه الحقيقة ونباشر العمل على أساسها.

لاشك في أن النجاح الحقيقي في الحياة، فيما يخص علاقتنا بالإله و الطبيعة، يُقاس بمعلمات الكمال الروحي لابالسلع المادية أو المكانة الاجتماعية. هذا النجاح يعني أن تكون ولا تملك، هذا مايؤخذ بعين الاعتبار. فالنجاح الاجتماعي يسير غالباً جنباً إلى جنب مع الفشل الشامل في الارتقاء، أي، الإحباط العضال لمصير الفرد فيما يتعلق بالمتطلبات السماوية والطبيعية؛ هذا طبعاً من غير أن يدرك الفرد أبداً هذه الخطوة الخاطئة الشاقة اللاعكوسة مالم يحدث هذا الإدراك في لحظة موته. وأسوأ نموذج للأفراد المهمشين هم أولئك الذين يحرمون أنفسهم، من خلال قرارهم الخاص، أو لامبالاتهم، أو عنادهم، أو عماهم، من الوصول إلى الخير الأسمى، الذي يعتبر جذر السعادة الحقيقية وجذعها، ويفضلون، بدلاً من ذلك، أن تبتلعهم يومياً خيالاتهم الوهمية.

أياً كان حجم أوراق اعتماد الفرد الذي لم ينطلق في سبيل التطور الروحي، سواء كانت مالية، أو اجتماعية، أو مهنية، فإنه سيواصل فشله ويجعله حدسه الداخلي يدرك هذه الحقيقة، وهكذا، يحرم نفسه من أن يكون سعيداً. فالنجاح في الحياة يعني النجاح على طريق الارتقاء، وهو الاختبار الأسمى لـ الطبيعة.

ومن الواضح أن المعلمات الاجتماعية التي تستخدم لقياس النجاح أو الفشل الشخصي هي معلمات نزوية، ومحدودة، ومنحرفة، ومتغيرة، وظرفية وهي، بشكل عام، محدودة فيما إذا كان الفرد يحظى، أم لا، بحالة امتياز أو قبول اجتماعي. ولكن الناس ينسون أن المجتمع مريض وأن استحسانه أو إعجابه ببعض نماذج السلوك لايتميز بأهمية أكبر من التعبير عن مصالح الطبقة أو الثقافة المسيطرة في لحظة ومكان مفترضين. فعلى سبيل المثال، إن المطمح النهائي لمعظم الناس هو السيطرة والتحكم بزملائهم، في حين أن المطمح النهائي لقلة منهم فقط هو أن يكونوا أكثر لياقة للسيطرة على أنفسهم.

إذا كنا نريد حقاً أن نكون ناجحين في الحياة، فعلينا أن ندرك ونقبل أن الواجب الأول والأكثر أهمية للفرد هو تجاه نفسه، والذي يرتبط بتطوره الارتقائي، وهو أمر سماوي بوجوب أن يكون المرء مطيعاً إذا كان يتطلع إلى أن "يتصرف على نحو سليم" في الحياة وأن يواصل سيره في الطريق الصحيح.

ومن سوء الحظ أنه عندما نتحدث عن الجنس البشري، فإننا نعني حتماً نوعاً تاه، وضل طريقه في لحظة ما، ويتجه أعضاؤه نحو رعاية اللذة الحسية كهدف، ويحملون أنفسهم على الاقتناع بالغرور الذي هو نموذجي لمن يظنون، بسبب افتقارهم إلى نقد الذات، أنهم أفضل بكثير مما هم عليه في الواقع.

ومازال جزء ضئيل جداً من الجنس البشري يحتفظ بشيء من الصفاء العقلي، بمعنى الرؤية المخلصة لواقع أكثر اتساعاً وعمقاً، إنها أقلية يتجاهل الحشد أو يستهين، بصورة منهجية، بأهلية مَلَكاتها، وحقوقها، وآرائها، وأية محاولة للانضمام إلى هذه الكوكبة من العقول النيِّرَة يُعاقَب عليها باللوم الاجتماعي لمجرد محاولة انفصال المرء عن التجانس العام.

ولكن، يجب على المرء أن يدرك تماماً أنه أياً كان رأي بعض الناس غير الواعين، فإنه لاتوجد طريقة أخرى لتقديم أي شيء مهم فعلاً للعالم عن غير طريق التطور السابق، أي قبل أن يكمل المرء نفسه ككائن إنساني حقيقي أصيل، يتمتع بمحاكمة داخلية، وحكمة، وتسامح، ومعيار يناسب فرداً حقق إنجازه الأعلى.

عندما يتم القبول بهذه القناعة واتخاذ القرار المناسب، فإنه ما من أحد أو شي يمكن أن يوقف عملية الارتقاء أو يمنع النتائج من الانتشار بين أعضاء الجنس البشري.

2- التزم بالخير وعاهد نفسك على الإخلاص

لكي تكون تصرفاتنا مترابطة ولكي نتصرف بالشكل المناسب، علينا أن نؤكد الالتزام بالخير. وإذا لم نفعل هذا، فإننا سوف نملأ قائمة طويلة من التصرفات الخاطئة وستكون قائمة الأعمال الصالحة قصيرة جداً. إن الخير والشر قوتان كونيتان يتميزان بطبيعة شاملة، ونحن نربط ، بطريقة ما، بين المظهر المضيء أو المظلم لطاقة الكون. فإذا بقينا تحت وطأة الجانب المظلم للقوة، فإنما نكون قد التزمنا بالشر، وسوف يستخدمنا كأدوات للتعبير عنه، فيحملنا على أن نصبح جزءاً منه. وعلى العكس، إذا التزمنا بالخير، فإننا سنكون مع النور والحقيقة وسوف نسلك سبيل الارتقاء. ولهذه الغاية، يجب أن يكون لدينا بعض المَعلَمات الثابتة التي تبيِّن لنا ماهو خير وما هو شر. ولا يمكن أن نستمر في الاعتقاد بأن الخير هو مايوفر لنا اللذة ويضمن مصالحنا المادية.

أن تقوم أفعى بابتلاع دجاجة، هو خير بالنسبة لها، أما بالنسبة لعصفور فهو شر.

واعتماداً على موقفنا، فإن تصنيفنا للخير والشر سيكون متغيراً جداً واعتباطياً، وبسهولة تامة، سوف نؤيد هذا الجانب أو ذاك من جانبي هذه الثنائية. وهذا هو السبب الذي يجعلنا بحاجة إلى أن نتصور الخير كشيء رفيع جداً يسمو فوق المصلحة الشخصية التافهة ويرتفع إلى منزلة الروح. ولا شك في أن الخير الأسمى هو كل شيء يساعد الفرد على الاستيقاظ من التنويم البيئي اليومي لكي يتطور إلى حالات أعلى من الوعي.

والشر، على العكس، هو مايستبقي انتباه الإنسان أسيراً لتأثير الاستلاب الذي يمارسه على الفرد المشهدُ العام المنوِّم في البيئة الخارجية والداخلية، يسيطر عليه الأول الذي ينشأ في التكاثر المتواصل للمثيرات والآخر الذي ينشأ في النشاط المستقل غير المعوَّق للمعلومات العقلية، التي لاتخضع لـ "أنا،" ويوجه من خلال تفكيره، بما يُلزِمه بطريقة محددة للبرمجة، فيحرمه من أية رؤية حقيقية للواقع الخارجي أو الداخلي، وهكذا يمنعه من إنجاز تكليف الخالق في الارتقاء عن طريق إحباط الهدف التربوي لوجوده.

تنشأ العبودية العقلية عند الكائن البشري من استحالة تحريره لتفكيره من موجة المثيرات الداخلية والخارجية المتواصلة التي تأسر اهتمامه، وبالتالي، تُحدِث حالة شبيهة بالتنويم، وهو وضع فيه لايستطيع المرء أن يكون أكثر من نصف مدرك لموقفه الخاص. وفي هذه الحالة، إن مأدعوه "شبه تنويم" يعني البقاء في مستوى معين من السَّرْنَمَة، دون أن يتمكن الشخص المتأثر أو من هم حوله من ملاحظة ذلك، ودون أن يظهر هذا التأثر في السلوك السوي للفرد. فالفرد، في الواقع، يُحرَم من التماس مع الواقع الحقيقي، وهي ظاهرة تؤثر على كامل النوع، ويمكن للمرء أن يتجاوزها فقط عن طريق التدريب الفردي، الطويل الدؤوب.

نترجم هذه الآلية، تقنياً، إلى حالة نقص في الوعي مترافقة بتوسع مهم في جزء الإدراك الدُوَعيّ وانخفاض كبير في الإدراكات التي تحدث عند عتبة الوعي. وبهذه الطريقة، يتلوث مايراه الفرد، ويظنه، ويشعر به بخيال أحلامي يؤثر على عقله.

إن استمرار الإدراك الدُّوَعيّ يعني تراكم النفاية المعرفية التي تحملنا على اعتبار تمثيلنا الخيالي المشوه للواقع الحقيقي على أنه تمثيل صحيح. ولأننا نكون في هذه الحالة، فإن نمو الـ "أنا" الأساسية عندنا يكون ضامراً ونحرم أنفسنا مما ندعوه نمواً وارتقاء روحيين، لأن إنجازهما يحتاج إلى زيادة الوعي للواقع الكلي.

ولذلك، فإن الخير، بالنسبة للرجال والنساء من أي صفة، أو جنس، أو لون، أو حقبة،

أو مكان هو أي شيء يساعدهم على الاستيقاظ لكي يكملوا أنفسهم ككائنات إنسانية، وتحقيق الارتقاء الروحي الذي ينتظره الخالق. فإذا فكرنا في هذا وفهمناه بعمق، فإننا سوف نخلص إلى أن الواجب الأخلاقي الأعلى للفرد هو تنمية وعيه الروحي وبهذه الوسيلة فقط يمكن تحقيق السعادة والوصول إلى الخير الأسمى.

ولكن ما يؤسف له هو أن النوايا الحسنة لاتكفي لتحقيق الكمال الروحي، لأنه يتوجب علينا أن نواجه أي شيء يدفعنا إلى الحصول على مانريد بصرف النظر عن القواعد الأخلاقية التي يبدو أنها تعوق أهدافنا، كالقاعدة التي تقول، مثلاً، إن الفاكهة الوحيدة التي يمكن أن نحصل عليها بصورة مشروعة هي تلك التي نحصل عليها نتيجة لجهدنا الشاق، والمثابر، والشخصي. فالعواطف الحيوانية تحثنا باستمرار على أن ننسى الحب، والتسامح، واحترام الآخرين، وكثيراً ماتقودنا إلى فقدان احترامنا لأنفسنا وكرامتنا. وفي سبيل الكفاح ضد الإغراءات العاطفية بالنجاح، نحتاج إلى صفاء داخلي تام يساعدنا على تقييم مانريد تحقيقه في كل لحظة والأساس الذي يستند عليه كفاحنا. وهذه الحالة تشبه حالة انتسابنا إلى ناد رياضي فيه تقضي القاعدة الأساسية بألا ينسى المنتسب لون قميصه ومثاليات فريقه.

عندما نتمتع بالصفاء الداخلي، فإن الكفاح يتحول لمصلحتنا، لأننا لن نكون ضحية سهلة للتشويش، كما يحدث عادة في الروايات الخرافية التي يتعرض فيها الفرد لإغراء الشيطان، فتجعله المكاسب التي يقدمها له الشيطان ينسى من هو الشيطان وما الذي يبغيه من هذه التصرفات.

إن الصفاء الداخلي يحمينا من العمى الذي تسببه التوقعات بخير وشيك أو ظاهري، وتمنحنا القوة للتضحية بهذا الوهم في سبيل خير حقيقي وأكبر.

ولمعاهدة النفس على الإخلاص، من الضروري أن ندرك أن الإخلاص ينسجم مع كينونتنا الصحيحة. فنحن كائنات روحية مجسدة في أجسام مادية، وذاتيتنا الحقيقية (الكينونة) إلهية وليست بشرية. وإذا لم نتمكن من أن نعي ذلك في الحياة اليومية، فذلك لأن الروح، أي كينونتنا الحقيقية، تبقى عاجزة عن إظهار ذاتها بسبب السيطرة الصارمة التي يمارسها الجسم والشخصية على العقل والروح.

والشخصية، التي هي الـ "أنا" الاجتماعية عند الفرد، هي التي توجه سلوكه، وتمنعه من التعبير عن روحه بسبب الطبيعة العدائية لهاتين الذاتيتين؛ فالشخصية اجتماعية، والروح

إلهية، وأهدافهما تتاقض تماماً بعضها بعضاً. فتسعى إحداهما، التي هي الشخصية، فقط إلى بقاء النوع، في حين تحاول الروح تحقيق ارتقاء متسام لطبيعة الفرد التي تقربه إلى أصل منشئه: الخالق.

يمكن اعتبار الـ "أنا" الاجتماعية "أنا" زائفة، بمعنى أنها تمثل شيئاً لايخص الفرد، إنه تراكب قسري لذاتية اجتماعية على "أنا" الفرد، التي تتمثلها الأولى. وبهذه الطريقة، ينتهي الفرد إلى أن يكون على خلاف ماهو عليه في الواقع، ويُنتزَع منه جوهره الباطني أو ينكره، وهكذا، فإنه يعيش لكي يُرضي الحشد، ويستجيب لأهداف النوع، ولكنه لاينجز أهدافه.

إذا سألتُ "من أنا؟" فإنه يجب أن أعترف بأنني، "أنا نفسي،" أي، "أنا أنا،" لكي أشير إلى حالتي الداخلية.

يكمن بؤس الحياة الدنيوية في حقيقة أن الـ "أنا" الحقيقية عندي تبقى شبه منفية من وجودي المادي، وترتبط به فقط بخيط دقيق، غير قادرة على إظهار نفسها من خلال وسيلة الجسد، في حين تختلق الشخصية "أنا زائفة،" طُعماً اجتماعياً يعتبره الفرد هويته الحقيقية.

أما ألق الحياة الدنيوية فيكمن في حقيقة أن هناك فرصة لكل الكائنات الإنسانية لتحمل نفسها (الفرد موجود بصورة جوهرية) على إظهار روحها من خلال الجسد المادي. ويصبح الفرد روحياً حقاً فقط إذا امتلكت الكينونة، أي الروح نفسها، دماغاً مادياً وحوَّلته إلى حاكم حقيقي لعالمه الصغير.

أن نعاهد أنفسنا على الإخلاص يعني أن نعترف بربوبيتنا المحجوبة، ربوبية يمنعها قيدها المادي من العمل؛ ولهذا يجب أن نحقق حرية الروح عن طريق التغلب على عواطفنا لكي نسيطر على أنفسنا.

إن المعاناة الغامضة التي يَخبُرُها الإنسان جيداً تنبع من الحزن الفائق للشرارة المقدسة عندما لاتجد مأتىً إلى الواقع المادي للجسد الذي يخصها. وعندما يظهر حزن لاتفسير له في خضم اللذة، أو على الرغم من اللذة؛ أو تتعكر بهجتنا فجأة في بعض المناسبات دون سبب ظاهر وتسيطر السوداوية أو الوُطان[1]؛ أو عندما لانكون راضين عما نملكه؛ فإن رسالة الروح هي التي تعلن عن نفسها بهذه الطريقة.

1-الحنين إلى الوطن-المترجم.

عدم المبالاة بهذا الصوت نموذجي بالنسبة للأفراد المُحَيْوَنين animalized إلى حد بعيد، ولكن الفرد الذي يحترم نفسه يتحمل واجباً أساسياً للقيام بعمل بطولي لإنقاذ روحه من حالة تبعيتها السلبية، ليتوجها كملكة للعالم الصغير الذي هو الإنسان الجسدي المادي.

ولكي ينجح في تحقيق أهدافه، يترتب عليه أن يواجه الكثير من العقبات، والتجارب، والإغراءات، لأن العالم المادي هو عالم ظلال أكثر منه عالم ضياء، وسيحاول كل من يخدم مصالح الظلام أن يمنعه من الاستجابة لهدفه السامي.

لايمكن للإنسان العادي أن يسامح الكائنات النظيفة الرفيعة لأنها عادة مرايا حقيقية تعكس بأمانه، دون تبديلات، صورة من يتفاعلون معها، وتمزق أقنعتهم فتكشف عن الزيف أو النقص المتواري خلف صورهم المتألقة.

يجب على المرء أن يجدد يومياً قَسَمَه لنفسه، لأنه يجب أن يبقى مخلصاً لمصالحه، التي هي الفضيلة والخير الأسمى.

وينبغي أن أكرر القول إن ممارسة الفضائل الإنسانية العليا وحدها يمكن أن تقودنا إلى سعادة متواصلة وخير حقيقي، وهي حالة يمكن أن يصل إليها بشكل جازم من يستجيبون لعملية الارتقاء لاستعادة جوهرهم الداخلي، ثم يواصلون الارتفاع تدريجياً بأنفسهم إلى حالات أعلى من الوعي.

إن الفضيلة والروحية ليستا على خصومة مع اللذة والبهجة؛ إنهما تعملان فقط على تحريكهما، وتنظيمهما، وإخضاعهما بحيث تكونان، وقد أصبحتا نقيتين نظيفتين، في خدمة الروح لا في خدمة الجزء الحيواني. وعندما تكون الروح هي التي تتحرك وتوجه سلوك الفرد، فإنه لايمكن أن يعمل شراً ولا يتصرف على نحو لاأخلاقي، لأنه يحتفظ باحترام شديد للفضيلة، والخير، وتناغم الطبيعة. ولكن هذا لايعني أن يحرم نفسه من اللذة الواعية، والنظيفة، والمنظمة.

إن تعريف بعض خطايا الجسد على هذا النحو ليس نادراً في كثير من الحالات، لالأن مايفعله الشخص إثم بحد ذاته، ولكن لأن الطريقة التي يتصرف بها قذرة ومنحطة، أو لأن مايفعله مضاد للحياة في بعض مظاهرها.

يصبح المرء باراً ليس بهربه من الإغراء والخطيئة، بل بمواجهتهما والتغلب عليهما.

إن الطبيعة الثنائية لهوية الإنسان (روح/ شخصية) هي أصل صراعاته الداخلية، لأنه على الرغم من حقيقة أن الروح هي جوهره الحقيقي، فإنها، على المستوى المادي، تنهزم أمام الشخصية التي تمنعه من التعبير عن نفسه. وبهذه الطريقة، فإن ضرورة أن يبقى المرء نقياً تماماً لكي يعاهد نفسه على الإخلاص يعني، في المقام الأول، أن يحافظ على مصالح الكينونة، فيحررها من السجن الاجتماعي الذي حبستها الشخصية فيه، وهذا يستلزم عملية كاملة لتنقيح عقله وتطهيره. ويجب إنجاز هذه العملية في مستوى موسع من الدراية، لكي نرى إلى أي مدى يخصنا سلوكنا أو ما إذا كان ينبثق من مصادر غريبة عن الـ "أنا" الخاصة بنا.

تحتاج الكينونة إلى إظهار نفسها على نحو ملائم من خلال المركبة التي تؤويها: الجسد المادي. ولكن الجسد يديره الدماغ، وهذا بدوره توجهه الشخصية التي يُؤَتْمَت تركيبها آلياً وفقاً للأنماط السلوكية التي تُقحَم إليها. وتهدف الشخصية إلى تكييف سلوك الفرد مع المتطلب الاجتماعي، وتعمل كماصٍّ للصدمة بين الـ "أنا" والواقع. إنها المصفاة التي تقع بين الاثنين وتكيف الإدراك إلى نمطها التركيبي الخاص. وهذا هو سبب تعرض "أنا" الفرد لغزو أو استعمار النفس الجماعية للجنس البشري. وعلى الأصح، تصبح الـ "أنا" "نحن" مُمَكْنَنَة لايقع مركز ثقلها ضمن الفرد نفسه، بل في الحشد، حتى أن الأهداف السلوكية عند الفرد تتحصر، بصورة محتمة، ببقاء النوع وقبول الرسائل الاجتماعية، وإمكانية الارتقاء كتحد فردي فليست من بينها طبعاً.

الدافع الأساسي للشخصية هو المحافظة على تكييف الفرد، بالشكل المناسب، مع المعايير الاجتماعية، التي تقودنا إلى الاعتراف بأن هذا يعني اكتساب ليس فقط إنجازات المجتمع، بل أيضاً نقائصه، والجهل من أكثر هذه النقائص خطراً، فيما يتعلق بالروح والارتقاء. وهذا يعني أننا محكومون، في الوقت الحاضر، بأن نسلك، بدلاً من تعقب هدف الارتقاء، طريقاً تقود إلى زيادة امتلاك السلع المادية ووسائل الرفاه واللذة الحسية، وهي اهتمامات غريبة بالنسبة لحاجات الكائن.

يُلزِم الناس أنفسهم عادة بالامتثال الخانع لشخصيتهم، لأنهم يجهلون إمكانية العمل بخلاف ذلك، ولا يخامرهم الشك أبداً في أن أية هوية يعتبرونها هوية حقيقية تتطابق فعلاً مع الطعم الذي يأتي من النفس الجماعية للجنس البشري. فالفرد لايدرك أنه بدفاعه عما يعتبره

أفكاراً، ومشاعر، وانماطاً سلوكية خاصة به، فإنه يميز فعلاً ماهو غريب بالنسبة له، أي بالنسبة للضرر الكلي لما هو خاص به، من خلال عملية الخلط بين ماهو باطني وما هو خارجي.

متى تكون السلع التي لاتدركها الحواس، كالمعرفة أو الأفكار، "خاصتي" فعلاً؟ هل عندما تستعمر عقلي بصورة سلبية؟ بالطبع لا، لأنه في هذه الحالة سأكون مجرد حامل لمعلومات ذاتية، وهذا مايحدث لمحتوى العقل عند معظم الناس، فأدمغتهم مقيدة كمستقبلات معقدة لكي تكون مخزناً لمعلومات، وأفكار، ومعرفة لايفهمونها ولا يضبطونها، ولكنها تؤثر عن طريق التحديد التام لسلوكهم، وبالتالي لكامل حياتهم.

عندما نقلد مايفعله الآخرون، فإننا لانمتلكه، بل "هو" الذي يمتلكنا، وكلما قلدنا، واستظهرنا، وتعلمنا سلبياً، كنا أضعف صلة بكياننا.

وعندما نستهلك منتجات يشجعها الإعلان، فإننا لانكون مسؤولين عنها؛ بل إن رسالة الإعلان هي التي تستحوذ على عقولنا. وأن نعاهد أنفسنا على الإخلاص يعني أن نعترف بهويتنا الحقيقية؛ ويعني أن نعزل الـ "أنا أكون" عن الـ "أنا" العادية التي بها نؤدي عملنا كل يوم، في إدراك أنه إذا بقينا أسرى المطالب الصارمة للشخصية، فإنه مقضي علينا بأن نكون مجرد ناقل حركة في آلة النوع ضخمة.

وإذا ألزمنا أنفسنا بـ "أنا أكون،" فإنه يترتب علينا أن نعمل بعزم ونقرر أن "نكون صالحين،" أي، أن نقوم بأي شيء يساعدنا، وفقاً للتعريف المطلق للصلاح، على الاستيقاظ من التنويم البيئي الذي نعيش فيه، والخمول الأخلاقي الذي يمنعنا من إدراك الواقع بصدق، وبالتالي، من الارتقاء الفردي.

تكافح الشخصية باستمرار لكي تبقينا ضمن مخطط صلب لايفعل شيئاً أكثر من تشجيع النقائص أو العيوب التي تمنعنا من أن نخبُر حالة الوعي.

من المهم أن نأخذ بعين الاعتبار أن "أنا" شخصيتنا انانية بصورة أساسية وغير قادرة على تفادي كونها متمركزة حول الذات، لأنها تعاني من جشع عضال.

وعلى العكس، إن "أنا" الروح موضوعية، أي، إنها غير ملوثة بأية شهوات ومصالح مادية التي تبتلي الناس عادة. فهي لاتتأثر بالعواطف. ولا تلتزم بما يُزعَم أنه صالح ولا هي ضد

مايبدو أنه طالح؛ إنها تراقب كل شيء من عمق صفاء الأعالي السماوية وسلامها، ولذلك، يمكنها أن تتصرف بثبات وفقاً للقيم المتسامية والفضائل المثالية، المتحدة أبداً مع الخير الأسمى.

فإذا بدا أن هذ الرؤية بعيدة تماماً عن الوجود الفظ للإنسان، فإن هذه ليست غلطتي. فكل منا له روح، أي أننا "كائنات روحية عبوراً" أُسكِنَت هيكلاً مادياً، ولكن جهلنا وعجزنا عن الرؤية يقودانا إلى جهل كينونتنا، ويحصراننا ضمن الشخصية. وتكمن الخطوة الأولى إلىالكمال بأن نعترف بهويتنا الروحية الحقيقية، لكي نخلصها من براثن العوائق التي تمنعها من إظهار نفسها وفقاً لذلك. ولهذه الغاية، يجب تحريرها من التنويم البيئي لكي تدخل حالات مكثفة من الوعي، أي العتبة الإلزامية التي تبيِّن بداية السبيل الحقيقي للكمال الروحي. ودون هذا الشرط الأساسي، لن تكون هناك إمكانية للتقدم.

واجه عدم الاستقامة في سلوكك

إن النوع الوحيد من فقدان الاستقامة هو ذاك الذي نلاحظه في سلوك الآخرين ولا نلاحظه أبدا في سلوكنا. فنحن معلمو المعلمين في فن خداع الذات وربما يكون معظم سلوكنا، ومعتقداتنا، وأفكارنا، ومشاعرنا من طبيعة مختلفة أو معاكسة لما نظنه فيها. فالشعور بالعطف قد يكون قناعاً للغرور الذي نخبُرُه من موقع التفوق الذي نحتله عندما نشفق على أحدهم. وقد يكون عمل الخير تعبيراً محرفاً للشعور بالذنب؛ والكره تعبيراً عن حب مرفوض؛ والحسد تعبيراً عن تشويه لحب أو إعجاب نشعر به نحو أحدهم؛ والتعصب الأخلاقي تعبيراً عن إخفاقاتنا الأخلاقية الخاصة.

قلما نستخدم عقلانية أعلى لتحليل تصرفاتنا أو تلك المواقف التي نتورط فيها. وعلى العكس، فإننا نلجأ إلى إخفاء رغباتنا وأغراضنا لكي لانشعر بالخجل منها. فنحن خبراء في تجميل أفعالنا حتى أن دوافعنا الحقيقية، التي نختزنها في داخلنا، تبقى متوارية عن أصدقائنا وتفكيرنا الواعي.

تساعدنا هذه الاستراتيجية المتقنة على التصرف غير الصحيح، فنستولي على ماليس لنا، أو نكذب، أو نغش، أو نخدع، أو نقتل، مع أننا، في الوقت نفسه، نحمل إحساساً داخلياً بأننا أبداً لم نضل الطريق القويم. ويكذب أكثرنا غالباً للحصول على مايريد؛ ونشتهي زوجة جارنا؛ ونُخلِف وعداً قطعناه للآخرين؛ ونعيش في خضم النفاق، والادعاء، والمخالفة المقنعة

للقوانين؛ ولكننا نحاول عادة أن نظهر كحمائم بيضاء، مما يتطلب مواصلة الكذب إلى مالا نهاية للظهور بهذه الصورة أمام الآخرين وأمام أنفسنا.

ويرعبنا الاعتراف بأنه يمكن أن يكون في أعماقنا شيء من الشر، أو الخسة، أو الخداع، مما يجبرنا غالباً على التظاهر بالكياسة، أو التسامح، أو الصداقة، أو التعاطف مما لانشعر به في الواقع.

ويسيطر النفاق على وجودنا، وننكر بعناد عيوبنا الشخصية، بادعاء عدم وجودها. ونخاف ممن يعرفون الحقيقة لأنهم يعطلون النظام ويكشفون حقيقتنا. وعلى العكس، فنحن نتعاطف مع المنافقين، اللامتحمسين، المعسولي الكلام الذين لايتحملون مسؤولية ولا يلتزمون بشيء بل يتخذون وضعاً ملتبساً غير محدد لكي يتفادوا النقد. ويحلو لنا أن نسم أنفسنا كشرفاء، وطيبين، وكرماء، وشجعان، وحساسين، ونصدق بأننا نتصرف بشكل محترم.

نريد عالماً يمكن تكييفه وفقاً لتركيبنا النفسي، وعندما نواجه الحقائق التي لاترضينا أو التي تكدرنا، فإننا نلجأ إلى الآليات المتقنة للدفاع عن النفس لإنكارها، أو كبتها، أو إسقاطها، أو تحويلها إلى ضدها، وهذا كله يتطلب حيل الخداع العقلي الاستثنائية المعقدة لكي نكذب، وفي الوقت نفسه، نحتفظ بقناعتنا بأننا مخلصون. ويتعزز الكذب عن طريق المناجاة العقلية التي فيها يتكلم الناس، بنوع من المحادثة الداخلية، حول وضعهم ودورهم الذي يجب أن يقوموا به في شتى وقائع الحياة اليومية، ويفكرون باستمرار بهدف تعزيز صورتهم الخاصة، ويبتكرون تبريرارت معقدة للإخفاقات والتصرفات غير اللائقة التي تعرض للخطر احترام الذات عندهم، ويبررون كامل وجودهم لكي لايواجهوا واقعاً داخلياً أو خارجياً.

ربما تبدأ هذه الأنماط من التفكير في الطفولة، عندما يكسر الطفل شيئاً ثميناً ويترتب عليه أن يبتكر تعليلاً يعفيه من المسؤولية أمام والديه ولذا يلقي اللوم على الآخرين فيما حدث. فإذا نجح في مسعاه وتكرر هذ الموقف كثيراً، فإنه يكتشف وسيلة فعالة للإفلات وتفادي الإدانة. ربما كانت هذه واحدة من الطرق التي فيها تتكون تدريجياً آلية عدم الاستقامة عند الفرد. وإضافة إلى هذا، يمكن للطفل أن يكتشف كذب والديه على الناس، ويستنتج بسرعة أنهما يهدفان إلى الحصول على منفعة منهم. وعلى هذا النحو تتكون أشكال مختلفة وخطيرة تقريباً من الكذب، لابتداع قصة زائفة كلياً، بتحريف ماحدث فعلاً عن

طريق حجب جزء من الحقيقة أو بإلقاء اللوم على الآخرين فيما حدث. والكذبات الصغيرة في المدرسة التي تبدو غير مؤذية، كتلك التي يحاول فيها الطفل أن يبيِّن مدى أهمية والديه، أو المغامرات والنشاطات التي يفترض أنه يشاركهم بها، يكتسب من ورائها شهرة وإعجاباً من رفاقه. ولكن جميع آليات الخداع التي تحقق أهدافه تتحول تدريجياً إلى أنماط دائمة من السلوك، مما يؤدي إلى نمط حياتي غير مستقيم.

ونظراً لعدم وجود حد لعدم الاستقامة، فإنه يمكن للفرد أن يصعد، عن طريق الاستفادة من هذا السلوك، إلى ذرى عالية من القدرة الثقافية، أو الاقتصادية، أو السياسية، ومع ذلك، فإنه يحتفظ بقناعة تامة في عالمه الداخلي بنزاهته واستقامته. وقلما يُكتَشَف هؤلاء الناس عندما يحرزون مكانة اجتماعية مرضية، لأنهم محميون وفوق الشبهات بسبب الصفات المثالية التي يخلعها عليهم الحشد.

تشير عبارة عدم الاستقامة إلى مواقف ذات طبيعة جانحة، ولكنني أستخدمها أساساً بمعناها الأول لتعريف عملية خداع الذات التي من خلالها يتم تحقيق أهداف مقنعة من نوع احتيالي بوسائل غير شرعية، دون نوايا سيئة ظاهرة، لأن الفرد يوسع خداعه إلى الناس من حوله بقدر مايكذب على نفسه.

وهي، في معناها الثاني، تشير إلى أي تزييف لاواع لحقيقة تصرفات المرء، التي تساعده على حماية صورته وتفادي اللوم عندما يرتكب أخطاء أو يتصرف على نحو خاطىء أو بطريقة لاأخلاقية. وفي هذه الحالة، وعن طريق المناورات العقلية غير الشريفة، يلقي اللوم على طرف ثالث بسبب الفشل أو أنه يُقنِع نفسه بحقيقة ادعاءاته، أو ينكر أنه تصرف على نحو غير سليم.

وهناك حالات أخرى يفشل فيها الفرد في مجال ما من حياته لأنه يزيف أو يقلل، دون وعي، حجم المشكلات التي يتوجب عليه أن يواجهها لكي ينجح. وهكذا، ينزلق إلى الانتصارية ، أو التبسيطية المفرطة، أو التقييم المبالغ فيه لقدراته، أو جهل العوائق التي عليه أن يواجهها في الموقف الذي يجب أن يعالجه. فعلى سبيل المثال، هناك أناس يتلهفون كثيراً إلى النجاح في عالم الأعمال، ممن يتصرفون بتهور، دون الاعتماد على معلومات موثوقة أو رأسمال كاف، يدفعهم تصور مبتسر لتوقعاتهم للنجاح، وينفقون المال سلفاً من الأرباح التي سيكون الحصول عليها صعباً. علاوة على ذلك، يرفض هؤلاء الناس الإصغاء إلى النصح المخلص ممن

هم أكثر منهم تجربة. إنهم فعلاً لايريدون أن يتعلموا أي شيء يمكن أن يعرقل، أو يشوش، أو يؤخر وهم النجاح والسعادة بما خططوه لأنفسهم من قبل. وهذا لايحدث فقط في مجالات العمل الحرفي أو المجالات المريحة، بل أيضاً فيما يخص العلاقات بين زوجين. فكثيراً مايلجأ الناس عادة، لكي يُحدثوا تأثيراً إيجابياً، إلى تزييف صورهم بشكل مثير عندما يريدون إغراء البعض، وهذا هو السبب الحقيقي لفشل الكثير من الزيجات، لأنه، مع مرور كل يوم، تتزايد تدريجياً صعوبة ومشقة الاستمرار في عرض الصورة المزيفة بنجاح. وتصطدم الصفات المفترضة للفرد بالواقع القاسي وتأزف، بصورة حتمية، لحظة الحقيقة عندما يتحتم على الزوجين أن يتقبل كل منهما قيمة الآخر وأهليته.

وهناك أيضاً نمط آخر لخداع الذات أتى على دراسته تيودور رايك في كتابه الحب كما يراه عالم نفساني، ذاك هو عرض الصورة المُمَثْلَنَة، الذي يعني، في حالة المرأة، تركيز كل أحلامها وتوقعاتها حول الحب على من تظن أنه رجل مثالي، وتسلطها على فرد حيادي تستخدمه كمجرد ستارة خلفية أو مشجب تعلق عليه صورتها الخاصة المُمَثْلَنَة. وعند إنجاز هذه العملية، فإنها ستعمل فقط على تذوق عرضها الخاص وتهمل الصفات الحقيقية للفرد. وبمرور الوقت، سينتهي الوضع إلى أزمة، لأن الواقع يجعل من الصعب الاحتفاظ بالحلم، وتأتي اللحظة التي فيها تكتشف حتماً الصورة الممثلنة التي رسمتها وزوال الوهم الذي ينتج عن هذا الاكتشاف. ويعني عدم الاستقامة، في الأساس، تعديلاً خبيثاً محرفاً في الطريقة التي نركّب بها واقع العالم بزخرفة اعتباطية للخرائط العقلية المزيفة لكي نكيفها مع أحلامنا، ومخاوفنا، وإخفاقاتنا. وبهذه الطريقة، وعلى ضوء ذلك الواقع، يمكن أن تمثل طواحين الهواء مسوخاً (إسقاط). وعلى العكس، يمكن تصور الأسد الشرس كحمل وديع (إنكار الخطر).

إن التزييف العقلي للواقع هو ما أدعوه عدم استقامة، للتعبير عن حقيقة أن الفرد لايكيف سلوكه مع الواقع الموضوعي، متهرباً من بذل الجهد الذي يتطلبه ذلك، وعلى عكس ذلك، عقلنة الحياة وأحداثها وفقاً لمعيار الانغماس المعاند في الملذات، والبحث دائماً عن الطرق المختصرة المضللة أو الترتيبات العقلية اللاواعية لتحقيق الأهداف، التي قلما كانت هي ما يؤمن به. يكمن منشأ عدم الاستقامة في استبدال الأهداف، أي استبدال هدف حقيقي بأهداف أخرى ظاهرية.

يتضح هذا بحقيقة أن الأكثرية الكبيرة من عوامل الدفع اللاواعية غير أخلاقية، بمعنى أنه إذا تدفقت هذه العوامل بحرية، فإنها سوف تنتهك، بشكل مكشوف، المبادىء الرئيسة، الأخلاقية والأدبية، التي هي عادة سبب كبتها. ولكن جزءاً منها يعبر عوائق الوعي الأخلاقي، متنكراً بقناع الأغراض الشريفة. وهذا يعلل سبب تأكّل النوايا الطيبة بصورة خفية وبطريقة ماكرة وينتهي الفرد إلى "الاحتياج دون حاجة،" أو الخداع، أو الاحتيال، أو إيذاء الآخرين، ولكن بطريقة متقنة ليس من السهل إثباتها. والأكثر احتمالاً أن يحتفظ مدبر هذه المكائد إلى مالا نهاية بقناعته في أنه شريف. ويمكن أن نفهم هذ الألاعيب على نحو أفضل إذا وضعنا في اعتبارنا أن الفرد لايمكنه أن يتحمل الظهور بمظهر الشريف أمام نفسه، حتى أنه يجب عليه أن يُقنع نفسه، بأي ثمن، بأن دوافعه نظيفة، مهما كانت قذرة في الواقع، بهدف المحافظة على صورته نظيفة لامعة. ويصدق بأنه طيب مع أنه مجرم عريق، وهكذا ينظم الأشياء، مستخدماً كافة الوسائل الماكرة لواقعه الداخلي، لتبرير تصرفاته، إما بإنكارها أو بإلقاء اللوم على الآخرين من أجلها. الشخص غير المستقيم هو محتال الحياة، غشاش رخيص، كسول، يبحث دائماً عن السبيل السهلة، ولكنه، في النهاية، سيكون ضحية مناوراته الخاصة. ومن سوء الحظ أن القسم الأكبر من الجنس البشري ينتهي إلى أن يتورط في هذه اللعبة أو يُحتَبَل بها.

وهناك طرق مختلفة لتشجيع القناعة بعدم الاستقامة، مثل: كسب المال بسهولة، واليوطوبيات السياسية، والرغبة في تحقيق المساواة بين الجميع، والاعتقاد بأن الحقيقة موجودة عند الأكثرية، والمقامرة، والمخدرات، والكحولية، والانحراف الجنسي، والعنف والجنوح، والتظاهر بمظهر الضحية أو سعي المرء عمداً إلى أن يكون ضحية، وادعاء الكفاح في سبيل الحياة، وتشويه الحب.

إن ابتكار الأجهزة الإلكترونية لمحاكاة الواقع ليس شيئاً جديداً؛ فمنذ عصور ممعنة في القدم، كانت الأكثرية الكبيرة من الأفراد الذين شكلوا الجنس البشري تعيش، بشكل ثابت، في الواقع الافتراضي التي تخلقه عقولهم، منفصلين عن وجودهم الحقيقي. وبهذه الطريقة، كما يقول بعض المفكرين، ليس هناك في إدراك الناس لما حولهم أحادية بل تعددية، لأن كل شخص يحمل خريطته العقلية الخاصة به للواقع. ولكن لاأظن أن هذا الحدث السعيد على صلة باختلاف الآراء الضروري للديموقراطية، مثلاً، بل هو دليل محزن

على العمى الإنساني الذي يعمل ، بدلاً من أن يدفعنا إلى تأمل العالم بنظرة عميقة بهدف أن نتعلم حقيقته، على دفعنا إلى القبول بالبقاء مقيدين في حالة سرنمة من التأمل المحدود بهذياننا العقلي الخاص، الذي يرسم هذه الصور لتلوين العالم، ولكي يخلط، بعدئذ، بين التركيب الملفق والحقيقي.

وما ندعوه فشلاً عادة يشير فقط إلى أشكال مختلفة من الانغماس في الملذات (تلاعب غير شريف)، الذي فيه يدعي الفرد، بدلاً من بذل الجهد لتحقيق الهدف المرغوب، بأن هذا الهدف في متناوله تقريباً، لكي لايتخذ أية خطوات ضرورية لتحقيق مقاصده بصورة فعالة. ولكي ينجح الجهد، يجب أن يتساوى مدى المثابرة مع حجم العقبة التي يجب التغلب عليها. إن التظاهر ببذل الجهد موقف خادع للادعاء بأن المرء يكافح لكسب المعركة، في حين يكون، في الواقع، أكثر اهتماماً بالبقاء بعيداً عن متاعبها، وهكذا، يحدث الفشل عادة في هذه الحالات، ويتخذ اللاعب الماكر وضع الضحية، نادباً بمرارة سوء طالعه.

لكل ممثل كوميدي أسلوبه الخاص، وليس هناك حد لإبداع الكوميديا الإنسانية. والشيء المحزن بخصوص هذه الحالة هو أنه مامن أحد يسلّم بأنه يقوم بتمثيل مسرحي، ولا يعيش في عالم حقيقي.

هناك الملايين من المصابين بمس مرضي ممن يجسدون هذيانهم، وليس أقل منهم المُستَلَبين، والمنزوين، والمخذولين، والفاشلين، والناقمين، والمحبطين. ويتشاطر معظمهم نهاية مثيرة: لم ينجحوا أبداً في اكتشاف المدخل إلى العالم الحقيقي. إنهم يعيشون بأجسامهم على المستوى المادي، في حين تعيش عقولهم في واقع افتراضي.

الأخلاقية هي العلم السامي للحياة ، وهي تمنحنا -عن طريق مساعدتنا على التصرف باستقامة- القدرة على تحقيق خططنا في الطبيعة (الاستقامة هي التصرف دائماً باحترام الطبيعة) لحمل أجسامنا وعقولنا على الاتفاق مع الواقع نفسه. وعندما نحقق هذا الهدف، نصبح مستعدين لمحاولة المرحلة التالية، التي تتوافق مع الجسم، والعقل، والعواطف، والروح، في الزمان والمكان. فإذا جاءت تلك اللحظة ، فإن الفرد يكون روحياً حقاً ومستعداً للصعود على امتداد سبيل الارتقاء.

الأخلاقية هي العلم السامي للحياة ، وهي تمنحنا -عن طريق مساعدتنا على التصرف باستقامة- القدرة على تحقيق خططنا في الطبيعة (الاستقامة هي التصرف دائماً باحترام

الطبيعة) لحمل أجسامنا وعقولنا على الاتفاق مع الواقع نفسه. وعندما نحقق هذا الهدف، نصبح مستعدين لمحاولة المرحلة التالية، التي تتوافق مع الجسم، والعقل، والعواطف، والروح، في الزمان والمكان. فإذا جاءت تلك اللحظة، فإن الفرد يكون روحياً حقاً ومستعداً للصعود على امتداد سبيل الارتقاء.

4- ضع نفسك عاطفياً في موضع الآخرين

المشاركة الوجدانية تعبير نفسي يشير، من بين مايشير إليه، إلى قابلية المرء في أن يضع نفسه في مكان الآخرين ويشاطرهم مشاعرهم. وهذا يسهل فهم حياتهم العاطفية، وهو شرط أساسي للعلاقة السعيدة المثمرة بين الأشخاص. ونضجنا الداخلي هو الذي يساعدنا على فهمهم ، وهو فهم لايعني بالضرورة أن نشاطرهم وجهات نظرهم أو نشاركهم أخطاءهم أو تناقضاتهم.

إن التسليم بحق الآخرين في ارتكاب الأخطاء يجعلنا أكثر تسامحاً وميلاً إلى التضامن الأخوي. ويساعدنا أيضاً على فهم أن هذا الميل الإيجابي لايستلزم أن نتسامح مع تلك الأخطاء، بمعنى حرمانهم من مواجهة عواقب أخطائهم وانتهاكاتهم للقانون الأخلاقي، وبالتالي، من تلقي الدرس التصحيحي من الطبيعة، بحيث نحبط فرص ارتقائهم. وواحدة من أكثر العقابيل أهمية لممارسة المشاركة الوجدانية يكمن في تدمير الأنانية، التي تسبب تمركز الشخص حول ذاته فيما يخص "أناه" الخاصة.

وأفضل وصفة للتغلب على النرجسية وعقابيلها هي الانصراف إلى التعامل مع الآخرين، ليس بالضرورة عن طريق الإحسان بل عن طريق الاحترام التام لحالتهم الإنسانية. فكل واحد يطلب من البقية أن يفهموه ويعبروا عن أسفهم لوضعه العاطفي، ويعيش علىالاعتقاد بأن الناس ملزمون بمساندته وتقبله. ولكنه لن يدرك أبداً أن الموضع الصحيح هو الموضع المقابل، وأن الفرد هو الذي يجب أن يبذل الجهد لفهم الآخرين، مع انه قد يأمل في عالمه الداخلي أن يكون هذا الفهم متبادلاً.

نحن عادة نطلب الكثير من العالم والناس، وكثيراً جداً مانشعر بالإحباط أو الضيق لأن الاخرين لايفعلون أو يتصرفون مثلنا. نطلب دائماً، دون أن ندرك، أن يحبنا العالم ويفهمنا، دون أن نعترف بأن مانطلبه يجب أن نكسبه، أولاً، عن طريق عكس الأشياء وإعطاء مانتوق إلى تلقيه.

ولكن الحساسية الاجتماعية مسألة أكثر تعقيداً من القيام بعمل خيِّر ومساعدة الناس بسبب تعاطفنا معهم. وعلى المرء أن يعرف مانوع المساعدة التي يجب أن يقدمها للناس، "هل يجب أن نعطيهم سمكة أم نعلمهم الصيد؟"

إذا كنا غير كاملين، فإننا نقيد أنفسنا بعمل الإحسان، مع معرفة أن هذا لن يكون دائماً كافياً وسرعان مايتلاشى، وهكذا سيكون مجال عملنا محدوداً جداً. ولن نعرف أبداً ماإذا كنا قد قمنا بالاختيار الصحيح، أي، ماإذا كنا كرماء مع الناس الذين يستحقون. وهذا مهم جداً، لأنه إذا قدمنا المساعدة لمن لايستحقها، فإنما نحن نؤذيه بمنعه عن خوض معركة تناسبه وعن تطوير قواه، وهكذا يضيع عملنا كما تضيع قطرة ماء في صحراء.

وعندما نشارك أحدهم وجدانياً، فإننا نضع أنفسنا عاطفياً مكانه، أو نفهمه، أو نتعاطف معه، أو نبرر تصرفاته.

فما الذي يحدث لمن نعرف أنهم يقومون ليس فقط بتصرفات خاطئة، بل أيضاً لايتمتعون بأي جدارة شخصية؟ فهل من العدل أن نقدم لهم المساعدة دون روية أو أن نتضامن مع المذنب والبريء، على حد سواء؟ بالطبع، لا، لأنه إذا قدمنا المساعدة لشخص مدان لتصرفاته اللاأخلاقية، فإن هذا سيكون كالتستر على مجرم: نصبح شركاءه، وبهذا يكون تصرفنا ظالماً ونعرِّض المجتمع للخطر، لأننا نؤيد أو نشجع شخصاً اعتاد الإساءة إلى المجتمع.

وكذلك أيضاً، إن الأمل الوحيد بالإنقاذ الأخلاقي بالنسبة للشخص الذي تصرف على نحو خاطىء يعتمد على مجازاته بعقوبة عادلة بسبب تصرفه، ومع أن هذه العقوبة لاتضمن خلاصه، إلا أنها، على الأقل، تهيء له فرصة عادلة هو بحاجة إليها لكي تضعه في مواقف مماثلة لتلك التي سببها لضحاياه، وهي الوسيلة الوحيدة التي تجعله يدرك حجم أخطائه. وحجم العقوبة الطبيعية، يعتمد أيضاً علىالموقف الداخلي للفرد، فإما أن يستفيد من الدرس أو لا، لأن الغرور المتمرد يمكن أن يقوده إلى انحلال أخلاقي أكبر. وفي كل الأحوال، إذا حمل أحدنا صليب الآلام لأن تفاهته تحركه دون وعي، متبجحاً بأنه المسيح، فإنه يعرقل العملية التعليمية الإصلاحية لـ الطبيعة. إن الحياة، في الحقيقة، تعاقب باستمرار وبشكل خفي من يخرق القوانين المتناسقة للمكافىء المساواتي بما يوازي الخرق أو أكثر منه.

إن الطريقة الأكثر حكمة وعمقاً للتعاطف مع الناس هي أولاً أن يلزم المرء نفسه،

كينونته الحقيقية، بالشروع بالعمل لبلوغ النمو الداخلي وبذلك يحقق هدفاً مزدوجاً: الارتقاء الفردي والإسهام في الوصول إلى مجتمع الفرد الكامل، إضافة إلى مايحمله معه هذا الإنجاز من قدرات.

يمكن للإنسان المُتمِّم الكامل أن يصبح الضوء المشع والمرشد للعالم، الذي يسهم بالغذاء الروحي الذي يحتاجه الجنس البشري بإلحاح، ويعلم الناس كيف "يصطادون،" لكي يشعروا بالسعادة نتيجة لكونهم قادرين على إشباع حاجاتهم دون استجداء الإحسان من أحد.

هذا النمط من التعاطف، والحق يقال، أكثر إجهاداً وعمقاً من المال الذي يُقدَّم كحسنة، لأنه يحتاج إلى تأثير سابق للمرء على نفسه، ولكن العرض المستقبلي لثمار هذا التأثير يتميز بأهمية حيوية استثنائية، لأن من يجمعون الثمار يصبحون بدورهم مصدراً لنشر الرسالة الروحية.

إن من ينجزون أنفسهم روحياً هم، في الواقع، ذخيرة أخلاقية للجنس البشري، مع أنه يمكن أن يُساء فهمهم أو يُهاجمون من قبل ضيقي الأفق الذين لايمكنهم أن يُقدِّروا قيمتهم. يجب أن يضع المرء في حسابه أنه من المشروع مناصرة الناس دون الموافقة بالضرورة على سلوكهم وأفكارهم. لأن فهم شخص لايعني أن نلتصق، على نحو أعمى، بأفكاره، وأفعاله، ومشاعره، ولا يعني أن نبرر أخطاءه أو نقائصه، بل يعني أن نفهم الدوافع العميقة لسلوكه. وبهذه الطريقة، قد يحدث أن يتشكى الفرد من أننا لانفهمه، في حين قد تكون الحقيقة على العكس تماماً: نحن نفهمه بصورة تامة؛ ولكننا اكتشفنا الطبيعة الأخلاقية لتصرفاته وعدم الاستقامة التي هي أساس تلك التصرفات، ولهذا نحجم عن مساندته أو تبرير تصرفاته.

وواحد من الأسباب الأساسية لشيوع الامتعاض والتعاسة عند الناس يكمن في حقيقة أنهم يظنون أن لهم حقاً طبيعياً في امتلاك كل مايعرضه هذا العالم، سواء كان محسوساً أو غير محسوس، ويفصلون بين هذا الاعتقاد وبين مفهوم الجهد أو الجدارة الفردية، ربما بسبب الحملات والرسائل العالمية المختلفة في طبيعتها، والتي ربما كانت ذات منشأ ديني أو سياسي. ولهذا السبب، يسحقهم الكرب والإحباط عندما يواجهون الواقع المر الذي يقتضي منهم عملاً شاقاً، وصادقاً، ودؤوباً لتحقيق مايريدون. إن حياة هؤلاء الناس تنساق دائماً نحو الآيديولوجيات السياسية المتطرفة، والسلوك المعادي للمجتمع، والغضب، والحسد،

والامتعاض-نيران تذكيها بانتظام مصادر ذات مصالح مكتسبة في استمرار الاضطراب الاجتماعي. إن جميع الكائنات الحية يجب أن تحصل على حقها في الوجود، ولكن عليها أن تدفع لقاء ذلك بطريقة ما، باستثناء الطفيليات التي تنتمي، كما يبدو، إلى الجانب الظلامي من القوة الكونية.

إن حق الناس في تملك بعض الأشياء يجب أن يقوم بالضرورة على أساس الجدارة الفردية، وأي نظام يستبعد هذا الالتزام هو نظام شاذ ليس فيه ثواب أو عقاب.

والرغبة في التضامن ينبغي ألا تحملنا على اقتراف خطأ الظن بأن تحقيق العدالة يقتصر على بعض الأشخاص أو الجماعات، دون أن يقوم هذا على تحليل عميق. فالعدالة موجودة، في الواقع، فقط فيما يخص التصرفات الإنسانية، ولكن ليس على مستوى الطبيعة، التي تتمثل شريعتها السامية بالبحث عن توازن متناسق.

إن أقرب شيء إلى الحب الأخوي هو التعاطف، ولكن على المرء أن يضع في اعتباره أن الوسيلة الحقيقية لمساعدة شخص ما على حل مشكلاته تكون في تعليمه كيف يطور قابلياته، وليس بممارسة الإحسان دون تمييز، الذي يُعتبَر، في هذه الحالة، إساءة لكرامة الذين ربما يمكنهم أن يعملوا على تطوير أنفسهم وتنميتها. ومن واجب كل شخص سليم يتمتع بكامل ملكاته العقلية أن يكتشف أعلى قابلياته ويزيدها قبل أن يعلق آماله على الإحسان المؤسساتي، أو الحكومي، أو السماوي.

ومن سوء الحظ أن يكون هناك كثير ممن ألفوا العيش من خلال كرم أحدهم، ولا يريدون أن يقوموا بأي جهد للصدوع للتكليف بضرورة كسب الخبز بعرق الجبين. فإذا كانت الدولة ترغب فعلاً بمساعدة المحتاجين، فعليها أن تؤسس المدارس التي تعلم الأطفال كيف يكتشفون ملكاتهم الكامنة. وبدلاً من الاكتفاء بحشو الأدمغة بالمعلومات النظرية، يجب تزويد الصفوف بالوسائل التي تساعد كل طفل على تنمية نفسه بحيث يصبح معلماً لذاته فيما يتعلق بقابليات نفسه ووعيه.

يجب الا ننسى أبداً أن المصدر الرئيسي لنكباتنا يأتي من حقيقة أننا نتصرف ككائنات مخصية عقلياً، لأن مفهوم "الضمير الأعلى" قد تم إلغاؤه أو تجاهله ثقافياً، على الرغم من كونه ملكة أكثر أهمية حتى من الذكاء، لأنه هو الذي يعطيه مغزى ومعنى. وهكذا، فنحن نستخدم فقط الجزء الأقل أهمية من أداة معرفتنا: جمع المعطيات وتصنيفها،

حتى أن قيودنا تأتي من هذه الحالة الدقيقة. إن الناس الأذكياء، المحرومين من وعي يقظ مركز، يفتقرون إلى المحاكمة الداخلية أو التمييز الأعلى الضروري لإضفاء عمق المغزى على المعلومات، وهذه هي الحالة "الطبيعية" للجنس البشري. إن من يتحررون من أوهام الحياة ويتشككون، على نحو تشاؤمي، من أنها "لاتحمل هدفاً أو معنى،" ليسوا مخطئين، مع أنهم يتجاهلون أن هذا لايعني سوى حياتهم الخاصة، بسبب المزاج العقلي غير الملائم الذي فيه يضعون أنفسهم. إنهم محقون في تشكيهم من الظلم والتمييز، لأنه لايمكنهم أن يدركوا بعقولهم الأشكال الخفية واللامنظورة التي تعمل فيها الحياة لتوزيع العدالة عن طريق الثواب أو العقاب.

يمكن فقط أن نكتشف معنى الوجود في باطنية عقولنا، التي تم، لسوء الحظ، تدريبها فقط على تجميع المعلومات وليس معناها، لأن هذا قاصر على الوعي الأعلى اليقظ، الذي هو ليس ملكة فطرية.

يجب أن يعتمد التعاطف مع الناس على القناعة بأنهم طيبون عموماً، أعني، أن سلوكهم السيء ينتج عن الجهل، أو الكرب، أو الاستلاب الذي تسببه رسائل خارجية تحمل مقاصد أخلاقية مريبة. ولكن، يجب ألا نغمض أعيننا عن الدليل على أن هناك قطاعاً مهماً من الكائنات الإنسانية التي لاتستحق أن نعتبرها هكذا، بسبب الفساد الذي يثقلها والشذوذ الداخلي لتصرفاتها. وأنا، على على عكس كل مايقوله المبشرون بالمساواة، أظن أنه من الأكثر حكمة، بالنسبة للمجتمع، أن نعمل، بطريقة ما، على تقييد تلك الحقوق التي يتمتع بها أفراد هم أقرب إلى الحيوان من الإنسان، مع ترك الفرصة طبعاً مفتوحة أمامهم لاستردادها اجتماعياً حسب الكفاءات التي تلاحظ عند كل واحد. وبغير ذلك، لن نكون قادرين على توطيد علاقة العلة والمعلول بين "الحقوق والامتيازات" و"الالتزامات والواجبات،" ولن يفهم الناس لماذا يجب أن يتصرفوا على نحو أخلاقي، لأن هذا أو ذاك (الأخلاقي واللاأخلاقي) سوف يكافآن بمزايا وحقوق متشابهة. وعلى أية حال، وإضافة إلى هذه الملاحظات، يقتضي منا واجبنا الأخلاقي أن نبذل اقصى ما في وسعنا لفهم أصدقائنا والتسامح معهم، وهذا لايعني أنه يجب أن نلتزم بإطراء تصرفاتهم أو تبريرها. فإذا تصرفنا على هذا النحو، بالنسبة للبقية، فإننا لن نسهم فقط في جعل العالم مكاناً أفضل، بل أيضاً سنزرع نجاحنا وسعادتنا.

5- سيطر على نفسك

إذا كنا نريد حقاً أن نتصرف وفقاً للمبادىء الأخلاقية العليا، فإنه يجب أن تكون أنفسنا ملكاً لنا وأن نتمتع بالقدرة على الصمود في وجه الدوافع والعواطف السلبية التي تغرينا إلى التصرف بطرق غير وافية من الناحية الأخلاقية. فالشخص الذي يكون تحت رحمة عواطفه لايمكن أن يكون فاضلاً، لأن الفضيلة تتطلب، بشكل ثابت، ضبطاً عميقاً للنفس لكي تستطيع الإرادة أن تصمد في وجه العدد الذي لايحصى من إغراءات الوجود اليومي.

لقد جرى تبسيط الخير والشر إلى درجة أصبحا معها مفهومين غامضين تماماً وقابلين للتكييف، مما يجعل الالتزام بالخير أكثر صعوبة، لأن السار والممتع يبدو دائماً إيجابياً، والاستياء سلبياً.

يجب ألا يكون تحقيق ضبط مناسب للنفس خياراً نزوياً بالنسبة للإنسان الحديث، بل أمراً أساسياً لكي يتصرف بطريقة أكثر تهذيباً. ويُفترَض في السلوك المتحضر أن يمنع أي نمط من البربرية والعنف، الذي مازال يتزايد يوماً بعد يوم بدلاً من أن يتضاءل. إن كل إساءة حقيقية أو خيالية تُقابَل بإساءة أكبر، مما يؤدي غالباً إلى سلوك مضاد لمفهوم ترقي الجنس البشري.

نحن، في الواقع، نتصرف كبرابرة متحضرين، وهذا المزيج المتناقض هو الذي يمنع الناس من فهم بعضهم بعضاً، لأن كل واحد يتحرك بوحي من عواطفه لابوحي من عقلانيته العليا. إن مايميز الإنسان عن الحيوان هو أن الإنسان يمكن أن يسيطر على دوافعه الغريزية أو يكبتها. ومن سوء الحظ الا يكون هناك قدر كبير من المعلومات الثقافية حول هذا الموضوع، وأن القدر الضئيل الموجود يحجبه من يلتزمون بالجانب المظلم للقوة الكونية أو أنه يتعرض لنقدهم.

وكثيراً ماأتساءل حول ماإذا كان من الأفضل أن نعمل في غرف الدراسة على صياغة "مواطنين أخلاقيين" بدلاً من مواطنين متعلمين، وذلك بأن نولي أهمية أكبر لمعرفة الذات واكتشاف الإمكانية من دراسة الفيزياء، أو الرياضيات، أو الكيمياء، أو التاريخ.

إن ثقافتنا، في الواقع، معادية للثقافة، بمعنى أنها تقيد القابليات الإنسانية الحقيقية، أو تتجاهلها، أو تكبتها، وتميز من يحاكون الحاسبات الإلكترونية أو الآلات، كالسرعة

في التداعيات الإعلامية، أو السلوك الميكانيكي، أو التفاعلات الآلية السريعة، أو التكرار اللامتناهي للنشاط نفسه-كل من هذه الفعاليات يعمل لتكوين أنماط من السلوك اللاتطوري. والحقيقة هي أن مفهوم الإنسان للتعليم يشبه أكثر فأكثر عملية حاسوبية منها عملية إدراكية يحتاجها كائن واع حساس. فنحن نُبرمَج ثقافياً في غرف دراستنا، ولكننا لانتعلم أبداً التصحح العقلي، وكبح العواطف السلبية، والسيطرة على أنفسنا، وتنمية شخصيتنا وإرادتنا. إنه نظام مُؤتمَت يعاملنا كآلات تجمع المعلومات، هدفها، الذي يتجاوز أية مَثْلَنَة، هو تحويل الفرد إلى مستهلك مطيع للسلع المادية وغير المادية.

يمنعنا التكليف المفروس في أدمغتنا من التصرف بحرية وتلقائية، لأننا دائماً محكومون بقوى مقتدرة، كالخضوع لسلطة الدولة، والعبودية الآيديولوجية وإرادة الحشود التي تمتصنا وتصهرنا إليها.

فهي تكيف عقولنا لتجعلنا ملحقات بسيطة للنفس الاجتماعية، وتكوّن شخصيتنا وتحجرها إلى درجة الحيلولة دون أية تلقائية، فتحولنا إلى آلات بيولوجية ذات سلوك مُؤَتْمَت. ولكي نتملص من هذا الدليل، نحتج بأن مشاعرنا تثبت بأننا حساسون، وفخورون بهذه الحالة. مع ذلك، نرفض الاعتراف بأن عواطفنا نمطية وتكرارية تماماً وأنها يتم تنشيطها، على نحو ثابت، بصواعق التفجير نفسها، التي يمكن تصنيفها وتصويرها إلى درجة جعلها صعبة، إن لم تكن مستحيلة، لمواجهة العواطف الحرة التلقائية. ونتبجح، ربما، بكوننا رحماء، وحساسين، وودودين، وكرماء، ومتسامحين، ومخلصين، ولا ندرك أنه لو كان ذلك صحيحاً حقاً، فإنه ربما يعزى إلى ندمنا لأننا مبرمجون إلى هذا المدى، ولم يكن سلوكنا نتيجة لممارسة إرادتنا واختيارنا الحر وإنما بسبب تكييف سابق لاغير.

إن الناس الدمثين، والودودين، والمبتهجين، والثرثارين، كأولئك الذين يشكلون حياة وروح أي حزب، يّصنَّفون عادة كـ "عفويين" لأنهم يعبرون عن أنفسهم بسرعة ويسر. ولكن التلقائية الحقيقية ليست تلك التي تولد من اليسر والسرعة في سلوك مؤتمت، بل من السلوك الواعي المقصود الذي يميل إلى أن يكون متروياً أو مدروساً.

ومايتشكل بواسطة الترابطات العصبونية، التي تستجيب آلياً للمثيرات نفسها، لأنها ثمرة البرمجة الدماغية، ليس عفوياً إطلاقاً، مع أنه يسبب ردود فعل واستجابات سريعة. والنشاط العقلي الشديد لايعكس عفوية بل، على العكس، إنه نتيجة لبرمجة ساحقة تتظاهر بسرعة مماثلة للسرعة التي يُظهرها معالج الحاسبة الإلكترونية.

إن الشيء الوحيد العفوي هو الذي تكون أصوله في سلوك غير مُؤتمَت، أي، من خلال عمليات عقلية لإدراك أعلى يمكن أن يؤدي، عن طريق تجاوز قيود البرنامج، إلى سلوك واع ينبع دائماً من التبصر الحر للفرد.

وما نسميه عادة "تلقائياً"، هو ثمرة دافع آلي وليس استجابة موقتة، في حين أن التلقائية الحقيقية هي شيء يولد من باحة داخل الفرد، وهي، بطريقة ما، أبعد ماتكون عن البرمجة؛ وهذا ممكن فقط من خلال المساعدة التي توفرها قوة الإرادة اليقظة (تُخبَر قوة الإرادة في حالة الإدراك الأعلى). تنبع التلقائية، بشكل ثابت، من مشيئة عليا، ولكن هذه الملكة ليست فطرية ولا يمكن اكتسابها بسهولة، ولكنها ثمرة عملية لجهد داخلي تدريجي طويل. وفي الواقع، إن مايجعلنا بشراً هو قابليتنا للتصرف بتلقائية، أي، بما يتجاوز قيود التكييف الثقافي والبيئي. قد يبدو هذا المفهوم نذير شؤم ويوصم بالبدائية وأنه لايقوم على أساس تنظيم أو ضبط، مع أنه على النقيض تماماً. إن عبارة "يتجاوز الثقافة" تعني أنه " في شكل أعلى منها،" أي أنه أكثر رفعة إلى حد ما من الناحيتين النوعية والجوهرية.

ومع ذلك، ماالذي يمكن أن يكون أكثر أهمية وقيمة من الثقافة؟ ونجيب ببساطة: إنها الروحية. لاأقصد هنا المفهوم الديني أو المفهوم المرادف للإحسان، أو الطيبة، أو الكرم، أو الحساسية، أو الحب الأخوي، بل المعنى البدائي الذي أعطاه لها الأغريق، والمصريون، والفلسفة الصينية القديمة، على اعتبارها علماً تطورياً يساعد الإنسان على تنمية إنسانيته الداخلية بما يتطلبه إضعاف جزئه الحيواني، أي، أَنْسَنَة النوع. وفي مرحلة ما، جرى حجب هذه المعرفة قصداً ثم ضاعت. مما أدى إلى جهل عام لها. وما نعرفه اليوم ليس أكثر من تقليد نزوي سيء لسلسلة من التزييفات السابقة.

تتكون الحكمة الحقيقية من قواعد متنوعة مصممة لكي ينتصر المرء على نفسه وأن يتحمل مسؤوليته في توجيه وعيه، بهدف العودة إلى المصدر الأصلي الذي كنا من فيضه: الروح العظمى، أو الإله (أصل شرارتنا المقدسة). وقد تم تحقيق هذه العودة عندما أمكن تحقيق التوافق التام بين الروح والواقع المكاني والزماني للعقل والجسد المادي.

يأتي الإيمان بضرورة أن يكون المرء سيد نفسه من القناعة بأننا لسنا، في الواقع، أسياد تصرفاتنا. فأدمغتنا، في الحقيقة، ملك لوسائل الإعلام؛ وقلوبنا للعواطف التي تنشطها آلياً الأسباب التي أتينا على ذكرها سابقاً؛ ونشاطنا الجنسي لدافع حفظ النوع؛ وجسدنا بوجه عام للدولة؛ لأنه لايمكن أن نتخلص منه بحرية.

إن عواطفنا تسيطر علينا فعلاً، وهي التي تمنعنا من تبني الاختيارات الحرة التي نظن أننا نمتلكها. وهذا، بمعناه الحقيقي، لايعني القيام بما تريده الشخصية، بل ماتريده الـ "أنا" الحقيقية عندنا، أي روحنا، التي هي الكينونة.

إذا صَفَعَنا أحدُهم على خدنا، فإن الشخصية تلزمنا بالرد على الاعتداء بأشد منه، ولكن الروح تسمح لنا بتحويل الخد الآخر، وينبغي أن نعتبره تصرفاً صحيحاً. لاحظوا ماأقوله "ينبغي أن نعتبره تصرفاً صحيحاً،" لأن هذا التصرف يجب أن يأتي من العقلانية العليا للمحاكمة الداخلية كتصرف للإرادة، وليس كتصرف أوتوماتيكي[1]، لأننا دائماً سنحول الخد الآخر، وهذا خطأ كخطأ عدم تحويله أبداً. وأي نوع من سلوك أعلى، سواء تجاه أنفسنا أو تجاه الآخرين، يجب أن ينطوي على الانضباط الذي به يمكن للمرء، في الحقيقة، أن يكبح دوافعه الغريزية.

يجب أن يكون إظهار المهارة في ضبط النفس واحداً من الشروط الرئيسة المطلوبة من الشخص إذا كان يريد أن يُعتبَر متحضراً، لأنه، بخلاف ذلك، سيكون دائماً ميالاً إلى الاستسلام إلى دافع شهواته المنحطة.

إن الشخص الذي لايضبط نفسه خطر تماماً كالشخص الذي يحمل سلاحاً دون أن يكون مؤهلاً لحمله. لاأعني بضبط النفس فقط القدرة على التصرف بطريقة اجتماعية مقبولة، ولا أعني الكبت، ولكن أعني، بصورة رئيسة، قابلية السيطرة على النفس عندما يتعرض الشخص لضغط داخلي أو خارجي، وهو الشرط الأساس لتعايش اجتماعي مناسب. فالشخص الذي يتمتع بهذه القوة لايمكنه فقط أن يحول الخد الآخر إذا شعر بأنه التصرف الصحيح، بل يمكنه أيضاً ينأى بنفسه عن الرذائل والعواطف التي تبتلي الناس عادة.

يأتي السلوك الرفيع عند الإنسان من التحكم الواعي الاختياري بتصرفاته، ودوافعه، وأفكاره، ومشاعره. وبما أن هذا الانضباط هو الانضباط الوحيد المنطقي، لذلك يجب أن يقوم على أساس قيم عليا وأن يكون في خدمتها، لأنه محكوم بأكثر المعايير الأخلاقية رفعة. ومن يستجب لاعتداء باعتداء أكبر، فإنما هو يستسلم لدافع غريزي، في حين أنه يحتاج، لكي يحول الخد الآخر، إلى عملية سابقة لضبط النفس وتأمل داخلي عميق، مما يسبب تعديلاً داخلياً يمكن للمرء به أن يقوم بتصرف غريب بالنسبة للبرنامج الشائع للكائن الإنساني.

1- أي لاإرادي -المترجم.

إن الالتزام بحدود التكيف التي يفرضها المجتمع على الإنسان لايتطلب جهداً كبيراً، بينما يتطلب القيام بتصرف واع، بالمعنى الأعلى لهذا التعبير، شخصية وإرادة أعلى تساعدان المرء على التغلب على قصور السلوك العادي.

هذا هو السبب الذي يفسر ضآلة تفوق التلقين الأخلاقي، مهما كان مهماً، على السلوك اليومي للناس، لأنه، على الرغم من النوايا الحسنة للناس، فإنهم كثيراً جداً ماينتهون إلى التصرف بلاأخلاقية أو على نحو آثم لأنهم لايتمتعون بالقوة الضرورية للصمود في وجه الإغراء، فالقوة الأخلاقية لاتأتي من التأمل العقلي بل من قوة الإرادة عند الفرد التي تشكلت بأناة في ظل فوضى عدد لايحصى من معارك الحياة.

يعتمد المستوى الأدبي والأخلاقي عند الفرد على قوة الشخصية ونمو قوة الإرادة التي تتيح له أن يضبط نفسه. ومن سوء الحظ أن الفرد لايتعلم في غرف الدراسة فنون الحياة بل مجرد ثقافة عامة ومعلومات يحتاجها لكسب عيشه. فنحن لم نتعلم كيف نطور قوة إرادتنا، أو نوجه أفكارنا، أو نصعّد دوافعنا وعواطفنا. ويبدو كما لو أن كل شيء يمكن أن يشجع على تنمية القابليات الداخلية الكامنة قد استبعد بعناية بيد رقيب خفي. أو ربما كان الخراب المعرفي واسع الانتشار إلى درجة أنه مامن أحد يمكنه أن يدرك أهمية النمو الداخلي، لكي يكرس جهوده لرعاية جسمه وصورته، اللذين يجري تكبيرهما، بسبب الخلط بينهما وبين الكينونة، لزيادة إحساس الكائن بأنه على قيد الحياة.

لنتصور مدى فظاعة العالم إذا كان تلامذته وطلابه يعيشون دائماً في حالة تنويم، ولا يتم تنبيههم إلى الحالة التي تبتليهم، ذلك لأن أساتذتهم، وحكماءهم، ومراجعهم، والآخرين ممن هم في موقع السلطة يعيشون في الظروف نفسها؛ عالم فيه تم عزل الأكثرية الساحقة عن عقلانيتها، وبالتالي مُنعَت من التصرف بطريقة رفيعة حقاً.

هل تلك هي حالة عالمنا في هذه اللحظة؟ لاشيء هناك يثبت أن الواقع يختلف بشيء. فوسائل الرفاه في الحياة الحديثة تسببت في إضعاف قوة الإرادة وشلل الشخصية. وتبحث الأكثرية الساحقة عن الطريق السهلة لتتفادي بذل الجهد، أو مطاردة الربح السهل، أو الانضمام إلى الأكثرية في عدم تحمل المسؤولية، وتشايع، بشكل أعمى، أي اعتقاد لكي لاتكلف نفسها عناء التفكير، وتستسلم للكسل، والابتذال، والامتثالية.

إن سيطرة المرء على نفسه ليست فقط المدخل الرئيس لكي يصبح فاضلاً، بل أيضاً

المدخل الرئيس للنجاح في أي شكل من أشكاله، لأنها عادة هي النتيجة الطبيعية لعملية طويلة من الجهد المنظم وليست مسألة حسن طالع. فهي التي تساعد المرء على المثابرة عندما يتوقف الكثيرون عنها، أو عندما تضعف قوة الإرادة أو عندما ينهزم المرء بتأثير التثبيط أو الإحباط. وهي القوة التي بها نصبح فضلاء ونحافظ على نقائنا وشفافيتنا.

وهي أيضاً التي تمنحنا المروءة الداخلية الضرورية لكي نصفح عن أعدائنا ونغفر لجارحينا. إنها أي شيء يجعلنا نؤجل العنف أو الدافع غير الملائم، بحيث يتوفر لنا الوقت الضروري للتفكير والوصول إلى قرار ناضج واع.

هذه المسألة تشبه قدرة المرء على العدّ إلى المئة أو العشرة آلاف عند الضرورة، قبل أن يقوم بما يرغب أن يقوم به داخلياً، أو غريزياً، أو عاطفياً، منتهزاً الفرصة للتسامح، والحب، والانسجام الداخلي بحيث يحجم عن القيام بأي تصرف طائش.

6- اخرج من جحرك العقلي

الجحر العقلي هو شبكة مفاهيمية ضيقة نضع فيها أنفسنا لكي نبني العالم، وبالتالي، تصبح، كما يحدث للحيوانات، وقاء من أي شيء يبدو تهديداً، في الوقت نفسه، تصبح أيضاً أداة لتبرير الفشل.

وحالة الحياة هنا تشبه كراساً ضخماً للرياضيات كل مربع صغير فيه يمثل نموذجاً للواقع، أعني، جزءاً ضئيلاً من الواقع الكلي.

إن ضيق حدود هذا الجزء الصغير جداً يساعدنا على الالتجاء في حيّز عقلي مألوف لدينا، ويجعلنا نشعر بالراحة، ويمنحنا إحساساً مهدئاً لكوننا بأمان، وأن كل شيء تحت السيطرة. ونتيجة لذلك، نغفل أي واقع، مهما كان خصباً، لايتطابق مع خريطتنا المفاهيمية الضئيلة. يؤثر أسلوب الحياة هذا الشبيه بالشبكة على الأكثرية الساحقة من الجنس البشري، لأن الطبيعة المصغرة للحيز العقلي التي يشغلها المرء تمنح إحساساً اصطناعياً بالقوة والهدوء، مع أنها، في الوقت نفسه، تسبب الخوف من تجاوز حدودها.

إن المساحة المفاهيمية التي نشغلها صغيرة جداً إلى حد تمنحنا فيه إحساساً بزيادة أهميتنا الشخصية، لأننا ندرك أن الـ "أنا" عندنا تشغل معظم الحيز النفسي حولنا، أي الشبكة، التي نخلطها خطأ بكامل العالم.

ويحملنا الخوف من المجهول على التمسك بمناطق نفوذنا الصغيرة، التي نظن فيها أننا نمارس الحياة، ولكن ليس أكثر من حركة ضمن خريطتنا العقلية الخاصة التي كانت قد وُضعَت وفقاً للصراعات، والرغبات، والمخاوف التي تؤثر علينا لا على قوة الواقع الحقيقي.

الحالة هنا كما لو كان كل فرد يعاود تكوين العالم بالنسبة لمنطقة نفوذه الخاصة ضمن حدود تفكيره الخاص، لكي يتحكم بالقوى التي تكوّنه، حتى ولو كان هذا في الخيال فقط.

تسبب هذه المناورات نوعاً من قصر النظر المعرفي والعاطفي الذي يقلص ويحدد فرص نجاحنا، ورخائنا، وسعادتنا، وفي الوقت نفسه، يحد من القدرة المفاهيمية عند المرء ويفسدها، لأنه يخلط عادة واقعه الداخلي بالخارجي. وبهذه الطريقة، يطلب من الناس أن يعاملوه وفقاً لمدى الأهمية التي يظن أنه يتمتع بها، ويبهره الامتداد الظاهري لـ "أناه"، وهو وهم يستمده من الحيز العقلي الضئيل الذي يقيد ذلك الامتداد ويضع حداً له، مما يسبب، بالمقابل، إحساساً خادعاً بعظمة هوية المرء الخاصة. وهكذا، يحدث أن كل فرد يعيش في واقع افتراضي بكل معانيه، محروماً من معرفة الحياة كما هي فعلاً، رافضاً الامتثال للهدف التربوي الذي تحمله الحياة للناس، ويحبطه، في هذه الحالة، ضيق الأفق.

إن هدف الحياة هو النمو والتطور الفردي، وهو الشكل الأكثر عمقاً للأخلاق المتسامية. والتهرب من هذا الواجب يعني ضمناً الهجوم على النظام التطوري لـ الطبيعة. وهذه الحالة تشبه حالة طالب جامعي قرر أن يحصر جهوده في دراسة علم النبات وحبس أفكاره عن أي موضوع آخر، وفي هذه الحالة، فإن جامعة "الحياة الحقيقية،" إضافة إلى الثمن الذي ندفعه بسبب الفشل هما اللذان يحددان صفتنا في الحياة وفقدان خيار الارتقاء. والانفتاح عقلياً على واقع أوسع وأكثر عمقاً هو واجب أخلاقي وروحي، لأنه إذا لم نفعل ذلك، فإننا نحبط ارتقاءنا، ونعطل الإمكانية الإنسانية الضخمة التي نحملها في داخلنا، وبهذا نحرم المجتمع من إسهام مهم هدفه مشاطرة الآخرين هذه الثروة.

العالم مليء بالأفراد المعوقين عقلياً الذين كان يمكن أن يكونوا عمالقة لو تجرؤوا أن يخرجوا من جحورهم العقلية التي فيها يلتمسون الخلاص.

يتجاهل الناس القدرات الحقيقية للعقل والوعي الإنسانيين، حتى أنهم لا يستطيعون تقييم مدى حدودهم، التي ربما تتيح لهم توافقاً سلبياً مع أنماط حياتهم.

ومن ناحيتي، أسلّم بالرأي القائل إن الإنسان يجب أن يكون حراً لكي يكون متوسطاً، إذا كان هذا مايريده، ويجب احترام هذه الوسطية، ولكن لاعلاقة للتعاطف الإنساني بـ **الطبيعة**، التي تعاقب، بلا شفقة، من يرفضون مواكبة التغييرات التي تحدث في الحياة.

إن أي شيء لايتطور يتحجر أو يتحطم. ولكن، يجب أن نحذر من أن نخلط بين الارتقاء والعصرنة، لأن العصرنة كثيراً جداً ماتكون مجرد شكل معقد للبربرية.

فالقواعد الأخلاقية الحقيقية ليست أوامر اعتباطية أو نزوية، ولا هي مجرد محظورات أو توصيات، ولكنها التكيف الواعي المتناسق للإنسان مع الطبيعة، التي تحتويه وتكيفه. ونحن نعي فقط أكثر قواها بدائية، أو فظاظة، أو خشونة، كالمطر، والأعاصير، والنشاطات البركانية، والتمثيل الضوئي، وقوانين الفيزياء الموجودة اليوم. وعلى العكس، لانعرف سوى القليل عن قوانينها التي يصعب اكتشافها بسبب مراوغتها، ولكنها تقوم بوظيفتها حتى وإن كنا لانؤمن بها. فإمكانيات المغنطيسية، والمجالات الكهربائية كأساس للحياة، والتجربة في حالات الوعي الأعلى، والتغذية الراجعة للعلة والمعلول بين الإنسان والطبيعة، ووجود طاقة أسرع من الضوء، وتكوين جوهر وسيط بين المادة والطاقة كلها أشياء واقعية أكثر عمقاً سوف يسلّم بها العلم يوماً ما، وربما تأتي اللحظة التي فيها تصبح الأخلاق والأخلاقية كما يجب أن تكون-علم العيش بحكمة.

ولهذه الغاية، يجب على الإنسان أن يبدأ الخطوة الأولى: أن يهجر البيضة المثالية الضيقة التي يختبىء بها، وأن يخرج منها ليَخبُر الحياة بعيداً عن معتقداته الخرافية. فالعالم ينقسم بين دوغماتي وشكوكي. وفي نظرية المعرفة، نفهم الدوغماتية، في المقام الأول، على أنها حالة الواقعية البسيطة التي لاتسلّم فقط بإمكانية معرفة الأشياء في جوهرها الحقيقي، بل أيضاً معرفة فعالية هذه المعرفة في الحياة اليومية.

والشكوكية مذهب فلسفي للمعرفة يؤكد، في جانبه النظري، على عدم وجود معرفة ثابتة، ولا يمكن أن يكون هناك أي رأي مؤكد بصورة مطلقة. ويذكر كونت[1]:

الدوغماتية حالة طبيعية للذكاء الإنساني، الذي يميل نحوها باستمرار وبكافة الطرق

1-1اوغوست كونت (1798-1858)، رياضي وفيلسوف فرنسي، لعب دوراً بارزاً في الثورة الفرنسة، انتهى إلى الانتحار-المترجم.

بسبب طبيعته، حتى عندما يبدو قد أُبعد عنها. هذا لأن الشكوكية لم تعد أكثر من حالة أزمة، وهي نتيجة حتمية لفترة الخلو العقلي الذي ينشأ بالضرورة عندما تُدعى الروح البشرية إلى تغيير عقيدتها، وفي الوقت نفسه، يكون فقط الاستخدام الأساسي للشك هو الوسيلة الضرورية التي تستخدم، سواء من قبل الفرد أو من قبل النوع، لمساعدته على التحول من شكل دوغماتي إلى آخر.

يتعرض الإنسان، في الحياة اليومية، إلى الانسلاب بالمعتقدات الدوغماتية من كل الأنواع، ويستخدم التعبير "دوغماتية" عادة للتحقير. والشكوكية أيضاً قادت إلى السخرية، أو المادية، أو الإلحاد، أو الوقاحة أو الريبة الكلية.

يثق بعض الناس، على نحو أعمى، بمعتقداتهم، وهناك آخرون لايؤمنون بشيء. ولكي نفهم مشكلة المعرفة، علينا أن نسلّم، إذا أردنا أن تكون ثابتة وآمنة، بأنه يجب أن تنبثق من إدراك معرفي يتحقق في حالات وعي أعلى، يتضمن دراية رفيعة وتجربة ذات مغزى، بمعنى الارتقاء بالمعلومات التافهة للوصول من خلالها إلى جوهر المعرفة.

إن الأسلوب المبتذل للتعلم الذي ينجزه الفرد وهو في حالة "نصف نائم" (الحالة الشائعة للوعي الإنساني) هو الذي يؤدي إلى معلومات لايُعتمَد عليها ولا يمكن الوثوق بها، لأنه يحدث دون تدريب سابق لأداة الفهم، أي المعرفة التي تنشأ في الماضي البعيد والتي هي منسية الآن.

أنا شخصياً أحب التعريف الدقيق التالي للدوغماتية وأضعه في اعتباري: "مذهب يعتبر المعرفة كالروح التي تمتلك الواقع كما هو."

هذا وصف حدسي وعميق، لأنه يعبر ببراعة عن الوسيلة الإجرائية التي ينبغي للإنسان أن يراعيها لكي يدرك الواقع-يمتلكه عن طريق الروح. دعونا نعتبر الروح كالشرارة المقدسة أو الكينونة الخالدة للإنسان، أي كالـ "أنا" الحقيقية أو كما نحن فعلاً، وهي الحالة التي يكون فيها الجسد الفيزيائي ليس أكثر من مكان سكن مادي زائل.

عندما يعمل الفرد، بطريقة سليمة، على بناء الجسد الفيزيائي، والعقل، والعواطف، والروح بما يتفق مع الزمان والمكان نفسيهما، فإنه يبلغ ذروة الإمكانيات المقبولة لارتقاء وعيه وحينئذ يصبح قادراً على تأمل الواقع كما هو، وهكذا يجد مأتى إلى الحقيقة الكلية، التي هي، في مستواها هذا، حقيقة وحيدة. وعندئذ، يجب على من يغمره جلال الكون التواق إلى الكمال، حتى لايكون أعمى، من أن يلوذ بالتواضع والضآلة، عن طريق التصرف كما لو

كان مدى جهله ينمو باستمرار. وفي اللحظة التي تنجز الأخلاقية فيها غرضها المتسامي بتحقيق الانسجام بين الفرد وموسيقا الأفلاك عن طريق تناغمه مع البندول السماوي، عندئذ، يمكن له أن يتوحد، عن وعي، مع الخطة السامية للحياة الكونية.

مامن أحد مجبر على التقدم في هذا الطريق. أن يعيش أحدهم ورأسه مطمور في الرمال، أو أن يعيش محشوراً في إنش مربع واحد، فذاك خيار مشروع تماماً ويمكن احترام قراره، ولكن من المهم جداً أن يعرف أن أمامه خيارات أخرى للتطور.

7- تقوية الإرادة وتصليب الشخصية

يبقى الناس العاديون عادة تحت رحمة الحياة ويستعطفون الرياح كي تجري وفقاً لخططهم في توقع ضربة حظ، أو يوكلون أمرهم إلى قديسهم المفضل. ويضعون دائماً توقعاتهم على أساس ظروف خارجية إيجابية يمكن أن تساعدهم على إشباع حاجاتهم.

ويعترف الكثيرون ضمناً بأنهم عاجزون عن القيام بأعمال تتطلب القوة الضرورية للإرادة لكي يبذلوا جهوداً شاقة.

نحن، بوجه عام، كائنات هشة أو ممزقة أو قاصرة الإرادة، وهذا هو السبب الذي يحملنا دائماً على التماس الحل السهل أو الطريق الأسرع والأسهل. فنتخيل دائماً طرقاً لنتعرف على القصيرة منها لإنجاز مانريد، لأننا نجبن أمام العمل الصعب الذي يتطلب صبراً. ولا نتمتع بالقوة لتخليص أنفسنا مما لانريد أن نقع فيه، ولا لتحقيق مانحتاجه، وهكذا نجد أنفسنا نبحث دائماً في العالم الخارجي عن الحلول التي تغري خيالنا أو سذاجتنا.

وعلى سبيل المثال، هناك الكثير من الناس البدينين لايستطيعون التحكم بشهيتهم؛ والمدخنين الذين يعملون بطيش على تسميم أنفسهم؛ والناس الخبثاء من مختلف الأصناف الذين تستعبدهم عواطفهم الجامحة؛ والعاديين الذين يسترخون في أحلام غد أفضل؛ والجبناء، واللامبالين، والكسالى الذين لايمكن أن ينجحوا في الحياة؛ ومن هم دمى لعواطفهم، وكل هؤلاء يفتقرون إلى قوة الإرادة لتحقيق مايريدونه.

يجب أن نعرف أن اللاأخلاقية هي مشكلة ثقافية من ناحية، وقصور في نمو قوة الإرادة من ناحية أخرى. وفي الحقيقة، لايمكن للمرء أن يتصرف بطريقة متحضرة وأخلاقية حقاً إذا

كان يفتقر إلى قوة الإرادة الضرورية لكبح شهواته المنحطة وعوامل دفعه الغريزية التي تنبثق باستمرار من اللاوعي.

إن اللامبالي، هذه الصفة التي أُصَنِّف فيها معظم الجنس البشري لأسباب سوف أشرحها فيما بعد، لايمكن أن يؤخر دوافعه الحاضرة في سبيل اختيار سلع مستقبلية ذات أهمية أكبر. ولا شك في أن القدرة على استبدال دوافع قريبة بمكافأة بعيدة يتطلب إرادة قوية.

ومن سوء الحظ أن الثقافة الحاضرة تشجع الكسب السهل والسريع، إلى حد أن الناس، الذين تغويهم أغاني حوريات البحر، يصابون، إلى حد نرجسي، بمرض أخلاقي هو مرض الرغبة، الذي يصور لهم أن الحصول على ماتعرضه السوق الاستهلاكية على شكل سلع محسوسة وغير محسوسة أسهل بكثير مما هو في الواقع، وهكذا يصبحون، بمرور الوقت، متخمين حسداً وإحباطاً. ويقودهم جزؤهم الطفولي الذي يبقى منغرساً بهم، بطريقة ما، إلى توقع أن يُمنَحوا رغباتهم بالطريقة نفسها التي كانوا يحصلون عليها في الرحم، أي، إشباع سهل وسريع.

يتم كل هذا لأن تعبير قوة الإرادة لاوجود له في معاجمهم العقلية، ولذلك يلقون باللائمة في كل شيء على الحظ أو على نمط معين من الجدارة الشخصية الخِلْقِيَّة، المزعومة، الخاملة.

وهناك من يظنون أنهم يتمتعون بقوة إرادة كبيرة لأنهم يقومون بنشاط بدني كبير أو يعملون أياماً بطولها، ولكن الحقيقة هي أن أي عمل يُنجَز بمعزل عن التزام المرء بواجبه، أو لملء معدة فارغة، أو لإشباع طموح شخصي، أو لرغبة في الثأر، أو لإرضاء النرجسية، لاينبع من قوة الإرادة بل من محاولة للبقاء على قيد الحياة جسدياً وفيزيولوجياً.

وقوة الإرادة هي التي تعمل عندما نريد أن ننجز شيئاً يتطلب الوقوف ضد شهواتنا ودوافعنا الغريزية، أو في المناسبات التي فيها نباشر عملاً غير ضروري ولا يرتبط بأية حاجة حيوية ملحة، كما في حالة فرد يمكن أن يحيا بصورة جيدة بمرتبه الحالي ولكنه يتوق إلى مضاعفته، أو حالة مواطن متوسط يحاول أن يصبح شخصية مهمة، ولكنه لن يعاني من مشكلة خطيرة فيما لو بقي على حاله.

إن الشهوة الغريزية التي تدفعنا إلى تحريك الجبال لإشباع رغبة في الثأر، مثلاً، ليست قوة إرادة. ولكن قوة الإرادة هي الدفع الواعي، غير الإلزامي لـ "أنا"، الذي يمكن أن يساعد الإنسان على أن يتصرف باستقامة، ويزوده بالقوة للصمود في وجه الإغراء والخطيئة، ويتغلب على الظروف المعاكسة في الحياة.

أما الشخصية فهي مجموعة الصفات الموروثة أو المكتسبة التي تكيف سلوك الفرد. والصفات هي كل واحد من الظروف أو السجايا التي، سواء كانت طبيعية أو مكتسبة، تميز الناس أو الأشياء.

إن معظم الناس في نوعنا هم من ذوي الشخصية السلبية الذين يسمحون باستكانة للظروف البيئية أن تطبعهم بالصفات الحديثة للّحظة، وبهذا تصوغ "أنا" اصطناعية زائفة تحل محل الـ "أنا" التي تخص الفرد نفسه.

هؤلاء الناس ضعاف جداً، لأن مجمل محتواهم النفسي يكون غريباً بالنسبة للـ "أنا" الحقيقية، التي تكوّن هوية بديلة، نوعاً من طعم أو رقعة، تحمل اهتمامات ودوافع نموذجية بالنسبة للظروف التي ولّدتها، لاتلك التي تستجيب بصورة مشروعة للشخص المتأثر. إن مستوى الانسلاب عند الكائن الإنساني، من وجهة النظر هذه، غير متكافىء، والدوافع التي تحركه تكون غريبة تماماً بالنسبة لرغباته الداخلية، حتى أنه ينساق إلى أهداف متعارضة تماماً أو مختلفة إلى حد لافت.

يترصد في أعماق الكائن الإنساني مخلوق حزين محبط يشعر بأن خطة حياته فُرضَت عليه بصورة استبدادية، قسراً ودون استشارته، وهكذا ينبض في أعماق روحه دافع يائس للانعتاق.

من المألوف أن يتصرف الناس رغماً عنهم، أي على العكس مما يريدونه فعلاً، فيتولد عنهم تناقض داخلي يؤخر المشاريع التي خططوا لتنفيذها، أو يعوقها، أو يضعفها.

إن الإنسان المطبوع على الضعف بعيد عن الشخص الكامل التكوين وربما لن يكون كاملاً يوماً، وقلما يتصرف بطريقة مقبولة أخلاقياً. والحقيقة هي أنه، لكي يصبح شخصاً ناضجاً، مثالي التكوين، يحتاج إلى حالة من الدراية العالية كشرط مسبق يساعده على الكف عن التفاعل آلياً مع البيئة. ومعنى هذا أن يتفادى أن تخذله "أناه" النفسية، كما يحدث

في التنويم الإيحائي، تلك العملية التي بواسطتها يُبعِد المنوِّم "أنا" الفرد. ويحدث الشيء نفسه في التنويم البيئي عندما يفقد الفرد مفهومه للهوية لينصهر عقلياً بما يسترعي انتباهه. فالـ "أنا" تتبع دائماً انتباه صاحبها، وأينما يذهب الانتباه، تتبعه الـ "أنا." ولا شك في أن التجربة اليومية للإنسان تُنجَز في حالة متواصلة من تحقيق الهوية ومن وقت لآخر فقط يتأمل، للحظة قصيرة، بهاء ذاتيته الأساسية، مع أنه قد لايدرك مايحدث. وهذه واحدة من أكبر العقبات التي تعترض سبيل تنمية الوعي والشخصية، لأن الفرد ينصهر بالرسائل والمثيرات الخارجية، ويصبح موقتاً جزءاً منها. وهذا هو سبب إلغاء وظائفه المهمة المميزة، وقبوله السلبي للرسائل التي تتمتع بقوة إيحائية كافية، كما يحدث، مثلاً، للرسائل التي تأتي من مصادر سلطوية عليا أو من مقام اجتماعي أو أكاديمي. وبهذه الطريقة، يخضع للتجارب بدلاً من أن يكوِّنها، أي يصاغ سلبياً من قبلها، ويصبح مجرد ملحق لقدرتها على التكييف. والنتيجة الأكثر إثارة لهذه الحالة هي العجز عن التصرف بطريقة واعية بحق، أي، في حالة من الوعي الأعلى الذي يساعده على أن يغيِّر، أو يختار، أو يبدع بحرية واستقلالية معظم الأنماط الملائمة من السلوك، في حين يتوجب عليه أن يقنع نفسه بأن يكون منفذاً سلبياً لأوامر الظرف الوجودي.

ومن الواضح أن هذه الالية تمنع المرء من تطوير صفات أعلى للشخصية، التي تعني أولاً تحرير الـ "أنا" من الخضوع إلى التأثيرات البيئية، وهو تدريب ليس من السهل أبداً إنجازه. فالضرورة تقضي بتشكيل الشخصية في مدرسة الحياة، لأنه يترتب على المرء أن يواجه باستمرار الصعوبات والعقبات بحيث لاتبقى مزعجة له أو تجعله يفقد توازنه الداخلي، بل، على العكس، يمكن أن تصبح عاملاً مغذياً قوياً لتصليب إرادته.

والمشكلات، بشتى أنواعها، يمكن أن تكون ، مصدراً للنشاط أو الضعف، اعتماداً على طريقة معالجتنا لهذه التجارب. وعندئذ، نتعلم كيف نحافظ على الهدوء في وسط العواصف، ونحترم حقوق الجميع، ونحتفظ بالرصانة في حال النجاح والضيق على حد سواء، وألا نترك أنفسنا عرضة للتأثر بالمظاهر، وأن نتفادى الرثاء للذات والانغماس في الملذات، وأن نحافظ على المرونة كشجرة الحور في العاصفة، وأن نتحلى بالصلابة والثبات في أكثر الظروف اختلافاً وصعوبة عن طريق المحافظة على سلامة الفضائل الداخلية والشفافية-هذا لكوننا ناجحين في صياغة شخصية متفائلة، وبالتالي، في أفضل موقع للتصرف وفقاً لأكثر النماذج الأخلاقية رفعة.

إن الذين يتهربون من تحديات الحياة، أو يمرون عبرها فاتري الهمة أو بصورة سلبية محكوم عليهم بضعف الشخصية ووهنها، وتخلخل قوة الإرادة في مواجهة العديد من المتطلبات الخارجية.

وكثيراً مايخلط البعض بين قوة الإرادة وقوة العواطف، ظناً منهم بأن الفرد الذي يستحوذ عليه الطموح، أو الطمع، أو الكره، ويُظهر قوة ترعب الجماهير أو تقهرها قد حقق هذا من خلال قوة إرادته. ولكن الصحيح هو أن من يخضعون لسلطان دوافعهم وعواطفهم الخسيسة إنما يفعلون ذلك رغماً عن إرادتهم، لأنه لايمكن فهم الإرادة في معناها الحقيقي إلا كقوة في خدمة الروح والخير، لاقوة تخريبية.

ومن يحاول تنمية قوة إرادته بقصد إخضاع زملائه، أو الاعتداء على حقوقهم، أو انتزاع ممتلكاتهم، إنما هو يخدع نفسه وينثر بذور انتحاره، لأن أي شيء يأخذه "بسبب الرغبة" إنما يستجيب فعلاً لتأثير أكثر دوافعه الحيوانية انحطاطاً، حتى أن سلوكه سيسوقه تدريجياً إلى حالة دون بشرية.

يتظاهر كثير من الناس بأنهم يتمتعون بـ "شخصية قوية جداً" ولا يجدون عادة صعوبة في التقدم في الحياة، ولكن مايدفعهم، في الواقع، هو جشع غريزتهم الحيوانية وافتقارهم التام للمعايير الأدبية والأخلاقية.

تتناقض هذ الظاهرة مع حالة الأفراد الهيَّابين اللامبالين، الذين هم، رغم ذلك، مسالمون وشرفاء وتصرفاتهم سليمة في العادة، ولكنهم يفتقرون إلى القوة لإنجاز أعمال مهمة في الحياة.

وهذا هو السبب في أننا نواجه عادة أشخاصاً "سيئين" (بالمعنى الأخلاقي) يتمتعون بالقوة، وأشخاصاً "طيبين" يفتقرون إليها. ويمكن مشاهدة هذا التناقض حتى في السينما والأدب عندما يبدو لنا أن الأبطال يتمتعون بمكر لاحدود له وعن طريقه يعملون بسهوله على خداع ضحايا مستقيمين غير أنهم بلهاء، ولكن هؤلاء الأبطال هم عادة ضعفاء ومترددون. ويساعدنا هذا على فهم الطبيعة الحقيقية للإرادة، كنقيض للعاطفة الحيوانية. فالعاطفة الحيوانية هي مجرد تعبير للغرائز البهيمية عند الإنسان، تلك الغرائز التي لاتحتاج إطلاقاً إلى جهد من قبل البطل.

إن قوة الإرادة، في أسمى معانيها، تماثل القوة التي يتم تطويرها بصورة واعية واختيارية لهدف أساسي هو التغلب على الذات (ذات الطبيعة الأكثر انحطاطاً) للتصرف باستقامة، ومقاومة الإغراءات اللاأخلاقية.

وعندما يتصدى فرد للسيطرة على نفسه أو التحكم في شخصه، فإنه يترتب عليه أن يحشد كامل طاقاته ويسخرها لأمر "أناه العليا" (الـ "أنا الجوهرية" مقابل الـ "أنا" الاجتماعية)، التي تحرره من العواطف وتؤهله لمقاومة قوى الانحلال والفوضى. كان من قبل يعرف فقط ماذا يرغب، أما الآن، فإنه يتعلم ماذا يحتاج، وهكذا، يصبح في وضع يساعده على إنجاز كل عمل يباشره في الحياة، إذا كان يتمتع بالجدرات المسبقة اللازمة لإنجازه، الجدارة التي تتضمن ليس فقط المؤهلات الشخصية التي حققها، بل أيضاً مستوى النزاهة في الجهد الذي بذله.

"حيث تكون هناك إرادة، تكون هناك وسيلة، " هذا مثل تقليدي ولكنه غير موثوق، ويصبح واقعياً عندما يعمل الفرد، بعد أن يكون فهم الاختلاف بين الرغبة والحاجة، على التقدم والمحافظة على هدف محدد بقوة إرادة حقيقية. والقوة الحقيقية للإرادة لاتولد من مجرد الرغبة أو النية، بل من الصبر والمثابرة في بذل التضحية والجهد، ولهذا، فإن هذا المثل لايلائم الخامل الذي لايريد أن يضحي براحته اليومية ويكتفي بما يُلقى إليه من فتات الحياة اليومية. إنه لاينطبق على من اختاروا بأنفسهم أن يكونوا ضعفاء، الذين اختاروا مقاربة الاكتفاء بالفتات لكي يشعروا برعاية المجتمع وحمايته لهم. ولكنه ينطبق على من تحرروا، بعد أن حاولوا اختبار شتى وصفات النجاح، من وهم النزوات غير الواقعية التي تعرضها العقلية الاستهلاكية (الحصول على الشيء بسرعة وسهولة)، وأصبحوا على استعداد لسلوك سبيل التضحية والزهد، الذي يستلزم أحياناً دماً، وعرقاً، ودموعاً، وهو ثمن تافه مقابل العدد الصافي من الأهداف التي يمكن تحقيقها.

هناك قدر كبير من الارتباك حول من هو الزاهد، لأنه يُعرَّف دائماً برياضات دينية صارمة تقتضي ضمناً التخلي عن كافة الأشياء الدنيوية والملذات الجسدية. والحقيقة هي أن هذه التمارين، في معناها الحقيقي، تحاول أن تعمل كمساعد لوضع الشهوات الجسدية بتصرف الـ "أنا" والروح، بحيث تستطيع الروح أن تُظهر نفسها في الواقع الجسدي في اللحظة الحاضرة، أي أن تشارك في اللذة الصحية وتنبذ اللذة القذرة.

إن حيازة السلع المادية، شأنها شأن ممارسة الملذات المختلفة، تصرف غير مناسب عندما تستعبد الـ "أنا" وتستلبها، ولكنها لاتشكل خطراً عندما تكون في خدمة الروح وعندما تكون هذه الملذات بريئة وصحية.

يمكن فقط لمن يعمل على تصليب إرادته بطريقة عميقة ورفيعة أن يختار بحرية وطواعية حرمان نفسه من خير ظاهري أو أقل في سبيل توخي الخير الأسمى: سعادة متواصلة لعالم داخلي مستقر مطمئن. فالجنة موجودة، إنها عالمنا الداخلي عندما نؤثر فيه، ونتسامى به، ونُنَمْزجُه. وهي موجودة حيث يتمثل الإله بالشرارة المقدسة التي نمتلكها كلنا، ولكن علينا أن ندخل تلك الجنة ونحن على قيد الحياة لابعد أن نموت. هذه هي المكافأة الأسمى للأخلاقية المتسامية لـ الطبيعة، لأنه عندما ندخل هذه الجنة الداخلية، فإن "كل شيء يُعطى لنا كنتيجة طبيعية."

8-عش حياتك منسجماً مع الطبيعة

الطبيعة هي الكل الكوني الذي فيه نعيش ونُقحَم، وإذا أردنا أن نعيش حياة حافلة ناجحة، فإنه يجب علينا أن نحترم شرائعها. هذه هي الأخلاقية في أعمق معانيها. وفيما يلي بعضاً مما تكلفنا به:

- لاتحقد.
- لاتكن ممتعضاً أو حاسداً.
- لاتحاول الحصول على مالا تستحقه.
- لاتتظاهر بجنس لم تعطك إياه الطبيعة.
- لاتخدع إخوانك البشر ولا نفسك.
- لاتحاول إمتاع نفسك جنسياً بجسدك.
- لاتحقر أخاك الإنسان ولا تفتر عليه.
- احترم بوعي كل شكل من أشكال الحياة.
- احترم حقوق جميع الكائنات الإنسانية، أياً كانت طبقتهم، أو آيديولوجيتهم، أو عرقهم، أو لونهم.
- احبب روحك لأنها فيض الإله على الأرض.
- احترم الشيوخ وساعدهم.

- مارس أكثر الفضائل سمواً.
- احبب وطنك واحترم بعمق بلدان العالم كافة.
- ابتعد عن كل أنواع الانحرافات.
- اشجب كل أشكال القسوة غير الضرورية.
- قاتل دفاعاً عن كرامة الإنسان.
- استنكر كل أشكال الاستغلال.
- كافح إلى أقصى ماتستطيع في سبيل التطور روحياً.
- ليكن لديك مثل أعلى موضوعي لفائدة الجنس البشري.
- تحاش النفاق.
- لاتعامل الآخرين بما لاتحب أن يعاملوك.
- لاتستمع إلى الخبيث من الإشاعات، والفضائح، والافتراءات، والشتائم.
- اعتن بجسدك واحترمه لأنه المكان الذي تستوطنه الروح.
- كن نشيطا، وسريعاً، ومجداً في إنجاز واجباتك.
- ازرع ماتريد أن تحصد؛ لأن من يزرع الريح يحصد العاصفة.
- احترم الطبيعة في مظاهرها كافة.
- محّص كلامك ولا تتلفظ بشيء يمكن أن تندم عليه فيما بعد.
- حاذر أن تؤذي أحداً بكلامك.
- ارفع من مستوى درايتك.
- التزم بالخير وعاهد نفسك على الإخلاص.
- دافع دائماً عن الحقيقة والعدالة.
- تضامن مع المظلومين دون وجه حق.
- حافظ دائماً على الوعد.
- اشجب الفن الإباحي وأي نوع من الرذيلة.
- احم نفسك من الحسد والامتعاض والغيظ.
- انسجم مع الناس ولا تسبب خصاماً انفعالياً مع أي كان.
- ابذل جهداً كي تبقى هادئاً في وجه الإهانة، والأذى، والافتراء.
- حرر نفسك من مشاعرك وأفكارك السلبية.

- ابذل الحب لنفسك، وللآخرين، ولكافة أشكال الحياة، إنما بروية وليس على نحو آلي أو متهور.
- اجمع الجدارة في حياتك تلق جزاءك.
- لاتقترف أفعالاً جائرة أو غادرة لأن الطبيعة ترد بمكافىء لكل شيء يوجه إليها.
- لاتكن مغروراً أو مختالاً لأنك ستخدع نفسك؛ حاول أن تكون قليل الأهمية ولكن كن واعياً لقدراتك وقابلياتك.
- اشكر الخالق يومياً لما أنت عليه ولما تملك.
- لاتجبن أمام مايبدو شراً في ظاهره ولا يخدعك ما يبدو خيراً في ظاهره.
- كن مرحاً، ومتفائلاً، وإيجابياً؛ واضحك كثيراً.
- استخدم الجنس ولا تدعه يستخدمك.
- لاتبدد الوقت في محاولة التنبؤ بالمستقبل، لأنك قادر على كتابة مستقبلك.
- اهرب من الانغماس في الملذات ورثاء الذات.
- لاتقلق حول عيوب الآخرين، وعليك أن تهتم فقط بعيوبك الخاصة.
- كافح في سبيل وحدة الأسرة وحافظ عليها؛ ولكن عليك أن تحافظ على هويتك الخاصة.
- حاول أن تعيش حياة متقشفة، وهادئة، ومنظمة.
- سيطر على نفسك كي يمكنك أن تحتفظ بالسلام في عالمك الداخلي.
- تفاد الاكتئاب والحزن لأنهما مصدر السلبية ورثاء الذات.
- ابتعد عن الشكوى؛ فأنت تملك ماتستحقه. وإذا كنت تريد المزيد، فعليك أن تكون صالحاً للمزيد.
- عليك أن تتحمل مسؤولية حياتك ومسؤولية تصرفاتك كافة.
- واجه المشكلات ولا تهرب منها.
- عليك أن تحب الحقيقة والواقع كما تحب نفسك؛ ولاتكذب على نفسك.
- كن عادلاً ولا تتحيز.
- اهرب من إدمان المخدرات لأنها طعم الشيطان.
- احترم القانون وكن مواطناً نموذجياً.
- لايغرنك الخير الظاهري.

- كن حذراً عندما تطالب بالعدالة السماوية، لأن ماتظن أنك تستحقه قد يُؤخَذ منك بنسبة أكبر مما أُخِذ حتى الآن.
- احترم تُحتَرَم؛ احبب تُحَب؛ اسرق تُسرَق؛ اكذب تُخدَع.
- احترم شريعة الكون، تلق جزاءك.

تبدو هذه القواعد كثيرة جداً، أليس كذلك؟ ولكنها، في الواقع، ليست هكذا، بل مازال ينقصها الكثير، مع ذلك، يمكن اكتشاف المفقود بعد ممارسة القواعد التي أوردناها. وعلى المرء أن يضع في اعتباره مدى المكافأة التي يمكن أن يحصل عليها باحترامه لأخلاقية الطبيعة الكونية واستخدامها بدقة، مما يؤدي إلى الخير الأسمى والسعادة الدائمة.

إن القائمة أعلاه ليست مجرد مجموعة من التوصيات؛ بل هي تجميع لبعض أنماط التغذية الراجعة للطاقات الغامضة بين الإنسان والطبيعة، تلك الطاقات التي لانعرف عنها إلا القليل.

وهذه القوى، على الرغم من كونها أثيرية، إلا أنها مادية وفيزيائية تماماً وليست طاقات غريبة بحيث يمكن عزوها إلى ظواهر خارقة. أشير ببساطة إلى نبضات الإشعاع الفوتوني التي تولّدها تصرفات الناس، وأفكارهم، ومشاعرهم، التي تغادر أجسامهم الفيزيائية لتغوص في الكون بسرعة تماثل، على الأقل، سرعة الضوء.

تشير الآلية الفيزيائية للأخلاقية إلى الحالة الأنثوية أساساً للطبيعة التي، هي كرحم كوني، حبلى بنبضات الفوتونات التي تنبعث من الناس وتحمل المعلومات الاهتزازية لعواطفهم الخاصة، لكي تعيد إليهم المكافىء لما صدر عنهم. إن الكائن الإنساني مغمور في كون تجسيمي يحتوي كل جزيء منه ذاكرة الكل، وجسم المرء هو العالم المصغر الذي فيه تولَد شتى الظواهر الكونية.

ويرتبط كل فرد بخيوط غير مرئية إلى الوحدة الكلية للكون، وما يرسِّبه اهتزازياً إلى الخلق يرتد إليه بنسبة أكبر.

والأخلاقية ليست أكثر من علاقة العلة والمعلول للعملية الأبدية، الاهتزازية والفعالة بين الفرد والكون، فيها "من يخطىء يدفع" قاعدة حتمية لامردَّ لها.

الطبيعة لاتسامح بمعنى تسوية حساب الإحسان أو الشفقة، لأنها لو فعلت هكذا،

لدمرت نفسها بوقوفها ضد قوانينها. وأي فرد يتصرف بطريقة إجرامية لاأخلاقية، أو ضد الأخلاقيات الكونية لـ الطبيعة، فإنه سيتلقى حتماً جزاءه العادل، أي، يعاقب نفسه بحقيقة كونه انتهك قانون انسجام الكون.

ونحن قلما ندرك هذا، لأننا لانربط الحوادث التي تحدث في حاضر حياتنا بالسلوك الأخلاقي الذي كان سائداً في الماضي، ونظن أن شتى الحوادث الشخصية تخضع فقط للقدر أو المصادفة الصرفة. والحقيقة هي أننا نحصد مانزرع، وإذا كنا نريد حياة أفضل، فإنه يجب أن نزرع بذوراً أفضل.

إن من يسخرون من هذه القوانين أو يحطون من شأنها عندما يسمعونها لن يستطيعوا التملص من أن يتلقوا باستمرار ثمرة نبضاتهم الفوتونية المألوفة. يجب أن ندرك أنه مادامت هذه هي مسألة الطبيعة، فإنه ليس هناك توبة أو نية حسنة يمكن استخدامها لهذه الغاية، ولكن مايؤخذ في الحسبان هي التصرفات الحسنة أو السيئة للفرد.

إن مايجعل إدراك هذا النمط من العدالة الطبيعية صعباً بالنسبة لنا هي حقيقة أن من يتصرفون على نحو سيء يبدون أحياناً ناجحين تماماً، ولكن علينا أن نسلّم بأنه لايمكن الانزلاق إلى مجرد آراء مبسطة عند تحليل سبب محدد وتأثيراته الممكنة في حياة الفرد، لأنه لكي نتنبأ بالمستقبل، يجب أن نتعامل مع عدد كبير من الأسباب، نظراً لترابطها وتأثير بعضها ببعض.

الطبيعة لاتتسامح أبداً مع من يقترف الخطأ، ولكن المقترف يستطيع أن يقوم بعمل ما لتخفيف أو تقليل تأثيرات تصرفاته الخاطئة، عن طريق تكريس نفسه للمحبة والخير، وتقديم المساعدة الغفل إلى زملائه. إن هذه الحالة تشبه حالة شخص يزرع عليقاً شائكاً، وهو نبات يخنق النباتات الأخرى أو يقتلها، وعندما يدرك خطأه يحاول القضاء على العليق الشائك، وعندما يفشل، يقرر أن يزرع قمحاً في مكان آخر، قمحاً ما أن يتم طحنه إلى دقيق حتى يصبح خبزاً يغذي الجائعين.

إن أهم مايتوق إليه المرء فيما يتعلق بتصرف شرير كان قد قام به في الماضي هو تخفيف آثاره عن طريق تكريس نفسه لفعل الخير، لأن الطبيعة ستعيد كلا النوعين من النبضات الفوتونية بشكل متكافئ. فالمرء يمكن أن ينجح في الحياة فقط إذا احترم بصدق الانسجام الكوني.

أشير هنا إلى النجاح الكلي الدائم الذي يحرزه من يقرر بفعالية أن يسلك سبيل الارتقاء العمودي الصاعد الذي رسمه الخالق، وبالتالي، يحمل الروح، والجسد، والعقل على التطابق في الزمان والمكان نفسيهما. هذا يعني أن الفرد بوصوله حقاً إلى الكمال الروحي، الذي هو الهدف النهائي لوجوده الجسدي، يكون أيضاً حراً، إلى مدى بعيد، في البت بظروفه المادية.

يجب أن نتذكر أن من يصل إلى السماء سيمتلك كل مايعطى له كتحصيل حاصل، لأنه عندئذ سيكون قادراً على أن يختار خطة وجوده الخاص.

وأي نجاح لايتضمن إنجازاً روحياً هو مجرد نجاح ظاهري، وعابر، ومتلاش، في حين أن عالم الروح خالد، ويتسامى فوق الزمان والمكان لأنه المستوى الذي تكونت عنده الحياة. وأفضل تثمير يمكن أن يقوم به المرء يكون في تنمية الروح، لأنها الشيء الذي لانخسره أبداً، بل يزداد بدلاً من أن ينقص. فالممتلكات المادية، والشهرة، والأبهة، والمجد، والمتعة كلها حبيبات رمل تذروها رياح الزمن، وأقصى مدى لصمودها لايتجاوز المدى الضئيل لحياتنا الجسدية.

ولكي نفهم القواعد الأخلاقية على نحو أفضل، يجب علينا أن نحلل باختصار بعض الوصايا التي أتينا على عرضها آنفاً:

لاتحقد (لأن حقدك سيرتد إليك مضاعفاً مئات المرات). فالحقد طاقة تترافق مع قصد تدميري، يطبع اهتزازه المعلوماتي على المجالات المغنطيسية عند من يَخبُره، وتعمل حدته العاطفية كقوة وقائية لنبضات الفوتونات من نمط تفكيكي تجزيئي ترتد، في حينه، إلى المصدر الذي أرسلها بنبضة تدميرية مكثفة. وبهذه الطريقة، يجب على من لايستطيع أن يسيطر على طبيعته الحاقدة أن يدرك الثمن الفادح الذي يتحتم عليه أن يدفعه لقاء ذلك، كإفساد أو تدمير حياته، أو صحته البدنية أو العقلية، أو أكثر أوهامه الأثيرة.

لاتحاول الحصول على مالا تستحق (لأنك تحاول اقتراف جريمة السرقة). يقول قانون المكافىء المساواتي إنه يجب أن ندفع ثمن كل شيء نريد أن نمتلكه، وأن الطمع بشيء يملكه شخص آخر لايستحقه يشبه السرقة، وأن من يسرق سرعان مايُجرَّد من أشياء أخرى عند إصلاح التوازن الطبيعي الذي خرقه الطامع.

لاتحاول إمتاع نفسك جنسياً بجسدك (لأنك ستزداد أنانية وتصبح الطبيعة زوجة أب أنانية لك).

احترم الشيوخ وساعدهم (وسيساعدك الآخرون في شيخوختك).

استنكر أنواع الانحرافات كافة (لأن الانحراف مضاد للطبيعة، والطبيعة تدمر، بطرق عديدة معقدة، مالا يتفق مع المعلمات المتجانسة للحياة).

لاتعامل الآخرين بما لا تحب أن يعاملوك (لاتعمل للآخرين مالا تحب أن ترده الطبيعة إليك مضاعفاً).

ارفع مستوى درايتك (الذي سيساعدك على التصرف على نحو أكثر وعياً وخلقاً).

دافع دائماً عن الحقيقة والعدالة (وستقدم لك الطبيعة مساعدتها).

حرر نفسك من المشاعر والأفكار السلبية (لكي لاتستجر المكافيء مضاعفاً).

احترم شريعة الكون، تلق جزاءك (عليك أن تعيش منسجماً مع الطبيعة فتحقق الخير الأسمى).

إن التفكير في هذه القواعد يساعد المرء على إدراك أن الكائن الإنساني مبدع إلى حد فائق، على الرغم من عجزه عن التحكم نوعياً بطاقاته، التي يقذفها إلى الفضاء الكوني لتعود إليه بعد زمن معين، فتؤثر على حياته سلباً أو إيجاباً، وفقاً لنمط اهتزاز القوة التي أُرسِلَت أصلاً. وفي هذه الحالة، إن أقل مايهمنا هو حقيقة ماإذا كنا نؤمن بهذا التعليل أم لا، فلا ضرورة أن يكون لدى المرء إيمان بـ الطبيعة لأنها تنفذ أوامرها الخاصة، وهي لن تحجم عن التصرف، فقط لأن المرء يشك بتأثيراتها.

يتلقى الناس حتماً عقابيل تصرفاتهم الخاصة، فيثابون على تلك التي تتفق مع الانسجام الكوني، ويُعاقبون على المتنافرة والتخريبية منها. ويحدث هذا ليس لأن الإله يزعج نفسه في مثوبة أو عقوبة كل واحد، بل لأن منتهكي القواعد يعاقبون أنفسهم، لأنه بانتهاكهم للقواعد الثابتة، يعطلون توازن الطبيعة، ويجب استعادة توطيد هذا التوازن عن طريق تحييد المنتهك.

الأخلاقية مفيدة، لأن أفضل "صفقة" (استثمار المرء لوقته وطاقته على أفضل وجه) هي التصرف باستقامة، أي احترام القيم المتسامية التي تعزز الحياة في الكون.

9-اعمل وفقاً لقانون المكافئ المساواتي

يعني هذا، مبدئياً، التصرف وفقاً لما هو عادل، إلى أبعد من الميول أو الراحة الشخصية، وذلك عن طريق احترام المرء موضوعياً لحقوق زملائه وقواعد الطبيعة، موفّقاً بين مايعطيه وما يقصد أن يتلقاه. ولكي يمتثل المرء لهذا المبدأ البسيط جداً، يحتاج إلى محاكمة داخلية تامة التطور تساعده على رؤية نفسه بصورة صحيحة وموضوعية، لأنه يحمل عادة مفهوماً مضخماً لجدارته الخاصة وفي الوقت نفسه، يتعامى عن عيوبه، حتى أنه لايستطيع أن ينتقد نفسه بالشكل المناسب أو يقيِّم بدقة مدى جدارته الحقيقية.

عندما تلوح للفرد رؤية خير وشيك، فإنه يعميه الطموح ويعجز، مهما حاول، عن تقدير ماإذا كان ما أُعطي له سابقاً، أي، استحقاقه، يكفي من حيث قيمته لكي يأخذ مايريده دون أن يثير عدم توازن في الطبيعة.

يعيش أكثر الناس في شعور دائم بأنهم يعانون من الظلم، بمعنى أنهم يستحقون أكثر بكثير مما نجحوا في أخذه من الحياة، وهي قناعة ليس لها عادة أساس منطقي بل تخضع لغرورهم في الإفراط بتقييم أنفسهم بطريقة لاواعية أبداً. فالفرد يظن أن له بعض الحقوق وهذا يقوده إلى طرح مطالب لاواعية، وعند عدم حصوله على الإشباع الذي ينتظره، فإنه يصاب بالإحباط، والتعاسة، والامتعاض.

تشكل هذه القناعات أرضاً خصبة لـ "مهندسي الحسد"[1] لتشجيع التبرم والاستياء الاجتماعيين، عن طريق استخدام أحابيل الاتصال السحرية بحيث يتلاشى مفهوم الجدارة السابقة التي تعتمد على العمل والجهد الشخصيين ويستبدل بنوع من قناعة خرافية أساسها حق الولادة المزعوم أو العدالة العامة. وهكذا، يفترض حتى من هو أكثر كسلاً وإهمالاً أنه، لمجرد كونه عضواً في تجمع سياسي أو نقابي يتمتع بشيء من السلطة، يحق له التمتع بالمستوى نفسه من الرفاه كأي شخص آخر أكثر نشاطاً وجدية وأفضل تدريباً. وعندما تكون قواعد لعبة الحياة غير واضحة، فإنه تظهر شتى أنواع الإرباك، والإحباط، والظلم الظاهري.

يقول واحد من أكثر معايير الوجود أهمية: بقدر ماتعطي تأخذ. والذي يحدث هو أن الناس يبالغون عادة في تقدير مدى جهودهم والأهمية النوعية لمواهبم الشخصية، مما يؤدي بهم

1-من كتاب الحسد المساواتي لـ فرنانديز دو لامورا.

حتماً إلى إحساس ذاتي بأنهم يعطون الكثير ويحصلون على القليل جداً. ولكن، عندما نلاحظ هذه الحالة من الخارج بصورة موضوعية، ندرك أن هذا القليل كثير جداً مقارنة بما يبديه الفرد من عدم فعالية، أو لامبالاة، أو إهمال، أو افتقار إلى التدريب.

إن الأنانية الجشعة عند الفرد، وافتقاره إلى الموضوعية، والتحرك بما يلائم راحته، ونرجسيته، وافتقاره إلى الكرم، كل هذا يشجع الخرق المتواصل للمكافىء المساواتي، الذي يتمثل بإعطاء قيمة ما وتلقي مايتناسب مع ذلك العطاء. ويرفض الناس احترام مفهوم ماهو عادل، ويتلاعبون بهذا المعيار لكي يقلبوا التوازن بصورة غير شريفة وبالقوة لمصلحتهم. وهناك قلة قليلة جداً ممن يريدون أن يعطوا شيئاً ذا قيمة حقيقية دون ميل إلى استقبال قدر مهم من الفائدة أو فائدة أعلى بشكل غير متناسب، وكما أن لسوق العرض والطلب ترتيباتها وتنظيماتها الخاصة، كذلك نجد كثيراً ممن يعانون من إحباط كبير يؤدي عادة إلى ادعاءات بالظلم، أو الغضب، أو الامتعاض، أو الحسد.

وهناك، بالمقابل، الزيادة المتواصلة في عرض شتى البضائع والسلع التي تحض المستهلكين على الجشع، والموقف اللاحق للثورة ضد ضرورة أن يدفع المرء ثمن مايريده. إن السهولة الظاهرية التي بها يصبح الناس أغنياء وتجاهل حجم العمل السابق الذي ينهض به الناس الميسورون، يتناقض، إلى حد أبعد، مع عجز من لاينجحون في الحياة، وهكذا يزداد الإيمان بالعدالة الاجتماعية أو السماوية. إن من يلتمسون العدالة لمجرد كونهم يفتقرون إلى شيء ما، دون اعتبار عادة لأي تحليل لكفاءاتهم بمعنى تقييم ماإذا كانت تلك الكفاءات تستحق فعلاً حجم الشيء المرغوب.

يحمل كل شخص عادة في داخله اعتقاداً خرافياً بأنه يمتلك نوعاً من قرار أو امتياز بوصية من الرب، إنه هاجس داخلي يجعل ذلك الشخص مختلفاً تماماً، وفريداً، ومميزاً، مما يعطيه الحق بالمطالبة بامتيازات خاصة.

وباختصار، هناك العديد من التبريرات المختلفة التي تقود الناس إلى التلاعب بتوازن الطبيعة أو ازدرائه، والتهرب من الالتزام بدفع ثمن مكافىء لما يريدون الحصول عليه أو امتلاكه. فهناك من يستسلمون للإغراء اللاأخلاقي بالتلاعب بالدفع، ويكتشفون في وقت متأخر من حياتهم أن هذا ليس ممكناً، لأنه عندما يظنون أنهم حققوا ذلك في النهاية، فإنه يصبح مجرد دعابة سمجة، كسراب واحة في صحراء.

وعندما نتصرف بصورة لاأخلاقية، فإننا نفتقر إلى القوة واعتباطيتنا وحدها هي التي تساندنا، ولكن عندما نتصرف وفقاً للقوانين الكونية البنائية، فإن تلك القوانين هي التي تساندنا بشكل فعال، وآمن، ومتسام ويمكن أن نتمتع بالقوة التي تعمل وفقاً للعدالة التي تقدمها لنا. وعندما نغش في الدفع الذي يتطلبه المكافىء المساواتي، فإن الطبيعة ستعمل، عاجلاً أو آجلاً، بالضد من أفعالنا، لكي تبطل هذه الاعتباطية، وبالتالي، تعيد توطيد التوازن الكوني. ويبدو لنا أحياناً وكأن النصابين، والمحتالين، ومنتهكي القانون قد نجحوا، ولكنهم دائماً يسقطون تحت الرحى الكونية التي تطحنهم إلى غبار تذروه الرياح.

يجب ألا نستسلم أبداً لإغراء الاستهزاء بالإسهام المطلوب الذي يتحتم علينا أن نبذله لتحقيق مانريد. وعلى العكس، دعونا نكدس الجدارة تماماً كما يكتنز الآخرون الأموال في المصرف، لأن الجدارة الفردية هي التي تساعدنا على التصرف دائماً وفقاً لشريعة الطبيعة الكونية. تعالوا ندفع بسرور؛ فإن حجم حرماننا سيكون مكافئاً لبخلنا، في حين أن الكرم الرصين المتوازن يؤدي بنا إلى حالة مستمرة من الجدارة الفردية تؤهلنا لتحقيق أهدافنا بصورة طبيعية ومتناسقة.

هناك حقيقة تقول إن جزءاً مهماً جداً من الجنس الإنساني يمتلك روح لص، بمعنى أن هذا الجزء يعتقد أن امتلاك سلع الآخرين عن طريق العنف وعدم الاستقامة هو عمل عادل أكثر منه اغتصاباً غير شرعي. هؤلاء الناس أنفسهم يحوّلون أسلوب الحياة الطبيعي إلى أسلوب غير شريف ويرحلون عن هذا العالم كمواطنين محترمين بينما تبقى مكائدهم الخادعة محجوبة. ومن الواضح أن جميع من يقعون في لعبة عدم الاستقامة يهزؤون ساخرين من مفهوم المكافىء المساواتي، أو يعتقدون بعناد أنهم في حالتهم إنما يطبقون بالشكل الملائم التناسب بين الجدارة السابقة والمكافأة التي يجدون في طلبها.

لاشك في أن لكل شيء يريد الفرد تحقيقه ثمناً وعليه أن يشتريه ويدفع ثمنه، سواء بالمال أو بجهد مكافىء، وليس هناك طريقة أخرى يمكن فيها التملص من هذا الالتزام.

والمكائد المستخدمة في هذه اللعبة تعتمد على التلاعب العقلي المصمم لتجريد قيمة أو ثمن مايريد الفرد حيازته من أهميته أو الحط منها، أو يبالغ في تقدير جدارته، وكلتا المكيدتين تهدفان بمكر، في الواقع، إلى تلويث التناسب المساواتي.

يجب أن نضع في اعتبارنا أن قوانين الكون في جوهرها قوانين تجارية. وعلينا جميعاً أن

ندفع ثمن وجودنا بمعنى أننا نسدد للطبيعة ثمن خلقنا. فكل مايتفاعل في الكون يمتثل لنوع من مقايضة من خلال تبادل السلع أو القيم الطبيعية التي يدفع المرء ثمنها بما يتناسب مع كميتها النوعية.

دأبت الجماعات التي تهتم بالتأثير على الحشود منذ وقت طويل على العمل بإفراط على نشر الفكرة الديماغوجية التي تقول إنه يجب أن تكون هناك أشياء مجانية، وهو مفهوم غير موجود في مستوى الطبيعة أو الواقع الاجتماعي، وقد ابتُكر هذا المفهوم بهدف وحيد هو إثارة الهياج عند الحشود لكي يقبضوا نقداً ثمن سخطهم.

وكما قلت في فصول سابقة، إن وسائل الإعلام والدعاية تحاول أيضاً، وبصورة مقنَّعة، أن تجعلنا ندرك أنه يمكن بسرعة وسهولة الحصول على السلع المرغوبة بمجرد التقدم بطلب قرض مصرفي. فالتكرار المتنوع الذي لاينتهي لهذه الأنماط من الرسائل يفسد مبدأ المكافىء المساواتي في عقولنا، لأنها تنتهي إلى إقناعنا في مستوى اللاوعي بأنه يمكن بسرعة، وسهولة، وبساطة الحصول على السلع التي نريدها. وعندما ندرك أن الأمور لاتسير على هذا النحو على أرض الواقع، يصبح من المنطقي أن نسلّم بأننا كنا ضحية دعابة أو إهانة قاسية. وبطريقة ما، ينتهي الكائن الإنساني إلى الاعتقاد بأن الحياة يجب أن تكون سهلة وعندما لايحدث هذا، فإنه يعزو السبب إلى كائن شرير يتدخل في عيشه.

هناك متلازمة شغف وثقة فيها يمكن الحصول على كل شيء دون جهد، وهو ميل عصابي عند المستهلك الذي يتوقع أن يكون كل شيء مناسباً، وسهل المنال، ومريحاً، ودون عوائق. ومن المحتمل جداً أن يكون هذا الاتجاه نشأ، في البداية، من ملاحظة الطبيعة والسهولة الظاهرية التي فيها تظهر النباتات، والأشجار، والأزهار، أو تكاثر الحيوانات، والطيور، والحشرات. والحقيقة هي أن الإنسان، على خلاف الحيوان والنبات، لايمكنه أن يعتمد على حماية الطبيعة، ولذلك، يترتب عليه أن "يكسب خبزه بعرق جبينه، " كما يقول التكليف التوراتي. وبما أن هذا المفهوم هو المفهوم الوحيد المنطقي، فإنه لايتماشى فقط مع مايجب أن نقوم به للحصول على رزقنا اليومي، بل أيضاً على كل السلع المحسوسة وغير المحسوسة التي نريد أن نمتلكها." وكسب الخبز بعرق الجبين" هو، كما نفهم، تكليف يعني دفع ثمن السلع والقيم التي نريد حيازتها. إن واحداً من الاعتبارات الواقعية المتأصلة لمجرد حقيقة كون أحدنا على قيد الحياة هو أن الوجود يتألف من سلسلة متصلة من المشكلات

التي يجب مواجهتها، والزمن والجهد اللذان يبذلان في حلها هما العملة المتداولة التي تتقاضاها الطبيعة لقاء السلع التي توفرها.

ومن المنطقي أنه كلما كان الشيء أكثر أهمية، أو ندرة، أو قيمة، كان الثمن الذي يجب أن ندفعه للحصول عليه أعلى، ويجب أن نقبل هذا في أعماقنا إذا أردنا أن نحقق النجاح في الحياة.

إذا دفعنا بسرور ثمن ما نريد دائماً سلفاً ، فإن الحياة ستكون مثل أم رؤوم تغدق علينا خيراتها الأكثر جمالاً وأهمية. وإذا كنا بخلاء، فإن الطبيعة ستكون زوجة أب قاسية شحيحة نستجديها دائماً كسرة الخبز. وفي الواقع، إن الكائن الإنساني يعكس عادة ترتيب العوامل في هذا النمط من الأمور، عن طريق تفكيره بأن يأخذ قبل أن يعطي؛ يريد أن يحصل على المال قبل أن يباشر العمل، ويحظى بحب الشريك قبل أن يفكر بالحب، ويلتمس أن يفهمه الآخرون قبل أن يفهمهم، وينال المودة والصداقة دون أن يبذلهما مسبقاً.

يظن المتعضون أن العالم مدين لهم بشيء ما وأنهم ضحايا الظلم، وهذا هو عادة سبب نقمتهم ووضاعتهم. وهم، بهذا الموقف، يحفرون، في الواقع، قبر توقعاتهم، لأن الطبيعة سترد إليهم كمية مكافئة لما زرعوه فيها.

إن الناس الخبثاء والفاسدين يشعون إلى الكون نبضات الفوتونات التي تحمل المعلومات أو التكليف الاهتزازي لانحرافاتهم، الذي سيعود إليهم في وقت ما مضاعفاً مئة مرة، مثيراً التدهور والاضطراب في حياتهم.

10- ابحث عن حقائق أكثر عمقاً

تمر بنا في الحياة لحظات كثيرة يبدو فيها كما لو أننا "وصلنا إلى القاع،" بمعنى أننا نشعر بالإحباط، أو التعاسة، أو التبرم من قيودنا. فنحن، من جهة، نحبس أنفسنا في حيز عقلي ضيق لكي نشعر بالحماية، ومن جهة أخرى، يخالجنا شعور بأن ظلماً خانقاً يغزونا في مواجهة الحدود الضيقة التي تحيط بنا.

ويبدو لكثير من الناس أن أفضل نمط للحياة هو النمط الذي يسمح بالسطحية، والعبث، والابتذال، وإن كانوا يعملون بعناية على إخفاء هذه العيوب بلمسات من التفكير العميق الذي تعلموه غيباً من المجلات والنصوص الشائعة.

هنا، يصبح العالم الخارجي أكثر قوة وإغراء، وذلك بفضل ماتعرضه الاستهلاكية، مما يعمل، في النهاية، على إفراغ أرواح الناس وإلغاء عقلانيتهم العليا، لأنهم ينسون كيف يفكرون لأنفسهم، ويخلطون بلطف "مايعتمل في عصبوناتهم" مع تفكيرهم الخاص.

وفي الحقيقة، لايُترَك للفرد مما يخصه سوى القليل-مُكَيَّفاً، ومُستلَباً، ومُستَحوَذاً عليه، وممزقاً، ومشوشاً، ومستثاراً بشدة كما هو عن طريق حضارة زائفة، توجهها بربرية متنورة ولكنها أمِّيَة في مجال الوعي ومتعلمة في المعرفة الإعلامية. تنشأ هذه الوحشية السِّبْرانية[1] cybernetic من نظام تعليمي استظهاري، ومُقلِّد، ومُستَلِب، ومجرد من الإنسانية يجهل كيف يكون التعليم الهادف ولا يهتم إلا بإنتاج المواطنين المستهلكين بالجملة، أناس تستسلم عقولهم بطواعية وسلبية لاستقبال الغرس الإعلامي الاتصالي الأكثر ملاءمة للنظام أو للسيطرة على مجموعات أكثر قوة.

أصبح الحصول على هوية عقلية فردية حقيقية عملاً جباراً، لأن الفرد أصبح غذاء للحشود التي تمتصه، وتعالجه، وتهضمه، وأصبح أيضاً حاوية سلبية لملايين الرسائل الاتصالية التي تمطره باستمرار بهدف إقناعه بشراء الناتج كذا وكذا أو للانضمام إلى الآيديولوجيات المختلفة.

وتعمل السلطة الحكومية، من جانبها، دون كلل للضغط على المواطن لكي يصبح تدريجياً مقيداً أكثر بواسطة القوانين التي تفرض على السكان أن يكونوا أكثر كثافة، فتخرب نوعية الحياة بالنسبة للناس عندما تعمل، بالزيادة الكبيرة مستوى الضغط، على زيادة الكرب، والتلوث، والاضطرابات العقلية، والاكتئاب. كل هذا تقوم به الحكومات الضالة التي كثيراً ماتخطط لتقديم المصالح الاقتصادية للشركات الكبيرة على خير المواطنين.

ويتقلص أيضاً أكثر فأكثر الحيز الداخلي عند الإنسان ، حيث يخنقه التأثير غير المنظم لوسائل الإعلام المتطرفة، والإعلان، والتلقين الآيديولوجي، والأوامر والمحظورات المتدرجة الساحقة التي تفرضها الدولة على المواطنين.

إن أول انطباع يتبادر إلى الذهن عندما نفكر بحضارتنا هو الانطباع الذي يتكون من مراقبة أفلام الكرتون المخصصة للأطفال. فأكثر التفسيرات المخصصة لهؤلاء مقبولة عموماً

1-تلقي المعلومات واستعمالها لتوجيه العمل في نظام معين-المترجم.

وما من أحد يشك بها، في حين تخضع الحقائق الأكثر عمقاً ووضوحاً إلى التشكيك والازدراء.

يقال إننا متحضرون إلى حد كبير، ولكننا نحتاج باستمرار إلى تصنيع المزيد من الأسلحة الأكثر تعقيداً وفتكاً؛ وإننا أحرار، بينما نحن، في الواقع، نتبع للنظام المالي، الحكومي والعالمي. ونعمل مجاناً من أجل التسليح لمدة تزيد على نصف السنة لكي ندفع الضرائب، ويتم إشغالنا في الوقت المتبقي لتكوين المال الذي نحتاجه لتغذية الكيان المالي الذي يقرضنا نقوداً زائفة لإغرائنا بالاستهلاك. أما الحيز المتبقي لنا فتملؤه خباثة التلفزيون وابتذاله والسيل الكبير من التلقين السياسي المقنَّع، في حين يُتوَقَّع بعد ذلك أن يظهر الواقع الافتراضي بصورة كاملة، الواقع الذي يعمل، إلى حد كبير، على تسريع الانحطاط الروحي عند الجنس البشري مالم تحدث معجزة.

لم يحدث أبداً في التاريخ أن كان الإنسان أقل سيطرة على عقله مما هو عليه الآن، وبالتالي أكثر انسلاباً وعبودية للتأثيرات الخارجية. ولتفادي إدراك هذا الواقع، يلجأ الناس إلى معتقدات دينية طفولية أو إلى إلحاد مادي. ويهرب البعض من الواقع عن طريق تعاطي المخدرات، والسكر، والقصف، والتهتك الجنسي، في حين يفضل آخرون تخدير أنفسهم بألعاب الفيديو أو تفتيت "أناهم" الخاصة بالانصهار في منظمات جماهيرية جماعية. وينجرف من هم أقل حظاً إلى الحسد والامتعاض لتكريس حياتهم للكره المكشوف أو المقنَّع لكي يشعروا بشيء ما يملأ قلوبهم، حتى وإن كان سلبياً.

ويظهر التناقض في افتقار الفرد إلى حيز داخلي، وسعيه اليائس وراء شيء يملأ به فراغه الداخلي، مع أنه هو نفسه فارغ دائماً. ومادام الأفراد يصدقون أن سوق الاستهلاك، مع كل ماتستتبعه، يمكن، بطريقة ما، أن تشبع الحاجات التي يشعر بها، فإنه سيبقى متحمساً ومترقباً، وعندما يُخيَّب في شيء ما، فإنه يفترض أن هناك دائماً ماهو جديد، مسحوراً بالاحتمالات. ولكن اللحظة تأزف بصورة حتمية تقريباً عندما يجد نفسه مجبراً على الاعتراف بأنه ليس سعيداً، وأن ماتقدمه له السوق لايلبي توقعاته الداخلية.

إن قلة فقط من الأفراد المحظوظين يجتازون هذه التجربة وهم مايزالون شباباً نسبياً، مما يساعدهم على طلب فرصة ثانية تتيح لهم إمكانية تصويب طريقهم، في حين يصل الحالمون إلى نهاية حياتهم على متن مراكبهم التي تحطمت على صخور أوهامهم.

وهناك من يدركون بأنهم تعساء، فيلجؤون إلى ملء حياتهم بالممتلكات المادية أو الكفاح في سبيل مواقع تتصل بذلك لكي يشعروا أنهم " يملكون شيئاً مهماً، " دون أن يدركوا الاختلاف المثير بين التملك والكيان. فالتملك يهم فقط الجشع الجسدي والنفسي عند الفرد، وهي حالة عابرة وظرفية، أما الكيان فيستجيب لخلود الكينونة، التي هي هويتنا الحقيقية العميقة التي تفيض من الخالق.

تهدف هذه القاعدة الأخلاقية، فيما يتعلق بالحاجة إلى ضرورة إدراك حقائق أكثر عمقاً، إلى إنقاذ الناس من العقابيل السلبية للتجربة الحتمية للتحرر من الوهم والفراغ في حياتهم. وتهدف إلى إنقاذهم من اكتشافهم، ولكن في وقت متأخر، فقد كانوا يُستخدَمون لغايات غريبة تماماً عن غاياتهم، وهكذا، فقد أُدينوا بقسوة بأن يواصلوا الحياة وهم يتعقبون أوهاماً خادعة لن يبلغوها أبداً. وحتى لو بلغوها، فإنها تختفي كفقاعات الصابون، بالدورة نفسها التي تكررت مراراً. وكما نفهم، فإن هذه الآلية تهدف إلى تنشيط الاستهلاكية لكي لايدرك الفرد الفراغ الهائل في حياته، وهكذا، تبعده عن أية فرصة للتطور الداخلي الذي يمكن أن يقوده إلى معرفة مستويات أعلى للكينونة، لكي يتطور وفقاً لتكليف الخالق.

إن هذا التحليل الفج لقيود الناس لايستجيب للنظرة الرؤيوية للحياة، ولكنه، على الأصح، يستجيب إلى الحقيقة الواقعية في التجرد التدريجي من الصفات الإنسانية الذي نعانيه نتيجة لتخريب حيِّز الحرية الداخلية عند الفرد. هذا الفرد الذي يبهره ويسحقه سراب النسخ المختلفة "المغطاة بالحلوى" للحياة التي تهدف إلى تحويله إلى تابع عقلي للنظام الذي يستغل الناس ببرود بطرق مختلفة كثيرة، على الرغم من تنكره بقناع الخير. ويفعل هذا بمستوى فعال حتى أن الناس لايدركونه ولا يريدون أن يدركوه، لأنهم منومون بأغاني حوريات البحر التي تبثها الرسالة الاستهلاكية فتغمر أدمغتهم.

عندما أتحدث عن الاستهلاكية، فإنني، بطبيعة الحال، لاأقصد مجرد الحادثة التجارية لشراء السلع التي يعرفها الجميع. فالشراء أولاً، وقبل كل شيء، هو القبول الداخلي أو حيازة شيء ما لأننا كنا قد أُقنعنا بحاجتنا إليه أو انه ملائم لنا. وبهذه الطريقة نقوم، كمستهلكين مطيعين، بشراء الرؤية التاريخية المقبولة على نطاق واسع للعالم، نشتري نمط الحياة الذي نعيشه، والديانات التي نؤمن بها، والرؤساء الذين يحكموننا، والمعتقدات

الـرائجة، والطقـوس الأكـثر شـعبية، وبمـرور الـزمن، نـنتهي إلى الاقتنـاع بـأن ماكتسـبناه ينسجم مع هويتنا ومثالياتنا.

والنتيجة الطبيعية لكل هذا هي مسخ تدريجي للفرد الذي يبتعد شيئاً فشيئاً عن جذور "أناه" الحقيقية، مجبراً على أن يعيش وجوداً زائفاً بسبب، في ظل هذه الظروف، إلغاء دافعه الحياتي والإبداعي. ويمكن فقط لاكتشاف واقع أكثر عمقاً أن ينقذه من إحباطه وفشله.

ولنتذكر أن النجاح الحقيقي لاعلاقة له بالإنجازات المادية التي يحققها الفرد (مع أنه لايستبعدها)، ولكنه ينطوي على كل شيء يتعلق بالانتصار التطوري، أي بحقيقة دخوله السبيل الصاعد لارتقاء وعيه والبقاء فيه، وبالتالي، إنجاز خطط الخالق. وكل من يفعل هذا يكون ناجحاً، أياً كان ظرفه الاجتماعي الموقت، ومن لايحققه، على الرغم من شهرته، أو مكانته، أو ثروته، فإنه سوف يفشل في الخطة الذكية لـ الطبيعة.

عندما يحدث الارتقاء، فإنه، بالتأكيد، يعني ضمناً انتصار الأخلاقية، لأن الفرد سيكون عاجزاً عن التصرف على نحو لاأخلاقي، طالما أنه يفهم ويحب جوهر الفضيلة ومعناها.

وأظن أن الوصفات الأخلاقية ليست أكثر من توصيات يمكن العمل بها أو إهمالها، وإهمالها هو الحالة الأكثر احتمالاً لأنه يستجيب لخط المقاومة الأدنى، كصخرة تتدحرج على سفح جبل، بينما يتطلب سبيل الفضيلة إرادة، وإدراكاً، وصبراً، وشجاعة، وحالة معمقة للوعي.

من الصعب جداً إقناع الناس بأن يتصرفوا على نحو أخلاقي أكثر إذا كانوا لايحسون بنوع من "نداء باطني" يقتضي التمتع بومضة ضعيفة من الفهم، لأنهم ينتهون فقط إلى اختيار البديل الأسهل-الدحرجة نزولاً على السفح، والانضمام إلى كل من سيكونون رفاقهم في السفر بحثاً عن أوهام اللذة التي تُسلِم الفرد إلى النوم، وبالتالي، يبقى سلبياً يلتهمه كرونوس Chronos النهم، أبو الآلهة.

ويمكن تحقيق سلوك أخلاقي أعلى فقط عن طريق فهم أن الكون يُدار وفقاً لخطة متناسقة من وضع معلم، ويجب علينا أن ننسجم معها إذا كنا نريد أن نحقق سعادة وخيراً أسمى. فالأخلاقية الحقيقية تستجيب لمعايير التناغم مع الكون والطبيعة، لكي يكون من

يعمل بدقة على مراعاة قوانينها ناجحاً دائماً ، لأن هذا ، بمعناه الأهم، يعتبر الإنجاز الأسمى للارتقاء الذي يمكن أن يطمح إليه الإنسان.

يفشل الناس ويعانون عندما لايحترمون انسجام الطبيعة ، ولكنهم، لسوء الحظ، لايتعلمون من هذا ، لأنهم يعزون مصائبهم لأسباب بعيدة عن الأسباب الحقيقية.

إن التفكير بالحقائق العميقة ثم فهمها هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحض الناس على سلوك أخلاقي رفيع، ولكن التفاهة التي لاتطاق للثقافة الثانوية الشائعة تجعل البحث عن الحقيقة غير مرغوب وبعيد الاحتمال. وبالمقابل، يستسلم الأفراد ذوو الثقافة العالية عادة لعصمة العلم والثقافة حتى أن حجم ذاتهم يحرك فيهم عمىً مقيماً وعضالاً. وفي الواقع، ليس هناك ماهو أسوأ من المفكرين الأدعياء الفارغين الذين هم على قناعة بكمال وسائل معرفتهم، والذين يهيمون بأفكارهم الخاصة حتى كأنها آلهة. أما وأن الذكاء مبرمج تماماً من قبل البيئة التي يتعلم فيها الفرد ويتحرك، فإنه يكون أسيراً ضمن نموذج المؤسسات الجماعية التي يُحشَر فيها ، سواء كانت ثقافية ، أم آيديولوجية ، أم دينية ، أم سياسية ، ويخشى الانفتاح لتحليل صحيح للحقيقة أو الواقع العميق اللامتحيز كما يخشى الشيطان.

يسعى الناس ، دون أي اهتمام بالفهم، فقط إلى الإيمان بشيء ما يتوافق مع نقائصهم الخاصة أو يبرر رذائلهم وعيوبهم، ويجعلون القواعد الأخلاقية مجرد قشرة تجميلية خارجية تعمل على تكبير صورتهم أو تبييضها. ولكن هذا الموقف محكوم بالفشل، حتى وإن بدا نجم النجاح الاجتماعي يشع ببهاء.

وإذا توقفنا عن التفكير حول حياة الكائن الإنساني، فإننا سندرك تماماً مدى أهمية فهمه للقوانين التي تنظم توازن الكون، لأنه، ككائن حُشر ضمن هذا النظام العاقل لـ الطبيعة، يخضع إلى أنظمة مماثلة، وتعتمد سعادته أو سوء طالعه على مراعاته لها.

منذ القدم، والإنسان يعرف بداهة أن هناك علاقة غامضة بين قَدَرَه وبين الكون، وكان يحاول البحث عن تفسير لتلك العلاقة في النجوم لأنها تشكل مجريات حياته.

وربما كان علم التنجيم محاولة لربط الإنسان بالكل النجمي من حوله، بافتراض أن الأجرام السماوية تمارس، بطريقة ما ، تأثيراً على الكائن الإنساني. ويبيِّن لنا التعليم الأخلاقي المتسامي أن الفضاء الكوني مليء بنوع من طاقة مراوغة لاوزن لها أطلق عليها أسلافنا القدماء اسم الأثير، وهو وجود ، على الرغم من حقيقة أنه لم يتم إثباته علمياً،

يمكن أن يهيء لنا إمكانية فهم الطريقة التي فيها ينتقل الضوء، والحرارة، والأنماط الأخرى للطاقة، وكذلك أيضاً أوامر الطبيعة التي تعمل على موازنة العلاقات المتبادلة بين هذه الأجرام والكائنات الحية.

إذا كانت النجوم تؤثر فعلاً على حياة الإنسان، فإن على المرء أن يُسلّم بأن العكس ممكن تماماً، أي، أن أفعال الإنسان تمارس تأثيراً مطابقاً على بيئته النجمية.

ربما يمكن عزو المنشأ الحقيقي للحروب إلى مجاعة نجمية سببها اختلال مفاجىء للتوازن، وهي شهية كونية تحتاج إلى امتصاص كتلة طاقيّة ضخمة من نبوض الفوتونات التي يولّدها جهد الحرب وتدميرها، لكي توطد تناسباتها المتناسقة.

ينبغي أن أعترف بأنه عندما أفكر بـ "الإنسان،" فإنني لاأحصر تفكيري بالنوع البشري، لأنني أؤمن بوجود "إنسان كوني،" أي نموذج أصلي صيغ في صورة الخالق وشبهه، ليس بمعنى الشكل الجسدي ولكن بمعنى البنية التي تحكم حياته.

ومن المحتمل جداً-بغض النظر عن الشكل الفيزيائي الذي هو نتاج شروط حياتية خاصة لكوكب ما-أن يكون هناك أناس في مختلف أجزاء الكون يمكن أن يكونوا، وفقاً لعمرهم التطوري، متقدمين أكثر أو أقل من النوع البشري.

إن الإنسان الكوني هو في عروة تغذية راجعة مع الطبيعة الكونية، وما الأخلاقية، في أعمق معانيها، سوى مجموعة من القوانين التي تحكم التناسق البنائي للكون. والتسليم بهذه الاحتمالات ممكن فقط بالنسبة للناس الذين يستطيعون النفاذ إلى هدوئهم الداخلي. ويمكن لنا أن نكتشف هذا الهدوء إذا استطعنا أن نتخلص من التنويم الذي توحي به المثيرات البيئية، ويتحقق هذا من خلال الاستبطان العميق، أي إمكانية النظر إلى عالمنا الداخلي حيث تكمن حقيقة كل شيء.

الواقع المطلق هو الحقيقة الأكثر عمقاً من كل الحقائق، أي، الطريقة التي بها تحافظ الطبيعة على الحياة في الكون. وقد درس العلم الجزء المادي المتاح للحواس الجسدية عند الإنسان، ولكنه لم ينفذ بعد إلى معرفة القوانين الأكثر عمقاً للوجود، بالقدر الذي يعني الآلية التي عن طريقها يترابط بانسجام كل شيء. فالعلم يجهل القوانين البنائية التي هي أسس الكون، لأنه لايمكن إدراك هذه القوانين إلا في حالات الوعي الأعلى.

والعلم لايمكن أن يوضح كيف يجد إنسان يشعر في أعماقه بحب حقيقي، عن طريق هذه الحقيقة بالذات، سبيلاً إلى مصير أعلى من مصير فرد يحقد، لأن الطبيعة تعيد لنا مكافىء مانزرعه فيها.

والعلم أيضاً لايمكن أن يفسر القانون الطبيعي، على العكس من عدالة الإنسان. فعلى سبيل المثال، لايمكن للعلم أن يدرك أن معظم الأزواج يعيشون في حالة تسرّي من وجهة نظر القانون الطبيعي، لأن مايجعل الزواج شرعياً هو الحب الحقيقي وليس محاكاته، ولا العقد القانوني أو الديني، وأنه دون حب حقيقي، ليس هناك زوجان متزوجان. ويفشل العلم في إدراك أن الجزء الأكبر من الكون غير مادي وغير مرئي، وأن المادة لاتشكل سوى جزء زهيد جداً من تركيبه الإجمالي. والعلم لايمكن أن يذهب إلى أبعد من الناس الذين اكتشفوا معرفته وهؤلاء الناس، على الرغم من عبقريتهم، هم أناس عاديون بقدر مايكون نمو وعيهم معنياً، لأن أداة معرفتهم (العقل) لم تعمل لكي تجد سبيلاً لحالات اهتزازية أعلى تتيح لهم رؤية طاقات أكثر مراوغة من تلك التي نعرفها في الحالة الطبيعية.

هذا هو السبب الذي حال دون أن تصبح حكمة الطبيعة معرفة ثقافية، لأنها تتطلب من الفرد أن يستيقظ من التنويم البيئي لكي يتقدم بعد ذلك لتعميق مستوى وعيه ويتعلم كيف يفكر ويدرك من هذه المستويات الأعلى.

عندما تظهر تلك التجربة للذين مازالوا في حالة نصف نوم، وهي حالة شائعة عند كامل النوع، فإنهم لايمكن أن يفهموها بسبب القيود الأحلامية التي تكبل عقولهم، ولكي يفهموها، يجب أن يعملوا على الارتفاع بأنفسهم إلى مستوى واقع أعلى، واقع هو، في الحقيقة، ليس مهماً عندهم. وهناك مجموعة كبيرة من الناس الذين يأسرهم هذا الموضوع كما يبدو، ولكنهم يحجمون عن عرض أوهامهم، وينتهون في هذيانهم إلى زيارة كواكب قاصية أو التحدث يومياً مع الملائكة. وهؤلاء طبعاً هم الذين يستخفون عادة بهذا الموضوع. هذا هو الخطر الذي يسببه الحديث عن الحقائق العميقة. إن البعض يرفض هذه الحقائق حتى لكأنها أفعى تلسعه، وهناك من يتعلقون بها، ليس لأنهم يفهمونها أو يهتمون فعلاً بامتلاكها، ولكن لكي يحرّفوها بحيث تتلاءم مع أحلامهم وهذيانهم، وبالتالي، يبررون نقائصهم وخرافاتهم. فالحقيقة نخبوية حتماً، ليس لأن من يمكن أن يمتلكها يقوم باحتكارها أو حجبها ولا يكشف عنها إلا لمن يفضله من الناس، بل لأن عملية الاصطفاء

الطبيعي هي التي تحمل فقط أقلية مختارة على الاهتمام بمعرفتها والرغبة في بذل جهد بخصوصها.

أما البقية، فتفضل البقاء جامدة في المفاهيم المألوفة لها وترفض الانفتاح على واقع أوسع وأكثر عمقاً.

دراسة مثالية لشرعية الطبيعة

لكي نتعمق في مفهوم "العدالة،" يجب أن نعرف ماإذا كان يمكن تحديد أي من تصرفات الكائن الإنساني هي عادلة وأيها غير عادلة وفقاً لشرعية الطبيعة.

ويحدث، ضمن هذه البيئة، الا يتمكن الإنسان بصورة كيفية من ابتكار قواعد تستتبع التناقض مع الطبيعة لأنه سيتلقى حتماً رد فعل سلبي يفسد أغراضه أو يدمرها. فعلى سبيل المثال، يحدث هذا في حالة الزواج، الذي يحدث فيه الكثير من النزاع بين الإنسان والشرعية الطبيعية. فعقد الزواج يهدف إلى إضفاء الشرعية على اتحاد الزوجين، ولكنه، كما يحدث عادة، لايحترم الشرعية الطبيعية، لأنه ينتهي إلى أن يكون زائفاً، واعتباطياً، ونزوياً. والحقيقة هي أن السبب العميق الذي يدفع رجلاً وامرأة إلى الزواج هو الحب الحقيقي، وهو عادة نادر جداً في عصر التقليد والتزييف الذي نعيش فيه. ومن الشائع أن يقترن الناس في هذه الأيام من أجل شيء يبدو لهم شبيهاً بالحب، ولكنه كثيراً مايتحول إلى تبادل مصالح.

والحقيقة الأساسية، بالنسبة لـ الطبيعة، هي أن الاقتران بين زوجين يعتبر زواجاً إذا كان الدافع إليه حباً حقيقياً لاجاذبية عابرة، في حين أنه، بالنسبة للمجتمع، يعني فقط كائنين من جنس مختلف يرتبطان بعقد شرعي، ويحمل كل منهما نية طيبة بالحب في حين انهما يجهلان عادة الحب الحقيقي العميق الذي يسمو على المصلحة الأنانية الشخصية والذي يكون منيعاً ضد صروف الحياة الداخلية والخارجية، لتحقيق التكامل التام ضمن تناسق الطبيعة.

من العبث أن نسأل من هو المصيب، الإنسان ام الطبيعة، لأن الطبيعة كانت دائماً هنا (وفي كل مكان) ولن تبتعد، في حين ان الإنسان، وفقاً لعمره التطوري، مايزال طفلاً في المهد. و الطبيعة أيضاً متكاملة وتملأ كامل الكون كما أن كل شيء مُحتوىً فيها، في حين أن الإنسان الذي نعرفه هو مجرد ذرة رمل عالقة بحصاة دقيقة في الفضاء، مجرد واحد مضاف إلى ملايين الكائنات الأخرى الحية.

ليس مهماً، سواء آمن الإنسان بخطط الطبيعة أم لا، فهي تواصل فعلها كما كانت تفعل دائماً وستواصل ذلك الفعل.

من هنا، يدخل الإنسان تكراراً في الصراع مع ماهو طبيعي عن طريق تصرفاته الخاصة، ولا حاجة إلى أن يكون المرء ذكياً جداً لكي يتنبأ من هو الذي سيتضرر أكثر.

يجب أن يدفع الزواج العشوائي (دون حب حقيقي) ثمناً لنتائج نقائصه على شكل إحباط، وتبخر للوهم، وخيبة أمل. وفي النهاية، سيكون الأطفال من هذا الزواج ضحايا بريئة لعدم الكفاية الساذجة لآبائهم. ومن وجهة نظر الطبيعة، يمكن تماماً أن يعيش زوجان معاً دون عقد زواج[1] ويحققان، مع ذلك، زواجاً مثالياً، ذلك لأن حباً حقيقياً يجمعهما، بينما يعيش زوجان آخران، على الرغم من امتثالهما لقانون الإنسان، في حالة تسرٍّ. ولكي نفهم هذا، يجب أن ندرك أن الإنسان يشعر في داخله بأنه فاتح الطبيعة وسيدها ويواصل محاولاته لإخضاعها، على الأقل ظاهرياً، دون أن يدرك أنه هو، في الواقع، خادم للقوة التي يزعم أن يمارسها. يحدث هذا لأنه يظن عادة أن الطبيعة قوة عمياء جامحة يجب تصحيحها وتوجيه مسارها بحيث تتفق مع مقاصد الكائنات البشرية، مع أن هذا مجرد وهم آخر من الأوهام الكبيرة عند النوع. فـ الطبيعة لاتُقهَر، وأكثر مايمكن أن يطمح إليه المرء هو أن يعيش بانسجام معها. وحالة إظهار الطبيعة لنفسها في باطن الإنسان مختلفة جداً، وهذا يشير إلى طبيعتنا الخاصة الداخلية، التي تعتبر السيطرة عليها واجباً أخلاقياً، عن طريق تصعيد شهواتنا، ودوافعنا وعواطفنا الغريزية، وبهذه الطريقة فقط يمكن أن نحقق السيادة على أنفسنا، وهو شرط لاغنى عنه للتصرف على نحو أخلاقي. وأظن أن واحدة من أهم النقاط أهمية حول هذا الموضوع تشير إلى تعيين التصرفات الإنسانية التي تحترم شرعية الطبيعة وتلك التي تقع خارجها.

هناك قاعدة ذهبية تقول: كل التصرفات شرعية بنظر الطبيعة إذا قام بها كائن إنساني بلغ قمة الارتقاء الإنساني الممكن، بعد أن يكون أنجز اكتماله الروحي. ويشير هذا إلى الفرد الذي ينجح في حمل جسده، وعقله، وعواطفه، وروحه على الانسجام في الزمان والمكان نفسيهما، وهي اللحظة التي فيها تُظهِر الروح نفسها عن طريق الدماغ المادي لكي تحصل على مأتىً كامل للواقع الحاضر.

1-من البديهي أن هذا النوع من الزواج مرفوض في تقاليدنا الدينية والاجتماعية-المترجم.

هكذا تبدأ الروح بالتعبير عن نفسها من خلال تفكير الجسد الذي يحتويها، وتتكلم من فمه وتستخدم يديه، وتطهر كل شيء تمسه بإشعاعها. فتصبح العواطف روحية، وينشأ كل مايفعله المرء، أو يشعر به، أو يقوله من نقطة تعتمد بقوة على شرعية الطبيعة، حتى أنه لايمكن القيام بتصرفات اعتباطية أو غير متناسقة بل فقط تصرفات تنسجم مع القوى التي تحافظ على بنيان الكون.

الإنسان العادي كائن فوضوي، لأنه لايمتلك "أنا" فريدة تحكم نظامه النفسي، في حين أن الفرد الروحي حقاً، بمعنى الفعالية التقنية، كائن يحترم تماماً القوانين العليا للحياة.

والفرد المادي اعتباطي؛ يريد مالا يستحقه، ويتصرف بلاأخلاقية، ويفعل ماليس عدلاً. أما الإنسان الروحي فيكيف سلوكه ورغباته مع تناسق الكون، لكي يتمتع بأحقية القيام بكل مايريد، وفقاً لقانون المكافىء المساواتي. وكما هو واضح، لايمكن لهذا الفرد أن يفعل الشر أو يتصرف بلاأخلاقية، لأنه تعهد بالإخلاص لروحه التي فاضت من النور الأسمى الذي هو نقيض لمملكة الظلال. وسوف يلتزم دائماً بالأخلاق الجامعة التي تنبع من المحاكمة الداخلية التي تصدر من الروح، وتحترم حتماً ماهو عادل. والإنسان الروحي لاينتهك أبداً الحقوق الأساسية للناس، ويعطي لكل واحد مايستحقه.

إن هذه الصورة، في نظر الكثير من الناس، تعيّن الفرد الذي يتمتع بامتياز دون وجه حق، الذي لن يتأثر بالمحظورات التي يتأثر بها الناس العاديون، لأنه، وفقاً لما سبق، يمكن أن يفعل مايريد، على خلاف الآخرين الذين يبدو أنهم مستثنون من هذا الامتياز.

وحقيقة أن يفعل المرء مايريد، دون قيود عدا احترامه لحقوق زملائه وحقوق الطبيعة، ليس امتيازاً بل مسؤولية ضخمة، لأن هذا يعني القبول بوعي نتائج كافة الأسباب التي يباشرها الفرد، أي، أن يكون مستعداً لتلقي ماتعيده الحياة بفضل ماكان قد زرعه.

إن الإنسان العادي يقع حتماً خارج إملاءات القانون الطبيعي، لأنه لايحترم القانون الأخلاقي المتناسق للكون. فمن يريد مالا يستحقه، هو غير صادق مع نفسه، ويتصرف على نحو جائر، ولا يحترم حقوق الناس، ويزرع الضغينة، والامتعاض، والحسد، وهو عبد للشره الحيواني، والإساءة إلى الضعيف، ولا يتحمل مسؤولية تصرفاته الخاصة، ويكذب، ويعيش من أجل صورته وفي خدمة النفاق، ولا يتمتع بشخصية حقيقية، ويسرق عندما يتمكن من ذلك، وهو كائن محدود عقلياً لأنه لايرى الواقع كما هو، بل يبحر عبر الحياة كمسرنم

حقيقي، مجرداً من أي دليل أخلاقي، ودون خط سير سوى ذاك الذي ترسمه عواطفه. كل هذا صحيح إذا تخلى من يدرسه عن الرؤية المرائية والمنحرفة.

والإنسان العادي ليس فقيراً ولا مجهولاً؛ إنه الفرد الذي يحوّل نفسه إلى مجرد تكرار متواصل للنموذج الاجتماعي، دون أية هوية أو صفات داخلية خاصة به؛ استنساخ نفسي لمحاكاة سابقة لامتناهية؛ فرد أجوف فارغ ومجرد عرض للنفس الجماعية للعالم.

كثيراً مايعتقد الناس الطموحون أن الغايات تبرر الوسائل، ويقصدون بهذا أن يدوسوا كل قاعدة أو شخص يقف في طريق خططهم. ولكي نفهم هذه المسألة على نحو أفضل، تعالوا نلق نظرة على قائمة موجزة من "الحالات النموذجية" التي فيها يتصرف البطل خارج القانون الطبيعي:

- من يحاول أن ينال شيئاً لايستحقه فعلاً، بسبب افتقاره إلى النوعية الأخلاقية وضآلة الجهد الذي يبذله. وهكذا، يجد أن مايريد أن يناله "غير ملائم" لأنه غير قانوني مادام لايوجد هناك مكافىء مساواتي، أعني، افتقار الفرد إلى جدارة يتجاوز إلى حد بعيد مايريد أن يحصل عليه.
- من يكذب لكي يحقق فائدة شخصية.
- من يخدع نفسه، ويسلك سلوكاً مخادعاً.
- من يحاول أن يفرض رأيه بصورة استبدادية على الآخرين.
- من لايحترم حقوق الآخرين.
- من لاتتفق صورته مع حالته الحقيقية، ومن يستخدم تلك الصورة لخداع الآخرين.
- من تسيطر عليه عواطفه الأكثر انحطاطاً ويحاول أن يحقق رغبات لاأخلاقية تتولد منها.
- المنافق.
- من يحمل دوافع قذرة لاواعية، وإن كان لايدركها.
- من يحاول أن يأخذ دون أن يعطي.

وهناك حالات أخرى فيها لايكون الفرد فقط خارج الشرعية بل يكون، في الحقيقة، منتهكاً لقوانين الطبيعة.

- القاضي الفاسد.

- الشرطي الفاسد.
- من يخدع الناس بمقاله الديماغوجي.
- رجل الدولة الذي لايهدف إلى خدمة الناس، بل، على الأصح، خدمة سلطته ومصلحته الشخصيتين.
- من يفسد القاصرين.
- من يسلك سلوكاً شاذاً ضد الطبيعة.
- من يغش المواد الغذائية والأدوية.
- من يتّجر بالعقاقير الخطرة.
- من يغسل دماغ الناس بقصد توجيه سلوكهم، متجاهلاً خصوصيتهم العقلية.
- من يعيش باستغلال زملائه عن طريق الربا.
- من ينشر الصور الإباحية بين القاصرين.
- المحتال المحترف الذي يغش الزبون فيعرِّض أمنه الشخصي، أو بضائعه، أو شرفه، أو حريته، أو حياته للخطر.
- من يستخدم الافتراء للهجوم على شرف الناس.
- من يتاجر بسوء طالع الآخرين.
- من يعرض للخطر أمن بلد ما، أو يهدد سلام العالم إلى حد خطير.
- الموظف الحكومي الذي يعرض للخطر أمن المواطنين بإهماله لواجباته.
- من يلوث المياه أو الهواء.
- من يبيع، عن قصد، أغذية أو أدوية مقلدة أو مغشوشة.
- من يقوم بهجمات إرهابية.
- من يعمل، دون مبرر، على تبرير الإرهاب، أو الجريمة، أو انتهاك القانون، أو حمايته، أو إيوائه، أو التسامح معه.
- من يمارس القسوة ضد الحيوانات.
- من يسبب كوارث بيئية أو يتستر على تخريب البيئة الطبيعية.
- من يلوث المجالات المغنطيسية للناس بسمِّه الفعال.

تشكل هذه النقاط قائمة مصغرة تفيد كنموذج لكي يفهم المرء أن مايكون غالباً جريمة بنظر الطبيعة لايكون دائماً غير قانوني بنظر الإنسان. يمكن طبعاً توسيع القائمة

السابقة إلى درجة مهمة، ولكن هذا الكتاب لايهدف إلى عرض مدونة قوانين الطبيعة، بل، على الأصح، جعل الناس يفهمون مايعنيه هذا النمط من الجريمة. منطقياً، لم أُدرِج إساءات كثيرة شائعة يحددها القانون، وإذا لم تظهر إساءة ما في هذه اللائحة، فهذا لايعني أنها ليست "خطيئة" في نظر الطبيعة.

إن واحداً من أكثر الاختلافات أهمية بين قانون الإنسان وقانون التوازن الطبيعي يكمن في حقيقة أن منتهك القانون بنظر قانون الإنسان بريء حتى تثبت جريمته ويعاقب، أما وفقاً للقانون الطبيعي فإن، "من يفعل، يدفع الثمن دائماً."

ولأسباب واضحة، لايمكن تحديد نسبة الإساءات المقترفة التي تبقى محجوبة أو دون عقاب، ولكن جرعة صغيرة من الحقد الصحي تقودني إلى الظن بأن جزءاً ضئيلاً فقط من إجمالي تلك الإساءات يظهر إلى النور، بحيث يتفادى الآثم المقنّع العقاب المناسب في ظل العدالة الإنسانية.

لايحدث مثل هذا في الطبيعة، لأن الإساءة المقترفة تُطبَع في سجلات المجال المغنطيسي الأرضي، الذي منه تحمل شبكة فعالة من أسلاك دقيقة تغطي كامل الكون هذه المعلومات اللامتوازنة التي تثير، عند الوصول إلى أهدافها، رد فعل معاكس يستعيد التناسب الكوني. هذا يعني أنه مامن إساءة أبداً تبقى مجهولة أو تمر دون عقاب، على الرغم من أن محدودية إدراكنا الأرضي يمنعنا من فهم أو معرفة الأشكال التي يتخذها هذا العقاب.

وعلى المرء أن يسلّم بأنه لاشيء يحدث عن طريق المصادفة، وأن واحداً من أكثر القوانين أهمية للتغذية الراجعة هو القانون الذي يقول إن "لكل شيء سبباً، ولكل سبب نتيجة."

لن يكون صعباً علينا، مع الاستقامة والصبر، أن نكتشف السبب الممكن لسوء الطالع الذي يمكن أن يلازم بعضنا، لأنه دائماً ينبع من تصرفاتنا، وبالمقابل، سوف ندرك أيضاً كل مايكون مكافأة لأفعالنا الحسنة. فإذا كنا لانريد أن نحصد العاصفة، فيجب أن نتوقف عن زراعة الريح، وإذا كنا نريد محصولاً مثمراً متوازناً من السلع الروحية والأرضية، فعلينا أن نزرعها بالنسب نفسها.

أما النقطة الأخيرة في القائمة، التي تشير إلى انتهاك قانون الطبيعة، فتستحق توضيحاً

مستقلاً، أي، "من يلوث الحقل المغنطيسي للآخرين بسمِّه الخاص." تشير هذه النقطة إلى الناس المغتاظين، والمتعصبين، والحاسدين، والعدوانيين، والمنحرفين، والأشرار، والهدامين، والباعثين على الكآبة الذين يسممون مجالهم المغنطيسي إلى درجة معها يشعرون بالاختناق ببرازهم النفسي، ولهذا فهم يلتمسون التفريج من خلال محاولتهم حقن مغنطيسيتهم السامة إلى الآخرين، أو جعلهم شركاء لمشاعرهم المنحرفة، أو يفترون على من يكرهونه ويحقرونه، أو يفكرون بطرق مختلفة لتلويث عقول الآخرين، وبالتالي، يلوثون، إلى حد خطير، بيئتهم النفسية، ويشعرون بتفريج عابر لجراحهم الشبيهة بالمرض التي تلتئم بخروج الصديد منها.

لايمكن تقدير حجم هذا التلوث، وخصوصاً في تلك الحالات العاثرة التي تنشأ، بصورة استثنائية، عند الشخصيات العامة أو المهمة التي تحدث كلماتها صدى هائلاً. وسيحاول الأفراد المخموجون، في الوقت المناسب، القيام أيضاً بتلويث آخرين لكي يخففوا كربهم الخاص.

يؤثر هذا الوباء ليس فقط على المجالات المغنطيسية عند الناس، بل أيضاً على عقولهم، كما يحدث في حالة الآيديولوجيات التي تقوم على أساس الحسد، والحقد، والعنف، والتخريب، مما يؤثر على جميع البلدان، فيشل الإبداع الداخلي والثروة الذاتية للسكان، ويمنعهم من تبني موقف بناء، وإيجابي، ومحاربة الروح وتشجيع التخلف الأكثر قسوة. إن العواطف السلبية تكوِّن مواداً سامة في اجسام الناس، التي تستجيب للمجالات المغنطيسية التخريبية. فنحن، في المدن الكبيرة، نتعرض للتسمم يومياً عن طريق الإشعاع المغنطيسي من مواطنيها وهذا هو سبب التفريج الذي نشعر به عندما نغادر هذه المناطق الملوثة إلى شاطىء البحر، أو الجبال، أو الأمكنة النائية.

ونحن، لسوء الحظ، نعيش في بيئة مغنطيسية ملوثة، ويمكن فقط للأفراد المدربين جيداً أن يتفادوا هذا التأثير. ولكن أفضل علاج للوقاية من هذا الوباء هو أن يكون التصرف مستقيماً، وإيجابياً، ومتفائلاً، مع المحافظة على الصحة العقلية وحالة النقاء والشفافية من الداخل.

كل من يلوث الحقول المغنطيسية للأفراد بنفاية اهتزازية يعتبر منتهكاً بنظر الطبيعة وسوف يتلقى العقاب حتماً. ومن يخمجون العقل بالرسائل التي تحرض الناس على الكره، أو الحسد، أو العنف، أو الفساد، أو السلوك اللاأخلاقي هم أيضاً في الصنف نفسه. وأعود إلى

القول إن من يبذر النفاية يحصد نفاية؛ ومن يزرع الذهب (أي، من يرسل نبضات فوتونية عالية الاهتزاز) يحصد ذهباً.

إن المغنطيسية الشخصية، التي يمكن قياسها بدقة، تُشحَن دائماً بالدرجة الاهتزازية المسيطرة عند الفرد، وفقاً لأفكاره، وعاداته، ومشاعره، وتصرفاته، وكذلك أيضاً بتأثير حالة صحته البدنية.

أما الفرد الذي يتمتع بمغنطيسية شخصية، سليمة ونظيفة ومنسجمة فيشبه ترياق الحياة، لأن هذا الإشعاع يؤثر إيجابياً على الناس من حوله، حيث ينقل لهم السلام والانسجام. وعلينا أن ندرك أن هذا يتضمن مدلولات أخلاقية قوية، لأنه، باختيارنا التام وقرارنا الخاص، يمكن أن نصبح مصادر سلبية للقذف الفوتوني، مما يعني إما أننا نطهر البيئة النفسية من حولنا أو نلوثها.

هناك أمكنة مشبعة بالطاقة المغنطيسية السلبية، التي تسبب لنا الحزن والأسى، كما يحدث أيضاً عندما نكون برفقة أناس مصابين بالاكتئاب أو على تماس معهم. ويجب أن نضع في اعتبارنا أن الأكثرية الكبيرة من النوع تعيش خارج القانون الطبيعي، وهذا هو سبب الصعوبة التي يواجهونها في تحقيق السلام، والسعادة، والنجاح.

من الضروري أن نشدد مرة أخرى على أن الفرد الذي تطور فعلاً هو وحده الذي بلغ سن الرشد بنظر الطبيعة، أي، الفرد الذي حقق كماله الروحي بالمعنى الذي تحدثنا عنه آنفاً. هذا الفرد يتمتع بكامل المصداقية بنظر القانون الكوني، لأن تصرفاته تنبع من إرادة روحه، من مأموريته الشرعية المنسجمة مع قوانين الطبيعة.

ومن المهم أيضاً أن نبيِّن هنا أن هذا ليس امتيازاً يُمنَح بسخاء إلى شخص لمجرد حقيقة كونه روحياً، ولكن لحقيقة أن الطبيعة تحترم من يندمج في خططها، التي هي، في المحصلة، حجارة بناء الكون.

لقد ابتدع القانون البشري بمهارة هيكل الدساتير التي نُظِّمَت بطريقة منهجية متقنة لكي تنظم سلوك المواطنين، وعلينا جميعاً أن نمتثل لها. كما يجب أن نضع في اعتبارنا أن هذه القوانين تتغير وفقاً للعصر، وأنها أيضاً تختلف، بشكل ملحوظ، من بلد إلى آخر. وعلى العكس، كان قانون الطبيعة، وما يزال وسيبقى دائما هو نفسه-فريداً، وأبدياً، وثابتاً-لأنه

يفيض مباشرة من الخالق ويصبح أساس الحياة في الكون. وهذه القواعد هي التي تُظهِر مدى شرعية أو لاشرعية التصرفات الإنسانية. فأي تصرف اعتباطي لايستتبع حالة من وعي أعلى في منشئه يعتبر غير شرعي، وللسبب نفسه يكون ملائماً لحيوان أكثر منه لإنسان.

إن تصرفاً كهذا يقوم فقط على أساس دافع نزوي أو اعتباطي حينما ينوي المرء أن يفعل مايدور في خياله بغض النظر عن مصالح البيئة التي يعيش فيها، ودون أن يضمن أن لتصرفه هدفاً بناء أو إيجابياً، ودون تحمل مسؤولية ذلك العمل، ودون إدخاله بحكمة في التناسب المتناسق للحياة.

يعني التصرف اللاشرعي في هذه الحالة أن المرء لايحترم ولا يتكيف مع المعلمات الطبيعية التي تحافظ على التوازن الحيوي في الكون، الذي يتطلب تعديلات متواصلة ومتكررة للمحافظة على التوازن الكلي. والحالة هنا كما لو أن الناس يقومون دائماً بأخذ أشياء بصورة غير شرعية، أشياء لاتوافقهم أو أنهم لم يكسبوها فعلاً بسبب ضعف مستوى وعيهم وافتقارهم إلى جدارة سابقة. ويسبب هذا رد فعل من الطبيعة التي ستنتزع منهم شيئاً ما مكافئاً أو أكثر أهمية، وفقاً لدرجة سذاجة المعتدي أو انحرافه.

هذه هي، مثلاً، حالة اللذة دون استحقاق التي يتوجب حتماً دفع ثمنها بجرعة مكافئة من المعاناة، وهي تجربة يمكن لكل واحد أن يدركها بنفسه.

ويحدث أن تتصرف الكائنات الإنسانية بصورة استبدادية وكأنهم آلهة، أي، كأنهم غير مطالبين بالتغلب على عيوبهم، ليصبحوا صالحين، ويكملوا أنفسهم، ويطوروها، وكأن الوقت المتاح لهم في الحياة وُجد فقط من أجل تبديده في التسلية. ومامن أحد يتساءل قبل تمتعه باللذة عما إذا كان يستحقها فعلاً، أو ماإذا كانت تلك اللذة تقتضي افتئاتاً على التناسب الطبيعي. ويحدث عادة، لسوء الحظ، أن يكون ثمن الإفراط في اللذة جرعات أكبر من التعاسة، والنحس، والكرب، والانحطاط. وتعمل اللذة دون استحقاق، بشكل ثابت، على إفراغ الفرد وربما كان الاسلوب الاسبارطي في الحياة عند الأغريق القدماء اعتمد، من بين مااعتمد عليه، على المعرفة التامة بهذا المبدأ.

فما اللذة دون استحقاق؟ إنها تلك التي تتجاوز مستوى الفضيلة والوعي عند الشخص، أي، كل مانعتبره الآن ممتعاً من الناحية العملية.

يبدأ الفرد باكتساب شرعيته الشخصية عندما يتوقف عن كونه جسراً بين الحيوان والإنسان ويتخلى عن حالته الهجينة لكي يصبح كائناً كاملاً تماماً. فالناس في الديموقراطية يحصلون على حقوقهم المدنية كاملة عندما يبلغون سن الرشد، وهكذا، فإن طفلاً عمره عشر سنوات، مثلاً، لايحق له أن يقترع، ولكن يمكنه أن يفعل ذلك بالتحايل على النظام، أي أن يقترع بصورة غير قانونية.

وبالمثل، على المرء أن يبلغ سن الرشد في الارتقاء لكي يحصل على حقوقه الطبيعية كاملة، أي، اعتراف الطبيعة بمستوى ارتقائه. وعندئذٍ، يمكنه أن يؤثر على المستوى العقلي، والعاطفي، والبدني، والروحي ويكتسب كامل شرعيته ضمن الكون. وهو، باعتباره نسخة متناسقة، ملزم أيضاً بأداء جميع واجباته كواحد من سكان الكون، الأمر الذي يعني ضمناً النهوض بمسؤولية ضخمة.

إن واحداً من الأسباب التي تجعل من الصعب دراسة هذا الموضوع هي الافتراضات المختلفة التي يضعها الإنسان حول قدراته، وما يعزوه بلامبالاة إلى نفسه من وعي، وإرادة، واختيار حر، وحالة إنسانية رفيعة، وفي الوقت نفسه يتجاهل ضرورة أن يؤثر على نفسه لكي يعمل بفعالية على تطوير الصفات المذكورة آنفاً.

إن التعبير "إنسانية،" مثلاً، يعطي الانطباع أن هناك أناساً جديرون بأعلى اعتبار اجتماعي، فقط لأنهم يتصرفون بطريقة إنسانية ومهذبة، حتى لو كان هناك حَمَل متعلم يمارس فعل الخير، فإنه يجب أن يحظى باحترام مماثل. والحقيقة هي أن الحالة الإنسانية تُحدَّد، تقنياً، بالمستوى الحقيقي للفرد. والصواب هو أن ممارسة عمل الخير أسهل على المرء من ممارسة العمل على تطوير نفسه.

الفضائل التقليدية

❖الإخلاص ❖الاستقامة ❖الإخاء ❖الشرف ❖وحدة الأسرة ❖الوطنية ❖الحب ❖الشجاعة ❖التسامح ❖الاحترام ❖الاحتشام ❖الوفاء ❖الاجتهاد ❖الصبر ❖التبصر ❖الاعتدال ❖الكرم ❖الشفقة ❖التعاطف ❖العرفان بالجميل ❖حسن النية ❖احترام الشيوخ ❖حماية الأطفال ❖اللاعنف.

الفضائل الروحية

❖الاطمئنان والصفاء ❖التجرد ❖إدراك وحدة الكون ❖تتويج الروح كـ "أنا" حقيقية ❖الرؤية الحقيقية للواقع الخارجي ❖القدرة على تحقيق حالات أعلى للوعي ❖قدرة المرء على السمو ببرمجته الدماغية ❖قابلية النمو إلى مستوى الكينونة ❖القدرة على معرفة معنى الوجود الإنساني وغرضه ❖رؤية الواقع كما هو ❖القدرة على إنجاز الأعمال التي توحي بها الذات بحرية مطلقة، الأعمال التي تُصاغ في "أنا" مستقرة، وناضجة، وكلية الوجود ❖القدرة على ربط المعرفة الواضحة بالخطة الشاملة للحياة ❖الحكمة، بمعنى المعرفة الهادفة للحياة وعناصرها ❖القدرة على الوصول إلى معرفة شاملة غير محدودة بالزمان والمكان ❖القدرة على التطور بصورة مستقلة وبطريقة واعية ❖معرفة القوانين الأخلاقية لـ الطبيعة ❖القدرة على السمو بالنفس بما يتجاوز الوجود المادي ❖القدرة على التغلب على العواطف ❖القدرة على غفران الإساءات والتسامح ❖القدرة على تحقيق السعادة الدائمة والخير الأسمى ❖ رؤية المرء لنفسه بصورة موضوعية ❖معرفة الذات ❖الموضوعية ❖السيطرة على التفكير، أي قدرة الفرد على التوقف عن التفكير على هواه ❖تصعيد الطاقة الجنسية ❖السيطرة على الذات ❖رؤية الحقيقة المتسامية ❖تحكم المرء بمصيره وتعديله ❖القدرة على العيش في اللحظة الحاضرة ❖قدرة المرء على أن يكون متكاملاً.

هذه هي بعض القيم التقليدية والروحية. والأخذ بعين الاعتبار أن القيم التقليدية هي ثمرة الحب والإخلاص، أما القيم الروحية فنتيجة لعلمية طويلة من التدريب الروحي.

ولدينا ثلاثة احتمالات في الحياة:

1. أن نعيش على هامش الفضيلة، وننهمك فقط في إرضاء عواطفنا الشخصية، دون أية قواعد أخلاقية توجه تصرفاتنا.

2. أن نمارس الفضائل التقليدية، التي هي تحضير لاختيار نمط أعلى من السلوك.

3. أن نعمل على تنمية الفضائل الروحية، التي تقودنا مباشرة إلى الارتقاء الفردي، وهو الهدف المحدد للكائن الإنساني من قبل الخالق.

وتساعدنا الحرية الفردية على أن نختار طواعية طريقنا في الحياة، مع النتائج التي أوضحتها في كل مكان من هذا الكتاب.

ولنلاحظ استخدام كلمة "وعي"-لقد استخدمتها بطريقتين:

1 وعي: "طراز مميز للوجود فيه تجارب شخصية، أي عمليات نفسية يخبُرُها الفرد مباشرة، كالإدراكات، والذكريات، والأفكار، والمشاعر، والرغبات، وعمليات الإرادة، إلخ." (المعنى النفسي).

2. وعي: "ويشير إلى زيادة مستويات الدراية التي تتيح الوصول إلى حالات أكثر تفوقاً في الوعي، وعي يسمو باضطراد أكثر مما نراه عند الأفراد العاديين (معنى روحي تقني).

دليل تجريبي على التأثير الفيزيائي السلبي لبعض الانتهاكات الأخلاقية

إن لهذا العمل التجريبي هدفاً أخلاقياً لأنه، على ضوء المفاهيم الجديدة التي عرضناها في هذا الكتاب، يهدف إلى إظهار كيف أن بعض الأخطاء الأخلاقية يمكن أن تؤذي، إلى حد خطير، المخطئ نفسه ومن هم حوله، مما ينقل مشكلة الأخلاق إلى حقل الفيزياء الحيوية. وأقصد، بشكل خاص، الأذى الذي يمكن أن تسببه التصرفات التالية:

1. العلاقات الجنسية أثناء الحيض.
2. العادة السرية.
3. العلاقات الجنسية الشاذة (الاتصال الشرجي).
4. الحالات الانفعالية للغضب والتدمير.

ما أن وضعت فرضية مناسبة للعمل، حتى شكلت فريقاً للبحث ضم عالم فيزياء، ومهندس إلكترون، ومختص بالكيمياء الحيوية. وقد طور هذا الفريق عمله وفقاً لخطتي في العمل.

وكان بحثنا ناجحاً، لأنه اظهر، دون أدنى شك، أنه تحت تأثير بعض الانتهاكات الأخلاقية، يولّد الجسم والعقل نوعاً من طاقة سامة تزعج الكائن الحي وتُضعف، إلى حد ملحوظ، دفاعاته وصحته البدنية والعقلية. ولذلك، فإن الأخلاقية لم تعد تمثل مجرد مجموعة من الوصايا بخصوص السلوك، بل أصبحت كما هي في الواقع-تدفق وإعادة تدفق للتغذية الراجعة الفعالة بين الإنسان والطبيعة، التي تعتبر كل انتهاك أخلاقي إخلالاً بالتوازن الطبيعي، وتعني عقوبته اللاحقة إعادة هذا التوازن.

وأورد فيما يلي خلاصة موجزة للبحث الذي قمنا به، والذي استغرق حوالي سنة. ولكي يفهم المرء هذا البحث، يجب عليه أن يتخلى عن النفاق لكي يركز بنفسه معياراً ناضجاً، شاملاً، ولا متحيزاً.

جون باينس 1998

قياس الطاقة الكهرطيسية للجسم في مختلف العمليات النفسية

مقدمة

يهدف هذا العمل في البحث التجريبي إلى إظهار أن الطاقة التي تشع في بعض العمليات النفسية من جسم الإنسان هي ذات طبيعة مؤذية له. وتُلزِمُنا التقنيات المستخدمة والنتائج التي حصلنا عليها على التفكير من جديد في مقاربتنا للواقع الفيزيائي، وبالتالي، للكائن الإنساني. ولهذا السبب كرسنا فصلاً لاستيعاب الأسس التي تقوم عليها وجهة النظر الجديدة هذه. ولكن هذا لايعني أن هناك تناقضات في التفكير التقليدي للعلم، بل هو، على الأصح، مجرد منظور من خلاله نبدل الأشياء التي نحللها، للوصول إلى رؤيتها على نحو أكثر شمولاً. ونبني موجوداتنا على أساس التجارب التي أنجزها مختلف الباحثين، لكي نثبت وجود هذا المجال الكهرطيسي ولكي نقدم تعليلاً للعلاج بوخز الإبر. فقد استشهدنا، بتفصيل كامل، بالتجارب التي أنجزها عالم الفيزياء الحيوية الألماني، فرتز ألبرت بوب، الذي أثبت بالتجربة أن الجسم الإنساني هو مرسل ومتلقٍ للطاقة الكهرطيسية. وعلاوة على ذلك، نذكر أيضاً باحثين آخرين أكدوا صحة النتائج التي توصل إليها بوب، وبالتالي، عملوا على توسيع هذه المعرفة.

وبما أن هذه التجارب تعتمد على مبادىء فيزياء الكم، فإنه يجب توضيح بعض مفاهيم هذا الفرع من الفيزياء. ونبدأ بتقديم تعريف لما نفهمه عن طريق فيزياء الكم والطاقة الكهرطيسية، وندخل إلى الذرة لكي نستطيع أن ندرك أن هناك مجالاً فريداً للطاقة يحافظ على البنى البيولوجية ويعرِّفها، وبالتالي يسمح بتبادل الطاقة مع البيئة المحيطة. ويُعرَّف مجال الطاقة هذا بأسماء مختلفة، وفقاً للآلة المستخدمة في قياس المجال المذكور. فعلى سبيل المثال، إذا استخدمنا آلة تعتمد على القوى المغنطيسية، فإن هذه الآلة ستُعرِّف هذه الطاقة كطاقة كهرطيسية. وتقودنا هذه الفكرة إلى حقيقة أن كل شيء يوجد ويحيط بنا يمكن تفسيره من وجهة نظر الطاقة، لأن المادة والطاقة وحدة واحدة. وبالتالي، فإن كل جسم، سواء كان حياً أو غير حي، ينشر طاقة كهرطيسية ذات تردد مميز.

ولإنجاز القياسات، كان علينا أن نعمل على قاعدة تقنيات وخز الإبر المستخدمة في الطب الصيني، وذلك باستخدام قطعة من معدات تدعى فيجاتست Vegatest، تصنع في ألمانيا من قبل VEGA، وهي من نوعية دقيقة جداً ومزودة بجهاز أمان، ISO 9001. هذا

الجهاز مصمم لقياس درجات وخز الإبر كهربائياً (وخز الإبر الكهربائي). وقد تم اختيار الفيجاتست بسبب موثوقيته، وهو يستخدم في أوروبا، وخصوصاً في ألمانيا منذ أكثر من ثلاثين سنة. وقد نشر مختلف الأطباء الذين يعملون بهذه المعدات مقالات مختلفة تشرح استخدام تطبيقات طريقة الفيجاتست، ويمكن أن نذكر منهم الدكتور شتوارت ز. زول، والدكتور جوليان كنيون، والدكتور أندرياس باخمان. وقد قدمت لنا هذه المنشورات فائدة كبيرة لتطوير فهمنا في هذا العمل. وتظهر بوضوح النتائج التي حصلنا عليها من القياسات في الرسوم البيانية، التي سوف نأتي على دراستها في الفصول الأخيرة.

1- قواعد التجربة

إن مانفهمه بفيزياء الكم هو أنها فرع من الفيزياء يسمح لنا بفهم تفاعل الجسيمات دون الذرية من خلال مفهوم المجال (منطقة من الفراغ فيها يخضع كل جسم لقوى الجذب أو الدفع، أي نطاق للتأثير المتبادل)، حتى ليبدو واضحاً أن الجسيم والمجال هما مظهران متكاملان لشيء واحد ونفسه. ويثبت هذا أن المادة ليست أكثر من طاقة مكثفة، كما أظهر آينشتاين في معادلته المعروفة: $E = MC^2$، التي بها أثبت أن المادة والطاقة مترابطتان على نحو لاينحل وتعتمد كل منهما على الأخرى.

وفي عام 1984، قال كارلو روبيا، الفائز بجائزة نوبل للفيزياء، "النسبة بين 'كمَّات' الطاقة (فوتونات) والجسيمات بالكتلة (نُوَيَّات) تقارب الف مليون فوتون بالنُّوَيَّة (9.746×10^8 : 1). هذا يعني أن المادة المرئية ليست أكثر من جزء واحد من ألف مليون من الكون الموجود فعلاً. وتضعف أهمية المادة حتى تصبح عديمة الأهمية."

ووفقاً لما أورده الدكتور بودو كوهلر في كتابه مقدمة لعلم الطب الكمي، فإن كل العمليات التي تحدث في كوننا يمكن وصفها إما من وجهة نظر المادة، أو من منظور الطاقة، ولكن لايمكن، في أية حال، تجاهل الجانب المُكمِّل. ولذلك، فإن لكل الأشياء جانبين ولوصف شيء بصورة متكاملة وبطريقة علمية دقيقة، يتوجب دائماً وضع الجانب الآخر في الحسبان.

نقدم فيما يلي تعريفاً موجزاً للطاقة الكهرطيسية، فنقول: الطاقة الكهرطيسية (EME) تيار من الفوتونات ينتقل عبر الفضاء في موجات، وهو ذو طبيعة مزدوجة من موجة/جسيم، أي يمكن أن تسلك الجسيمات كمجالات لموجة ومجالات الموجة يمكن أن

تسلك كجسيمات، اعتماداً على الأداة التي تستخدم لمراقبتها. ويمكن اعتباره كموجة مجال كهربائي متذبذب يترافق بمجال مغنطيسي.

تنتقل هذه الفوتونات بواسطة موجات بسرعة فريدة في الخواء ($C = 3 \times 10^8$ م/ثا) وتتغير فيما يتعلق بوسط الانتشار. والطاقة الكهرطيسية هي التي تحافظ على التماسك في المادة، كما أوضح الفيزيائي هاينتس ر. باجيلس في كتابه دستور الكون:

يمكن فهم كافة خواص المادة تقريباً بلغة الخواص الكمية والكهرطيسية للذرات. وتترافق الجسيمات المستقلة داخل الذرة، كالإلكترونات، بمجالات كهربائية تبقيها في مداراتها حول النواة وهي مسؤولة عن التفاعلات الكيميائية للذرات. فلو لم تكن الطاقة الكهرطيسية موجودة، لما بقيت الذرات ولما كانت هناك مادة بشكلها المعروف.

إذا دخلنا إلى بنية الذرة، فإننا نجد أن النواة تتكون من بروتونات ونيوترونات مترابطة بواسطة قوى نووية وأن الإلكترونات تدور حولها في مداراتها، مترابطة بقوى كهرطيسية.

وكما نعرف من نظرية الكهرطيسية، فإن الشحنة عندما تدور من خلال حلزون تشكل تياراً، وبالتالي تولّد مجالاً مغنطيسياً، يشبه الجزيء الثنائي القطبي أو المغنطيس، يتوضع في وسط الحلزون ويتجه عمودياً إلى مستوى ذلك الحلزون. يمكن أن نستنتج من هذا أن الإلكترون في الذرة يولّد مجالاً مغنطيسياً وأن للذرات طبيعة ثنائية القطب، تنشر إشعاعات كهرطيسية محددة لكل ذرة.

ومن المعروف أن مجموعة من الذرات تشكل جُزَيْئاً، وأن الجزيئات، بدورها، تشكل بُنىً أكبر كالبروتينات، والخلايا، والأعضاء، ومختلف الأجسام، وبناء على ذلك، يمكن أن ندرك أن كل شكل حي أو جسم عديم الحياة ينشر نمطاً من الترددات المميزة.

وقد أثبت هذا عالم الفيزياء الحيوية، و. لودفيغ، الذي استخدم مقياس طيف ترددي وقاس بعض مستحضرات المعالجة المثلية[1]، ليكتشف أن كل نبتة تنشر طيفها الخاص.

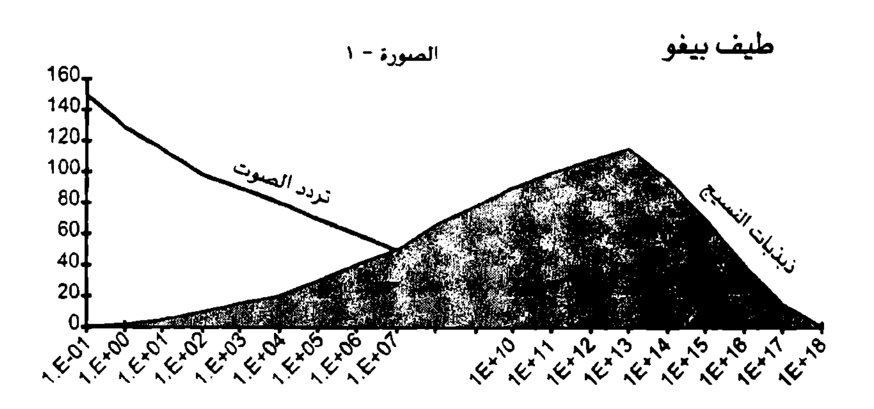
وكما رأينا، إن كل شيء يحيط بنا ليس أكثر من تكثيف للطاقة، وهذه بدورها مادة اهتزازية. ونُعرِّف كلمة "اهتزازي" كحركة دورية منتظمة يمكن تشبيهها بموجة جيبية

1- المعالجة المثلية: معالجة للداء بإعطاء المصاب جرعات صغيرة من دواء لو أُعطيَت لشخص سليم لأحدثت عنده أعراضاً كأعراض المرض الذي نعالجه-المترجم.

الانحناء. ولذلك، يمكن أن نقول إن كافة الأشياء العضوية واللاعضوية تتمتع بميزة أساسية، التي هي التواتر، أي، إشعاعها الخاص.

وبهذه الطريقة، ندرك أن الجسم الإنساني، كمرسل للطاقة الكهرطيسية، ينشر طيفاً مميزاً للتردد. وقد قام بيجو ديل بلانكو، العالم الكندي للفيزياء الحيوية، بتجربة لقياس كامل مجال الذبذبة للكائن العضوي، كما نرى في الصورة 1.

ويُظهِر الرسم البياني تداخلات لكافة الذبذبات المستقلة لمختلف الأعضاء والأنسجة، بدءاً بذبذبة قاعدية ذات تردد منخفض لخلايا النسيج الضام، إلى ذبذبات نسيجية عالية التردد. ويتراوح الطيف من أقل من 1 هيرتز Hz إلى 10^{18} هيرتز، مع شدة قصوى في نطاق الموجات القصيرة.



الصورة 1: طيف بيغو

وبحث المهندس سيمونيتون هذه المسألة، واستشهد بعمله الفيزيائي الروسي آ.س. بريسمان في كتابه المجالات الكهرطيسية والحياة (نشرته مطبعة بلينوم عام 1970). وبعد إجراء عدد كبير من القياسات على الناس، والنباتات، والحيوانات، توصل سيمونيتون إلى استنتاج مفاده أن الشخص السليم يكون ضمن مدى تردد بين 6,500 -8,000 انغستروم[1]، أي، 10^{14} هيرتز، وهذا يطابق الشدة القصوى لطيف بيغو.

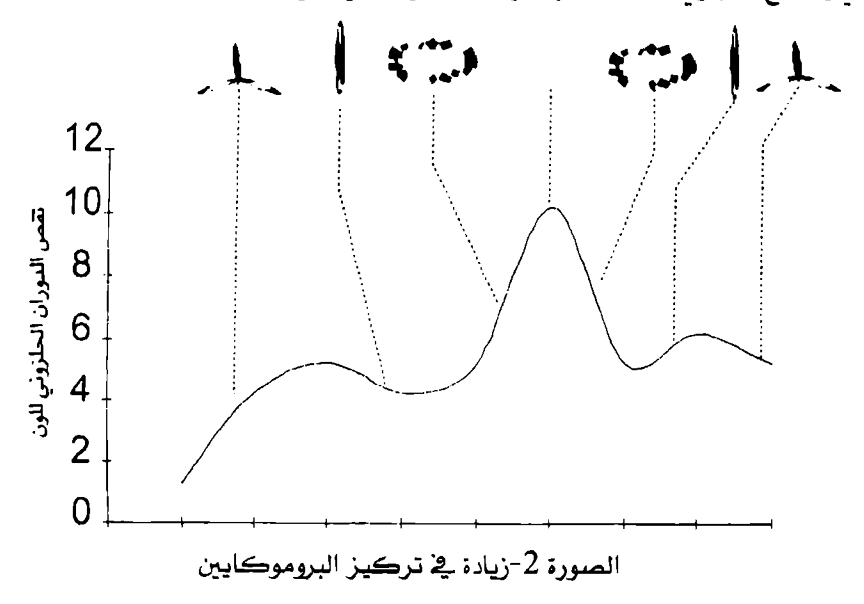
1-الأنغستروم = جزء من مئة مليون من السنتيمتر-المترجم.

وقد أثبت عالم الفيزياء الحيوية الألماني، فريتز ألبرت بوب، بالتجرية في كتابه **المعطيات الحيوية للكهرطيسية، الصفحات 144-167** (منشورات أوربان وشفارتسنبورغ)، أن المتعضيات الحية تشر طاقة كهرطيسية وتختزنها.

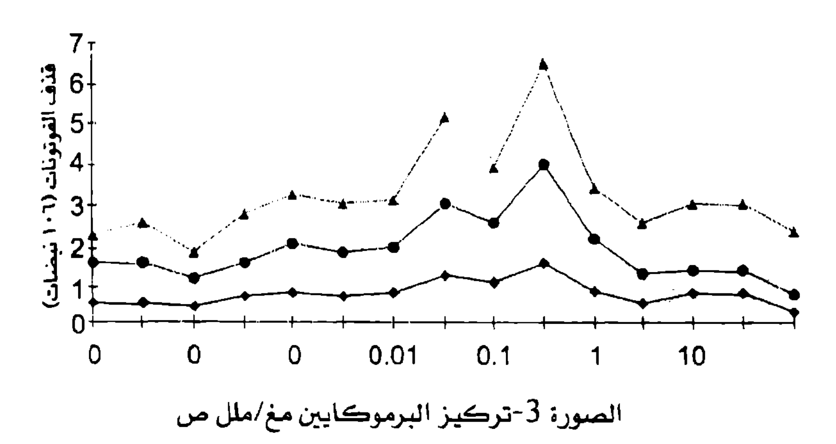
وفي دراسته للسرطان، طور فكرة أن الخواص المولّدة للسرطان في بعض المواد لاتكمن في تركيبها الكيميائي ولكنها عُزِيَت إلى تفاعلات الإشعاعات، حتى أنه ركّب جهازاً يقوم على أساس مُضاعِفات ضوئية عالية الحساسية بواسطته تمكن من اكتشاف الإشعاعات الفائقة الضعف للخلايا الحية (فوتونات حيوية) عن طريق إنجاز قياسات عالية الدقة على عدد كبير من الخلايا النباتية والحيوانية. وقد اكتشف تردد الإشعاعات المنتشرة في كامل الطيف المرئي، فوق البنفسجي وتحت الأحمر. ولاحظ بوب أن مجال الطاقة الكهرطيسية الذي يتكون من فوتونات حيوية هو العامل الرئيس الذي يوجه العمليات الحيوية للكائن العضوي. يجب أن يكون هذا المجال "مترابطاً" لكي يسمح بالاتصال وتبادل المعلومات بين الخلايا. ونقصد بمفهوم "الترابط، ذبذبات الموجات المتماثلة طولاً، وهذه الموجات منظمة ومتناسقة تتداخل ذراها العليا والدنيا حيث يمكن أن تتراكب مع بعضها بعضاً. وأفضل مثال لهذا هو أشعة الليزر، التي تتذبذب عملياً فقط بطول موجي واحد وبالكاد تتشتت، حتى عندما تكون بعيدة عن مصدر نشوئها. وبالتالي، تسلك موجات المجال المترابط بالطريقة نفسها، لكي تتمكن من نقل المعلومات ودمجها في كامل الخلايا، والأنسجة، والأعضاء. وترسل الخلايا الحية باستمرار هذا النوع من الموجات، التي تنتشر بسرعة الضوء وتعلم الكائن العضوي الذي تنتمي إليه في كل لحظة بحالتها الراهنة وآليات الاستتباب التي تحتاجها للبدء بالحركة، بهدف المحافظة على الصحة. ويمكن تعريف هذا الاستتباب بوصفه حالة فيها تكون كل الأنسجة العضوية منسجمة مع بعضها بعضاً. وتتم المحافظة على هذا الانسجام والتعبير عنه عن طريق الموجات الكهرطيسية المترابطة المنظمة. وعندما يختل نظام هذه الموجات وتتفكك، فإنها لاتنقل المعلومات بشكل صحيح بين مختلف أجزاء الكائن العضوي، فيظهر المرض.

يؤمن بوب بوجود آلية ما تسمح بالمحافظة على الترابط في مجال الفوتونات الحيوية، وأثبت بالتجربة أن جزيء الدّنا هو خازن الفوتونات وأنه يستطيع، من خلال التحولات في بنيانه الحيِّزيّ (الدوران الحلزوني واللاحلزوني) أن يختزن الضوء ويُصدرَه.

ولإثبات أن الدنا هو خازن الفوتونات، استخدم مركباً كيميائياً يدعى بروموكايين bromocaine، الذي يتفاعل فقط مع جزيء الدنا باستبدال أسسه. وعن طريق زيادة تركيز البروموكايين، يتبدل حلزون الدنا، وينحرف في الاتجاه المعاكس (اللاحلزوني)، كما نرى في الصورة 2. وإذا تمكن الدنا من اختزان الفوتونات، فإن هذه الفوتونات يجب أن تحرر نفسها في الطور اللاحلزوني الذي يظهر في الصور 3. هناك يمكن أن نرى، وفقاً لمدى زيادة تركيز البروموكايين، زيادة كبيرة في قذف الفوتونات، التي تصل حداً أقصى ثم تهبط، بما يتوافق مع الدوران الحلزوني واللاحلزوني لجزيء الدنا. وتشير المنحنيات الثلاثة إلى التغير الذي يخضع له جزيء الدنا خلال فترة ساعة، وساعتين، وثلاث ساعات.



الصورة 2-زيادة في تركيز البروموكايين



الصورة 3-تركيز البرموكايين مغ/ملل ص

وينسجم هذا أيضاً مع التجارب التي قام بها المهندس الروسي جورج ليخوفسكي، التي وصفها الباحثان هاري أولدفيلد وروجر كوغهِلّ في كتابهما الجانب المظلم للدماغ (نُشِر من قبل كتب إلمِنْت، عام 1991، الصفحات 66-71).

قام ليخوفسكي، عام 1920، بسلسلة من التجارب لتأكيد وجود مجال الطاقة الكهرطيسية كما يبيِّن الاقتباس التالي: "الخلايا التي تشكل الوحدات العضوية الأساسية لكل شيء على قيد الحياة هي مرسلات كهرطيسية، يمكنها أن تُصدر موجات عالية التردد وتمتصها. وتسلك نوى الخلايا كدارة تذبذب مجهرية، تماماً كدارة كهربائية." (سر الحياة، منشورات م. أغويلر، مدريد، 1929).

يرى ليخوفسكي أن المرض هو اختلال في توازن الذبذبة الخلوية، يبدأ بتذبذب لانظمي، حتى تتوقف الخلايا عن التذبذب وتموت. ولكي تشفى الخلية، يجب أن تُعالَج بتواتر ملائم. وبهذه الطريقة، توصل إلى استنتاج مفاده أن الطاقة الضرورية للمحافظة على ذبذبات سوية للخلايا لايمكن إنتاجها في النواة، ولكنها تلك التي تأتي من طاقة خارجية، وهي تلك المختزنة في الدنا، تماماً في مكثِّف.

واليوم، يمكن القول إن وجود مجال للفوتونات الحيوية أصبح حقيقة مثبتة، ليس فقط من طريق تجارب بوب وليخوفسكي، بل أيضاً من قبل باحثين آخرين.

ولمتابعة إثبات وجود مجال الفوتونوات الحيوية هذا أو مجال الطاقة الكهرطيسية، سنلجأ إلى تحليل التجارب التي أجراها الدكتور بار، والتي وصفها في كتابه مخطط من أجل الخلود. تشير هذه التجارب إلى أن تنظيم أي نظام بيولوجي يتوطد بواسطة مجال كهرطيسي لمركب دينمي كهربائي، يتنبأ بالحوادث الفيزيائية التي ستحدث ضمن تلك التجارب ويبيِّن أن العقل يمكن أن يؤثر، سلباً أو إيجاباً، على المادة التي يشترك معها على تعديل هذا الحقل.

ولكي يثبت نظريته، استخدم بار مقياس الفلطية المصنوع من أنبوب خوائي ومساري خاصة، استطاع بواسطته قياس مجالات الطاقة الكهرطيسية في كائنات نباتية، وحيوانية وبشرية. يتألف الجهاز من مُكبِّر ذي معاوقة دخول عالية (مقاومة كهربائية داخلية) لكي لاتؤثر تبدلات المقاومة في الجهاز على تغيير القياس. تتميز هذه الدارة بدرجة عالية من الحساسية وهي قادرة على تسجيل أي تبدل في الفلطية الكهربائية، مهما كان هذا التبدل مراوغاً. ويجب أن تكون ثابتة لتخفيف التبدل العرضي إلى أدنى حد. ويقول بار، "لاعلاقة لهذه

الفلطيات بالتيارات الكهربائية المتناوبة التي يحصل عليها الأطباء عندما يقيسون الدماغ والقلب."

ولقياس الطاقة الكهرطيسية في الجسم البشري، ربط بار أصيصي زهر بمقياس الفولطية وملأهما بمحلول الملح الطبيعي الشائع، ووضع داخلهما مساري كلوريد الفضة ثم خفض جهد المساري إلى نصف ملليفولط، وبهذا ضمن أن الفولطية لن تتدخل في القياس. وأخيراً، أغلق الدارة بغمس سبابة يده اليسرى في الأصيص الذي على يساره وسبابة يده اليمنى في الأصيص الذي على يمينه، وسجل الجهد الذي تولّد في جسمه بمقياس الفلطية.

وقاس بار أيضاً مجالات الطاقة الكهرطيسية في البذور المنتشة، فاكتشف أن هذا المجال لايتخذ شكل البذرة الأصل بل شكل النبتة الكاملة النمو.

وعن طريق قياسه للمجال الدينمي الكهربائي، لاحظ أن التسجيلات تبيِّن أن مجالات الأشجار تختلف مع ضوء الشمس، والظلمة، ودورات القمر، والعواصف الكهربائية، والبقع الشمسية. ومن خلال التجارب التي أنجزها مع مساعديه طوال حياته، توصل الدكتور بار إلى الاستنتاجات التالية:

عندما يكون مجال الجسم الحي نموذجاً راقياً، فإنه يجب أن يكون جزءاً من التغليف أو النموذج العام للكون. وقد يحتج بعضهم بأن الكون هو مجال الطاقة وأن كل مايوجد فيه هو جزء مكوِّن لهذا الحقل الكلي

إن هذه الطاقة التي يمكن قياسها، لها نظام، وليست ظاهرة غريبة منفصلة، ولكنها ميزة أساسية للكون.

ومن المهم أيضاً بالنسبة لنا أن نصف تجارب العالم بالجراثيم، أوتو ران، التي استشهد بها بيتر ثومبكنز وكريستوفر بيرد في كتاب سر الحياة والنبات لأنها تساعدنا على فهم التجربة التي أنجزناها ببذور ممغنطة، وبهذا أدركنا أنها تتلقى طاقة كهرطيسية مميزة من كل كائن إنساني في حالة انفعالية من الغضب، وأثناء الطمث، وفي غيابه، كما سنرى فيما بعد في الجزء التجريبي.

فوجيء البروفسور أوتو ران عندما لاحظ أنه في كل مرة يمرض فيها أحد مساعديه، كان يتسبب في موت خلايا الخميرة التي يقوم بتجاربه عليها. وكان يكفي أن يشير برؤوس

أصابعه إلى النبتة لبضع دقائق لقتل الخلايا النشيطة في هذا الفطر. فأثبت ران أن الجسم البشري ينشر باستمرار طاقة كهرطيسية عن طريق اليدين، وقرنية العين، إلخ، كما ذكر في كتابه الإشعاع اللامرئي للكائنات العضوية.

وفيما يتعلق بالموضوع نفسه، هناك تجارب س .ب. شنشورين من معهد التأليل والقياس الكهربائي في روسيا، كما وصف في كتابه سر الحياة والنبات، الذي بيَّن فيه أن الخلايا يمكن أن "تتحدث" عن طريق رسائل مُشَفَّرَة على شكل شعاع خاص كهرطيسي.

تم، في هذه التجارب، وضع مزرعتين من أنسجة متشابهة، في إنائين مغلقين بإحكام يفصل بينهما جدار زجاجي. ثم أُدخِل فيروس مميت إلى إحدى المزرعتين، فقتل مستعمرة الخلايا التي تقطنها. ولكن المستعمرة في الوعاء الآخر بقيت سليمة تماماً. وعندما استُبدل الجدار الزجاجي الفاصل بجدار من الكوارتز وأُدخل فيروس مميت مرة أخرى إلى إحدى المستعمرتين، شوهد كيف أن كلتا المستعمرتين عانتا من المصير نفسه.

فما الذي قتل المستعمرة الثانية؟

إن الزجاج العادي لايسمح بمرور الأشعة فوق البنفسجية أما بلّور الكوارتز فيسمح بذلك، وبدا لهؤلاء العلماء السوفييت أن مفتاح اللغز يكمن هنا. واستخدموا بعد ذلك عيناً إلكترونية تزداد قدرتها بمُضاعف ضوئي لتسجيل مستويات الطاقة. فاكتشفوا أنه عندما تبقى العمليات الحيوية طبيعية في المزرعتين النسيجتين، فإن الضوء فوق البنفسجي يبقى مستقراً، ولكن، في اللحظة التي تبدأ فيها المستعمرة المخموجة حربها ضد الخمج، كان الإشعاع يشتد. وعلى ضوء هذا، يمكن أن ندرك بوضوح أن هناك مجالاً مترابطاً أو مجالاً دينمياً كهربائياً من الفوتونات الحيوية عند الكائنات الحية، التي تحمل نماذج مميزة من التردد، والتي هي على علاقة متبادلة مع المادة والبيئة من حولها. ويساعدنا هذا على أن نقارب موضوع الوخز بالإبر وغرضنا التجريبي من منظور علمي أكثر.

إن الوخز بالإبر هو واحدة من أولى طرق تنظيم الطاقة الحيوية، ومن المعروف على نطاق واسع أن شفاء الجسم يعتمد على تحديد باحات معينة من الجلد ومعالجتها. وتسمى هذه الباحات نقاط الوخز بالإبر، التي من خلالها تثار نقاط معينة، بالإبر، أو الحرارة، أو الضوء، أو تيار كهربائي، إلخ، لإحداث بعض التأثيرات على عملية تنظيم الطاقة في الكائن العضوي بلغة التأثير العلاجي. وقناة الطاقة التي تربط نقطة محددة بعضو ما أو بعملية ما وظيفية تدعى

الزوالية[1] meridian. ووفقاً لمبادىء الوخز بالإبر، هناك 12 زوالية، ترتبط كل منها بعضو خاص ولها مسار عبر الكائن العضوي، وهو ماسوف ندرسه فيما بعد:

الزوالية	العضو	المســـــــــــار
الرئة	الرئة	يبدأ من منطقة تحت عظم الكتف وينتهي في الإبهام.
المعى الغليظ	المعى الغليظ	يبدأ عند رأس السبابة وينتهي عند مستوى المنخر.
المعدة	المعدة	يبدأ فوق الحاجب وينتهي في الأَبْخَس[2] الثاني.
الطحال/المثكلة	الطحال/المثكلة	يبدأ في الأُبْخَس الكبير وينتهي تحت الإبط.
القلب	القلب	يبدأ في الإبط وينتهي عند رأس الخنصر
المعى الدقيق	المعى الدقيق	يبدأ في الطرف الداخلي لظفر الخنصر وينتهي أمام الأذن
المثانة	المثانة	يبدأ من الزاوية الداخلية للعين وينتهي عند طرف الأُبْخَس الصغير
الكلى	الكلى	يبدأ أسفل القدم وينتهي تحت عظم الكتف.
الدوران والجنس	الدوران والجنس	يبدأ في الصدر عند مستوى الثدي وينتهي في الإصبع الوسطى.
المُسَخِّن الثلاثي	المُسَخِّن الثلاثي	يبدأ عند طرف حلقة الإصبع وينتهي في الصدغ.
الكبد	الكبد	يبدأ في الأُبْخُس الكبير وينتهي في الحيز الثامن بين الأضلاع.
المرارة	المرارة	يبدأ في الزاوية الخارجية للعين وينتهي في سُلامى الأُبْخُس الرابع.

وتختلف نقاط الوخز بالإبر عن المناطق المحيطة لأن الجلد فيها أقل مقاومة.

يؤكد بوب، على غرار بريبرام والعلماء الآخرين، أن المعلومات لاتُختزَن فقط في الدماغ بل في كامل الجسم. فالذكريات تُختزَن بشكل تجسيمي (الصورة التجسيمية هي صورة

1-الزوالية: خط الطول، وتجمع إلى زواليات-المترجم.

2-الأَبْخَس: إصبع القدم وتجمع إلى أباخس-المترجم.

ثلاثية الأبعاد تتشكل بتداخل شعاعين ليزريين ميزتهما الرئيسة هي أنهما جزء واحد يحتوي معلومات الكل). ولاحظ بوب في مجال وخز الإبر الكهربي أن نقاط وخز الإبر في كامل الكائن العضوي تحتوي على معلومات كامل الزوالية. وهذه النقاط لاتستجيب إفرادياً للإثارة الكهربائية بل بصورة مشتركة، أي، بالترافق والتفاعل مع باقي النقاط. ويمكن أن يحدث هذا فقط إذا كان هناك مجال مترابط بقوة من الفوتونات الحيوية. إن زواليات الوخز بالإبر هي نماذج من قنوات مفضلة للموجات لنقل المعلومات على نحو أفضل، أي، من خلال قنوات كهرطيسية صرف.

ووفقاً لما أورده الدكتور بودو كوهلر في كتابه علم الطب الكمي، فإن ذرى موجات الفوتونات الحيوية يمكن أن تمثل نقاط وخز الإبر. وعندما تصطدم هذه الموجات بأطراف الجسم (قدمين، يدين، أذنين)، فإنها تنعكس في هذه السطوح المحدودة وتشكل موجات ساكنة. وهكذا تكون هذه الأعضاء الطرفية من الجسم مناطق انعكاس يبرز فيها كامل الجسم البشري.

استطاع الدكتوران جان كلاود داراس و دو فيرنجول أن يثبتا في كتابهما الإنسان الكهرطيسي (نشرته مطبعة سانت مارتن) أن الطاقة الكهرطيسية تنتقل عبر الزواليات. وسنعرض فيما يلي وصفاً موجزاً لتجاربهما. لقد قاما بحقن قائف[1] فعال شعاعياً (محلول يحتوي على نظير مشع، كالتكنتيوم 99) إلى نقطة وخز الإبر، وباستخدام كاميرا غاما (أداة لاكتشاف أشعة غاما، الفوتونات)، فشاهدا أن المادة المشعة انتقلت عبر الزواليات بسرعة $1\frac{1}{2}$-2 إنشاً/د. وعلى العكس، كانت سرعة هذه المادة بطيئة أكثر في زوالية العضو المريض.

2- المتغيرات التجريبية

ولإجراء التجارب، تم اختيار مكان تتوفر فيه شروط منظمة للحرارة والرطوبة وبيئة خالية من تدخل الأدوات الكهربائية والمغنطيسية. وكان تم اختيار نقطة الوخز بالإبر وتدعى لمْفا lymph، التي تنصح بها طريقة الفيجاتيست، لأنها تعكس الحالة العامة لكائن العضوي. وقد أوليَت عناية خاصة بحيث أمكن الحصول على درجة القياس نفسها، أي، بقيت

1- الجمع "قافة"، وهو عنصر استشفافي يمكن تتبع مساره خلال العمليات البيولوجية أو الكيميائية بفضل نشاطه الإشعاعي-المترجم.

قيمة القياس ثابتة عندما تكرر تطبيق الضغط نفسه بقلم القياس على مركز النقطة. وقد جرى تنظيم رقم البدء عند 80 وحدة قياس لمختلف الناس، بحيث كانت المَعْلَمَة البدئية هي نفسها بالنسبة للجميع. ويمكن تحقيق هذا بمنظّم TP الموجود في آلة الفيجاتيست، الذي يزيد الحساسية دون تغيير تيار القياس. يجب على المرضى أن ينزعوا الحلى لكي لاتتغير القياسات وعلى المعالج أن يستخدم قفازاً بلاستيكياً لكي لايتدخل في عملية القياس.

3-الإجراءات التجريبية

أحاول من خلال هذا العمل أن أثبت مايلي بصورة تجريبية:

أ-يحمل دم الطمث تركيزاً قوياً من الطاقة السّمّية، والجماع أثناء الطمث يخلّف آثاراً سمّيّة على الجسم البشري.

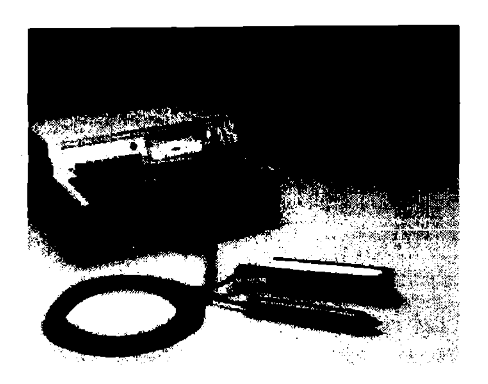
ب-تعمل المادة السرية بشكل ملحوظ، وعلى خلاف الجماع الطبيعي، على كبت الدفاعات العضوية بسبب الضياع الملحوظ للطاقة.

ج-تتميز الطاقة الكهرطيسية التي يقذفها الجسم عن طريق الشرج بطبيعة سمّيَة ومُلوِّثة، ولهذا، فإن الممارسة المعروفة بـ "الجماع الشرجي" تخلّف تأثيرات سامة قوية.

د-يُنتج الجسم وينشر، في حالات انفعال الغضب والتخريب، طاقة مغنطيسية سامة ومدمرة.

استخدمنا الكلمة "سمّي" لنشير ليس إلى مادة تسمم الجسم كيميائياً، بل بمعنى أنها تسبب تغييراً في مجال الفوتونات الحيوية، وبالتالي، تحول دون النقل المناسب للمعلومات، الذي يؤدي في النهاية إلى حالة من المرض أو التغيير. ولإنجاز قياسات الطاقة الكهرطيسية في الجسم البشري، استخدمنا الجهاز الكهربي للوخز بالإبر الذي يسمى فيجاتيست، الذي يقيس درجات الوخز.

يجري حالياً بحث واسع حول الوخز بالإبر، لكي يتوصل العلم إلى معرفة أفضل لهذا الإجراء. وتسجل طريقة الفيجاتيست التغيرات في مقاومة الجريان الكهربائي في نقاط الوخز بالإبر التي تقع في الأصابع والأباخس عندما توضع في دارة ثَوالٍ مواد معينة في أنابيب زجاجية. والوحدة المركزية في هذه الدارة هي مضخِّم للقياسات يحول قدرة التوصيل في الجلد إلى إشارة بصرية وصوتية (مؤشر). في التجربة، يمسك المريض بيده اسطوانة مطلية بالفضة ويضع اليد الأخرى على طاولة لقياس الدرجة. ويُنجَز هذا القياس بقلم ضغط، وهكذا يتم إغلاق الدارة.



جهاز فيجاتيست لقياس الطاقة الكهرطيسية.



طريقة تسجيل تغيرات المقاومة للجريان الكهربائي في نقاط الوخز بالإبر بجهاز الفيجاتيست.

وعلى هذا النحو، نقوم بقياس بسيط لجريان تيار بقوة 10 وحدات قياس، ينتقل من رؤوس الأصابع والأباخس، مروراً بمختلف المسارات المعقدة عبر الجسم ويغادر عن طريق مسرى اسطواني إلى مضخِّم. وسنلاحظ أي تغيير عن طريق المؤشر والإشارة الصوتية. كهربائياً، هي دارة قنطرة هْويتْسْتون، والمؤشر الرئيس للكهرباء هو "مكبح التشوش" المعروف، الذي يسجل أي تغيير في القياس حسب المادة التي يتم إدخالها إلى الدارة (لوحة على الجهاز)، ويشير إلى تسجيل أعلى أو أدنى حسب المادة المستخدمة. فإذا أدخلنا مادة سامة، فإننا نتوقع دائماً أن يسجل رقماً أدنى. فعلى سبيل المثال، يمكن اكتشاف الخلل في وظيفة الكبد إذا وضعنا أنبوب المعالجة المثلية الذي يحتوي على النسيج الكبدي في اللوحة وتقاس الدرجة نفسها مرة أخرى. فإذا كان هناك تسجيل منخفض، فإن هذا يشير إلى خلل في وظيفة الكبد. ومن المعروف أن نقطة الوخز بالإبر سلبية كهربائياً بالنسبة للجلد حولها. نضع الطرف السلبي للدارة على النقطة، وعندما تلغي الشحنات المعاكسة نفسها، فإن القوة الكهرطيسية لنقطة الوخز بالإبر يجب أن تتوازن، وعندئذ، نقيسها بالفيجاتيست. ولهذه الغاية، يتوجب دائماً إعادة شحن القوة الكهرطيسية للنقطة، التي تعمل كحاشدة، وإذا لم نفعل ذلك، فإن مؤشر الفيجاتيست سيبدأ بالهبوط. ويُفترَض أن إعادة شحن نقطة الوخز بالإبر يسببها جريان طاقة الفوتونات الحيوية التي تدور في الزوالية نفسها. ومقدار التوتر الكهربائي في نقطة معينة يعكس مستوى طاقة العضو المرتبط بزواليته.

يمكن توضيح التشخيص الذي ينجزه الفيجاتيست من خلال ظاهرة الرنين. وتحدث هذه الظاهرة عندما يتم إحداث مدة اهتزاز شبيهة بالمدة المتكونة سابقاً. فعلى سبيل المثال، إذا كان لدينا آلتا كمان منفصلتان عن بعضهما وقمنا بـ "دوزنتهما" إلى الطبقة نفسها، فعندما نمس أوتار إحداهما، فإنها تبدأ بالاهتزاز وترسل صوت نغمة وستتلقى الآلة الأخرى هذه الموجة فترسل الصوت نفسه.

أ-قياس دم الطمث: يعتمد هذا الإجراء على مقارنة دم الطمث مع دم طبيعي من الأوردة، لإثبات أن دم الطمث يمارس تأثيراً "سمِّيّاً" على جسم الإنسان، على خلاف الدم من الأوردة. وقد تم قياس النقطة اللمفية لضمان أن الفيجاتيست أعطى قيمة ثابتة، أي، أن القياس الأولي بقي ثابتاً عند 80 وحدة قياس، قبل وضع الأنبوب في اللوحة. وبعدئذ، تم سحب دم الوريد من الذراع ووُضع في أنبوب زجاجي. وسُحب دم الطمث أيضاً من المهبل مباشرة بواسطة محقنة (دون إبرة)، ثم أُفرِغ إلى أنبوب زجاجي آخر. وبعد هذا، وُضع الأنبوب الذي يحتوي على دم الطمث في اللوحة وتم قياس النقطة اللمفية، فكانت القيمة الوسطية 25 وحدة قياس. وتم تنفيذ الإجراء نفسه بالنسبة للأنبوب الذي يحتوي على الدم الوريدي، والماء المقطر، والكلور (مادة سامة بالنسبة للكائن العضوي).

جاءت معدلات القيم المتحصلة مختلفة جداً بين المادتين المختلفتين، حيث وصلت إلى 80 وحدة قياس للدم الوريدي والماء المقطر وإلى 25 وحدة قياس للكلور، ولدم الطمث. وكان هذا الإجراء قد طُبِّق على ثلاثين امرأة. وتظهر النتائج في الجدول 1 والرسم البياني 1.

قمنا أيضاً بتجربة لزرع بذور ممغنطة أثناء الطمث وخارجه. تركنا جانباً المجموعة المحايدة من البذور غير الممغنطة. وأردنا ، بهذه الطريقة، أن نعزز النتائج التي حصلنا عليها من التجربة الأولى. اخترنا بذور القمح بعد مغنطتها لمدة سبعة أيام ورحنا نضعها في الأيدي لمدة خمس دقائق يومياً. وقبل الزرع، قمنا بقياس البذور بالفيجاتيست الموضوع في قوارير زجاجية صغيرة بتطبيق الإجراء نفسه الذي طبقناه لقياس الدم.

واكتشفنا أن البذور الممغنطة أثناء الطمث أعطت قيمة 20 وحدة قياس، وهي قيمة مماثلة للقيمة التي أعطاها دم الطمث. وبعدئذ، قمنا بقياس البذور التي مُغنِطَت خارج دورة الطمث، فأعطت قيمة 70 وحدة قياس، وهي قيمة مشابهة أيضاً للقيمة التي أعطتها البذور المحايدة (غير الممغنطة). زرعنا كل البذور، ورحنا نقارن بينها أثناء عملية النمو، فوجدنا أن

هناك اختلافاً ملحوظاً في بنية النمو بين البذور الممغنطة أثناء دورة الطمث وتلك الممغنطة خارجها. فقد كان نمو بذور المجموعة الأولى بطيئاً في حين كان نمو بذور المجموعة الثانية أكثر سرعة وقوة. وكان نمو بذور المجموعة المحايدة طبيعياً. تلقت المجموعات الثلاث من البذور القدر نفسه من الماء، والضوء بقدر ماكانت درجة الحرارة معنية.

ب- قياس الطاقة الضائعة في العادة السرية:

تم تقسيم التجربة لقياس مجموعة مؤلفة من عشرة رجال مارسوا العادة السرية لمدة يومين إلى ثلاث مراحل. ففي المرحلة الأولى (صباحاً)، تم قياس نقطة تتصل بالدوران وزوالية الجنس، إضافة إلى نقطة تتصل بالكلى. وقد جرى اختيار نقطة الكلى لأن الكلى تنتج معظم الطاقة التي تزود المركز الجنسي، وفقاً للنظرية الصينية حول الوخز بالإبر.

وفي المرحلة الثانية، أعيد المريض بعد ساعتين من عملية الاستمناء، وتم إجراء القياس نفسه. وأخيراً جاء في اليوم التالي، وفي الصباح أيضاً، في الوقت نفسه الذي جرى فيه القياس الأول، وتكرر إجراء القياسين الأولين. وفي المرحلة الثالثة من القياس، ارتدى الطبيب المعالج قفازاً جراحياً بهدف عزل نفسه كهربائياً عن المريض، ولكي يضمن عدم حدوث تغير في القياس. وتظهر النتائج في الرسم البياني 2.

ج- قياس الطاقة الكهرطيسية في الشرج: نهدف في هذه التجربة إلى إثبات أن الطاقة المنتشرة من الشرج هي أيضاً ذات طبيعة "سمِّيَّة" بالنسبة للكائن العضوي، بمقارنة قيمة التحميلة قبل إدخالها إلى الشرج وبعده. وبهذا الخصوص، تم قياس النقطة اللمفية دون استخدام أنبوب، فسجل القياس 80 وحدة قياس، وبعدئذ، أُدخلَت تحميلة غير مشحونة باستخدام أنبوب، وأعطت أيضاً 80 وحدة قياس. هنا، طُلِب من المريض أن يحتفظ بالتحميلة لمدة 15 دقيقة، لكي تُشحَن بالإشعاع المنطلق من الشرج. ثم وُضِع الأنبوب في اللوحة فأعطى قيمة وسطية مقدارها 30 وحدة قياس. تم تطبيق هذا الإجراء على خمسة رجال وخمس نساء، فأعطي الجميع النتائج نفسها، تظهر في الجدول 4 والرسم البياني 4.

د-قياس البذور الممغنطة في ظل مشاعر الغضب: استخدمت في هذا القياس مجموعة من ثلاثين شخصاً، أُعطي لكل منهم حفنة من البذور. حمل الأشخاص البذور بأيديهم (غير مغلفة) ومغنطوها لمدة سبعة أيام، بمعدل خمس دقائق في اليوم، بالترافق مع مشاعر الغضب. وعندما انتهت هذه المرحلة، تم قياس النقطة اللمفية. جرى أولاً قياس النقطة ببذور حيادية (غير ممغنطة)، فأعطت قيمة وسطية مقدارها 80 وحد قياس، ثم قيست النقطة نفسها ببذور كانت مُغنطَت مع مشاعر الغضب، فإعطت قيمة وسطية مقدارها 40 وحدة قياس، تظهر في الجدول 5.

ولكي يفهم المرء التجارب المختلفة التي أجريناها، عليه أن يتذكر ماقلناه في الفصل الأول، الذي فيه حللنا حقيقة أن الجسم البشري ينشر دائماً طاقة كهرطيسية من خلال مختلف عملياته النفسية، وأن نوعية هذه الطاقة وكميتها تعتمدان على عوامل كالبيئة، والغذاء، والحالات النفسية والعاطفية عند الفرد. وفي هذه الحالة، هذا هو السبب في أن الطاقة التي تصدر عن اليدين تتمتع بالصفات الفعالة للعاطفة التي تنتقل بصورة اختيارية إلى البذور.

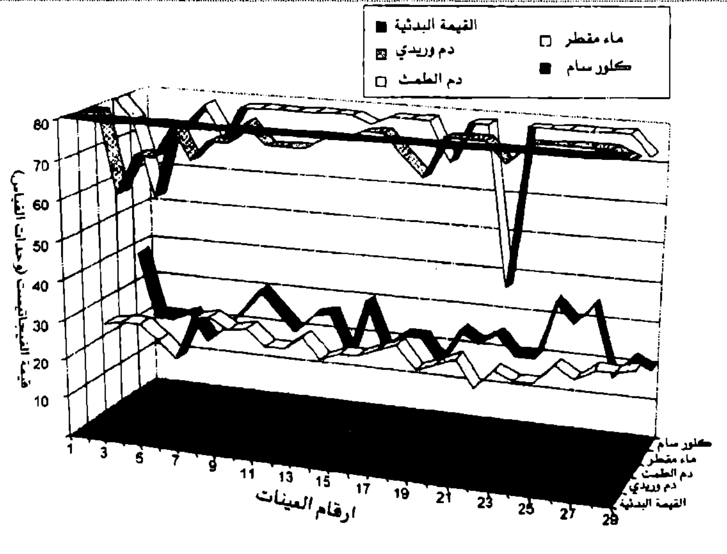
4-نتائج التجربة

ونورد فيما يلي النتائج التي حصلنا عليها من التجارب المختلفة بالتفصيل في جداول ورسوم بيانية تابعة لها:

الجدول-1 : مقارنة الدم الوريدي مع الدم الطمثي

رقم العينة	النقطة المقاسة	القيمة الأولية	الدم الوريدي	الدم الطمثي	ماء مقطر	كلور
1	1	80	80	23	80	37
2	1	80	80	24	75	20
3	1	80	60	24	55	20
4	1	80	70	20	72	22
5	1	80	70	16	75	15
6	1	80	78	27	80	19
7	1	80	70	28	72	24
8	1	80	75	25	80	30
9	1	80	75	26	80	25

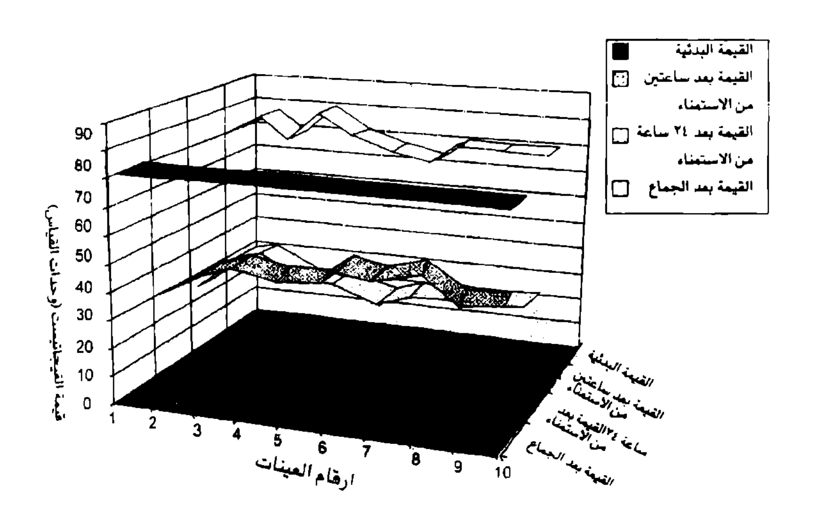
20	80	22	80	80	1	10
25	80	22	75	80	1	11
26	80	25	75	80	1	12
15	80	20	75	80	1	13
30	80	22	78	80	1	14
18	78	22	78	80	1	15
22	80	24	80	80	1	16
22	80	26	80	80	1	17
16	80	20	75	80	1	18
25	70	22	70	80	1	19
22	80	24	80	80	1	20
25	80	17	80	80	1	21
20	40	22	80	80	1	22
20	80	20	75	80	1	23
35	80	20	80	80	1	24
30	80	25	80	80	1	25
35	80	22	80	80	1	26
17	80	25	80	80	1	27
22	80	25	80	80	1	28
20	75	26	78	80	1	29



الرسم البياني-1: دم الطمث مقارنة بدم الوريد.

الجدول-2: نتائج مقارنة بين الاستمناء والجماع، قيست عند النقطة 15 (الدوران والجنس)

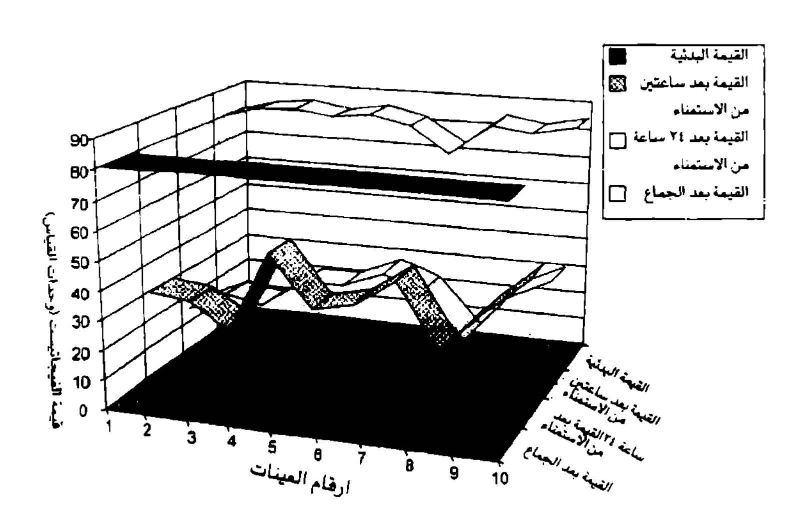
رقم العينة	النقطة المقاسة	القيمة الأولية	القيمة بعد ساعتين من الاستمناء	القيمة بعد 24 ساعة من الاستمناء	القيمة بعد الجماع
1	15	80	29	24	80
2	15	80	38	36	89
3	15	80	43	41	79
4	15	80	41	30	91
5	15	80	40	34	84
6	15	80	50	26	78
7	15	80	47	32	74
8	15	80	50	30	81
9	15	80	40	32	80
10	15	80	44	37	80



الرسم البياني-2: المقارنة بين الاستمناء والجماع الطبيعي (النقطة 15).

الجدول-3: نتائج مقارنة بين الاستمناء والجماع كما قيست عن النقطة 2 (الكلية)

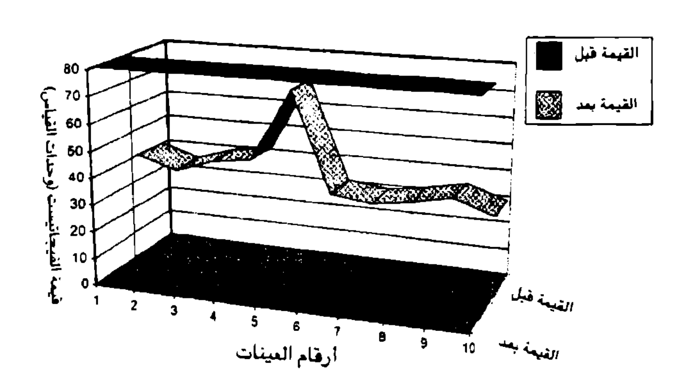
رقم العينة	النقطة المقاسة	القيمة الأولية	القيمة بعد ساعتين من الاستمناء	القيمة بعد 24 ساعة من الاستمناء	القيمة بعد الجماع
1	2	80	30	15	80
2	2	80	30	15	84
3	2	80	19	20	85
4	2	80	48	30	83
5	2	80	30	30	85
6	2	80	33	36	82
7	2	80	43	31	73
8	2	80	20	15	84
9	2	80	35	32	82
10	2	80	48	39	85



الرسم البياني-3: المقارنة بين الاستمناء والجماع الطبيعي (النقطة 2).

الجدول -4: القياس في الشرج

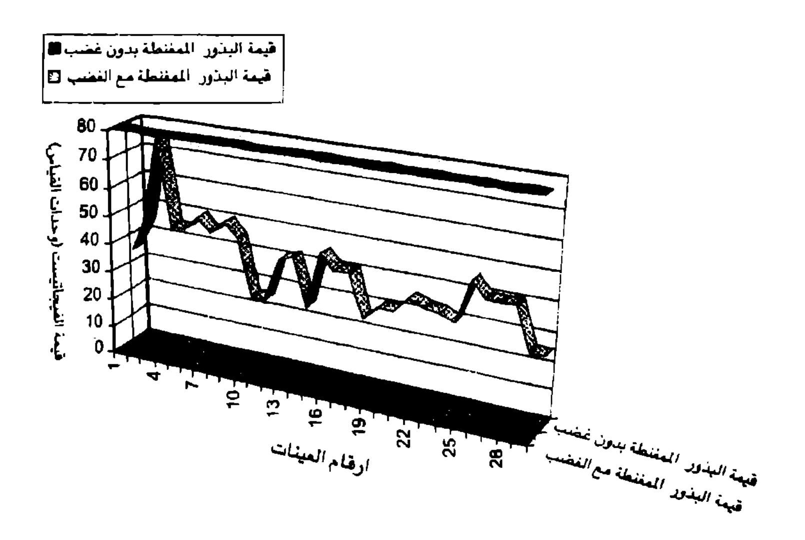
رقم العينة	النقطة المقاسة	القيمة قبل إدخال التحميلة في الشرج	القيمة بعد إدخال التحميلة في الشرج
1	1	80	40
2	1	80	35
3	1	80	40
4	1	80	42
5	1	80	70
6	1	80	32
7	1	80	30
8	1	80	32
9	1	80	35
10	1	80	30



الرسم البياني-4: مقارنة الشحنة الكهربائية في التحميلة قبل وبعد إدخالها في الشرج.

الجدول 5: قياسات البذور

رقم العينة	النقطة المقاسة	قيمة البذور قبل المغنطة	قيمة البذور بعد المغنطة
1	1	80	34
2	1	80	45
3	1	80	75
4	1	80	45
5	1	80	45
6	1	80	50
7	1	80	45
8	1	80	50
9	1	80	45
10	1	80	25
11	1	80	25
12	1	80	40
13	1	80	42
14	1	80	25
15	1	80	45
16	1	80	40
17	1	80	40
18	1	80	25
19	1	80	30
20	1	80	30
21	1	80	35
22	1	80	33
23	1	80	32
24	1	80	30
25	1	80	45
26	1	80	40
27	1	80	40
28	1	80	40
29	1	80	25
30	1	80	25



الرسم البياني-5: مقارنة البذور الممغنطة في ظل مشاعر الغضب ودون هذه المشاعر.

5-دراسة النتائج

وبصورة عامة، يمكن أن ندرك من النتائج السابقة التي أوضحناها في الفصل السابق أن هناك مكوِّناً "ضاراً أو ساماً" بالنسبة لجسم الشخص نفسه، وبالنسبة لمن يتفاعلون معه أثناء دورة الطمث، وعند الخضوع لمشاعر الغضب، وأثناء الجماع الشرجي. وفي حالة الاستمناء، يكتشف المرء نقصاً ملحوظاً في الطاقة الكهرطيسية لدى الشخص الذي يخضع للدراسة.

وكما يمكن أن نتوقع، فإن القيم المسجلة بالفيجاتيست منخفضة، حيث كان معدل النقص 60٪ بخصوص القيمة البدئية. وقد حدث هذا عندما كانت المواد المقاسة ضارة للجسم.

يمكن أن نرى في الرسم البياني 1 أن القيمة متماثلة في الدم من الأوردة والماء المقطر، وهي قريبة للقيمة البدئية التي هي 80 وحدة قياس. وعلى العكس، إن منحنى الدم الطمثي مماثل لمنحنى الكلور، الذي يسجل قيمة أقل بكثير، مما يُظهر أن دم الطمث ضار عند المستوى الطّاقيّ (لأنه يملك تردداً هو في المدى الذي يحدث فيه المرض)، بالمعنى الذي فيه يغيّر مجال فوتوناتنا الحيوية، مما يؤدي إلى المرض. وتُظهر هذه النتيجة أن الجماع أثناء دورة الطمث يخلّف نتائج ضارة على الجسم البشري.

ويُظهر الرسمان البيانيان 2 و 3 هبوطاً في القيمة التي تحدث في نقطتي وخز الإبر 15 و 2 بعد الاستمناء، ويكشفان أيضاً عن زيادة في طاقة هاتين النقطتين بعد علاقات جنسية طبيعية. ويُظهر الرسم البياني 2 أن المنحنى الذي يتوافق مع ساعتين بعد الاستمناء يكشف نقصاً قدره 47.25٪ بخصوص القيمة البدئية ونقصاً مقداره 59.75٪ بعد 24 ساعة. ويُظهر الرسم البياني 3 اختلافاً مقداره 57.5٪ بخصوص القيمة البدئية واختلافاً مقداره 66.3٪ بعد 24 ساعة. ولا يحدث الشيء نفسه مع العلاقات الجنسية الطبيعية، لأن تبادلاً للطاقة يحدث في هذه الحالة، بزيادة 2.8٪ فيما يتعلق بالقيمة البدئية في النقطة الأولى و 2٪ في الأخرى.

ويمكن أن نرى في الرسم البياني 4 أن المنحنى المتكون مع قيمة التحميلة المولجة إلى الشرج أدنى بكثير من القيمة البدئية، مما يثبت الطبيعة الضارة للجماع الشرجي.

يظهر الرسم البياني 5 أن قيمة المنحنى الذي يتوافق مع البذور المغنطة مع مشاعر الغضب من قيمة منحنى البذور الطبيعية. وتُظهر هذه النتيجة أن حالة انفعالية كالغضب هي أيضاً مؤذية بالنسبة للبيئة المحيطة بقدر ماهي مؤذية للجسم الذي يولّد الغضب.

من منشورات دار علاء الدين

- الإعداد للقرن الواحد والعشرين
بول كينيدي
- الدقائق الثلاث الأخيرة
بول ديفز
- الله والعقل والكون
بول ديفز
- القوة العصبية
بول س. بريغ
- مختارات في الخير والشر
تورفالد دتلفزن
- الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية
ج. كورتوا
- الثوابت الفيزيائية ودورها الكوني
جليس كوهن-تانودجي
- من أسرار المشاعر الإنسانية
جهينة الحموي
- ١٠١ قضية علمية مجهولة لا نعرفها
جيمس تريفل
- قوة العقل
جيني سكوت
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
د. خالد صناديقي
- إشكالية الشر
د. هاني نصري
- مشكلة الإيمان والعلم في الفلسفة العربية
ي ا. فرولوفا
- موسوعة الصحة والباراسيكولوجيا
يوري إيفانوف
- الجدل حول صهيون
دوغلاس ريد
- طاقة بيتك
الكسندر بيريغين، نتاليا بيريغينا
- الحياة بعد الحياة
رايموند ماودي
- تشخيص الكارما
س. ن. لازاريف
- السيكولوجيا وعلم الجمال
ل. س. فيغوتسكي
- إدارة الوقت
لوثر جي سيوارت
- ما هو الكون شعرية العلم
م. فايز فوق العادة
- أسرار الكون تحقيقات وشواهد عدة علماء
مجموعة من المؤلفين
- الأنثروبولوجيا الاجتماعية
محمد الخطيب
- الفكر الإغريقي
محمد الخطيب
- المجتمع العربي القديم
محمد الخطيب
- الكون كما يراه علماء الأرض
ن. ا. بريمنكو

من منشورات دار علاء الدين

- علم النفس الاجتماعي في الحضارة الصناعية العلاقات الإنسانية
  د. جيمس براون
- إكليل الشوك الروسي التاريخ السري للماسونية ١٧٣١ ١٩٩٦
  و. ا. بلاتونوف
- الخير والشر لعبة الثنوية دراسة القوى الداخلية في الذات
  فلاديمير جيكارنتسف
- نظرة في أعماق النفس دراسة القوى الداخلية في الذات
  فلاديمير جيكارنتسف
- سيناريو لحرب عالمية ثالثة كادت اسرائيل ان تكون مسببة لها
  أوليغ غرينيفسكي
- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
  جان كلود مارغرون
- رحلة الأرواح دراسات لحالات عن الحياة بين الحيوات
  د. ميشيل نيوتن
- فن إدارة الاجتماعات كيف تحقق ما تريد في الوقت الذي تريد
  ديفيد مارتن
- رقعة الشطرنج العظمى التفوق الأمريكي وضروراته الجيوستراتيجية
  زبيغنييف بريجنسكي
- من أسرار العقل الاستبصار التجارب خارج الجسد الأشباح الضاجة
  غدويس و غروست
- دين الإنسان بحث في ماهية الدين و منشأ الدافع الديني
  فراس السواح
- اشف نفسك ذاتياً الأسباب النفسية للأمراض والطرق الميتافيزيقية
  لويزا خي
- تشجود شي أصول المعارف الطبية عند حكماء التيبت القدماء
  م.فسميرنوفا
- الشرق الأوسط عام ٢٠١٥ من منظور امريكي
  جوديث س. يافيه